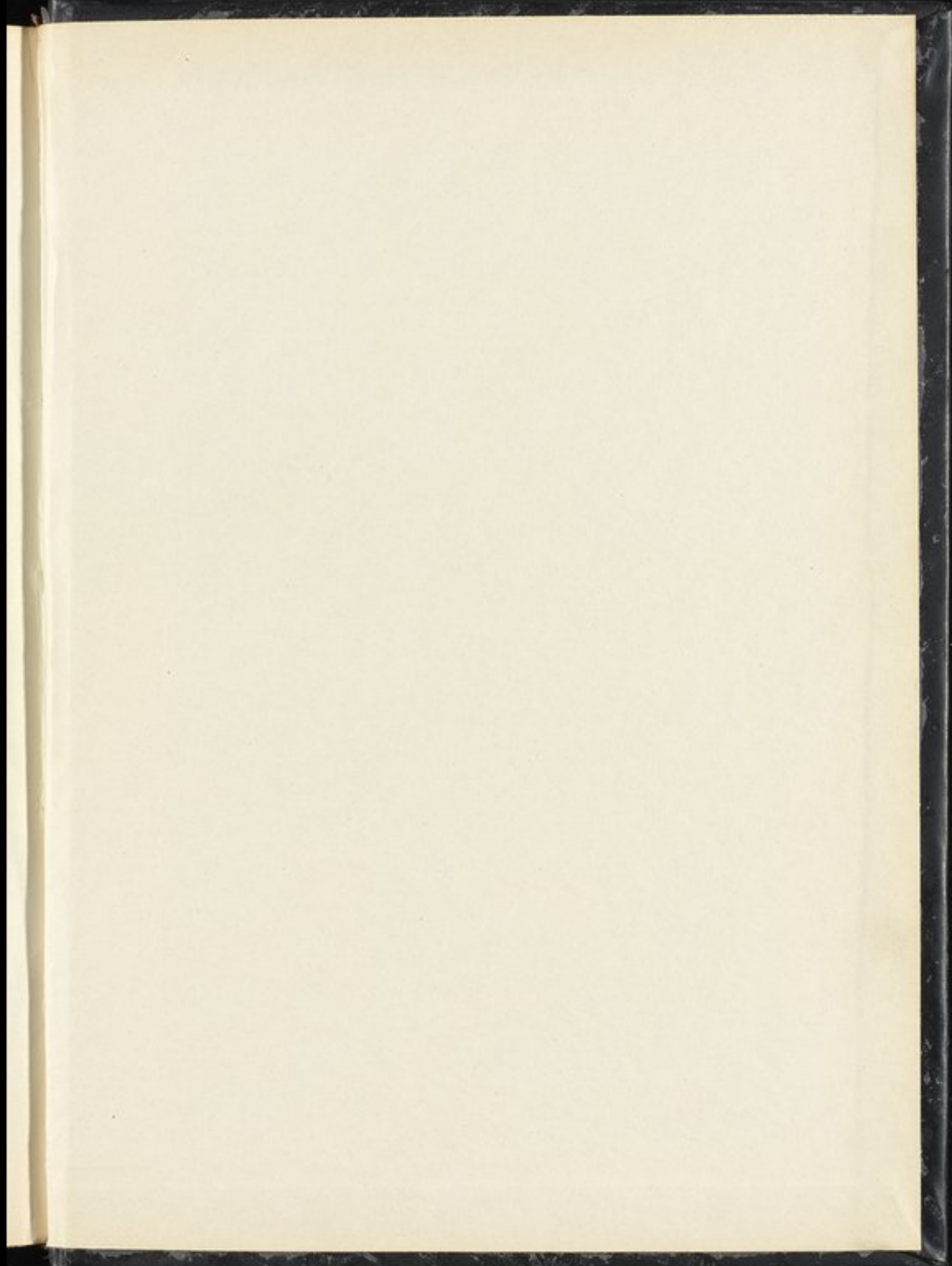


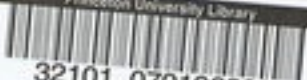
الْحَوَالِمُ  
فِي تَفْسِيرِ  
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

٦٥

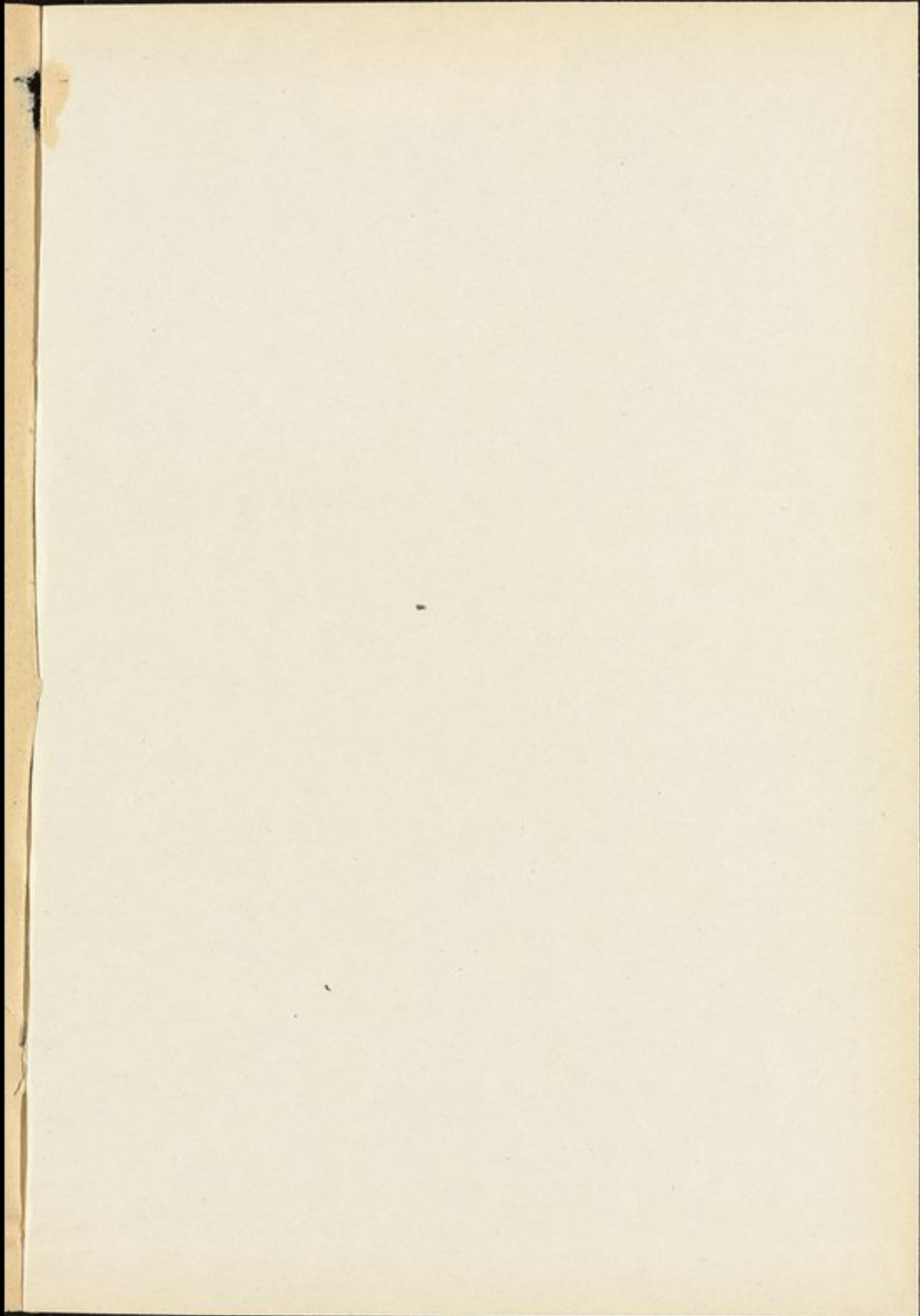
دارُ مكتبة وطلعة  
بمصر  
١٩٥٠



Princeton University Library



32101 079196208



الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

لشمس علي عجمي بفتح المعجمة واخرها لادبا اباهرا

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوي جوهرى  
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا  
مع الله المسلمين بجمانة آمين

الجزء الخامس

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بطبعة

مضطفي الباني الحلبي وأولاده بمصر

(ARAB)

BP130

4

527

5-6

[ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ]

قرآن كريم

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية وهي ست وسبعون آية

وهي تشتمل على خمسة أقسام

[ القسم الأول ] من أول السورة إلى قوله « ورزق كريم » في صفات المؤمنين الكاملين .

[ القسم الثاني ] في ذكر غزوة بدر من قوله « كما أخرجك ربك » إلى قوله « وأن الله مع المؤمنين »

[ القسم الثالث ] في وصايا ومواظب للمسلمين من قوله « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله » إلى

قوله « والله ذو الفضل العظيم » .

[ القسم الرابع ] في ذكر ضلالات الكفار وخبائثهم مع وعيدهم وزجرهم من قوله تعالى « وإذ يأمركم

بأن الدين كبروا » إلى قوله « نعم المولى ونعم النصير » .

[ القسم الخامس ] في قصة الغنائم ، وكيف يعامل الأسرى . وصايا عامة في الحرب والاحتباس من

الأعداء من قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء » إلى آخر السورة .

### مقدمة السورة

اعلم أن الله عز وجل لما أبان في سورة البقرة الأحكام الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وجعل آل عمران للدلالة على الله وإزالة الشبهات عن رسالة بعض الأنبياء وأكمل في سورة النساء الأحكام التي في البقرة فبين البراث وأحوال الأزواج والأقرب وأتمها بالمائدة ذات الفائدة مبينة ما يحل من الصيد وما يحرم وجعل الأنعام ميدان الحكمة والعلم . والأعراف لتعريف زوال الملك وموت المالك التي نام ملوكها وشذ أفرادها عن النهج القويم فهلكت مدتهم بعد أن بارت تجارتهم . ولما انتهى الكلام إلى هذا اللقمة تناسب أن يؤتى بعدها بسورة الأنفال ليؤسس مجدا إسلاميا جديدا ويرفع شأن أمة جديدة ويبني لها صرحا على أنقاض الأمم السالفة في (سورة الأعراف) . فهو عز وجل يقول لقد « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » كما جاء في سورة المائدة ، وذلك لم يكن إلا بعد أن شرع في البقرة كثيرا من الأحكام الشرعية . وكذا في (سورة النساء) .

وأبان في آل عمران النصرانية والإسلامية . وأبان في الأنعام المحرمات والمهللات . وفي الأعراف ذكر القصة التي استبان فيها كيف تكون سيئات الأخلاق من أسباب الفضيحة والحرام . وكيف تصبح ديار الأمم قانا صفصفا متى زاعت عقائد أهلها وتولوا عن النصائح وأعرضوا عن القويمات الصحاح وبغسوا الناس أشياءهم وعثوا في الأرض فسادا وبغوا وطمعوا . هنالك تفرعهم الفارعة وتنزل عليهم الساعة وتمحقهم للملاحقة وتدرم حصيدا خامدين . هذا هو المقصود من سورة الأعراف .

وإذا كان هذا هو المثل القديم للأمم العابرة . فقد ذكر سورة الأنفال والتوبة بعد ذلك ليبين للمسلمين كيف نفى الأمم وتبيد ويقول ها أنذا فعلت بالأمم السالفة وقد أنتمم قوتكم وأعطيتكم خلافة الأرض ومكنت لكم فيها وجعلتكم خلفاء لأهلها فلكم فارس ولكم الروم ، فلا يبين لكم في سورة الأنفال والتوبة معاملتكم مع الأمم وكيف غاربون وتماهدون . وإياكم أن يفرحكم أنى جعلتكم أقوياء فإذا تكبرتم وأبيتم فاقروا الأعراف إن شقتم ويونس وهودا إن أردتم ولا تفرحكم سورتنا الأنفال والتوبة الدالتان على أن لكم شأنا وأنكم منصورون . فالأعراف ويونس وهودا المكتنفات للأنفال والتوبة تشهدان أن الأرض لله بورنها من يشاء من عباده « وتلك الأيام نداولها بين الناس » وما مثلكم إلا كمثل الأمم قبلكم ، وأنا الحكم العدل . ولذلك لما انصرم الزمان وذهبت تلك الأيام سلطت الفرنجة عليكم كما سلطت أمما ودولا وحوادث جوية وزلازل أرضية على الأمم المذكورة في يونس وفي هود وفي الأعراف .

ولقد تبين صدق هذا المعنى للأخوذ من الترتيب المذكور باجتياح الفرنجة بلاد الإسلام وغلبهم عليهم فساروا في ذلك بعد عزم . وفي شقاء بعد سعدم . وفي شر بعد خير . وفي ضرر بعد نفعهم . « سنة الله التي قد خلت في عباده - ولن نجد لسنة الله تبديلا » وقد آن أن أشرع في تفسير سورة الأنفال . فأقول :

### ( الْقِسْمُ الْأَوَّلُ )

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ \* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ \* أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

#### التفسير اللفظي

اعلم أيها الذي أن هذه السورة مدنية كلها وهي (٧٦) آية . واعلم أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر كيف تقسم ، ومن الذين يستحقونها : المهاجرون أم الأنصار ؟ . وورد أن الشبان تسارعوا إلى الهيجاء فقتلوا سبعين وأسروا سبعين . ثم طلبوا الغنائم وكان المال قليلا ، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كناردها لكم وفئة تنحازون إليها فنزلت الآية وقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء فلم يخص

التيان قتلهم وأسرم الأعداء، ولا الشيوخ لمحافظة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا للهاجرين سبقهم في الإسلام، ولا الأنصار لنصرهم الرسول صلى الله عليه وسلم وإيوائهم النبي والهاجرين. وهذا قوله تعالى (بأولئك عن الأفعال) أي الثناء بمعنى حكمها. وإنما سميت الثغمة ثغما لأنها من فضل الله وعطائه، والنفل في الأصل الزيادة (قل الأفعال لله والرسول) أي أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمر الله به.

وقد علمت أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم سوى بين المهاجرين في القسم وقد نزل بيان القصة بعد ذلك في قوله تعالى «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه الآية» فلك الآية تبيان لكيفية القسم فتكون هذه الآية محكمة كما قاله عبد الرحمن بن زيد.

ولما كان أمر الثنائيم أمرا دنيويا والأمور للادية تنزل بالذوق الإنساني إلى دركات الأخلاق وفتايس الأعمال أخذ سبحانه يردعهم عن ذلك ويردّهم إلى الفضائل الخلقية لأن التماهي في اللذات يقطع الأرحام ويفرق الجماعات ويولد البغض فقال (فاتصوا الله) في الاختلاف والشجيرة والتناؤد والشقاق في حوز الثنائيم (وأصلحوا ذات بينكم) حقيقة وصلحكم أو أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، ولا تصلح أحوال الألفة إلا بالمساعدة واللواصة وتسليم الأمور لله تعالى لا بالمشاكة والشجيرة (وأطيعوا الله ورسوله) فيما أمرتم به في الثنائيم وغيرها (إن كنتم مؤمنين) كالمؤمنين بالإيمان.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «نزلت فينا معاشر أصحاب بدر اختلفنا في النقل وساءت فيه أخلاقنا فزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم قسمه بين المسلمين على السواء». وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر قتل أخى عمير وقتل به سيد بن العاص وأخذت سيفه فأثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبر فطرحته وبني ملاييله إلا الله من قتل أخى وأخذ سبلي فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأفعال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي فأذهب غنمه» اهـ.

ومقتضى هذه الآية أن كمال الإيمان بطاعة الأوامر وإتقاء العاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان ثم أخذ يبين صفات كمال الإيمان فوصفهم بخمس صفات. وهالك بيانها:

(١) أن توجل قلوبهم وتفرغ لذكره استعظاما وتبها من جلاله. وهذا الخوف عند العظة من العامة يكون من العقاب. وعند الخواص يكون من الهيبة والعظمة لأنهم يعلمون عظمة الله فيخافونه أشد خوف فالخوف على مقتضى للراتب. وفي آية أخرى «وتطمئن قلوبهم بذكر الله» والاطمئنان إنما يكون بالمعرفة للذكورة في الصفة الثانية، وهي:

(٢) أنهم إذا نليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانا. فمن كانت الدلائل عنده أكثر كان إيمانه أقوى فالعامة يكفيهم دلائل الدين والقرآن. والخاصة يفكرون في ملكوت السموات والأرض ومجائب النبات والحيوان والإنسان ومجائب هذا الوجود.

ومما يزيد الإيمان عند العائمتين الصادات ومزاولة الأعمال الدينية. ومق كان للرء وجلا من خشية الله موقنا به لتتابع الآيات الكونية والقرآنية على قلبه موكل عليه وفوض أمره إليه. وإليك بيان الوصف الثالث:

(٣) وهو التفويض لله، فلا يخشى إلا هو، ولا يرجو إلا ربه.

(٤) صفتان عمليتان، وهما إقامة الصلاة للفروضة بمحدودها وأركانها في أوقاتها. وإتقان الأموال فيما



أمرهم الله به من الاتفاق فيه كالتزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الاتفاق في أنواع البر . وهذا قوله تعالى ( إنما للؤمنون ) الكاملو الإيمان ( الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) فرغت لذكره ( وإذا نلت عليهم آياته ) أي القرآن ( زادتهم إيماناً ) لزيادة المؤمن به أولاً طمئنان النفس ورسوخ اليقين : إما بالآيات القرآنية ، وإما بالأدلة الكونية التي يشير لها القرآن . وإما بالعمل بما تقتضيه الآيات ( وعلى ربهم يتوكلون ) ومن وفق بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لاهي غيره ، وهي درجة عالية ومرتبعة شريفة . وهذه الصفات الثلاث وهي : [ الوجل ، وزيادة الإيمان ، والتوكل ] من أعمال القلوب ، وقوله ( الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ) أي ائدى يحافظون عليها ويؤدونها كاملة تامة حاضرة قلوبهم وينفقون المال لمستحقه فلا تربط قلوبهم كما حصل للذين تشاجروا لأجل الضئمة ، فهؤلاء وأمثالهم خير لهم ألا يحملوا المال مقصوداً لدانه بل هو وسيلة والوسيلة للمحبوب غير المحبوب ، والمحبوب هو السكال والفضائل والوصول لله بما تقدموا من أعمال مبرورة وأعمال مشكورة ، وقوله ( أولئك هم المؤمنون حقا ) أي لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الحشية والإيقان والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح من الصلاة والصدقة ، وحقا مصدر مؤكد ( لهم درجات عند ربهم ) مراتب بعضها أعلى من بعض . وتلك للراتب والدرجات على مقتضى تلك الصفات ، فمن الناس من يعرف جمال الله في السموات والأرض ولكنه غير واثق به فلقى القلب . ومن العاتة من هم متوكلون على الله واثقون به ولكنهم لا يعرفون جلال الله ، ومنهم للتوكلون للوثقون ولكن الأموال شغلت بالهم وقلوبهم لا تحضر في الصلاة وإن حضرت كانت غير تامة الحضور . فهذه للراتب المتفاوتة تكون درجات الإنسان بعد الموت ويوم القيامة على مقدارها وهي إلى الزهد في الدنيا والولوع بالله وآياته أقرب ، فهؤلاء لهم درجات عند ربهم ( ومنفرة ) لما فرط منهم ( ورزق كريم ) أعد لهم في الجنة لا منتهى له .

#### لطائف القسم الأول لسورة الأفعال

##### اللطيفة الأولى

اعلم أيها الذي أن السنين اليوم قد نسوا حظاً من هذا القرآن ، وإلا فكيف تخاذلوا وتناذبوا وتشاجروا فترى ملوك العرب في الجزيرة ورؤساء القبائل في بلاد المغرب وبعض عظماء الصريين متقاطعين متدايرين متكالبين على الأموال والعظمة والرياسة جهالة ونذالة وقلة كمال . أو مارأوا أهل أوروبا مع تباعد مذاهبهم الدينية . فهذا ( كاثوليكي ) وهذا ( بروتانتى ) ومع تباعد مقامهم وتشعبها فإنهم يتفانلون على دول وممالك ، أفلا ينظر رؤساء المسلمين إلى هؤلاء وهم يجلسون على النضدة ويتحاسبون ويصلحون حقناً للدماء وحفظاً للجوار وراحة للشعوب . أما هؤلاء الأسماء الإسلاميون فإنهم يتفانلون على أمور صغيرة . أو ما قرءوا هذه الآية فاطلموا على فعل الله ورسوله وكيف نزلت الآية عند التشاجر على الضائم قسمها صلى الله عليه وسلم بين المجاهدين بالسوية فكيف لا يفعل هؤلاء ماضيه نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف لا يقيمون الوزن بالقسط ولا يجلسون مجلساً يدلى فيه كل بحجته ؟ متى ظهر الحق أطاعوه واتبعوه ولن يفعلوا ذلك إلا إذا كانوا كاملين في الإيمان . فهؤلاء لا بالإسلام عملوا ولا بالعدل اصطلموا « إنها لاتسمى الأجر ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » وقد شغل قلوبهم عرض الدنيا فغشى على قلوبهم غشاء كثيف . واعلم أن الدنيا لاتنقاد إلا لنفوس عالية وقلوب واعية جيدة النظر ، فإن للواد والأهراض نتائج للماني فلا عمل إلا بعد فكر ، ولا نتائج إلا بعد تفكير . فهؤلاء الذين ملكوا الممالك لهم أراء أدتهم إلى ذلك ولهم

مواهب وعقول وجيوش، فلأمادة إلا حيث يكون صدق وعدل وفكر وتكون للمادة على مقتضاه . وهذا بأحد أمرين : إما بدين يذكر للرء صفات المؤمنين ، وهي هذه الحمسة وغيرها . وإما بقول كما اتفق لكثير من ملوك الفرنجة ، فبعض أمراء الشرق المسلمين لم ينالوا نصيبا من الحكمة ولا حظا من الدين فلذلك يتقاتلون على صنائر الأمور ومحقرات الأشياء وهم ساهون لاهون ، والفرنجة من حولهم على أذقانهم يضحكون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون . فهلا وجلت قلوبهم ؟ وهلا ذكروا ربهم ؟ وهلا نظروا نظرة في المال الذي تعادوا لأجله صرفوا أن اتصافهم بحميل الصفات يعطيهم ملكا أوسع ورزقا أشرف « والله هو الولي الحميد » اه .

#### اللطيفة الثانية

اعلم أيها الذي أن التوكل على الله يستفيد فائدتين : [ الأولى ] ألا يحزن في الحال للمستقبل . [ الثانية ] أنه يجد التوفيق عند حصول مأموله في المستقبل . وليس يكون متوكلا حقا إلا إذا أتقن عمله إتقاناً تاماً وقام بشروطه على الوجه اللائق وفكر فيه وعمل ولم يتأخر وسما ولم يبق إلا أن تبعد عنه الآفات النادرة والأحوال العارضة ، فهذا هو التوكل حقا . فأما الكسالى الساهون اللاهون الذين لا يعملون ويدعون أنهم متوكلون فأولئك هم القرورون وهم كثير من عامة المسلمين اه .

#### اللطيفة الثالثة

تبين من هذه الآية أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح . ألا ترى أن الإيمان بالله وخشيته والاطلاع على محاببه والتوكل عليه مقدمات على الصلاة والزكاة ، وهذا من لطائف القرآن . إن أعمال القلب ونوافرها عند الناس تنيلهم خيري الدنيا والآخرة . ولقد أجمع العلماء أن أثر القلب في أحوال الإنسان أقرب إلى الثواب من أثر الجوارح ، ولولا الآية وهي من أعمال القلب لكانت العبادات كلها باطلة وهكذا في أحوال الدنيا . فانظر كيف أصبح الناس في هذا الزمان وفي غيره لاصح بينهم ولا اتحاد ولا التثام إلا بنظافة البواطن ولذلك ترى أم الإسلام المتخاذلة إنما حصل لها ذلك بالجهل السائد بمصالح الدنيا والآخرة . والجهل من صفات القلب . ومن أعظم الجهل أنهم أعرضوا عن عجائب هذه الدنيا وما فيها من البدائع واللطائف التي تزيد للرء إيقانا بربه وهي التي جاءت في قوله « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » فهذه الدنيا كلها من آيات الله ومعرفتها عمل قلوب ولا سبيل إلى استنثار ما فيها من معادن ونبات وحيوان إلا بعد العلم ، فهؤلاء الأمراء لما جهلوا آيات الله نقص إيمانهم . ولما نقص الإيمان انحصرت عقولهم فيما بين أيديهم من موارد ضئيلة فتقاتلوا وتحاسدوا وتعادوا وذلك لجهلهم بآيات الله وهي إحدى الحاصل القلبية الثلاثة . ولقد جعل الله صلح ذات البين وإطاعة الله ورسوله مطلقين على هذه الأمور القلبية ، فمن فقد ما فقد الطاعة والصلح ، ومن جمعها نال الصلح ، وهؤلاء السلدون أعرضوا عن جمال الله في هذا العالم فلم يدرسوا عجائب هذه الدنيا وفرحوا بما عندهم من العلم الضئيل والمال الكثير « وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » فلا سبيل لرقبهم وصلحهم وطاعتهم لربهم إلا بما يأتي :

(١) أن ينتشر العلم بينهم بعجائب هذه الدنيا ، وما علم أدب اللغة والتاريخ إلا مقدمة لتلك العلم الشريف .

(٢) أن تهذب النفوس حتى يغشى الناس ربهم ، وذلك بذكر الآيات والأحاديث الزاجرة والخوفية بطش المنتقم الجبار .

(٣) إقامة الصلوات وبذل المال . فهذه هي الهدية للنفوس وأهمها تميم العلوم المصرية .

حكيم ظهرت في هذه الآيات

قد يظن القارىء أن هذا العنوان كغيره مما يجعل للتشويق أو للبالغة والإغراق . ولكن أقول إن اللقاه مقام علم وحكمة . وإذا كان صدق السكتب الدينية مرجعه العلم كان ذلك أثبت .

ألا ترى إلى ما ذكره علماؤنا كالإمام الغزالي إذ يقول : [ إذا أردت أن تعرف صدق هذا الدين فاعمل ببعض ما فيه ثم انتظر النتيجة ] مثل قوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين » وكقوله صلى الله عليه وسلم « من استغفرت يهفه الله ومن استغنى يغنه الله » فإنه جعل صدق النتائج للحديث أو للآية هو المعيار لصدقهما .

قد قدمت لك هذا لتتظفر في تركيب هذه السور كما أشرت إليه سابقا . ولكن يجدر بي هنا أن أعطي اللقاه حقه وأبينه فأقول :

قد قلت سابقا : إن سورة الأعراف جاءت إنذارا للكافرين وذكرى للمؤمنين بنص الآية في أولها : وهاتان إذ قد اطلمت على هلاك الأمم السالفة مثل قوم نوح وعاد وثمود الخ وختمها بثلاثة أشياء :

(١) أن يصفح الإنسان عن الجاهلين ولا يتبع خطوات الشيطان في العداوات .

(٢) وأن يسمع القرآن وينصت له . (٣) وأن يذكر ربه في نفسه مع المراقبة .

هذان هما اللذان جاءت بهما سورة الأعراف مضمون السورة كلها ونصائح في آخرها ؛ فانظر في سورة الأتقال والتوبة اللتين جاءتتا في أمر الغنيمة والحرب والنصر ، فهنا أمران :

(١) أمر مقاصد السورة العاتية وهذا يطول الكلام على مناسبتها لهاتين السورتين .

(٢) وأمر مناسبة آخر سورة الأعراف لأول سورة الأتقال ، فلا تكلم عن ثانی الأمرين أو لا تم أتبعه بالأول الذي هو المقصود بالحكم فأقول :

النسابة بين السورتين : أى بين آخر الأعراف وأول الأتقال ، أن آخر الأعراف كما اشتمل على الإعراض عن الجاهلين وترك العداوة والبغضاء وعلى الإنصات للقرآن وعلى ذكر الله ذكرًا بحضور القلب هكذا أول سورة الأتقال ففيها الصلح بين المتخاصمين وهو راجع للأول وفيه قوله تعالى « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وقوله تعالى « وإذا نليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا » وهما راجعان إلى الثاني والثالث .

فهذا هو تمام الكلام على ثانی الأمرين وهو النسابة بين آخر الأعراف وأول الأتقال ، أما الكلام على أولهما وهو ملخص الأعراف وملخص الأتقال والتوبة وهو للمقصود من ذكر الحكم فأقول مفصلا بعد أن ذكرته مجملًا في آخر سورة الأعراف :

اعلم أن هذا العلم لا يمكن معرفته إلا في زماننا الحاضر لأننا جئنا بعد ١٣ قرنا فشاهدنا بأعيننا وقرأنا في كتبنا وتاريخنا ما دلنا على حسن نظام هذا القرآن . إن سورة الأعراف فيها هلاك الأمم التي فسقت ، وبماذا فسقت ؟ فسقت بالترف والنعيم والظلم وأكل أموال الناس بالباطل والتعالى على الناس الخ كل هذا مع الكفر هؤلاء هلكوا وقد أئذرت الله الكفار به وذكر للسليين بما ذكرهم ، ذكرهم بأنكم أيها المسلمون بوما ما ستفتح لكم البلاد وستجوسون خلالها وستعمرون أرض ربكم ؛ فلتعلموا أيها المسلمون أنى أنا الحكم ، أنا العدل . أنا لا أتقى في أرضى من لا ينفخ الناس ، إن الناس جميعا عبادى فكل من ساعدتم أحببته . وكل من حافظ عليهم ساعدته ، أنا أساعد الطيور في أعشاشها والأسود في آجامها والحشرات في محابثها . فكيف أترك الإنسان سهيلا بلا نظام ؟

فها أتى أولاء أيها المسلمون قد ملكتم الأرض في الصور الأولى فصدقتم ثم بعد ذلك فسقتم ، أما

وعدتكم بالنصر في سورة الأنفال وقسمت الغنائم بينكم وهي التي تأخذونها من عبادي ، وهكذا توالى النصر عليكم وذهبت البأساء والضراء وكانت الحرب سجالات كل ذلك في الأنفال والتوبة ، ثم كانت الغلبة لكم مع علمكم بأن سورة الأعراف لم تزل ماثلة أمامكم تفردها بحيث إذا أخذتم بنظام عبادي أهلكتكم وأذلتكم ولن تجدوا لسنتي تبديلا .

سورة الأعراف منذرة ، وسورة الأنفال والتوبة مبشرتان بالنصر والفتنة . مضى العصر الأول بعد نبينا فماذا حصل ؟ تفرقتم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض وأصبحت الخلافة ترفا ونعيا وصار الملك للعلو والفساد ، ومن أراد العلو في الأرض أو الفساد أذنته وأهلكته ، فلما توالى الملك في العباسيين أجيالا واستناموا إلى ممالكهم سلطتهم عليهم فأخذوا يعبدونهم ويقنلونهم . وقال شاعرهم :

خليفة في قفص بين وصيف وبنا  
يقول ما قال له كما تقول البيضا

فكيف تكون حال قوم خليفتم عبد لعبد من عبيدهم وها وصيف وبنا . وسبب ذلك أنكم تركتم الشورى التي سميت سورة باسمها ولا قائمة للإسلام إلا بها ، ولما تعديتم في الضلال أرسلت النار فأزالوا الدولة العباسية ، وهكذا في الأندلس استحل ملككم ولما فسقتم واكتفتم بالشعر والشعراء وتركتم مواهبكم وعقولكم ، سلطت عليكم الفرنجة فاحتلوا بلادكم .

ثم إن الأمة التركية أصابها ما أصاب العرب ، فهي في أولها حازمة وفي آخرها اضحل ملكها بسبب الترف والتميم وجهل اللوك وفساد النظام والظلم ، وهذا لترك الشورى كما تقدم التي هي أقرب إلى إصلاح ذات البين المذكور هنا .

أيها المسلمون ها أنتم أولاء ذقتم الأمرين وأصبحتم من أضعف الأمم ، لماذا هذا ؟ لأنني أنا الذي جعلتكم خلائف الأرض مريدا بذلك أن ترقوا النوع الإنساني وقد حصل فعلا ، ولما فشتم وتنازعتم وتقاتلتكم على الملك أذلتكم للفرنجة .

أندرون لماذا هذا كله ؟ لأن علماءكم وأدباءكم وحكماءكم لم يردوا أن يدرسوا لكم القرآن وسرته ولم يفهمواكم لماذا وضعت سورة الأعراف قبل الأنفال والتوبة ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم « إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ؟ » قد استخلفتم في الأرض كما قلت في كتابي وكما قال نبينا ونظرت كيف تعملون ، فرأيتم في الزمان الأخير لانصاحون لقيادة أهل الأرض فنجيتكم عن الملك وأضيتكم عن الرياسة على عبادي . إن خليفتي لا بد أن يتخاقي بأخلاق ، ألم تدرسوا ماجاء في سورة هود بعد يونس ، ألم أقل لكم فيها ؟ « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » فماذا استخلفتم ولأنا بصير بعمالكم فنجيتكم عن السيادة في الأرض . إنني أنا القائل « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » .

قدمت سورة الأعراف على سورتي : الغنائم والحرب والنصر وذكرتمكم بعدها بعدم الطغيان ، فما أنتم إذن قد طغيتم وبخيتم فأضيتكم عن قيادة خلق ، هذا هو الذي فهمته الآن من ترتيب هذه السور الأربعة : سورة الإنذار ، وسورتان للغنائم والحرب ، وسورة فيها الأمر بعدم الطغيان .

انظر لم يقل الله لنا لانظنوا في سورة الأعراف وهي مكية ، بل آخرها بعد ذكر الغنائم والنصر في السورتين لأنه هنا يمكن للطغيان .

هذا هو السر في ذكر النبي عن الطغيان في سورة يونس لا في سورة الأعراف ؛ فانظر أيها الدكي كيف كان ترتيب السور مفيدا معاني قد حققها الحوادث وأظهرها الزمان .

وقد كنت في آخر سورة الأعراف ذكرت معنى حديث ذم الدنيا ، وها أنا ذا الآن أذكره بنصه :  
 عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال « جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله  
 فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأينا أنه ينزل عليه فألقى بمسح عن الرضاء ، وقال ابن هذا السائل ؛ وكأنه  
 حمده فقال إنه لا يأتي الخير بالشر وإن مما يثبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر فانها أكلت حتى  
 امتدت خاضرتها فاستقبلت عين الشمس فتلطت وبالت ثم رجت وإن هذا اللال خضر حلو ونعم صاحب  
 السلم هو لمن أعطى منه للسكين واليتيم وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ويكون  
 عليه شهيدا يوم القيامة » أخرجه الشيخان والنسائي . ويحسن أن تذكر تفسير بعض ألفاظ هذا الحديث  
 الشريف فنقول ( زهرة الدنيا ) حسنها ومهبتها ( الرضاء ) العرق الكثير ( الحبط ) النفع : يقال حبط  
 بطنه إذا انتفع فهلك به ( يثلط<sup>(١)</sup> ) إذا ألقى رجمه سهلا رقيقا ، وفي الحديث مثلان : أحدهما المفرط في جمع  
 الدنيا ، والآخر المقصد في أخذها والانتفاع بها ، انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول .

دواء هذا الداء

عليّ أنا وعليك أنت وعلى كل مطلع على هذا التفسير أن نجعل كل حياتنا وقفا على إرشاد الأمم الإسلامية  
 في قرانا وبلادنا وأمتنا فنقول لهم : لترجع مجد الإسلام ومجد أمتنا السالفة وأن نسلك سبيلا أخرى غير ما يسلكها  
 التأخرون من المسلمين فلنعمم التعليم ولنعم الصغار كيف ينظرون في هذه الدنيا وإذا أمتعناهم القرآن فلنعمهم  
 نماذج من الطبيعة جميلة حلوة سارة شارحة للصدور ، فإذا قرأ التليذ « والشمس وضحاها » ومثاله سورة  
 الشمس وذكرنا له منافعها وجمالها وشرحنا صدره بالجمال والحكمة التي أبدعها الله فيها وزئنا له سبل العلم  
 فيها كما ستره إن شاء الله في ( سورة الشمس ) عند تفسيرها هناك . وكيف كان الفحم والنبات والماء والرياح  
 كلها مسخرات بضوء الشمس وهي التي سخرها الله فيخرج الطالب من تلك الصور بيلم وحكمة لا يحفظ مجرد  
 ولا معان مدججة لاثير في النفس إعجابا وتشويقا . هكذا فليكن القرآن ودرسه : أي أنه يكون مصحوبا  
 بحمال العلم حتى يشقه ويمشق النظر والبحث الطلاب من صفرهم ، فهذا يستوى صغار المسلمين على عرش  
 الحكمة في إبان صفرهم فيدرجون على النظر والجمال فيشتبون على البحث عما كفيين وعلى الدراسة مجدين .  
 وهذا أولا شكر الله والشكر واجب وجوبا عينيا ، وثانيا زيادة في التوحيد ، وثالثا زيادة في حب الله ،  
 ورابعا زيادة في نمو عقولهم للبحث فيما خبأه الله في هذا العالم من النافع التي يكون استخراجها فرض كفاية  
 يقوم بها أمر العاش في هذه الدنيا .

هذا هو الذي قصر فيه المسلمون فناموا ، وهذا هو الذي سيكون العمل به بعد انتشار هذا التفسير  
 وستكون التعاليم الإسلامية مخالفة كل مخالفة لما عليه التأخرون من قديم بل ويصبح في الإسلام جبل هو  
 خير الأجيال ويكونون رحمة للعالمين لأنهم ورثة من خصه الله بهذا الوصف الجليل ، انتهى .

الحكمة العاتمة في هذه الآيات

إن هنا مراتب ثلاثا : وجل عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان بزيادة الدلائل ، وتوكل على الله بحيث يفرض  
 أمره إليه ولا يرجو ولا يخاف غيره لعله أن العالم نظام تام وهو سبحانه وتعالى قد تكفل بالجليل والحقير  
 من خلقه . هذه أعمال القلوب ، وهناك عملان للجوارح ، وهما إقامة الصلاة وإتفاق المال في الوجوه المطلوبة ؛  
 فمن اتصف بهذه الصفات الخمسة فهو المؤمن حقا . قال الواحدى : من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان

(١) يثلط بوزن ينصر .

إيمانه أزيد ، لأنه عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفة الله أقوى فيزداد اليقين انتهى ، والدلائل المذكورة محمية وعقلية على حسب درجة الاستدلال ، ثم إن المؤمن يخاف الله لمصيابه أو لهيبه جلالة وتطمئن نفسه باليقين متى كثرت الدلائل ؛ فالإيمان إذن يشمل الأعمال العقلية والأعمال الجسمية ، ويؤيده حديث الشيخين ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بنوع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق والحياء شعبة من الإيمان » اهـ فالإيمان يزيد وينقص على مقتضى أعمال العبد .

قال عمر بن حبيب وكان له حجة : إن للإيمان زيادة ونقصا ، قبله لما زيادته ؟ قال إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته ، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه اهـ .

أقول : ولما كانت هذه الآيات بهذه المثابة بحيث تجمع جميع فروع الدين من العقل والعمل وبها ومحدث الشيخين صار للؤمن حقا عزيز الوجود فإن انصف بوصف نقص آخر . أقول لما كانت كذلك أورت خلافا بين المتقدمين الأجلاء من أئمة الإسلام . هل يقول المسلم أنا مؤمن حقا كما في هذه الآية ، أم عليه أن يحترس ، وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله لا يمتنعون للمسلم أن يقول أنا مؤمن حقا ، وأصحاب الشافعي رضى الله عنه يقولون الأولى للمسلم أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله .

وسأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه ، فقال أمؤمن أنت ؟ فقال الحسن : إن كنت سألتني عن الإيمان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن ، وإن سألتني عن قوله تعالى « إنما للؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فلا أدري أنا منهم أم لا .

هذه جملة سالحة من مجاميع أقوال ساداتنا وآبائنا المتقدمين ، فهل نجب أن ألقى إليك مانتيجة هذه الأقوال للسلبين في المستقبل ؟ أقول لك إن آباءنا السابقين قد أحضروا لنا الحجارة والأجر والخص والرزاق والخشب والحديد وجميع ما يلزم لبناء البيت العظيم وهو الإيمان ، وقالوا لنا هذه تركناها لكم فابنوا مساكن الإيمان وأسوه ، وما نحن أولاء قد مهدنا لكم الطرق وسهلنا لكم السبل فعلمنا الأساس وعليكم البناء .

هنا ملخص ما ذكره في هذا المقام . اجتهد أبو حنيفة واجتهد الشافعي في هذه الآية ، وهذا الحسن وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين فاسمع ما وقر في نفسى مفصلا وموضحا .

اعلم أيها القدي أني مشغول عن العلم وعن الأمة ، وأنت وجميع من قرءوا هذا الكتاب وأمثاله عن هذه الأمة مشغولون ، للسؤولية مشتركة بين أهل العلم لافرق بين متقدم ومتأخر .

أقول : اعلم أن الإنسان في أول أمره يحول بخاطره أمور مجهولة عمومية وهو يحاول فهمها فلا يقدر حتى إذا كشف الحجاب كان ذلك اطمئنانا للنفس ، والاطمئنان هو سعادة الدنيا والآخرة ، يسمع الوعيد ويخاف ربه من ذنوبه ، فإذا أكثر الاستغفار والاعتبار والنظر فاستبصر عرف الحقائق فاطمأن قلبه ، وللأول إشارة بقوله « وجلت قلوبهم » وللثاني بقوله « زادتهم إيمانا » وقوله في سورة أخرى « ألا يذكر الله تطمئن القلوب » لاتطمئن القلوب ولا يكون الإيمان حقا مستكلا جميع شرائطه إلا إذا تقنا بما جاء في حديث الصحيحين في الإيمان وأنبأنا بشعب الإيمان كلها ، الله أكبر ، ما الإيمان الحق ؟ الإيمان الحق علم وعمل ، العلم له فروع والعمل له فروع ، فروع العلم كثيرة والعمل فروع كثيرة ، ذكر الله إجمالا لهذا كله في هذه السورة خمسة أمور ، ولكن حديث الشيخين جملة جميع فروع الحياة صغيرها وكبيرها ، جل العلم وجات الحكمة ونسخ العلماء وجد الأمة وصدق رسول الله الذي هو أفضل من الجميع وكيف لا يكون كذلك ، إنه جميل الإيمان أشبه بإنسان .

الإنسان له عقل يفكر وجوارح وحواس ، الإنسان لانتم إنسانيته إلا بجميع الحواس والعقل وسائر الأعضاء حتى الظفر والشعر ، هكذا الإيمان إن لم يستكمل هذا كله فإنه لا يكون حقا كما إذا لم يستكمل الإنسان جميع هذه القوى والقدر فانه لا يكون تام الأعمال .

إن النبوة أُنارت للوضع وشرحته ولكن الأئمة تحيروا واختلفوا وكل له حجة ، الإنسان إذا قصظفرا أو أصعبا أو عينا أو أذنا فإنه لانسلب منه صفة الإنسانية ولكنه يكون غير متمكن من جميع مطالبه بل ينقصه بعضها مادام أنه من نوع الإنسان ، هكذا الإيمان لا يقال إنه قد ذهب من الإنسان إذا قصت بعض الأعمال ، ولكن لا يكون مستوفيا جميع ما يكون به الكمال . ولكن هنا حكمة عجيبة وآية غريبة وبدائع مدهشة ، يقول الله « إنما للمؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم الخ » لم يقل للمؤمن بل قال للمؤمنون كأنه فتح لنا باب حلّ المشكلة التي حيرت الألباب بل فتح الباب على مصراعيه فعلا ، وما أنا إذا أدخل معك في ساحات العلم الواسعة وأشرب معك من رحيقها المختوم والشراب المعتق اللذيذ للشاربين .

علم الله قبل أن يخلق الناس وقبل أن ينزل القرآن أن الحياة لا كمال لها إلا بالاجتماع ، والناس في اجتماعهم أشبه بإنسان واحد ، فشكل واحد عليه عمل لا يناسب الآخر ، فإذا لم يقدر صاحب العلم على عمل ما يقدر عليه صاحب العمل ، وترى التجار والحدّاد والزجاج وصانع الكهرياب وصانق القطار وصانع السفن ومحرك الطيارات والقطار كل واحد قام بعمل لا يحسنه الآخر ، فاجتماع هؤلاء يكونون قد أكملوا الإيمان في الأمة .

ثم إن علماءنا رحمهم الله هم الذين قالوا إن هذه فروض كفايات ؛ فتمت الأمة في أمر منها عذب المجموع في الدنيا بالدلة وفي الآخرة بهمهم على التفسير ؛ فالأمة كلها متضامنة هنا في الدنيا والآخرة ، فأنا مكلف أن يكون في بلاد الإسلام كل صناعة وكل علم ، ومعنى ذلك أن أكون مساعدا بالفكر أو بالمال أو بما أستطيع فعله ، ومتى قصرت كان إيماني ناقصا على مقدار تفصيري في منفعة المجموع ؛ فتمت استكمال في الأمة أهبتها بما يطابق زمانها كان الناس في حال تشبه حال تمام الإيمان ، ولكل فرد من الأفراد قسطه من الكمال الذي يناسبه وبلأئمه .

فإذا سمعت أصحاب الشافعي يحترسون من قول القائل : أنا مؤمن حقا ، وإذا سمعت الحنفي لا يجتمون أن يقولوا : أنا مؤمن حقا ، وإذا سمعت الحسن يقول : أنا لا أدري حالي فيما عدا الإيمان بالله الخ . فاعلم أن ما ذكرناه لك واف بما قالوه كاف . إن الحسن يعلم أنه لا يقدر أن يقوم بجميع الأعمال ففي حديث الصحيحين « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله الخ » وقد تقدّم ذكره قريبا في هذا المقام .

إذن الإيمان لا يذر زراعة ولا تجارة ولا صناعة ولا سياسة ولا طرقا تعهد ولا أنهرًا تحفر إلا دخلت فيه ، فإذا كان الكناس والزبال ومصالح الطرقات للقطرات ورجال مصلحة البحارى التي في القاهرة التي لا عمل لها إلا إخراج اللواد البرازية منها إلى جهة الجبل الأصفر بالحانكة .

إذا كان هؤلاء كلهم أعمالهم من الدين الإسلامي بنس نفس الحديث . فإذن الإيمان في ديننا قد ابتلع جميع الفنون والصناعات . هذا هو الدين ، وهذا هو الذى أخاف الشافعي والحسن أن يقولوا نحن مؤمنون حقا . وعلى هذا يكون المؤمنون في هذا الزمان مقصرين حقا ولا يقولون إننا مؤمنون حقا لأننا قصرنا في الأعمال العامة التي نص بعض علماء الأصول أنها أفضل من فرض العيين .

هذا هو الجواب الذى فتح الله به في هذه المسألة وصار الإيمان حقا يرجع لشبوع النظام العام في الأمة ؛ فعلى مقدار استتباب النظام وكمال العلوم والصناعات يقال إن هذه الأمة إيمانها حق وكامل ، وعلى مقدار النقص يكون النقص والأفراد في الأمة متضامنون لم يخلق الإنسان وحده .

يذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث « إمامة الأذى » ومعنى ذلك المحافظة على راحة الجمهور ورايته وهذا لا يتم بالأعمال الفردية البتة . إننا لم نقدر أن نخرج القاذورات من القاهرة إلا برجال متعلمين .

إذن علينا أن نجتمع شملنا لسائر مصالح الحياة ، فمضى كذا كنا مؤمنين حقا ويكون الفرد الواحد إيمانه على مقدار ما أثر في هذه الحياة العامة . هكذا يقول هنا « إيمان المؤمن » ولم يقل للمؤمن مشيرا بذلك إلى الاجتماع العام كما في قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » بالنون لا بالهمزة مشيرا للجميع ، وإياك أن تظن أني أريد إيمانا خياليا للجموع ؛ كلا بل أقول إن كمال المجموع في الصالح الدنيوية والأخرية يدعو لتكامل إيمان الأفراد وذلك بتعاونهم واتحادهم . فالمؤلف يعين القارىء على إحداث الأعمال النافعة والقارىء يعاضده إخوانه فيحدثون أعمالا في نظام الأمة ، وهذه الأعمال ينفع بها السكان وغيره من عباد الله .

ومن أهم أعمال الإيمان الصلح بين المتخاصمين عملا بقوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم » .

#### الصلح في بلاد الإسلام

يقول الله « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله » إن هذا من أهم شعب الإيمان ، ولذلك ذكرها هنا . فإذا كان الإيمان يدخل فيه إمامة الأذى من الطريق فما أحرى أن يدخل فيه ما ذكره الله هنا من الصلح بين المتخاصمين ، فإن إمامة الأذى من النفوس وإحياءها بالموودة والمحبة أفضل وأفضل وآلاف الآلاف من إزالة الأذى من الطريق .

إن الأمة للفرقة للتباغضة لارتفع منارا ولا تدفع عارا ولا تورى نارا ولا تحفظ الحرث ولا النسل بل يقربها البلا ويحمر عليها أذباله الردى وتنفس في العداوات وتمرق في بحر الضلالات ويحيط بها الأعداء ويستفعل الداء ويستعصى الدواء .

ولعمري ما قلل الإيمان ولا أضعف شوكة أهله إلا الجهل القاضى الذى غمر هذه الأمم للسكينة إذ جعلوا بأسهم بينهم شديدا ، فهم في غمرة ساهون والجهل مرتع وخيم وأعشاش تبيض فيها وتفرخ نواعب التربان ومنفردات الدمار .

أمر الله عز وجل بصلح ذات البين في هذه السورة ، ثم ذكر حقيقة الإيمان أو الإيمان الحق وحار العلماء في وصفه وعرفت مقصود القرآن والسنة والأئمة أنه عبارة عن حقيقة جامعة لجميع أعمال الحياة الدنيا والآخرة ، فالإيمان أمر واحد ؛ كما أن الإنسانية عبارة عن الجسم والروح من حيث الكمال ، فالجسم بلا روح ليس بإنسان ، والروح بلا جسم نسميها جنا أو ملكا ، فإدنا في الأرض فقلنا حفظ الأمرين [الجسم والروح] هكذا الإيمان ، وهذه الحقيقة الإيمانية التي شرحها النبي صلى الله عليه وسلم في معنى الإيمان هي ما شرحت لك الآن من النظام العام في الأمة . ولكن هذه الحقيقة لم يرد الأئمة رضوان الله عليهم أن يوضحوها مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أحاط بها في حديث الشيخين لأنهم رأوا أن السائلين لم يستعدوا لفهمها . وهكذا الحسن رضى الله عنه ، فكل من هؤلاء الأعلام نحا نحوها في الإيمان بناسب زمانه وعصره . ولكن هذا هو الزمان الذى يلقى العلم فيه صريحا ولا يوجه إليه طمن ولا لوم ولا قدح .

إن نور النبوة يظهر في هذا الزمان حقا ، حقا هذا هو نور النبوة ظاهر ، ثم ظاهر في هذا التفسير ، ظاهر أشد الظهور أن المسلمين اليوم مساكين متعطشون إلى العلم يريدون الهدى ، والله لقد جاء الهدى ووضح الحق وجاء النصر وهذه بشارت بنت اليوم هي بشارت العلم والهدى والنور للمبين .



هذا هو الزمان الذي يحق لنا أن نكشف النقاب عن تلك الأنوار المحجبة التي منع ظهورها للناس فيها مضى نوازع اللوك فألجوا الطناء ؛ غاطبوا الناس على قدر عقولهم وما يسمع به زمانهم في حقيقة الإيمان ، فالإيمان حقيقته اليوم في هذا التفسير مشرقة مسفرة ضاحكة مستبشرة . وخصال الإيمان ترفع أعلام الدنيا والدين . وقد أوضحنا لك فيما تقدم أن أهم خصال الإيمان صلح ذات البين ولذلك خصصها الله بالذكر في هذا المقام .

#### الكلام على صلح ذات البين

قد ذكرت في المقام السابق مضار التفرق والشقاق ، وأزيد الآن إيضاحاً فأقول : إن المسلمين اليوم في قراهم وفي مدنهم وفي أممهم ابتلوا بأمرين : أولهما شرٌّ من ثانيهما ، وهما الجهل والشقاق . إن الشقاق يكون على مقدار الجهل . والعلم هو الذي يجمع القلوب . وأين العلم في الإسلام الآن فنتش في القرى وفي المدن لا نجد إلا جهلاً فاضحاً وشقاقاً شديداً ، وربما يقوم النزاع بين بعض الأفراد على شيء لا يذكر وقد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه .

#### القرى

لقد ولدت في بلاد (الشرقية) من البلاد المصرية وكنت أقرب حركات الناس في إبان صغري فكنت أراهم يحقرون كل صادق ويمقتون كل صريح العبارة ويعتونه رجلاً لا وزن له ، وعندهم الرجل العظيم هو الذي يخادع الناس ويخدعهم ويقول بلسانه ما ليس في قلبه .

#### للمدن

ثم إنني وجدت أهل المدن الذين عاشرتهم عدّة من السنين لا يعيشون إلا بالهابة واللباقة . ولما قلت سعادة القلوب لعدم الإخلاص اخترع الناس سعادة لفظية . أما للعظماء فألقاب الفخامة كقولهم [سعادة الباشا] و[معالي الوزير] ويلقبون سلاطينهم وأمراءهم بأصحاب الجلالة أو أصحاب الدولة أو ما أشبه ذلك . كل هذا لكي يسمعوهم باسم السعادة من جلساتهم وهذه قامت مقام ما كان الشعراء في العصور الأولى يقومون به من مدح الملوك والأمراء . كل هذا ليستعيب الإنسان عن اللذة والسعادة الحقيقية النفسية بالسعادة اللفظية . وليس معنى هذا أن كل من أطلق عليه لقب من هذه الألقاب لا يعمل له أو لا سعادة ؟ كلا . فكثير منهم يحسون في نفوسهم بسعادة عظيمة لما لهم من الأعمال ، ولكن للقيام مقام بحث وتنقيب فإن قلة الإخلاص وعدم السعادة النفسية حملت بعض الأمراء في الأزمان السالفة على اختراع هذه الألفاظ السمجة ليستظل في ظلها الذي هو «من عيوس لا يبارد - ولا يضي من الذهب» بل هو له شرر يرمى به عليهم ويورثهم ذلومهاة ويتحملون ذلك لأجل المظاهر الكاذبة ويسعدون سعادة لفظية أي يقال لأحدهم [سعادتك] . وإذا كانت هذه حال المدن فإن التقاطع والتدابير يحصل بين القلوب إذ لم يجتمع على فضيلة إلا قليل . فلذلك كثر الشقاق والنفاق ، كل هذا لعدم الناقص أو للجهل البين .

#### الأم الإسلامية

اعلم أيها الدكي أن الأمة من الفرد ، فأخلاق الفرد هي أخلاق الأمم ، فالذي رأيت في قريب ورأيت في بعض المدن رأيت بين أمم الإسلام قاطبة .

#### الأم الإسلامية وجمعية الأم في أوروبا

انظر رعاك الله نحن أولاء في عصرنا الحاضر كيف نسمع أوروبا لها جمعية أم وإن لم نعلم بواجبها بل ظهر أنها تريد ابتلاع الشرق وهضمه . وأهم بلاد الشرق بلاد الإسلام . فلماذا ترى أم الإسلام لارابطة بينها

ولا قوة تحفظ توازنها ولو صورة بجمعية الأمم الصورية ، فإن هذه الجمعية وكذلك محكمة [لاهاي] ربا تأنيان بالمرض على طول الزمان وهم الآن يلبأون إليها عند الاصطدام ، فلماذا ترى المسلمين ليس بين دولهم مثل هذه الجماعات .

### الإصلاح العام

واعلم أن دواء هذا الداء في الأمم الإسلامية يجب له الشروط الآتية :

- (١) أن كل من يعن له فكر يجب عليه أن يديه بإخلاص .
- (٢) يجب تميم التعليم العقلي والديني ولكن بشرط التعقل والتفكير ، فقد مضى زمن الحفظ بلا عقل وفي هذا التفسير بعض طرق التفكير مطوّلة .
- (٣) أن تلقى آيات الأخلاق واللواظ للمسلمين بهيئة جذابة ولا يتكل الناس على المفسرين بل يطعمون نفوسهم بطابع السكّال فيؤثرون في السامعين .
- (٤) أن تلقى إلى الناس آيات العلوم التي تبلغ (٧٥٠) آية بشرط أن يكون إلقاءها بهيئة تعشقهم في مخلوقات الله فيحبونه بحميل صنعه وبديع أفعاله كما ذكرنا في هذا التفسير غير مرة .
- (٥) أن يبتعد الناس عن التنالي في الألقاب ، فكل أمة ارتقت أفلحت عن هذه العادة العقيمة التي هي بالأطفال أولى منها بالرجال .

(٦) أن يتعلم الناس التعقل والإخلاص والاستقلال الفكري فكفي ما أضعناه .

(٧) ويجب الاتجاه السكّلي لتميم التعليم .

هذه هي التي تحدث في العقول انقلابا وفي الأمم رجلا وههنا قدر أن نقول : تؤلف جماعات في كل قرية وفي كل مدينة وفي كل أمة لإصلاح ذات البين . وإذن تقبل النفوس قول الصالحين . فأما الآن غسبنا الله ونعم الوكيل .

### تخسر المؤلف على الأمم الإسلامية

فيا ليت شعري متى نسمع بالتعليم العام ( الاجباري ) في الإسلام . ومتى نسمع اتحادا بين الأمم الإسلامية كاتحاد الأمم الأوروبية ضد الشرقيين ، ومتى نسمع شيوع العلم والصناعات بينهم ، ومتى يكون لهم جمعية عامة للفصل في مشاكلهم للآدية والأدبية ، بل متى يكون فيهم حكام ناظرون وعداء مدققون وخلفاء لله في الأرض دارسون ينظرون في أمر الأمم الإسلامية كلها شرقها وغربها .

إن الله وضع المسلمين في وسط الأرض بين الشرق الأقصى وأوروبا ، فحق يقومون بهيئة الوساطة بين الطائفتين ويكونون حكما عادلا بين الشرق والغرب . هذا هو المركز العام للأمم الإسلامية . هذا ما سطرته ليلة الجمعة (٣١) ديسمبر سنة ١٩٢٦ وسأنتبه بمقالة كنت كتبتها قبل ذلك في بلدة المرج توضح ما في آخر هذا للقال أيضا شافيا فأقول :

فه كتابان : كتاب كتبه يده وهو عالم النبات والحيوان ونحوهما . وكتاب أنزله كلاما نسمعه وهو الكتب السماوية ، والكتابان متطابقان .

### تفسير القرآن في الحقول والحشرات

هل لك أيها الذكي أن أحدثك حديثا عجيبا يطول شرحه ويحسن وضعه ؟ إن جمال الطبيعة وبهاءها ونورها وإشراقها وبدائمها شاخصات أمامنا ظاهرات بهجات ولكن أكثر الناس لا يملون . يملون ظاهرا وهم عن التفكير معرضون . إن صلح ذات البين نتيجته الاتحاد وحسن النظام في الأمة بأسرها .

وفي سورة الحجرات خاطب الله الناس جميعا لأنهم عباده فقال «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» هانان الآيتان في القرآن صلح ذات البين بين المسلمين وتعارف بين جميع الناس . والسلمون اليوم لم يقوموا بأولها ولم يسمعوا وصية ربنا في ثانيتهما «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا» .

فها أنا ذا أحدث المسلمين المعاصرين لنا والذين من بعدنا وأذكر لهم نظرتي في الحقول إذ توجهت إلى ناحية المريج من ضواحي القاهرة بمصر لأمرور زراعية . خرجت وأنا كاره لأنني برحمتي كل ما يقطع النظر العقلي على فركبت القطار في الطريق للوصول من القاهرة إلى بلدة المريج ، فإذا حصل ؟ عاودني الله سادة الإكرام . ذلك أنه قابلني بمض قراءة هذا التفسير وهو مفتش من مفتشي الزراعة ، وقد توجه للمريج ليتسرف على أعمال فرقته من العمال التي تنقل الحشرة الفانكة بالأشجار السامة (بق الهبسكس الدقيق) فقات له صف لي هذه الحشرة . فقال إن (بق الهبسكس الدقيق) من الفصيلة النصفية الجناح وهي ذكور وإناث ، والذكر أصغر حجما من الأنثى :

(١) وطوله من ملليمتر تقريبا إلى ملليمتر ونصف . (٢) له أجنحة .

(٣) عدد أفراده أقل من عدد أفراد الإناث .

(٤) الأنثى لونها قرنفلي فأغ بيضاوية الشكل تغلو جسمها طبقة شمعية .

(٥) طولها من ملليمترين إلى ٣٥ ملليمتر .

(٦) تضع الأنثى بيضا من ١٥٠ بيضة إلى ٣٠٠ بيضة ، والبيضة لا ترى إلا بالمنظار المعظم .

(٧) يكون البيض في كيس شمعي يسمى كيس البيض وبعد (٦ إلى ٩) أيام يفقس حسب حالة الجو ونخرج صفاره نشطة جدا شكلها كشكل الحشرة الكاملة . وتكون هذه الصغار في أول أمرها ذات أرجل ثم تغير جلدها أكثر من مرة فتترك الأرجل معها . وهكذا الزوائد التي تحس بها وتكتفي بأن تضع خرطومها في النقط للمهمة في الأغصان وتعلق بها وتمتص العصارات ولا تزال تلك الصغار تغذي أربعة أسابيع ثم تستعد للحمل كأنها تها ، وهذه لا تحتاج إلى الذكور فبعضها يلقحها ذكورها وبعضها يتكون البيض فيها ولا تحتاج إلى ذكر ، وهذا من العجب فقد أطلعني ذلك الفتنش على الكتاب المطبوع فوجدته كما قال ، وقال إن الذكور أكثرها يموت .

(٨) إن هذه الحشرة تفرز مادة كالدقيق على جسمها وقد رأيتها أنا بعيني رأسي ، وهذه المادة تقها المؤثرات الجوية ، وهذه الحشرة تنام في أوائل أكتوبر إلى حوالي نصف مارس وبعد ذلك تستيقظ . فسألته في أي تاريخ جاءت هذه الحشرة إلى مصر ؟ فقال من سنة ١٩١٢ ميلادية أحضرها رجل إنجليزي اسمه المستر (راون) من الخارج ، قلت وكيف ذلك ؟ قال أحضر نباتا من بلاد أوروبا يسمى (الهبسكس) فسميت باسمه ، وقد كان مصابا بهذه الحشرة فأخذت تنتشر من هذا النبات الذي زرعه ببلادنا للزينة فقط إلى أشجارنا من التوت والنبق واللبخ والحرنوب والقطن والبايما والتيل ، وانتشر في القاهرة وضواحيها والجزيرة وبنى سويف والفيوم وسوهاج ومركز جرجا والإسماعيلية والسويس . كل هذا حصل بسبب ذلك النبات الذي أتى به المستر (راون) الإنجليزي . فقلت وكيف تكون العدوى ؟ فقال تكون بالماء وبالهواء وبالحيوانات . وذلك أن الهواء يمر بالشجر فيحمل معه تلك الحشرات إلى شجر آخر سليم وهكذا الماء والإنسان والحيوان . فالله تعلق به ملك الحشرة وكذلك يد الإنسان وثوبه وهكذا الحيوانات يعلق بها إذا لامست هذا الشجر . ثم إن هذه الحشرات لا تمتص إلا في النقطة التي فيها تنمو الشجر ، ومق امتصت

العصارة رأيت الورق يجانبها يتقلص ويتجمد ، وهكذا النصف كله ثم الشجرة وهكذا الشجرات حولها ، ثم أخذني للفتش وأراني العمال يرشون الشجر والورق والأغصان بالماء الذي فيه (بتبول ثقيل) أي لم يصف ، وهذا البترول مستخرج من البلاد المصرية بقرب السويس ومع هذا أيضا طين من طين (قنا) والأجزاء هي واحد من البترول و٢ من الطين و١٢ من الماء ، ومتى رشوا الماء على الورق غمر الحشرة فسدت للسام بالطين والبترول فمات الحيوان .

هذا ملخص العمل الذي يقوم به للفتش وعماله ، وقد كان معي صديق لي من أهل العلم فقال ما فأقده هذا الكلام ؟ قلت فيه تفسير آيات كثيرة والآية التي نحن بصددها . قال هذا شيء بعيد المرى فأوضحه . قلت ألت ترى أن هذه الحشرة في أكثر أحوالها أنها لا تحتاج للذكر بل يكون بيضا الذي قد يصل إلى (٣٠٠) بيضة بلا ذكر . قال بلى . قلت أفلمت ترى أن الله قد أعطى هذه الحشرة وقاية من الحر والبرد وعوارض الجو بما تفرزه على ظاهرها مما هو كالدهنيق . قال بلى . قلت أفلمت ترى أن العدوى إذا جاء وقت الاستغناء عنها خلعتها الحيوان وعاش بلا أرجل كما ذكرناه قال بلى . قلت أفلمت ترى أن العدوى تنتشر من هذا الحيوان كما تنتشر عوامل الإلحاق في النبات ، فكما كان الإلحاق في النبات بالرياح وبالحيوان وبغيرها كما ستراه في سورة الحجر مفصلا . هكذا هنا ترى الإلحاق في الهلاك والتدمير يشبه الإلحاق في الإصلاح هناك . قال بلى . قلت ألت ترى أن الإنسان يحارب هذه الحشرة ومع ذلك تنتشر بسرعة هائلة ؟ قال بلى . قلت إن نظر الإنسان للعالم على قسمين : نظر يؤدي إلى النافع للآدية ، ونظر يؤدي إلى ما فوق للآدية . أما النظر إلى النافع المادية فإن الطبيب والمهندس وعالم الزراعة كل يبحث عن المنفعة المادية التي هو بصددها . وليس يرتفع نظره إلى ما هو أعلى كهؤلاء الذين يقتلون هذه الحشرة في الحدائق المصرية فليس لهم مطلب وراها . فأما النظر لما هو أعلى من ذلك فهو نظر يرتقي إلى عالم أعلى من عالمنا . فهنا يرى الإنسان أن الله تعالى هدى هذه الحشرة وحفظها ونحن نحاربها وهذا قوله تعالى « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » وقوله « سبح اسم ربك الأعلى » الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى » فأله أعلى ، وإذا كان أعلى فيستوى لديه جميع خلقه في النظام .

رأى الصلحة توجب أن تكثر الحشرات للفتحة للأشجار والحشرات القاتلة لها فأكثر منها وجعل الإنسان سعيدا بالأولى شقيا بالثانية وهذا قوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » . علم الله أن هذه الحشرة سيحاربها الإنسان بكل الوسائل فأمدتها بالقدرة الكثيرة وجعل الأنتى لا تحتاج إلى ذكر « فتبارك الله أحسن الخالقين » وهذا قوله « وكل شيء عنده بمقدار » وقوله « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

قل هذا حسن ولكن لم نصل للمقصود هنا . قلت فلتنظر إلى الذكور والإناث من هذا النوع . أليس هذا الحيوان قامت فيه الأنتى مقام الذكر والأنتى ؟ وهذه أشبه بنوع من النبات يشتمل على الذكر والأنتى معا ويسمونه خنثى كالدانورة والبنج كما تقدم في سورة الأنعام . قال ثم ماذا ؟ قلت فأعاهد الذكور بالأنثى ظاهر في هذه الحشرات من الحيوان وفي بعض النبات وقد ظهر الخنثى في نوع الإنسان ، فهذا معناه أن الطبيعة تنطق قائلة [ إن الذكران والإناث في كل حي متحدة بحسب أصلها ] ولذلك نجد النوعين يتجاذبان على تباعد النيار وجميع أحوال هذا الإنسان كأحوال الذكور والإناث: أي إنهم متحدون متضامنون مشتبكة مصالحهم فكما ترى الذكور والإناث ظهر اتحادها في الطبيعة ونواذرها ؛ هكذا نراهم متحدين غاية ونتيجة ومقصدا . لذلك يتعارفون ، هكذا سائر شؤون الحياة . فأهل الشرق وأهل الغرب جميعا يحتاج بعضهم

إلى بعض . قال ثم ماذا ؟ زدني إيضاحا . قلت إن اتحاد الذكر والأنثى في أدنى النبات وأدنى الحيوان وشواذ الإنسان رمز إلى اتفاقهما مقاصد وغايات تجمعهما ، والذكورة والأنوثة للذكور تان لافرق بينهما وبين سائر أعمال الحياة . فأهل الشرق والغرب يحتاج بعضهم إلى بعض .

الآن ترى أن الخسرة المذكورة وهي ( بق الهبسكس ) قد انتقل مع الشجرة من الأفطار البعيدة ونقل العدوى إلى العطر المصري في أشجاره ؟ قال وماأئدة هذا ؟ قلت : فأئدة أن كل مصيبة تحمل بأئمة تضر بغيرها على هذه الأرض . فالطاعون والجدري والحمل وأنواع كثيرة من الأمراض تأخذها الأمم بعضها عن بعض ، ولذلك ترى لكل أئمة على حدودها مكانا تمتحن فيه القادمين لينظروا أفهم مرض معد أم لا ؟ وهكذا . وإذا حصل قحط في أئمة أثر في غيرها من الأمم .

ولقد كان للحروب الأهلية في بلاد الصين في هذه الأيام ، ولاعتصاب عمال مناجم الفحم في بلاد الإنجليز أثر سيء في رخص أسعار القطن المصري وساعده على ذلك كثرة القطن الأمريكي ، فانظر كيف صار الناس على الأرض متضامنين وهم مجهلون أنهم متضامنون ، متصلين وهم مجهلون أنهم متصلون ، بينهم علاقة كبيرة في السراء والضراء وهم مجهلون ، عمهم السلك الكهربائي وأحاط بهم من كل جانب نظام بريدي وآخر جوي ، واتصل الشرق بالغرب وحلقت الطيارات التي صنعها الإنسان في الجوى . وفي هذه الأيام ( فبراير ١٩٢٧ ) صنع الألمان طيارة تحمل جميع مايلزمها مدة بحيث تطير حول الكرة كلها وترجع إلى مكانها من غير احتياج إلى ذخيرة أخرى .

أليس هذا بعض قوله تعالى ؟ « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » هذا هو بعض التعارف قد ابتدأ ، فقال ياسبحان الله ! قد كان أول الكلام لايشعر الإنسان فيه بأن له مناسبة لهذه الآية حين ذكرتها ، لم ندر أئمة مناسبة بين نبات ( الهبسكس ) وبين هذه الآية ! فظهر أن الذكورة والأنوثة في العالم الإنساني والنباتي والحيواني قد اتحدتا في بعض أفرادها ، وكان ذلك في الإنسان رمزا إلى توثيق الروابط في سائر مصالحه .

فلأول الرمز بقوله « خلقناكم من ذكر وأنثى » وللتاني الرمز بقوله « لتعارفوا » فقلت إذن هذه الآية وردت لخطاب العقل الإنساني العام ، ومعنى هذا أن المسلمين يحسن لهم أن يقوم فيهم حكما وفلاسفة ويدرسوا نظام الوجود ويعرفوه كالقدي ذكرته في كتابي [ ابن الإنسان ] الذي عرفه أهل أوروبا أنه خطاب للأمم كلها وبينوا للأمم أن العقل بين أن الناس متحدون أصلا وغاية وأنه يجب أن يكون هناك نظام عام يمنع الضرر والضرار من أئمة نوع ، ويسمون هذا النظام [ التعارف ] قال لي ولكن المسلمين الآن ليسوا قادرين على ذلك ، قلت نعم ! والسبيل إلى ذلك أنت يقوم فيهم مفكرون ويعمموا التعليم في الأمم الإسلامية ويجعلوا لهم نظاما يسمى : [ إصلاح ذات البين ] وهو المذكور في هذه الآية « وأصلحوا ذات بينكم » .

فهنا درجتان في الإصلاح : درجة إصلاح ذات البين بين المسلمين ، والدرجة الأخرى درجة التعارف العام بين أمم الأرض كافة ، قال وما السبيل إلى ذلك ؟ قلت السبيل إليه هو ما ذكرته في هذا التفسير وما يذكره غيري من علماء الأمم الإسلامية في أفطار الأرض .

أقول : فليقم كل مفكر في الإسلام بفهم المهم من هذه الآراء في الإسلام وليعمم التعليم لأنه لاجبارة ولا سعادة للأمم إلا بالعلم ، وقيل في المعنى :

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

وهناك يظهر المصلحون الذين يصلحون ذات البين بين أمم الإسلام حتى يكونوا على الأقل أشبه بالممالك المتحدة بأمريكا التي ليست عندها هاتان الآيتان أو كأمم الألمان الذين لا يقرءون هذه الآيات ، اللهم إنك أنت الذي زرعت النبات وخلقت الحيوان ونظمت الإنسان وأعطيت كل شيء خلقه وهديته وجملت المذكورة والأنونة في الإنسان رمزا إلى أمماده أصلا وغاية وألممت أنما أن تعمل لهذه الغاية بالبريد الجوي والأرض والطرق البرية والبحرية وأمت للمسلمين قرونا وقرونا وقرونا ثم أنت الذي جعلت أمثال هذا التفسير في الأمم الإسلامية ، والآراء التي تصدر من كبار الأئمة في عصرنا موقفات لشعوب الإسلام أن يدرسوا نظام الوجود ويعمموا التعليم كما قدمنا وبيدنا يصلح ذات البين بين المسلمين .

ومنى تعارف هذه الأمم كانت سببا في التعارف العام أو على الأقل قبلت هذا من المصلحين في جميع الأمم فإصلاح ذات البين للذكور في هذه الآية يتقدمه دروس العالم .

فإذا كنا نرى أننا قد طلب منا التعارف العام بآية الحجرات ونداء الله للناس جميعهم ، فبالأولى علينا صلح ذات البين بيننا الذي هو في هذه الآية ، فانظر كيف كان التعارف العام لسائر الناس والصلح الخاص بين الأمم الإسلامية .

ولا جرم أن الصلح والودّة أخص من التعارف العام ، وهذا عجيب إذ وضع في كل آية ما يناسبها ؛ فالتعارف للعموم والمصالحة للخصوص : أى لخصوص الأمم الإسلامية ، اللهم إن المسلمين لم يعملوا اليوم لأخص الأمرين فضلا عن أعمهما ولن يوقفهم إلا أن يتذكر عقلاؤهم في أمثال ما نسكتبه في هذا التفسير ، اللهم إنك أنت الذي حكمت على الإنسان أن يحتاج إلى الطيور في أوكارها لتتقي له الحشرات الآكلات لزرعه كأبي قردان والتراب وغيرها مما مر ذكره في سورة السائدة في مقدمتها ، وهكذا العنكبوت الآتي في سورته إذ يأكل الحشرات أيضا ليقي زرعنا سليما ، فكأنك جعلت هذه المخلوقات الحية كأسرة واحدة وقلت في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ » فجعلتها أمما أمثالنا ثم أبنت في العلوم في الشرق والغرب أننا ملزمون بالمحافظة عليها لتساعدنا في بقاء نباتنا ؛ فالطيور مساعدا وذوات الأربع من البهائم والأنعام مساعدا ، فهذه أمم أمثالنا فلنحافظ عليها لأجل حياتنا ومعاشنا .

وإذا كان هذا شأننا مع الحيوان الأعجم فما نحن أولاء مع الإنسان العام علينا أن نسعى للتعارف معه كما نتعرف بالحيوان وندرسه ، ثم ههنا في هذه السورة أتيت لنا بأخص من ذلك وهو صلح ذات البين بيننا .

اللهم إن الأمم الإسلامية اليوم في قصور معيب وتقصير مخجل ، فلا بينهم اتفقوا ولا مع الأمم تعارفوا ولا للأمم الحيوانية درسوا ، ثلاث درجات جهلاها : درجة الحيوانية والإسلامية والإنسانية للذكورات في الأنعام والأفغال والحجرات على هذا الترتيب .

وأخص هذه الدرجات ما نحن بسدده الآن في هذه السورة ، وهذا هو تفسير آياتنا التي نحن بسددها وهي « وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله » وهذه أول الدرجات اعتقادا وعملا ويلبها التعارف العام للذكور في الحجرات ويلبها دراسة الأمم الحيوانية على اختلاف أنواعها ، هذا هو الذي يجب على المسلمين فليدرس ولينظر .

[ ما فوق للسادة ]

تذليل لهذا اللقاع

قال صاحبي : لقد قلت إن هناك نظرا يؤدى إلى ما فوق الأمور المادية ، فما معنى هذا وهل الإنسان يرتفع عن السادة في هذه الأرض ؟ قلت اعلم أننا نحن في نفوسنا في هذه الحياة بنزعة شريفة إلى حال عالية

وذلك كما في هذا اللقمة يتعالى الإنسان عن ملابسات الأجسام إلى أقصى مرام ؛ فغيري رعاك الله ألم أين لك أن كل عالم يعلم قد حصر عقله فيه ؛ فعالم الهندسة يبحث عن الأشكال وتناجها ، وهكذا علماء الزراعة لا يدرسون إلا ما يخص مامم فيه كهؤلاء الذين يقتلون الحشرات ، إن هؤلاء لا يستلذون اللذة التي يجدها صاحب العلم العام .

إن الإنسان على الأرض مغلوب على أمره خاضع لهذا الجسم يسمى لنموه وحفظه فشغله ذلك عن النظر العام والتفكير في بديع صنع الله ، وهذا التفكير هو لب الدين الإسلامي ، قال تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » .

وقد اصطفى الله أناسا وهم الأنبياء والحكماء فلهم زعنة إلى النظام العام ، فإذا نظروا في أمثال هذه الحشرات وفي سعادة الأمم وشقاوتها وفي نظام السموات والأرض وفي الحياة واللوت وفي القحط والجذب والحسب كانوا عند ذلك النظر كالمجردين عن هذه المادة . اللهم إن عقولنا التي غمست في أجسامنا قد حسبت عن عالمها الجميل .

إن هنا نظاما أدركناه وهذه النظام استوى فيه ما يؤمننا وما يسرنا ، فإن حشرات الهلاك وحشرات الحياة قد ساعدها الله وحفظهما ورزقهما .

إذن نظام هذا الوجود الذي نعيش فيه تكافؤ الخير والشر والضر والنعيم . ولذلك نجد عندنا موتا وحياة ، امرأة تلد وملك يقبض الأرواح ، فهنا تعاون بين الحياة واللوت والخير والشر ونحن بذلك ممنحون . لو كانت العاطفة الإنسانية كاملة لاستوى عندها اللوت والحياة والخير والشر ، إن نظام الوجود ساوى بين الأمرين ونظام الوجود محكم .

إن العقل الإنساني متى قرأ الحكمة عرف أن هذا النظام جميل وأن اللوت والحياة والخير والشر ضروريان لنظام هذا الوجود ، ومع هذه الحكمة التي يعرفها تراه يحزن ويفرح وهذا نقص مشين مزربنا دال على نقصنا في هذا الوجود واعلنا في عالم بعد هذا يتساوى عندنا الخير والشر فتكون عواطفنا سائرة على نظام عقولنا .

الهم إن العواطف لا تكون كاملة إلا إذا كانت جارية على نسق نظامك العالي ونحن اليوم على الأرض أطفال في أحوالنا ونحن سائرون إلى هذه الغاية حتى نوازي عواطفنا نظامك ونكون « على سرر متقابلين » لآلم ولا حزن ونكون راضين رضاه تاما بنظام هذا الوجود الذي هو على أتم نظام .

إن الإنسانية الجاهلة اليوم سترتقي إما في الأجيال الآتية وإما في عالم الأرواح ، ولا سبيل لسعادة الإنسان إلا بالاتحاد العام والوثام التام بين الأرواح بحيث يكونون في العالم الروحى متحدين متحابين وتزول الفوارق بينهم ؛ فليكن المسلمون اليوم مبتدئين بصلح ذات البين بينهم ثم يتبعون ذلك بالتعارف العام بقدر الإمكان حتى يعم الإصلاح ويوم القيامة يوضع الناس في مراتبهم وأحوالهم : إما في نعيم ، وإما في جحيم . إن صلح ذات البين والتعارف العام للأمم من الأنوار التي يقذفها الله في قلوب الخواص من عباده لتهتدى الأمم ويستنير الوجود .

قال صاحبي اضرب لي مثلا لهذه الصفة العالية . قلت : إن مثلها كمثل الطبيب فإنه أفضل وأرحم للمريض يقطع عضوه وهو رحيم ، فليس يكون المريض منتفعا بالطبيب حق الانتفاع إلا إذا أدرك العرض من عمله ؛ فالطبيب برحمته لا يبالي بالآلام التي تعترى للمريض من جراء تماطى الدواء ، هكذا الله تعالى والعوالم التي تتولى نظام هذه الدنيا يريدون الإصلاح العام ولا يباليون بحسرة تأكل الزرع وطاعون عام وأمراض فائسكة لأهم يدبرون التدبير العام ؛ فالأرض كلها أشبه بإنسان واحد ، فموت أمة وحياة أخرى وسعادة أمة وشقاوة

أخرى أشبه بما يعترى الإنسان من حلق شعره وتقليم أظفاره تارة وتطويلها أخرى ومرض عضو وصحة آخر ، فظهر العالم الأعلى الذى يتلقى الأمر عن الله هو هذا النظر ، فقال من أين أتى لك هذا القول ؟ فقلت أنا لم أفقد أحدا وإنما هذه خواطر هجمت على النفس ونفوسنا لما اتصل بعوالم أخرى ، فأنا أحس الآن بأن هذا المعنى حق وأن هناك عوالم أرق منا نظرها للأرض ، وهذا هو النظر لأنى أنا وأنا فى هذه الأرض أبعد فى نفسى سرورا ولذة وانسراحا عند إدراك نظام هذه الحشرات الفانكة بأشجارنا المهلكة لزرعنا ، فلماذا هذه اللذة وكيف أدركتها نفسى كما أدركت وسرت بنظام الحشرات اللاتى تكون سببا فى إلقاح النبات ، فإذا كانت نفسى على هذا النمط : أى تسرب بحسن النظام سواء أكان لشهوتها أو لضدها فهذا دليل أن هناك عوالم هذا دأبها . تشرف على عملمان ونجمله أمامها كأنه مدرسة أو حيوان لا تفعل فيه إلا للصلحة العامة .

إن سرورنا بالنظام العام وابتهاجنا به سعادة وبهجة وجمال ، فقال : وهل السرور بذلك واللذة تكون لكثير من أهل العلم ، وهل هذه دائمة ؟ قلت كلا إن نفوس الحكماء تشعر بها فى أوقات قليلة ثم تغلب عليهم العوالم الأرضية فيحزنون ويفرحون كبقية الناس وإنما يتسلون بالحكمة تارة وبالرضا أخرى ، فأما عدم الإحساس بالألم فهذا غير معقول ، اللهم إذا ذهل الإنسان ذهولا عاليا أو دينيا أشبه بذهول اللتوم (بالفتح) اللغاطيسى .

ولقد شرح هذا الإمام الغزالي فى الإحياء ذقراء هناك فى [ باب الحب ] ويشير إلى هذه المرتبة قوله تعالى « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فمن أين أن الله هو الذى أعطاه ومنعه فان ذلك يخفف الألم ، ومع اللداومة والصبر يصير الألم كالمدوم ، قال صاحبى : ماملخص هذا الموضوع كله ؟ فقلت نحن فى تفسير « وأصلحو ذات بينكم » قدرستا حشرة (المبسكس) وهى تؤذى الأشجار وتمدى أشجار الأمم الشرقية بعد العربية وقد حفظها الله لهذه العاقبة ، وذلك يوجب تعاون الأمم جميعا لاشتراكهم فى الضراء ، وأتى هذه الحشرة لاحتجاج لذكر وكذلك بعض النبات فيه الذكر والأنثى معا وهكذا الحناني من بنى آدم ، فالذكران والإناث فى الأمم متحدون أصلا وغاية ، والله يقول « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فما فرقتهم إلا ليجمعهم ، فرقى الشعوب والقبائل ، وهاهو ذا الآن يجمعهم كما فرق الذكر والأنثى وجمعهم ، وهذا الآن واجب على حكماء أمة الإسلام ، وأخص من ذلك صلح ذات بينهم .

ثم إن هذا النظر شريف وعال وحكيم ، إذ يجعل الإنسان منزلة ملكية عالية لأنه ينظر للعالم نظر الحكيم والملك ويحب الله ويحب الله تعالى ، لأن الحب على قدر العلم والتفكير والتبصر ، قال إن الحشرة المذكورة تفرز مادة على نفسها لتحفظها من الجوى . فقلت فأدنتها عظيمة جدا ، إنها تعطيتنا درسا أن جسم هذه الحشرة قد اكتفى بنفسه ففرز منه نفس المادة التى تحفظه من الجوى بكلود الأنعام وأشعارها وأوبارها فهى كلها نسيج أجسامها .

هكذا الإنسان له نفس معقدة بالأطوار والأحوال والجهل ، فبماذا يكسوها فيحفظها من الهوان ؟ لاسبيل إلى ذلك إلا بأن تفرز النفس مادة تحفظها ولا إفراز لها إلا العلم والعمل ، فكل عمل وكل علم يرجع إلى النفس فيعطىها قوة .

ولا جرم أن النظر العام الحكيم الذى نحن فيه الآن هو السند الأقوى والمقام الأعلى ، وكما زاد الإنسان اتساعا فى النظر والحكمة اشتدت قوته الروحية ونزعاته الفكرية وأمباله للسلية وإذن يصلح ذلك البين ويكون سببا فى تعارف الأمم فى الأقطار .



## تذكرة

سترى أيها الذكي إن شاء الله في سورة الحجرات عند قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » كيف كان خلق الذكر والأنثى في العالم الإنساني متساويين تقريبا وكيف كانت عقول الناس واستعدادهم موزعات على الأفراد بحسب الحاجة العامة للنظام للطلوب وكيف كان ذلك موجبا تعاون الأمم عموما ، وكيف كان اختلاف استعداد الأرض واختلاف استعداد العقول يوجب ذلك ، وهكذا من الباحث التي وضعتها في كتابي [ أين الإنسان ] ولخصه العلامة سننيلانة الفيلسوف الطلياني في مجلة العلوم الشرقية ، وهكذا ذكره الأستاذ البارون ( كراديفو ) في كتابه [ مفكرى الإسلام ] وسترى ذلك التلخيص هناك وما كنت لأعلم أن ذلك الكتاب كله داخل في معنى تلك الآية .

( تبصرة في كتاب [ أين الإنسان ] الآتى في سورة الحجرات ومناسبته لما هنا

ويان أنه ملخص الآية هناك ، وكيف كانت سورة الحجرات فيها الأمران مما :

الصلح بين المسلمين ، والتعارف بين جميع الأمم )

اعلم أيها الذكي أنى أول ما خطر لي تأليف كتاب [ أين الإنسان ] كنت أفكر في تعداد الذكور والإناث على سطح الكرة الأرضية فوجدت أن هذا العدد متقارب في كل بلدة وقرية ومدينة وأمة وشرق وغرب فأخذني العجب كل مأخذ وقلت في نفسى كيف يتساويان ولم كانا على قدر الحاجة ، أليس ذلك بتناية خاصة ؟ وعلى أن تكون جميع الصناعات والعلوم قد جعلت لها استعدادات في الفطرة كما ظهر ذلك في الذكورة والأنوثة ، بحث هذا الموضوع بحثا كثيرا ، ورأيت أن الأذكاء يقولون وأصحاب الأجسام العمليّة يكثرون على مقتضى للطلوب . ثم نظرت إلى نفس الأرض فوجدتها مختلفة البقاع استعدادا للنافع المختلفة فتبت في نفسى أن هذه الدنيا وضعتها محبب من حيث الأرض ومنافعها والناس واستعدادهم فألفت الكتاب وانتشر في أوروبا بلا قوة منى لأنى ليس لى معينون فى هذا ، لأن الشرق ليس له عهد بعمل مثل هذا ، وذكرت فى الكتاب أن الناس لا يهنا لهم عيش إلا إذا استخرجوا جميع القوى فى الإنسان وفى الأرض ، ولا يتم هذا إلا بأن يكون الناس كأسرة واحدة .

ولما عرف هذا أهل أوروبا قرظوه ولخصوه كله وسترى فى سورة الحجرات ملخص الكتاب بقلم

الكتاب الأوروبيين .

انظر إلى سورة الحجرات تر هناك آيتين ، الأولى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم وانفوا الله لعلكم ترحمون » والثانية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الخ » فالآية الأولى تنفق مع ما هنا ، فالمسلمون يكون بينهم الصلح واللودة ثم بعد ذلك يتعارفون مع غيرهم ، إن فى الحجرات الأمرين معا : فأولهما هو فى السورة من الصلح بين المسلمين ، وثانيهما هو التعارف العام ، وأهم ما فى هذا المقال أن آية التعارف هى ملخص كتاب [ أين الإنسان ] .

ألا ترى رعاك الله أنت مسألة الذكور والإناث التى فى أول الآية هى عينها التى كانت أول ما فكرت لظهور الكتاب ، وأن مسألة التعارف التى فى آخرها هى بعينها التى قررتها فى آخر الكتاب .

أفلا تتعجب معى أن يكون هذا الكتاب تفسيرا لآية واحدة من القرآن وتلك الآية متممة للآية هنا ، فإن السلام العام يحتاج لأمرين : صلح خاص بين المسلمين ، وأعداد مع الأمم فى الأعمال العاتمة ، وانظر كيف كانت آية الصلح بين المسلمين جاءت فى هذه السورة التى هى مقدمة فى الترتيب على تلك السورة ، وأيضا هى فى الحجرات أيضا مقدمة ذلك هو العجب الذى ستره واضحا هناك . وهذا يدعو المسلمين إلى أمرين : صلح

بينهم ، وتعارف مع الأمم ، وقد ابتدأ ثانيهما وشرع عقلاء المسلمين في أولهما فليشر للمسلمون بدنا ، وهذه من عجائب ومعجزات القرآن في هذا الزمان .

كيف قصر المسلمون في قوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم »

إن المسلمين ينقصهم الرقي في كل شيء ، إن اللوذة لانكون إلا جلم وما دام العلم قليلا كانت اللوذة ضعيفة بل هي معدومة ، لا ترى بين المسلمين اليوم مودة كالتى نراها بين الأمم الأخرى ، نعم للمسلمون مودتهم عبوة وليس يظهرها إلا الحركة العلمية والعملية .

وإني ليحزننى ألا أقرأ للمسلمين مثل ماقرأته اليوم ١٢ يناير سنة ١٩٢٧ أن أول محادثة جرت (بالتلفون) التى لاسلك له جرت يوم ٧ يناير المذكور بين صاحب جريدة (النيويورك ورلد) وبين رئيس تحرير (الدبلى اكسبريس) بلندن وبينهما ثلاثة آلاف ميل ، أى نحو ثمن الدائرة المحيطة بالأرض ، وقد تبادلوا التحيات والأخبار عن جوق البلدين (نيويورك ولندن) وأخذت صورة كل منهما وهو فى بلده وأرسلت صورة الأول حالا بطريق اللاسلكى وهكذا صور الأمواج عند تكلمه ، ونشر هذا كله فى جريدة (الدبلى اكسبريس) .

هذه هي مودات الفرنجة والأمريكان ، أيها القارى لهذا التفسير فكر فيما أقول ، وقل لى هل سمعت مثل هذا بين مصر وبناداد أو بينهما والإستانة والأفنان أو بينهما وبين شمال أفريقيا ؟ كلا ! فهذه أمم أعمدها صفار العدا عن العلوم وعن الصناعات تجهلوا العالم الذى نعيش فيه وجهلوا أنفسهم ، وسيكون هذا التفسير من مبادئ النهضة العلمية والعمل بعد العلم ، انتهى .

فريدة مشرقة فى سورة الأنفال والتوبة ثم القتال والفتح والحجرات

ومن عجائب القرآن أن ذكر الصلح جاء قبيل الكلام على القتال والنصر فى هذه السورة . ذلك لأن قتال العدو لا يتم إلا بعد اتفاق المجاهدين كما قدمنا فإذا تباعضوا فلا قتال ولا نصر . وانظر إلى سورة الحجرات التى بعد سورة القتال ثم سورة الفتح كيف ذكر فيها الصلح بين المسلمين والتعارف بين الأمم ، كأنه يقول هنا لاجهاد إلا بعد اتفاق الأمة واتحادها ، ويقول هناك إذا جاهدتم وفتحت البلاد فمليكم أمران : صلح فيما بينكم شامل كما كنتم قبل القتال ثم تعارف مع الأمم وتكون النتيجة هكذا صلح دائم قبل الحرب وبعدها فى الأمة ، ثم إنكم إذا ملكتم الأمم فتعارفوا مع دوام الصلح ، هذا ما يؤخذ من ترتيب السور والآيات ، وافق على ماقول وكيل . انتهى الكلام على القسم الأول .

(القسم الثانى)

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ \* يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ \* وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِخْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ \* لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ \* إِذْ تَسْتَفِيضُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابْ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

مُرْدِفِينَ \* وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ  
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* إِذْ يُنشِئُكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
لِيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ \*  
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَائِغِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ  
عَذَابَ النَّارِ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ \*  
وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِقَضَبٍ مِنَ اللَّهِ  
وَمَا أَوَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ \* فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَا كُنَّ  
اللَّهُ رَمِيًّا وَلِيُنبِّئَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءَ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ  
كَيْدِ الْكَافِرِينَ \* إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُمْ الْفَتْحُ، وَإِنْ تَقْتُلُوهُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ  
تَعُودُوا أَعُدُّوا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

#### مقدمة في سبب غزوة بدر

روى: أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في غير قريش في أربعين راكبا من كفار قريش منهم  
عمرو بن العاص ومعهم جمال تحمل عطرا وميرة وبزاز<sup>(١)</sup> حتى إذا كانوا قريبا من بدر وهو ماء كانت العرب  
تجتمع عليه لسوقهم يوما في السنة فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم فقال لأصحابه « هذه غير قريش فيها  
أموالهم » وحرصهم على الخروج إليهم غلب بعضهم ونفل بعضهم ، فلما سمع أبو سفيان يسير رسول الله  
صلى الله عليه وسلم إليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا يستفهم ويخبرهم  
أن محمدا في أصحابه قد عرض لعيرهم ، فخرج ضمضم سريعا إلى مكة وكانت عائشة بنت عبد المطلب قد رأت  
رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعها ، فأخبرت بها أباها العباس بن عبد المطلب قالت : رأيت  
راكبا أقبل على بعيره حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته قائلا : ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم  
في ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر  
الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته : ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس  
أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى  
بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا ودخلها منها فلقية ، فقال العباس : والله إن هذه الرؤيا فظيمة

(١) وهذا هو معنى الطييمة .

فاكتمها ولا تذكرها لأحد ، ثم ذكر العباس الرؤيا للوليد بن عتبة واستكتمه إياها ، والوليد ذكرها لأبيه عتبة وفشا الحديث . قال العباس فعمدت أطرف بالبيت وأبوجهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عائكة ، فلما رآني أبوجهل قال : يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا . قال العباس : فلما فرغت من طوافي أقبلت إليهم فقال لي أبوجهل يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبوة فيكم . قلت وما ذاك ؟ قال الرؤيا التي رأت عائكة . قلت وما رأت ؟ قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ؟ لقد زعمت عائكة في رؤياها أنه قال : اغزوا في ثلاث . فستربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك ما قالت حقا فيكون ، وإن غمز الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نسكتب عليكم كتابا بأنكم أكذب أهل بيت في العرب . قال العباس فأنكرت أن تكون عائكة رأت شيئا ثم تفرقنا فشايع قول أبي جهل في الناس ، فلم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقلن : أقررتم لهذا الفاسق الحديث أن يقع في رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع فأبى النبوة ؟ فاحتدم الغيظ في صدر العباس وأقسم أن يتعرض له ويقتل منه ، قال فعدوت في اليوم الثالث من رؤيا عائكة وأما حديد مغضب أرى أني قد فأتني شيء أحب أن أدركه منه . قال فدخلت المسجد فرأيت فواته إني لأمر نحوه أتمرضه ليعود لبعض ما قال فأوقع به إذ خرج نحو باب المسجد يشتد . قال العباس : فقلت في نفسي ماله لعنة الله أكل هذا فرقا مني أن أشأته ، قال فإذا هو صمغ صمغ صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره وقد جدد بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يا ممشر قريش اللطيمة اللطيمة (تقدم معناها) هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها ، الثوث الثوث . قال فشقته عنى وشغلني عنه ما جاء من الأمر فخرجت قريش سراعا ولم يتخلف إلا أبو لخب وقد بعث مكانه العاص بن هشام بن القيرة .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ليل مضت من شهر رمضان حتى بلغ واديا يقال له (ذاقرد) فأناه الخبر عن مسير قريش ليجتمعوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء أخذ عينا للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا له يدعى (أريقط) فأناه بخبر القوم وسببت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الوحي « إن الله وعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم » إما العير وإما قريش فكانت العير أحب إليهم ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فدل بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إما أخرجنا للعير فردّ عليهم ، وقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فنضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فقال وأحسن وكذلك عمر والمقداد بن عمرو إذ قال يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون الخ ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ثم قال سعد بن معاذ من الأنصار فأحسن في القتال فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك فقال سيروا على ركة الله وأبشروا فإن الله عز وجل وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم .

روى مسلم عن أنس بن مالك « أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ربنا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى ، قال عمر فواللهي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدتها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا ؟ فإني وجدت ما وعدني الله حقا ، فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم

أجسادا لا أرواح فيها ؟ فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئا فذلك قوله سبحانه وتعالى : وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، معى طائفة أبي سفيان مع العبر ، وطائفة أبي جهل مع النضير . إذا عرفت أيها الذكي هذه المقدمة اوجزة فما أسهل تفسير الآيات .

يقول الله الأنفال ثابته لله والرسول مع كراهتهم لذلك ثابنا مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك معى بالمدينة لأنها مهاجرة ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم ، وهذا قوله ( كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لسكرهون ) أى أخرجك في حال كراهتهم ( بمجادلونك في الحق ) في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقى العبر عليه ( بعد ما تبين ) أنهم ينصرون أيما توجهوا بإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم ( كأما يساقون إلى اللوت وهم ينظرون ) أى يكرهون القتال كراهة من يساق إلى اللوت وهو يشاهد أسبابه وكان ذلك لفظة عددهم وعدم تأهيم . إذ روى أنهم كانوا رحالة وما كان فيهم إلا فارسان ، وفيه إيماء إلى أنهم كانوا فزعين رعبا ( و ) اذكر ( إذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ) وقوله « أنها لكم » بدل من « إحدى » ( ونودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ) معى العبر إذ لم يكن فيها إلا أرجون فارسا فتمنوها وكرهوا النضير ، والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك ( ويريد الله أن يحق الحق ) أن يثبت عليه ( بكلماته ) الموحى بها في هذه الحال ( ويقطع دابر الكافرين ) ويمنع صلحهم : معى إنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تنفوا مكرها بملافة العبر ، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق بملافة النضير ، فعل ما فعل ( ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ) ذلك .

واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى الشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثائة فاستقبل القبلة ومدت يديه يدعو : اللهم أنجز لى ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتمبد فى الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فقال أبو بكر : يا نبي الله كفك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . وأيضا كان الصحابة يقولون : « ربنا انصرتنا على عدونا أعشنا ياغيث للسنين » وذلك لما علموا أنه لا يحمي من القتال وهذا قوله تعالى مبذلا من قوله « إذ يمدكم الله إحدى الطائفتين » ( إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم ) أى بأنى ( بألف من اللائكة مردفين ) بكسر الهمزة والفتح أى متبعين فهم على الأول كانوا ساقا الحيش ، وعلى الثانى كانوا مقدمته . ويقال رده إذا تبعه وأردفته إياه إذا اتبعته ( وما جعله الله ) أى الإمداد ( إلا بشرى لكم ) أى إلا بشارة لكم بالنصر ( ولتطمئن به قلوبكم ) فيزول ما بها من الوجع لقتلكم وذلكم وظاهر الآية يفيد أنهم لم يقاتلوا . ولذلك قال بعض العلماء إنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين وإلا فلك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا .

ويقول بعضهم إنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فى سواه من الأيام ، وهناك روايات وردت فى نزولهم يوم بدر وقتالهم لانطيل بذكرها هنا ( وما النصر إلا من عند الله ) أيها المؤمنون فاقوا بنصره ولا تسكلوا على قوتكم وشدة بأسكم ، وما كثرة الجيوش ولا إمداد اللائكة ولا قوتكم وكثرتكم إلا وسائط لا تأثير لها ، فلا تحموا النصر منها ولا تياسوا . به بفقدها ( إن الله عزيز ) قوى منيع لا يقهره شئ ( حكيم ) فى تديره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء .

ولما كان المسلمون قليلى العدد وكان أهل مكة كثيرا عددهم اعترام الخوف على أنفسهم أن يظلبوا ويقهروا ، وعمما زاد الطين بلة أن للمسلمين نزول ذلك اليوم « يوم بدر » على كتيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان للشركون قد سبقوم إلى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبضهم محدث وبضهم جنب ، وأصحابهم المنطقى فوسوس لهم الشيطان وقال تزعمون أنكم على الحق وفيكم

بني الله وأتم أولياء الله وقد غلبكم للشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنيين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم ؟

فهذه أمور خمسة : الأول : الخوف من غلبة العدو . الثاني : ما أصابهم من الحدث والجنابة والعتش . الثالث : وسوسة الشيطان لهم وكيف يكونون على الجوع وهم بهذه الحال ؟ الرابع : عدم الوثوق وزلزلة القلوب . الخامس : أن الأقدام لا تثبت في ذلك السكيب الأغر الذي لاماه فيه ، فذلك أكرمهم الله بإزالة الخوف في قوله بدلا ثانيا من « بعدكم » ( إذ ينشيك النعاس أمانة منه ) النعاس : النوم الخفيف « أمانة منه » أي أمانة من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم وهو مفعول لأجله ، وذلك أن الخائف على نفسه لا يأخذ النوم ، فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الأمن وإزالة الخوف ، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم لأنه كان خفيفا بحيث لو تصدم العدو لمرقوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم . وهذا كالمعجزة لاسبابها إذا كان ذلك النعاس وقع دفعة واحدة فناموا كلهم مع أكثرهم كما قيل .

وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة ، فهذا هو الأمر الأول من الأمور الخمسة ، وهو الأمن المزيل للخوف .

وأشار إلى الثاني وهو ما أصابهم من الحرث الخ بقوله ( وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ) فأزل عنهم الطمر فشرّبوا واغتسلوا من الجنابة والحدث .

وأشار إلى الثالث وهو الوسوسة بقوله ( وبذهب عنكم رجز الشيطان ) أي وسوسته ، وذلك أنهم أمطروا ليلا حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب واغذّلوا وتوضّأوا وتلبّد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة والاضطراب .

وأشار إلى الرابع بقوله ( وليربط على قلوبكم ) بالوثوق بلطف الله .

وأشار إلى الخامس بقوله ( وثبتت به الأقدام ) أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل أو بالربط على القلوب حتى تثبت في الحركة .

فهذه هي الأمور الخمسة التي أتم الله عليهم بها لإزالة ما ابتلوا به من نقائصها .

واعلم أن هذه القصة اشتملت على ثلاثة أقسام : للملائكة والمؤمنين والكافرين ، فهنا أخذ سبحانه يشرح لكل طائفة ما يناسبها ، فقال في الطائفة الأولى وهم الملائكة ( إذ يوحى ربك ) بدل ثالث من « إذ بعدكم » ( إلى الملائكة أي معكم ) في إعانتهم وتثبيتهم وهو مفعول يوحى ( فثبتوا الذين آمنوا ) بالشارة وقرّوا قلوبهم .

ولقد تقدّم في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن السنة والملم الحديث في أمريكا وأوروبا على اتفاق أن الأرواح الشريرة وهي الشياطين لها قوّة تلتقي بها الوسواس في قلوب بني آدم وتثير فيها الشر ، وهكذا للملائكة قوّة الإلهام بالخير في قلوب الناس ، فالأول وسوسة . والثاني إلهام ، فهذا هو التثبيت ومنهم التبشير بالنصر والظفر وربما تدي ذلك القلب إلى الظهور عيانا نادرا كما في هذه الغزوة .

قبل كان لللك يعنى في صورة رجل أمام الصف ويقول : أبحرنا فإن الله ناصركم عليهم ، ومن صور الشيت قوله تعالى للملائكة : قولوا للمؤمنين (سألني في قلوب الذين كفروا الرعب) أي الفزع ، ثم خاطب الله للمؤمنين قائلا ( فاضربوا فوق الأعناق ) أي أعلى الأعناق التي هي اللذائغ أو الرؤوس ( واضربوا منهم كل بنان ) جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين : أي حزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم ، فضرب الرأس به هلاك الإنسان ، والبنان به يتمكن الإنسان من مسك السلاح وحمله والضرب به ، فإذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله ( ذلك ) الضرب ( بأنهم شاقوا الله ورسوله ) أي بسبب مشاققتهم لهما : واشتقاقه من الشق لأن كلا

من المتأديين في شق خلاف شق الآخر (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) وعيد لهم بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا (ذلكم) القتل والأسر الذي نزل بهم أيها الكفرة واقع (فذوقوه) عاجلا في الدنيا، وإنه ليسير بالإضافة إلى ما أعد لكم في الآخرة من العذاب (وأن للكافرين عذاب النار) منسوب على أنه مفعول معه كقولك سرت والنيل: أي ذوقوا ما جعل لكم من العذاب مع ما جعل لكم في الآخرة، وقد وضع فيه الظاهر موضع الضمر دلالة على أن الكفر هو السبب في جمع العذاب العاجل مع الآجل.

ولما انتهى الكلام على خطاب الملائكة وما يتبعه شرع سبحانه يخاطب المؤمنين وهم الطائفة الثانية فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) وهذا حال من الذين كفروا، والزحف الجيش الذي يرى لكثرتهم كأنه يزحف: أي يدب ديبا، من زحف الصبي إذا دب على استه قليلا قليلا سمي بالمصدر؛ فالعنى إذا لقيتم الذين كفروا كثيرا عددهم (فلا تولوهم الأدبار) بالانزمام فضلا عن أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم: أي إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تقفروا فضلا عن أن تقاوموهم في العدد أو تساوموهم، وهذه مهزة أولى المهمة العالية الذين يتكلمون على ربههم ولا يباليون بما يترصهم من كوارث وعمن (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متجرفا لقتال) يريد الكفر بعد الفرو وتفرير العدو فإنه من مكابد الحرب (أو متحيزا) منضما (إلى فئة) إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها وهما حالان من فاعل يولهم الضمر (قد باء) بنسب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) واعلم أن التحيز يشمل من تحيز إلى فئة بعيدة، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما « أنه كان في سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة قال فقلت يا رسول الله نحن الفرارون، قال بل أنتم الكرارون وأنا فتكم ».

واعلم أن أكثر أهل العلم يقولون إن المسلمين يحرم عليهم الفرار يوم الزحف إذا كان العدو مثلهم فأقل، أما إذا كان أكثر من مثلهم فإنه يجوز الفرار وذلك لأن هذه الآية مخصوصة بما يأتي في قوله تعالى « الآن خفف الله عنكم » فأفادت الآية أن الواحد يطلب اثنين. قال ابن عباس: من فر من ثلاثة لم يفر، ومن فر من اثنين فقد فر. وقال آخرون إن الفرار كان كبيرة يوم بدر؛ فأما يوم أحد ويوم حنين فقد خفف الأمر في الآيات كقوله في الأولى « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم » وفي الثانية « ثم وليتم مدبرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ».

والقول بأن التولي ليس كبيرة بعد غزوة بدر وأن المسلمين بعضهم فئة بعض، فيكون الفار متحيزا إلى فئة، فأما في يوم بدر فلم تكن لهم فئة يناهزون إليها، فلما انحازوا انحازوا إلى المشركين، مروى عن الحسن وقادة والضحاك.

وأكثر أهل العلم على الأول كما تقدم، فإذا كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفرّوا منهم ويولوهم ظهورهم، وإن كان العدو أكثر من مثل المسلمين جاز لهم أن يفرّوا منهم.

روى مجاهد أنهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا، فنزل قوله تعالى إن افتخرتم بقتلهم (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) يعني بنصره إياكم وتحويلكم عليهم وإمدادكم بالملائكة يبشرونكم ويلهونكم ويربطون على قلوبكم بل يكترون سوادكم ويحاربون صمكم على قول، ثم إن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فذا التقى الجمعان تناول صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال « شأمت الوجوه » يعني قبحت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفته ومنخرته من ذلك التراب شيئا. فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقاتلونهم ويأسرونهم.

ومعلوم أنه ليس في وسع أحد من البشر أن يرمى كما من الحصى في وجوه جيش فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها من ذلك شيء ، فصورة الرمي صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عز وجل .

فلهذا المعنى صح النبي والإتيان في قوله تعالى ( وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ) يعني أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر ولكنها كانت وصية الله حيث أرت ذلك الأثر العظيم وعليه يكون فعل العبد مضافا إليه كسيباً وإلى الله تعالى خلقاً ، فقد أثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه وأثبتته لله فقال « ولكن الله رمى » وإنما فعل ذلك ليهلك عدوكم ( وليبلى ) وليعطى ( المؤمنين منه بلاء حسناً ) عطاء جميلاً: أي والإحسان إلى المؤمنين ( إن الله سميع ) لدعائهم ( عليم ) بأحوالهم ( ذلكم ) البلاء الحسن ( وأن الله موهن ) مضعف ( كيد الكافرين ) يعني مكرم وكيدهم معطوف على « ذلكم » أي الفصود إبلاء المؤمنين ونوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم ومكرهم .

#### لطيفة

قال أهل التفسير والغازي : « لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرًا ووردت عليهم روايا قريش وفهم أسلم وهو غلام أسود لبني الحجاج ، وأبو يسار وهو غلام لبني العاص بن سعد فأخذوها وأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم أين قريش ؟ قالوا وراة الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، والكتيب : العقنقل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟ قالوا كثير : قال ما عددهم ؟ قال لا ندري : قال كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوماً عشرة ، وبوما تسعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما من فهم من أشرف قريش ؟ قالوا عتبة بن ربيعة وشدة بن ربيعة وأبو البجرتي بن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعمة بن عدى والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأميرة بن خلف ونبية ومنية ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذكبها ، فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل وهو الكتيب الرمل جاء إلى الوادي فقال « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وغرورها تحادك وتكذب رسولاك . اللهم فصرك الذي وعدتني فكان ما كان من النصر والفوز » وإلى هنا انتهى الكلام على خطاب المؤمنين .

ثم إنه سبحانه خاطب الكافرين وهم الطائفة الثالثة فقال ( إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ) أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لأهل مكة ، لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تملقوا بأستار الكعبة وقالوا : « اللهم إن كان محمد على حق فأنصره ، وإن كنا على حق فأنصرنا » ولما اتفق الجمعان قال أبو جهل : اللهم أينما كان الجبر ( يعني نفسه ومحمد صلى الله عليه وسلم ) قاطعاً للرحم فأحنه اليوم . اللهم انصر أهدي العتقين وخير الفريقين وأفضل الجمعين . اللهم من كان الجبر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم . ويطلق الفتح على الحكم ، أي إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم العتقين فينصر للظالم على الظالم فقد جاءكم الفتح ، يعني حكم الله بنصرة للظالم على الظالم والمحق على المبطل والمقطع على القاطع .

روى البخاري ومسلم « أن عبد الرحمن بن عوف قال إنى لواقف في الصفا يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا ببنامين من الأنصار حديثاً أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فعمزني أحدهما فقال ، أي عم هل تعرف أبا جهل ؟ قالت نعم ، فما حاجتك إليه يا ابن أخي ؟ قال أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالذي نفسي بيده لئن رأيت لايغارق سوادى سواده حتى يموت الأعرج منا ، فتعجبت لذلك وعمزني الآخر ، فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يحول في الناس ، فقلت ألا تزيان ؟



هذا صاحبك الذي تسألان عنه ؟ قال فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، فقال : أيبك قتله ؟ فقال كل منهما أما قتلته ، فقال هل مسحتما سيفيكما ؟ فقالا : لا ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين فقال : كلاكما قتله فقتضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما ، والرجلان : معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن عفراء رضي الله عنهما .

فهاهو ذا أبو جهل قد استفتح ، وهاهو ذا قد جاءه الفتح وحكم الله بقتله قال تعالى لكفار مكة ( وإن تنهوا ) عن الكفر ومعاداة الرسول ( فهو خير لكم ) لتضمنه سلامة الدارين وخير للرايين ( وإن تعودوا ) لخاربه ( عند ) نصرته عليكم ( وإن تنهى عنكم ) ولن تدفع عنكم ( فتتكم ) جماعتكم ( شيئا ) من الإغناء ( ولو كثرت ) فتتكم ( وأن الله مع المؤمنين ) أي ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من سورة الأتقال .

وهنا خمس لطائف :

[ الأولى ] اقتحام الأخطار في قوله تعالى « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين الخ » .  
[ الثانية ] أن هذا العالم المادى خاضع لناموس العقول ، وأن عمل القلوب مهيمن على الأجساد ، وعلو المهمة به تذلل الصعاب في قوله تعالى « وما جعله الله إلا بشري لكم » .  
[ الثالثة ] دقة للاحظة والبحث الصادق في أمور هذه الحياة في قوله « إذ ينشئكم الناس أئمة منه » .

[ الرابعة ] الثبات وقوة العزيمة أساس الأعمال في هذه الحياة .  
[ الخامسة ] عدم الإعجاب بالنفس وترك التكبرياء في قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » ولنبداً بإيضاح هذه اللطائف الخمس فقول :

#### اللطيفة الأولى

فيها استبان خلق اقتحام الأخطار ومقابلة الحوادث الجسام والأهوال الفخام والأمور العظام بالجلد والصبر واختيار أعظمها قدراً وأشدّها بأساً وأعلاها شأناً وأرفعها مقاماً وأجملها نظاماً وأبعدها سيلاً وأقومها قبلاً ، ألا وهي التناهي عن العير والمسارة إلى التغير واصطفاء أشرف الأمور .  
ولعمري كيف يساوي ذلك الزاد والميرة وبيض البرز والمطر الذي كان مع أبي سفيان ذاهباً إلى مكة قتل سنايد فريش . لعمري ما أبعد الفرق ما بين رأس الأمر وأعله ، وبين ذنبه وأدناه . فعلو المهمة في النظر إلى معالي الأمور وأشرفها لا إلى أخسها وأحقرها . فلتكن هممتنا في حياتنا الدنيا متوجهة إلى أعلى الأمور والتتكب عما يكتفى به الجمهور من العرض القليل والنفع المادى إذا كان هناك ما هو أشرف وأجدر وأعلى وأكبر .

#### اللطيفة الثانية

لقد اطلمت على حديث الملائكة ، وكيف أرسلهم الله في غزوة بدر ، وكيف اختلف العلماء هل هم حاربوا مع المسلمين وظهروا بصورة بشرية وأسلحة حديدية وملابس عربية وقطعوا الرؤوس وأزالوا النفوس أم هم اكتفوا بتكثير السواد وإهداء البشارة للمحاربين . أم كان نزولهم على القلوب بالإلهام والتبشير وتقوية الهمم كما أنهم يتبطون همم الأعداء ويلفون في قلوبهم الرعب . هذا كله قد تقدم ولكن الآية قد ذكرت قصارى الأمر وحماداه ومبدأه ومنتهاه وشرحت للقيام وأزاحت اللثام وأذهبت الغمام ، فإذا قالت ؟ جاء فيها قوله تعالى « وما جعله الله إلا بشري لكم » فذكر ذلك

على سبيل الحصر والفسر كأنه يقول إنما خلقتم في الأرض مختبرين وظهرتم عليها مختبرين فليكن مقارعة الأبطال والطمع والزوال .

وما كان إزال للملائكة لتقدموا وهم يعملون ، وتنكصوا وهم يتقدمون ، وتناموا وهم مستيقظون ، ناله لم تخلفوا سدى فلا تفتحتموا الردى ، بل خلقتم مختبرين وفي الأعمال مختبرين . وما إزال للملائكة عليكم إلا لتبشركم بالإلهام وتبسط همم الأفوام ، ولو ثبت أنهم قتلوا معكم أناس لم يكن ذلك إلا ليشجعوكم وليقدموكم وإلا لتبسط فضيلة الاختبار ولخرجتم من الحياة بلا اعتبار فلا منازل في الآخرة إلا حيث الجهاد في الحياة ، ولا جهاد للملائكة قائمون مقامكم ، مقاتلون عدوكم ، مبددون الأعداء وأنتم نيام ، وكذا كان العمل أشق كانت النتيجة أرقى والعاقبة أبقى والسعادة أبقى .

ألا وإن النية تسبق العمل والأعمال لا قيمة لها إلا بعزمت القلوب ، فكلمتا امتلا القلب بالبشارة والآمال انتهجت الأعضاء بالأعمال ، إن القلوب لعظيم سلطانها قوية هزمتها ، فحق صلحت الأعمال ومق جهلت أوخذت أو تشاءمت أو شكت أو يشتت بطلت أعمال الجوارح ، وكيف يعمل المأمور والأمر خاسر الأنفاس كثير اليأس ، وكيف تهيج الأعضاء للعمل إذا كان القلب قليل الأمل ضعيف الحيل خائر العزيمة حائدا عن السنن ، هنالك لا عمل له يلقاه ، ولا عمر له يرضاه .

#### اللطيفة الثالثة

انظر إلى الأمور المحسة المذكورة في الآيات وكيف فصلها الله تفصيلا ، فذكرها واجس القلوب وخواطر الضائر ولم يدع قطرات السحاب للاطرات ، ولا عطش القوم في القلوات ، ولا نبات الأقدام في الطرقات ، ولا ناس القوم في المهجمات ، فجعل لكل من هذه الحوادث حكمة إلهية ومنه ربانية إنارة للعقول وتبصرة للأفهام ، كأنه قيل انظروا في أعمالكم اليومية وأحوالكم الإنسانية وما ينتابكم من أمور طبيعية تفقدوا صفاتها وتأملوا كبارها . واعلموا أن لكل منها نهجا صادقا وطريقا واضحا فاعتبروا بكل منها وتدبروه وتأملوا فيه واذكروه واعلموا أنه مامن صغير من الأمور ولا كبير إلا وله نيا ومستقر علمه من علمه وجهله من جهله ، فإياكم أن تمر عليكم الحوادث من السحاب ، فلا تقيمون لها وزنا ولا تعرفون لها معنى وإذا كنت قد ذكرت الناس في غزوة بدر وجعلت لزول المطر حكمة عملية ولثبوت الأقدام على التراب مكرمة ربانية ولزوال وساوس المواجهات الشيطانية مزبة حكيمة . هكذا فلتكونوا في سائر أموركم مفكرين وفي جميع أعمالكم ناظرين « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

#### اللطيفة الرابعة

هذه داعية الثبات مرقية الهمة ، كيف لا وإن تحريم التولى يوم الزحف من أجل الأمور قدرا وأعظمها أثرا وأشرفها مقاما ، وفيها احتقار الحياة في عظامم الهمة ، وعدم التولى يوم الزحف يكون من آثاره قوة العزيمة التي هي سر الحياة ومناط السكال ونهاية الفضائل . ولقد ذكر القرآن الصبر نحو (٧٠ مرة) وجمعه مناط الأعمال ، وعليه مدار السعادة في الحال والمآل ، وأعظم الصبر ما كان في بند النفس في سبيل المجد الأخروي والديني وشرف اللقاه .

#### اللطيفة الخامسة

فيها التواضع وأن يعرف الإنسان مقامه في الوجود فلا يخر بما أتبع له من ظفر ، وما أعطاه إياه القدر

ولا يلبس لباس الخيلاء ، ويتبختر تبختر الحناء ، فإذا نال أمرا دينيا أودنوبا فليرجع إلى الله تعالى ولا يكثر من الفرح بما آتاه « إن الله لا يحب الفرحين » وليعلم أن الله هو الذي أعطاه ولا حول ولا قوة إلا بالله « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » وهذا آخر الكلام على القسم الثاني من سورة الأنفال .

### (القسم الثالث)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ \* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ بِكُمْ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ \* وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ \* وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآذَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَضْرِهِ وَزَقَّكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ \*

تفسير بعض الألفاظ

قوله (ولا تولوا عنه) أي عن الرسول (وأنتم تسمعون) القرآن واللواظ سماع فهم وتصديق (كالذين قالوا سمعنا) أي كالكفرة أو الناققين الذين ادعوا السماع (وهم لا يسمعون) سماعا ينتفعون به فكأنهم لا يسمعون رأسا (إن شر الدواب عند الله) شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم (الضم) عن الحق (البيم الذين لا يعقلون) إياه ، عدمهم من البهائم ثم جعلهم شرا لها لأنهم أبطلوا ما ميزوا به وبه فضلوا (خيرا) أي سعادة كتبت لهم أو انتفاعا بالآيات (لأسمعهم) سماع تفهم (ولو أسمعهم) وقد علم أن لا خير فيهم (لتولوا) ولم ينتفعوا به وارتدوا بعد التصديق والقبول (وهم معرضون) لندامهم (استجيبوا لله وللرسول) بالطاعة (إذا دعاكم) أفرد الضمير هنا كما سبق في قوله تعالى « ولا تولوا عنه » لأن ذكر طاعة الله والاستجابة له للتوطئة والتثنية على أن طاعة الله واستجابته من طاعة الرسول ، وأيضا إن دعوة الله تسمع من الرسول (لما يحييكم) من :

(١) العلوم الدينية لأنها تحي القلوب ، والجهل موت . قال الأول :

لأنجيب الجهول حله فذاك ميت ونوبه كفن

(٢) ومما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال :  
 (٣) ومما يورث بقاءكم أحياء في هذه الحياة الدنيا وهو الجهاد ؛ إذ لو تركناه لقتلنا العدو .  
 (٤) ومما يورث حياتكم الأخروية وهي الشهادة لله بالوحدانية .  
 فطاعة الرسول واجبة للعلوم الدينية والعقائد الإسلامية والجهاد والشهادة . فبالأول حياة القلوب .  
 وبالثاني حياة الآخرة . وبالثالث حياتنا في الدنيا . وبالرابع حياتنا حياة أرقى في الآخرة بالشهادة .  
 ثم قال تعالى ( واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ) وهذه الآية لها أربعة أمور أيضا :  
 (١) فهو أقرب إليه من جبل الوريد ، وهو عرق في الرقبة شبه بالجبل ، فهذا تمثيل لغاية قربته  
 من العبد .

(٢) وهو مطلع على خفيات القلوب فيعلم ما قد يخفى عنه صاحبه كما سيأتي إيضاحه في التوريم للفناطيسي .  
 (٣) فليتبجج الإنسان إلى قلبه فليخلصه من الشوائب قبل أن يحال بينه وبينه فلا يقضى له تصفيته حين  
 يحال بينه وبين قلبه بمجنون أو يموت .

(٤) وليعلم الإنسان أن عزائمته تحملها أوساس ، وتفسخها للمرجحات ، وتذهبها النهموات ، وقد يحكم  
 عليه بالكفر فلا يقدر على الإيمان وينعم عليه بالإيمان فلا يكفر لشقاوته في الأزل عند الأول وسعادته فيه  
 عند الثاني .

( وانفوا فتنة ) الفتنة : الذنب ( لاتصيين الخ ) أي إن أصابكم لانصب الظالمين منكم خاصة وانسكنها  
 نعمكم : أي اتقوا ذنبا يعممكم أثره كأن يقرئ الناس للسكر ، وكأن يدهنوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،  
 وكأن تفرق الكلمة ، وتظهر البدع ، ويكسل الناس عن الجهاد .

وهذا دلالة على أن المسلمين جميعا متضامنون ، والفرد منهم مثل جميعهم ، فليتهم كل امرئ بمجموعهم  
 ( واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ) أي واذكروا أيها العرب إذ كنتم أذلاء بين فارس والروم  
 لتفرقكم ، وباأيها المهاجرون أيضا إذ كنتم مستضعفين في أرض مكة تستضعفكم قريش ( تخافون أن  
 يتخطفكم الناس ) أي فارس والروم للعرب عامة وكعمار قريش وغيرهم من العرب للمهاجرين ( فأوأمكم )  
 جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم في الأول وفي الثاني ( وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيبات )  
 الفنائم ( لعلكم تشكرون ) هذه النعم ( لانفونوا الله والرسول ) بأن تركوا الفرائض والسنن ، أو بأن يكون  
 ما تبطنون خلاف ما تظهرون ، أو يكون منكم غلول في اللقائم ( ونفونوا أماناتكم ) فيما بينكم بأن  
 لا تحفظوها ( وأنتم تعلمون ) تبعه ذلك ووباله والحياة عن عمد ولستم بساهين ، أو أنتم تعلمون حسن الحسن  
 وقبح القبيح ( واعلموا أن أموالكم وأولادكم فتنة ) أي سبب الوقوع في الفتنة أي الإثم والعداب ، أو حنة  
 من الله ليلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ( وأن الله عنده أجر عظيم ) لمن آثر رضا الله عليهم وراعى  
 حدوده فيهم .

فليوجه الناس مهمهم إلى مراعاة حدود الله ، فإن الناس جميعا متضامنون ، وليس أولاد الإنسان وأمواله  
 بمنزلة شيئا إذا ما حاق الهلاك بقومه وأموالهم ، وكيف يعيش المرء منفردا ؟ هذا لا يكون ( يجعل لكم فرقانا )  
 هذه تشمل خمسة معان :

- (١) هداية في القلوب بها تفرقون بين الحق والباطل .
- (٢) ونصرا تفرقون به بين الحق والباطل .
- (٣) ومخرجا من الشبهات تفرقون به بين الحق والباطل .
- (٤) ونجاة مما تخافونه في الدارين .

(٥) وظهورا واشتهارا بالميت والذكر الحسن لأن من نجما بما يخافه قد فرق بينه وبين الخوف منه . ومن اشهر صيته فقد ظهر ظهور الصبح . تقول العرب «بت أفعل كذا حق سطر الفرقان» أي الصبح . وهذه المعاني الخمسة حقة ، فإن من اتقى الله هدى قلبه ونصر ونجما من الخوف وخرج من الشبهات ، لأن قلبه مرتن على الحقائق فتتضح له الطرق . وهذه المعاني الأربعة ترجع لمعنى واحد وهو التفرقة بين شئ وآخر . أما الخامس فهو معنى آخر وربما رجوع إلى الأول لأن الصبح يفرق بين الليل والنهار ( ويخبر لكم ) بالتجاوز والعبور ( والله ذو الفضل العظيم ) تذكير للؤمنين أن ما أعدّه الله لهم بسبب التقوى إنما هو بفضل وإحسان . انتهى التفسير اللفظي . وهنا لطائف :

[ اللطيفة الأولى ] « إن شرّ لدواب عند الله الصمّ البكم الخ » .

[ اللطيفة الثانية ] « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمهم » .

[ اللطيفة الثالثة ] « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

[ اللطيفة الرابعة ] « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » الآية .

[ اللطيفة الخامسة ] « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض » .

[ اللطيفة السادسة ] « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول » .

[ اللطيفة السابعة ] « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » .

#### اللطيفة الأولى

اعلم أن الإنسان أرق من عالم الحيوان وأقل من عالم الملك على سبيل الإجمال باعتبار المجموع ولم تكن له هذه المنزلة الرفيعة وللقيام الكريم وتكريم الله له لما أنصف به من قوة الجسم أو شهوة الأكل أو القدرة على التناسل أو القوة المضلية أو التزين بالزينة كالطاووس ، فإن ذلك كله شاركه فيه الحيوان وإنما امتاز به بالعقل والعلم والحسنة ، ولا جرم أنه إذا نزل عن مرتبته ألحق بمراتب الحيوان ، فمن غلب عليه طبع انتقال لدائه والعلية عد من الآساد ، أو السفاد عد من المصافير ، أو الزينة عد من نوع الطاووس ، وهكذا تمتد الحيوانات نوعا نوعا ، فتح غلب على الإنسان طبع من هذه الطباع عد كأنه منها ، وقد ذكرنا في سورة البقرة نحو أربعين طبعا من طبع الحيوان عند قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة الخ » .

ولا جرم أن الحيوان الذي انصف بصفة خاصة لا عار عليه ولا عيب ، بل هو قائم بأمره عامل على شاكلته فأما ذلك الإنسان الذي نزل عن مرتبته والتحق بالأفق الأدنى فإنه مذموم مدحور كما قال تعالى « أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون » وهذا هو سرّ قوله تعالى « إن شرّ الدواب عند الله الصمّ البكم الخ » انتهى اللطيفة الأولى .

#### اللطيفة الثانية

اعلم أن هذا العالم كله ما ظهر إلا على علم سبق ونظام أسس على مقتضاه ، ومن هذا النظام هذه النواميس التي نراها ونقرؤها في هذا الوجود ، وعلم الله يشمل الواجب والجائز والمستحيل ولا يكون العلم إلا على مقتضى المعلوم . فإذا اقتضى النظام العام والأحوال الخاصة بمقتضى النظام أن يكون زيد كافرا لا يقبل لأن مزاجه لم يتأهل لذلك ، كما أن الحيوان ليس أهلا لمراتب الإنسان فإنه لا محالة يكون في علم الله لا يقبل الإيمان وهو لا محالة إذا جاء في الأرض لا يقبل الإيمان . فالعلم يكون على مقتضى المعلوم ، كأنه يقول لو سبق العلم بأن فيهم خيرا لاستعدادهم له لأسمهم سماع تفهم ولم يرتدوا بعد ، وكيف يرتدون وهم أهل للإيمان بخطرهم ولو أسمهم سماع تفهم في أول الأمر لتولوا عنه وهم معرضون ، لأن فطرهم غير مستعدة للبقاء على ما فهموا

فرضا . وطى هذا يكون هناك فرق بين قوله « لأسمعهم » وبين قوله « ولو أسمعهم » فالأول سماع تفهم مع الدوام عليه . والثاني سماع تفهم في أول الأمر فليس بينهما التفاه فتأمل . انتهت اللطيفة الثانية .

#### اللطيفة الثالثة

اعلم أن الله قد خلق الإنسان ولم يمكنه من الاستيلاء على جميع قواه فجعله أشبه باليتيم الذى يملك مالا . ألا ترى أن الإنسان يحال بينه وبين ما يملكه في أحوال :

(١) كالنوم فالتألم ربما لا يتذكر شيئا من أحوال يقظته ويرى أنه في أحوال أخرى .

(٢) المجنون . (٣) للغمى عليه . (٤) الذى شرب الخمر .

(٥) الذى تعاطى الأفيون والمخدّرات الأخرى .

(٦) أحوال المرض ، فقد ينسى في المرض ما كان يتذكره في الصحة .

(٧) ويتذكر عند الاحتضار أمورا لم يكن يتذكرها في صحته . (٨) وفي العقائد كالإيمان والكفر .

(٩) والذنوب والأعمال الصالحة ، فكثيرا ما يقصد الإنسان الامتناع عن الذنب فيقع فيه ، وكثيرا

ما يقصد الخير فيقع في الشر ، أو يقصد أن يفعل سوءا فيصرف عنه .

(١٠) تأثير الخطباء والشعراء فإنها تصرف الإنسان بما تهيج به فؤاده بالأقوال الخلابة والآيات اللوزونة

فتصرفه عن غرض إلى غرض مهما حاول التملص وأراد الامتناع .

(١١) الوسط والبيئة ، والتعليم والديانات ، والعادات للورثة والمكتسبة . كل هذه نجر الإنسان إلى

طبائنها مهما حاول الإنسان التخلص منها والتخلص من أذاها ، ناهيك ما قرره العلامة [جوستاف ليون]

في مؤلفاته من أن الوسط والبيئة وآراء الشعب تؤثر في العلماء والجهلاء على حد سواء ، فتجد للشعب كله

هزة واحدة ورجة واضطرابا واحدا مسوقين إلى ذلك ، لاسلطان للنطق على عقولهم ، وإنما السلطان لتلك

للؤثر العام الذى استحوذ على العقول فجعلها كما حصل في فرنسا وتركيا ومصر والمهند من القوة الوطنية والقيام

كأنهم رجل واحد للاستقلال ، وترى الشاب وهو أحرم الناس على لذاته قد حيل بينه وبينها فيقدم نفسه

للهلاك والموت الزؤام في سبيل إنقاذ بلاده، وهذه الحيولة نعمة عليه وعلى الناس . وبضدّها تخمير الأشياء .

(١٢) ومن هذا المقام ما أظهره العلم الحديث وأرانا الجمال ، والعجب العجيب ، والسحر الحلال ،

والجواهر اليتيمة ، والعقود التنظيمية ، والبدايع الشائقة ، والمحاسن الرائقة ، والذّر والرجان ، وغرائب

الإنسان (ذلك) في التنويم المغناطيسى ، وما مثل الإنسان في أطواره الأربعة الآتى ذكرها في ذلك العلم إلا كتل

المنامة والعلاء . فأما العامة فلا يعرفون من هذه الدنيا إلا ظواهر، وهم عن باطنها ممرضون . وأما الخاصة فهم

على ثلاث درجات: الأولى: المتعلمون في المدارس الابتدائية . الثانية: المتعلمون في المدارس الثانوية . الثالثة :

المتعلمون في المدارس العالية . فهذه أربع درجات : العامة والابتدائيون والثانويون والعاليون .

أفلا ترى أن من لم يتعلم في المدارس العالية يجهلها ويعرف الدرجات الثلاث قبلها ، وأيضا المتعلم الابتدائي

يجهل الدرجتين فوقه ويعرف ما قبله ، والعامى يجهل الطبقات الثلاث فوقه ويعرف درجته هو ، إذا عرفت

هذا المثال فاسمع ما أقول لتعرف سرّ الله في القرآن وحكته في الفرقان .

يقول علماء [التنويم المغناطيسى] إن له ثلاث درجات كما تقدم في هذا التفسير :

الأولى : أن يفقد الإحساس ويكون قابلا لكل ما يليق به إليه للتقوم بكسر الواو .

الثانية : أن يفقد الإحساس فقد تماما ولكنه يتكلم ويسمع ويبصر ولكن لاسلطان لحواسه عليه .

الثالثة : أنه يعرف نفسه معرفة تامة ويصف علله وعلاجه ويعرف أحوال الناس من بعد سحيق وبنى\*

عن حوادث مستقبله ويتكلم بلغات شتى ، ويرى أرواح الأرواح ويصف هيئتها وينقل إلى الجالسين أقوالها .

ولقد قل علماء هذا الفن : إن النائم في الحال الأولى يتذكر كل ما عمله في اليقظة ، وفي الحال الثانية يتذكر كل ما فعله في اليقظة وفي الحال الأولى ، وفي الحال الثالثة يتذكر كل ما فعله في اليقظة وفي الحال الأولى والثانية . وهكذا إذا رجع القهقري بحجب عنه علم ما فوَّقه ويكون عالما بما هو تحته .

أفليس هذا عجيبا جدا وأصبح نمثلنا بالتلاميذ في المدارس وبالامة نمثيلا صحبها ؟

أفلمت ترى أن هذا من العجب العجيب وأن الإنسان منا في هذه الدنيا يجهل نفسه كل الجهل وأن الله حال بينه وبين قلبه وأنه قادر في حال من الأحوال أن يرى الأرواح ويخاطبها ويعرف مستقبل الأمور ويعرف البعيد عنه ، وهذا أصبح أمرا معروفا قد شاهدناه بأنفسنا .

ولقد حضر في مصر قوم من أوروبا وتوَّموا هذا التنويم في هذه السنة وساعدتهم رجال الحكومة والشرطة وهناك دبرت سرقة ، فلما أناموا رجلين منهم بحث عن السارقين وسرقاتهم وأحضرهم من أ.ا.كن مختلة وهو مغمض العينين .

فهذه العلوم أصبحت معروفة للعامة والخاصة : أي لمن اطَّلِع منهم عليها .

أفلمت ترى أننا قد حال الله بيننا في الدنيا وبين ما لدينا من علوم ومعارف وجمال وكال ليزيدنا كمالا بهذا الجهاد وبهذا الجهل الذي لولاه لسكنا عن أعمال شريفة ، ولكم غطى علينا وستر عنا عيوبنا وكالات في أنفسنا نعم وتشقى بها وهي ستكشف عند الموت قال تعالى « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . وهنا أسمعك الحديث :

فقد روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصفرفه حيث شاء » ثم قال صلى الله عليه وسلم « اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » اه .

أوليس من العجزة القرآنية والسجائب الحكية أن يقول الله في هذه الآية « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » فهو يقول ها أنذا حبستكم في الدنيا وحلت بينكم وبين عالم الأرواح وما انطوت عليه نفوسكم ، فإذا سلتم من عالم الأجسام وخلصت أرواحكم من هذه الأحلام حشرتكم إلى وأنتم مظلومون على جميع ما انصفتهم به من خير وشر وكال وقص ، وإذن يقال « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » ويقال « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه » .

فكأنه قبل في هذه الآية قد حلت بينكم وبين مكنون أعمالكم وأخلاقكم وعلومكم لكي تباينوا على الأعمال التي تزيدكم رقبيا كما حلت بين نهر النيل مثلا وبين انتشاره بلاضابط ولا نظام كيلا يتفرق الماء بلا منعة ، وإنما حفظته ليسقي الزرع وبدر الضرع .

فكأنكم لم أمكنكم من عوالم الغيب والأرواح الجميلة إشفاقا عليكم وجبا في كمالكم كي تزيدوا استبصارا وإنتارة بالأعمال والجهاد والسكال . وهذه هي الجيولة ، فإذا انكشف الغطاء وقد صرتم في الدرجة الثالثة وذلك بالموت حشرتكم إلى .

فإذن الحياة حجاب ، والحشر كشف ، ولا يكون ذلك إلا بعد الموت ، فتعجب من بدائع القرآن وغرائبه ، وكيف ذكر للتقابلين الجيولة بالحياة والكشف بالموت والحشر ، إن في القرآن لمعجبات وبدائع وما يدركها إلا العالمون بكسر اللام .

## لغات الأتوار وبواهر الأسرار

في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه الخ »

هذه الآية هي السر الذي ظهر في هذا الزمان بما حصل للمسلمين من الضعف والانكسار ، إن الله عز وجل يحول بين الناس وبين قلوبهم ، وهذه الحيلولة تنحصر في ثلاثة أقسام :  
أولها : الأصول الصناعية الدنيوية . ثانيا : الأصول الخلقية . ثالثا : الأصول العلية .  
أما الأصول الصناعية التي بها يقوى الناس في سيرهم في حياتهم الدنيا وبها يؤدون ما فرض عليهم منها للنافع العامة ذلك نوعان : نوع عام في المسلمين وغيرهم . ونوع خاص بالمسلمين .  
أما النوع العام في المسلمين وغيرهم فذلك هو البخار والكهرباء والطائرات في الجوّ ، هذه صناعات كانت مجهولة للأمم كلها شرقها وغربها ، مسلها وغير مسلها .

(١) كان الناس يرون بأعينهم البخار في قدورهم وهم يطبخون طعامهم صباحا ومساء في الشرق والغرب وأعينهم تنظره وهو يملأ إلى الجوّ وإذا وضعوا النطاء على القدور أخذ البخار يضغط عليه ضغطا شديدا ولو سدّوه سدّا محكما لتحرك القدر بما فيه .

كل ذلك كان الناس يشاهدونه ، ولا يرب أن الذي يضغط على القدر هو نفسه الذي يحرك القطار في البرّ والسفن في البحر بطريق العقل ، ولكن الله حال بين الناس شرقا وغربا وبين هذه النتيجة حتى آن وقتها فأبرز هذا السرّ على يد قوم من ضفاف خلقه في أوروبا وأدركوا اليوم أن هذا البخار أخفّ من الماء (١٧٢٨ مرة) كما أن الهواء أخفّ من الماء (٨٠٠ مرة فقط) .

(٢) وما من امرئ غالبا في الشرق والغرب إلا وقد علم أن الكهرباء يجذب ما يقرب إليه من موادّ خفيفة ، ولكن الله عزّ وجل حال بين الناس وبين قلوبهم فلم يتبعوا هذه الظاهرة حتى يستخرجوا منها تلك القوّة التي بها تصنع كل شيء : من سقى لأرضنا وطحن لجبنا الخ ، وأبقاها حتى أظهرها في هذا الزمان لما كثرت نوع الإنسان .

(٣) (١) وما من امرئ إلا وقد شاهد أن الدخان الخارج من أفراننا ومطابخنا يملأ إلى الجوّ وأن للوادّ الخفيفة كالريش تطير فيه وهكذا يرى الناس الأطفال أيام العيد يلعبون بكرات تطير في الجوّ .

(ب) وهكذا يرى الناس الطيور تطير في جوّ السماء وأجسامها أنقل من الهواء .

فهذان النوعان من الأجسام أي الخفيفة التي لا قوّة ترفعها وتحركها واشفيلة التي لها قوّة ترفعها وتحركها أظهرها الله للناس في الشرق والغرب ، ومضت آلاف السنين وقد ستر الله هذا العلم عن قلوب الناس وإن كانت أبصارهم مفتحة حتى إذا جاء الأوان وأراد إظهار السرّ أوعز إلى أناس بالإلهام فاخترعوا النوعين من الطائرات النوع الخفيف الذي يسمى مهاكب الهواء باللسان الانجليزي (إرشيب) ويسمى بالعربية (منطاد) والنوع الثقيل الذي وضعت فيه القوي الحركة وله لوحان يجناحي الطائر للسمى (عربية) بالطائرات .  
وسترى إيضاح هذا في سورة النحل إن شاء الله مع صور تلك الطائرات ، وفي سورة تبارك لتعجب من صنع الله عز وجل الذي حال بين قلوب الناس وبينه في الشرق والغرب فلم يغطنوا للبخار والكهرباء والظير وغيرها إلى أجل مسمى .

هذا هو القسم الأوّل من الأصول الصناعية التي حجبتها الله عن الناس قاطبة وحال بين قلوبهم وبينها وإن كانت أعينهم مبصرة وقلوبهم مفكرة فهو بقدرته وحكمته لمصلحة حال بينهم وبين ذلك السرّ العظيم الذي يرونه بعبونهم .



وهذا معنى قوله تعالى « فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » فهنا أبحر الناس جميعا ولكن الله أعمى القلوب عنها لحكمة حتى جاء الأوان .

وهذا ونحوه هو السد الذي قال الله فيه « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشىهم فهم لا يبصرون » وهو الحجاب في قوله « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » فالحجاب والسد لا يريان ولكنهما موجودان عند أكثر النوع الإنساني .

النوع الثاني من الأصول الصناعية التي حال الله بين المسلمين خاصة وبينها إن المسلمين في أقطار الأرض مهما كانوا لازما إلا على وتيرة واحدة ، جهل تام بأكثر الصناعات ، ونوم عميق ، وذلك متراحم إلا قليلا منهم ، لماذا هذا ؟ لأن الله حال بين أكثرنا وبين المعارف ، لماذا والقرآن طافح بالنظر والفكر .

ذلك لأن أكثر رجال الدين ورثوا علوما خاصة عن أشياخهم فطموها للناس ولم يشوق قوم لغيرها وصار هذا خلقا يتوارثه الخلف عن السلف .

والإنسان ابن عاده وابن بيئته ؛ فظنت الأجيال المتتابعة أن ديننا ليس له دخل إلا في أمور العبادات ونحوها ، وهجر الناس كل علم وكل فن لحظي بها أم غيرنا وأصبحنا في أخريات الأمم .

فهذا لما حال الله بيننا وبين تلك الصناعات بسبب الأسماء والجهلاء وبعض العلماء المقلدين النائمين على فراش الراحة الوثير بما اكتسبوا من العادات وما ورثوا بالتقليد عن أشياخهم فهم لا يعلمون .

كل هذا ، والمسلم يرى ويسمع أن الأجانب لهم الكلمة العليا في الصناعة والتجارة والقول الفصل في السلم والحرب بما نالوا من قوة الصناعات ولكن حال الله بين المرء وقلبه .

فترى المسلم يرى بينه الخطر المهدق ولكن التقليد وسوء الملكة والعادة ملك عليه مشاعره فأصبح كالأعمى ، كما اتفق للمصريين القدماء إذ عبدوا الحرمة فلما حاربهم قتيبيز ملك الفرس وضع المهرج بين الصفيين فامتنع المصري عن الضرب فدخلها الفرس وملكوها ، هكذا حال المسلمين اليوم ، وبهذا تم الكلام على الأصول الصناعية وهي القسم الأول من الثلاثة .

#### القسم الثاني الأصول الخلقية

يعيش الإنسان في بيئة ووسط فيه محالقات خلقية وآداب منحطة ، فتراه بسبب الممارسة المتتابعة وبما يرى من أسانذته وإخوانه يتنزّل إلى أخلاقهم وإن لمس الضرر بنفسه .

ألا ترى - رعاك الله - أن الناس شرقا وغربا يشربون الخمر ويدخنون (الطباقي) ويتعاطون ما لا يبيحه الطب وهم يعلمون أنه ضار كتهوة البن والشاي ، بل إن بعض الأطباء الذين يعلمون ضرر المسكرات هم يشربونها ، لماذا هذا ! لأن العادة غلبتهم وحال الله بين الناس وبين قلوبهم .

فهنا الحيولة بسبب الشهوات والعبادة وفي الطيارات والكهرباء والبخار التي تقدمت بمخلق الكسل والتقليد واعتقاد المتأخر أن المتقدم قد أكل كل شيء في الوجود .

#### القسم الثالث الأصول العلية وهي فصلان :

الأول في العلوم العامة ، والثاني في معرفة الله تعالى

#### الفصل الأول

درج المسلمون في العصور المتأخرة على كتب اعتادوها وعلوم مارسوها كالقبح وعلم التوحيد وظنوا أنهم بهذا أرضوا ربهم فقال الله بين كثير منهم وبين قلوبهم بسبب الغالطة والمباشرة والتقليد الأعمى واعتقاد التليذ أنه ليس وراء علم أستاذه علم ، وقد فرحوا بما عندهم من العلم « وحاقي بهم ما كانوا به يستهزون » .

يرى المسلم الشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال وقد أكل دراسة علم الفقه وعلم التوحيد على الطريقة التي ورثها عن أسلافه من سنيين وشيعيين ، يرى جمالا في هذا الوجود ، يرى حكمة عالية ، يرى نوره ظاهرا يكاد يذهب بالأبصار ، يرى تقلب الليل والنهار ، يرى جمال الأنهار وبهجة الأشجار ونور الأفتار وجمال الوجود فيروعه ولكنه يحب عن التفكير فيه لأنه اكتفى بما قرأ في الكتب الموروثة فكأنما هذه الكتب لجام له ، أو كأنها سجن سجن فيه .

وقد أشير لها في الحديث الصحيح المفيد أن العالم الذي لا يعمل بعه يدور في النار كما يدور الحمار في زحاه .

فأكثر المتعلمين يدورون في كتب مخصوصة في الدنيا كأنهم يشاكلون بذلك ما يحصل والعباد بالله يوم القيامة لغير العاملين بملهم في جهنم .

فالتعلم الذي غشى بصره عن الحقائق يدور في الكتب التي قرأها ويرجع إليها ككرة بعد أخرى ويحبس فيها حبسا مستمرا ويموت جاهلا بهذا الحبس نفسه ، حبس للمسلمون عن العلوم ، وهذا الحديث الذي ذكرت لك ملخصه كأنه يشير لهذا الزمان .

وأنت تقول إن هذا جرأة منك وكيف تصرح بهذا القول ؟ أقول لك لست أنا اللبدي به فاسمع ماجاء في الإحياء ، فقد أورد للزلف في الجزء الأول اعتراضا على نفسه ملخصه :

[ كيف جعلت حد التتكم أم يحرس عقيدة العوام عن تشويش اللبديعة فهو أشبه بالحراس في طريق الحاج يحفظون الأثمة أن تنخطفها الأعراب ، وجعلت حد الفقيه أنه يحفظ القانون الذي به يستعين السلطان على كفت الأشرار ، مع أن للجمهور بالفضل هم الفقهاء والتكلمون وقد جردتهما من الصفة الدينية ، كيف هذا ؟ ]

هذا ملخص الاعتراض الذي أورده صاحب الإحياء على نفسه ، ثم أجاب عن هذا الاعتراض بما يطول شرحه وملخصه :

[ إن ما هو مشهور يخالف الحقيقة ، فعلى الإنسان أن يعرف الرجال بالحق لا العكس ] وأشار إلى أنه صلى الله عليه وسلم مات عن آلاف من الصحابة رضی الله عنهم كأبي بكر وعمر ولم يكن فيهم أحد يحسن صفة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم إلا بضعة عشر رجلا .

ولما مات عمر رضی الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال لم أرد علم الفتيا والأحكام وإنما أريد العلم بالله تعالى ، قلت أقرى أنه أراد صفة الكلام والجدل ثم ذكر أن الشهرة عند الناس بالفقه والكلام غير الشهرة عند الله .

وأفاد أن شهرة أبي بكر الصديق رضی الله عنه بالخلافة وفضله بالبر الذي وقر في نفسه ، وشهرة عمر رضی الله عنه بالسياسة وفضله بالعلم الذي مات تسعة أعشاره بموته وبقصده التقرب إلى الله في ولايته وعدله وشفقته . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول من القسم الثالث في الأصول العلمية .

#### الفصل الثاني من الأصول العلمية في معرفة الله تعالى

وذلك أن الانسان يحول بنفسه خواطر وتتوارد على عقله وساوس فيقول كيف يكون الله واحدا وهو مع كل إنسان وحيوان صغير وجليل ، وكيف يسع هذا العالم كله ؟ وكيف يطلع على مافي قلبي وقلوب كل مخلوق ؟ ثم كيف يكون قريبا مني مع أنه عظيم كبير متعال فكيف يكون قريبا بيديا ؟ يقول للؤمن أنا آمن بالله ولكن الذي يريد أن يتضح ذلك له ولو بضرب مثل . أذكر لك أيها الذي ماجال بنفسى يوم

الاثنين ١٧ يناير سنة ١٩٢٧ أثناء تقديم هذه السورة للطبع إذ جلست ضحي في ضوء الشمس وهو سبب هذا للوضع كله .

### الله والشمس

اعلم أن الله عز وجل ضرب للناس مثلا محسوسا لنفسه ، ذلك أن الشمس :

- (١) كبيرة جدا .
  - (٢) كثيرة الضوء .
  - (٣) بعيدة عن الأرض بعدا شاسعا ويراها الإنسان .
  - (٤) قريبة منه .
  - (٥) وإذا جلس للاستدفاء بها يراها في مقابلته كأنها لاتقابل غيره وهي قدر إطار للنخل .
  - (٦) والضوء الذى ترسله له خاصة لاحصر لعدد ذراته .
- هكذا فه الذى ليس كمثلته شيء :

- (١) كبير عظيم .
  - (٢) كثير الإنعام .
  - (٣) بعيد المرتبة والعظمة من الإنسان .
  - (٤) وهو قريب علما وقدرة منه .
  - (٥) وكأن النعم التى فى الأرض وفى السماء لم تخلق إلا لتكون لك أنت وحدك لأنك لاتعيش إلا بهذا النظام العام .
  - (٦) والعم الذى يرسلها لك لأخصى .
- هذا هو اللئ المحسوس الذى يراه الناس والحيوان وهم لايفطنون .

### إيضاح بعض صفات هذا اللئ وهو الخامس

وذلك أن الإنسان إذا استدفا بنور الشمس شتاء مثلا يرى أنها تقابله كأنها دائرة الطبل وينظر يمينا ويسارا فلا يرى شمسا إلا هذه ، وإذا كانت هى المقابلة لك فكأنها لاتقابل غيرك .  
ثم إن كل إنسان على سطح أرضنا يرى هذا الرأى وهكذا كل حيوان أرضى أو طائر ، فكل هؤلاء إنما ينظرون مايكاد يحيل لهم أنه خاص بهم .

هذه هى حال كل حى على الأرض يجلس والشمس بجذائه لاسواه وهى فى الحقيقة بجذاه كل واحد من سكانها حيوانا أو إنسانا ، ثم مايقال فى أرضنا يقال فى سواها من السيارات وتوابها وما أكثرها دوائر حولها ، وما أصغر أرضنا وأحقرها بالنسبة لغيرها من السيارات وهى صغرى وكبرى ومجموعها يمد بالمثل لأن هناك سيارات صغيرات دوائر حول الشمس كما هو مدون فى هذا التفسير كثيرا ، وهكذا حولها ذوات الأذئاب التى يقولون عنها إنها كسمك البحر عدا .

فالشمس حولها مالا يمد من توابها ، والسكان فى تلك الكواكب والتوابع والأقمار إذا وجدوا تكون هذه حالهم بحيث يحيل لكل أنها خاصة به عند مقابلتها .

وهذا للئ يوضح لنا قوله تعالى :

- (١) « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ، وقوله تعالى أيضا :
- (٢) « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب » ، وقوله :
- (٣) « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » ، وقوله :
- (٤) « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » ، وقوله :
- (٥) « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » ، وقوله :
- (٦) « وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » ، وقوله :

(٧) « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض الخ » ، وقوله :

(٨) « إن الله سريع الحساب » ، وهكذا قوله هنا :

(٩) « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » .

لهذا للمسيح بشير قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » وستقرؤه في سورة النور ، وتعجب من أن هذا المعنى قد ظهر جليا في أحاديث رؤية الله تعالى ؛ ففي حديث الشيخين عن جرير بن عبد الله قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ( أى لا تضامون ) إذا شدت الليل أولابنا لكم ضم ) إذا خفت فإن استطعتم أن لا تظلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وتبيل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

وذكر في حديث أبي داود أيضا الشمس ليس دونها سحاب ، ولم يذكر هذه الزيادة الترمذى .

وإن تعجب فمجب ما سمعته من حديث أبي رزین العقيلي قال : « قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه محليا به يوم القيامة ؟ قال نعم ! قلت وما آية ذلك في خلقه ؟ قال بأبأ رزین : أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر ؟ محليا به ؟ قالت بلى ! قال فأنه أعظم : إنما هو خلق من خلق الله : يعنى القمر ، فأنه أجل وأعظم » أخرجه أبو داود ، وفي حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب : فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » اهـ .

فتأمل حديث أبي رزین ، وأعجب كيف ضرب مثلا يشبه ما نحن بصدد السلام عليه من أن الله يتجل لسل كل أحد كأنه له خاصة بحيث ينجيه الإنسان والحيوان وكل حشرة ودابة ، فكل هذه تسأله الرزق وشئون الحياة كأنه خاص بها .

وتأمل كيف كانت هذه الحال ، شبة مثل الشمس والقمر معنا ، فأما الرؤية خاصة بأقوام من نوع الإنسان ، بخلاف السؤال فهو عام .

إن هذا التشبيه لا يخطر ببال شاعر ولا كاتب وإنما هو من مقام أعلى وهو مقام النبوة .

واعلم أن الوصول للحقائق العلمية بعد التخل من الأخلاق الشائنة هو الوسيلة لرؤية الله تعالى ، والرؤية بالبصر أمر حيوانى ، أما الرؤية بالإحاطة بالعلوم فهو للوصول لذلك المقام ، ومن لم يجد في نفسه شعورا بالنظام الجميل في هذه الدنيا ، فكيف يتصور أن يرى موجد هذا النظام .

إن الله خلق الجمال في صور الإنسان والمخلوقات ليعلم الناس الهيام والتمرام بالظواهر إذا كانوا جهالا ، ويرتقى العلماء بالهيام بما هو أجل وأكمل وهو النظام العام والإشراق التام والحكمة الباهرة والأنبياء فوقهم جميعا .

اقرأ مقام الحب في سورة البقرة عند قوله تعالى « يحبونهم كحب الله » . إن من لم يدرك جمال هذا الوجود في هذه الحياة فليس له حظ من رؤية ربه التي تنال بالعلم ، وإن مانسكتبه في هذا التفسير يعين على ذلك .

فإذا كنت أيها الدكي به مفرما فاعلم أنك قد فتحت لك باب الوصول ولا تكوص لك بعد الآن وخرجت من الجماهير الذين دخلوا في قوله تعالى هنا « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » فهؤلاء تكون العلوم حاضرة أمامهم وهم لا يعقلونها .

تبين لك من هذا كله أن مثال الشمس واضح جليّ ولكن الله يحول بين الإنسان وبين قلبه فلا يكاد أكثر الناس يعقلون سبب هذه الحيلولة .

إن الله قريب منا مع بعد مرتبته عنا ، وإنه أقرب إلينا من الوريد الذي هو عرق في الرقبة .  
بهذه الحيلولة يمتنع الإنسان عن تحمل ما هو محسوس ومحيط به من كل جانب ، لولا هذه الحيلولة ماتعاطى الناس ما يضر من مطعم ومشرب .

إن الناس فوق الأرض يكادون يكونون مخلوقين من النور والجمال ، بل هم في الحقيقة جمال ونور .  
إن الدابة التي منها خلقنا ماهي إلا كهرباء مدججة كما هو آخر رأى للعلماء أو روح مجتدة كما هو رأى العلامة ( استوارت ميل ) وكلاهما نور .

هذا بالنسبة لأجسامنا ، أما أرواحنا فأمرها ظاهر ، والإنسان مع هذا كله جبل بينه وبين إدراك حقيقته الجيلة الهية الساطعة ، وهذا من سرّ هذه الآية ، فإن الله حال بيننا وبين نفوسنا ، ولولا هذه الحيلولة لسكننا في نور مشرق وجمال باهر يجعلنا في جوّ من النور والجمال والبهاء إلى الأبد .

فهذه الحيلولة جاءت لسكنا هذه الأرض المظلمة لتتربى فيها عقولنا مدّة ثم تنتقل إلى عوالم أخرى .

شفاء الصدور ومشرق النور من شمس بازغات ومعان باهرات في هذه الآيات  
( يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيككم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون الخ ) .

إن قوله تعالى « دعاكم لما يحيككم » وقوله « يحول بين المرء وقلبه » فتح باب على مصراعيه للمقول أن تلج الحكمة لتجيا وإلا حيل بينها وبين السعادة بموت القلب ، والقلب هنا هي اللطيفة القدسية للنبئة من العالم الإلهي .

فلذا ذكر هنا وصف العوالم المشاهدة من كوكب وقمر وشمس وسحاب مطرّز بقوس قزح ، ثم نفى سبحانه الجسم ثم النفس التي هي القصدودة بالحياة ، وكيف كشف الناس أنها تعترها حال تصبح فيها عالة بالمستقبل وتتكلم بلغات شتى حال الانحطاط الروحي بالتتويم ، والله حال بيننا وبين ذلك كله ، وهو اليوم يدعونا لطاعته ليكشف عنا الغطاء يوما ما ولو بعد الوت ، فنقول الدنيا قصر منيف على الأكناف ، واسع الأطراف ، نظرت إلى سقته إذا هو مجمع العجائب ومثار الترائب قد وشى بطرائف التطرّيز ونقش بكل جميل عزيز ، ازدان بالنور واللرجان ، وتلاّلا بمختلف الألوان ، نور وهاج ، وسراج يتلوه سراج ؛ فيبنا تراه حالك السباب ، سودّ الجوانب ، مرصعا بالدراري الهجات ، للشرقات في الظلمات ، إذا بعلامة يضاء قرية منسوجة من الفضة قد نشرت على وجوه تلك الشرقات ، وتارة يحيل لي أن ذئب اللجين سال في جنبات القصر وصار الجوّ به كالنهر ، ذلك هو نور القمر .

أقول : فيبنا أنا على تلك الحال إذا حدث غير تلك العالم ونسخ لك العوالم وهي عرائس الصباح ونواعس الطرف الصباح راقصات في مشارق النور تتلاّلا بهجات ، وتزدهى ساحرات ، بألوان مخنفتات ، وتتجلى سافرات ، وقد يحيل للرأى أن أمواج النور جحافل ، وجبوش بواصل ، بأسنة لواع ، ومهندات قواطع ، برزت في للشارق وتراءت في اللطالع ، احتفالا بتقديم ملكة الكواكب ، وسيدة للشارق والعارب ، ذلك هو وصف الصبح .

فيبنا نحن رقب مجتلاها ، لنشاهد عجياها ، إذا بالتمزلة برزت كالذهب الإبريز ، زينة للناظرين وبهجة العالمين ، فنشرت على السماء جلابيا لازورديا ، فبرقت وجه القمر والنجوم ، وفرشت على الأرض بداطا

زهيا متنقا بمجمل الأشجار وبديع الأزهار ، مزخرفا بما في الحشائش والزرورع من بدائع الألوان المختلفة الأشكال للزهورات البيجات .

#### وصف السحاب وقوس قزح

وتارة تنسج أيدى الرياح في الجنوب أو الشمال مطارف مدهامات وحللا داكنات مدليات من الأعلى إلى الآفاق ، في سمت الرأس أعاليها ، وعلى الأرض حواشيها ، وقد طرّزها قوس السحاب بأصفر فوق أخضر يتلوه أحمر وأصفر .

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا على الجوّ دكنا والحواشي على الأرض  
يطرّزها قوس السحاب بأصفر على أخضر في أحمر تحت مبيض  
كهيفة خلود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

تلك حال هذا الوجود الذي نعيش فيه ، فديانا جميلة الهيا ، باهرة الناظر ، ساحرة الطرف ، رشيقة القدر ، غداء ، هيفاء ، كلاء ، عينا ، ازينت لناظرين ، زينها رب العالمين ، فهي غادة لعوب ، وفاتنة طروب ، من عادتها الدلال والتبخر في الللائل لا الأغلال ، فهي كما قال كعب بن زهير :

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أبوابها القول  
الكلام على الكتب السماوية والمعارف النفسية والكتب الحكيمية

هذه صفات العوالم للشاهدة التي لأجلها نزلت الكتب السماوية كالنوراة والزرورع والإنجيل والقرآن ، وألفت الكتب وخلقت الحكاء وتناجت العلماء .

فهنا وحى يوحى لنوى النفوس الشريفة وكتب تؤولف على أيدى حكام ذوى جدّ وتشمير ونفوس منقوشة بتلك العوالم مزدانة بأجمل تلك الجواهر .

إن الله أبرز لنا هذا الوجود كتابا تروؤه ، هذا الوجود كتاب مسطور في ريق منشور ، كتاب كتبه يده ، وما أحسن كتابه ، وما أجمل عمله ، وما أبدع صنعه ، كتبه وزينه وأحسنه ، كتب الله هذا الوجود بحروف كبيرة ثم أوحى إلى الأنبياء فكانت الديانات بالفاظ نسمها وحروف نكتبها ومعان نقلها تدل على نظام هذا الوجود ثم ألهم الحكاء من كل أمة والأولياء من كل دولة فدوتوا وألقوا لإظهار أسرار الديانات بمختلف اللغات لاجتلاء تلك الشاهدات وفهم الغائبات عن الحس والإبصار .

#### الجسم الإنساني

ثم إنه أسكن نفوسنا في أجسامنا وتقس الأجزاء بنفوس تضامى نفوس هذا العالم الكبير ، فنظم الهيكل الإنساني وأبدع فيه من كل سرّ خفي ومظهر جليّ ، فنظم الأعضاء ووزنها ووزق الوجوه وحسنها وتقس الألوان ووزقها وسوى الفاصل وأحكم الأعضاء ، وأبدع الحواس وفصل الحواس ، ورتب الأحشاء ، ونظم مجرى الغذاء وطريق النفس وموارد الدم ومصادره ، كل ذلك شرحة في سورة آل عمران شرحا جميلا ونسفته هناك تنسيقا قويا .

فهنا كتب الدين بسمها الناس كلمات في الهواء بأذانهم أو يبصرونها في الكتب ببيوتهم ، ونظام هذه الدنيا حروف كبيرة يقرؤها المفكرون ويعرفها المالمون (جمع عالم) بكسر اللام ومختصر هذه الدنيا هو الجسم الإنساني فقيه معنى المالم كله كما مرّ في آل عمران .

إذن النفس لها لوحان : لوح كبير هو هذا العالم ، ولوح صغير هو هذا الجسم ، ولها دلتان : دلالة الكتب السماوية ، ودلالة العلوم الحكيمية .

هذه هي علوم الأولين والآخرين . فاقرا كتب الدين وتأمل نظام هذه الدنيا وادرس عجائب جسمك بهذا تكون حكما وصديقا تابعا لربنا صلى الله عليه وسلم بل وازنا من كبار الوارثين .

#### النظر في النفس

« وإياك أن تغفل عن أفضل الأمور وأجلها قدرا وأعظمها خطرا ، ألا وهو القلب ، وقد ورد في الآثار « قلب المؤمن عرش الرحمن » .

إن ما قلته لك في هذا المقال إملأه من القلب فلا كتاب لذي ولا منظر أمامي ، فأنا الساعة لست أنظر إلى السماء ولا الصباح ولا الليل والنهار ولا أيام الأشجار ولا الأنهار ، ولكنني أكتب من لوح القلب ، إن الكتب السماوية والدروس الحكيمة وعجائب هذه الدنيا وغرائب الأعضاء الجسمية ، كل ذلك بغمده تشكيل النفس بتلك النقوش وإسمادها بما في الطروس .

كل ما في هذه الدنيا عيان ولسان وبنان وجنان ، فالعيان كل ما تعينه من السموات والأرضين وغيرها والكلام باللسان والكتابة بالبنان معبران عن ذلك العيان ، والقلب هو الذي ترسم فيه تلك النقوش .

#### غفلة الناس عن القلب

يعيش الناس ويموتون وأكثرهم لا يعلمون أن هناك عالما كبيرا كامنا في نفوسهم . الإنسان يؤمن بأنه يرى ولكنه لا يصدق أن نفسه عالم كبير لا يراه الناس وإنما يراه هو .

أنا أكتب هذا وكأني أشاهد في لوح نفسي النجوم والسماء والشمس والقمر والصباح والمساء ، وأشاهد رسوم الأعداد من الواحد إلى العشرة إلى الألف وهكذا ، وألاحظ كل ما يبق من المحفوظ من علم أو نظم أو تر ، وكل محفوظ يحيل للنفس أن له مكانا رسم فيه . وكأن هذه النفس عالم واسع قد ابتلع عوالمنا التي يعيش فيها وزاد عليها ، أنا أكتب هذا وكأن نفسي هي التي تملأ على .

يقول العلماء : إذا عرف الإنسان هذا الوجود كله وجعل نفسه فقد جهل كل شيء . إن النفس هي الباقية لنا في سفرنا وحضرنا وموتنا وحياتنا وهي التي فيها رسمت كل هذه الناظر فضاوت لوحنا الذي نقرؤه .

انظر إلى رسوم نفسك زها عجيبة ، وأضرب لك مثلا بالأعداد وبالكلام المحفوظ وبالكواكب . أنت أيها الذي تحس في نفسك بالأعداد مرتبة منطبعة بترتيبها ولولا هذا الترتيب ما عرفت العدد ولا كوت الحساب ونسمع الجمل المليء ترسم صورتها في نفسك حتى إذا احتجت إليها عرقها ونفعتك ، وتفكر في الشمس والقمر فتراهما حاضرين في قلبك .

هذه ثلاثة أمثلة :

فالأول : وهو العدد لا وجود له في الخارج ، وإنما وجوده في نفسك فقط وليس في الخارج إلا العدد .

والثاني : وهي الجمل ما هي إلا ألفاظ ، والألفاظ صوت والأصوات حركات في الهواء ، والحركات تضمحل حين بروزها وتختفي وقت ظهورها .

والثالث : وهو الشمس والقمر باقيان في السماء .

فهمنا حفظت النفس لنا مالا وجوده وهي الأعداد ، وما وجد واضمحل بسرعة وهي الجمل ، وما هو باقي وهو الشمس والقمر .

إذن النفس أرقى من هذا العالم فإن فيها موجودات لا توجد فيه وفيها تبقى للوجودات التي اضمحلت فيه . ألا ترى أنك ترى إنسانا جميل الظلمة يوما ما ثم يدور الدهر دورته فيصبح قبيحا ضيفا وهو لا يزال في نفسك

على ما كان عليه ، فكأن نفوسنا صاذقة حافظة ، ولادة لاتصدق ولا تحفظ بل فيها تنفير للوجودات وتبديل  
والنفس تحفظ .

إن نفوسنا هي للقصور من هذا العالم ، ويقول بعض العلماء [إن الغذاء فينا يلطبخ حتى تكون خلاصته  
سما وبصرا وفكرا ، وهذا الفكر أشبه بسنابل القمح التي دلت بظهورها على أصل بذرها ، فلولا أن  
البذر حبّ قمع ما كان النأج قمحا ] .

إذن أصل العالم فكر أو نفس ، ونفوسنا تسيطر على هذه اللواد وتحكم وتخلل وتركب ، إذن هي من عالم  
أسمى من عالم الحس ، وكأنها خلقت هنا للتمرن والتعلم ، وكأن هذا الوجود وهذه الأجسام لوح تفرؤه حتى  
إذا آتمت عملها فارقت الأرض حاملة معها زادها في هيتها .

إن هذه العلوم الفلسفية والدينية والنظام والطبيعة والمبكل الإنساني بالشرع رسوم وقوش تمدى  
النفس كغذاء الطعام للأجسام ، وكلما زادت النفس غذاء فكريا ازدادت كمالا حتى تغرب من  
العوالم القدسية .

إن هذا العالم صنع بحساب ونظام ، وعلى مقدار تغلبه تغرب النفس من صانه ، وكلما استكملت بالعلم  
ازدادت إلى الصانع شوقا .

وإذا غفنا عن تلك القوة القدسية للبر عنها (بالقلب) ابتعدنا عن السعادة ، وأمثال هذا هو المقصود  
من آية « واعلموا أن الله يحول بين الرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

ولما كان الحشر إليه ، وهو لطيف خبير منزه عن اللادة وجب أن تكون النفوس القريبة منه بعد الحشر  
مفرمة بالعلم والحكمة حتى تستعد للقائه ، وهل يحالس الصالحك الملوك .

وفي بعض الأخبار « من عرف نفسه عرف ربه » وفي القرآن « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله  
تعالى ( والشمس وضحاها \* والقمر إذا نلها \* والنهار إذا جلاها \* والليل إذا يشاها \* والسما وما بناها \*  
والأرض وما طحاها \* ونفس وما سواها \* فألمها فجورها وتقواها \* قد أفلح من زكاها \* وقد خاب  
من دساها » إن هذه الآيات هي نفس للوضوع الذي ذكرته الآن ، وإن هذه الصورة المرسومة لك  
تبياننا لهذا العالم ، ما كنت وقت كتابتها ملاحظا هذه الآيات إذا هي كالتفسير لها ، فإن هذه العوالم  
كلوح للنفس .

إن نفسك هي جنتك وهي نارك ، هي جنة العلوم والمعارف ، وهي نار الجوانح بالشهوات والعداوات  
والذنوب ، إن النعيم الأوفى إنما يكون بحمال النفوس ، ومتى جملت بالعلم والحكمة استغنت عن جميع العوالم  
بلقاء ربها ، ولا يلقى الله ويشاهده إلا نفوس مشرقات ، أما النفوس التي حال الله بينها وبين قلوبها واستعدادها  
فقد حرمت النظر إليه .

إن النفس تصورت الجائر والواجب والمستحيل ؛ الجائر بجميع هذا العالم المشاهد كأن تجعل (٤٠) من  
ضرب (٤ في ١٠) أو من ضرب (٥ في ٨) والواجب كالإله والملك وكأن تصور أن (٢٥) من ضرب  
(٥ في ٥) والمستحيل كشريك الباري ، وكأن تصور أن (٤٠) من ضرب (٥ في ٥) أى أنك تحكم أن  
أربعين مستحيل أن تكون حاصل ضرب هذين العددين ، فعلى تصورت الواجب وحكمت بشوته ،  
والمستحيل وحكمت بدمه ، وهي تصور للجردات عن اللادة صوراً فيها ، ولذلك تنوعت طرق الوصول  
إلى الله وأعان النفس على استحضار معبودها ظهور الشعائر والنابر والساجد والنائر ومناسك الحج وأمكنة  
الطواف والوقوف والشاهد الملوثة ، كل هذه وأمثالها لتعين النفس على استحضار من هو مجرد



عن المادّة ولو كان مشاهدا كما تشاهد الشمس ، وهو حاضر دائما عند حواسنا لم نخرج إلى جميع هذه الشعائر .

النفس أدركت العلوم الطبيعية التي تحتاج في نقلها إلى المادّة في الخارج وفي الدهن ، وأدركت العلوم الرياضية المحتاجة في نقلها إلى المادّة في الخارج وفي الدهن ، وأدركت العلوم الإلهية التي لا تحتاج إلى المادّة في الخارج ولا في الدهن ، والعلوم الإلهية هي العلوم العالمة كتقسيم العلوم وكتلّمولات الخ .  
النفس في حال النوم تعطيك سورة من الدنيا والآخرة

ألا ترى أنك في اليقظة تفكر ونحس ؟ وفي حال النوم كذلك نعلم ونفزع ونفرح ونحزن ثم يمرّ عليك وقت في النوم لا يكون لك إحساس بهذا الوجود البتة .  
ولا معنى لحياةي إلا أنني أحس وأفكر ، فأنا إذن عند فقد الشعور والإدراك صرت كالبيت فتشابهت الحالان : حال البيت وحال التائم الذي لا يشعر ، فما هو أشبه بالموت أصبح من لوازم الحياة ، لانتم الحياة إلا بتوهم ، وقد يكون في النوم زوال الحس والشعور .  
والغنى المخوف منه في اللوث عند الناس كافة هو فقد ذلك الشعور وقد حصل في نفس الحياة ، وحينئذ يقال إذا حصل فقد الشعور في حياتنا الدنيا ولم يكن سببا في الفناء فرمما يكون فقد الشعور بالموت ليس سببا في الفناء ، بل الحياة ريمما كانت كاملة وتظهر بحال أخرى .

استيقاظ النفس ونومها يمثلان الحياة والموت

إن الناس في كل يوم وليلة يموتون ويحيون نربنا على الموت الأكبر والحياة الكبرى ؛ ولقد استدل (سقراط) بتعاقب هاتين الحادثتين على أن الحياة ستكون بعد اللوث كما قدّمناه في سورة الأنعام ، النفس ترسم فيها صور الآثار الواصلة إليها بالمرض فتتخيل في الأحلام الحى نارا متأججة تحيط بها ، ويتصور الذي اعتراه البرد أو الأمراض الباردة أنه في بحر لحي كما يعرفه أكثر الناس في أنفسهم .  
وهكذا السوداءوى يزاول أعمال الموتى وسواد الأجسام ، وهكذا النفس تجعل لكل ماتدركه صورة تتخيلها له .

إن النفس بحر لحي لا ساحل له ، النفس يحكم ومهما على من يمشى على الحائط بالسقوط ، إن الإنسان إذا مشى على الأرض لا يشغل مقدار عرض الحائط ، ولكن الوهم يحس للماضى عليه أنه ساقط لاحالة فيسقط ذلك لأن وهم النفس صور له السقوط فسقط ، الوهم أبرز لصاحب الشهوة البهيمية صورة مايشتهي من صور النساء والأغذية فتمتع بها في المنام ، وصور لدى القوّة القضيبة صور الأعداء فخذلهم في ميدان الأخلام والأوهام .

النفس هي التي إذا أدبت وهذبت وربيت لم تؤثر فيها الأوهام ، فترى أولئك اللاعبين الذين درّبوها على المشى على الحبال أو الجلوس على كرسى موضوع فوق عمود مرتفع لا يسقطون كما يشاهد في هذا الزمان ، ذلك لأن الوهم انجم إلى النجاة وضبط الأفكار ، النفس أثرت في جسم المحتلم فأفرز مادة من جسمه ، والنفس بالتهذيب والرياضة تؤثر في غيرها إما بالعلم وإما بالآثار الظاهرة .

كل ذلك إشارة إلى أنها في هذا العالم قوّة إلهية أنزلها الله إلى الأرض لتكون مظهر جلاله وجماله « وما يعقلها إلا العالمون » ولا يحجب عنها إلا الغفلون .

هذه فطرة من بحر قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين الرء . وقلبه وأنه إليه تحشرون » انتهى .

ياقوتة في عقد هذا المقال

بعد أن كتبت هذه المقالة تبين لي أن هذا الموضوع لا آخر له ومنه يتفرّع علوم الأمم القديمة والحديثة

في النفس ولو أوى أظمت البنان والقلم لطلال بي الأمد ، ولكنني أقتصر على هذه الياقوتة فضمها أمامك فإنها  
تضيء لك هذا الوجود وتشرق إشراق الكواكب والشمس والقمر .

ليس للدار على كثرة العلوم ، وإنما للدار على حسن التصرف والتعقل ، وقليل يكفيك خير من كثير  
بليحك ، فهاهي ذه الياقوتة أهديها إليك فأقول :

انظر في سورة البقرة عند تفسير آية « وما أزل على للسكينة يبابل هاروت وماروت » فإنك تقرأ  
هناك أنهم في التنويم المغناطيسي في الأكاديمية العلمية الفرنسية أمروا السيوف (فرواساك) فنقوم السيوكازو للصاب  
بهاء الصرع وقد كان فرواساك في حجرة والسيوكازو في أخرى ولم يعلم الأخير بحضور الأول ، وحصل  
ماحصل من إخبار للسيوكازو للريض عن مرضه ومستقبله ، وكيف تمكن مداواته ، وعين اليوم  
والساعة والدقيقة التي سيأتي فيها المرض ، ثم نرى هناك قبل ذلك الدرجات الثلاث للتقدم في هذا  
للقيام قريبا .

هذا هو الذي تقدم في سورة البقرة ، وإذا كانت هذه الأمور أصبحت الآن معروفة في أوروبا . وأن  
من ثنومه تنويجا تاما تكون هذه حاله .

فإذن أمر النفوس البشرية عظيم جدا مذهش ، ونفسى ونفسك فهما هذه القدرة وقد حال  
الله بيننا وبينها وهو يدعونا ليجيئنا بالطاعة حتى يرد إلينا ملكنا العظيم في هذه النفس ، وإذن نفهم هذه الآية  
فتحن في هذه الحياة قد حال الله بيننا وبين قلوبنا .

فأعجب للقرآن وأعجب للتصير بالحيلولة . وكن ماعشت مفكرا ذا كرا نعيش حكما تقياً وترقب هذه الحال  
التي انطوى قلبك عليها .

إن الآية تشير إلى أننا في هذه الحياة أموات لأنه حال بيننا وبين قلوبنا ، ولقد وجدنا أن قلوبنا تعلم  
عجائب لانهاية لها وتقدر على ما لا تقدر عليه في حال التنويم .

فهذه الحياة كأنها موت وهو يدعونا للحياة فانعكست القضية ، حياتنا موت وموتنا حياة وهذا ما يفسر  
ما ورد في الآثار « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

يا سبحان الله وبأسعده ، إن هذه القالة فتح باب لفهم قوله تعالى « وبسألونك عن الروح قل الروح  
من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ومن قرأ كتب علماء الأزواج في العصر الحاضر واطلع على علوم المنود وما تضمنه كتاب [ راجابوقا ]  
للؤلف باللغة الإنجليزية مترجما من اللغة الأوردية أدرك بعض سر « قل الروح من أمر ربي » إن ما جاء  
في تلك الكتب هو الذي أشار له قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقوله « سريهم آياتنا  
في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فهاهو ذا الله قد أطلع الأمم اليوم على بعض سر الروح الذي هو بعض آيات الله في الأنفس وعجائبها ،  
فإذا كان أهل الديانات قديما واللسمون يؤمنون بأمر الروح إيمانا ، فإن الدين اطلعوا على كتب الأم  
يؤمنون يقينا .

وكيف لا يوقن للره بسر الروح ؟ والروح قد تبدت عجائبها في المجالس الروحية وبدا جمالها ونطق  
الأنسك وأبصر الأعمى وبرع في العلم النبي الجاهل وبرز في الفلسفة من لا يحسن خطابا ولا يقرأ كتابا ولا يبحر  
جوابا إعلانا لاسرا ، ومتى فارق تلك الحال رجع إلى سيرته .

إن رجال الصوفية في الإسلام قد ظهر لهم بالرياضات نفس ما ظهر بالتنويم المغناطيسي اليوم ، وذكر  
زهاد الهند وعبادهم من تلك الأسرار ما لا يكاد يتخيل العقل وآوا جيما بالعجب العجيب من إخبار بالمشيات

وأعمال عجيبات ، وقد يدفن التليذ في قبره ستة أشهر ثم يخرجونه ويكشفون الغطاء عنه ويخرج من الصندوق في جمع حافل ثم يتحرك ويتكلم .

ولقد صنع بعضهم هذه العجائب على ملامن الناس في هذه السنة والتي قبلها في إنجلترا وقد شهدها القوم في السارح العاتة وقد أغمى على السيدات عند مشاهدتهم تلك الظاهرة ، فأمرت الحكومة بعدم تكرار هذا رفقا بالنساء والضعاف منهم .

هذا كله من سرّ قوله تعالى « قل الروح من أمر ربي » إن النوع الإنساني مقبل على سعادة لا يحلم بها الآن ، وهذه السعادة وهذا الملك العظيم هو الآن كامن في أنفسهم ، ويظهر تارة بالعبادة وأخرى بالرياضة وأخرى بالتتوم للقطايطى لحظة . فإذا استيقظ ذلك النائم لم يدرك شيئا مما كان يعرفه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المذكور في قوله تعالى « وإذا رأيت ثم رأيت نعيها وملكا كبيرا » عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقام رهبم شرابا طهورا » في تلك الحياة التي جاءت في قوله تعالى « وإن الدار الآخرة لمن الحيوان لو كانوا يعلمون » فقوله « لو كانوا يعلمون » إشارة إلى أن الناس حججوا عنه .

حصر الله الحياة في تلك الحال مؤكداً بأن وباللام ، فلا حياة إلا تلك الحياة التي ظهرت طلائعها فيها ذكرناه وحال الله بيننا وبينها .

وهذا هو المعنى اللطوى في قوله تعالى هنا « لما يحسبكم » فهذه هي الحياة المذكورة في آيتنا وما نحن عليه في الدنيا موت . فأهل الأرض اليوم ميتون في حياتهم الحيوانية التي بسببها حال الله بينهم وبين تلك الحياة .

ويقول علماء الهند في الكتاب للتقدم ، إن سرّ هذا العالم كله في الإنسان محبوه في عجب ذنبه ، وإن هذا العجب في نظرم مرآة للوجود كله وإن الرياضة والعبادة والذكر والعلم والفلسفة كل هذه تمنع الحجاب الحاجز للنفس بين عجب الذنب وعلومه وبين الدماغ الإنساني .

وإن علوم أهل الأرض التي وقفوا عليها من طريق الحواس والعقل تصل للبع من طريق أعصاب الحس والحركة والفكر .

أما أسرار الملك ولللكوت المحبوبة في عجب الذنب فإنها تترامى للعقل بطريق الانطباع من عجب الذنب في اللع .

وإنما ذكرت هذه التي لا برهان عليها ولا أي دليل ، لأن عجب الذنب المذكور في الأحاديث أنه هو الباقي الذي لا يفتى كالروح .

فهذا هو العجب العجيب أن يكون كلام المتنود منذ آلاف السنين بطريق العلم للكتسب بالرياضة هو الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهذا معجزة له صلى الله عليه وسلم ذكرتها استطرادا لمسألة الحياة في قوله تعالى هنا « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحسبكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » انتهى .

ضوء اليقونة وازدياد في عجائبها

إن تعجب فمعجب ما جاء في كتابي للسمى : [ كتاب الأرواح ] صفحة ١٩٢ من ذكر حادثة مذهبة في سنة ١٨٧٣ ذكرتها جراندا أوروبا وأمريكا ، وهي أن المؤلف الإنجليزي ديكنس فاجأته اللية في مدينة لندن سنة ١٨٧٠ قبل أن يتم روايته للدعوة [ أسرار ادوين برود ] فأعماها بعد موته على يد الوسيط الأمريكي ( جيمس ) في مدينة ( بوستون ) وجيمس هذا لم يكن إلا غلاما ساننا قليل العلم يقضى أيامه في إتقان حرفه

وافق أنه حضر سنة ١٨٧٢ في إحدى ليالي (تشرين الأول) جلسة روحانية تجلّى فيها روح ديكنس وطلب أن يكون جيمس للذكور وسيطاً يتمّ به روايته فقبل جيمس وصار يجلس كل ليلة وتتحرك يده وهي تكتب القراطيس أقبالا لا يعلمها، ودام على ذلك سبعة أشهر أكل فيها الرواية بألف ومائتي قرطاس ، ولقد شهد رجال الصحافة عموماً أنه يستجيب على القارىء أن يميز بين ما كتبه ديكنس قبل موته وبين ما كتبه الوسيط جيمس مد موته أقلّ اختلاف لافي الإنشاء ولا في الخط ولا في نسق الرواية ، حتى إن الأغلاط الإملائية التي كان للؤلّف في حياته يتأداها بقيت كما هي اه .

وفي صفحة ١٩٣ من هذا الكتاب نقلا عن علماء الأرواح في عصرنا ما نصه :

وتمد جاءت مقالات في الفلسفة والعلوم والفنون والتاريخ واللغات الأجنبية كتبها الأرواح على أيدي فتیان حديثي السنّ أو فتيات ساذجات لا يحسنّ القراءة اه .

وجاء في صفحة ١٩٨ من الكتاب المذكور نقلا عن المشرع الفقيه (سارجان كوكس) ماتعريبه : كثيرا ما رأيت غلاما صيرفيا وهو وسيط عار عن كل علم وتهذيب يجادل عند استيلاء الروح عليه قوما من الفلاسفة في مسائل للنطق ومعرفة الغيب والإرادة والقدرة وغالبا كان يفهمهم بأجوبته السديدة وأنا نفسي أقيت عليه يوما بعضا من مضلات علم النفس فلها لي يراهين قاطبة وألقاها في منتهى الرقة والفصاحة مع أنه في حاله الطبيعية لا يدري ما الفلسفة ولا يجد ألقاها يعبر بها عن أفكاره الصغيرة .

وجاء في صفحة ٢٨٠ من الكتاب المذكور (الطبعة الثانية) إنه ليس كل ماجاه في الكتاب المذكور مسلما به ، بل حال البرزخ مشكلة فلا تتخذ الأقوال الروحانية كلها دليلا إلا ماورد عن أرواح شية وساعده الدليل .

آراء علماء الإسلام في النفس الإنسانية وصفاتها واطلاعها على العجائب

وقد جاء في صفحة ٢٨١ من الكتاب المذكور (الطبعة الثانية) :

اعلم أن مناجاة الأرواح هي الصفة الخاصة لأئمة الإسلام لاسيا رجال الصوفية ، وهذا شائع ذائع ولكن الناس يكذبون ما لا يعلمون ، وهالك ما قاله الإمام الغزالي في كتابه [كيمياء السعادة] : اعلم أنه آمن أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر السقيم ويبان الحق على سبيل الإلهام ، وذلك لا يدخل من طرق الحواس بل يدخل في القلب لا يعرف من أين جاء ، لأن القلب من عالم الملكوت والحواس مخلوقة لهذا العالم .

ثم قال : ولا تظنّ أن هذه الطاقة تفتح بالنوم واللوت فقط ، بل تفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة .

فإذا جالس في مكان خال وعطل طريق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت وقال دائما : الله الله بقلبه دون لسانه إلى أن يصير لاخبر معه من نفسه ولا من العالم ويبقى لا يرى شيئا إلا الله انفتحت له تلك الطاقة وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة وانكشف له ملكوت السموات والأرض رأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها » وقال عز وجل « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » إلى آخر ما هنالك فافراه إن شئت .

فانظر في هذا القول الجامع إذ جعل الانكشاف في النوم وفي اللوت وفي صفاء النفس .

ولا جرم أن النوم قسمان : نوم طبيعي ، ونوم صناعي ، والصناعي هو الذي استعمله علماء أوروبا للمسمى (التنويم المغناطيسي) الذي تقدّم في هذا المقام كالعلام الصيرفي الذي يجادل في الفلسفة والنطق في تلك

الحال ، وكالتلام الصانع جيسس الذي أتم رواية ديكنس بعد موته ، فهذان وغيرها ممن يعدون بالآلاف كشف لهم العلم في نومهم الصناعي .

وهكذا تجد العلامة (أوليفر لودج) أكبر علماء الإنجليز في الطبيعة وهو معاصر لنا يقول : إنى حادثت الأموات وعرفت أن هناك أرواحا أعلى منا نهتم بنا وتحيط بنا من كل جانب ، فعرفت أن ما كان يقوله الأنبياء والقديسون من مساعدة لللائكة ومساعدة الله نفسه لنا هو كلام حق وليس مجازا ولا موارد ، ولكن هؤلاء عرفوا ذلك بسفاه قوسهم .

أما أنا فلم أوفق لطريقهم ، وإنما طريقى على لاغير ولكنه مؤد إلى ما أدت إليه طريقهم من حيث النتيجة واليقين اه .

وهنا تبدى من جليسى هذا السؤال فقال : هذا بيان جميل جامع علوم الشرق والغرب في هذه المسألة وأنت إذا لم تذكر كلام علماء الإسلام لم يهتم بما تنقله عن الترجمة أم الإسلام ، فمن أجل الحكمة وأعجبها أن وفقك الله لجمع الرأى الشرقى والشرقى في مقام واحد مع الإيضاح ، ولكنى أريد أن تفصل القول بضم التفصيل في طرق الصوفية في الإسلام ، ثم بيان الكشف هل نهتم به ونجمل حياتنا وفقا عليه أم ماذا تكون السبيل ؟ فقلت له : أما طرق الصوفية فإنها واسعة النطاق لاحد لها :

الطرق قد تعدد أغناس المخلوقات وكما اختلف النبات وتعددت اختلفت الطرق لله وتعددت ، ويقولون إن الجوع والسهر والصمت والعزلة هي الأركان الأربعة لها .

وزرى في الإحياء للإمام الغزالي شرح طريقة الجوع ، وذلك أنهم يأمرسون التلاميذ بإفلال الطعام تدريجا حتى يصل إلى أقصى حد في القلة .

ومن أسهل تلك الطرق أن يتناول الإنسان الطعام في مواعيد خاصة ثم يؤخر للعباد كل يوم دقائق معلومة بحيث لا يضر صحته ولا يشعر بتعب وجوع ولا يزال يؤخر كل يوم ذلك للوعد حتى يأكل كل يوم مرة ثم يزيد إلى يومين ثم ثلاثة وهكذا إلى عشر ثم إلى ٢٠ ثم إلى ٤٠ وهناك يفتح له هذا الباب وذلك بشروط خاصة .

ثم إن هذه الطريقة وأمثالها مما لا يحصى اعترضها قوم قالوا آمنا أن العلوم تفتح أبوابها بهذا ولكن أكثر الناس لا يقدرون عليها وإذا قدروا كان ذلك خطرا عليهم إذ لا علم عند المرید يصون به فكره من الوسوس بل ربما جن ، ثم قالوا : وخير الآراء أن يتعلم المرید أو لا ثم يهذب نفسه آخر . هذه هي ملخص آراء علماء الاسلام .

وأما قول صاحبى هل نهتم بالكشف ونجمل حياتنا وفقا عليه ؟ لجوابه أن المدار على تهذيب النفس تهديبا على قدر الإمكان حتى نكون أمة وسطا فالتطرف يضيع الأمم ، فلما سمع ذلك قال لم أفهم ما تريد ، فقلت يقول علماء الصوفية إن الكشف للمرید يحدثه الله له في فترات ليثبت به عقيدته ، فأما إذا اطمان المرید وعرف أن هذه المجاهدات لها ثمرات فإن دوام الكشف له يعوقه عن ارتقاء نفسه ، فما دام ناقصا فكشف له أحوال بعض إخوانه أو بعض الأمور المستقبلية ، فإذا كل علم هو نفسه أن ذلك نقص ، فإذا يستعبد بآفته منه وينفر .

وخير الفتح والكشف إنما هو الكشف العلمى ومعرفة الحقائق التي يزيد بها جلاء صفاء النفس ، فهذا هو الكشف المأمود .

فإذا سمعت أن رجلا صوفيا يجرب بما في قلوب الناس أو أحوالهم أو مستقبلهم فاعلم أنه إن اعتر بهذه الحال وفرح بها فإنها تصده عن العلوم والمعارف ويصبح شيطانا رجيا والناس يظنون من الأولياء ، وما هو

بولى إن هو إلا رجل أتجعت نفسه لأمر شهوانى لجمع الناس حوله ليفرح بهم وبأخذ مالهم ويشاركهم فى المرض الزائل ولا فرق بينه وبين أرباب الأموال وأرباب الجمال وأرباب الصيت والشهرة فى علم أو فن ، فكل هؤلاء لهم حظ دنيوى ناقص ويكون هؤلاء أشبه بالمنوم ( بالفتح ) اللعاطيسى الذى يخبر بما لا يعرف . وقد قرأت فى بعض كتب الإمام الشعرانى مامناه أن الرجل السوقى أفضل من المهذوب الذى لا عمل له فإنه ينفع الناس .

وفيه أيضا أن الإنسان قد يكون من أولياء الله لاجتهاده ولكن الله يؤخر له كشف الحقائق إلى ما بعد الموت اه .

هذا هو الذى فتح الله به فى هذا اللقاه ، وأنا قد أضقت الكلام فيه لدقته وعظم شأنه ولأنه هو الذى فتح الله به على « وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم - وفوق كل ذى علم عليم » .

واعلم أن الأمم إذا أتجه أكابرها لفتح الحس الباطنى أتجاهها كليا أتحدت إلى الأخطاط كما فى أهل الهند وبعض أم الإسلام للتأخرين ، وإنما السبيل التوسط فى الأمر فىكون الناس وسطا يهذبون نفوسهم ويقروون العلوم ويأخذون من كل فن طرفا .

وهذه طريقة الإسلام كما تقدم عن الإمام الغزالى ، ولذلك سموا أمة وسطا فلام فى الشهوة وحدها مشمورون ، ولا على الباطن وحده عاكفون ، وفى القرآن « قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة » .

هذا ذكرته لتعلم تفسير قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » اه صباح الأحد ٢ رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية .

#### اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة

هذه اللطائف الأربع ذات علاقة ومناسبة للطيفة الثالثة ، ذلك أن هذه اللطيفة الثالثة قد شرح فيها كيف كان الإنسان محبوبا عن عالمه منمورا فى حماه تائها فى يدهاء الدادة الجرمانية وشهواته الجنائية كما اوضح فى قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فانظر كيف أتبعها بالنهى عن الأعمال التى توجب أذى الجمهور وضياع الأمة وتمزقها وضرر المجموع .

ألا وإن النوع الإنسانى اليوم على هذه الأرض منمور فى جهالته تائه فى يدهائها ظالم جهول ، فسكا جهل نفسه فى اللطيفة قبلها جهل اتصاله بالمجموع فأصبح يتلس فى الظلام السعادة ، وما هو والله بعيد ، وأنت لو فقدت فى أهل الشرق والغرب رأيت مسألة النوع الإنسانى واتصال بعضه ببعض واحتياج أهل الشرق إلى الغرب والعكس قد أصبحت واضحة ظاهرة .

فترى أهل روسيا إذا قلّ القمح من بلادهم تهتاج لذلك أعصاب الإنجليز ، وقل نظير ذلك فى القطن والحرير والصلح والحرب والمرض وما أشبه ذلك .

فالأمم الأرضية اليوم متصلة اتصالا حقيقيا لا شك فيه ، كل ذلك معلوم ولكن القوى العاقلة فى النوع الإنسانى لم تبلغ منزلتها السامية ومقامها الرفيع فهم كالأطفال ، فترى كل أمة فى حاجة إلى أختها ثم هى تحاربها وتناوئها لتصل على ما فى يدها .

هذا فى الأمم ومثلها الأفراد ، فكل أمة أفرادها محتاج بعضهم لبعض وبارتقاء المجموع يرتقى الفرد وبضدها تتميز الاشياء ، ومع ذلك ترى الرجل يبحث على حنف أخيه ويودّ لو يصبح فقيرا سائلا أو مريضا .

كل ذلك للجهالة العمياء والضلالة الكتماء ، وقد يقدر الرجل أن يصلح المجموع فيكسل أو ييخل ، وإنما كسه ويخله على نفسه لأن المجموع إذا سعد فقد سعد مثله ، وإذا شقى فقد شقى مثله ، وهكذا ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

كل ذلك مضعف للجموع ، والفرد عضو من هذا الهيكل الكبير وهو الأمم كما في معنى الحديث الشريف « مثل المؤمنين في توادهم وتواضعهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . فإذا جهل الإنسان نفسه في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين الرء وقلبه » فهو يجهل الجموع وواجبه لتراكم الشهوات حتى أصبح الأفراد والأمم يجهلون أنهم لأحياء لهم إلا بالجموع فيلحن بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا ، فالجهل في الجموع كالجهل في الأفراد .

وأما اللطيفة الخامسة : فإنها تابعة للتين قبلها وهي ثمرتهما وتبينهما إذ استبان فيما تقدم في الرابعة أن ترك معاونة الجموع ضرر كبير وجهل عظيم .

فالتعاون إذن يورث السيادة والسعادة في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك قال هنا « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس » لتفرقكم وعدم اهتمامكم بجموعكم « فأواكم وأيدكم بنصره » لما اجتمعتم .

وأما اللطيفة السادسة ، وهي « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول الخ » فهي كسواقتها النظر فيها للجموع لا للأفراد يقصد بها التحاب والتعاون وعدم الخيانة فيكون الناس كأعضاء أسرة واحدة . وقد زلت هذه الآية كما قال السدي في جماعة كانوا يسمعون السر من النبي صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ للشركيين .

وقال جابر بن عبد الله : إن أبا سفيان خرج من مكة فأخبر به جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبر النبي أصحابه وقال اخرجوا إليه واكنسوا ، قال فكتب رجل من الناقلين إليه أن محمدا يريدكم تخذوا حذركم ، فأزّل الله عز وجل هذه الآية .

وأبضا زلت في أبي لبابة ، وذلك « أنه صلى الله عليه وسلم حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسبروا إلى إخوانهم بأذرع وأرجاء بأرض الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل لنا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لأن عياله وماله في أيديهم فبث إليهم فقالوا ماترى هل تنزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار إلى حلقه أنه الدبج ، قال أبو لبابة : فما زالت قدمي حتى علت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشدت نفسه على سارية في المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي فمكث سبعة أيام حتى خر مشيا عليه ثم تاب الله عليه فقبل له قد تيب عليك فخل فكس فقال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه فخله بيده ، فقال إن من تمام نوبتي أن أهبج دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أخلع من مالي ، فقال عليه الصلاة والسلام يجزيك الثلث أن تصدق به » .

وأما اللطيفة السابعة : فهي من نتائج السابقات إذ جعل الأموال والبنين فتنة بهما يشغل الإنسان عن مجموع الأمة وعلى قدر التهاون بالجموع يتعد الإنسان عن الله عز وجل ويقل نصره في الدنيا والآخرة ؛ فالمال والبنون فتنة وامتحان للرء في هذه الدنيا فيختبر للرء فإن جمع بين المال والولد ولم يشغلاه عن الجموع كان عبد الله حقا ، ومن طمست بصيرته فاكتفى بما لديه فإنه جهل الجموع ولم يعرف نظام الانسانية العاقبة ولا الانسانية الدينية وكفى بالجهل بابا للفتاب في جهنم وبئس القرار .

### (القسم الرابع)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

الله ، والله خير الماكرين \* وإذا مثلنا عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل  
 هذا إن هذا إلا أساطير الأولين \* وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك  
 فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم \* وما كان الله ليمدبهم وأنت فيهم  
 وما كان الله ممدبهم وهم يستغفرون \* وما لهم ألا يمدبهم الله وهم يصدون عن المسجد  
 الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون \* وما كان  
 صلاحهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون \* إن الدين  
 كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسئفونها ثم تكون عليهم حسرة ثم  
 يُملئون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويحمل الخبيث  
 بعضه على بعض فيزكهما جميعا فيجعلهما في جهنم أولئك هم الخاسرون \* قل للذين كفروا  
 إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين \* وفاتلوهم حتى  
 لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير \* وإن تولوا  
 فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .

## التفسير اللفظي

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر نومه على المؤمنين بقوتهم بعد ضعفهم وبصرهم بعد ذلمهم وبأنهم بعد  
 خوفهم أعقبه بذكر ما أنعم به على النبي صلى الله عليه وسلم فيما انفق له في مكة ، وكان وقت نزول هذه  
 الآيات بالمدينة .

وحصل ما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآيات أن قريشا خافوا لما أسلم الأعراب أن يعظم أمر رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع نفر من كفار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمره فاعترضهم إبليس في سورة  
 شيخ نجدى فدخل معهم فقال أبو البحتري رأي أن نجسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه  
 طعامه وشرا به منها حتى يموت ، فقال الشيخ النجدى : بشس الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من  
 أيديكم ، فقال هشام بن عمرو : رأي أن نحمله على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع ، فقال  
 بشس الرأي : يضد قوما غيركم ويقاتلكم بهم ، فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما  
 وتطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة واحدة فيفترق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على ضرب قريش  
 كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه ، فقال صدق هذا الفتى ففترقوا على رأيه ، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه  
 وسلم وأخبره الخبر وأمره بالمعجزة فبیت عليا رضي الله عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله عنه إلى  
 النمل ، وذكر بعضهم أنه أخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على  
 رؤسهم وهو يقرأ « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا - إلى قوله - فأغشيناهم فهم لا يبصرون » وبات الشركون



يجرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ناروا إليه ليقتلوه فأرأوه عليا ، فقالوا له : ابن صاحبك ! قال لا أدري : فاقفوا أثره وأرسلوا في طلبه ، فلما بلغوا الغار رأوا على بابة نسج العنكبوت ، فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابة أثر ، فبكت في النار ثلاثا ثم خرج إلى المدينة .

قال القاضي رحمه الله : إن هذه القصة موافقة للقرآن ولكن حديث إبليس وظهوره بصورة إنسان باطل ولقد ردّ عليه العلامة الزازي ، أما أنا فأقول : إن العلم الحديث جعل مثل هذه الأمور جائزة ، فإن الأرواح الشريرة تظهر بأشكال شتى ولا مانع من ذلك ، وليس للقيام مقام تحقيق فإنه ليس بهم في تفسير الآية .

وهذا هو قوله تعالى ( وإذ يمكر بك الذين كفروا ) أصل للسكر الاحتيال في خفية ( ليثبتوك ) ليحبسوك وهو رأى أبي البختري ( أوفيتلوك ) وهو رأى أبي جهل ( أو يخرجوك ) طردا وهو رأى هشام بن عمرو كما تقدم ( ويمكرون ويمكر الله ) يعاملهم معاملة الماكرين بأن أخرجهم إلى بدر وقتل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا ( والله خير للماكرين ) أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا . ثم اعلم أن النضر بن الحارث من بني عبد الدار كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم وأسفنديار وأحاديث الصجيم وكان يبرء بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرءون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ويكون ، فلما جاء مكة وجد النبي صلى الله عليه وسلم قد أوحى إليه وهو يقرأ وصلى فقال النضر بن الحارث ( قد سمعنا ) يعني مثل هذا الذي جاء به محمد ( لئن شاء لقلنا مثل هذا ) الخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلك إنه كلام الله فقال ( اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ) أي فاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب القبل ( أو اثنتا بعدد أليم ) نوع آخر من جنس العذاب الأليم وقد أجاب الله دعاءه فقتل صبورا يوم بدر .

وللقصود من هذا القول التهم وإظهار اليقين على كونه باطلا .

وروى أيضا البخاري ومسلم عن أنس أن أبا جهل قال كما قال النضر فترلت ( وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ) الآية ، فلما أخرجوه زلت ( وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ) .

#### إيضاح اللقاه

قالوا نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ، ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون فأنزله الله ( وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ) .

ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين ، أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدم .

وقال ابن عباس لم يذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والدين آمنوا معه ، قال الله « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » يعني للمسلمين ، فلما خرجوا قال الله « وما لهم ألا يعذبهم الله » وهذا هو قوله تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا » إلى قوله « وهم يستغفرون » ثم قال تعالى « وما لهم ألا يعذبهم الله » أي أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله بالقتل والأسر بعد خروجك من بين أظهرهم « وهم يصدون عن المسجد الحرام » أي وحالم ذلك ، ومن ذلك الصد الجاؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارهم طام الحديبية ( وما كانوا أولياءه ) مستحقين ولاية أمره مع شركهم ، وذلك رد لما كانوا يقولون نحن ولاية البيت والحرم فنصت من نشاء وندخل من نشاء ( إن أوليائه

إلا للتقوى) من الشرك (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أنه لا ولاية لهم عليه ، وأما أقلهم فإنه يعلم أن دين الإسلام حق ولكنه يماند وبكابر كبرياء وخيلاء .

وكيف يكونون ولاية البيت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ١) أى صغيرا وتصفيقا . وكيف يكون الصغير بالغم والتصفيق باليدين صلاة ، وذلك لأنهم كانوا على دين الخليل عليه السلام وقد مضت الأحقاب نالوا الأحقاب والقوم قد خلوا من الحكمة فاقبلت صلاتهم مدعاة للضحك والسخرية من صغير وتصفيق كما يفعل بعض جهلاء الصوفية من ضرب على الدفوف ورفع الأصوات في الطرقات وفي المساجد .

ولقد تفنن القوم في هذه الجهالة العمياء ونسوا الصلاة الإسلامية والتوجه لدى الجلال والإكرام فيها والتوجه بالقلب لله في العبادة شأن كل دين نام عنه حكاؤه وغاب عنه علاؤه وذهبت دوله وضاع مجده وتبدل شأنه وغابت شمسه وأقبل ظلامه وذهب ضياؤه ومضاؤه واستبدل بسعوده نحسا ورفعت خضضا وبأوجه خضضا وبشره ضمة ، ساء مثلا القوم الجاهلون .

قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون ، ويقال مكا الطائر بمكو : إذا صفر .

وقال حسان بن ثابت صلاتهم التصدي والكاء ، ولذلك عذبهم الله فقال ( فذوقوا العذاب ) أى القتل والأسر يوم بدر وعذاب الآخرة يوم القيامة ( بما كنتم تكفرون ) اعتقادا وعملا . هذه هي عبادتهم البدنية وهي : الكاء والتصدية .

وأما عبادتهم للمالية التي لاجدوى لها أيضا ، فذلك أنه لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بجيره إلى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك المير من قريش تجارة ، فقالوا يا معشر قريش إن محمدا قد تركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربنا لننأى نذرك منه نأرا بمن أصيب منا فحصل ذلك يوم أحد فقال الله فيهم ( إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ) أى كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبيل الله ( فسيفتقونها ثم تكون عليهم حسرة ) ثم تكون عاقبة إنفاقها ندما وحسرة ( ثم يظنون ) آخر الأمر وقد تم ذلك كله وهنا من دلائل النبوة لأنه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر ( والذين كفروا ) أى الذين ثبتوا على الكفر منهم لأن بعضهم قد أسلم ( إلى جهنم يحشرون ) يساقون ، وإنما يحشرون ( ليعز الله الحبيث من الطيب ) القريق الحبيث من الكفار من القريق الطيب من المؤمنين ( ويجعل الحبيث ) القريق الحبيث ( بضه على بعض فيركبه جميعا ) فيجعله ( فيجعله في جهنم ) أى القريق الحبيث ( أولئك ) الإشارة للقريق الحبيث ( هم الحاسرون ) أنفسهم وأموالهم ( قل للذين كفروا ) أى أبو سفيان وأصحابه ( إن يتبوا ) عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الإسلام ( ينظر لهم ما قد سلف ) لهم من العداوة ( وإن يعودوا ) لقتاله ( قد مضت سنة الأولين ) بإهلاك أعداء الأنبياء في الدنيا ونصر الأنبياء والأولياء .

وقد أجمع العلماء أن الإسلام يجب ما قبله ، وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والثالية ، وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمته فليس عليه ذنب (وقالتلوم حتى لا تكون فتنة) لا يوجد فيهم مشرك ( ويكون الدين كله لله ) أى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره ( فإن اتبوا ) عن الشرك وإيذاء المؤمنين والصد عن سبيل الله ( فإن الله بما يعملون بصير ) فلا ينجح عليه شيء ( وإن تولوا ) يبنى

أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وعادوا إلى القتال (فاعلموا أن الله مولاكم) وليكم وناصركم وحافظكم فتقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم (نعم المولى) لا يضيع من تولاها (ونعم النصير) لا يئلب من نصره ، فمن كان في حفظه ونصره وكفائته وكلايته فهو له نعم المولى ونعم النصير .

لطيفة في قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » وفي بقية الآيات

اعلم أن هذا اللقاه مقام إظهار الحقائق وإبطال الأباطيل وأن الله ناصر الصادقين وخاذل الباطلين ولم يقصه علينا لجرّد التلاوة ولا لجرد القصص ولكن أنزله الله وقرى على طول الأزمان ليكون ذلك عبرة لنا .

واعلم أيها الذكي أني ما كتبت في هذا التفسير حرفاً ولا خططت بقلمى كلمة إلا وفي قلبي استعمار النصر ورجاء الرحمة واعتقاد النعمة ، ألا وإن هذا زمان الملوام والعرفان وإن الله قد قلب الكرة الأرضية فجعلها أعما ودولا تجرد في العلم وتبحث في هذه العوالم الهيطة بنا وإني قد انبعت همي من إبان صغري لتدوين الحقائق العلية مع الآيات القرآنية وقد وجدت في نفسي كالفطرة وكالتفريزة فلم أقدر على مكابحتها ولم يمكنني دفعها .

وقد قال علماء النفس الإسلاميون والصوفية منهم: إن فكر الطاعة إذا كان ثابتاً في النفس هادئاً دائماً فإنه من الله ، وضدّه ما كان من الشيطان وفكرة الشر التي تحدث باستفزاز من الشيطان وفكرة الخير المستخرجة للبر الوقتية أيضاً تكون من اللامسكة .

ولقد وجدت نفسي تائفة لهذه الباحث عاكفة عليها ، وكم شد على التكبير قوم وكم أوديت في هذه السبيل ولكن النصر وجدته حليني وإعانة الله كانت تكوّنني وللشجاعت القلبية والأخبار الواصلة من الآفاق وآلاء الله المترادفة وإعاناته للتبابعة وعرفانه للتوالي وإلهامه الصادق وولائه الهام .

كل ذلك قد حل في نفسي عملاً جعلها تثق بعون الله ، وبأن هذه الأمة الإسلامية ستنبوأ مكانها اللائق بها ونحل محلها الرفيع ، ومقامها البديع ، ومجدها الباذخ ، وعزها الشامخ ، وسعادتها المستقبلية ، وأن الله سيغير أطوار هذه الأمة من الجهل إلى العلم ، ومن السكون إلى الحركة ، ومن القبل إلى العز ، ومن الضعة إلى الشرف .

وسيطر في هذه الأمة حكام صادقون وعلماء محققون ويكونون شرف الإنسانية وذخر الأمة الحميدة ويكون لهم القدح للملئ في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وسيكون فيهم من يتبع صنعة ربه وبدائه وسبقه ون هذا التفسير وما مثله من كتب علماء الإسلام في بلاد الشرق .

وبهذه الصفة يدرون الوجود وما حواه ونظام الكواكب وما والاه ومجائب النبات وما سقاه وبدائع الحيوان وما غذاه ، وغرائب الهواء في مجراه ، وأنواع الماء في مسراه ، وفي باطن الأرض ومنها .

وهذا سرّ قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » . اللهم إني وحثت بوعذك وقد وعدتنا في القرآن . اللهم آمم النعمة على هذه الأمة التي استنطقها الطامسون وحضرها الأورويون . اللهم أعزها وانصرها وعلما وانشلها من الجهالة العمياء إلى نور العلم البين . انتهى الكلام في القسم الرابع .

### (القسم الخامس)

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّذِينَ هُمْ يَتَّبِعُونَ

وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَنَانِ  
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَّةِ الْآخِرَةِ وَالرَّكْبُ الْأَسْفَلُ  
 مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِكُمْ فِي الِيمَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ  
 مَنْ هَلَكَ عَنِ بَيِّنَةٍ وَيُنْجِيَ مَنْ حَىٰ عَنِ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ \* إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي  
 مَنَامِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَهِقْتُمْ \* وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ  
 بِذَاتِ الصُّدُورِ \* وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيمِ فِي آغْيُسِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آغْيُسِهِمْ  
 لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً  
 فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ \* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا  
 فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا  
 مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ \* وَإِذْ  
 زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا  
 تَرَءَتِ الْفِتْيَانَ تَكَصَّ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَزِي مَالًا تَرُونَ إِنِّي  
 أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ  
 دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ فَازٌ \* وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ اتَّوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا  
 الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ \* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ  
 وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْمُجْرِمِينَ \* كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ  
 فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبِرًا نِعْمَةً  
 أَنْصَحًا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُبَيِّنُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ  
 وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ  
 وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ \* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ عَاهَدتْ  
 مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ \* فَلَمَّا تَتَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ  
 بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ \* وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ \* وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنْهُمْ لَا يُنَجِرُونَ \* وَأَعِدُوا لَهُمْ  
 مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوا اللَّهَ وَعَدُواكُمْ وَأَخْرَجُوا مِنْ دُونِهِمْ  
 لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ \*  
 وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ  
 يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ \* وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ  
 أَفْقَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ  
 حَكِيمٌ \* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خَرِّصِ الْمُؤْمِنِينَ  
 عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ  
 يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ \* الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ  
 فِيكُمْ صَفَقًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ  
 يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى  
 يُشْرَخَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا  
 كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* فَكُلُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلَالًا  
 طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسْرَى إِنْ  
 يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
 رَحِيمٌ \* وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \*  
 إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوُوا  
 وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالِكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ  
 شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبْتَنِسُوكُمْ  
 وَيَبْتَنِيهِمْ مِيثَاقُ اللَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرَةً \* وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَقْوَاهُ  
 تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَيْنَهُمْ أَوْلَى  
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

مقدمة لتفسير هذه الآيات

اعلم أن الضئمة ما أخذ من مال الكفار على سبيل الفهر والقبلة بإعفاف خيل عليه وركاب ، والتي  
ما أخذ من مال الكفار بغير إعفاف خيل ولا ركاب .

وقد ذكر حكم التناهم هنا ، وملخصه : أنها تضم خمسة أقسام : أربعة منها للقائلين ، وواحد يقسم على  
خمس أقسام : قسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خمس الخمس ، وقسم لأقاربه وهم بنو هاشم وبنو  
المطلب دون بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وقد استحقوه لما روى « أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان  
يكلمان النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس في بنو هاشم وبنو المطلب ، قال فقلت : يا رسول الله  
أعطيت بنو المطلب وتركنا ونحن وهم بمنزلة واحدة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بنو هاشم  
وبنو المطلب شيء واحد . وفي رواية : إنا وبنو المطلب لا نترقب في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد  
وشبك بين أصابعه » وقسم لليتامى ، وقسم للساكنين ، وقسم لابن السبيل وهو السافر البعيد عن ماله .  
وأما الأحماس الأربعة الباقية : فيعطى للفارس منها ثلاثة أسهم : سهم له وسهمان لفروسه ، ويعطى  
الرجل سهما واحدا .

وقال أبو حنيفة للفارس سهمان والرجل سهم ، ورضخ للعبيد والنسوان والسيبان إذا حضروا القتال  
وحكم القمار حكم القبول .

وعند أبي حنيفة بخير الإمام بين أن يجعل القمار مقسما بينهم وبين أن يجعله للمصالح العامة ، ومن  
قتل مشركا استحق سلبه . والسلب كل ما كان على القتل من ملبوس وسلاح وهكذا الفرس الذي  
كان بركبه .

ثم إن خمس الخمس الذي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر الذي لدوى القربى قد سقط بوفاته  
صلى الله عليه وسلم وصار الكل مصروفا إلى الثلاثة الباقية عند أبي حنيفة .

وقال مالك : الأمر في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض إلى الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم .  
وأما النبي فذهب الشافعي في أحد قوله أنه لمصالح المسلمين ويعطى أولا للمقاتلة ما يكفيهم ثم الأهم فالأهم  
من المصالح والأكثر على هذا .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان له خمس الخمس فإنه كان يعطيه أحيانا لمن يراه أهلا .  
روى عبادة بن الصامت قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبرة من جنب بئر ،  
قال : أيها الناس إنه لا يهلك لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم »  
أخرجه النسائي .

إذا عرفت هنا فما أسهل أن تعرف قوله تعالى ( واعلموا أنما غنمتم ) أي الذي أخذتموه من مال  
الكفار قهرا ( من شيء ) مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخبيط ( فإن لله خمسة ) أي ثابته لله خمسة وإنما  
ذكر الله لتعظيمه ، لأن الله له ملك السموات والأرض لا خمس الخمس المذكور في الآية ( ولرسول

وقد القربى واليتامى والسالكين وابن السبيل) ولقد تقدمت تفصيل القول في هذا آخفا ، وأزيد عليه هنا أن سمى النبي صلى الله عليه وسلم كان الشيخان أبو بكر وعمر يصرفاه إلى مصالح المسلمين عامة كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم ، وهناك أقوال غير هذه ضربنا عنها صفحا ، ثم قال ( إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا محمد من الآيات والملائكة والنصر (يوم الفرقان) أى يوم بدر الذى به فرقنا بين الحق والباطل (يوم التقي الجمعان) للمسلمون والكفار ، يقول الله « إن كنتم آمنتم بالحج » فاعلموا أنه جعل الحسنى لمؤلا فسلوه إليهم واتموا بالأحسان الأربعة الباقية .

فالتصود بالذات هنا العمل بالأمر لا مجرد العلم ( والله على كل شئ قدير ) فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة .

ثم إن الله قد أظهر في هذه النزوة من الحكم الباهرة ما يؤيد النبوة ويثبت قلوب المؤمنين :  
[ الحكمة الأولى ] إن المؤمنين لما نزلوا بدرا كانوا بشفير الوادى الذى هو أقرب إلى المدينة . والشفير هو الشط وهو المدوة مثلث العين ، وكانت هذه المدوة رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا يمشى فيها إلا بتب ولم يكن فيها ماء .

[ الثانية ] أن كفار مكة كانوا بالمدوة التى هي أبعد من المدينة وأقصى منها وفيها الماء ولا تسوخ فيها الأرجل .

[ الثالثة ] أن ركب أبى سفيان العبر عنه بالعبر كان في مكان أسفل : أى عند شاطئ البحر ، فكان قريبا من كفار مكة يستظفرون بهم عند الحاجة ، والمسافة بين الركب وبدر ثلاثة أميال .

[ الرابعة ] أن المؤمنين لما خرجوا ليأخذوا العبر خرج الكفار ليجنوها من المسلمين فالتقوا على غير ميدان ، فكيف تمكن الحاربة إذن بين عدوين قوى مستعد وضيعف غير مستعد ؟ ولو أن الضيف واعد القوى للقتال ثم علم حقيقة الأمر لتخلف طعنا ، فكيف به وهو لم يواعد ؟

فهذه الحكم الأربعة هي الآتي ذكرها في الآيات على الترتيب ، والحكمتان الأوليان في حكم الواحدة فكأنهما ثلاث حكم ، وهذا قوله تعالى ( إذ أنتم بالمدوة الدنيا ) بدل من يوم الفرقان ( وهم بالمدوة القصوى والركب أسفل منكم ) أى في مكان أسفل منكم ، والجملة حال من الظرف قبله ( ولو تواعدتم ) أتم وهم القتال ( لاختلفتم في الميدان ) هية منهم وبأسا من الظفر .

كل ذلك دلالة على أن هذا النصر إنما هو من الله وأنه من دلائل النبوة وهو مما زاد المؤمنين إيمانا ( ولكن ) جمع بينكم على هذه الحال ( ليقضى الله أمرا كان مفعولا ) حقيقا بأن يفعل وهو نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، ثم علق بقوله « مفعولا » قوله ( لهلك ) ليكفر ( من هلك عن بينة ) من كفر بعد حجة قامت عليه ( ويحيى من حمى عن بينة ) ويؤمن من آمن على مثل ذلك ، فالهلاك هو الكفر والحياة هي الإيمان ، أو ليضل من ضل على بينة ويهتدى من اهتدى على بينة ، أو يموت من يموت على بينة طائفا ، ويحيى من يحيى عن حجة شاهدا لثلاث يكون له حجة ومعنرة ، فإن وقعت بدر من الآيات السجية الواضحة ( وإن الله لسميع ) لأقوالهم ( عليم ) بكفر من كفر وعقابه ، ويليمان من آمن ونوابه .

وهنا أخذ يذكر حكمة أخرى ، فقال تعالى ( إذ يريكهم الله في منامك ) إلى قوله ( وإلى الله ترجع الأمور ) وحاصله أن الله سبحانه وتعالى أرى النبي صلى الله عليه وسلم الشركين قليلا فأخبر أصحابه بذلك فكان ذلك تشجعا لهم على عدوهم ، ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى كثيرا في المنام لقتل أصحابه : أى جبنوا عن القتال وتنازعوا في أمر القتال وترددوا ( ولكن الله سلم ) أى عصم للمسلمين من التنازع والمخالفة فيما بينهم وسلمهم من الهزيمة ، ثم إنه لما التقى الجمعان أرى الله للمسلمين أعداءم قليلا في أعينهم حتى قال ابن مسعود

رضى الله عنه لمن إلى جنبه أترام سبعين ، فقال أترام مائة ، وذلك ليثبت الله قلوبهم وليصدقوا رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم .

وكما قلل الكافرين في أعين المسلمين قلل المسلمين في أعين المشركين حتى قال أبو جهل إن محمدا وأصحابه أكلة جزور فلا تقتلواهم واربطوهم في الجبال استغلالا لهم واستصغارا لشأنهم لقلبتهم في عينه ، ثم قال سبحانه (ليقض الله أمرا كان مفعولا) أي أمرا كانتنا ، وهو إعلاء كلمة الله ونصر أوليائه وإذلال المشركين ، وتكرير هذه الجملة لسببين مختلفين : فهناك القضاء للبرم باستيلاء المسلمين وغلبتهم على الكافرين مع اختلاف القوى وتباعد الأحوال ، وهنا القضاء بتقليل الكثير في الأعين ليكون ذلك باعثا على القتال ، فهما قضاآن بأمرين مختلفين : أحدهما سبب والآخر مسبب .

#### لطيفة

إن قصة بدر قد فصلت تفصيلا في مواضع مختلفة بحيث حالت تحليلا مفصلا ولكل جزء منها حكمة .  
الآ ترى أن الله ذكر في أول السورة :

- (١) التماس الذي اعترام .  
(٢) ونزول الماء عليهم .  
(٣) وتطهيرهم به .  
(٤) وزوال رجز الشيطان عنهم .  
(٥) وتثبيت قلوبهم .

وهناك سادس وهو إلهام اللائكة لهم بالنبشير ، وبضمهم شاهدم .

وهنا زاد كونهم بالعدوة الدنيا وهو السابع .

وكون العدو بالعدوة القصوى وهو الثامن .

وكون الركب جهة ساحل البحر وهو التاسع .

وكونهم حاربوا على غير استعداد وهو العاشر .

وكون النبي صلى الله عليه وسلم رآهم في منامه قليلا وهو الحادي عشر .

وكون المسلمين رأوهم لما التقوا قليلا وهو الثاني عشر .

وكون الكفار رأوا المسلمين في أعينهم قليلا وهو الثالث عشر .

وجاء في سورة آل عمران أن الله كثر للؤمنين في أعين للمشركين : أي بعد احتدام وطيس الحرب ، كما قال « برونهم مثلهم رأى العين » فصار للؤمنون الدين هم ثلث للمشركين تقريبا في أعين للمشركين مثل عدد للمشركين ، وهذا هو الرابع عشر .

فانظر أيها الدكي كيف ذكر القرآن (١٤) مسألة في غزوة بدر بحيث لم يذكر نامسا يشام ولا مطرا يستقيم ولا خاطرا في شوسهم ولا رؤيا في منام نبينا صلى الله عليه وسلم ولا رؤية أعينهم ولا منزلهم الذي ينزلون فيه ولا ترايا يمشون عليه إلا ذكره وأظهر حكمته .

أليس هذا من العجب ! أليس هذا التحليل يدلنا أن تفكر فيما يحصل لنا من العجائب في حياتنا الدنيا وأن تفكر فيما ينزل بنا من خير أو شر ثم تعرف حكمة الله فيه .

إن أحوالنا كلها سلسلة متصلة شر وخير ، ومرض وصحة وآراء تعرض لنا ، فطيك أيها العاقل أن تفكر في كل ما يصيبك وما تتاله وأن تحللها كما حلل الله غزوة بدر وتلمس لكل حال حكمة وتساءل الله أن يطيك حكمة ما حصل لك . فإن هذا يفتح بصائرنا ، ويثور قرائننا ، ويشرح صدورنا ، ويدلنا على عيوبنا ويصيرنا بذنوبنا ويرشدنا إلى طرق الصواب ؛ ولرب حادثة واحدة في حياتنا مزججة تنير بصائرنا إذا تأملناها .



وتفكر أيها الماقل فيما مرّ عليك فستجد من حكم الله فيها ومن العجائب ما لا يشاركك فيها سواك ،  
فلنكل امرئ تاريخ حياته مستقل عن سواه ، وإياك أن تستهزئ بتاريخ حياتك ؛ فلتعلم أنه مملوء من  
العجائب متى فكرت فيه ، كما أن الزهرة الواحدة تحمل كنزا من العلم للتفكرين ولا يعرف لها معنى  
من لا يحقلون .

وانظر إلى أحوالك وكيف نجد نفسك يوما قد أحببت إنسانا حتى عشقته ووثقت بامرئ حتى جعلته  
قائما بشئونك كلها ثم يرى بعد حين أن هذا المحبوب للمعشوق ليس أهلا للجنة ولا للعشق ، وأن هذا اللوثوق به  
ليس أهلا للثقة فتقلب الحال وتتبدل المواطف والأخلاق ويصبح المحبوب مكروها والأمين خائنا حقا  
أو باطلا ، وهكذا كل ما حولنا وما نسمعه من القول والسير وما نشاهده من الأمور والسناعات .

فترى زيدا تزين له صناعة الحدادة ، فأما عمرو فإنه يزدريها ، وهكذا ترى جميع أحوالنا ، كذلك  
الأغذية والملابس والمساكن ، ولذلك ترى الناس لا يزالون يتقلبون ويتقلون من حال إلى حال ويخترعون .  
وبهذه الآيات أظهر الله أنه غالب على أمره لا فرق بين الصالحين والطالحين والأنبياء والمرسلين .

فهاهو ذا سبحانه أرى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام أن القوم قليل ثم أراهم للمؤمنين كذلك نهارا  
فظنوا أن الألف مائة أو أقل ، ورأى أهل مكة أن المؤمنين لا يصبح أن يقاتلوا بل يربطون بالحبال ، وبعد  
أن دارت للمركبة رأوا أن عدد نحو ثلثائة يبلغ ألفين فانهزموا .

كل ذلك ليت أمره وينفذ حكمه في خلقه ونحن نشاهد ذلك في أحوالنا ، فترى زيدا يؤثر بقوله فينا  
وهو كاذب فأصبح القليل كثيرا في أعيننا ثم نعمل به وبسمه آخر منا ، فيقول هذا كاذب في دعواه فيرى  
كثير ادعائه كاذبا فيحجم عن آرائه ، وكل هذا كالنظير على قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين  
المرء وقلبه » .

ألا ترى أنه حال بين الشركين وبين قلوبهم لما أراهم للمؤمنين قليلا جدا ، وبين المسلمين وقلوبهم حين  
أراهم للشركين مائة ، وبين الشركين وقلوبهم لما رأوا المسلمين ضغيفهم فنقد أمره بهذه الآراء التي أحدثها  
في النفوس .

هكذا حال بين زيد وقلبه حينما صدق عمرا لما أكثر القليل وخذعه وغشه في معاملته ، وإنما فضل الله  
ذلك بزيد ليهذه ويصره بالعواقب ، فإن لم يتبصر بذلك تواتر خطيئته في أعماله .

بل الحياة الدنيا كلها وشهواتها ولذاتها وأموالها وجنودها وجيوشها وممالكها وحب الإقامة فيها من  
باب تكثير القليل إذ تراها أضعاف أضعاف ما هي عليه من النعمة وبعد حين نعرف حقيقتها ، ويرى الزهاد  
أن عظيمها حقير وكبيرها صغير .

كل هذا لتكثير القليل وتقليل الكثير « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ويظهر أن هذه الحياة  
كسرح التمثيل وحواسن وشهواتها تكبر لنا صورها والحقيقة مخفية وراء هذه الصور للزوجة ، والنتيجة  
من هذه الصور والأشكال والحيرة وخداع الأعين والأبصار وتوالي التقلبات علينا وتزيين الشهوات لنا  
والحيولة بيننا وبين قلوبنا .

كل ذلك لتتبصر وتتذكر أمر هذه الحياة وتتوّر بصائرنا وترتقي عقولنا ونعرف أن الحياة الدنيا لب  
وطمو ونستبسط الحكمة والعلم من هذه الأشكال كما تستبسط أجسامنا من اللواد الغذائية حاجتها وترى باقيا  
خارج الجسم ؛ فلئن تماطينا الماء والهواء والحيز وحرارة الشمس فلئن أجسامنا تعمل فيها أعمالا كيميائية عجيبية  
وتصطفى من ذلك مادة الغذاء الصافية وتوزعها على جميع أعضاء الجسم وترى بالباقي من الماء والهواء خارجه  
وإن زادت الحرارة فينا تداوينا منها .

هكذا هذه الصور والأشكال المحيطة بنا يجب أن نترك العقول خائقة للتصود منها ولا تمأ بها ؛ فاللوت والحياة والنقى والفقر والصحة والمرض والهبة والكرهية والمزّ والضمّة ، كل هذه صور تمثل فينا ونحن للمثلون لها لنصرف حقايقها وتهذبنا بوقائدها وندوّنها في نفوسنا ونرّضع بها إلى اللأ الأمل حتى إذا طارقتنا هذه النار كانت لنا سلاحا وجناحا نظير به في الملا ولا نبقى مع الجاهلين الذين يتسكّمون في الطريق إلى الله بعد اللوت .

ولتأمل في أحوالنا نجد أننا أشبه بالمتوّمين تنوعا منطابيسيا ، فقد رأينا أن للنوّم ( بالكسر ) يطلّى للنوّم حنظلا ويقول هو سكر فيستلّه ، ويطلّيه سكرًا فيقول هو حنظل فيتأذى منه ، وهكذا يحمله يتكيف بما يقوله ويظنّ نفسه كما يوحى إليه للنوّم .

هكذا نجد أحوال الناس في الدنيا ، قرى نفوسنا تتقلب تقلبا كثيرا كما تقدّم في الحديث « إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن » وهو متردّد أبدا بين للتضادات والتناقضات وكأننا في هذه الحياة نيام ، فإذا انحلت أربطتنا من هذا الجسد صعدنا إلى عالم أعلى وبقظنا من غفلتنا ويقال لنا إن بصرنا حديد .

ومما يمتري أنفسنا ما يكثر القليل ويقلل الكثير كما في غزوة بدر ، فتقليل الكثير هناك نظيره عند الناس قاطبة للنظار القرب فقد قلل السافة بيننا وبين التطور ، وهكذا نظير تكثير القليل المتظار المعظم فإنه يربنا الصغير كبيرا ، وهذا قوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا متاع الفرور » انتهى .

ثم أخذ سبحانه وتعالى يحظّ للمؤمنين فأمرهم أولا أن يشبّثوا في الحرب ولا ينهزموا ويلاقوا الأعداء بقلوب واثقة بالنصر ووعدهم الله والنار الآخرة .

وثانيا أن بذكروا الله في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستصيرين به داعين على عدوّهم « اللهم اخلنهم » وذلك يكون سبب القلاح والظفر والنصر والثواب فينبغي للمعدّ ألا يشغله شيء عن ذكر الله وأن يتجسّس إليه عند الشدائد ويقبل عليه فارغ البال واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه في سائر الأحوال .

وثالثا أن يطيعوا الله والرسول فيما أمروا به ونهوا عنه على كل حال .

ورابعا أن لا يتنازعوا باختلاف الآراء كما اختلفوا بيدر ، فإن ذلك يورث الفشل والجبن والنصف ويذهب رجولهم ، أى قوتهم ونصرتهم .

وخامسا أن يصبروا عند لقاء العدو في كل حال ، فإن الله ينصر الصابرين ويهينهم .

وروى البخارى ومسلم عن عبد الله بن أبى أوفى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التقى فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم واضرنا عليهم » .

وروى الشيخان أيضا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا » .

وسادسا : نهيهم أن يكونوا كأهل مكة الذين خرجوا من ديارهم أي من مكة (بطرا) غرا وأشرا (ورثاء الناس) ليثوا عليهم بالشجاعة والهاجة .

وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافهم رسول أبي سفيان أن ارجعو فقد سلمت ميركم ، فقال أبو جهل :  
 لا والله حتى تقدم بدرا وتشرب بها الخمر وتعرف علينا القينات ونطمع بها من حضرا من العرب وسمع  
 بنا الناس فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا فوافوها ، ولكن ماذا شربوا ؟ شربوا كأسا للتون وذاقوا العذاب  
 المون وبكت عليهم الباقيات ورملت نساؤهم وبتت أطفالهم ( وصدون عن سبيل الله ) أى ويمنون الناس  
 عن الدخول في دين الله ، فعنى الله عباده أن لا يكون عملهم للرياء ولا للتماس ما عند الناس ، وأمرهم الله أن  
 يخلصوا لله النية وأن يكون قتالهم حسبة في نصر دينهم ومؤازرة نبيهم صلى الله عليه وسلم وأن لا يعملوا إلا لذلك  
 ولا يطلبوا غيره ( واه بما يعملون محبط ) .

وهذا وعيد ونهيد ، يعنى أنه تعالى عالم بجميع أعمال العباد ، فيجازى المحسن بإحسانه ويصاقب للسيء  
 بإساءته ، وهذا هو قوله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا ) إلى قوله ( والله  
 بما يعملون محيط ) .

ثم أخذ سبحانه في إتمام الكلام على الشركين وكيف قلبت الحقائق عندهم وحيل بينهم وبين قلوبهم فقال  
 ( وإذ زين لهم الشيطان ) أى واذكر ( أعمالهم ) في معاداة النبي صلى الله عليه وسلم بالوسوسة ( وقال لأغلب  
 لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ) وذلك بما يوسوس في نفوسهم فيرون الفخر والعز والشرف وبعد  
 الصيت والسمعة فيما تحيلوه من أنهم يفتنون المؤمنين وأنهم لا يطاقون لكثرة عددهم وندمهم وأن ذلك كله  
 قرفى إلى الله والله يغير من نصره ( فلما تراءت الفئتان ) أى تلاقى الفريقان ( نكس على عقبيه ) رجع  
 القهقري أى بطل كيده وأصبح ما تحيلوه ظهرا وشرفا سبب الهلاك والضمه والذلة ( وقال إنى برىء منكم إنى  
 أرى ما لا ترون إنى أخاف الله ) أى تبرأ منهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله للمؤمنين بالملائكة ،  
 وهذا المعنى قاله الحسن واختاره ابن بحر ، وقيل إن الآية على ظاهرها .

وذلك أن قريشا لما أجمعت على السير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة ، وكان ذلك يشبه فتمثل  
 لهم إبليس بصورة سرافة بن مالك الكنانى وقال : لأغلب لكم اليوم وإنى مجيركم من بنى كنانة ، فلما رأى  
 للملائكة تنزل نكس ، وكانت يده في يد الحارث بن هشام ، فقال له إلى أين أخذنا في هذه الحالة ؟ فقال  
 « إنى أرى ما لا ترون » ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهمزوا ، فلما بلغوا مكة قال هزم الناس سرافة فبلغه  
 ذلك فقال : والله ما شعرت بمجيركم حتى بلغت هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان فيكون على هذا قوله  
 « إنى أخاف الله » إنى أخافه إذ صيبي بمكروه من للملائكة أو نحو ذلك ( والله شديد العقاب ) لمن كفر  
 وطغى ؛ واذكر ( إذ يقول للناقون والذين في قلوبهم مرض ) أى الذين هم مؤمنون ولكن بقيت عندهم  
 شبهة ( غر هؤلاء ) للمؤمنين ( دينهم ) فتمرضوا للهلاك وهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا يقاتلون نحو ألف ، فأجاب  
 الله قائلا ( ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز ) لا يذل من استجار به ، غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير  
 القوى كما سلط البعوض على القمل فلا يقدر على التخلص منه ، وكما يسلط الثمرات السامة مكروبا على الإنسان  
 والحيوان ( حكيم ) يفعل بحكته البالغة في هذا العالم ما تستبده العقول ، ويجيز عن إدراكه أولو الأبواب ،  
 ويجعل من الفحم الحجري الذى كان من أمد قديم في باطن الأرض نارا ونورا وأبوابا من الأصبلغ والألوان  
 والمجانب مع أن منظره ليس فيه إلا غم أسود اللون لاشية فيه .

وهكذا يفعل بحكته الصبب المجاب ، قال تعالى ( ولوترى ) ولو عاينت وشاهدت فإن لو تجعل الضلع  
 ماضيا ، وإن بكسها ( إذ ) ظرف لترى ( يتوفى الذين كفروا للملائكة ) ييدر : أى ولو رأيت الكفرة حين  
 يتوفاهن للملائكة : أى يقبضون أرواحهم ييدر حال كونهم ( يضررون وجوههم ) إذا أقبوا ( وأدبارهم ) أى

ظهورهم إذا أدبروا (و) يقولون ( ذوقوا عذاب الحريق ) أى ذوقوا مقدمة عذاب النار ، وجواب لو محذوف  
أى رأيت أمرا فظيلا .

ذلك الضرب والعذاب ( بما قدمت أيديكم ) بسبب ما كسبت من الكبر والمعاصي وهو خبر ذلك ،  
ثم عطف على لفظ ما قوله ( وأن الله ليس بظلام للعبيد ) أى بذى ظلم .

يقول : ذلك العذاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم ، وبأن الله ليس بظلام للعبيد لأن تذيب الكفار  
من العدل ، والمراد باليد هنا القدرة ، ثم قال ( كدأب آل فرعون ) أى دأب هؤلاء وعادتهم كدأب  
آل فرعون وعادتهم وطريقهم ( والذين من قبلهم ) من قبل آل فرعون ثم بين دأبهم فقال ( كفروا بآيات  
الله فأخذهم الله بذنوبهم ) كما أخذ هؤلاء ( إن الله قوى شديد العقاب ) لا يئله في دمه شيء ( ذلك ) أى ما حل  
بهم ( بأن الله ) بسبب أن الله ( لم يك مغفرا نعمة أنعمها على قوم حتى يفرروا ما بأنفسهم ) يبدلوا ما بهم من  
حال إلى حال أسوأ .

وذلك أن الله أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث لهم رسولا من أنفسهم  
فقابلوا هذه النعم بالسفوان فلم يشكروها وكذبوا رسوله وقطعوا الرحم وغيروا ما بأنفسهم فسلبهم الله النعمة  
وأخذهم بالعقاب .

قال السدى : نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله إلى  
الأنصار ( وأن الله سميع ) لما يقول مكذوبو الرسل ( عليهم ) بما يفعلون فيجازيهم بما فعلوا ( كدأب آل فرعون )  
تكرير للتأكيد يعنى أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون  
( والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم ) فبعضهم أهلكناهم بالرجفة ، وبعضهم بالحسف  
وبعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالريح ، وبعضهم بالمسخ ، فكذلك أهلكناهم قريش بالسيف ( وأغرقنا  
آل فرعون وكل كانوا ظالمين ) يعنى الأولين والآخرين .

واعلم أن هذه الآية كما كررت للتأكيد كانت لبيان أن آل فرعون أهلكوا بالإغراق وأنهم جحدوا  
نعم التربة ، وأمم من ذلك كله حكمة عالية وآية هجية .  
ذلك أن هذه السورة مدنية ولقد نزلت سور كثيرة من القرآن في مكة ، وجميع السور السكية فيها  
إهلاك الأمم بالكفر .

ولقد ذكرت قصص الأمم وأخبارها كثيرا في سور مختلفة بحيث أصبح ذلك مألوفا مرفقا لقراء القرآن  
وفى تلك السور كلها إشارات وتصريحات أن المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم سيكونون مثل الأمم الساجدة  
يصيبهم ما أصابهم .

ألا ترى إلى قوله تعالى « أم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم » وإلى قوله « وكأين من  
قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلاناصر لهم » وقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك  
بباد » إلى قوله « وفرعون ذى الأوتاد . الذين طفوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك  
سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » .

وهكذا كانت السور السكية مشحونة بهذا الإنذار والتخويف ، وهو صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لا جيش له  
ولا حماية ولا قوة ولا سلاح ، ولا يظن أنه يكون كذلك ممن كانوا حوله ، فلما هاجر إلى المدينة ونصر  
في غزوة بدر وهزم أهل مكة ذكرهم الله فقال « كدأب آل فرعون » وكررها منها على حصول ما كانوا  
ينفرون به ، وهذا هو السبب في تكرارها تنبيها على العبرة .

ولعمري إن هذه هي المعجزة حقا ، وكيف لانكون من أمم المعجزات وقد حصل النذر به وأهلكوا كما كانوا يندرون اه .

ثم قال تعالى « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » أصروا على الكفر ( فهم لا يؤمنون ) فلا يتوقع منهم إيمان ( الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ) بدل من الذين كفروا بدل البعض تبينا ونحصيا .

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوا ولا يماونوا عليه أحدا فتقضوا العهد وأبناؤا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم قالوا نسبنا وأخطأنا فاهداهم الثانية فتقضوا العهد أيضا وماثوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمراد بالمرّة مرة للماهدة والماربة ( وهم لا يتقون ) أي لا يخافون الله في نقض العهد ولا سببه التمرد ومبته ، ومن جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب ( فإذا تنقضهم ) تصادقهم وتظفرون بهم ( في الحرب فترد بهم من خلفهم ) .

قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم . وقال سعيد بن جبير : أخذ بهم من خلفهم . والتشريد تفريق على اضطراب ( لعلهم يذكرون ) أي لعل ذلك الشكال يمنعهم من نقض العهد ( وإما تخافن من قوم ) معاهدين ( خيانة ) نقض عهد بأمارات تلوح لك ( فانذ إليهم ) فاطرح إليهم عهدهم ( على سواء ) يعني على طريق ظاهر مستو : يعني أعلمهم قبل حربك إليهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولا بنصب الحرب معهم ، وهذا إذا ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتضح من غير استفاضة كما يفهمه لفظ تخافن ، حينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ويحلهم الحرب ، وذلك كما اتفق لبني قريظة إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه فظاهرهم على النبي صلى الله عليه وسلم ونظاف النبي صلى الله عليه وسلم التدر به وبأصحابه ؛ وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم إلا وحيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران ، وذلك على أربع فراسخ من مكة ، وقد علل سبحانه الأمر بنبذ العهد وإعلام الأمر وإظهاره قبل الحرب لما أنه لم يكن مستفيضا بقوله ( إن الله لا يحب الخائنين ) الذين يحاربون قبل أن ينبذوا العهد حينئذ تظهر أمارات نقض العهد ( ولا تحسبن ) يا محمد ( الذين كفروا سبقوا ) الذين كفروا مفعول أول وجملة سبقوا مفعول ثان أي ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم .

وفي قراءة « ولا تحسبن - من خلفهم - الذين كفروا سبقوا » والفعولان كما هما ( إنهم لا يعجزون ) أي إنهم لا يعجزون الله فلا ينتقم منهم ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من الشركيين ولم ينتقم منهم ، فأعلمه الله أنهم لا يعجزونه ، قال تعالى ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ) الإعداد : اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه .

والقوة قال العلماء إنها جميع أنواع الأسلحة والآلات التي تكون قوة في الحرب على قوة الأعداء والحصون وللماقل والرمي ، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على النبي يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة : ألا إن القوة الرمي » أخرجه مسلم .

وللقصد أنه من جهة للأمر به وسبأني تفسير هذا للقام قريبا .

قال تعالى (ومن رباط الحيل) اسم للحيل التي تربط في سبيل الله ، فهي فعال بمعنى مفعول وهو معطوف على قوة كما عطف جبريل وميكال على اللاسكة (زهيون به) أي نحو قون بما استظمن (عدو الله وعدوكم) يعني كفار مكة (وأخريين من دونهم) من غيرهم كاليهود والنصارى والفرس والروم والأمم الأوربية الحالية الذين لا يخافون إلا إذا تأهب الناس لحربهم وقاموا لمقاطعتهم وهبوا لتناجزتهم (لا تعلمونهم) لا تعرفونهم بأعيانهم ، وإنما هم أمم من الكفار تقابل وتمادي أما من المسلمين على توالي الأزمان فكل يعلم من يباديه ولا يعرف سواه والله يعلم الجميع لأنه محيط علما بمخلوقاته وهو قوله (الله يعلمهم) ثم حرص على الإنفاق في الحرب ليعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الحيل الذي لا يتم إلا ببذل المال فقال (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم) ثوابه (وأنتم لا تظلمون) لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئا .

لما ذكر الله للماهدة ونبأها وأنه يجب إعلان الحرب إذا كانت هناك أمارات لنقض العهد ، وكذلك إعداد الددة والسكران والسلاح إذ يقول : إن هذه المدة لا يقصد منها أن يكون المسلمون دائما مهاجمين محاربيين ، وإنما الاستعداد لقصد الإرهاب فيها بونكم ، وهذا الإرهاب هو الذي يجعل الناس تحترم دولتكم وتخشى جانبكم فيرعون في صلحكم والسلام معكم ، ولا سعادة في الدنيا بغير السلم مع الاحتراس وإعداد العدة ، ولقدك أعقبه بقوله (وإن جنحوا للسلم) مالوا للصلح والاستسلام (فاجنح لها) وعاهدكم (وتوكل على الله) فوض أمرك إلى الله فما عقدته معهم ليكون عوناً لك في جميع أحوالك ، ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه فإن الله بصيرك من مكرهم ويحيقهم بهم (إنه هو السميع) لأقوالهم (العليم) بنياتهم (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) كافيك . قال جرير :

إني وجدت من الكفارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا

(هو الذي أيدك بنصره) قواك بأسباب النصر الباطنة (وبالمؤمنين) وهم الأسباب الظاهرة ثم بين كيف أيد بالمؤمنين فقال (وألف بين قلوبهم) ومنهم الأوس والخزرج فقد ألف الله بين قلوبهم بمد تعديهم مائة وعشرين سنة .

ومعلوم أن العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والأفة والصبية القوية والضينة والعداوة الموروثة عن الآباء والأجداد ، ولا تزال هذه الأمور مشاهدة في أبناء العرب قوماً بمصر والشام وبلاد القرب وال عراق لم تفرقهم ، فهم يتقادون لحمية الجاهلية ، وكلما كانوا أقرب إلى البداوة كعرب مصر كانوا أغرق في هذه الحال .

فانظر كيف ألف الله بينهم لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبحوا إخواناً وهذه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإن اجتماع قلوبهم أمر لا يمهده له نظير مع هذه العداوة والحمية ولذلك قال تعالى (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) جمع بين قلوبهم وكتبتهم بالإسلام (إنه عزيز) يقهر من يخدعونك (حكيم) ينصر من يتبعونك .

وياليت شعري أليس هذا هو النبي العربي؟ أليس هو جدنا وعم أقاربنا ودينه بين ظهرائنا؟ وكيف ألف الله بين قلوب العرب في الجاهلية ولم يؤلف بين أبنائهم في الإسلام؟

ياليت شعري ما لي أرى أبناء العرب في بلاد مراکش وفي الجزائر وتونس وطرابلس والشام وال عراق والحجاز لا يكادون يعرفون أنهم أبناء أولئك الأجداد الكرام .

يا هبنا كيف يتفوق رجال أسبانيا بالرب على العرب في مراكن؟ وكيف تقوى أهل فرنسا على الحرب بالرب في مراكن والجزائر؟ كيف وكب؟ كيف أصبح أبناء العرب أشتانا حتى أذلتهم أوروبا؟ أليس دبتنا هو ديننا؟ أليس القرآن هو امرآن؟ أليس هؤلاء أبناء أولئك؟

أقول نعم، إنهم أبناءهم ولكن لم يظهر في الأمة من يجمع الكلمة، فلكل قائد رغبة في الرياسة على قومه وأكثرهم يأخذ النقود من الفرنجة ويحاربون إخوانهم وذلك لشدة جهالتهم وقلة تربيتهم، وأنه لم يظهر في الإسلام مصلح عام الإصلاح يقوم خليفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هم جميعا يتحاربون ويتعادون على حطام الدنيا القليل دلالة على أن القول ضعيفة والنفوس ذليلة.

أوماعلوا أن اعادهم بكسبهم عزة وقوة ومنعة؟ أوماعلوا أن أمم أوروبا مع اختلاف لغاتهم وأجناسهم يتحالفون ويتحدون ويألفون على ابتلاع المسلمين، وأبناء العرب تأمرون؟

يا هبنا كل العجب تتحد القذاب على اقتناص الشيا، ولا تتحد الشيا على الفرار على الأقل فضلا عن أنها تستأسد وتصد العدو للنير والآساد المقترة.

ولئن رأينا آباءنا في الصدر الأول قد تعادوا واقتتلوا ليكون الاجتهاد هو الذي أدامهم إلى ذلك وكان لهم ملك عظيم يخافون أن يضيع، فلما تعادوا لم يضع ملكهم ولو رأوه آيلا للزوال بالتقاتل لم يتعادوا كما قال معاوية رضي الله عنه في خطابه لملك الروم لما طلب منه الجزية [لئن لم تكف عن طلبك الجزية لأصالحن صاحبي (يعني عليا) وأكون أول جندي يحاربك بأمره] فكف ملك الروم عنه.

أما أبناء العرب الآن فإنهم ساهون لاهون جاهلون يتقاتلون ليستعبدهم الفرنجة وهم في غيهم يجهلون. فهذا دليل على أن الله لم يؤلف بين قلوبهم، وهذا دلالة على أن دين الإسلام عندهم ليس في النزلة التي كانت له عند أسلافهم.

هذا تحقيق القام فلينظر أبناء العرب إخواني في أنفسهم ولينظروا لهم مخرجا، فلما حياة سعيدة واتحاد إيماني؛ وإما أن يصبحوا عبيدا للفرجة خاضعين.

ثم قال الله تعالى (يا أيها النبي حسبك الله) كافيك (ومن اتبعك من المؤمنين) في محل نصب مفعول معه. قال الشاعر إذا كانت الميحاء واشتجر القنا فحسبك والضحاك سيف مهند

والراد بالمؤمنين للهاجرون والأنصار فدخل فيها عمر وغيره فلا لزوم لتخصيصها به وهي مدينة وقوله (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) بالغ في حثهم عليه. وقرئ «حرص» من الحرص (إن يكن منكم عشرون صابرون يظلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يظلبوا ألفا من الذين كفروا).

وفي قراءة «وإن تكن منكم مائة صابرة» (بأنهم قوم لا يفقهون) بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم فيقتل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته.

روى البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت «إن يكن منكم عشرون صابرون يظلبوا مائتين» كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت «الآن خفف الله عنكم الآية» فكتب أن لا يفر مائة من مائتين، وفي رواية أخرى عنه قال: لما نزلت «إن يكن منكم عشرون صابرون يظلبوا مائتين» شق ذلك على المسلمين قرئت «الآن خفف الله عنكم» الآية، فلما خفف الله عنهم من العدة قص عنهم من الصبر بقدر ما خفف عنهم، وعلى هذا تكون هذه الآية ناسخة لما قبلها وهي قوله تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، فإن يكن منكم مائة صابرة يظلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يظلبوا ألفين بإذن الله واثق مع الصابرين) بالنصر والمؤنة. ويقال إن قتال الواحد للشجرة كان في يوم بدر فتقل ذلك وعلم الله أن فيه ضعفا في قتال الواحد للشجرة، قال العلامة الرازي ما ملخصه:

واعلم أن جمهور العلماء ادّعوا أن قوله « الآن خفف الله عنكم » ناسخ للآية للتقدمة .  
 وأنكر أبو مسلم الأصفهاني هذا النسخ وبينه بأن وجوب مقاومة الشرين للمؤمنين مشروط بأن يكونوا  
 قادرين على الصبر في مقابلة للمؤمنين وقوله « الآن خفف الله عنكم الخ » يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل  
 في حق هؤلاء فصار الحكم دائرا مع وجود الشرط وجودا وعدما ، ويصير للمؤمنين إن حصل منكم عشرون  
 موصوفون بالصبر على مقاومة للمؤمنين فليشتغلوا بمقاومتهم وإذن فلا نسخ ، وليس ذكر التخفيف يدل على  
 حصول التثخيل قبله لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا وفي القرآن « يريد الله أن يخفف عنكم » وذلك عند  
 الرخصة للحرب في نكاح الأمة وليس هناك نسخ . انتهى ملخصا مختصرا .  
 وعلق عليه العلامة الرازي فقال : إن ثبت إجماع الأمة على الإطلاق قبل أبي مسلم على حصول هذا  
 النسخ فلا كلام عليه ، فإن لم يحصل هذا الإجماع القاطع فنقول قول أبي مسلم صحيح حسن اه  
 من الرازي .

#### عجائب القرآن في هذا العصر

إن واهم الله لي عجب من هذه الحكيم العجيبة ، وآيات الله الحكيمه ، فبينما أنا أفسر في أول هذه  
 السورة إذ وردت الأخبار في الجرائد يوم الثلاثاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ ما يفيد أن العشرين يطلبون مائتين  
 وأن المائة يطلبون ألفا في حرب المسلمين بمراكش مع الأسبانيين ، فصبت كل العجب وأيقنت بهذا وبشكرار  
 أمثاله في الآيات السابقة أن هذا التفسير ملحوظ بالناية الإلهية وللساعدة الربانية ، فقد وردت الأخبار أن  
 القبائل الجبلية بمراكش انضموا إلى جماعة المهارين بالريف القاعمين بمحاربة الأسبان ليتخلصوا من استعبادهم  
 وأن رجال القبائل تنهوا الآن وكثير منهم قتلوا رؤساءهم الذين أضرام الأسبانيون بالمال : أي أنهم يريدون  
 الرجوع إلى العصر الأول عصر الاتحاد بالدين ، وأن هناك معركة في ( وادي توه ) هم فيها الأسبانيون  
 بثلاثين ألف جندي على رجال عبد الكريم فنشبت معركة هائلة دامت ثلاثة أيام متوالية وقصد الأسبانيون  
 فيها ثلاثة آلاف جندي بين قبيل وجريج ثم ارتدوا على أعقابهم خاسرين ، وكانت قوات الأمير الريفى ثلاثة  
 آلاف مقاتل وهؤلاء هم الذين قتلوا قائدهم للسمى سعد بن مرزوق الذي أصبح عليه الأسبان نسيمهم  
 ليحارب المسلمين ( انظر الأهرام للتاريخ ١٢ أغسطس المذكور ) .

ثم أقول : ها أناذا الآن في ليلة الأربعاء ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ أحضر التفسير للطبع وأقرر أن الأخبار  
 وردت أن عبد الكريم سلم نفسه للفرنسيين ولا تزال الحرب كما هي جد أن يظن الناس أنها قد انتهت وهؤلاء  
 لا يزالون يحاربون الفرنسيين والأسبان معا .

أفليس من العجب أن تكون هذه الواقعة المذكورة بنصها أن ثلاثين ألفا قاتلهم ثلاثة آلاف مسلم ؟  
 أليس هذا هو ما ذكرته الآية ؟ وإذن تقول الأمة الإسلامية اليوم تجتهد مجدها وعهدها ، وكيف قاوم ثلاثة  
 آلاف ثلاثين ألفا ؟ وكيف تصادف أن يكون وقت تصير هذه الآيات ؟ .

إن ما نصت عليه الآية الأولى أصبح موجودا في الإسلام ، فهل تقول لانجب عليهم للقاومة ؟ كلا .  
 بل تقول يجب لأن هؤلاء ثلاثة آلاف صابرين قادرين على القتال .

ولو أن ذئابا دخلت قريتنا وهي ٣٠٠ ذئب وعمدنا ثلاثة رجال أقوياء وهم قادرون على طردهم لوجب  
 على هؤلاء الرجال طردهم وبعض أهل أوروبا ذئاب ، فهل إذا وجدنا عندنا رجلا ذوى قوة قادرين على  
 طردهم ، تقول لا يجب عليكم . كلا . بل هو واجب فالوجوب تابع للقدرة .

ولو أن ثلاثين مريضا دخلوا قرية ليقاتلوا ووجدنا ثلاثة أقوياء أفلا يؤمرون بقتالهم على فرض أن  
 لا قادر سواهم .



إن كلام أبي مسلم لا غبار عليه كما قاله العلامة الرازي ، وقد أيدته الواقع التي شاهده الناس في هذا الأسبوع ، ولقد تكرر ذلك كثيرا في حرب الأندلس وحرب الترك وغيرها فتعجب من الحكمة والعلم والقرآن .

### لطيفتان

الأولى قوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

إن علم النفس وتأثير قواها في أحوالنا اليومية وأخلاقنا الشخصية أصبح منتشرا في أوروبا وأمريكا ولهم الفصول الطوال فيه .

يقولون إن النفس مخزن كقوة مودعة سموها القوة اللغناطيسية وقد ذكرت هذا للقال في سورة البقرة نارجع إليه هناك ؛ فعلى العاقل إذا أراد السعادة أن يحفظ اللسان والشهوات والرغبات ومدح النفس وكثرة الضحك ، وأن يكون رزينا ساكنا قليل الإعجاب ، قليل الحركات ، قليل التلهف على مطالبه واتحا بما يريد موقنا به حافظا لكل كلمة وحركة وفكرة ، ويقولون إن هذه القوى تحفظ للإنسان ذخيرة ونجاة وقورا ، ويقولون أيضا إن قوة العزيمة وتوجه النفس للطلوب والتمتع بحصوله لها أثر في الخارج ولهم أداة خطائية سفلية في ذلك ولكنهم يتمدون على التجارب ، فالتجارب عندهم هي محور الأعمال .

وبالجملة إن النفس الإنسانية لها آثار في الناس حقا ، ومن أراد الخير فليجمل النفس متوجهة إليه ولا حاجة إلى الإطالة في هذا بعد ما بينا في سورة البقرة .

ولا أدل على ذلك في القرآن من قوله في هذه الآية « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نمعة أُنعمها على قوم الخ » وقوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يطلبوا ماتنين » إلى قوله « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » فجعل الفقه النفس والفكر الوجداني والشعور الإنساني منشأ الانهزام في الحرب ، وكذلك قوله تعالى « إني معكم تثبتوا الذين آمنوا » وقوله « وما جعله الله إلا بشري لكم » ، ولذلك يقول هؤلاء العلماء الأوروبيون إن الرء إذا استشعر في نفسه حصول مطلوبه وهو ثابت المزم قوي الإرادة حصل له مطلوبه .

وفي الحديث « أنا عند ظن عبدي بي » وفي الآية « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فليظنر » الآية .

فهذا على أحد وجهيه يرجع لسوء الظن بالله وهو اليأس ، فكل هذه ترجع إلى أن شعور الناس بالخير والشر مؤثر في أخلاقها وأحوالها ، ويبرهن على ذلك الفلاسفة قائلين : [ إن الإنسان يمتنى على الحائط فيسقط لتكرار الوهم وإلحاحه عليه إنك ساقط فيسقط ، ولكنه في العادة وهو على الأرض لا يمتنى على ماهو أوسع من ذلك الحائط ] وقد جعلوا هذا الدليل للعلوم عند العموم مقدمة للاعتراف بما يحدث في النفوس البشرية من آثار أفكارها من حب وبغض وسعادة وشقاء وما تجلبه تلك الآراء من أحوال الإنسان للآذية فإن استحضاره في نفسه أنه من التجار أو العلماء أو العائمة يلزمه أن يتزيا بزيمهم ، فهنا الفكر ألبس الجسم ملابس من فكر أنه منهم .

هكذا يقولون عن بعض علماء اليونان أنه يقول « إن الدجاجة إذا اعتادت أن تتأمل الديكة بنت لها ( صبيبة ) كالتى قديك » .

ويقول علماء العصر الحاضر [ إن كل تهيج دماغى ناتج عن أحد الآراء كثوران التصب أو الميلام أو التضب أو الرعب يمهذ السبيل إلى قهد الحس ] وترى الجندى في الحرب يصاب بمجراح بليغة

ولا يقصر بها ، ومن المحكوم عليهم بالموت من لا يضرب الجلاذ فيهم وقت الإعدام إلا جثة باردة تركتها الروح لشدة الرعب .

وبعض المحكوم عليهم بالإعدام عصبوا عينيهم وصبوا ماء دافئا على رقبتهم أو هموه أنهم صدوه فمات معتقدا أن دمه قد استنزف كله .

وروى أن ( موتيس شيقولا ) في نوران حبه للوطن وضع يده على حجرة متقدة ولم يشعر بألمها ، وقد روى مثل ذلك عن بعض العاشقين .

وهذا بعض ما يدل عليه قوله تعالى « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمته أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » جاء في حجة ( المرشد ) ما يأتي :

امرأة تله ضفدا

في حجة الجالية ( برازيل ) ما خلاصته :

في ضاحية ( اربول غراندي ) من بلاد الكسيك مناجم زيت الجاز يعمل فيها عدد كبير من العملة بينهم رجل اسمه ( البيزو زونيغا ) وزوجته ( حنه كوتراراس ) وكان لا ينقصهما لتمام سعادتهما سوى ولد يكون محط آمالهما ، ومنذ أشهر أخذ ( زونيغا ) جد المدمات لولادة زوجته ، حتى إذا حانت الساعة المنتظرة خرج الطبيب وحلى يده ( ضفدع ) كبيرة خضراء اللون ضخمة البطن بارزة العينين طويلة اليدين والرجلين وقال له هذا هو ابنك يا زونيغا ، فذهل الرجل لدى رؤية هذا الحيوان القبيح الشكل وقال لا يمكن أن يكون هذا هو ابني وتراجع خائفا من منظر اللولود الضفدعي الذي لا يقل طوله عن ( ٦٥ ) سنتيمترا .

وكانت الأم تتواقفة ترى ابنها البكر لكنهم بمنوها من ذلك ، ولما رأوا أن لامناس من أن تراه قدموه إليها ، فلما شاهدته صرخت وأغمى عليها ونوافد الناس ليروا اللولود العجيب .

وقد غص الأطباء الوالدين ليعلموا هل فيها عيب خلقي أو مرضي سبب هذه الولادة فلم يجدوا سببا إلا ما علموه من أن الأم كانت تكره منظر الضفدع وتخافها ، وأنها في الليلة السابقة إذ كانت نائمة شمعت بئى أملس بارد يمر على وجهها فاستيقظت مذعورة وأضأت الصباح فإذا هو ضفدع فأصيبت بنوبة عصبية وفي النساء التالي وضعت الضفدع اه .

أثر الوهم

جاء في مجلاتنا المصرية في ٢١ يونيو سنة ١٩٢٦ ما يأتي :

بفسرنا الاستهواء عدة مظاهر طالما حيرت عقولنا في حياتنا اليومية ويكشف لنا الستار عن سر أوهاطنا وآلامنا الخيالية التي كثيرا ما عكرت صفو حياتنا ، وهكذا تكون مدينتهم بسعادتنا وهائنا لعم النفس الحديث .

والاستهواء إلقاء فكرة أو اعتقاد ما في نفس اللوحى إليه فيتقبلها دون معارضة ، ولا تلبث أن تتحول إلى عمل أو عقيدة ثابتة دون أن يدري اللوحى إليه .

والقابلية للاستهواء تكاد تكون غريزة في الإنسان إلا أنها تزداد كثيرا عند الأطفال والضعفاء قوة وإرادة والصبين والذين في حالة غير عادية بوجه عام .

كما أن بعض الناس يمتازون بقوة الاستهواء مثل الرؤساء والعلماء في العلم أو الدين أو السياسة وأقوياء الإرادة والجسم .

والاستهواء إما ذاتي أو خارجي : فالذاتي هو الذي يستهوى فيه الإنسان نفسه ، والخارجي هو الذي يستهوى فيه غيره من الأفراد أو الجماعات .

وبممارسة البراهمة من المنود نوعا من الاستهواء الذي إذ يستهوى الواحد منهم نفسه إلى الزهد والتعفف في الحياة فيخرج إلى مغارة بييدة ويجلس القرفصاء عاريا ويردّد جملا خاصة طول يومه مثل : [ يجب أن أزهّد الحياة لأنها دينيّة ] فلا يلبث بعد بضعة أيام حتى يجد فكرة الزهد قد تملكّت جميع مشاهره وتحوّلت إلى عقيدة شديدة ، وبذا يصبح رجلا متقشفا زاهدا في الحياة قلبا وقالباً .

ويمكن لمن مارس أيّ عادة ضارّة أن يستهوى نفسه إلى إبطالها ، فالمدخن مثلا يمكنه ترك التدخين ونسيانه إذا ردّد في نفسه كل صباح ومساء بلهجة العزم والحزم جملة خاصة مثل : [ يجب أن أترك التدخين لأنه مضرّ بصحتي ] ولا شك أنه إذا واطب على ذلك تتحوّل هذه الفكرة التي تتردد في النفس إلى عقيدة ثابتة تم إلى عمل وينتهي الأمر بإبطال التدخين .

وكثيرا ما كان الاستهواء وعلى الأخص الثاني منه متعبا لأوهامنا وآلامنا الحيالية ؛ فالإنسان قد يكثر من التفكير في مستقبله وينظر إليه خلال منظار أسود فيساوره الخوف ويسود عليه روح التشاؤم فلا يلبث أن يتحوّل هذا التفكير إلى عقيدة ثابتة بل إلى عمل وتصبح حياته سلسلة من الأحزان والمهوم التي لا سبب لها ويحاوده الفشل في جميع أعماله وتنحط قواه الجسمية فيظنّ أن تنبؤاته قد صدقت ، والواقع أنه إنما هو الذي جعلها تصدق لأنه استهوى نفسه إلى تحقيقها .

وقد تأيدت هذه النظرية النفسية بالتجارب والبراهين المحسوسة في الإنسان والحيوان ؛ فنلاحظ في الجهاز الهضمي لمرة أثناء فرحها وأثناء حزنها فوجد أنه في الحالة الأولى يسير سيرا حسنا عاديا بينما يقف تقريرا عن العمل في الثانية .

وقد جرّب أحد مشاهير الأطباء قوة الاستهواء في الجسم فاستأذن من حكومته في قتل مجرم محكوم عليه بالإعدام بقوة الاستهواء وأخذ معصوب العينين إلى غرفة سوداء مظلمة وكان هو أيضا يلبس لللايس السوداء القائمة وأخذ يبيد عليه كثيرا جملة [ سأعدمك بقطع شريان من جسمك ] بلهجة التأكيد والعزم ثم طرحه على سرير وكرر على مسامحه طريقة القتل وأوضح له ماسيشر به ثانية وأخرى عند قطع الشريان من سيلان الدم إلى الفيوية إلى الموت ، ثم أمسك موسى عاديا وقطع به ذراع المجرم قطعاً سطحيا ثم فتح صنبورا كان قد أعدّه فأخذ الماء يسيل منه على ذراع المجرم كأنه الدم في حرارته العادية فلم يلبث المجرم أن مات تحت تأثير الاستهواء الشديد وتحققت الوفاة بواسطة مجمع من الأطباء فحصه فحصا دقيقا .

ومن التجارب التي عملت أيضا لإظهار قوة الاستهواء وتأثير الوهم على الجسم أن أحد علماء النفس في إنجلترا اتفق مع سكان بضعة منازل كان يمرّ عليها بائع لبن في الصباح لتوزيع لبنه أن يبيد كل واحد منهم حبه من الضف الجثاني غير العادي الذي يبدو على وجه هذا البائع بحملة خاصة بالترتيب كأن يقول الأول : [ مالي أرى وجهك اليوم شاجبا بخلاف عادتك ] والثاني [ لماذا ترمش وأنت تعطيني اللبن ] والثالث [ أراك لا تقدر على المشي اليوم ] وهكذا فما وصل البائع إلى نهاية دورته حتى سقط على الأرض متشيا عليه ، وقد كان بصحة جيدة عادية عند خروجه من منزله ، وما ذلك إلا لأن فكرة الضف التي ردّدها زبائنه في نفسه تحوّلت إلى عقيدة بالتكرار ثم إلى عمل فوقع على الأرض فاقد الرشد .

ويالغ ( أميل كوه ) الفرنسي في قوة الاستهواء ويقول إنه يجب أن يتخذ كوسيلة لشفاء كثير من الأمراض ، ولا شك أن لقوله هذا نصيبا كبيرا من الصحة إذ أنا كثيرا مانشر بالصداع أو الضف أو الانحلال الجثاني وكثيرا مانصاب بالأمراض العصبية نتيجة الأوهام والخاوف التي لا وجود لها والتي تلقينا في روع أنفسنا أو يوحى إلينا بها ماحولنا من بيئة محزنة أو من قوم ننصدنا وإن عفوا

ولدا يمكن أن تؤكد أن الطالب مثلا الذي يفكر كثيرا في الرسوب إنما يستهوى نفسه للرسوب دون أن يدري فيرسب .

وكذلك العامل الذي يفكر دائما في الفشل غالبا مايفشل بقوة الاستهواء القادى .  
فابقم أيها القارىء في وجه الدهر يتدم لك وافرح بأنك القرح واعتقد في الشفاء من أمراضك وآلامك لأنك تساعد بذلك نفسك على النجاة وتلهيها عن كل ما يحزنك بالرياضة البدنية والترهة والأعمال اليدوية وانظر إلى المستقبل دائما نظرة التفاؤل للسرور المؤمن بالنجاح تذهب عنك أوهامك الكثيرة القتالة وتسمو بنفسك إلى النجاح المحتم ، انتهى .

العالجة بالاستهواء وفيها أيضا في تاريخه

[ طريقة الدكتور أميل كويه ]

في أواسط هذا الشهر ( يوليو سنة ١٩٢٦ ) توفي في باريس العالم الفرنسي الشهير الدكتور ( أميل كويه ) الذي يعتبر أعظم دعاة الاستهواء وأكبر القائلين بمذهب الشفاء بطريقة الإبهام .  
توفي هذا العالم في منزله بمدينة ( نانسى ) بعد عمر طويل قضى معظمه في اللبأث النفسية وفي مدى تأثير الوهم في النفس .

وقد طار سينته في جميع أنحاء العالم ، وكان الإنكليز والأمريكيون يعتبرونه زعيم الأطباء الروحانيين أو الاستهوائيين بلا منازع .

لم يكن هذا العالم مبتكرا ولكنه فتح آراء علماء الاستهواء الفرنسيين بما أذاعه من النظريات الجديدة وهي نظريات تقضى بنفد كثير من المذاهب العلمية البحتة وعدم التقيد بها حتى لا يظل الاستهواء مجرد نظرية علمية بل يصبح من الحقائق التي هي في متناول الجميع .

وقد كانت شهرة ( كويه ) مبنية على ما أبانه من سلطة النفس على الجسد وما أثبتته بتجارب عدة أمام جماهير من الأطباء .

وكان دائما يقول : إن الأطباء يخلطون غلطا فظيما لأنهم يتنون بالجسد دون النفس ولأنهم يهملون درس السلطة غير المنظورة التي للوهم على الجسد .

فالطبيب الذي يستشار في معالجة العليل لايفحص عادة سوى أعضاء الجسم وحالتها ولا ينى بحالة العليل النفسية وما يمكن أن يعطاه لإعاش تلك الحالة [ وبعبارة أخرى ] إنه يتجاهل قيمة ( القوي العنوى ) الذي يفعل في شفاء النفس ما لا يفعله القوي المادى .

وقد أثبت الأستاذ ( كويه ) بتجارب عدة أن للفكر قوة عجيبة في كلا العالمين المادى والخيالى وأن تسليطه على الجسد يحدث تأثيرا عجيبا .

وفي الواقع أن الفكر قد يكون سمازعا أو مصلاشافيا ، وطريقة الاستماعة به على مداواة الأمراض ليست حديثة بل قد كانت معروفة منذ أقدم الأزمنة وقد أهملها العلماء مدة ثم عادوا اليوم إلى إدراك أهميتها في معالجة الأمراض .

والحق يقال إن الدكتور ( كويه ) أبلغ طريقة للعالجة بالاستهواء أقصى الحدود وأثبت أنها من الطرق التي يجب على الأطباء أن يضموها في مقدمة وسائل المعالجة ، فإذا كان الصل للمادى يفيد في بعض الحالات فإن الصل للعنوى : أى التطبيق بالاستهواء يفيد في جميع الحالات ، وإذا علنا كيف نستعمله نكون قد أسدينا إلى الجنس البشرى أعظم معروف يتصوره الفكر

وليس ذلك فقط بل إن هذا ( اللصل المعنوي ) يفيد أيضا في شفاء الكثير من الأمراض الأدبية .  
فالشخص الذي هو رقيق لبعض العادات الرديئة يمكن شفاؤه من داء تلك العادات وإصلاح ما فسد من أخلاقه  
وشفاؤه بالاستهواء أسهل في هذه الحالة من شفاؤه بالمقاير .

وفي هذه الحالة تصبح الهيئة الاجتماعية كلها مؤلفة من أفراد أسماء البنية . أسماء الأخلاق ، ويصبح  
العالم فردوسا زاهرا تطيب الإقامة فيه .

إن لكل امرئ كيانين : أحدهما الوجدان الذي بواسطته يدرك كل ما يقع حوله ويشعر بكل ما يحدث ،  
والآخر الوجدان السامن الذي يدفع المرء إلى إتيان أعمال كثيرة بطريقة أونوماتيكية مجردة من عنصر  
الإرادة . وهذا الأخير : أي الوجدان السامن معروف بآثاره أو بنتائج الأعمال التي تدفع المرء إلى إتيانها  
وهو المهيم على كل حركة من حركات الجسم . فإذا استغرق المرء في سيات أو ذهول توقف ذلك الوجدان  
عن العمل وهو الوسيلة التي بها يعمل الفكر عمل اللصل المعنوي الشافي الذي في إمكانه أن ينقذ الجسم من  
أمراض كثيرة وآلام عدة .

هذا ، وإن ما يحدث في النفس في أثناء عملية الاستهواء يشبه عملية الإنبات تماما ، ولذلك يصح تسميته  
بالإنبات النفسى أو العقلى .

ففكرة الشفاء هي البذرة التي يمكن بذرها في النفس لتنمو وتكبر حتى تتناول كل شئ . وتأتى  
بالتنمر للطلوب .

وطريقة الاستهواء المنسوبة إلى الدكتور ( كويه ) بسيطة جدا يستطيع كل امرئ أن يستعملها .  
وخلصنا أن يردد كل يوم على مسمع من نفسه هذه العبارة وهي قوله : [ أشعر كل يوم بأننى أنتقل  
من حسن إلى أحسن من كل الوجوه ] .

ويجب ترديد هذه العبارة صباح مساء حتى تصبح في النفس عقيدة راسخة . وكان ( كويه ) يلقيها لكل  
من يقصده مستشفى ويشهد الكثيرون أنهم نالوا بواسطتها الشفاء [ وبعبارة أخرى ] إن التفاؤل الحسن هو  
أساس طريقة ( كويه ) .

فإذا تشام المرء من كل ما حوله فلا يمكن أن يرى في العالم إلا ظلاما دامسا ، وبمكس ذلك إذا كان كثير  
التفاؤل شديد الثقة بحسن حالته فإن النتيجة تكون خيرا لا محالة .

وفي أوروبا اليوم جمهور كبير من أتباع ( كويه ) الذين خبروا طريقته بأنفسهم وهم يعملون على إدائها  
بين الناس ، فكان ( كويه ) عليهم أن يطيبوا أنفسهم وينيروا عقول الغير .

وبين الأطباء فريق غير قليل ممن يحاولون الجمع بين الطب الاستهوائى والطب اللادى ، والجمع بينهما  
يمكن لا يحتاج إلا إلى شئ من الخبرة ، انتهى .

كل هذا الذى نقلناه من سر قوله تعالى « ذلك بأن الله لم يك مغفرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا  
ما بأنفسهم » وهذا من عجائب القرآن التي أبرزها العلم الحديث .

اللطيفة الثانية

[ إيضاح الكلام على قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الخ » ]  
(١) اعلم أن الله عز وجل قد نظم هذا العالم على القوى المتضادة والأحوال المختلفة والوجوه المتعارضة  
والأسول المتناقضة ، ولم يشأ أن يكون سادجا قليل التركيب فسواه وهندمه وجعله مصقول الجوانب منظم  
الأطراف مكمل الأكتاف .

(٢) ثم إنه كلما كان أكثر عناصر وأعظم تركيبا كان في النافع أبعد غورا وأعظم وقعا وأجرب صنعا .  
 ألم ترى إلى تفاعل الماء والطين والهواء . والحرارة وكيف تنبع منها النبات المختلف الثمرات العظيم البركات  
 وإلى الذكران والإناث من أنواع الحيوان وبنى الإنسان كيف كان اتحادها منتجا بقاء الأنواع وتكاثر  
 الأشخاص ، ثم إنه كلما كان للتحدان غير مقترين كان التفاعل بينهما أعظم أثرا وأبلغ نقعا وأحسن صنعا .

ناهيك ما ترى من تفاعل الفحم للسمى بفحم (العوجات) مع بعض المعادن كيف تنبع منها الكهرباء  
 البديعة الصنع المدهشة اللب للوقدة النار السريعة الأخبار المنتجة للحرارة العجيبة الإنارة ، وإلى الأكسوجين  
 والكربون كيف أوجب اتحادهما ظهور النار ومجائب الآثار ، وهكذا اتحاد الأكسوجين والأدروجين كيف  
 تنبع منه فضل الصانع الحكيم وجود الماء العجيب الإرواء الذي هو حياة كل حي من عافل وجاهل وخامل  
 ونام وحيوان .

(٣) على هذه القاعدة بنى تفاعل الدول وتصادم الأمم ومصارعة الأقران واحتدام الوغى في الليدان ،  
 وكما كان الاختلاف أشد إبتالا وأبعد في العداوة كان الاصطدام أشد أثرا وأعظم وقعا وأظهر أمرا وأفتك  
 بالأبطال وأغول في السكال .

ولقد تقرر في الحكمة أن الأمم إذا لم توقد للحرب نارا ولم تشمر عن ساعد جدّها أدركها الحور  
 واعتورها الضرر واستعلت طعم الكسل ونامت على وساد الراحة الوثير وذافت من الوهن والضعف عذاب  
 السعير كما ذكره الحكيم (أرسطاطاليس) في رسالته إلى الإسكندر ، وقد ضرب لذلك الأمثال وقرّره تفريرا  
 فكان مثل الأمم في ذلك كمثل العناصر للرماة في القلاة والهواء المهبّ في مجراه والماء الجاري إلى منتهاه  
 فلا عشب يسقيه ولا حيوان يرويه ، وكمثل الذكران الذين اجتمعوا النسوان والنساء اللاتي أنهن الرجال فذهبت  
 من بين هؤلاء ثمرات الاتحاد وباءوا بالخسران والحسرات .

إن عالمنا الأرضي حكم عليه ألا يرتقى إلا بالمتناقضات ولا ينشأ إلا بالمتخالفات ؛ فالقاعدة واحدة تباعد  
 في الصفات وتناف في الأحوال ثم التقاء ينشأ منه أحوال جديدة وحوادث مفيدة وأعمال سديدة  
 وأمور مفيدة .

ولعلّ هذا العالم أقرب إلى النفس وأبعد من السكال . ولعلّ هناك في العوالم ما هو أشرف مقاما وأعلى  
 في النظام كعبا ، ولعلّ طبعه الغريب الذي ذكرناه قد قضت به الحكمة لتقص في أصوله ووهن في تركيبه  
 بالنسبة لما هو أعلى منه وأبدع وأجمل ، ولعلّ نسبتته إلى ما هو أرقى منه كنسبة تركيب الحشرات الساقطة من  
 القافورات المهدنة في الجوّ فسادا إلى تركيب الإنسان من العناصر الطيبة فكانت النتائج كالتقدمات والنهايات  
 تابعة البدايات .

لذلك كان الإنسان في أعماله وأخلاقه وأحواله تابعا لعالمه الذي تركب منه حدو القذة بالقذة تابعا لخطواته  
 سائرا في طرقه دائرا على محورته ناهجا منهجه .

فترى الجيوش في البيادين تلتقي التقاء أو تصطدم اصطداما كالتقاء الأكسوجين والأدروجين وخم  
 للموجات ومض للمعادن فيما تقدم قراموا بالحجارة والرصاص والحديد والنيرون واستعملوا أنواع الفرقعات  
 وأجرب للركبات النارية من الديناميت والكرات المهرقة للثنية ، للنزلة الصواعق ، المهلكة للأمم ، الزيلة  
 للممالك المهرية للبيان ، البيدة للقلاع .

ولو أنها أمسكت عن القتال وتزكت النزال لأعيائها الكسل ولعدمت الجبل ولأمتاتها الجبل والحلل  
 فنامت العيون ، وهدأت الجفون ، وأمنت الطوارق ، وأصبح أهلها أقرب إلى الحيوان الأحمج ، فبطوت  
 الحركات ، وهدأت الجماعات ، وبارت الصناعات ، وسادت الحلال ، وضاع المال ، وخابت للأمم الآمال .

لذلك ترى أن الله قد هيا للأمم عناصر للقتل وأصولا للحروب منها ظاهر يمله الخاس والعام كالحجارة والحديد والرصاص ، ومنها ماخفي تركيبه وعظمت آثاره كالمفرقات المركبة من القطن والمواد المتنبية .

#### المفرقات في الحروب من القطن والمواد المتنبية

إن القطن مركب من شعور دقيقة قد بحثت ماانتظار العظم فظهرت بصورة أنابيب مفرطة ملتوية شفافة ، وهذه الأنابيب الشفافة جلبها شجر القطن من المواد الأرضية والهوائية تسمى (سيلولوز) وهذه للعادة تكون في جميع النباتات .

هذه المادة إذا خلطت بحامض النتريك وبحامض الكبريتيك تحولت إلى مادة تسمى (نيترو سيلولوز) أو (قطن البارود) وإذا نظرت إلى هذه وحدتها كالقطن المادي في شكله ولكنه في طرق أو سخن احترق من غير أن يترك بقية صلبة بل يتحول جميعه إلى مادة هوائية لا لون لها ، وهذه المادة إذا أذيت في الأثير وفي الكحول أو صنعت منها كتلة مرنة تصب في قوالب أو تقطع قطعاً صغيرة ذات أحجام متساوية فإن هذه القوالب والقطع تكون مواد مفرقة ، وأول من كشفها العلامة (بول فيللو) فاستخدمته الحكومة الفرنسية سنة ١٨٨٧ م . وهذا هو البارود الذي لا دخان له لأن ماله دخان يجذب رؤية العدو .

#### الديناميت

إذا خلطنا الجلسرين بحامض النتريك اللصاف إليه حامض الكبريتيك نتج سائل زبق القوام أثقل من الماء ولا يختلط به طعمه حلو ولكنه سام يستعمل في الطب بمقادير قليلة ، وإذا سخن أو طرق فرقع بشدة متحولاً إلى غازات النيتروجين وثنائي أكسيد الكربون والأكسجين وهو سائل خطر لا يؤمن له جانب ويصعب استعماله مفرقاً في حالته السائلة وهو يسمى (نيترو جلسرين) فإذا مزج بالشارية وبعض الأتربة صنعت منه قوالب الديناميت .

#### الجلاتين المفرق وغيره

في سنة ١٨٧٥ خلط العلامة (الفردينول) الكيمائي السويدي هذا السائل الشديد الفرقمة بقطن البارود للتقدم فخرج من هذا وذلك مفرق مزدوج يسمى (الجلاتين المفرق) .  
وهناك جسم صلب آخر تصنعه جميع الحكومات من مادة تسمى (الفتول) وجسم آخر يصنع من مادة اسمها (بولول) وهما مادتان نستخرجان من الفحم الحجري .

واعلم أن صنع المواد الفرقمة المذكورة خطر للغاية ولذلك يبنون أبنية صغيرة بعضها منفصل عن بعض بحيث يكون بين كل بناء وآخر فضاء طلق واسع ، فإذا حصل انفجار في إحداها أعصر الحظر فيه فلا يتعداه إلى بقية العمل ، وبصنع هناك مقادير معينة من المفرقات في زمن معين ويلبس العمال والعمالات ملابس خاصة خالية من الجيوب والأشياء المعدنية ويضعون في أرجلهم أحذية خالية من اللسامير الحديدية ، ولا يجوز للأجانب دخول هذه الأماكن إلا بإذن خاص وقبل الدخول يفتشون تفتيشاً دقيقاً ويؤخذ منهم كل ما يحتمل أن يحدث ضرراً مثل علب الكبريت والديابيس والأزرار المعدنية وغيرها ثم يلبسون أحذية خاصة ، وتضاء هذه الأماكن بالكهرباء وجميع الآلات البخارية والكهربائية المعدة لتوليد القوة اللازمة توضع خارج البناء ويمر من آن لآخر مفتشون للملاحظة النظام ومنع تجمع أتربة المواد الفرقمة .

واعلم أن أقل خطأ سواء أكان في تقدير المواد أم في تهيئ أحوالها الخارجية كالضغط ودرجة الحرارة قد يؤدي إلى انفجارها أثناء صنعها ويتبع ذلك ضرر جسيم أقله موت الصانع ، وعليه فإن صناعة المفرقات تستلزم من الحيطه والحذر والعناية ما لا يحتاج له صناعة أخرى ، ولذلك قد يؤمن الصانع على حياته قبل

الاشتغال بها حتى يموت على وراثته ماقدوه من حياته .

فانظر كيف كان القطن والكبريت والنتريك الحامضات قد تحولت إلى مادة محرقة ، وكيف كان وضع هذه المادة مع الكحول والأثير يكون مادة مفرقة ، ثم انظر كيف كان الجدرين إذا خلط بالحامضين للتقدمين مع نشارة الحشب وبعض الأثره يصبح ديناميتا يهدد الأبنية والقلاع الحصينة ، ثم كيف كان الفحم أيضا مصدر مادتين مفرقتين بأوزان معلومة ونظم خاصة .

الله أمرنا بهذه الصناعات استعدادا للحرب

يقول الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فهنا القوة العقلية العلمية التي تتقدم القوة العملية الحربية .

لقد كانت الحرب قدما بالحجر والحديد والرصاص ثم ارتقت اليوم فصارت بالقول والأفكار ؛ فأهل أوروبا ضاعفوا الأبدان بالنسبة لأهل أفريقيا وآسيا ولكنهم استخدموا العقول فأكسبتهم صناعات قامت مقام القوى الجسدية فصار هؤلاء في باقي الناس أشبه بالإنسان في باقي الحيوان ؛ فالحيوان قوي أجساده ولكن الإنسان الذي هو أضعف منه قوة خلق أقوى حيلة فضله فسخره .

فأهل أوروبا اليوم ومن نحا نحوم وكل من قرأ العلوم والصناعات الحديثة أصبحوا في نوع الإنسان سادته ، والبقية كأنهم عبيدهم .

فإذا قال الله للمسلمين « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فعنا لا نندروا قوة جسمية ولا قوة عقلية إلا استعدادهم بها ، وإذن أصبح علم الصناعات جميعها فرضا واجبا على المسلمين وعليهم حتما أن يدرسوا ما ذرأ الله في الأرض من عجائب العوالم وما في ذراتها من كامنات للنافع ومدفونات العجائب ومكنونات البدائع وجواهر الحكم المصونة المحجوبة عن أنظار الجاهلين ، التجلية للناظرين ، الكشوفة للجدرين الماشقين .

بالله ما أجمل بهاء الطبيعة ! وما أجمل نورها وأبهر سناءها وأحسن وجهتها ، لقد سترته عن الجاهلين ، وكشفتها للماشقين فازينت وابتهجت للناظرين ، وقالت لمن ليس لها كفؤا ولم يحطها مهرا :

● ومن خطب الحسنة لم يفلحها مهر ●

فلتتنافس في تلك العلوم للتنافسون ، وليقبل عليها المسلمون ، وليطيروا في الشرق والغرب سريعا لعلهم لها يدركون .

فياهيها للمسلمين كيف يمشون بين أم سلاحها (الديناميت) واللواذ المحرقة والسبية وللهللكة وسلاحهم البارود والرماح ؟ وكيف يفلح قوم أحاط بهم الإصلاح والممران وهم جامدون ؟ .  
نظرات الفلاح إلى شجرة القطن ، ونظرات علماء الحرب

هل يعلم الفلاح المصري والبغدادي وأمثالهما حين يزرعون القطن ويضمون البذرة في الأرض ويسقونها للماء وتتمو في الحقول ، ويعزقونها بالقووس ، ويزيدونها ربا ؟ وحين يظهر الشعر فيها ، وحين يأتون بالنساء والأطفال لجمع تلك المادة الشمرية القطنية ، وحين يخلجونها ويبيعونها للتجار بالإسكندرية وغيرها ، فيأخذون الدرامم والدنانير لقضاء حوائجهم ، هل يعلمون إذ ذاك أن لهذا القطن نبا عظيما ؟ وهل يعلم حكماة الإسلام وعلمائوه والمتفقهون فيهم أن لكل ظاهر باطنا ، وظاهر القطن لباس وأكسبة ورياش وفرش وعقدات وغيرها مما يتجمل به الناس ، وباطنه ما يستخرجه علماء الكيمياء من البارود الذي لا دخان له يخلطه بالأحماض ، وكيف كان القطن من أسباب الظفر في الحروب ، وكيف كان من الفحم الذي يوقده الناس في بيوتهم مواد تؤخذ بطرق مخصوصة تكون مفرقة قاتلة .



جلّ الذي خلق المادّة على هذا النظام وصوّرها على هذه الصورة البديعة العجيبة ، ألا بعدا لقوم الجاهلين ، وأفّ وتفّ لقوم لا يعقلون .

وهل يعلم هؤلاء أن أمثال هذه المسألة مما يوجب فتح المدارس على مصراعها وأغنازها أساسا للرقى واستعدادا للطوارئ ، وفيها تحلل عناصر كل يابسة وخضراء ورطب ويابس وجامد ونام وحى وميت وحيوان ونبات وإنسان ، فلنحلل عناصر المخلوقات فلا حكم على مركب إلا إذا عرفت أجزاؤه كما لم تعرف اللغات إلا بمعرفة حروفها .

إن هذا الاستعداد والأمر به يرجع إلى رقى العقول والآراء ، وإنا إنما أرسلنا إلى هذا العالم وخلقنا فيه للوقوف على الحقائق ومعرفة أصوله ، وكأن الله عز وجل يريد أن يطلعنا على عناصر ملكه وأصول خلقه وتركيب أجزائه وعجائب صنعه ووزنه ونظامه ومحاسنه حتى نرتقى إلى ما هو أعلى مراما وأحسن نظاما وأبهى كمالا ؛ وجعل من طرق ذلك نظام الحروب وإلقاء المداوات بين الناس ليتسابقوا إلى العلى ولا سيبل إلى ذلك التسابق في عالمنا الأرضي إلا بهذه .

وما مثل الجيوش في ميادين القتال . والقنا نخرج القنا ، وموج لنايا متلاطم إلا كتل اللامعين ( الشطرنج ) أو غيره إذ يصبحون في وجل وأمل ، وخوف ورجاء .

وكأنما هذا الإنسان وهو في الأرض طائر على جناحين : أحدهما الرجاء ، والثاني الخوف ، كما قال تعالى « هو الذي يريك البرق خوفا وطمعا » فإذا لم يكن الخوف والطمع بالحروب القاهرة سى الناس لهما باللب ليطبروا مجتمعين في عالم الخوف والرجاء وهم يلعبون وكأنهم إذ لعبوا ( الشطرنج ) أو الألعاب ( الأومبية ) للشهورة اليوم بين الدول يقولون إتنا سيجبولون على السابقة منطورون على المنافسة ، فإن لم تكن بالحرب سعينا إليها باللب . كل ذلك لتقوية الأبدان وتنشيط الشبان وتجديد البلدان وتقوية الأركان وإسعاد المدن وتشبيد العمران

تتأسق آى القرآن وتلاحقها فى مسألة عدّة الحرب والقتال

فإذا قال الله فى سورة البقرة « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » وقال فيها « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والقلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس الخ » وإذا قال فى آل عمران « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » وقال « شهد الله أنه لا إله إلا هو ولللائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » وقال « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » وقال فى سورة النساء « وهه ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيفا . إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا » وإذا قال فى سورة المائدة « يا ويلتى أجهزت أن أكون مثل هذا العراب فأورى سواة أخى فأصبح من النادمين » وإذا قال فى سورة الأنعام « إن الله قالى الحب والنوى » إلى قوله « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء » وقال « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » وإذا قال فى سورة الأعراف « والوزن يومئذ الحق » وقال « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواتكم الخ » إذا قال ذلك كله فى السور للتقدمة على هذه السورة ، فهاهو ذا يقول فى سورة الأنفال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فهذه القوة من القوى التى خلقت لنا فى الأرض كما جاء فى البقرة .

فصائب القطن وحمض الكبريتيك وحمض النيتريك والجلسرين والكحول والأمير واللواد للتخنة من

الصم الحجرى ، كل هذه مما خلقها الله لنا في الأرض وخاطبتنا قائلا « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا »  
فهذه خلقت لنا كما خلقت للفرنجية فخللوا الصم الحجرى والقطن والكبريت وأخذوا منها تلك الآلات للهلكة  
ونحن تركنا واكتفينا بالشراء منهم ، وهكذا هذه الأشياء مما جاء فى قوله تعالى « إن فى خلق السموات  
والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار » فإنها من العجائب والدهشة والفرائب البديعة العادلة  
على حكمة الصانع للبدع .

ولممرى من ذا الذى يقف على هذه الأسرار ولا يدهش لهذه الحكم العجيبة ؟ وإلا فبأنه كيف يكون  
هذا القطن الذى نلبسه بعد أن استخرجناه بالزراعة إذا أضفنا عليه بعض العناصر قلب لنا القلاع والحصون  
وخرت السقوف من فوقنا .

أليس هذا من العجب ؟ أليس هذا من دلائل التوحيد المذكورة فى آية البقرة المذكورة ؟

ولممرى كيف تصير للواد الفحمية مفرقات ؟ وكيف يكون القطن الذى يقينا الحر مهدما للساكن  
مزلزلا للدن ، وكيف اجتمعت هذه الأسرار فى هذه المخلوقات التى تحيط بنا ولا ندرى ما فيها ؟

أليس الإنسان وهو نائم فى سريريه منتعظ بلحافه قد أصبح نائما فى وسط جهنمى ؟ فالقطن الذى يحيط  
به من كل جانب إن هو إلا مواد مفرقة ينقصها الكبريت والتريك فتصير هادمة البنيان .

ثم هذه الأشياء وهى متفرقة غير مجتمعة قد خفيت عن الإنسان فى قديم الزمان فلم يعلم أنها تخرب للدن  
وتهدم القلاع ولكن الله يقول فى آل عمران « إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء » وعلى ذلك  
يعلم لمن يشاء من عباده .

وهذه العناصر المذكورة تصنع بحساب دقيق حتى تصير مواد مفرقة ، فإذا اختلف الموازين أو الأعمال  
الصناعية اختلفت تلك الصنوعات ، وهذا قوله تعالى « شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما  
بالنسط » فهنا لا بد من القيام بالعد فى وزن للتادير وهذا من دلائل الوحدانية ، إذ كيف كانت هذه  
الأشياء بموازين معدودة ومقادير معدودة ونظم قائمة وصناعات صادقة ، ولو اختلف الوزن لاتفجر للصنوع  
فأهلك الحرث والنسل .

وكذلك قوله « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » وهذا من نوع الفكر فى الصنوعات  
ونظامها ودقتها ، وهكذا قوله فى -ورة الأصراف « والوزن يومئذ الحق » فالقيام بالنسط فى آل عمران  
والوزن الحق فى الأصراف ظهرا فى مقادير الديناميت وللواد للفرقة كما ظهرا فى غيرها ، وهكذا قوله  
فى سورة المائدة « يا ويلتى أجهزت أن أكون مثل هذا التراب ؟ » .

فهنا يقال إذا كان ابن آدم يقول متحصرا على نفسه كيف أجهز أن أكون مثل التراب وتأسف وندم  
على الجهالة فلتكن الحسرة والجهالة هنا نسكى وأعد تنكيلا ، كيف لا والندامة فى قصة ابن آدم على الجهل  
بدفن القليل مع علم التراب به فقلده .

وهنا تكون الحسرة والندامة على أمر تهلك وقصور تخرب ، وجيوش تهزم ، وأم تموت ، وبلاد  
تضيع ، ونساء نسي ، وصبيان يصبحون أيتاما ، وذلك كله بسلاح الأعداء وهم من الآدميين .

وإذا ندم ابن آدم على جهله بمنعة التراب وهو من غير جنسه فهو بالندم على جهله بصناعة بنى جنسه  
أجدر ، فإننا نرى الإنسان يجز عن صناعة التعل فى خليته ، ولكنه قط لا يجز عن صناعة  
أخيه الإنسان .

فإذا أسف الإنسان على جهله بصناعة غير بنى جنسه فهو على جهله بصناعة أبناء جنسه أشد ملامة وأدنى  
إلى الندامة وأجد عن الكرامة وأقرب إلى الإهانة ، وهذا يناسب قوله تعالى فى سورة النساء « إن يشأ

يذمهم أيها الناس « لجهالتكم بجائب خلق وتباعدكم عن التبصر في علمي والشرب من مناهل فضلي » ويأت  
بآخرين « أعلم بخلقى قبلوا النعمة فشكروها وسفها لهم قبلوها ، وذلك أيضا قوله تعالى « وكذلك رى  
إبراهيم ملكوت السموات والأرض » .

أوليس هذا من عجائب اللسكوت ؟ فإن الهدفة للتناهي في صناعة القطن حتى يصير مواد مفترقة من  
أعجب المعجائب وأبداع العراب ، وإذا جاء في الأعراف « يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباسا يوارى سواتكم »  
وقد جعل الفسرون من هذا اللباس القطن .

فهاهو يقول هنا « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فكان من تلك القوة القطن المذكور في السورة  
قبلها ، وكأنه لما قال « ذلك من آيات الله » مشبرا إلى قوله « أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواتكم » يرمز إلى  
ما نحن بسنده : أي يقول إن اللباس الذي أنزله عليكم من آيات الله : أي الدالات على عجائب الصنعة ، ومن ذلك  
اللباس القطن ، ومنه تكون اللواد للفرقة .

فلذلك جاء في سورة الأنفال هنا يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ومن تلك الاستطاعة :  
استنباط الفرقات من القطن الذي عد من آيات الله ، وقيل بعدها « لعلهم يذكرون » .

لعمري ما أجمل العلم وأبهج الحكمة وأبداع القرآن ، وما ألطف هذا المقام فله الحمد إذ أنعم بفضله على  
عبده وألهمه أن ينظم هذه الآيات في نمط وبجملها متألقة متتالية ، قد التأمت فيها للصلحة الدنيوية  
بالمعجائب الإلهية ، فهذا وأمثاله فليفسر القرآن في هذا الزمان . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .  
واعلم أن هذا النهج من التفسير يبين أمجاد المطالب الدينية والدنيوية والآخرة والأولى .

ولا تعجب من هذا ولا يكن في صدرك حرج ، ففس القرآن قد صرح بهذا في سورة البقرة فقال  
« وزاده بسطة في العلم والجسم » فهنا زيادة البسطة في العلم تظهر في المركبات الكهائية ووزنها ونظامها .  
وكيف يكون القطن مع حمض الكبريتيك ومع حمض النيتريك بمقادير محدودة ، وكذلك الكحول والأمير  
والنشارة والتراب والجلسرين من صنع الديناميت .

فعرفة هذه القادير وتركيبها أثر من آثار العلوم التي تدرس في المدارس في العالم الإنساني ، و قد صنفت  
هذه القادير واستخدمها أقوياء الأجسام غلبت الأمة غيرها .

ولا جرم أن رجال الشرق اليوم أقوى أبدانا وأصح أجساما من رجال أوروبا ضعاف الأبدان ،  
فإذا صنعوا هذه الصنوعات غلبوا لاجتماعها كما غلب جمع صغير من أهل مراکش دولة أسبانيا على جلالة قدرها  
وعظم خطرهما ، فما بالك إذا عرفوا هذه الصناعات ودرسوها حتى دراستها ، فهنا يتم [الأمران] البسطة  
في العلم والبسطة في الجسم ، ولذلك أعقبه بقوله « والله يؤتي ملكه من يشاء » ثم ختم الآية بقوله « والله  
واسع علم » .

فالتفسير بأنه يؤتي ملكه من يشاء بعد ذكر البسطة في العلم والجسم دال على أن الأولى بالملك العالمون  
الأقوياء ، بقوة العقل وقوة الجسم هما مفتاح الممالك والسلطان عليهما .

والتصريح بأن الله واسع وأنه علم إشارة إلى أنه تعالى لانهاية لمعلوماته ومعلوماته متقنة واسعة المدى ،  
ولذلك نرى الأمم تتسابق إلى الاستفادة من سمعها ، وكل من كان أسبق إلى علمها كان أولى بالملك « وفوق كل  
ذي علم علم »

زهرة ناضرة بهجة في قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الخ »

اعلم أن القوة نوعان : نوع مادي ، ونوع معنوي .

أما اللادى فظاهر مما تقدم ، وأما المنوى فذلك هو ما يحدث الثبات في النفوس ويقوى القلوب .  
ومن أم ذلك كتابان الأمور وإظهار الجلد وعدم الإباحة بما في البواطن والأسرار .  
قال أبو مسلم الخراساني الذي أباد الدولة الأموية وكان السبب في ظهور الدولة العباسية في الثالث الأول  
من القرن الثاني الهجري .

أدركت بالحزم والكتبان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا  
ضربتهم ضربة بالسيف فانتبهوا من رقدة لم يسمها قبلهم أحد  
ومن رمى عنها في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

وفي الحديث « الحرب خدعة » وفي آيات هذه السورة سرّ الحرب بل أهم أسرار هذا الوجود .  
ألا ترى إلى قوله تعالى « وإذ يريكوم إذ التقيم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقتض الله أمرا كان  
مفعولا الخ » قلل الله الكثير قبل الابتداء في الحرب ، وهكذا كثر القليل في أعين الكفار لينهزموا ، وبشر  
المسلمين بالنصر والفوز ولللائكة ، كل ذلك من القوة المنوية .

ومن عجب أن أكبر رجال الحرب الكبرى التي حدثت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨ قد أعلنوا  
في الجرائد في هذا الأسبوع من شهر ( مارس سنة ١٩٢٧ ) سرّا من أسرار الحرب ونبا من أنباء التدبير  
وحسن النظام والتنقل ، وذلك أنهم كتبوا أن فرنسا ( يوم أن أعلن الألمان أنهم راضون بشروط الحلفاء )  
كان جيشها في غاية الانحلال .

وقد اختمرت الثورة في الرؤوس وأخذ الضباط والجنود يتسللون لوإذا طالين الخروج من مأزق  
الحرب ، فكان رؤساء الفرق يحضرون هؤلاء أمام المدافع ويقتلونهم أفرادا وعشرات ومئات ، وكان ذلك  
كله سرا بحيث لا يطلع رئيس فرقة على ما عند غيره من الفرق حتى باتت رئاسة أركان الحرب في حيرة وألم  
وخوف شديد من ذهاب الدولة وضياع البلاد فكان جهل الألمان بما هو داخل الجيش الفرنسي هو السلاح  
الأموي الذي به كسب الحلفاء الحرب ، ولو علموا حقيقة الموقف عند الجيش الفرنسي لضربهم ضربة قاسمة  
في بضع ساعات ولانتهى الأمر وجاء الفوز وانعكست الآية فأصبح الغالب مغلوبا والقاهر مهورا وبدلت  
الحال ، والله عليم حكيم .

#### مسامرة

ههنا أسامرك أيها التركي ، ههنا أحدثك عن الجمال والنور والعرفان والبهجة والعلم ، أحدثك عن هذا  
السر البديع والنظام الجميل ، هذا هو الجمال ، هذا هو النور .  
انظر في آيات هذه السورة وغيرها إذ يقلل الله الكثير ويكثر القليل ، وتنبج من أن تقليل الكثير  
وتكثير القليل هو سر هذه الدنيا ، رجال الحرب لا يقولون إلا ما أمامهم ولا يفقهون إلا أن النصر حليفهم  
بكتانهم وحزمهم وعزيمتهم ، نعم هذا حسن ولكن هناك ما هو أحسن وأجمل من العلم والحكمة .  
انظر هذا الوجود تره مبنيا على هذه النظرية ، نظرية تقليل الكثير وتكثير القليل ، هذه هي السياسة  
التي تراها بأعيننا ، ونسمعها بأذاننا « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ألا ترى رعاك الله مناظر النجوم والشمس والقمر ؟ فانظر كيف قللها الله في أعيننا ، الشمس جرم صغير  
والقمر في أعيننا والكواكب الثابتة والسيارة صغيرات جدا تراها مقدار الليمونة تتلا في جوف السماء ،  
وحقيقة الشمس والقمر والنجوم غير ذلك ، حقيقتها أنها أجسام هائلة عظيمة حتى إن أرضنا بالنسبة للشمس  
جزء من أكثر من ألف ألف جزء من الشمس ، والثوابت التي تراها صغيرة هي أجسام أكبر من ثمانينما

لاحد له ، حتى إن كوكب ( السباك الرامح ) يبلغ نوره ( ٨٠٠٠ ) ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وهناك ماهو أعظم وأعظم ، فلو أن الله جل أعيننا تنظر إلى الشمس وإلى تلك الكواكب نظرا يحل حقائقها ويظهر صورها وأوارها على ما هي عليه لعميت الأبصار في ملح البصر أو أقرب ، وكيف لانعمى الأبصار وتلك أضواء تفوق الوصف .

وإذا كانت شمسا الصغيرة لانطبق أن نحدق فيها على الأرض وبيننا وبينها نحو ٣٦٥ سنة بسير القطر البخارية في أرضنا ( ١٢٢ ) سنة بسير قلة الدفع ، فكيف بنا إذا رأيناها كأنها أمامنا ؟ فهل يبقى لنا بصرا ، ويبقى لنا وجود ؟ وإذا كان هذا في شمسا الضعيفة ، فما بالك بالشموس الأخرى التي نسميها كواكب نوابت .

ألت ترى متى أن سياسة الأمم في حربها أشبه بما نرى في هذا الوجود كما سمعت عن أبي مسلم الحراساني وعن الأمم الأوروبية : كالألمان الذين يكتفون ما يخترعون من للدمرات ، وكاليابان الذين لما حاربوا الروس اختبأت سفنهم في البحريان لوتونها بلون يشبه لون الماء وزرقة الجوق فلم يفرق الروس إذن بين الأمواج والجوق وبين سفن اليابان ، فاعتصم الآخرون على الأولين فأهلكوهم وكسبوا قضية الحرب ، فهذه من تغليل الكثير لأتهم أوهموم ألا سفن أمامهم ثم انقضوا عليهم .

إن الله عز وجل جعل نظامه واحدا ، فإذا أرانا النجوم ضعيفة الضوء على حسب القانون المعلوم من أنه كلما طال البعد صغر الجسم ، فذلك ليسعدنا بالنظر إليها فندرسها ونظم سيرها ، وبهذا نساغر في البر والبحر بأنواع التجارة .

فإخفاء الحقائق هنا وكتبتها لمنفعة الناس ، قلل الله في أعيننا تلك الأنوار العظيمة لإسمادنا بالنجارة والسفر للعلم وللكسب الرزق ، وأخفى الألمان والفرنسيون والسلمون وغيرهم في حروبهم أحوال جيوشهم فنسروا ، أخفى الله عظمة النور عن أعيننا يتباعد الأجرام للضيئة ، وأخفى اليابانيون سفنهم بإعطائها لونا يشبه لون الماء ، ونتيجة الأمرين واحدة هي جهل الحقائق فيكون النفع العظيم .

اللهم إنك محمود على جهلنا كما أنك محمود على علمنا ، جهل الإنسان أجله فعمر وزرع ونظم وهندس ودبر وأحكم وبنى ، كل ذلك لتكثير القليل ، ربما لا يبقى من عمر الإنسان إلا أيام أو ساعات ، ولكن الله وضع في قلبه آمالا جساما ، يطوف طائف الموت وينب يوم الفناء وضراب الفراق والانطلاق من هذه الحياة ، ويدنو ملك الموت من المرء ولكن الله يكثر القليل في عينه ليداوم على العمل ويقتطف الثمرات غيره .

فهذا هو تدبير الله في خلقه وقد قلبه عباده لاسيا رجال الحرب ونحن في هذا التفسير إذا رأينا هذا الجمال في العالم الذي نعيش فيه وأن ما نسمعه في حروب الأمم نشاهده أمامنا وقليل ما نقله أشد فرحا وأعظم نصرا وأعز نفرا وأكثر جندا من قواد الحروب لأن ولوج أبواب العرفان والنصر على جيوش النفقة والجهالة أرفع مقاما وأوسع فناء وأرقى درجة وأقدس منزلة وأبعد مدى وأبقى أثرا .

إن اللذات النفسية تكون على حسب المعلوم ، فكلما كان المعلوم أشرف كانت اللذة به أقوى ، وأى لذة أقوى مما تلاحظه نفوسنا من جمال هذا العالم الذي ينظره أكثر الناس وهم لا يفتلون ما ينظرون « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

ومن ذا الذي كان يظن أن تغليل الكثير في الآية يحوى هذه المعاني ويحوس بلاد الألمان والروس واليابان وكواكب السماء ودنو الآجال ؟ أم من ذا الذي كان يظن أن آية واحدة من القرآن تسطع أنوارها

وتشرق في مبادي الحرب والنضال ومشارك الأنوار في عوالم السماء وتكون الأجنة في البطون إذ يكثر  
 صاحب هذا البالم القليل من التربة في أعين الأمهات والآباء ، فلا ترى أبا ولا أما يستطيعان فراق طفل أمره  
 عين ضيف جسمه قليل أثره فيكبر في أعينهما حتى يكون أعظم قدرا من الملوك والأمراء والعلماء والحكماء  
 ويشجع عندها .

فإذا ظل الله أمر الشمس والكواكب لتعيش بهذا التقليل وتقوى أبقارنا على رؤية النور الضئيل  
 الذي يناسب عيوننا ، فهو هكذا عكس القضية في أمر التربة ، فعظم الولد في أعين أبويه حتى خيل لهما أنه  
 سيكون أشجع من عنزة وأضئ من أبي حسن ، وأخطب من قس بن ساعدة وسجبان ، وأعلم من الأحنف  
 وابن قيس ، وأرقى من السمود بن عدياء ، وأوس من (بامبارك) وأدهي من سيدنا عمرو بن العاص ،  
 وأجمل من سيدنا يوسف عليه السلام ، وأعلم من عالم قريش الذي يملأ طباق الأرض علما ، وأرقى في الفلسفة  
 من سقراط ، وفي الهندسة من إقليدس ، وفي الفلك من (فلامريوس) وفي الإنشاء من ابن القفيع والصابي ،  
 وفي الشعر من أبي العلاء المرعي وشوقي بك المصري .

هذا ماجعله الله في الأرض قانونا عاما أن كبر صغير الأبناء في عيون الآباء رحمة بالأولاد وتسخيرا  
 للآخرين كبر بالآلات للكبرة الأجهال فمرنا سرها .

ذلك كله من سرّ قوله تعالى في هذه السورة « وإذ يريكوم إذ التفتيم في أعينكم قليلا وظلمكم  
 في أعينهم » فجعل العلم وجلّ الله الذي أتقن كل شيء وأحسنه وقدره تقديرا ووزنه بميزان عدل ، فسخرنا  
 بالتقليل والتكبير ونحن غافلون عما يراد بنا وكان التقليل والتكثير للذكوران من أهم الأعمال الحربية والنظم  
 العسكرية وتربية التربة ، ونظام هذا الوجود كالمجموعة الشمسية ، انتهى يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان  
 سنة ١٣٤٥ هجرية .

هذا نهاية الكلام في قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » والحمد لله على ما أنعم .

ولنترع في الكلام على تفسير بقية السورة قال تعالى « ما كان لبي أن يكون له أسرى الخ »

اعلم أن القنائم لم تحل للأمة قبلنا ، فلذلك نجد التوراة التي بين ظهرانينا مصرحة بهذا في مواضع كثيرة  
 وكانت نار تنزل من السماء فتحرق ماغنموه من الأعداء ويحرم عليهم أن يتعاطوه . فلما كان يوم بدر وجيء  
 بالأسرى وهم سبعون أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم أبا بكر رضي الله  
 عنه ، فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ  
 منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فدعهم تضرب أعناقهم  
 مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، ومكني من فلان ( نسيب  
 لعدو ) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وقال عبد الله بن رواحة أنظر واديا كثير الحطب  
 فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارا ، فقال له العباس قطعت رحمتك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم  
 يجهم ثم دخل ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين  
 من اللين ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال  
 « لن تبعي فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال « إن تعذبهم فإنهم  
 عبادك وإن تنفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر مثل نوح قال « رب لا تذر على الأرض  
 من الكافرين ديارا » ومثلك يا عبد الله بن رواحة كمثل موسى إذ قال « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على  
 قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم أنتم عالة فلا يغلتن  
 أحد منهم إلا بضياء أو ضرب عنق ، قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام ثم

بعد هنية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء ، ثم قال صلى الله عليه وسلم إن شئتم قتلتموم وإن شئتم فاديتوموم ، فقالوا بل نأخذ الفداء ، قال عمر : فدا كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بيكبان ، فقلت يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تبكيت لبكائك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قرية من نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى ( ما كان لني ) ، وقرئ « ما كان لاني » ( أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض ) يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه وبعز الإسلام ويستولى أهله . يقال أغمته المرض : إذا أغمه ، وهو من التخانة ، إذ مقام النبوة لنشر الدعوة وتثبيت الإيمان وهداية الناس ، وهذه أول غزوة غزوتوها لما كان لكم أن تستبقوا الأعداء لأخذ الفداء بل كان الإغمان فيهم أخرى بكم ( تريدون عرض ) الحياة ( الدنيا ) وانتطاف العمرة قبل أوانها بأخذكم الفداء ( والله يريد الآخرة ) يريد لكم سبب نيل نوابها من إعزاز الدين وقمع الأعداء ( وانه عزيز ) يثلب أولياؤه أعداءه ( حكيم ) في تدبير مصالح عباده ( لولا كتاب من الله سبق ) لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو ألا يصاب المخطيء في اجتهاده ، أو لا يندب أهل بدر أو قوما بما لم يصرح لهم بالهي عنه ، أو أن القدية التي أخذوها ستحل لهم ( المسك ) لأصابعكم ( فبما أخذتم عذاب عظيم ) وقوله من الله صفة وسبق صفة ثانية لكتاب وخبره محذوف أي موجود ، قال محمد بن إسحق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرا إلا وأحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء لما نجما منه غير عمر وسعد بن معاذ ، وذلك لأن كلا منهما أشار بالإغمان .

ثم اعلم أن قوله تعالى « تريدون عرس الدنيا والله يريد الآخرة » تنبيه على ما تقرّر في الدين والحكمة أن تراكم الأموال وإقبال الدنيا مدعاة للتوغل في اللذات والشهوات كما ورد في حديث البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها فقال قائل يا رسول الله أو يأتي الشر من الخير » فشيء له رسول الله صلى الله عليه وسلم حال الدنيا وإقبالها بحال البهائم الزائغة في السكّال فهي قسبان : قسم يأكل ويشرب وينام في الشمس وهو صحيح سليم ، وقسم منها يأكل ما يضره من الحشائش أو يمتنه ، وأن السكّال والحشيش إنما نبت بسقى الماء النازل من السماء . فالطير خير والنبات منه ما ضرّ ومنه ما نفع .

فهذا هو مثل الدنيا ، وعلى ذلك كانت الغنائم وكثرتها من أسباب تأخر الأمم إذا نامت على وساد الراحة وبطرت وفرحت فيخرج جيل قليل القوة لم يتعود العمل فتضيع الأمة وتهلك شأن الكاسلين النائمين ، ولقد علم أن هذه الأمة ستتوالى عليها الغنائم فدكرها بالهذاب وبكى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أحل لهم ذلك واكتفى بوعظ الرسول لنا وتحذيرنا من الدنيا وغرورها وأن القرآن مملوء من الترهيد في الدنيا وأن نبينا رحمة للعالمين ونحن تابعوه وهكذا فأنهم .

ولما زلت الآية التي نحن بصدها كفت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء والغنائم فنزل ( فكلوا مما غنمتم ) من القدية وبقية الغنائم ( حلالا ) حال من القنوم ( طيبا واتقوا الله ) في مخالفته ( إن الله غفور رحيم ) أباح لكم ما أخذتم ( يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ) وفي قراءة « الأسارى » ( إن يعلم الله في قلوبكم خيرا ) إيمانا وإخلاصا وصحة نية ( يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ) من الفداء بأن يعطيكم في الدنيا أضعافه أو في الآخرة نوابا ( ويغفر لكم وانه غفور رحيم ) نزلت في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة

إلى بدر ، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم اوقعة  
ببدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم فافتتلوا فلم يطعم شيئا وبقيت العشرون أوقية معه ، فلما أسر أخذت منه  
فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وقال أما شئ خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك ، وكلف فداء ابن أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن  
الحرث فقال العباس : يا محمد تركني أنكفف قريشا ما بقيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى  
الذهب الذي دفنته أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ؟ فإن  
حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقيم (يعني بنيه) فقال العباس : وما يدريك يا ابن  
أخي ؟ قال أخبرني به ربي ، قال العباس : أشهد إنك لصادق وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله  
لم يطعم عليه أحد إلا الله ، ولقد دفنته إليها في سواد الليل وأسر ابن أخيه عقيل ونوفل بن الحرث فأسلما ،  
قال العباس فأبدلني الله خيرا من ذلك إلى الآن عشرين عبدا إن أدناهم ليتجر في عشرين ألفا وأعطاني زمزم  
وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم . وروى أنه قدم على رسول الله صلى الله  
عليه وسلم مال البحرين وهو ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس أن يأخذ منه  
فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ مني ، قال تعالى (وإن يريدوا) أي الأسرى (خيانتك)  
نقض ما عهدوك عليه ( فقد خانوا الله من قبل ) بأن كفروا ونقضوا ميثاقه المأخوذ عليهم من الدلائل العقلية  
(فأمكن) أي أمكن الله المؤمنين (منهم) يبدر فقتلوا وأسروا ، فإن عاد نقضهم العهد عاد الإمكان منهم ( والله  
عليم) بما في بواطنهم من خيانة أو نقض عهد (حكيم) يجعل العقوبة على الذنب والثواب على الحسنات (إن الذين  
آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) وهم المهاجرون (والذين آووا ونصروا) أي آووم  
إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار (أولئك بعضهم أولياء بعض) أي يتولى بعضهم بعضا في اليراث  
وكان للمهاجرون والأنصار يتوارثون بالمهجرة أو بالنصرة دون القرابات ، وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من  
قريبه للمهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت المهجرة فتوارثوا بالأرحام حينما كانوا فصار ذلك منسوخا بقوله  
تعالى « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (والذين آمنوا ولم يهاجروا) يعني آمنوا وأقاموا  
بمكة (مالك من ولايتهم من شئ) يعني من اليراث (حتى يهاجروا) إلى المدينة (وإن استنصروكم في الدين)  
أي إن استنصركم الدين آمنوا ولم يهاجروا (فليكن النصر) أي فليكن نصرهم وإعطائهم (إلا على قوم بينكم  
وبينهم ميثاق) أي عهد فلا تنصروهم عليهم لأن ميثاقهم بمنعهم من أن يتدنثوا القتال فكيف تعينون الدين  
لم يهاجروا على قوم لا يتدنثون أذاهم ( والله بما تعملون ) من صلح وغيره ( بصير . والذين كفروا بعضهم  
أولياء بعض ) في اليراث ، ظاهره إثبات اللوالة بينهم ، ومعناه نهى المسلمين عن موالة الكفار وموارثتهم  
وإيجاب مباحثتهم ومصادمتهم وإن كانوا أقارب وأن يتركوا يتوارث بعضهم بعضا (إلا تفعلوه) أي إلا تفعلوا  
ما أمر ربكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا في التوارث تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة  
ولم تجعلوا قرابة الكفار كقرابة (تسكن فتنة في الأرض وفساد كبير) أي تحصل فتنة في الأرض ومفسدة  
عظيمة لأن المسلمين مالم يصيروا بدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا كما هو حاصل اليوم  
قضى أمراء الإسلام وعظماؤه يتقربون من الفرنجة ويقاثلون معهم المسلمين في العراق والشام وبلاد الجزائر  
ومراكش ، ولولا إغاثة المسلمين في الحرب العاتية لأوروبا على المسلمين ما أخذوا بلاد الإسلام ، ولولا إغاثة  
المسلمين للحلفاء لاتصرت ألمانيا على الحلفاء ، ولكن المسلمين ضيعوا مجدهم وقاتلوا في صفوف الأعداء ضد  
إخوانهم ، فانقلب الفرنجة عليهم وقسموا بلاد الإسلام بينهم ، فأخذ الإنجليز العراق وفلسطين ، وأخذ  
الفرنسيون الشام كما أخذت فرنسا قبل أربعين سنة تونس وبقيلها الجزائر ، وأخذت إنجلترا مصر واقسم



القرنسيون والأسبان مراكن ، كل هذا لتقاطع المسلمين وجهاتهم ، ومصداق لقوله تعالى « إلا تغلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » فهذه هي الفتنة وهذا هو الفساد الكبير ، وأي فساد أعظم من هذا أن يصبح للمسلمون وبمالكمهم كقطع الشطرنج تنقل في الرقعة بلاعلمها ويساقون للعذاب المون ، ذلك لقلعة العلم فيهم وغلبة الجهل وأن الطمع قد غشى على العقول والنفوس ، فلا ينظرون إلا بشهواتهم ولا يسمعون إلا بأطماعهم القصيرة النظر العديمة الجدوى ( والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ) .

ولما بين الله أحكامهم من حيث اللامات أخذ بين حقائق إيمانهم وما أعد لهم تبييناً لأحكام الآخرة بعد أحكام الدنيا ، وأيضاً لما جعل الله في أول السورة للمؤمنين حقا هم الذين يؤجلون عند ذكر الله ويزيدون إيماناً بتلاوة آياته ويتوكلون على ربهم ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة أبان في آخرها هنا أن المهاجرين والأنصار قد استوفوا شروط المؤمنين حقا ولذلك أعقبه بقوله ( لهم مغفرة ) لدنوبهم ( وورثهم ) في الجنة ( والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ) يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ( فأولئك منكم ) وذلك لترغيب .

واعلم أن المهاجرين الأولين هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة قبل صلح الحديبية وللمهاجرين الهجرة الثانية هم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية إلى فتح مكة ، فقوله « والذين آمنوا وهاجروا الخ » يقصد به الهجرة الأولى ، وقوله « والذين آمنوا من بعد الخ » يراد به والله أعلم الهجرة الثانية ، فأما بعد فتح مكة فقد صارت دار إسلام لقوله صلى الله عليه وسلم « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » أخرجاه في الصحيحين . وقال الحسن الهجرة غير مقطوعة أي من بلد يخاف للمؤمن على إظهار دينه فيه من كثرة الكفار ، فهذا يجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف فيه على إظهار دينه ، وفي هذا إقناع أن المهاجرين الأولين أفضل من الذين بعدهم فألقوا بهم ، قال تعالى ( وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ) .

قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية ، فهذا تبين أن سبب القرابة أولى وأقوى من سبب الهجرة والإخاء فهذا نسخ لما تقدم ، وكتاب الله أي حكمه أو اللوح المحفوظ ، وتمسك أبو حنيفة بهذه الآية في توريث ذوى الأرحام . أما الشافعي رضي الله عنه فقال : كتاب الله حكم الله الذي بينه في سورة النساء ، فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة الوارث وإعطاء أهل الفروض فروضهم ( إن الله بكل شيء عليم ) يعني أنه سبحانه عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية .

لطيفة

بيننا أنا أكتب في تفسير هذه الآية وأنقل آراء الإمامين الجليلين أبي حنيفة وإمامنا الشافعي رضي الله عنهما واختلافهما واجتهادهما لمصلحة الأمة ، وكيف يقول أحدهما : لا توريث لذوى الأرحام ، وورثتهم الآخر ويحتج كل منهما بحجة على ما فتح الله عليه ، فهذا يقول أولو الأرحام يشمل من في آية للبراث وغيرهم ، والآخر يقول حكم الله الذي ورد في سورة النساء يقيد « ولكل وجهة هو موليها » رأيت أنه مما يجب على أن أقول في هذا اللقاع : لقد اجتهدنا فأحسننا الاجتهاد وحافظنا على حقوق الأقارب بقدر طاقتنا البشرية ، ولو أننا كنا حين ورأيا أوروبا واتهازها القرص لاضطهدنا الأمم الإسلامية وارتقاءها بالعلوم والمعارف والبنى والثروة والعلوم الطبيعية وماسخر الله لهم من العوالم المادية فأصبحوا ولهم مشارق الأرض ومغاربها ، لو أنهما كانا حين لقالا معا بصراحة : إن قوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض ؟ » وقوله « انظروا إلى نعمه إذا أتمر » وقوله « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » وقوله « وسخر لكم الأنهار وسخر لكم

الشمس والقمر دائبين . وسخر لكم الليل والنهار » وقوله « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » من الآيات التى تبلغ سبعمائة وخمسين آية من القرآن .

أقول : لو كانا حين ونظرا ما نظرناه لقالا إن هذه العلوم يجب دراستها فى جميع أقطار الإسلام دراسة كما تدرس الأحكام الشرعية بناية أتمّ واهتمام أكبر ، ولقد أوجبت المذاهب كلها العلوم والصناعات على سبيل فرض الكفاية ، ولكن علماء الإسلام لم يعطوها العناية الكافية ، ولو أن فى المسلمين مجتهدين الآن متيقظين لأحيوا العهد الأوّل والحرضوا المسلمين على علوم الكائنات وسبق المسلمين الفرنجة ، ولقال لهم علماءهم من عرف فنّ الطبيعة والفلك والكيمياء فله ثواب من قرأ للبراث والوضوء والصلاة لأنها كلها علوم دينية .

لو أن هذين الإمامين كانا حين لرأينا خلافا فيما يجب على المسلمين من تلك العلوم ، ولرأينا حرصهما الشديد على أمتنا السكينة .

حرام على علماء الإسلام أن يناموا ، حرام عليهم أن يذروا الأمة تتخبط وهم نائمون ، حرام على الحكماء فى مصر وفارس والعراق والشام والترك وشمال أفريقيا وبلاد نجد أن لا يفتشروا وجوب العلوم على المسلمين ليسبقوا الفرنجة وليقاوموهم ، فانظر كيف بلغ من اجتهاد إمامينا أن بالغا فى مبحث أولى الأرحام هل هم خاصون بمن ذكروا فى الآية ؟ أم هم أعمّ منهم مع أن المال للوروث لا يزيد بهذا التقسيم سواء أكان للعموم أم للخصوص . إن المال للوروث لم يزد بعد هذا كله ، ولكن المسألة فى أن يعطى كل ذى حق حقه من أقارب الميت ، هذا هو الخلاف فى الآية .

فانظر لجهالة المتأخرين من المسلمين وقد رأوا بأعينهم أن التريبيين قد سخروا الطبيعة ، فاستخرجوا منها أموالا وأموالا حتى أحاطوا بنا من كل جانب وفتحوا الممالك شرقا وغربا ودخل كل بيت من بيوتهم مكاسب ومكاسب ، ونالوا حظا عظيما بما رزقهم الله بهداية عقولهم وإرشاد حكائهم وتبيان رؤسائهم ، كل ذلك رأوه فلم يحركوا ساكنا ولم يقولوا يا أبناءنا المسلمين ويا إخواننا الحمديين هذه أرض الله لكم وعواله فاملكوها واستخرجوا كنوزها حتى تقوى أمة الإسلام ، وانظروا كيف كان أئمتنا يحافظون على القليل للوروث فلا يأخذ زيد مال عمرو ، فكيف لا نحافظ على مال الأمة كلها الفنى والفقير والمعلم والحقير ، ذلك المال المستخرج من الأرض والجبال والهواء والماء ، دونكم خواص الطبيعة ومعجائب الكيمياء ، وكيف وصل الألمان إلى استخراج التترات من الهواء وأصبح الهواء المحيط بالأرض كنزا للآلات الحربية وللعماد فى الزراعة ومكسبا عجيبا ، وللمسلمون يتنفسون فى الهواء ويشربون الماء وهم غافلون عن استنباط الحيل فى استخراج كنوزها ، وكيف أصبحت حركات الماء النازل من أعلى إلى أسفل كما فى شلالات مصر أو الخزانات التى أنشئت على النيل مبدأ الكهرباء التى تبعث النور وتوقد النار وتجرى القطرات وتطلى الأمة من الفوائد ما لا حصر له ، فإذا جدّ أئمتنا وعشوا ودققوا حفظا لمال الأفراد .

فبالت شعري كيف نصرت أنظار المتأخرين فناموا نومة أهل الكهف فلم يرفعوا أبصارهم إلى البراث العلم الذى يملأ البيوت جميعها مالا ويورثها جلالا ويحمل للأمة جمالا وكالا ، فالأرض كلها لله « والله ميراث السموات والأرض » وهذا هو البراث الذى سخره لنا فقال « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » فهو الوارث وهو السخر ، ومن أعرض عن النعم فهو حقيق بالحرمان ، ومن كسل عن مواهبه باء بالخسران .

للبراث ميراثان : ميراث الحى وميراث الميت

إن ميراث الميت ميراث الحى حتى ، فالله هو الحى وهو الذى له خزائن السموات والأرض ،

إن ميراث الميت في علم الفقه إنما ينفع أسرة واحدة بخلاف ميراث الحى فإنه ينفع الأم كلها ، وميراث الميت يجعل الوارث بطيء الحركات قليل المهمة ، وميراث الحى وهو الله يعطيه للناس على قدر أعمالهم لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم فهو عدل ، ولقد نجد الدين رقواً أهمهم في التزام الحاضر من العصاميين الذين لا مال لهم ورثوه فجذبوا في العمل فرغموا شأن الأم ، فأما الملوك الذين ورثوا ملكهم عن آبائهم ، فكثير منهم أصابوا الأمم بالنكبات وأحلوا بها الأزمات .

ولقد ترى الأمم الإنجليزية ضربت على كل تركة مقداراً من المال يكثر كلما كثرت التركة ويقال كلما كان المال قليلاً ، وزى البلشفية منعت الملك وأمرت جميع الأمة بالعمل لترقى البلاد بأعمال أبنائها . النوع الإنسانى اليوم ولى وجهته شطر ميراث الله الذى له خزائن السموات والأرض ، فعلى المسلمين أن يوجهوا عنايتهم لتلك الميراث الذى يسع الممالك كلها ولم يضيق الله على أمة فيه ولم يمنه عن أحد وإنما يعطيه بالعلم ، فكلما كان الناس أكثر علماً بمصنوعاته كانوا أكثر ثروة وغنى .

إن الأنبياء لم يورثوا مالا « نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة » فالنبوة فتحت باب العلم على مصراعيه ولكنها أفلتت باب المال من ناحيتها تنبها على تلك الخزائن الإلهية والمواريث الربانية ، ومن هذا المقام « يرثى ويرث من آل يعقوب » ذلك ميراث العلم ، فالأنبياء يورثون الناس علماً وذلك مفتاح خزائن السموات والأرض .

وعسى الله أن يجتد لهذه الأمة أمرها ويرجع مجدها ويرفع عنها نيرها ويجعلها رحمة للعالمين .  
 اللهم إني لا أريد بكتابى إلا رقى النوع الإنسانى . وأن يكون المسلمون أرشد العالمين وأصلح بنى الإنسان وأن يكونوا قادة وسادة ورحمة لهم لا يظلمون ولا يظلمون . انتهى تفسير سورة الأفعال .

## سورة التوبة

هي مدينة بالإجماع إلا آيتين في آخرها « لقد جاءكم رسول من أنفسكم الخ » فإنهما نزلتا في مكة وهي مائة وتسع وعشرون أو ثلاثون آية ، وتركت التسمية في أولها لأنها زلت لرفع الأمان ، والبسطة أمان ، لأن الرحمة فيها ، وأى أمان فوق الرحمة والتسمية افتتاح للخير ، وأول هذه السورة وعيد ونقض عهد ، وقيل إن الصحابة اختلفوا في سورة الأتفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان ؟ فقال بعضهم هما سورة واحدة لأنهما نزلتا في القتال ومجموعهما مما ماتتان وخمس آيات ، فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال ، وقال بعضهم هما سورتان : فذا حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبها على قول من يقول إنهما سورتان ، ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبها على قول من يقول هما سورة واحدة .

وسأل ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك سيدنا عثمان رضي الله عنه فقال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السور التي يذكر فيها كذا ، وكانت الأتفال من أوائل منازل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وطنت أنها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعها في السبع الطوال » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن اهـ .

## تقسيم سورة براءة

هي أربعة أقسام : [ أولها ] الآيات التي قرأها سيدنا علي بن أبي طالب يوم الحج الأكبر ، وهي أربعون إلى قوله « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » .  
 [ ثانيا ] التحريض على الجهاد والإنفاق في سبيل الله ووصف اليهود والنصارى والأخبار والرهبان والجزية والأشهر الحرم من قوله « إلا تفروا بمنكم » إلى قوله - ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .  
 [ ثالثا ] في المنافقين وتوبيخهم وأحوالهم من قوله تعالى « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا - إلى قوله - أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » .  
 [ رابعا ] الكلام على المؤمنين وأحوالهم من قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » إلى آخر السورة .

## (التقسيم الأول)

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ \* وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَذَابِ

إليهم \* إلا الذين عاهدتكم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً  
 فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين \* فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا  
 المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا  
 وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم \* وإن أخذ من المشركين  
 استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون \*  
 كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتكم عند المسجد  
 الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين \* كيف وإن يظهروا  
 عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرتهم  
 فلاسيقون \* اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون \*  
 لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون \* فإن تابوا وأقاموا الصلاة  
 وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين وتفصل الآيات لقوم يعلمون \* وإن نكثوا  
 أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم  
 ينتهون \* ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوكم  
 أول مرة اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين \* فقاتلوهم يذبهم  
 الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين \*  
 ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم \* أم حسبكم  
 أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله  
 ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون \* ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد  
 الله شاهدين على أئمتهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون \*  
 إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش  
 إلا الله فمضى أولئك أن يكونوا من المهتدين \* أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد

الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ  
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ  
 وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ \* يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ  
 وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ \*  
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ  
 وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ \* قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ  
 وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ  
 تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ  
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ \* أَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ  
 أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ  
 وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ \* ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ  
 تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ \* ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ  
 يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ  
 الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنِ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ  
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ  
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ  
 عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ \* وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ  
 ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ \*  
 اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا  
 إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ  
 وَيَأْتِيَ اللَّهُ بِاللَّهِ الْإِنَّمَاءِ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ \* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى  
 وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا

مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَالَّذِينَ يَكْتَنِرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \*  
 يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُكُورَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ  
 لَأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَرُونَ \* إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا  
 فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا  
 تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ  
 الْمُتَّقِينَ \* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ  
 عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي  
 الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّمَا قُلْتُمْ  
 إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ  
 إِلَّا قَلِيلٌ \*

اعلم أن هذه الآيات أربعون وهي التي قرأها سيدنا علي يوم الحج الأكبر (العيد) على الناس .  
 وملخص هذا المقام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مأمورا ألا يقاتل للمشركين أولا ، والآيات في ذلك  
 كثيرة مشهورة ، ثم بعد ذلك أمر أن يقاتل من قاتله . قال الحسن : أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم  
 بقتال من قاتله من المشركين ، فقال « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » فكان لا يقاتل إلا من  
 قاتله ، ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من  
 أربعة أشهر .

وقوله رضى الله عنه فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر : أى إلا بنى حمزة ومحمى من  
 كنانة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتمام عهدهم إلى مدتهم ، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وكان  
 السبب فيه أنهم لم ينقضوا عهدها ، وكان ابتداء الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر : أى يوم العيد ، وكان  
 ذلك في العام العاشر من شهر ذى القعدة فآخِر الأشهر الأربعة العاشر من شهر ربيع الأول ، وإنما كان  
 الحج في شهر ذى القعدة لأجل النسى الذى كان يحسبه العرب ، فلما كان العام الذى بعده صار الحج في العاشر  
 من ذى الحجة وفيها حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله  
 السموات والأرض » الحديث .

وهذا لمن كان له عهد أقل من أربعة أشهر ، فأما من لم يكن له عهد فقد جعل عهده أربعة أشهر ، ومن  
 كان عهده فوق الأربعة حط أجله إلى أربعة إن كان نقص شيئا من شروط العهد ، فأما إن كان أمّ شروط  
 العهد كفى ضمرة من كنانة فهو لاء يوفى لهم بعهدهم .

## سبب هذا النداء يوم الحج الأكبر

اعلم أن مكة لما فتحت سنة ثمان من الهجرة وجاءت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج ، فقيل له : الشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة ، فقال لأحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ؛ فبعث أبا بكر في تلك السنة أميرا على الموسم ليقم للناس الحج ، ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومي وعرفة : أن قد برئت دمة الله ودمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ولما كلم أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك قال : أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت مي في الغار وأنتك مي على الحوض ؟ قال بلى يا رسول الله ؛ فسار أبو بكر أميرا على الحجاج وعلى بن أبي طالب يؤذن ببراءة ، فلما كان قبل التروية بيوم خطب أبو بكر في الناس وحدثهم عن مناسكهم حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فأذن في الناس بالذي أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة .

وقال يزيد بن تبيع سألتنا عليا : بأي شيء بعثت في الحج ؟ قال بعثت بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع الشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج ، ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك ، وأنزل الله في العام الذي فيه نذر أبو بكر إلى الشركين عهدهم « يا أيها الذين آمنوا إنما الشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عبلة فسوف ينفيكم الله من فضله » الآية ، وإنما أمر سيدنا علي بالنداء في الناس ، لأن عادة العرب جرت أن لا يتولى تفرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه ، وكان علي بن أبي طالب أقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي بكر لأنه ابن عمه .

ومما ذكره المفسرون في سبب هذا النداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعلوا للشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بتنقض عهودهم ، وذلك قوله تعالى « وإنا نخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » في سورة الأنفال ، فما هو ذا التنبذ على سواء .

ولما وقف سيدنا علي ونادى في الناس بالآيات من أول براءة هند حجرة العقبة وقال : يا أيها الناس إنى رسول رسول الله إليكم ، فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ، ثم قال أمرت بأربع وهي للتقدمة : فقالوا : عند ذلك يا علي أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه إلا طعن بالرمح وضرب بالسيف .

هذا خلاصة ما ذكره المفسرون مع تشعبه ، فلنشرع في تفسير الآيات .

قال تعالى ( براءة ) أى هذه براءة ( من الله ورسوله ) البراءة التباعد مما تكره مجاورته ، قال الزجاج أى قد برى الله ورسوله من إعطائهم اليهود والوفاء بها إذا نسكتوا ( إلى الذين عاهدتم من المشركين ) أى هذه براءة واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم ( فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ) أى فسروا أيها الشركون في الأرض كيف شئتم مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين ، والسيحة : الضرب في الأرض والانتاع فيها والعد عن مواضع العمارة ، والمعنى قل لهم سيحوا ، والقصد من الأمر الإباحة والإطلاق والإعلام بحصول الأمان وزوال الخوف والقتل والقتال ، وبعد الأشهر الأربعة التي شرعناها فيها تقدمت وبيننا ما اخترناه من كلام المفسرين يقتل الشرك حيث أدرك ، ويؤمر إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان . ولا تظنونا



أيها المشركون أنكم تصفون الله فلا يمكن للمسلمين منكم ، كلا ! فلتعلموا أنكم لا تفلتون من أيدي المؤمنين  
(واعلموا أنكم غير معجزى الله ) يعنى أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب  
ثائب ويؤمن ، وما مثلكم في أنكم في قبضة الله وقد أمهلكم ثم إذا أخذكم وسلط للمؤمنين عليكم لن تفلتوا  
بل تنقادون إلا كمثل ما قال طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتي كالطول للرخى وثنياء باليد  
مى ما يشأ يوماً يفده لحنفه ومن يك في قيد اللينة يتقد

فهكذا هؤلاء يسبحون أربعة أشهر كأنهم كالحيوانات للربوطة في الطول وقد وضع الرجل ثنياء في يديه  
فيرتج الحيوان كما يشاء متى أراد الرجل جذبه ارتد إليه حالا ، هكذا الموت مع الناس ، وهكذا المؤمنون مع  
لشركيين بعد الأشهر الأربعة ، فهم لا يفلتون بل هم في قبضتهم ، هذا معنى الآية لأن الله خاذل الكافرين  
( وأن الله محزى الكافرين ) بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة (و) هذا ( أذان من الله ورسوله )  
أى إعلام صادر من الله ورسوله ( إلى الناس يوم الحج الأكبر ) يوم النحر لأن فيه تمام الحج من الطواف  
والنحر والحلق والرمي ، وإنما وصف بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ، وحجته وأذان معطوف على  
حجته براءة ، كأن الله يقول وإعلام من الله ورسوله ( أن الله ) أى بأن الله وحذفت صلة الأذان تخفيفاً  
( برىء من الشركين ورسوله ) برىء على قراءة الرفع . وقرئ « ورسوله » بالنصب عطفاً على اسم أن ،  
وقرئ بالجر .

حكى أن أصرياً سمع رجلاً يقرأ « ورسوله » بالجر ، فقال إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا بريء منه ، فليبه  
الرجل إلى عمر حفكي الأعرابي قراءته ، فعندها أمر عمر بتعلم العربية وهذه قراءة واردة أيضاً ، والجر إما على  
الجوار أو على القسم فرسوله مائة اللام ( فإن تبتم فهو ) أى فالتوب ( خير لكم وإن توليتم ) عن التوبة : أى تبتم  
عن التولى عن الإسلام والوفاء ( فاعلموا أنكم غير معجزى الله ) غير فائتين من عقابه ( وبشر الذين كفروا  
بعذاب أليم ) في الآخرة ، ثم استثنى من قوله « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين »  
فقولوا لهم سيحوا إلى آخره . قوله ( إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينصوكم شيئاً ) من شروط العهد  
ولم ينكثوه ولم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط كبنى ضمرة ( ولم يظاهروا ) أى ولم يعاونوا ( عليكم أحداً ) يعنى  
من عدوكم ( فأنموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ) أى إلى تمام مدتهم ولا تجروهم محرى الناكثين ( إن الله يحب  
التقين ) الذين يضمنون الأمور مواضعها ويوفون بالعهود مع اللوفين ولا يجعلونهم كالناكثين ( فإذا انسلخ  
الأشهر الحرم ) أى انقضت شهور العهد ، وإنما سميت حرماً لحرمه نقض العهد فيها وهى التى أيسح لنا كشيئ  
أن يسبحوا فيها ، وهذا اختيار مجاهد ومحمد بن إسحاق وهو الذى يناسب نظم الكلام وأثران المعنى ( فاقبلوا  
للمشركين ) الناكثين ( حيث وجدتموهم ) من حلة وحرم ( وخذوهم ) وأسروهم ، والأخذ : الأسير  
( واحصوهم ) واحبسوهم ، أو حولوا بينهم وبين المسجد الحرام ( واقعدوا لهم كل مرصد ) كل بمرّ وعجتاز  
ترصدونهم به وهو منصوب على الظرف ( فإن تابوا ) عن الكفر وآمنوا ( وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة )  
حتى تصدق توبتهم وإيمانهم ( غفلوا سبيلهم ) فأطلقوهم بعد الأسر والحصر إن وقعوا في قبضتكم ، أو دعوهم  
ولا تترسوا لهم إن لم تكونوا استحوذتم عليهم ، ومن ترك الصلاة ومنع الزكاة لا يغنى سبيله ( إن الله غفور  
رحيم ) لتعليل لتخليه سبيلهم ، فإن الله يفر بالإسلام ما قد سلف للكافر ( وإن أحد من المشركين ) للأمر  
بالشركى لهم ( استجارك ) استأمنك وطلب منك جوارك ( فأجره ) فأمنه ( حتى يسمع كلام الله )  
ويتبرره ويطلع على حقيقة الأمر ( ثم أبلغه مأمنه ) داره التى يأمن فيها إن لم يسلم ثم قاتله إن شئت ، فصل

السلبي أن لا يؤذوا مستأمنًا وليس له أن يقيم في دارنا وعلينا أن نمكته من العودة ( ذلك ) الأمر بالإجارة ( بأنهم ) بسبب أنهم ( قوم ) جهلة ( لا يعلمون ) ما الإسلام وما حقيقة ما يدعوا إليه فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسموا ويفهموا الحق ( كيف يكون للشركين عهد عند الله وعند رسوله ! ) كيف استفهام في معنى الاستنكار والتعجب ، ومعناه الجهد أيضا : أي لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يندرون وينقضون العهد ( إلا الذين طهروا عند السجد الحرام ) وهم بنو ضمرة المتقدم ذكرهم ولم ينقضوا شرطاً من شروط العهد ولم يعينوا عليكم عدواً كما تقدم تفصيله فترصوا أمرهم ( فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ) أي فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء ، وهذا كقوله فيما تقدم « فآموا إليهم عهدهم إلى مدتهم » ولكنه مقيد هنا بأن يستقيموا على العهد وما شرطية ( إن الله يحب للمتقين ) الذين يترصون ويستيقظون في هذه الأحوال وأمثالها ويميزون بين الحبيث والطيب ( كيف ) تكرار تعجب واستبعاد : أي كيف يكون بينكم وبينهم عهد ( وإن يظهروا عليكم ) يملوكم : أي كيف وحالمهم أنهم إن يظفروا بكم ( لا يرقبوا فيكم ) لا يراعوا فيكم ( إلا ) قرابة ( ولا ذمة ) عهداً ( يرضونكم بأقوالهم ) بالوعد بالإيمان والوفاء بالعهد ، وهذا كلام مستأنف في وصف حالهم وأن ظاهراً بخلاف باطنهم وهو يقرر استبعاد الثبات منهم على العهد ، وكأنه قيل لماذا يوصفون بذلك ؟ فكان الجواب « يرضونكم الخ » ( وتأتي قلوبهم ) الإيمان والوفاء بالعهد ( وأكثروا فاسقون ) ناقضون العهد متمردون في الكفر لأمرؤة تمنعهم عن الكذب ولا فضائل تردعهم عن الذكث وهذه حال أكثروا ، أما أقلهم فهم وإن كانوا كفاراً فهم ثابتون عن العدالة في دينهم ، ولذلك لم ينقضوا العهد ( اشتروا ) استبدلوا ( بآيات الله ) بالقرآن ( ثمنا قليلا ) عرضا يسيرا وهو اتباع الشهوات ونقض العهد والبالغة في المداوات ( فصدوا عن سبيله ) أي عدلوا عن دينه وصرفوا غيرهم ، أو صدوا عن سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار ( إنهم ساء ما كانوا يعملون ) وللقصود بالتم عملهم هذا ، ثم وصفهم هنا كما وصفهم قبل بقوله « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة » وهذا غير ما تقدم لأنه قال هناك « فيكم » وهنا قال « في مؤمن » فهذا أعم . ويقال إن هؤلاء نقضوا العهد بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان بن حرب فذتهم الله بذلك ، وعلى هذا يكون هذا خاصا بهؤلاء ، والأول أعم ( وأولئك هم المعتدون ) المجاوزون الغاية في الظلم والشر ( فإن تابوا ) عن الكفر ( وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم ) أي فهم إخوانكم ( في الدين ) لافي النسب ( وتفصل الآيات ) بينها ( لتقوم بحدون ) يفهمون فيفكرون فيها ، وهذه جملة معترضة ، يعني وبين حجاج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه ، كأنه قيل إن من تأمل تفصيلها فقد استحق مقابلة العلم وذلك للتحريض على أن يتأمل الناس ما فصل من أحكام الشركين للماهدين والمحافظة عليها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة . وقال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يرك فلا صلاة له . وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما وأبي أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه : يعني بذلك ما ذكره أبو بكر في حق من منع الزكاة وهو قوله : والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما ، يعني الصلاة والزكاة .

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما نوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر : كيف تقابل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم من ماله ونفسه إلا بجمعه وحسابه على الله عز وجل ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق للمال ، والله لو منوني عقلا كانوا يؤذوننا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقتلتهم على منمها

فقال عمر : فوائده ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال ، ثم قال تعالى ( وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ) أى وإن نقضوا العهد المؤكدة بالإيمان ( واطعنوا في دينكم ) وعابوه ( فقاتلوا أئمة الكفر ) فقاتلوا ، ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك رؤساء مقدمين في الكفر ، فهم أحق بالقتل ( إنهم لا إيمان لهم ) على الحقيقة وإنما أثبت لهم الإيمان في قوله « وإن نكثوا أيمانهم » لأنه أراد أيمانهم التي أظهروها ، ثم قال هنا لا إيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا ، وفيه دليل على أن الذي إذا طعن في الإسلام فقد نكث عهده ، وهنا قال الحنفية إن بين الكافر ليست يمينا ، ويقول الإمام الشافعي إن أيمانهم لا يوثق بها ويجعل بينهم يمينا حيث وصفت بالنكث

أقول : متى كانت الأيمان معناها المهدم بتأت هذا الخلاف ؟ ولا يكون إلا حيث يجعل اليمين بمعنى الخلف في الوصية ، وقوله تعالى ( لعلهم ينتهون ) أى فقاتلوا أئمة الكفر لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم ورجعوا عن الكفر إلى الإيمان . ثم أخذ بحض المؤمنين على جهاد الكفار ، فقال ( ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ) نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا سلاح الحديدية وأعانوا بني بكر على خزاعة ( وهموا بإخراج الرسول ) يئى من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة ( وهم بدوكم ) يعنى بالقتال ( أول مرة ) يعنى يوم بدر إذ قالوا لا نصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه وبدوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أنخسواهم ) أتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم ( فأنه أحق أن نخسوه ) يامعشر المؤمنين فآخسوا ترك أمره ( إن كنتم مؤمنين ) أى إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعدته فآخسوه ، وهل يكمل الإيمان إلا بحصر الخشية في الله وعدم اللبالة بمن سواه .

ولما انتهى من توبيخهم على ترك القتال أمرهم به فقال ( فأتلوهم بدينهم الله - إلى قوله - ويذهب غيظ قلوبهم ) فجعل للرتب على القتال خمسة أمور :

(١) التذيب بالقتل . (٢) والقتل بالقهر وزول الهوان .

(٣) والنصر عليهم والظفر بهم .

(٤) وشفاء صدور المؤمنين وشفاء داء قلوبهم بما كانوا ينالونه من الأذى منهم ، ولا ريب أن من آذاه خصمه أمدا طويلا ثم مكته الله منه فإنه لا محالة يعظم سروره .

(٥) وذهاب غليظ القلوب لما لقوا من المكروه .

وكل هذا قد حصل وهذه من دلائل النبوة ثم استأنف قائلا ( ويتوب الله على من يشاء ) كبعض أهل مكة كأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ( والله عليم ) بما كان وما سيكون ومنه علم القلوب الصالحة للإيمان ( حكيم ) في قبول توبتهم وإيمانهم .

ولما كان ما تقدم يرجع إلى القتال وإقامة الحروب وإخضاع الأعداء وكان ذلك شاقا على النفوس صعبا على الناس أردفه بأن الناس في الدنيا مخلوقون للأعمال مبتلون بأفعالها والجهاد فيها ، فمن جد وصبر فاز ، ومن سقط في الامتحان نزل به الهوان ، وهذا هو قوله ( أم حسبتم - إلى قوله - والله خير بما تعملون ) أى أظنتم أنها المؤمنون أن تركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تختبروا ليظهر الصادق من الكاذب ، والفتنة من السمين ، والجلد من الرديء ، وهل تتركون ولم يتبين المجاهدون منكم ولم يتخذوا « وليجة » أى بطانة من دون الله ورسوله .

وملخص الآية أحسبتم أن تركوا بلا مجاهدة ولا براءة من الشركين « والله خير بما تعملون » يعلم غرضكم منه ، ثم إنه هاهنا شرع الله عز وجل يبين فضل الإيمان والجهاد ويعطى للسائق سورة صادقة

إلى المصداق ، فهو أولاً بفضل الإيمان والجهاد على عمارة الساجد ، لأن عمارة الساجد لا فائدة منها إذا لم يكن المصير مؤمناً ، وكيف يصر الساجد وعبادته ملغاة ؟ أم كيف يعمر الساجد والعدو يحيط به من كل ناحية ؟ عمل المسلم نصحيح العقائد أولاً ، فإن الجسم لا ينشط إلا على مقتضى الإرادة ، وأن يجمع الجيوش ويطرد الأعداء ويخيف الأمم حوله حتى لا يطمعوا في دياره .

ولصمى كيف صلى الناس وهم خائفون ؟ أم كيف يتعبدون في الساجد وهم محاصرون ؟ أم كيف يقومون بأعمالهم الدينية وهم لا يعتقدون ؟ وثانياً وضع الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والسكن في كفة والإيمان والجهاد في كفة ، وفضل الكفة الثانية على الأولى ، ذلك لأن من اكتشف العدو وأحاط به الظالمون من كل سوپ فأبناؤه وأهله وأقاربه وماله ومسكنه وجميع ما يتمتع به في حكم اللغفود لأن العدو سيأخذه منه ويحرمه ، فاقترض السياسة الحكيمة أن الجهاد والإيمان يقدمان على سائر ما ذكر ، إن الجهاد به صيانة الأمة وحفظها ، وقد هتد من أحب هذه الأمور وفضلها على الجهاد والإيمان بمقاب شديد وقد عرفت العقاب ، فهو الذي وقع فيه للسودن اليوم فقد ضعف الإيمان وقل الجهاد ، فأخذ القرنجة المسلمين من كل جانب وهذا مصداق الآية ، وهذا هو قوله تعالى « ما كان للشركين » إلى قوله « والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

وسبب زول الآية أن أسرى بدر من قريش الذين تقدم ذكرهم في سورة الأنفال ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرونهم بالشرك وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوتنا وتكتمون محاسننا ؟ فقبل له وهل لكم محاسن ؟ قال نعم . نحن أفضل منكم ، نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني : يعني الأسير ، فنزل قوله تعالى ( ما كان للشركين أن يعمروا مساجد الله ) سواء أكان للسجد الحرام أو غيره ( شاهدين على أنفسهم بالكفر ) بإظهار الشرك وتكذيب الرسول وعبادة غير الله ، وقد كان أهل مكة يطوفون بالبيت عزاة ، وكانوا كما طافوا طوفة سجدوا للأصنام ( أولئك حبطت أعمالهم ) التي عملوها في الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقى الحاج وفك العاني وكل عمل ليس لله قد حبط وبطل ( وفي النار هم خالدون ) أي من مات منهم على الكفر ، فإذا كان أهل مكة قد عمروا المسجد الحرام فليس بنافع لهم لأمرين : الأول : أن أعمالهم حبطت بكفرهم . الثاني : أنهم معتصبون لحقوق المسلمين .

فالأول في الآية السابقة . والثاني في قوله تعالى ( إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ) أي إنما تستقيم عمارة الساجد لمن جمعوا بين قوتي العلم المعبر عنه بالإيمان والعمل بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم خشية أحد في أبواب الدين إلا الله ، فهؤلاء وحدهم الذين يقومون بتزيين الساجد بالفرش وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والتذكر ودرس العلم فيها وصيانتها ، فلو أوصى كافر ببناء مسجد لم تقبل وصيته وهكذا يمنع الكفار من دخول المساجد غير إذن مسلم وإذا دخل بغير إذن عزز ثم إن الله لما خصص المؤمنين الموصوفين بما ذكر بعمارة المساجد لم يشأ أن يؤمنهم من حوادث القدر ، بل أبقى لهم خوفاً في نفوسهم لئلا يظنوا أن الانصاف بما ذكر كاف للمساعدة فإن هناك من الأمور النفسية والأخلاق السبعية والعوارض الشيطانية في النفوس الإنسانية ما يبعث على الخشية المذكورة في الآية فذلك أعقبه بقوله ( فمسي أولئك أن يكونوا من المهتدين ) بصيغة التوقع فهؤلاء مع كالمهم في الإيمان يتوقع لهم الهداية ثم أخذ سبحانه يريده إصاحاً ويؤكداه فقال على سبيل الاستفهام الإنكاري ( أجهلتم الخ ) السقاية والعمارة

مصدران ، أى أجمعتم أهل سقاية الحاج وعمارة للسجد الحرام كمن آمن ، ثم قرّر الحكم فقال ( لا يستوون عند الله ) وبين عدم المساواة فقال ( والله لا يهدي القوم الظالمين ) ولا جرم أن الكفر ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم ظلم فكيف يساوى هؤلاء الذين هدام الله وقبلوا الحق ، ثم بين طائفة أهل من غيرها وأعظم قدرا من أهل سقاية الحاج وعمارة للسجد الحرام ومن لم يستجمع الصفات المذكورة الآتية ، وتلك الصفات الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والجهاد بالمال ، فهؤلاء أعظم درجة من غيرهم ( وأولئك هم القاتلون ) بالتواب ونيل الحسن عند الله ، لأن المجاهد بنفسه وماله فوق المصل للزكي الذى لا يجاهد ، ولذلك قال فيها تقدم « فسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » وهنا خصهم بالفوز وأتبعه بالبشارة من ربهم بأنه يرحمهم ويرضى عنهم ويدخلهم جنات نعيمهم فيها دائم وهم خالدون فيها خالدون مؤكدا بالتأييد وعند الله الأجر العظيم الذى يحضر دونه نعيم الدنيا ، ولانسبة بين أعمال العاملين والأجر الذى استوجبه

ثم أخذ سبحانه يبين أن الأمة مالم تجتمع أفرادها على رأى واحد تفرقت وحدانها وزالت جامعتها وأمم ذلك الاجتماع على الإيمان ، وقد يستبدله قوم بالوطنية وآخرون باللغة إلى آخر ما فى كتاب أهل المدينة الفاضلة الفارابى فعنى سبحانه أن يتخذ المؤمنون آباءهم وإخوانهم أولياء يوالونهم إن آتروا الكفر على الإيمان وأوعدهم قائلا ( ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ) ثم بين أهم ما يجب التمس فى الدنيا وهى ثمانية وفضل الجهاد والإيمان عليه قائلا ( قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ) أقرباؤكم ( وأموال اقترفتموها ) اكتسبتموها ( وتجاره تخشون كسادها ) فوات وقت نفاذها وقوله ( فتربصوا حتى يأتى الله بأمره الخ ) وعيد وتهديد بضياح الأمة وتشيت شملها .

لطائف فيما تقدم من الآيات من هذا القسم من السورة

- [ اللطيفة الأولى ] فى قوله تعالى « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » .
- [ اللطيفة الثانية ] فى قوله تعالى « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم الخ » .
- [ اللطيفة الثالثة ] فى قوله تعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول » .
- [ اللطيفة الرابعة ] « أجمعتم سقاية الحاج الخ » .
- [ اللطيفة الخامسة ] « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « ونفصل الآيات الخ » والكلام على الأمم الإسلامية ونومنها

انظر إلى اجتهاد أبى بكر الصديق وكيف يقول بعض الأجلة الأعلام من صدر الأمة الإسلامية : ما كان أفعه أبا بكر ، يريد بذلك أنه لم يفرق بين شيئين جمع الله بينهما معنى الصلاة والزكاة لما جاءه عمر رضى الله عنه قائلا : يا أمير المؤمنين اكنف منهم بالصلاة ، وردّ عليه قائلا وقد أخذ بلحيته يا رجل أجبنا فى الجاهلية خوار فى الإسلام والله لو منونى الخ .

فتعجب كيف كانت قوة الإسلام ومنته وجاؤه ووجهه ودرجته وملكه لفارس والروم وحفظه التنوير راجعات كلها إلى أمر واحد وهو قرن الصلاة بالزكاة وقد نهما أبو بكر وعمل لحفظ بها الوحدة وبين الله أهمية ذلك بقوله « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وقد قال بعض المفسرين إنه بذلك يستثير المهم ويعرض الأذكياء على الفهم فى أمر المعاهدات ، وكأنه قيل من تأمل تفصيلها فقد استحق منقبة العلم ، وقد ظهر أن أول من استحق منقبة العلم فى هذا الباب أبو بكر الصديق ، فهو الذى فهم وهو الذى عمل .

هذه هى المقدمة التى أكتبها للنتيجة التى أطلبها ، وهى :

### العلوم المهمة بالمصرية من السموات والأرض ومجائب الحكمة الإلهية

انظر أيها الذي كيف استقامت أمة الإسلام ونجح الصديق في أمره ؟ بماذا ؟ بماذا جمع الإسلام ؟ جمعه بقرن الصلاة بالزكاة وهو الذي تفتن لهذا وحده ثم اتبعه للسلون وأذعنوا ، وبماذا مدحه الله ؟ مدحه هو وأمثاله بالعلم ، بماذا ؟ بأنه عرف تفصيل هذه للسألة السياسية العمرانية الدينية فهل فطن المسلمون بعد ذلك في هذه العصور ؟ عصور العلم والرفان ، عصور الحكمة والنور ، عصور الكشف الحديث ، عصور الكهرباء والبخار ، عصور الكيمياء والحديد ، عصور اللوآذ اللطيفة الهوائية التي بها تطير الطيارات وتحلق في جمر النضاء ، عصور انقلاب المعمورة وتغيير العالم الإنساني وإزالة الصواعق من الطيارات ، هل فطنوا على من تقع تلك الصواعق ؟ على الجاهلين ، من هم الجاهلون ؟ الجاهلون بنظام الله ، الجاهلون بما خلق الله ، الجاهلون بهذا العالم الملوأ جمالا وحكمة وبهاء وحسابا ووزنا ، كل العالم موزون منظم بهج بديع ، فواحسرتاه على أمة الإسلام ، وواأسفاه على هذه الأمة النبيلة التي خلقها الله في الشرق مهد العلم والحكمة والفلسفة .

فيا ليت شعري كيف يكون الشرق مهد للدين والعرفان وينزل فيه نبي صادق منهم ثم يكون ذلك الشرق ضمه مهد للباوة والجهالة ، وكيف أصبح في ظلام دامس وجهل طامس ، لملك تقول إنك بهذا القول خرجت من اللقام ودخلت فيها ليس منه ، وأى مناسبة بين المعاهدات الإسلامية والنظامات الكونية ، وإنما أنت تريد أن تذكر العجائب الكونية بمناسبة وغير مناسبة ، لأن هذا تحيل في الكلام وخروج عن سنن التأليف وهذا مما تنفر منه الطباع ويأباه العلماء الأعلام .

أقول على رسلك إن هذا اللقام به أليق وهو به حقيق ، ألا ترى أن مناعة أمة الإسلام التي جاءت من اقتران الصلاة بالزكاة وقد مدح من يعرفها بالعلم ، قد جاء في القرآن في سورة الأنعام نظير هذا للدح ، بل هو أبلغ منه فيمن يعرف علم النجوم وسيرها وعلم التشريع وعلم النبات وما أشبه ذلك ، فإذا قال الله هنا « وتعمل الآيات لقوم يملون » فقد قال في سورة الأنعام « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يملون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » ثم شرع يذكر الجنات والأعتاب والخيل وقال « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

فانظر كيف يقول هناك قد فصلنا فيها قد للتحقيق وفيها فصلنا بصيغة الماضي وهي تنفيذ التحقيق وعبر في جانب الأمور الطبيعية وهو التشريع بالفقهاء وهو أبلغ من العلم لدلالته على شدة القطنة ، وحثم بأن هذه دلالات لقوم يؤمنون .

فانظر كيف ابتداء الله الآيات بأنه عزير علمه وبأن من يعرفها عالم فقيه مؤمن ، فهذه الصفات الثلاثة التي ترتبت على معرفة هذا العالم المحيط بنا من النبات والحوان والإنسان والتشريع والفلك وجميع العلوم الطبيعية لم تذكر في هذا اللقام مقام المعاهدات والمعاملات الدنية ، بل قال « فصل الآيات لقوم يملون » وهناك أكدها بقدر وكون الفعل ماضيا .

أفلا تعجب من السليين كيف يتفطن الصديق لمسألة إسلامية جمع بها الأمة كلها وهي قرن الصلاة بالزكاة ، ولما جاء هذا العصر الحاضر وجدنا أنفسنا اليوم لافي العير ولا في النعير ، فلا نحن حافظنا على ما ورثناه من أولئك الأشراف الأكابر من العلوم العملية ، ولا نحن رضنا بأصارتنا إلى ما حولنا وحوالتنا وجهة الأسماء الإسلاميين ورؤساء المشائر من التخاذل إلى الأمم التي حولهم وكيف سبقوهم في العلوم

واستخدموا الطبيعة فأعطاهم الله بما في خزائنها ، وكيف ناموا عن القرآن ولم يتفطنوا لما تنطقه أسلافنا الكرام .

ولو أنهم نظروا نظرات صادقات لوجدوا من الحث على العلم في الآيات السابقة ما يبهج الصور ويحث الهمم إلى حوز العلوم وفهمها ، وكيف كان القرآن قد أعطى العلوم الطبيعية والفلكية من الأهمية فوق ما أعطى العلوم الفقهية التي منها أمر المعاهدات في الآيات التي نحن بصددنا .

يا عجبا كل العجب ! هل غاب عنكم يا معاشرة علماء الإسلام أن هذه العلوم الكونية هي التسييح وهي العبادة وهي التوحيد وهي الذكر وبها الفكر وبها حب الله ، وبها فضلا عن هذا كله الجهاد الملي والرفق الفكري والنفي والثروة وغلبة الأعداء .

لقد ظهر الآن سر القرآن ، هذا هو السر للكنون ، هذا هو العلم الممزون ، هذا هو الذي خبأه الله في القرآن ليظهره الآن على قلوب قوم يخلقهم لهذا في هذه الأمة فيسوقون الأمة الإسلامية إلى دراسة العلوم والرفان وبقراءون مافي الأرض والسما من العوالم المحيطة بنا حتى يكونوا عباد الله حقا وحتى يكونوا خلفاء الله في أرضه ، وحتى يكونوا رحمة للعالمين ، وحتى يظهر الله الإسلام على الدين كله .

وإلا فلماذا نرى الله يصف نفسه في تلك الآيات بالعمة والمعلم ؟ ويصف العالمين بها بالفقه والمعلم وبالإيمان ؟ تبارك الله رب العالمين .

إن فرق ما بين العلوم الفقهية والعلوم الكونية كالفرق ما بين ذلك المدح السجيب بالمعلم والفقه والإيمان في آيات الأتمام مع الصيغة المفيدة للتحقيق ، وبين مجرد الوصف بالمعلم مرة واحدة بصيغة الضارع .

ولقد وصف العالمون بهذه العلوم أيضا بأولى الأبواب والتعريف والوقوفين وأنهم يملكون ؛ فجميع صفات الكمال من علم وإيمان وقته وأنهم أولو الأبواب .

كل ذلك وصفهم الله به ، وكيف لا يوصفون به وقد علمت أن قرن الصلاة بالزكاة وتوزيعها على الناس يفيد العدل فيما ملكه الناس ، فأما العلوم الطبيعية ونظام الله فإنهما يفيدان الناس فوق معرفة الله مالا وغنى وثروة وقوة حرية .

جل الله الذي ألبس المعاني الألفاظ التي تناسبها ، فدح عالم الزكاة بمدح أوجز من مدح العلوم الكونية لما يندقه على الناس من نعمه بتعاطيا ، وجل الله الذي غشى على عقول للتأخرين من المسلمين حرمهم ذلك ، وهاهو ذا يريد أن يطلعهم على خزائن نعمته وألمهم من الآن دلائل رحمته وبدائع حكته « تبارك الله أحسن الخالقين » .

اللطيفة الثانية « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الآية

لقد كثر الخوض في القرآن على الجهاد وهي قاعدة مقررة ألا سعادة في دين ولا دنيا إلا بنفس الجهاد ، فأما اللذات والشهوات والأمانى فإنما هي وقتية ، والسعادة إنما قرنت بالصبر والجهاد في جميع الحياة ؛ فليجاهد الإنسان في العلم والعمل والصدق والأمانة ، فهذا الجهاد وحده تكون السعادة ، وهذا للقام مستوفى في سورة البقرة عند قوله تعالى « ولتبلونكم بشئ من الخوف والجوع الخ » .

اللطيفة الثالثة قوله تعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم الخ »

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضموا الحرب عشرينين يأمن فيها الناس ، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأطاعتهم قريش بالسلاح ، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة وتعضوا

عهدم خرج عمرو بن سالم الحزامي وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الخبر في آيات من الشعر كما يروى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لانصرت إن لم أنصركم ونجهز إلى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فهؤلاء هم الذين يكتنوا بأيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم البادئون بالأذى وقد حصل جميع ما في الآية وهو معجزة .

#### اللطيفة الرابعة « أجلمت سقاية الحاج الحج »

في البخاري عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقى ، فقال العباس : يا فضل اذهب إلى أمك فانت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها ، فقال استسقى ، فقال رسول الله أنهم يعملون أيديهم فيه ، قال استسقى ، فشرب منه ، ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها ، قال : اعملوا فإنكم على عمل صالح » .

وروى مسلم عن بكر بن عبد الله الزني قال : « كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال : مالي أرى بني عمك يسقون المسلم واللبن وأتم تسقون النبيذ ؟ أمن حاجة بكم ، أم من بخل ؟ فقال ابن عباس : الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل وإنما قدم النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فأتيناها بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة ، فقال أحسنتم أو أجلمت كذا فاصنعوا » فلا يريد تمييز ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم اه .

والنبيذ : هو التمر ينقع في الماء غدوة ويشرب عشاء ، أو ينقع عشاء ويشرب غدوة ، لكن إن غلى وحض حرم .

#### اللطيفة الخامسة « قل إن كان آباءكم وأبناؤكم الحج »

لقد تكرر في القرآن الحصف على الاتحاد فلا أمة تقوم إلا به ، والاتحاد إنما يكون بالقلوب ومتى تفرقت وجهة النظر تفرقت الأمة ، وهذا للقائم قد شرحناه مرات كثيرة في هذا التفسير والله أعلم .

ولما كان تفضيل الإيمان على حب الثمانية للتقدمة في الآية وهي : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والمشيرة والأموال والتجارة والمسكن المحبوبة يؤدي إلى اتحاد الأمة ، وضد ذلك يؤدي إلى تقاطعها وتدابرها وتمزيقها لعدم الاتحاد والالتئام ، وكان ذلك قد توافر عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجيوشه الكفاة أعقب ما تقدم بقوله ( ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ) يعني مواطن الحرب كوقعة بدر وقرية بدر والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة ، وتبلغ غزوات النبي صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة ، وقد قاتل في ثمان منهن .

ثم إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه ثمانون ، وخص موضعها بالذكر وهو يوم حنين فقال ( ويوم ) أي واذكروا يوم ( حنين ) واد بين مكة والطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا . وقال عروة : هو إلى جنب ذي المجاز .

أعلمنا الله بهذا أنه هو الذي يتولى نصر المؤمنين في كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له ؛ فلا ذكر مختصر الغزوة وما بهم منها ثم تأتي بالآيات بعدها .

وروى أن الغزاة في حنين كانوا اثني عشر ألفا ، منهم عشر حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا ، وكان للشركون أربعة آلاف من هوازن وقيظ ، وكان على هوازن مالك ابن عوف النضري ، وعلى كنانة ابن عبد ياليل ؛ فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار لن تلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ، فلما التقى الجمعان اقتلوا قتالا شديدا فانهزم للشركون وخلوا عن



الدرارى ، ثم نادوا بإحماة السواد اذكروا الفضائح فترجعوا وانكشف للسلون حتى بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مركزه ليس معه إلا عمه العباس رضى الله عنه آخذاً بلجام بقلته وابن عمه أبو سفيان بن الحارث ، فقال للعباس وكان صينا صبح بالناس ، فنادى يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا يقولون ليك ليك وزلت اللاتكة فاتفقوا مع الشركين فقال عليه الصلاة والسلام هذا حين حمى الوطيس : أى اشتدت الحرب ، والوطيس : التنور ، ثم أخذ صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، وقال شاهد الوجوه ، فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين ، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم وأعطى للؤلؤة قلوبهم ما لا كثيرا كأبي سفيان والحارث بن هشام وسهبل بن عمرو والأقرع بن حابس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن ، كل واحد مائة من الإبل ، وأعطى عباس بن مرداس أقل من ذلك فأئشد شعرا في ذلك فشكل له المائة ، ولم يسط الأنصار شيئا وأهمهم أنه يتألف حديثي العهد وأنه هو نفسه معهم فرضوا بذلك .

فلنفسر الآيات ، يقول الله ( ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تفتح عنكم شيئا ) من الإغناء ( وضقت عليهم الأرض بما رحبت ) أى مع رحبها وهى في موضع الحال : أى ملتبسة برحبها كقولك دخلت عليه بتياب العز : أى ملتبسا بها ، والقصود أنهم لم يجدوا موضعا لفرارهم عن الأعداء ، فكأن الأرض ضاقت مع ما هم عليه من السعة ( ثم وليتم مدبرين ) منزهمين ( ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ) الذين انهزموا ، والسكينة : الطمأنينة ، فإن الحائف يرتجف غير مستقر ، والأمن في سكون ، فالسكينة كناية عن الأمن ذلك أن جمع هوازن وبني النضر رشقوا الفزاة من المسلمين بالبال وكانوا لا يخطئون الرمي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بقلته البيضاء فنزل ودعا واستنصر وقال : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ؛ وذلك حين حمل السلون على القنم فشتلتهم وكان ما كان ( وأنزل جنودا لم تروها ) بأعينكم ، يعنى اللاتكة . وقد اختلفوا في عددهم ، ولقد سبق القول فيهم في آل عمران والأفعال .

وروى أن رجلا من نضر يقال له شجرة ، قال للمؤمنين بعد القتال : أين الحيل الباق والرجال عليهم ثياب بيض ؟ ما كنا نراهم فيكم إلا كهيئة الشامة وما كان قتلنا إلا بأيديهم ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك اللاتكة . وروى أن رجلا من الشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم ، فبينما نحن نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البطة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فتلقانا عنده رجال بيض الثياب حسان الوجوه ، فقالوا لنا شاهدت الوجوه ارجعوا فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها ، انتهى .

واعلم أن هذه الروايات لم ترد في الصحيح وقد تقدم تحقيق اللقاة في الأفعال فتضطن ( وعذب الذين كفروا ) بالقتل والأسر والسبي ( وذلك جزاء الكافرين ) أى ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا ( ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ) وقد تاب على بعض هؤلاء بأن وقفهم للإسلام ، فإن ناسا منهم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا وقالوا يا رسول الله أنت خير الناس وأبرهم وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا ، وكان السبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى ، فقال صلى الله عليه وسلم اختاروا إما سبائكم وإما أموالكم ، فقالوا ما كنا نمدل بالأحساب شيئا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن هؤلاء جاءوا مسلمين وإنا خيرناهم ما بين الدرارى والأموال فلم يمدلوا بالأحساب شيئا فن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشاها ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه ، فقالوا رضينا وسلمنا ، فقال إنى لأدري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرضوا

إنا فرغوا منهم قد رضوا ، ثم خاطب الله للؤمنين في شأن للشركين قائلاً ( يا أيها الذين آمنوا إنما للشركون نجس ) لما في نفوسهم من الحث والرجس وما في عقائدكم من الزينج وما في أبدانهم من القدر فلا يتطهرون وما عذم من الحدث الأصغر والأكبر كالجنابة فلا يتنفلون وما في أعمالهم من الأذى فيجتنبون كما يجتنب كل ذي مرض معد وكل حيوان مفترس ، ويقول ابن عباس إن أبدانهم نجسة كالسكاب ، ويقول الحسن ابن صالح من مسى مشركاً فليتوضأ ومثله الزيدية ( فلا يقربوا للمسجد الحرام بمد عامهم هنا ) فلا يحجون ولا يمترون عند أبي حنيفة ، ويجوز للماهد دخول الحرم عنده ، أو لا يدخلون الحرم مطلقاً فنملا عن المسجد الحرام عند الشافعي وأحمد ومالك ، ولا يدخلون غير المسجد الحرام من المساجد قياساً عند مالك .

والرأد بهذا العام السنة التاسعة التي حج فيها أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على براءة وألا يحج بعد العام مشركاً كما تقدم .

أما بلاد الحباز فيجوز للكفار دخولها والإقامة فيها ثلاثة أيام ، ففي مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلماً » . وفي رواية لغير مسلم قال « أخرجوا للشركيين من جزيرة العرب » فلم يفرغ ذلك أبو بكر وأجلهم عمر في خلافته وأجل لمن يقدم تاجراً ثلاثاً ، عن ابن شهاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » أخرجه مالك في اللوطاً .

ولما كان للشركيون قد منعوا أن يقربوا للمسجد الحرام وذلك يدعو إلى عدم دخول الحرم ، فدخول الحرم اقتراب من المسجد كان ذلك داعياً أن يبقى أهل مكة جياغاً فقراء لمنع التجارات والطعام التي كان يجلبها للشركيون إليهم كل عام ، لذلك أعقبه تعالى بقوله ( وإن خضعت لغيره ) فقرا ( فسوف ينهيكم الله من فضله ) من عطائه ، وقد صدق الله وعده وأرسل السماء عليهم مدراراً وكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعا وجرش من اليمن وجلبوا الليرة الكثيرة إلى مكة ، ومما أعطاهم الله الجزية أيضاً ، وإنما قال ( إن شاء ) ليوحه الآمال إلى الله وأنه متفضل ( إن الله عليم ) بأحوالكم ( حكيم ) فيما يعطى ويمنع ( فقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ) الثابت الناسخ للأديان كلها ( من الذين أتوا الكتاب ) وهذا بيان للذين لا يؤمنون ( حتى يعطوا الجزية ) أي ما تقرّر عليهم ، وهذا مشتق من جرى دينه إذا قضاها حال كونها ( عن يد ) أي قدما مسلمة من يد إلى يد أو موانية غير ممتنة : أي متقادين أو مسلمين بأيديهم فلا يبشونها بأيدي غيرهم أو عن غنى لأنها لا تؤخذ من الفقراء عند بعضهم أو عن يد فاهرة فوقهم أو عن إتمام ، لأن جاءهم وأخذ الجزية منهم نعمة عظيمة .

فهذه خمسة معان وكلها لاتنافي بينها لأنهم أذلاء ، والقهاريون لهم أقوياء ويسلمون الجزية وينعم عليهم وهكذا ( وهم صاغرون ) أذلاء وإنما كان هؤلاء لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الخ ، لأنه سيأتي أن اليهود يصلون عزيراً ابن الله والنصارى يحملون المسيح ابن الله وهم يتخذون الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله في التشريع فيحللون ويحرّمون كما يشاءون ، فهذا قوله « لا يؤمنون بالله الخ » وأما قوله « ولا يحرّمون الخ » فإنهم لا يحرّمون ما حرّم الكتاب والسنة فلا يحرّمون الخمر والخنزير .

(١) ثم إن الجزية تؤخذ من اليهود والنصارى من غير العرب بالإجماع .

(٢) وتؤخذ من الربي كتابياً كان أو مشركاً عند أبي يوسف .

(٣) وتؤخذ من أهل الكتاب عرباً أو عجمياً عند الشافعي .

(٤) وتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجمياً ومن مشركي النجم ولا تؤخذ من مشركي العرب عند أبي حنيفة .

- (٥) وتؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد عند مالك والأوزاعي .  
 (٦) وتؤخذ من الجوس باتفاق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .  
 مقدار الجزية

- (١) لاشي\* على الفقير الذي ليس كسوبا .  
 (٢) وعلى الفقير الكسوب ١٢ درهما .  
 (٣) وعلى للتوسط ٢٤ درهما .  
 (٤) وعلى الثنى ٤٨ درهما ، وهذا مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه .  
 ولا تؤخذ الجزية من الصبيان ولا النسوة ولا العبيد ، وقد قدرت أيضا بدينار ودينارين وأربعة دنانير للفقير والتوسط والثنى ، وقال أصحاب الشافعي : لا تجوز الزيادة على دينار إلا بالتراضي فالديناران والأربعة للتوسط والثنى عند التراضي وإلا فلا .

#### مناكة الجوس والصابئين وذبايحهم

اتفقوا على تحريم ذبايح الجوس ومناكبتهم بخلاف أهل الكتاب ومن دخل في دين اليهود والنصارى قبل النسخ حكمه حكم اليهود والنصارى تحل مناكبتهم وذبايحهم ، والصابئون والسامرة مثلهم مثل أهل الكتاب فهم كأهل البدع في المسلمين .

ثم أخذ الله سبحانه يبين سبب أخذ الجزية منهم مع أن لهم ديناً وكيف يصفهم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقال ( وقالت اليهود عزيز ابن الله ) وذلك لأن يختصر قتل كل من يحفظ التوراة ، وكان العزيز قد أماته الله مائة عام ، فما أحياه الله قال لقومه : أنا أملئ عليكم التوراة حفظاً فتمجبوا من ذلك وقالوا ما هذا إلا أنه ابن الله ، ألا ترى أن اليهود لما سمعوا هذا القول لم يكذبوه وكانوا مغرمين بالكذب ( وقالت النصارى المسيح ابن الله ) لأن الولد الذي لا أب له مستحيل عادة ، ولأن إراء الأكنه والأبرص وإحياء الموتى لا يقوم بهما إلا من كان إلهاً .

ويقال إن النصارى كانوا على الدين الحق بعد رفع المسيح إحدى وثمانين سنة يصلون ويصومون حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له ( بولس ) قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ، ثم قال بولس لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ، ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاوم عليه ففرقه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم إنه أتى إلى النصارى فقالوا له من أنت ؟ قال أنا عدوكم بولس فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تنتصر وقد ثبت وأثبتكم ، فأدخلوه الكنيسة ونصروه وأدخلوه بيتاً منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال قد نوديت من السماء أن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ، ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يقوب والآخر ملكان ، فلم نسطور أن عيسى ومريم والإله ثلاثة ، وعلم يقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله . وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال ، فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلو وقال له أنت خالصي وادع الناس لما علمت وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد ثم قال لهم إنى رأيت عيسى في المنام وقد رضى عني وقال لكل واحد منهم سأذبح نفسي تقريباً إلى عيسى ثم ذهب إلى اللذيع فذبح نفسه ، وتفرق هؤلاء الثلاثة فذهب واحد منهم إلى الروم ، وواحد إلى بيت المقدس ، والآخر إلى ناحية أخرى ففرق الناس فرقا بهذه اللذاهب .

واعلم أن هذه الحكاية وإن كان لا دليل يقطع بصحتها تقرّب الحقيقة لمن يريد أن يعرف اختلاف المسيحيين ، ألا ترى أن اختلاف المسيحيين بعد تلك الأيام كان على هذا للنوال تأمل .

#### حقيقة هذه المسألة في التاريخ

يقول المحققون من علماء العصر الحاضر : إن بولس رجل فريسي ويعرف اللغة العبرية فاحترق في بادي الأمر الرسل ولم ير المسيح ولا سمع كلامه ومع ذلك ادعى أنه قد خصت به المعرفة وحده وأخذ يخاصم بطرس ويوبخه فتألف إذ ذاك أي بعد موت المسيح بشر سنين صنفان من النصارى : صنف يتبع من بقي من الرسل في أورشليم ، والثاني تابع لبشارة بولس الذي ادعى أنه أوحى إليه من المسيح ذاته ، وبعد حين عمّد اليهود على نيرون فنشبت الحرب في اليهودية بقيادة فسباسيانوس الروماني ثم ابنه طيطس وانتهت بافتتاح أورشليم عام (٧٠م) وخرّب الهيكل وتفرق اليهود أشتاتا ولم يبق من الرسل إلا يوحنا وفيلبس ، ولم يبق إذ ذاك من الدين إلا أحاديث متفرقة على السنة الأساقفة واختلطت تعاليم الكنائس بتعاليم الفلسفة اليونانية وما جاء آخر الجليل الأول حتى نشأت عدة قصص وروايات سميت أناجيل وقد أحصى منها في الجليل الأول والثاني (٣٥) إنجيلا وصاحب الإحصاء هو فابريسيوس ، واختيار الأناجيل الأربعة كان في الجليل الثاني ونسبتها إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا من الشياكل التي تعذر على العلماء حلها .

#### تأنيج الخلاف في النصرانية

في سنة ٣٨٤ م أصدر البابا داماسيوس إلى مارابرونيجوس أن يحرّر ترجمة لانيبية جديدة من المهددين القديم والجديد وكان ( تيودوسيوس ) للملك في ذلك العهد قد ضجر من المخاصمات فأصدر أمرا أن يكون حق التولية لأسقف رومة وحده وعلى النصارى عموما اتباعه .

#### تنازع النصارى في أمر المسيح

كانت كنائس النصرانية في أول الجليل الرابع منقسمة إلى حزبين الواحد يقرّ بالوهية للمسيح والآخر ينكرها ، وفي سنة ٣١٢ ظهر أريوس فجعل أن للأب والابن جوهرين متميزين ، والثاني خليفة الأول وإذن فهو ليس بالله ، وكان أريوس هذا واسع العلم ذا خلق حميد فاتبعه خلق كثير . ولما رأى إسكندر أسقف الإسكندرية ذلك استدعى بعض الأساقفة وألقوا مجمعا لعنوا فيه أريوس وتعلميه ، فكثرت النزاع والشقاق على هذه المسألة حتى قلقت النفوس وضجرت الأمة كلها واهتز عرش الملك قسطنطين فأرسل رسالة على يد أوزيوس إلى كل من أريوس وإسكندر وبخهما فيها على هذا الخلاف التافه الذي لاعلم لأحدهما بحقيقته . ودام الخصام والجدال واشتدّ ولم تنفع رسالة الملك فأمر الملك بمجمع في نيقية سنة ٣٢٥ .

ومن عجب تطابق أقوال المؤرخين أن هؤلاء الآباء كانوا يتشائمون ويتقاتلون ويذم كل منهم الآخر بفضائح لا حد لها ، ونصر قسطنطين الملك الوهية للمسيح ونفى الأريوسيين ثم رجعوا من للنقي منتصرين ودخلوا الإسكندرية فاضطر قسطنطين أن يقيم مجمعا في أنطاكية فأبطل مذهب إسكندر السمي (أورثوذكس) أي مستقيم الرأي ومات أريوس فجأة وهو محمول على أعناق أصحابه بالعز والأبهة ، ومات قسطنطين سنة ٣٣٧ بعد أن قسم الملك بين أولاده الثلاثة قسطنطين وقسطنس وقسطنطية ونوات المجمع بعد ذلك على هذا للنوال .

فلنتظر أيها الذكي كيف كانت الحكاية الأولى للنفولة عن المفسرين - وإن كانت محطنة في التاريخ وفي الرواية - قد أفادت أن هذا الخلاف له حقيقة ، وكيف تبين أن بولس الرسول كان له زعة خاصة ، وكيف كانت الوهية للمسيح وعدمها شعلا شاعرا للدولة الرومانية ، وكيف أدى الأمر إلى أن الملك تيودوسيوس انقصر أمر أن يتبع النصارى كلهم البابا (داماسيوس) ومن يخالفه يعاقب ، ولكن الأريوسيين كانوا كثيرا جدا

فلم يوافقهم ، فاحتال القديس ( أميلوك ) بحيلة أوجبت أن للكل يساقب من لا يقول بألوهية المسيح .  
فانظر كيف اهتزت العروش وعظمت للصاب وتقاتلت الأحزاب ، كل ذلك على ألوهية المسيح  
وعدم ألوهيته .

ولما كان قول اليهود والنصارى لادليل عليه بل هو مصيبة عمياء كما عرفت من حقائق التاريخ ،  
قال تعالى ( ذلك قولهم بأفواههم ) مجرد عن البرهان والتحقيق مهمل لا محل له سوى الأفواه كما قال القيصر  
للإسكندر ولاريوس ، وقوله تعالى ( يضاهنون قول الذين كفروا من قبل ) أي يضاها قولهم قول الذين  
كفروا من قبل .

ومعنى هذا أن هناك ديانات في الأمم السالفة قبل التاريخ في مصر والعراق وبلاد الكسبيك قبل افتتاح  
أمريكا كانت فيها هذه الحرافات . انظر هذا المقام في سورة البقرة في أوائلها فقد تبين هناك أن دين التثليث  
وكون الله له ابن ملأئت للسكونة ووجدت في الهند فارجمع إليها إن شئت تر العجب العجيب وكذلك في آخر  
سورة المائدة ، وهذا أيضا من معجزات القرآن .

ولعمري لم يعرف الناس أن هناك ديناً قبل الدين المسيحي يقول بآبى الله وبألوهية ذلك الابن إلا في هذا  
الزمان فموجب من عجائب القرآن ، وهذا واضح كل الإيضاح في آخر المائدة فيما تقدم ، قال تعالى ( قاتلهم الله )  
دعاء عليهم بالهلاك وتعجب من شناعتهم ( أفي يؤفكون ) كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل . ثم أخذ  
الله سبحانه يبين أنهم لم يقتصروا على عبادة المسيح وعزير ، بل جعلوا الأجرار والرهبان أرباباً من دون الله ،  
والأجبار علماء اليهود ، والرهبان أصحاب الصوامع في النصارى ، ومعنى كونهم أرباباً أنهم يحرمون لهم  
ويعطلون وهم لهم مقلدون .

وعن عدى بن حاتم قال « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدى اطرح  
عنك هذا الوزن وصمته يقرأ في سورة براءة « اتخذوا أجرارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال أما إنهم  
لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » . قال عبدة  
ابن المبارك :

وهل بدّل الدين إلا الملو ك وأجبار سوء ورهبانها

لقد وقع القوم في جيفة يبين لدى العلم اتانها

وهذا هو قوله تعالى ( اتخذوا أجرارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ) وهذا الآخر  
اعتقدوا فيه الألوهية كما تقدم قال تعالى ( وما أمروا إلا ليعبدوا لها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون )  
أي تعالى الله وتنزهه عن أن يكون له شريك في العبادة ( يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ) أي يريد  
رؤساء اليهود والنصارى أن يضلوا في الإسلام فعل من يمدد إلى نور عظيم كالشمس ليطفئه بنفخة بضمه  
وما هو بمستطيع ذلك .

فكبهذا دين الإسلام ودلائله الباهرة ومعجزاته الظاهرة ، وقد تصدّى هؤلاء لدحضه ومأمم بضاربه  
شيئاً لقوته البرهانية وحبته القوية ( وآبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون ) أي وآبى الله إلا أن يعل  
دينه ويظهر كلمته ويتمّ الذي أرسل به نبينا صلى الله عليه وسلم وأن الذي يآبى إلا أن يتمّ نوره ( هو الذي  
أرسل رسوله بالهدى ) القرآن ( ودين الحق ) الإسلام ( ليظهره ) ليعلمه ( على الدين كله ) على سائر الأديان  
فيكون متبعوه لهم السلطان الأكبر في الكرة الأرضية ويقهرون فارس والروم وهذا كله في الزمان الأول  
أما فيما بعد في مستقبل الزمان فيظهر في أمة الإسلام أناس يحملون الأمانة على بند الجلود والتحلّى بحلّى النجوم  
والرفان وإذ ذلك برقى المسلمون ويكون بأيديهم مقاليد الرطة والسياسة والحكمة والعلم ، وفي ظنى أن

زماننا هو مبدأ ارتقاء للسليين إذ يقومون بمهمتهم في العالم ويحكمون الناس بالحق بعد أن يرتقوا ويتسماوا في العارف ، وبدل على هذا ما روى عن أبي هريرة في حديث زول عيسى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ويهلك في زمانه للكل كلها إلا الإسلام » .

عن القداد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يبق على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما جزع عزير أو بذل ذليل » أي إما أن يعزم فيجعلهم من أهله فيعزوا به وإما أن ينلهم فيدينون له ، وهذه الجملة كالبیان لقوله « وبأبي الله إلا أن يتم نوره » ولذلك كرر « ولو كره المشركون » غير أن الكفر هناك يدل بالشرك هنا إعلاما بأنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله .

ولما كانت الآيات للتقدمة قد أبانت أن الأحبار والرهبان في حكم الآلهة عند أهل الكتاب أخذ يبين هنا سبحانه وتعالى أنهم غير مؤتمنين في أحكامهم التي يحكمون بها وأن أهل الكتاب قد استأنموا من ليسوا بأمناء قتال ( يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان لياكلون ) أي ليأخذون لأن الأكل أهم مقاصد الأخذ فغير عنه به ( أموال الناس بالباطل ) لأنهم يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والساعة في الأحكام ويعترفون صفات النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في كتبهم استبقاء للرياسة وحفظا لما ينالونه من المال ببقاء الرياسة التي يذهبها اعتناق الإسلام ( ويصدون عن سبيل الله ) ويمنعون الناس عن الإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم ( والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ) سواء أكانوا من الأحبار والرهبان أم من السليين .

وللإشارة إلى المال المكتنوز ما لم يؤد زكاته ولو لم يكن مكتنوزا ، قال عليه الصلاة والسلام « ما أدى زكاته فليس بكنز » أي ليس بكنز أو عد عليه . وقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما عدوا بنزول هذه الآية : « لو عدنا أي المال خير لا نخذناه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة سالحة تعين المؤمن على إيمانه » .

وقد ورد في حديث مسلم الوعيد الشديد على من لم يؤد زكاة الذهب والفضة « وأنها تصفح له صفائح من نار فيحسى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وظهره ككأردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الصباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وهكذا قال في الإبل : وجعل من حقاها حلبها يوم ورودها وإن لم يؤد حقاها فإنه يطرح لها بقاع قرقر فهي تطؤه جميعا بأخفافها وتعضه بأفواهاها كما سرت عليه أولها ردة عليه أخرها الخ » وهكذا قال في البقر والغنم ، والقاع القرقر : هو المستوى من الأرض .

وهكذا جاء في حديث البخاري « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه (شذقيه) ثم يقول أنا مالك ، أنا كنزك ثم تلا - ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم » الآية ، والشجاع : الحية ، والأقرع : صفة له بطول العمر ، فإنه إذا طال عمره تمزق شعره وهذه صفة أخت الحيات ، والزبيبتان : هما الزبيبتان في الشديقين .

وهذا كله وعيد لمن لم يؤد الزكاة ، ولذلك قال تعالى ( فيشرهم بنذاب أليم ) وهو السكى ( يوم يحصى عليها ) أي يوم توقد النار ، فلما حذفت النار فلم تكن فاعلا وأسند الفعل إلى الجار والمهورر وهو عليها قيل يحصى بالتحية كما تقول : رفعت الفضة إلى الأمير ومتى حذفت القصة قلت رفع إلى الأمير ( فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ) لأنهم إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم مجلس وإياه ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم وهذا المناب يشمل الجهات الأربع القدام والمؤخر واليمين ، ويقال لهم ( هذا ما كنتم لأنفسكم ) لمنعتها قد صار مضرتها وعذابها ( فذوقوا ما كنتم تكفرون ) أي وبال كنزكم .

ولما كان اللقار في قتال الكفار إذ قال تعالى آتفا « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الخ » وذكر  
الجزية واستطرد بذكر ما كفر به اليهود والنصارى وما تبع ذلك من حرص أحبارهم ورهبانهم على المال  
والرشوة أخذ يتمم اللقار بذكر مسائل أخرى من مسائل الحرب وهي الأشهر الحرم التي كان العرب يعرّمون  
فيها القتال اتباعا لدين إبراهيم عليه السلام ، وأخذ سبحانه يحقق الأمر فيها فأفاد أن الشهور العربية  
اثنا عشر شهرا .

وأما الشهور الشمسية فليس المسلمون مكلفين بحسابها ولا باتباع نظامها فقال ( إن عدة الشهور عند  
الله ) أي مبلغ عددها ( اثنا عشر شهرا في كتاب الله ) وهو ما أثبتته وأوجه في حكمه أو في اللوح المحفوظ  
( يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ) والأشهر العربية المذكورة أولها الحرم وآخرها ذو الحجة ،  
والأربعة الحرم هي ذو القعدة للعمود عن القتال فيه ، وذو الحجة للحج ، والحرم لتحريم القتال ، فهذه ثلاثة  
سرد وواحد فرد وهو رجب لترجيّب العرب إياه وتعظيمهم .

فالأشهر العربية مبنية على سير القمر بتدبها للمسلمون في صياهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وأحكامهم ،  
وهذه السنة ٣٥٤ يوما ، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ٣٦٥ يوما وربيع  
يوم فيبينها نحو ١١ يوما .

ولما كان هذا اللقار علاقته بالحرب عظيمة ناسب أن يذكر من أجل النسيء الذي كانت تفعله العرب  
في الجاهلية فكان يقع حجهم تارة في وقته وتارة في الحرم وتارة في صفر وتارة في غيره من الشهور كما  
سيأتي ، وإنما سميت الأربعة حرما لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتعرّم فيها القتال حتى إن أحدم  
لوقى قاتل أبيه وابنه وأخيه في هذه الأربعة الأشهر لم يهجه ، ولما جاء الإسلام لم يزد لها إلا حرمة وتعظيما ،  
فالحسنات فيها مضاعفات والسيئات كذلك ( ذلك الدين القيم ) أي ذلك الحساب السقيم والعدد الصحيح  
الستوى ، فالدين هنا الحساب كما قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه - أي حسب نفسه - وعمل  
لما بعد الموت » ( فلا تظلموا فيهن أنفسكم ) أي لا تظلموا أنفسكم في الأشهر الحرم ، فالعمل الصالح فيها أعظم  
أجرا والغالم فيهن أكثر نجا ، أولا تظلموا فيهن أنفسكم باستحلال الحرام والنارة فيهن كما قال ابن عباس من  
جهة ومن جهة أخرى لانجملوا حلالها حراما ، وحرامها حلالا بالنسيء الآتي ذكره كما قال محمد بن إسحق ،  
وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا .

وهذا خلاف ما عليه الأكثرون لأن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين في شوال وذى القعدة  
( وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ) أي حال كونكم جميعا ( واعلموا أن الله مع التقيين ) بشارة  
وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم ، فإذا قاتلوا المشركين مجتمعين لامتفرقين نصرنا على عدوهم ، فإن تخاذلوا  
فليس الله معهم بالنصر .

والتقوى من لوازمها الاتحاد والتعارف ، فذلك كان الله مع التقيين ( إنما النسيء : زيادة في الكفر ) النسيء  
لغة التأخير كالنسيئة في البيع ، والنسيء هنا تأخير شهر حرام إلى شهر آخر بالهوى والنرض ، وقد كانت  
العرب تعظم الأشهر الحرم على دين إبراهيم ، وعامة قريش كانت تمتنع فيها من الصيد والنارة ، وقد تقع  
الحروب في بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخيرها إلى الأشهر الحلال فنتشوا : أي أخروا تحريم شهر  
إلى شهر .

وكان يقوم بهذا بنو مالك بن كنانة وكان يقوم للوكل به منهم في الموسم ، فإذا هم الناس بالانصراف  
نام خطيبا وقال : لا مرد لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ، فيقول له المشركون : لييك ، ثم يسألونه أن

ينسبهم شهرا يبرون فيه فيفضل ، فيقول مثلا : صفر في هذا العام حرام ، فإذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسننة والأزجة من الرماح ، وإن قال حلال غفدوا القسي وركبوا الأسننة في الرماح وأغاروا ، وفي أيام التبوّة كانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم كذلك ، وهكذا فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع الرّثة الثانية من ذي القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف صلى الله عليه وسلم بحرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر بمخى وأعلمهم أن أشهر القسي قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض ، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما في البخاري « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ثم حرم الدماء والأموال والأعراض وحذر الناس من لقاء ربهم وهم مذنبون وهو يأثمهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليلنح الشاهد منكم القائب فربّ مبالغ أوعى من سامع » وحذروهم من أن يضرب بعضهم رقاب بعض في كل حال ، فليس التحريم خاصا بالأشهر الحرم بل عم سائر السنة ، فالتحريم أصبح في الإسلام محرما عاما لافرق بين الأشهر الحرم وغيرها .

ويظهر مما تقدم وهو أنهم كل سنتين يحجون في شهر من أشهر السنة أنهم ضلوا السبيل لأن الفرق بين السنة الشمسية والقمرية يقتضى أن يكون الحج في كل شهر ثلاثة أشهر إذا كان لغرض أن يبقى الحج في وقت معين من السنة كالشتاء أو كالربيع ولن يستقيم هذا إلا بما ذكرنا وتدور السنة في ٣٣ سنة ، وأما على ما نقله العرب فإنها تدور في ٣٤ سنة وهذا خطأ منهم وضلال ، فلام أقاموا على الأشهر القمرية ولا هم عرفوا كيف يوفقون إلى الأشهر الشمسية التي تهدي الناس إلى حقيقة الفصول .

ولما كان أمر السنة الشمسية محتاج إلى حساب وكان الإسلام عاما للأمم الجاهلة والمالئة وأن الأمم الجاهلة إذا أرادت التوفيق بين الحسايين ضلت سواء السبيل .

أمر الله جميع المسلمين أن يسروا على السنن القويم وهي السنة القمرية التي هي أسهل لجميع الناس وإن كانت أشق ، لأن الحج يدور في الفصول الأربعة كل ثلاث وثلاثين سنة مرة ويحج الناس في كل فصل تسع حججات تقريبا ويذوقون الحرّ والبرد لزيادة الثواب .

فإذن محاولة التوفيق بالنسي من الأمم الجاهلة ضلال في الحساب وخطأ ، فلذلك قال تعالى ( يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا أي يوافقوا ) عدة الأربعة المهرّمة وحدها من غير مراعاة الوقت ( زين لهم سوء أعمالهم ) حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا ( والله لا يهدي القوم الكافرين ) هداية موصلة إلى الحق .

ولما انتهى سبحانه من تحقيق زمن التحريم وتبيان الأشهر الحرم وغيرها أخذ يحث المؤمنين على القتال ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم ، وكان ذلك في زمان عمرة من الناس وشدة من الحرّ حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فنزاهها في حرّ شديد واستقبل سفرا بيّدا ومفاوز وعددا كثيرا وحلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوّهم فشقّ عليهم الخروج إلى الجهاد فتشاقفوا ، فأنزله الله ( يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا ) أخرجوا ( في سبيل الله اتاقلتم إلى الأرض ) تشاقلتم أدغمت التاء في التاء فسارت تاء ساكنة فدخلت ألف الوصل ، وضمن اتاقل معنى مال ، فمدى بالي : أي ملنم إلى الدنيا وشهوانها وكرهتم مشاقّ



السفر ومتاعبه فلتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ( أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ) بدل الآخرة ( لما متاع الحياة الدنيا في الآخرة ) في جنب الآخرة ( إلا قليل ) يعني أن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفذ عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد ، وهذا يدل على وجوب الجهاد على كل حال وفي كل وقت لا فرق بين الأشهر الحرم وغيرها ، وهنا لطائف ثلاث :

### اللطيفة الأولى تحقيق الكلام في الأشهر الحرم

اعلم أن علماءنا وإن اختلفوا في الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها هل هو منسوخ ؟ فإنك عند التحقيق تجد الأمر أكبر من أن يختلف فيه فهم متفقون وإن كان كثير من الناس لا يعلمون .

وبيانه أن دين إبراهيم الذي كانت العرب تزعم أنها متمسكة به جعل القتال في الحرم محرماً وكذلك في الأشهر الحرم للتقدمة ، فأما بقية السنة وبقية الأرض فالقتال فيها لا حرمة فيه ، فلما جاء الإسلام حرّم الله فيه على الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم كما جاء في خطبة الوداع فنصار التحريم راجعاً إلى نفس الأعراض والأموال والدماء في كل زمان وكل مكان ، فلا دخل إذن للزمان ولا دخل للسكان ، وإنما للدار على نفس الأعراض والأموال والدماء ، وهذا واضح جلي .

هذا من جهة ومن جهة أخرى أن هذه السورة قد استبان فيها أن العرب الذين هم متمسكون بالأشهر الحرم قد أزموا باتباع الإسلام وأن بلاد العرب لا يجتمع فيها دينان فأصبح هؤلاء محرماً عليهم بطريق الدين كل حرب وكل غارة في الأشهر الحرم وغيرها .

بقي أن نقول ماذا يفعلون مع الأمم الأخرى كفاروس والروم ؟ فنقول : إن هؤلاء لا يعرفون ماهي الأشهر الحرم ولا ماهو دين إبراهيم بل لهم دين آخر ، لأن الأشهر الحرم عند العرب لدينهم والعرب أسلموا ، فبعد أن كان التحريم عندهم في أشهر معينة أصبح في جميع الدهر فإذا لمعنى لتحريم القتال في الأشهر الحرم ألبتة ، فإن كان في بلاد العرب فهو تحصيل حاصل وإن كان في غيرها مع الأمم الأخرى فهو لا قيمة له ، لأن هذه الأمم لا تحترم إلا القوة ولا تتقيد بزمان ولا مكان .

إذا فهمت هذا عرفتم السرّ في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم افرّوا الخ » ولم يقبدها بزمان ، لأن هذه أول غزوة غزاها المسلمون للروم بعد ما فرغوا من قتال العرب فوجب أن يضرب المسلمون الذكر صفحا مع الروم عند الأشهر الحرم وينزوم .

وهذا هو السرّ في الإطلاق وقطع النظر عن الأشهر الحرم فتسبب من أسرار القرآن وحكمه العربية العجيبة .

وبهذا تبين لك من يقول إن تحريم القتال فيها غير منسوخ ومن يقول إنه منسوخ فكلاهما حق من وجه ، فمن قال إنه غير منسوخ فهو صادق من وجه ، لأن الأشهر الحرم وغيرها يحرم فيها قتال المسلمين للمسلمين من العرب وغيرهم ، ومن قال إنه منسوخ فهو حق من وجه ، وذلك أن قتال الفرس والروم مباح في الأشهر الحرم وغيرها إذ لا معنى لتحريم القتال فيها معهم وهم لا يحرمون ذلك ، وبهذا انضح اللقاه وزال الإبهام ؟ فالحمد لله الذي أهدانا لهذا وما كنا لنكن نعلم .

### اللطيفة الثانية

الشهور العربية والأفرنسية والقبطية وعلّة تسميتها بأسمائها المعروفة الآن

الشهور عند العرب

اختلف المؤرخون في أسماء الأشهر في الجاهلية الأولى ، فقيل إن الأشهر العربية للستمة اليوم وضعت في عهد كلاب بن مرة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك قبل الإسلام بقرنين وعدتها اثنا عشر شهراً ، وقد وضعت أسماءها أصلاً لبيان الأحوال وأطلقت على الأزمنة ، وهي :

(محرم) سمي كذلك لتحريم القتال فيه حتى إن له ثأر .  
 ( صفر ) سمي كذلك لما كان يعترى العرب من مرض في ذلك الشهر تصفر منه ألوانهم ، وقيل لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا فيه إلى الحرب أثر قعودهم عنها في محرم .  
 ( ربيع الأول و ربيع الثاني ) سميا بالربيع لأنهما كانا يأتيان في الحريف ، وكانت العرب تسمى الحريف ريبا .

( جمادى الأولى وجمادى الثانية ) سميا بذلك لإتباتهما في الشتاء عند جمود الماء ووقع الجليد حيث تجف الأرض وقلّ الزرع والنبت .

( رجب ) سمي بذلك لأنه كان يقال فيه ارجبوا : أي كفوا عن القتال ، فكانت العرب تعظمه ونهاه وسمي بالفردي لأنه منفرد عن باقي الأشهر الحرم المتوالية .

( شعبان ) سمي بذلك لانشاب القبائل فيه إلى طلب المياه والغارات .  
 ( رمضان ) سمي بذلك لأنه كان يأتي حيث يبدأ الحرّ وترمض الأرض ، وقيل لاشتداد حرّ جوف الصائم وهو ضعيف .

( شوال ) سمي بذلك لقولهم : شولوا أي ارتحلوا ، وقيل لقلة المياه فيه لأن شول الماء بمعنى قلّ ، وقيل لأن الإبل كانت تشول فيه بأذنانها لشهوة الضراب ولقد لم تكن العرب تميز فيه الزواج .  
 ( ذو القعدة ) سمي بذلك لقعود العرب فيه عن القتال .  
 ( ذو الحجة ) سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه .

#### الشهور عند الافرنج

وضعت أسماء هذه الشهور في أيام المملكة الرومانية الأولى وهي :  
 ( يناير ) مأخوذ من ( يانوس ) وهو معبود خرافي كانوا يمثلونه بوجهين ينظر بأحدهما السنة النصرمة وبالآخر إلى السنة للقبلة .

- ( فبراير ) مأخوذ من ( فبروا ) وهي معبودة الطهارة عند الرومان .
- ( مارس ) مأخوذ من مارس معبود الحرب عندهم .
- ( إبريل ) مأخوذ من كلمة أيريري : أي فتح بالرومانية لأن الزهور تفتح فيه .
- ( مايو ) مأخوذ من ميا وهي إحدى بنات اللارد أطلس ( خرافة ) .
- ( يونيه ) مأخوذ من يونون زوجة ( جوبتر ) رئيس المعبودات .
- ( يولييه ) سمي بذلك تذكارا ( ليوليوس قيصر ) واضع التقويم اليولياني .
- ( أغسطس ) سمي به تذكارا لحلفه أغسطس أول أميرة الرومان .
- ( سبتمبر ) معناها هذا الشهر السابع باعتبار أول السنة ( مارس ) كما كان قديما .
- ( أكتوبر ) معناها الشهر الثامن باعتبار أول السنة ( مارس ) كما كان قديما .
- ( نوفمبر ) معناها الشهر التاسع باعتبار أول السنة ( مارس ) كما كان قديما .
- ( ديسمبر ) معناها الشهر العاشر باعتبار أول السنة كما كان قديما .

#### الشهور القبطية

انتقلت أسماء تلك الشهور من قدماء المصريين واضعها إلى نسلهم من أمة القبط ، وقد سمي المصريون الشهور بأسماء آلهتهم التي كانوا يعبدونها في سالف العصور وكانوا يقبلون الاحتفالات كل شهر باسم المعبود للسمي به الشهر في هيكله للكوس له .

(توت) هو رأس السنة القبطية وأصل اسمه بالهيروغليفية (تهوت) أى إله الحكمة ، وكان يسميه المصريون للتأخرون إله العلم والقلم ويحتفلون به عن بكرة أبيهم بإقامة الاحتفالات الشائفة فى أنحاء القطر تعظيماً لعبد هذا الإله الذى كان يقع فى أول يوم منه ، وتستمر الاحتفالات هذه مدة أسبوع ، ولا يزال الأقباط يحتفلون به إلى الآن ويسمونه باسم (النيروز) .

(بابه) اسمه باللغة الهيروغليفية (بى تبت) أى إله الزرع حيث يخصر فيه وجه الأرض .

(هانور) اسمه باللغة الهيروغليفية (هانور) أى إله الجمال حيث يزين فيه وجه الأرض بجمال اللزروعات

(كهك) اسمه باللغة الهيروغليفية (كاهاكا) أى إله الخير أو النور للقدس .

(طوية) اسمه باللغة الهيروغليفية (طويا) أى الأعلى أو الأسى : أى إله الطر ومن اسمه مدينة

طية بالصعيد .

(أمشير) لم يستدل له على أصل .

(بزمهات) اسمه باللغة الهيروغليفية (بامونت) أى إله الحرارة حيث تتضح فيه اللزروعات لاشتداد الحر

(برموده) اسمه باللغة الهيروغليفية (بأماوت) أى إله اللوت والفناء حيث ينتهى فيه أجل المزروعات

ويفعل وجه الأرض .

(بشنس) اسمه باللغة الهيروغليفية (باخنسو) أى إله الظلام لاعتقادهم أن هذا الإله يساعد الشمس على

إزالة ظلام الليل ، فلذا يكون النهار فى شهره أطول من ليله حتى يبلغ ١٤ ساعة فى بدايته .

(بؤنه) اسمه باللغة الهيروغليفية (باونى) أى إله المعادن لأن فيه تستوى للمعادن والأحجار ، ولذا يسميه

العامة بؤنة الحجر .

(أيبب) اسمه باللغة الهيروغليفية (هويا) أى فرح السماء لأنه مبدأ أفرح المصريين حيث كانوا يزعمون

أن (هوريس) أى الشمس استقم فيه لابته (أوزريس) أى النيل من عدوه (تيفون) أى التحارب .

(مسرى) اسمه باللغة الهيروغليفية (ميشرا) أى ابن الشمس .

(أيام النسي) النسي لغة للتأخر وكان قدماء المصريين يسمونه (كوجى أنافوت) أى الشهر الصغير

انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم »

من معجزات القرآن التى تظهر فى هذا الزمان أن أكثر ما جاء فيه من علم اليوم الآخر يظهر فى مناجاة

الأرواح . ومن اطلع على كتاب الأرواح الذى ألفته فى هذا اللقاه أدرك هذا العجب العجاب ، فإن قوله

« فتكوى بها جباههم الخ » وقوله فى الحديث ما معناه أن البقر تطأ صاحبها بأرجلها وهكذا النعم وكذلك

الإبل تطؤه بأخفافها وتدور على ذلك خمسين ألف سنة حتى يتم حسابه ويدخل إما جنة وإما ناراً فما تقدم ،

وكذلك حديث البخارى للتقدم وأن أخبت الحيات للبر عنها بالشجاع الأقرع تطوقه وتقول له أنا كنتك

أنا مالك . وتبيان الحديث أن ماله سيمثل له .

كل ذلك دلالة أن ذلك عالم المثال وأن صور الأشياء تظهر هناك وتمذب صاحبها ، فهذا بينه مولد كور

فى الكتاب المذكور قلا عن الجمعيات الأوروبية ، ولقد حادثوا الأرواح فى أمريكا وإنكلترا وفرنسا وغيرها

فى سائر الدول فأعربت الأرواح عن ذلك وأصحت وقالت إن البخيل يذب بماله .

وهناك حكاية البيهيمين الذين لما مات الحاكم الألمانى أخذوا يعذبانه عذاباً شديداً حتى استغاث بزوجه

لما أحضرت روحه وهكذا ، وهذا كثير فى كلامهم ، فهذا بينه هو الذى ورد فى ديننا ، وتمجب كيف

يظهر سرّ القرآن في هذا الزمان ويؤيد الكشف ما سمعته الأذنان ولم تره العينان « نبأ آلاء ربك تكذبان » .

فإذن عالم البرزخ وهو ما بعد اللوت مملوء من الصور الحسنة والقيحة ، وأقرب شيء إلى ذلك الصور التي تمثل لنا في المنام وظهور صور أعمالنا بعد موتنا أظهر وأبهر وأجلى وأوضح « اقرأ كتابك كفي بنفسك اليوم عليك حسيبا - فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا - بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

فصلي للمسلمين أن يقرءوا علم الأرواح أولا وأن يقوموا بمعرفة هذا العلم فعلا نانيا ليبين بحادثة الأرواح حقائق دين الإسلام فستحدثهم الأرواح أنها تعذب بصور أعمالها ويستبين للناس إذ ذاك حقائق العلوم الإسلامية ، وهذا هو اليقين وفرق بين التقليد واليقين [ جوهرة باهرة ] .

هذه الآيات من قوله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم - إلى قوله - سبحانه عما يشركون » مظهران :

[ للظهر الأول ] آثارها في الأمم الإسلامية في أوّل ظهورها وإهال التأخرين لأنها وآثارها في الانقلاب الأوروبي الحديث .

[ للظهر الثاني ] ما جاء عن علماء الأرواح حديثا يبلاد أوروبا .

الظهر الأول وفيه مقامان :

[ للقام الأول : آثارها في أم الإسلام ]

ذمّ الله عز وجل الأحرار والرهبان وخاطب المسلمين بذلك ، خاطبهم ليكونوا سببا في تمزيق شمل رجال الدين في الأمم .

إن رجال الدين في كل أمة من الأمم القديمة كانوا يستبدون بالناس كالبراهمة الذين جعلوا الناس أربعة أقسام : فهم أنفسهم كالرأس ، ومن دونهم من الجند كالقلب ، ومن دون هؤلاء كالمدة والأحشاء ، وأدنى منهم كالرجلين ، وهكذا دين الصريين القدماء كان للكهنة السلطان الأعظم على الشعب ، فهم والفراخنة لهم السلطان الأعظم في الدنيا والآخرة ، وكل مجد وكل شرف في الدنيا والآخرة راجعان إلى الملك وإلى رجال الدين .

جاء الإسلام بهذه الآية وقال الله فيها للمسلمين ، أيها المسلمون أنتم خلفائي في أرضي فلا تجعلوا لأحد سلطانا على أحد وأهل الأرض كلهم عيالي وأنا ربهم وأنا كافلهم ، والأحرار والرهبان استبدوا بعبادي وأوهومهم أنهم ينفرون لهم وسنوا لهم القوانين فاجتهدوا بعبادي وأخرجوهم من هذا القل .

آثار هذه الآيات في صدر الإسلام

ألا تعجب من أيها الدكي ! انظر إلى أبي بكر رضي الله عنه أنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقرب الناس إليه في الدين قد عرف مقصود القرآن بمباشرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فانظر ما قال لعائشة رضي الله عنها وهو في سكرات اللوت « أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم تأكل لحم دينارا ولا درهما ولكنا قدأكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من في المسلمين إلا هذا البير وهذا البير وهذه القطيعه ، فإذا مت فابعثي بالجميع إلى عمر ؛ فلما مات بعثته إلى عمر فلما رآه بكى حتى سالت دموعه على الأرض وجعل يقول : رحم الله أبا بكر لقد أتعبت من يديه وبكرت ذلك وأمر برضه » .

وأمر أبو بكر أيضا أن يردّ جميع ما أخذ من بيت المال لتفنته بعد وفاته . وروى أن زوجته اشتهت حلوا فقال : ليس لنا ما نشتري به ، فقالت : أنا أستفضل من تفنتنا في عدة أيام ما نشتري به ، قال افعل . فضلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عرفته ذلك لبشترى به حلوا أخذه فردّه إلى بيت المال وقال هذا بفضل عن قوتنا وأسقط من تفنته بمقدار ما نقتصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له ، قال ابن الأثير بعد ما نقل هذا : والله هذا هو التقوى التي لا مزيد عليها وبحقّ قدّمه الناس الخ .

زهد سيدنا عمر رضي الله عنه

قال الحسن : خطب عمر الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة منها آدم ، وقال أبو عثمان النهدي : رأيت عمر يرمي الجرة وعليه إزار مرقع بقطعة جراب ، وقال عليّ : رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها آدم ، ومن قوله رضي الله عنه « يا أيها الناس إني ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبقراطكم ولا ليأخذوا أموالكم وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرضه إلىّ فوالذي نفس عمر بيده إذن لأقصه منه » إلى أن قال « وكيف لأقصه منه وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ألا لا تضربوا المسلمين فتدلوهم ولا تحمدوهم فتفتنهم ولا تمنوهم حقونهم فتكفروهم » اهـ . ومثل هذا روى عن سيدنا عليّ وسيدنا عثمان رضي الله عنهم أجمعين .

مضى الصدر الأوّل وأكثر القوم على هذا ، فانظر للأمم الإسلامية بعد ذلك ما كادت القرون الأولى تنتهي حتى أظلمت آفاق الأمم الإسلامية وتبعوا من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، واستبدت صغار العلماء بالمعول وأفهموا الناس أن كثيرا من العلوم لا تنفع في الدنيا والآخرة لأجل أن يتولوا هم القضاء والوصايا ويتصدّروا في المجالس واستناموا يوما عميقا محزنا وشره للولك على حطام الدنيا .

وأنا أذكرك بما نقلته في المجلد الثالث في سورة السائدة من هذا التفسير ، فقد ذكرت هناك نص ماجاء في الإحياء عند قوله تعالى « فبث الله غرابا يبحث في الأرض » وهنا نص بضمه :

[ واحترز من الاغترار بتليسات علماء السوء فإن شرّهم على الدين أعظم من الشيطان ] وهناك نجد بيان سبب ذلك ، إذ هم زينوا للناس بأفهامهم وأقوالهم الاقتصار في زمامهم على علم الفقه ، وذلك ليصدّروا في المجالس ويتولوا القضاء والوصايا ؛ فالعلم إذن مصيدة لهم بصيدون به للمال ، فرجع القوم إذ ذاك إلى أخلاق الأجبّار والرهبان الذين قال الله فيهم « إنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله » ، فإذاً يكون هذا يشبه أكل أموال الناس بالباطل وإن لم يكن باطلا من كل وجه ، وأيضا إذا صدّوا عن العلوم كما يقول الغزالي : فقد أشبهوا من يصدّون عن سبيل الله ببعض الشبه ، فإذاً تكون هذه الأمة قد تبعت من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع وأصبحت كما قال الله تعالى « ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » وهكذا صار لبعض علماء الإسلام في كثير من الأزمان من الأعمال ما اتفق للأجبّار والرهبان المذكورين في هذه الآية ، والله هو الوليّ الحميد ومنه التوفيق ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللقمة الأوّل لهذه الآيات في الأمم الإسلامية قديما وحديثا .

[ للقام الثاني : آثار هذه الآيات في الانقلاب الأوروبي ]

اعلم أن أكبر مظهر لهذه الآيات قد ظهر ظهورا واضحا في أوروبا ، ألا تصيب معي كيف كان مظهر هذه الآيات واضحا ظاهرا في أوروبا ظهور الشمس ؟ .

الا تتأمل في حال المسيحيين كيف كان (الكاثوليكية) الذين هم يسمون (ملكانية) أيضا لهم رئيس ديني وهو الأسقف العظيم والحبر الكبير والقسيس الأنظم ، من هو هذا؟ هو السمى (البابا) ومقره وسكنه (روما) بدولة (إيطاليا) فهو رئيس أهل هذا المذهب وهو كالتقطب عند المسلمين ، ومن جهة أخرى هو ملك سياسى وأهل إيطاليا كلهم على مذهبه ، وقد جعلوا للبابا السلطان الأعظم عليهم سنة ٧٢٦ م الموافق سنة ١٠٨ هجرية .

وصار البابا يترقى حتى صارت له مقاليد الدين والدنيا ، فكانت للبابوات ممالك واسعة في الأرض وكان لهم حق كبير في تولية ملوك أوروبا وعزلهم كما يشاءون ، وكان لعيرهم من الملوك ناج واحد وأمامهم فكان لهم ثلاثة تبجان واحد فوق الآخر دلالة على كمال السلطة ويديم الحرب والسلم ، وكانوا يحرقون من خالفهم بالنار وهو حق .

وقد أئزم البابا مرة أمبراطور ألمانيا أن يقف عافيا ثلاثة أيام في فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران ، ورفض البابا مرة برجله تاج ملك (جرمانيا) حيث كان جانيا أمامه يطلب الغفران . ولما استنفذ أمرهم انحطوا شيئا فشيئا إلى سنة ١٨٧١ م الموافق سنة ١٢٨٨ هجرية ، إذ ذاك سقط أمرهم بالكلية ودخل الإيطاليون إلى عاصمة ملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيسا على الكاثولية فقط ومقره في الكنيسة الرومانية وليس له من الرياسة غير ذلك .

هذا هو ملك رجال الدين الذين أشار لهم القرآن هنا ، يقول الله للمسلمين : أيها المسلمون انشروا العلم في الأمم وهذا بوا نفوسكم وكونوا للناس آباء رحماء ولا تكونوا كرجال الدين في الأمم المسيحية واليهودية الذين جعلوا الدين مصيدة لجمع المال ، يا أهل الأرض إياكم أن تأكلوا أموال الناس باسئ ولا تجعلوا ديني سبيلا لظلم عبادي ، فمن كان خليفتي في الأرض فليكن نورا مبينا للناس كالشمس لا يربد جزاء ولا شكورا كما اتفق لنعو أبي بكر وعمر وعلي وأمثالهم .

أما للتأخرون من علماء الإسلام فأكثرهم يجهلون مقصود القرآن وهكذا أهل أوروبا اتصل ملك البابا فيهم فوق ألف عام وهم خاضعون لسطوة رجال الدين فأخروا تلك الأمم ولم يستيقظوا إلا بعد أن خذلوا رجال الدين ، انظروا أيها المسلمون آثار الأمم وآثار الإسلام فيها .

(١) قال المؤرخ (كرونيوس اغريبا) عند وصفه ابتياع حل الحطايا في عصره بالمال مانسه : [ ليس من ذنب فطيع إلا أمكن حله بالدينار حتى القنلة وسفاكو النساء كانوا يشترون الحل والمعفو بالأموال الطائلة ] انتهى .

أليس هذا هو نص الآية إذ يقول هنا « إن كثيرا من الأبحار والرهبان ليا كلون أموال الناس بالباطل » وأي باطل أشد من هذا ؟ ويقول تعالى هنا أيضا « اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وأي ربوبية أعظم من غفران الحطايا ؟ فهذه ربوبية جشعة بالأموال .

(٢) ومن اطلع في مدينة (أغرس) بجهد في قبر (كرونيوس فاث لاند شودت) ماتعريه : [تنسكب السماء بالاجتهاد أو تشتري بالمال ] .

(٣) ليس من شيء مقدس إلا جعله رجال المسيحية متجرا فيتاجرون بالضائر والإيمان وضعف النفوس ، وقد جعلوا دفن الموتى بابا للثروة فيقرعون للنقش الأجراس ويشعلون له الشموع ويجعلون له البيارق والسلبان ويكسون الكنيسة برايات الحداد ويسيرون أمام جثته بالترتيل وهكذا .

ومن أعمال البابا (أوربانس) الثاني لمن (أنريكس الرابع أمبراطور ألمانيا) مع أعوانه ، وهذا بعض

هذه اللعنة : [ إنا فصلهم عن حضن الكنيسة ونلصهم أبدا ليكونوا ملعونين في المدن والساكن وفي كل أرواقهم الخ ] وهي طويلة جدا مملّة كلها لعنات .

(٤) ومن أعمال نصارى الإسكندرية سنة ٤١٥ بإيماز أسقفهم وكهنتهم أنهم اختطفوا العالمة ( هيباتيا ) ابنة ( تيون الإسكندري ) الرياضى الشهير في عصره ومزقوا جسدها إربا لأنها كانت تعلم الفلسفة ونجبت العلم والفضيلة ونجت عليهما .

(٥) وفي سنة ٧٨٢ قبض ( شرلمان الكبير ) بإيماز الحبر الرومانى على أربعة آلاف ساكنونى ونيف من مدينة ( واردن ) وضرب أعناقهم في يوم واحد لأنهم أبوا قبول المهاد .

(٦) وفي سنة ١٠٠٧ أحرقت أقواما في مدينة ( أورليان ) وهم أحياء ، وفي سنة ١١٣٤ أحرقت حيا ( بطرس برويس ) في مدينة ( لاجدوك ) لأنه أنكر صحة مموودية الأطفال ونحو ذلك .

وفي سنة ١١٥٥ قتل خنقا ( ارناودى بريشا ) لأنه نشر تعليما أرابيكيا مآله وجوب عيشة الاكليروس من عطايا المؤمنين الاختيارية فقط .

وفي سنة ١١٦٠ قام الكاثوليك على جماعة من ( القويين ) عصوا أمر البابا فأحرقوا منهم عددا كبيرا وقتلوا منهم في فرنسا ثلاثة آلاف من جملتهم كثير من الصبيان .

وفي سنة ١٢٠٩ اضطهد الكاثوليك أيضا ( الأليجين ) في مدينة ( ييزه ) فدبحوا منهم ثلاثين ألفا وأحرقوا منهم في مدينة ( لافور ) أربعة عشر إنسان دفعة واحدة وخنقوا أمير ( أراتيكيا ) بعد أن أحرقوا امرأته وبنته وأخته معا ، ثم شقوا أميرا آخر مع ثمانين شخصا من آل بيته ثم غزوا مدينة ( لاجدوك ) ودمغ البابا ( اينوشنسيوس الثالث ) غفرانا كاملا لكل الذين اشتركوا في هذه اللذاج والزوات .

وفي سنة ١١٨٤ تأسس ديوان التفتيش في مجمع ( فيرونا ) وصادق عليه البابا ( اينوشنسيوس الثالث ) سنة ١٢٠٤ وثبتته نهائيا البابا ( غريغوريوس التاسع ) براءة خصوصية .

ويقدر المؤرخون بالملايين عدد الذين قتلوا بحكم هذا الديوان ، قال المؤرخ ( ميشيه ) إن عذاب النار كان متوقعا فيضمون تارة المحكوم عليه داخل ( آتون مضطرم ) فيموت حالا ، وأحيانا يلقونه على نار ضعيفة ويقلبونه عليها بكلايب من حديد مرارا عديدة إلى أن يحلّ به اللوت ببطء فينقذه من عذابه المهول .

ونارة بزلون بالمسكوم عليه في دهليز تحت الأرض ويضمنونه في حفرة بقدر قامته ثم يسدون ذلك عليه إلى عنقه ، وهذا هو معنى دفته حيا ولا يبقى إلا متسع صغير أمام رأسه يأتيه منها السجان بالطعام إلى أن يوافيه اللوت بعد عذاب شديد .

ونارة يأتون بالأسياخ الحديدية فيدخلونها تحت أطراف اليدين والرجلين وهكذا التمال من الحديد للنطقة على باطن القدم المصاة في النار ، وهكذا الرصاص الدائب يسكبونه على الجراح الضامية ، وهكذا خفاف جهنمية تشدّ على الأرجل إلى أن يقطر منها الدم وتنفث اللحم وتتطير العظام ، وهكذا مسامير محروقة نصب في الأحشاء زيتا مفليا ، وهكذا كلاب حامية بها يقطع الثديان ، وهكذا من أنواع العذاب الشديدة الجهنمية ، وذبح النصارى كثيرا من اليهود في انكلترا أيام ( ريكاردس الأول ) ومن بعده وعذبوهم ونهبوا أموالهم إلى أن طردوا تماما من البلاد سنة ١٢٩٠ م .

وأحرق لويس الحادى عشر ملك فرنسا منهم في مكديس ١٨٣ شخصا مع راعيهم ، وفي عام ١٢٤٩ أحرقت منهم ثمانون إنسانا في بلدة ( آجين ) .

وفي سنة ١٢٦٧ حكموا على الراهب ( روجربا كون ) بالسجن (١٤) سنة لأنه أبرم عهدا مع الشيطان في أبحاثه العلمية .

وفي سنة ١٣٩٠ ذبح النصارى في مدينة ( سيفيلا ) أربعة آلاف شخص من اليهود بإجاز كاهن اسمه ( هرماتدوماريتش ) ولا زال باقي اليهود يعانون العذاب حتى طردوا منها بتاتا أيام الملكة ( إيزابلا ) .  
وحكم في انكلترا ببش قبر ( دويكلف ) لأنه ترجم الكتاب المقدس وذلك الحكم بأمر مجمع فسطانس سنة ١٤١٥ وطرحت رفاته في النهر .

ويقدر للورخون المحكوم عليهم في محكمة التفتيش بأسبانيا ٥١٠٠ شخص أيام ( توركومادا ) التي دامت ١٨ سنة ، وعدد الذين أحرقوا ما بين ثمانية وعشرة آلاف ، وقتل في الأندلس في سنة واحدة ألفا يهودي وعذب منهم ١٧ ألفا وأحرق منهم عدد عظيم في مدينة ( بامبلونا ) في فرصة زواج أمير البلد ، والإحراق غالبا كانوا يتخيرون له فرصة زواج اللوك فيجلس الملك والملكة على دكة عالية ويؤتى بالمحكوم عليهم بين تصفيق الجمهور وعلى رؤوسهم أكاليل من ورق نقشت عليها رسوم الشياطين وتصيح الموسيقى بالأقسام ورئيس التفتيش حامل في يده كتاب الإنجيل .

وفي سنة ١٥٦٨ أصدر ديوان التفتيش الروماني حكما بإهلاك كل سكان ( هولاندا ) لانباعهم المردة وعدد الذين قتلوا في ( أسبانيا ) أيام ( كارلس الخامس ) وابنه ( فيليس الثاني ) خمسون ألفا .  
وفي سنة ١٦١١ طرد المسلمون من ( أسبانيا ) وعددهم ألف ألف ، وقتل منهم مائة ألف بإجاز رئيس أساقفة ( فالنسا ) الذي أمر بقتلهم كما قتل دارد الفلستينيين وشاول العمالقة .

وفي سنة ١٥٧٢ حدثت مذبحه ( سان باتلمي ) الشهيرة ، فذبح تلك الليلة في باريس وحدها عشرة آلاف ونيّف من البروتستانت من شبان وشيوخ وأطفال ونساء وحوامل وفي الأقاليم نحو أربعين ألفا ، ثم إن البروتستانت ضلوا أكثر مما فصل ( الكاثوليك ) فارتكبوا فظائع مريعة في ألمانيا وهولاندا وانكلترا خصوصا أيام ( أنريكس الثامن ) والملكة ( اليزابيث ) .

وقد قتل في انكلترا وإيكوسيا لدواع دينية في مدة مائتي سنة مليوني نفس ، وفي سنة ١٦٠٠ حكم ديوان التفتيش الروماني على ( جورداتو برنو ) الملامة الشهير بالإحراق حيا لأنه رأى مارآه ( كورنيك ) و( غالوس ) في دورة الأرض وقوله إن النفوس ترتق في العوالم التي لا تنتهي منتشرة في الفضاء .

وفي سنة ١٦٩٩ حكم على ( فانين ) بالإحراق حيا في مدينة طولون لأنه ألف كتابا ونشره يسمى :  
[ محاورات في مسائل الطبيعة ] .

وفي سنة ١٦٨٥ قضى لويس الرابع عشر بإجاز ( الاكليروس ) معاهدة ( نانت ) مع البروتستانت فتسبب عن ذلك مناجح شتى وامتلأت سجون فرنسا من أهل الإصلاح ، ويقدر عدد القتلى بأكثر من ثمانمائة ألف ، أي من الذين قتلوا وسجنوا ونفوا .

وقتل في مدينة ( لانجدوك ) وحدها مائة ألف إنسان حرقا وشتقا وتعذبا في القرن الثامن عشر ، وحكموا بإجاز أسقف ( اميانس ) سنة ١٧٦٦ على الفتى للسمى ( دى لبار ) بقطع يده وقطع لسانه وإحراقه حيا لكونه لم يؤد الإكرام الواجب ( لايقونة المنراء ) وقت طوافها الاحتفالي وله من العذر ١٩ سنة ، انتهى .

هذه بعض أعمال رجال الدين في أوروبا ، وأماي الآن مئات الحوادث في كتب مختلفة ضربنا عنها صفحا اكتفاء بالقليل للقيد عن الكثير ، وإنما الذي يهمنا الآن أن هذا الضلال لم يزل عن أوروبا



إلا الإسلام ، فإت القوم نازعوا للمسلمين في الحروب الصليبية وعرفوا الحقائق فأذلوا رجال الدين وصاروا أحرارا .

ولأ كنف لك أيها التذكي بإيراد ماجاء أيام طبع هذا الكتاب من رسالة بقلم سيده أوروية أسدت وكتبت مذكرات ونشرتها في بلادنا المصرية فهناك لتعلم كيف كان قوله تعالى « اتخذوا أجيالهم ورهبانهم أربابا من دون الله الخ » ونداء الله للمسلمين بقوله « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان الخ » قد ظهرت آثارها في أوروبا بأجمعها في الصور للتأخرة كما ظهرت آثاره في الإسلام في الصور الأولى .  
فهناك نص ماقالته تلك السيدة الأوروية بالحرف تحت عنوان : [ الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروية ، رجال الدين ] وها هي ذه :

### مذكرات سيده أوروية أسدت

الحضارة الإسلامية ، الحضارة الأوروية  
رجال الدين

لا أستطيع في هذه الأسطر القليلة أن أتمق في بحث الدور الهائل الذي لعبه رجال الدين في سياسة أوروبا جماء فيما بين القرنين السادس والسابع عشر وماجره إسرافهم في الأمر من حروب وتم فإنه محتاج إلى مجلدات ، وأن كل من قرأ شيئا من تاريخ أوروبا يعلم كيف استفحل أمر رجال الكنيسة في ذلك العهد وكيف سلبوا أموال الأمة واستحوذوا على أملاكها واستبدوا بالوظائف الحكومية والمسكانت العالية ، وكانوا كيف يعيشون في مثل بذخ الملوك ، لهم ماليس للناس ، ولا يجرى عليهم ما يسرى على باقي أفراد الشعب حتى ضاقت للملوك ذرعا بما كانوا عليه من إسراف وظلم وتسلط على العقول والقلوب باسم الدين والكنيسة .

وظلوا على تلك الحال إلى أن أردوا أوروبا بأسرها في هوة الحراب بتلك المجزرة الهائلة التي أطلق عليها التاريخ اسم ( حرب الثلاثين ) وما أعقبها من مطاردة ( لويس الرابع عشر ) ملك فرنسا لطائفة ( المهجنوت ) مطاردة قضت على مائتي ألف منهم بالتربة والتشتيت في أنحاء العالم .

والحقيقة أن رجال الدين في ذلك العهد أساءوا استعمال سلطتهم الروحية واتخذوا من الدين ذريعة لتيل مآرهم السافلة من سلب الأموال والعبث بالممتلكات والوظائف وسائر مرافق الحياة .

ولقد عاشت أوروبا تحت تأثير هذه الطائفة وتضليلاتها في ظلم وجهالة إلى أن نبت فيها أمثال ( فولتير ) و( روسو ) فخرروا العقول من الأوهام التي كانت لا تزال عالقة بها وحطموا تلك القيود البالية التي غفلت بها رجال الكنيسة رقاب الشعب للسكين وأخذت أوروبا في دور النهوض والتقدم ، وكانت كما أعرضت عن رجال الدين وأهملت تعاليمهم السممة ازدادت رقبيا وتقدما إلى أن بلغت بفضل إهمالها التام لهذه الطائفة مبلغها الحالي من الرقي والعمران .

ولقد حدا بي كل ذلك إلى الظن في بادى نقاشي أن كل الأديان في هذا سواء إلا أني تحققت بعد أن اعتنقت الدين الإسلامي أنه خير الأديان وأمتها أساسا وبنينا ، وأنه دين الاجتهاع ، دين الحكمة والفلسفة ، دين العلم ، دين الحرية والإخاء والساواة .

وإنى لملى يقين الآن أن أمثال ( فولتير ) و( روسو ) وغيرهما من قادة الفكر في أوروبا لم يأتوا بنظرياتهم الفلسفية وآرائهم في الحرية والديموقراطية إلا بعد أن تشبعوا بفلسفة الإسلام واستقوا تلك للبادى

من روحه السامية مما عثروا عليه في بطون الكتب النهرية من الأندلس ومصر وغيرها . وإني لأننبأ بأنه سيأتي يوم قريب تنبلج فيه أنوار هذا الدين وأسراره العالية فتكون أوروبا وأمريكا أول من يبادر إلى اعتناقه هاشين باشين ، وهم يزعمون أنه دين الجمود ، ويساعدكم على ذلك نفر من بنيه ، ولكن أسألهم : هل دين الجمود يأمر بالحرية والمساواة ويقرّر مبدأ المسئولية الحكومية والشورى وينشر الديمقراطية ؟

أوليس عمر أول حاكم ديموقراطي أسس ملكه على العدالة ونادى بالحرية والمساواة ؟

أوليس هو القائل : [ إن الناس ولدتهم أهم أحراراً فبم استبدعهم ] ؟

أوليس هو أول من قرّر مبدأ مسئولية الحاكم أمام الأمة حين وقف قائلاً : [ من رأى في أعوجاجها فليقومه ( فيجبهه العربي ) لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناه بحمد السيوف ] .

أوليس القرآن أول نظام قرّر الشورى ، قال تعالى ( وشاورهم في الأمر ) وعدم استئثار الزعيم أو الحاكم بالرأى .

أوليس الإسلام أول من قرّر حق انتخاب الأمير أو الحاكم للأمة . ذلك بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم مات ولم يوص بالخلافة من بعده لأحد من أصحابه .

أوليس القانون المدني صورة محوّرة من نظم الشريعة الإسلامية وفلسفة ابن رشد ؟ والأدلة على ذلك كثيرة ليس هذا للموضوع محلا لذكرها .

والآن وقد أثبتت في هذه النبذة التاريخية على ما كان لرجال الدين من أثر في سياسة أوروبا وأخلاقها ، فإني أعود بالقارىء إلى الشرق في أيام عزه وسلطانه مستعرضة ما كان عليه رجال الدين في عهد شروق أنوار الإسلام ، وكيف كانت أخلاقهم وصفاتهم وما تركوه من الأثر في نفوس الأمم التي تغذت بلبان تعاليمهم وارثت من كؤوس علمهم وحكمتهم .

نعم لقد كان للشرق عزّ وسلطان أيام كان للدين رجال يحمونه ويحلقونه ويحافظون على تعاليمهم ويمشون على سننه ، ترخص أرواحهم ، وتغلو في سوق الفضيلة ذمهم وضائرهم ، استلأوا ما استخشن الترفون وأنسا بما استوحش منه الجاهلون ، لم يفتنوا بحب المال والجاه ولم يركنوا للذوى العزّ والسلطان .

نعم يمثل هؤلاء عزّ الإسلام وحقق على العالم لواء العدل وعصمت الحرية وتآخى الناس على اختلاف طبقاتهم في ظلال الأمن والسلام ، من ذلك ترى أن الشرق وإن أخذت منه الخلاقات للذهبية التي لا تزال حية حتى اليوم كالشيعة والسنية والروافض وغيرهم قد اقترن تاريخ مجده ورقبه بأهم تمسكه بالدين على يد رجاله العاملين ، فالشرق والغرب عندي في هذا الموضوع ككفتي اليزان ، تركت أوروبا الدين وتخلّصت من رجاله الظلمة المستبدين فرقت وعزت وتحررت العقول ونضجت الأفكار وأهمل الشرق أمر دينه واحتقر تعاليمه واستهان بشريته ورماه خطأ بأنه دين الجمود فتقلص ظله وزال سلطانه وانحمت دولته ، وهنا أقف وقفة المهزون أناجي الشرق وأسأله ، هل أنت حقا ذلك الشرق صاحب المدينة القديمة والتاريخ المجيد مهبط الوحي ومبعث العدالة ومخرج تلك العقول التي حيرت بيديع صنعها ورائع نمرتها أفكار أهل أوروبا وأمريكا الذين كانوا يرتعون في ذلك العهد في مجاهل الظلم والجهالة .

إن كنت أنت ذلك الشرق فلم أظلت بعد ساطعة الأنوار ولم اكفهرت جوك وأظلم أفتك وزالت سطوتك وانحمت مقهوراً بعد أن كنت قاهراً ومستعبداً بعد أن كنت سلطاناً طادلاً ، هل تغيرت الأرض والسما أم جفت الأنهار وتعتل الليل والنهار ؟ لا إن شيئاً من كل ذلك لم يكن ؟ إنما هو خراب القلوب من الإيمان بعد هملها وبيع النعم والضائر رخيصة في سوق الدنيا ونبت الدين وتعاليمه وإقمار أهل العلم من صفات الطهارة

واستكامة الملوك والأمراء ، وإن شرّ ما أنعمه على الشرق اليوم وأكبر ما أخذه عليه من أسباب التدهور والاضطراب هو تغير أخلاق العلماء ومحل قلوبهم من العلم والعمل .

أنظر إلى ما فعله علماء بني غازي ، ألم ينادوا باسم عثمان بن عفان ملك إيطاليا على النار بعد خلع الخليفة ، وانه يقول « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين » الآية .

ألم يبايع علماء الحجاز والسودان الحسين بن علي للؤبد من قبل الإنجليز بالخلافة ؟  
ألم يتم سعيد الكردي باسم الدين في وجه السكاليين أصحاب السلطة الشرعية على البلاد إرضاء لشهونه من الإنجليز ؟

ألم تر إلى أعمال سادتنا العلماء في مصر ؟ وقد ظنوا أن الدين إنما هو إرخاء اللحى وتوسيع الأكتاف ولبس القرجيات وإن أقفرت بيوت الله وأظلمت وعمرت للمواخير وبيوت الدعارة وازدهت ، وهل ترام مشتغلين بغير عمارة الجيوب وإن خربت الدم والقلوب ؟ وهل ترام إلا صائحين ليل نهار بتضخم المرتبات وزيادة الجرايات وإن فتكت بأهل البلاد حمى الحجر والليسر والمخدرات .

أين سطوة العلم وعز الإيمان ؟ وقد حفيت أقدام هؤلاء السادة من السعى إلى القصور والعمارات والجري وراء كل ذي لقب من أصحاب المراتب والمرتبات ، أين تآليفهم النافعة ؟ أين دعايتهم ضد هجمات البشريين واحتجاجاتهم ضد كيد المستعمرين ؟ أين صيحتهم التي كانت تزلزل العروش ونهز القلوب .

أين العلماء الذين كان يقصدهم الملوك والعظماء ولا يقصدون ، وسألهم الكبير والصغير ولا يسألون ؟ أين من قيل فيهم إنهم ورثة الأنبياء ؟ وإن قطرات أقطابهم ترجح بدم الشهداء ، قضت دولة أولئك العلماء وأصبحت لازمة إلا كل حفيظ لبعض قشور من الشريعة وأصول الفقه يستثمرها ابتغاء قنس القلوس لافي سبيل إصلاح النفوس ، متهافت على الأمراء والعظماء ، لا يرى منفعة دينية ، أو حظا عاجلا عند كبير الإطارات إليه كالذهب لا يقوى على رؤية السل دون أن يهوى عليه .

أما الدين ، أما الضمائر والضمير ، وعلو النفس والمهم ، فذلك ما ليس بينهم ما دام لا يسد البلعوم ولا يهيئ أسباب العيش الرضي الهنيء ، وليفة القدر التي هي خير من ألف شهر يحياها السادة العلماء في دار الندوب السامية وتلطم الجوامع وتقفز بعد ذلك بيوت الله .

أراح الله الشرق من شرّ المنافقين ، وقبض له علماء عاملين بأخذون بيده وينهضون به فيعود إلى ماضيه القديم ويستردّ مجده التليد ، فإني لا أظنّ الأرض تخلو من هذا اللثل الأعلى للعلماء ، بل إن هذا الظنّ قد تحوّل مني إلى تحقيق بعد أن تبين لي في نفسي صدق عليّ بن أبي طالب حيث قال « اللهم لا تخلي الأرض من قائم لك بحجة ، إما ظاهرا مشهورا أو خائفا مقهورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته » وليس بضائر الشمس أن تحجبها عن الأبصار السحب السوداء ، أو أن لا ترى نورها أعين الحفاش فإنها بالرغم من كل هذا موجودة وهي تضيء وهي تنفع .

أما أنا فأعتبر نفسي سعيدة السعادة كلها حيث قد منّ الله عليّ باختراق هذه السحب السوداء بنور البصيرة فمرفت من أنكره الناس وعثرت بمصباح (دياجونيس) على مالم يثر عليه (دياجونيس) نفسه ذلك هو الرجل ، وإني لست بالساذجة ولا بالجاهلة ، فإن قلت إني عثرت وعرفت فقل علم ونور وبصيرة . انتهى .

مدام رثيفة كامل

وبهذا تم الكلام على القام الثاني من المظهر الأوّل لهذه الآيات .

الظهور الثاني ما جاء عن علماء الأرواح حديثا يلاذ أوروبا

مجزات القرآن في هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقا لهذه الآيات من قوله تعالى «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله - إلى قوله تعالى - فذوقوا ما كنتم تكذبون» ولنفس الكلام في هذا على ثلاث جواهر :

الجوهرة الأولى : ملخص هذه الآيات إجمالا نبني عليه ما بعده .

الجوهرة الثانية : في بحث عام في النفس الإنسانية وقواها وملكانها وأخلاقها لأنها هي أس جميع الأعمال .

الجوهرة الثالثة : فيها أعلنه بعض الدين خاطبوا الأرواح من علماء للسيحيين الكبار وحكامهم وأنهم شاهدوا في الجنة تصورا وفي النار ظلمات وسعيرا ، وأن بعض رؤساء الدين المسيحي من آباء الكنيسة الرومانيين في أسفل جهنم الخ ، وأن الدين الإسلامي قد ظهر له أحسن أثر في الأموات الذين اعتنقوه الخ ، وهذا القال من أعجب ما في هذا التفسير .

الجوهرة الأولى مجمل هذه الآيات هو :

- (١) أن من قدّم النفس والمال لله فهو في الجنة .
  - (٢) أن الذي قدّم حبّ المال والأهل وغيرها على حب الله فهو في جهنم .
  - (٣) أن النصر يبد الله لأن العالم في قبضته .
  - (٤) معاداة الكفار .
  - (٥) ذمّ النصارى واليهود الذين جنوا لله شريكا واتبعوا الأخبار والرهبان الذين يخلطون ويحرمون .
  - (٦) الأخبار والرهبان لشراهم على المال وحبهم للرياسة يحدزون في جهنم .
- هذه الأصناف الستة ترجع لأصل واحد وهو أن الثروة على المال أو الرياسة أو حب أمر من الأمور يصدّ النفس عن حبّ الله تعالى وهذا يوجب عذاب جهنم ، فهذه الآيات جمعت ما بين مؤمن متناقل عن الجهاد لأجل مسكته أو ماله أو أهله ، وبين رئيس ديني مقرب بالمال والرياسة الخ ، وبهذا تمت الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية : في تحليل النفس الإنسانية ومعرفة قواها وملكانها حتى تفهم على سرّها المكنون المحزون الذي به ندرك بعض سرّ هذه الآيات .

ثم تنق في الجوهرة الثالثة بمصداقها من العلم الحديث ، اللهم إنك أنت الذي تحمي القلوب وتخرج الحى من الميت ، أنت الذي شرحت صدرى لهذا التفسير وأنتمت على بالتوفيقى وأرئيتى بدائع الترائب ومشاهد الحوادث حتى يظهر سرّ كتابك في هذا الزمان الذي التبس فيه الحق بالباطل ، اللهم إنك أنت الذي خلقت نفوسنا وأصابتها بنورك وأودعت فيها جواهر وأبدعت وزوّقت وصوّرت وأحكمت ، فكانت نفوسنا :

- (١) قابلة لمعرفة جميع الوجودات .
- (٢) مشاركة لكل حى في صفات عامة فهذا تودّ لو شملت جميع الأحياء بالرحمة والإحسان .
- (٣) وحياتها متوقفة على الموائم الملوية والسفلية بوجه عمومى .
- (٤) وهي من جهة أخرى تودّ لو تبتلع كل موجود إطاعة لشهونها أو تهلك كل حى إطاعة لتضها وسطوتها ، ويان هذه الأربعة أن تقول :

هلم أيها الذي أحدثك دقائق واعتزل عالم الأجساد ، وادخل منى عالم روحك وتفكر فيها فما أناذا أصف نفسي وهذا الوصف ينطبق على نفسك وقد أمرني الله وأمرك أن تنظر في نفوسنا فقال « وفي أنفسكم

أفلاتنسون « وهذا فيه توبيخ لنا وإنكار علينا لعدم نظرنا لفوسنا فإثتالا لأمره تعالى أنظر في نفسى وأنت تنظر في نفسك فأقول :

قد لى ألت نجد أنك تحب أن تعرف جسمك ومنزلك وفرتك وأنتك والكرة الأرضية والمجموعة الشمسية وعالم المجرة الذى يحتوى على نحو (٢٤٠) ألف ألف من النجوم التى هى أكبر من شمسنا وأضوا جدا ، فيها ماهو أضوا منها (١٠٠) مرة ، ومنها ماهو أضوا ألف مرة ، ومنها ماهو أضوا ثمانية آلاف مرة وأكثر كما تقدم كثيرا فى هذا التفسير .

ثم وراء هذه المجرّة مجرّات أخرى قد وصلت إلى مايزيد على ألف ألف مجرة ، وكل واحدة من هذه فيها شمس كشمس مجرتنا .

اللهم أنت القدوس ، أنت العليم ، أنت الحكيم ، أنت الكريم . فمن كرمك أن أبدعت نفسى وأبدعت نفسى فأرى هذا الكتاب وجعلتها تواترين إلى هذه العجائب التى ذكرتها سابقا فى سورة الأنعام ، وسأذكر بعضها فى سورة يونس وغيرها ، بل إن هذه النفس زاهات تدرك أن هناك مالا نهاية له فى الزمان والسكان والموالم ، ولكنها حين تريد أن تصوّر ذلك نهر وتنكش وتنقهق وتقول لاقدرة بصيرنى على تصوّر هذا ، وإذن ترجع القهقرى وتقول إن مالا نهاية له يملء من وجوده لانهية له ، وهو الذى دبر هذا الوجود فمن أنا حق أفق على سرّ الوجود ؟

فمن هذا يتبين أن نفسى ونفسك معا عاشقتان مفرمتان بالاطلاع على كل موجود ، ومعنى هذا أنهما قابلتان لتلك كما قبلتا الطعام والشراب ويظهر لى أن كل مايميل إليه النفس هو من جبلتها وطبيعتها وإفانها كان ميلها للطعام سببا لحياتها وميلها لاقتراب الرجل وللرأة سببا لبقاء الولد ، فهكذا فليكن ميلها لمعرفة الموالم وحبا سببا لهادة كبرى مناسبة لهذا الميل كما سعدت سعادات صغرى بالميل للطعام وللزواج ، هذا هو ما قصدت من شرح الأمر الأول : وهو قبول النفس لمعرفة جميع الموجودات .

الأمر الثانى : أن الإنسان لمشاركته لأبناء نوعه فى عواطفه بحب حياة كل إنسان مقى خلقى وطبعه . والبرهان على ذلك أنك ترى الإنسان إذا شاهد قطارا دم رجلا وقتله فى مصر أو بغداد أو الأستانة أو كل مكان أو باريس أو برلين فإنه فى الحال يفرح ويحز ، وهذا دليل على أنه يفرق بين حالى هذا القتل ويفضل حال الحياة على حال الموت .

الأمر الثالث : أن نفسى التى تحب معرفة كل شىء وحياة كل إنسان إذا وصلت لليقين تعلم أنها متوقفة على جميع الموالم العلوية والسفلية ، وهذا واضح فى ثنايا هذا التفسير أفلا تعجب من هذا ؟ ألا تعجب من أن حبا لمعرفة الموالم وعطفها العام يناسبان احتياجها العام .

اللهم إن نفسى لانيش فى هذه الدنيا إلا بحجم تحفظه قربة تحمىها دولة يحيط بها هواه وأضواء مشرقات من الموالم العلوية والأمم جميعها والدول مشتركات فى الأمور العامة كالأسلاك البرقية (التلغراف) والكلمرة (التليفون) والقطرات فى البرّ والسفن فى البحر وهكذا .

فالأمم على هذه الأرض كلها متعاونات وإن كتن متعادات وهذا هو السبب ؛ حبّ عام واحتياج عام واشتراك عام ، وإن كان هذا الاشتراك سوريا والقلوب مقفلة على الطمع والشره والمداوة والبغضاء لقص أهل الأرض أجمعين إلا قليلا منهم « وقليل من عبادى الشكور » .

الأمر الرابع : أنها مع هذا الحبّ وهذا الترام بالعلم والاشتراك العام كنت فيها قوتان : إحداهما جاذبة . والأخرى دافعة .

أما القوة الجاذبة فهي الشهوات التي أعدت لبقاء الحياة في الدنيا ، فهذه الشهوات نراها قوة هائلة ، فكما رأينا عقولنا تود معرفة كل كوكب وكل شمس وكل أرض كما هو معروف من أخبار علماء أهل أوروبا الذين يودون أن يسافروا للقمر أو يخطبوا أهل المريخ ونحن نتشوق لذلك شوقا كبيرا ، هكذا نرانا إذا ملكتنا لاتف عند حد ، فنحن تكفينا الأطعمة الحاضرة ولللباس الساتر ، لكن هذه النفس تندفع في شهواتها كأنها في عالمها ، يود الإنسان لو يملك قرية أو أمة أو أهل الأرض جميعا ، والدليل على ذلك ما نعرفه عن نابليون ومختصر وغليوم وأمراة الألمان وغيرهم .

وهكذا كل أحد منا يعرف في نفسه أنها لاتف عند حد في أمر اللذات وحوز النعم الأرضية ، وإذا عارض أحد من الناس هذه القوة فينا غضبنا عليه وكرهنا حياته ونسينا أن كل حي على الأرض رحمة لنا ؛ فالأمم وأفراد الأمم يساعد بعضهم بعضا ، فكل عنده من العلم والسلع ما ليس عند الآخر فكل لكل مكل ومرق ولكن الناس لنفس أكثر نفوس أهل هذه الأرض بعضهم لبعض عدو ، وهذه هي القوة الدافعة ، فنحن أهل الأرض بين قوتين : قوة جالبة لنا به الحياة ، وقوة دافعة لما يصادها . وهاتان القوتان هما اللتان تظهران في الجاذبية العامة ؛ فالشمس مثلا تجذب الأرض ولكنها تدفعها عنها إلى بعد مخصوص بالقوة الطاردة ، فالأرض كما شقة للشمس لأنها مجذوبة إليها ولكنها مطرودة عنها إلى بعد مخصوص ، هذه هي القوى الأربعة التي في نفوسنا فهي محبة لكل علم متوقفة على كل الموالم ( وهذا لا يعرفه إلا من درس جميع علوم الكائنات أو قرأ أكثر هذا التفسير ) .

تريد أن تعرف كل شيء ، وتملك كل شيء ، ونحن لكل حي ، ولكن يعارض هذا شهواتها وأضغاثها - وإن كانت في حاجة لأبناء نوعها - إن رغبة العلم العام والمهبة العامة طبيعتان أصليتان في النفس ، أما كونها تود البطش بأبناء نوعها وتود هلاكهم فهذا عارض من حيث حاجتها إلى سد شهواتها ، ونتيجة هذه الجوهرة الثانية أن الإنسان لا تصلح حياته إلا على مقتضى أصول فطرته ، وأصول فطرته أهمها العلم والحب والتعاون . إذن حياة الفرد في أمة يتوقف كلها على حياة الأمة وكل ما توقف عليه حياتنا أحيانا وهكذا في الأمم على هذه الأرض .

اللهم إن كالأفراد في حب بعضهم من أمتهم ، وكال الأمم في حب بعضهم بعضا ، ولقد حصل هذا فضلا في أرضنا ولكن حصوله ناقص ، فإنا نرى أهل المنزل يتشاركون وهم كثيرا ما يتعاونون ، ونرى أهل القرية يتشاركون في أمورهم العامة وهم يتشاجرون ، ونرى الأمم تتعاون في التجارة والبريد والقطرات وهم جميعا متعاونون . الله أكبر ظهر الحق واستبان السبيل وظهر جمالك في العالم الذي عشنا فيه .

اللهم إنك قد أبدعت هذا الوجود وأرجته لقطرنا ، أنت عشقتنا في المعرفة وجعلت حياتنا موقوفة على أبناء نوعنا فتشاركوا وتعاونوا ولكن هذا التشارك وهذه المعاونة ظاهريان لا باطنيان . اللهم إن فطرنا صادقة لسدتها تحزن أو تألم في هذه الحياة وهي لا تدرى ما سبب هذا الألم ولا تعلم أن سببه أن هذا العالم ناقص لا يطابق فطرتها تمام للطاقة بل للطاقة لفطرتها لفظية ظاهرية ، ولذلك حكمت بموتنا لتدخل في عالم آخر تتوافر فيه ممدات الحياة الحقة فيكون التعاون بالقلب والقالب وتصبح النفوس متجاذبة تجاذبا صادقا لا عوج فيه ولا خداع .

إن حياة الأرواح في أجسامها يجب أن يكون بالحب العام الخالص كما أحبت الشمس الأرض ، والأرض القمر وأضئ الأمل على الأدنى بلا من ولا أنى كما يفيض الأبوان على الولد ، وهذه الصفة مفقودة في أرضنا التي حياة الأمم وحياة الأفراد فيها مصحوبة بالخداع .

اللهم إنك سترت في الدنيا بواطننا رحمة منك ، أنت أردت أن تكون ظواهرنا متشاكلة متوادة متجاذبة ، وقد أقتلت على قلوبنا أفتالك حتى لا تظهر ، ولو ظهرت لكان التنافر ولم تم الحياة .

وهذا النص يتبعه عالم أكل من طائفتنا هذا تكون البواطن فيه ظاهرة واضحة وهو عالم الأرواح لأن الليل يقبه النهار ، غيابتا ليل مظلم لا تظهر فيه البواطن ، أما حياة الأرواح فهي نهار مضي تظهر فيه الأشكال . وههنا يظهر معنى هذه الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها ، فإذا رأينا الإنسان يقدم نفسه وماه في النعمة العاتية بإخلاص فهذا مطابق لفطرتنا الأصلية ، وإذا رأينا الأبحار والرهبان يزجون في جهنم لأنهم يجمعون أموال الناس لأنفسهم ، فمعنى هذا أنهم سخرُوا المجموع لأنفسهم ؛ فحببتهم إذن لأنفسهم لا للمجموع وهذا مناقض لفطرتنا ، هذا هو الذي أردت تبيانه بطريق عقل نفسي .

### الجوهرة الثالثة

[ معجزات القرآن التي ظهرت مطابقة لما تقدم عند بعض علماء النصارى الذين حدثوا الأرواح ]

بين يدي الآن كتاب مؤلفه عالم مسيحي ( عمانوئيل سودنبرج ) عاش في القرن الثامن عشر وقد ولد في مدينة ( استوكهلم ) وأبوه كان ( أسقفا ) على وستروغوثيا له شهرة طويلة في حياته وكان عضوا في الجمعية الإنجليزية لنشر تعاليم الإنجيل وأقامه الملك كارلس الثالث عشر أسقفا على الكنائس الاسوجيه في ( بنسلفانيا ولندن ) أما عمانوئيل سودنبرج الذي نحن بصدد الكلام عليه فإنه زار انكلترا سنة ١٧١٠ وهولندا وفرنسا وألمانيا وعاد إلى وطنه سنة ١٧١٤ وجعله الملك كارلس الثاني عشر في رتبة مقدر في مدرسة المعادن وفي هذه الوظيفة إلى سنة ١٧٤٧ وقال إنه استقال منها لأنه دعاه داع إلى نشر الحقيقة العلمية في العالم ، ففرض عليه الملك رتبة أعلى فرفضها خرقا من أنه يقيه غرورا وتكبيرا وتماظما ، ثم أضمت الملكة عليه بترقيته إلى منزلة الأشراف ولقب بلقب ( سودنبرج ) جلس في مجلس الأشراف وحضر الجلسات الثلاث التي تصدق كل سنة وصار عضوا في الجمعية العلمية في ( استوكهلم ) ولكنه يقول هذه الجمعية مجتهدا لا يناسب لأنها تنطق بهذا العالم المادى ولذلك لم يبحث معهم وإن كان عضوا منهم بالاسم ، وقد تناول الطعام على سفرة الملك ولللكة ( وهو شرف لا يناله غير أشراف الملكة ) وقد قال إن هذه النعم ليست شيئا مذكورا بالنسبة لما دعاني إليه الله وألمني أن أحدث الناس بالحقائق التي شاهدتها في عالم الأرواح لإظهار الحق للمسيحيين ليعرفوا الحقيقة ، وقال إنى تنقلت في البلاد لهذه الغاية وإبراز هذا العلم للناس لخلاصهم وخلاصهم .

هنا ملخص ما ذكره المؤلف في خطابه لأحد أصحابه سنة ١٧٧٩ وقال إن تشجيع الناس على وتشهيرهم في واستهزاهم لا يهمني مادمت قائما بالحق ، ولما قال له أحد أصحابه إن أضحك أن تنزل تلك الكتابات التي كتبتها عما ترى وتسمع في عالم الأرواح فإنها تعرضك لسهام ذوى الجهالة وقد أصبحت هزوا وسخرية ، قال قد بلغت من العمر إلى درجة لا يجسر فيها على الهزؤ بالأمور الروحية وإن منتهى جهدى السعى وراء خلاص غير ملتفت إلى ما يرى الناس في ، ثم قال أقسم بخلاص نفسي أن ما كتبت لم يكن مصدره التخييل بل حقيقة ما سمعت وما رأيت ، وقد مات سنة ١٧٧٢ ودفن في لندن جد ما أصيب بالفالج وقد قابله قبيل موته كاهن يسمى ( أرفيدفريوس ) وقال له لقد نلت مرادك من الشهرة والناس يزعمون أنك بهذه التعاليم أردت الشهرة ، فإذا كان زعمهم صادقا فمن الواجب عليك في هذه الحال حيا في العدل والصدق أن تكذب كل ما كتبت أو بعضه مادام لم يبق لك مأرب في عالم عما قريب تفارقه ، فلما سمع ذلك منه انصب في فراشه

جهد طاقته ورفعه يده الصحيحة إلى صدره وقال بلهفة ( إن صدق ما كتبتك حقيقى كتحفة رؤيتك إياى أمام عينك ، ولو سمح لى لكتبت كل ما رأيت وقلت أكثر مما فطنت حتى الآن ، وسترى كل شئ ببينك يوم تدخل العالم الأبدى حيث أجمع بك الكلام فى أمور كثيرة ) انتهى تلخيصا .  
ماذا يحدثنا عما نوثيل الذى ذكرنا ملخص تاريخه

حدثنا (١) يقول فى صفحة (١٧٩) ما نصه فى الترجمة: إن الأفريقيين من بين جميع الأمم هم المحبوبون أكثر من الجميع فى السماء ( أى الجنة ) لأنهم يقبلون خيرات وحقائق السماء بأوفر سهولة من الآخرين وهم يرغبون خصوصا أن يدعوا مطيعين .

ويقول فى صفحة (١٨٠) إنه رأى عباد الأصنام من الأمم بعد الطوفان وشاهد أرواحهم فرآها فى مكان مظلم وفى حال تمة وقد حرموا من الفكر وقالوا له إنهم أقاموا فى ذلك المكان قرونا كثيرة وإنهم يخرجون منها بعض الأحيان ليقوموا بحاجات دينية للآخرين . قال فمن هنا حملت على التفكير فى كثير من المسيحيين الذين ليسوا فى الخارج عبدة أوثان ولكنهم فى الداخل كذلك إذ يجدون ذواتهم والعالم ورفضون الله . قال وأخذت أفكر فى نوع النصب الذى ينتظرهم فى الحياة الأخرى ، وقال فى موضع آخر إن المسيحيين يعيشون عيشة شريرة ولحم ولوع بالزنا والبغض والحصام والسكر وذنوب متشابهة تأبأها الأمم الوثنية .

(٢) وهو يقول أيضا : إنه حدث الأرواح فقالت له ( إننا فى السماء لاقول إن الله ثلاثة وإنما نحن نعلم ونصر أن الله واحد ) ويقول إنهم قالوا له إن الذين يعتقدون بألهة ثلاثة لا يمكن إدخالهم إلى الجنة لأن أفكارهم يحصل لها غير فلا تدرى أين الثانى والثالث ، والدار فى عالم الأرواح على الفكر ، فالفكر إنا تصور ثلاثة آلهة ، قول اللسان إنه واحد تفارق لا يفيد بل يظهر الباطن ويكون وبالا على صاحبه وذلك فى صفحة (٣) من الكتاب للذكور .

(٣) ويقول فى صفحة (٨١) يتقد البعض أن الأطفال الذين ولدوا تبع الكنيسة بسبب أنهم متعمدون بماء المعمودية يدخلون فى الإيمان ، وأما الذين ليسوا تبع الكنيسة ولم ينلهم ماء المعمودية لا يدخلون فى الإيمان قال وهذا باطل لأن المعمودية تذكور ، ثم قال فليعلموا أن كل طفل فى أى مكان ولد من والدين تقيين أو من والدين غير تقيين متى مات يقبله الله ويعلم فى السماء ( أى الجنة ) وهنا أخذ يصرح العناية بالأطفال شرعا مستفيضا على ما يقول إنه رأى كذلك .

(٤) ويقول فى صفحة (٩٢) رأيت قصورا سماوية ذات إنقان لا يمكن وصفه أشرفت من فوق كالذهب النقى ومن تحت كاللحجارة الكريمة يزيد بعضها عن البعض رونقا ، والغرف مزودة بزينة يستحيل أن يصفها الكلام وفى بعض الأماكن ترى الأوراق كالفضة والنهار كالذهب والأزهار فى ألوانها أظهرت قوس قزح . ويقول: إن الأرواح قالت له إن هناك أشياء كهذه لا تحصى وهى أعظم كالا يرضها الله أمامهم ، ومع ذلك هم يبهجون عقولهم أكثر مما يبهجون أعينهم ، وذلك لأنهم يرون مطابقة فى كل شئ إلهى ، ويقول إن هذه المظاهر تطابق بواطنهم فإنها لطهارتها ظهرت لهم المحسوسات وتنعما بها كما تتم بواطنهم بالسكال .

(٥) ويقول فى صفحة (٦٦) إن داخلات الإنسان تعرف بالنظر لوجهه بحيث لا يخفى منها شئ ، فأهل الجنة يحبون أن يظهروا لأن بواطنهم جميلة ، أما الفقار من أهل النار فإن أحدهم يظهر للآخر كما يرى الناس بعضهم بعضا ، أما أهل الجنة ولللاصقة فإنهم يرونهم كالوحوش فى وجوه وأشكال مخيفة فى نفس شكل شرهم الدانى ، فكل إنسان يظهر شكله على هيئة باطنه ، فإتيا جميل على قدر خيره وإنما يفسح على قدر شره ، ووصف فى صفحة ٣٧٥ و ٣٧٦ جهنم يقول :



إن مداخل جهنم تكون تحت الجبال والتلال والصخور وجميعها تظهر مظلمة ومغبرة ، ولها نوع من النور كالفحم المشتعل ، وإن الذين عاشوا في الدنيا في البغض والانتقام من الدين لم يتبرؤم ولم يقدسوا ولم يبدوهم ، فهؤلاء يوضعون في أقصى جهنم ومن هؤلاء طائفة ( الكاثوليكية الرومانية ) وكذلك الذين جعلوا أنفسهم آلهة تعبد فهؤلاء اضطرموا بنار البغض والحقد ضد كل من لم يترف بقدرتهم على نفوس العالم ولا يزالون في جهنم يجللون الأمانى التي عاشوا بها على الأرض ، قلوبهم ملامى غيظا وحقدا وضغنا على من لا يوافقونهم في زعمهم فأصبحوا في جهنم ، وقلوب كل منهم متجهة نحو ذوى صيته .

وقال في صفحة (٣٧٧) في بعض جهات جهنم ترى خرابات ومنازل ومدن بعد شوب نيران ، وفيها تسكن الأرواح الجهنمية في خفية ، وفي النواحي المعتدلة من جهنم ترى كواخ سيئة البناء بهيئة مدينة بالأزقة والشوارع وفي داخل هذه البيوت الأرواح الجهنمية دائما في مشاجرة وعداوة ومضاربة وقتال ، وفي الشوارع والأزقة لا ترى إلا التهب والسلب .

وقال إن أبواب جهنم حين تفتح لدخول أرواح شريرة جديدة يخرج منها بخار يكون إما مثل بخار النار مع الدخان كما يظهر في الهواء من أبنية محترقة أو مثل لبيب بدون دخان أو نظير سخام كالكدي يخرج من اللداخن المشتعلة أو نظير ضباب أو سحب كثيف ، قال وهذه الأشياء مناسبة لأخلاقهم ولكنها تظهر بهذا الشكل لتبرم ، أما هم فلا يمكنهم أن يعيشوا خارجها .

وصرح في صفحة (٣٥٩) أن بعض الناس إذا سمع في جهنم ذكر الله ازداد غيظه جدا حتى التهب رغبة فنته وهو لو أطلق العنان لنفسه لأحب أن يكون إبليس حتى يزعم أنه يلحق الأذى بالله تعالى كما يخناه بعض أصحاب الديانة البابوية عندما يدركون في الحياة الأخرى أن الرب كل القوة وليس لهم شيء منها على الإطلاق .

(٦) ويقول في صفحة (٥٨) إن الله يرى في السماء ( الجنة ) كالشمس ويرى لكل أحد بمقدار ما يقبه تعالى ومن رأوه لإفاضتهم الخير على الناس ظهر لهم كالشمس لما عندهم من المحبة والخير للناس ، أما الذين يرونه لأجل الإيمان فإنهم يرونه كالقمر .

(٧) ويقول أيضا إن نصيب الأعيان والفقراء في الآخرة تابع لسراهم ، فكم من غنى كان محسنا طاهر القلب فرأيته سكن القصور الجميلة ، وكم من فقير كان ساجدا على الزمان غير راض بالقدر فهذا يجذب عذابا شديدا انتهى ، فأعجب من معجزات القرآن .

أليست هذه للسائل التي لحصتها لك من كتابه هي عين تفسير هذه الآيات ، بل هي من آيات الله وهي بعض آيات ربك التي أظهرها للناس ؟

فيا ليت شعري أليست الجنة والنار اللتين ذكرهما هما المذكورتان في القرآن بالنص أفليس الرجل أنكر التثليث ؟

أوليس كلامه في أهل أفريقيا وأنها يسبقون الناس إلى الجنة وأن الأمم الوثنية من نفس تلك البلاد قديما معذبون في جهنم ؟

أقول : أليس هذا معجزة للقرآن في هذا العصر لأن أهل أفريقيا مسلمون وأسلانهم عباد أصنام . وانظر كيف صرح بما نصت عليه الآية وهو أن رؤساء دينهم لحبهم لإجلال الناس إياهم في أسفل جهنم كنص هذه الآية .

أوليس قوله : إن أطفال جميع الأمم يدخلون الجنة موافقا للأحاديث والآراء أجل علماء الإسلام ؟

أوليس تفضيله للنبي الشاكر هو عين ما أوضحه الإمام الغزالي في الإحياء أن النبي الشاكر أفضل من الفقير الصابر .

نتيجة هذا اللقائ

ألت ترى جد هذا أن ما قلناه من هذا الكتاب إنما هو بيان لسرّ هذه الآيات ، إذ ذكر أن التثليث يندب عليه للسيحيون ، وأن عظمة رجال الكنيسة تطرحهم في أسفل سافلين الخ . هذا هو سرّ هذه الآيات ولا سيما قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » انتهى ليلة الاثنين ١٦ مايو سنة ١٩٢٧ .

هذا ، ومن أوجب العجب أن يقع هذا الكتاب في يدي وهذه السورة مقدمة للطبعة وأخرطبها لأسباب عارضة حتى تمكنت من تلخيص ما تقدم ، والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات اه .

إيضاح

جد أن كتبت ما تقدم بأسبوع اطلع عليه أحد أهل الفضل من الإخوان فقال : أبهذا القول تثق ؟ وهل مثل هذه الأقوال التي لاحظ لها من التحقيق يفسر القرآآت ؟ القرآن وحى وهذا الرجل يدعى أنه خاطب الأرواح .

فهل الناعمة كالتسكلى ؟ فأين الثريا وأين الثرى ؟ وأين معاوية من على أو كلما نطق ناعق أثبت قوله في تفسير كلام الله ؟ قللت أنا لم أقل إنني موقن أنه حادث الأرواح ، كلا . قال ولم إذن قلت كلامه ؟ قللت قلته لثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنني وجدت هذه الآراء في غواها وفي مقصودها تشبه كلام الأرواح كما في كتابي المسمى [ كتاب الأرواح ] فإن تلك العوالم لما خاطبها القوم في أوروبا كان ذلك أشبه بما جاء في هذا الكتاب ، فإذا كان هذا العالم من رجال القرن الثامن عشر موافق لمن جاءوا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين فهو جدير بالبحث والتحري .

الأمر الثاني : أن هذه الآراء كما تقدم أيضا قد ذكرها خواص علماء الإسلام في أسرار الدين الإسلامي وينحو نحوها الإمام الغزالي وعبي الدين بن عربي وكتاب [ إخوان الصفاء ] ونحوهم . الأمر الثالث : أنني أنا نظرت في هذه الدنيا بمقل فوجدتها كما تقدم قد لازمتها الوحدة جملة وتفصيلا ولازمها الاتحاد .

فالشمس والسيارات والتوابع كالأرض والقمر وهكذا بقية الشمس كلهن متجاذبات متعابات متعاونات وكل هذه وما معها في الهجرة وهكذا المجرات الأخرى ، هذه تراها في نفوسنا طالما واحدا ، فهي في نفوسنا واحدة والأعلى منها يمدّ الأسفل ، فالشمس تمدّ الأرض وبقية السيارات بالضوء وهن مجذوبات لها كما تقدم .

ثم إنى وجدت هذا النوع الإنساني جعلت هيئته كهيئة هذه العوالم : أي إن وضعه في الوجود هو والحيوانات كلها كوضع اشتقاق هذه العوالم ، فإذا رأينا الأرض ( كما هو الرأى العام في العالم الآن ) مشتقة من الشمس دائرة حولها ملازمة لها والقمر مشتق من الأرض ملازم لها دائرة حولها .

هكذا يرى الناس جميعا قسمين : أبوين وابنا وبننا والأولان يعطفان على الأخيرين ، والأخيران مشتقان من الأولين تاجان لهما ، ثم نراهم من جهة أخرى قسمين : قسم هم ذكور وقسم هم أناث وهما متعلقان متحابان ، ونرى عالما وحكيما ونبيا يعلمون تلاميذ وأتباع ، وهذه أيضا ولادة أخرى معنوية ، يسببني هذا النظم ، نظام يراد به التصارف والهيبة بحسب أصله وهو قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وهذا هو الأصل الذي بنيت عليه كتابي [ ابن الإنسان ] الذي سأذكر ملخصه الذي استخلصه منه الأستاذ (ستلانة) التلياني في (مجلة العلوم الشرقية) في سورة الحجرات عند تفسير الآية للتقدم فيها هناك .

فإذن العالم الإنساني خلق أولا وبالذات لتعارف وللحبة كما خلقت هذه الموالم للتجاذب وللانحداد ، فإذا لم يوفق الإنسان لذلك في هذه الحياة لما أحرأه أن يتسكأ في سيره ، ويوضع (الدين لم يصلوا إلى هذه النتيجة) في عوالم منحطة ليدركوا بعد حين أنهم في ضلال مبين ويعلموا أنهم في السجن الجهنمي بعبادتهم كما قال تعالى « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » وهذا الأصل هو الذي يبنى عليه جميع هذه الآيات ، فمن فضل ماله أو أهله على المجموع ، ومن أخذ اللال وكان رئيسا دينيا وهو عليه حريص قد أخطأ للرعى وغش المجموع فصار نجسا يخبس في مكان محزن هو جهنم .

فهذا هو رأيي في هذه الدنيا فذلك نقلت كلام الرجل لملايمته لذلك أهدت للامة ، فإذا لم يكن ما فهمته حقا فلماذا لم يخلق الإنسان بصفة أخرى ؟ ولماذا لم يخلق كالنبات يعيش ويموت ولا نصب ولا تمب ولا ألم ، وكان في الإمكان أن يخلق الناس كما يخلق الشجر إلى حين ثم يموتون ، الشجر لا يحتاج بهه إلى بعض كثيرا ولكن هم في أشد الحاجة بعضهم لبعض ، لعمرك لم يكن ذلك إلا لأجل ما ذكرناه وبيناه وفتح الله به . اللهم إن الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لا يفقهون ولا يدرسون هذا الوجود ، لذلك أزلت عليهم الديانات وخلق الحكومات ليتفطنوا .

هذا هو سرّ ذمّ الله للأخبار والرهبان الذين يحرصون على اللال ويستبدون الناس مع أن هؤلاء العلماء إنما نصبوا لخدمة المجموع ، هكذا علماء الإسلام إن لم يكونوا رحمة للمسلمين فهم ملحقون بالأخبار والرهبان لحرصهم على الدرهم والدينار .

هذا هو الذي أفهمه في هذه الدنيا التي هي أكبر مدرسة لنا معاشر بني آدم ، فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذا بيان يصلح أن يكون أسأ تبنى عليه الحكمة والفلسفة والحياة ، نقلت : ونحن إذا فسرنا كتاب الله فهو أولى بالأسول اثابته والعلوم الحقّة ، وإن لهذه الآراء شأنها في الأمم بعد مغادرتنا هذه الدنيا ، ويشير لما قلته الآن قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض اتقيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائمين » وقوله « وقد يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدوّ والآصال » استوى الله إلى السماء ودعا السموات والأرض فأتتا طائمتين .

ولما سجده من في السموات والأرض انقسموا فريقين : فريق سجد طائما وآخر مكرها ، وهذا يشهد لما ذكرته لك الآن ، تجاذبت الموالم كلها ، نظمت بحساب ، جرت الشمس حول كوكب مجهول لنا وجرت الأرض حول الشمس وجرى القمر حول الأرض وجرت السيارات كذلك ، وهكذا تواجها جميع الكواكب كلها جرت جريا منظما لم يجد فيه الطاء خطأ ، وهذا فيه معنى الحب ويسمى الجاذبية :

• إن الحب لمن يحب مطيع • أما بنو آدم فليسوا جميعا راضين محبين بل سيأتون إلى ربهم قوم طائمون محبون ، وقوم عاصون مجرمون ، والطاعة هنا ترجع إلى الحب والشوق والقرام ، فمن أدرك جمال هذا العالم أحبّ صانعه فرضى بما يجربه عليه لعله أنه لحكمة ، ومن عاش غافلا ساهيا لاهيا لا يحب الله ولا يرضى عن فضله ويمترض في قلبه عليه ويأتيه كرها لاهيا ، ولن يكمل هذا النوع الإنساني إلا إذا كانت الأرواح متجاذبة كتجاذب وتحاب الكواكب والشموس والأقمار .

فإذا ذمَّ الله الأعبار والرهبان لأكلهم أموال الناس بالباطل فذلك لأنهم لم يوقفوا للنظام الأمن ، نظام  
الجمال والكمال بأن يدبوا الناس آباء لأن يكونوا غافلين يعملون الدين وسيلة للخير واللبس فضكسوا الآية  
وطمسوا الحقيقة فرجعت محبتهم لأنفسهم لا للناس وطاش سهمهم فلم ينظروا إلى الشمس والقمر والكواكب  
إذ يفيض النور بلا أجر ولا إلى الآباء والامتهات إذ يفيضون النعم وأنواع البر على الأبناء بلا أجر ، هكذا الله  
يفيض الخير على الناس بلا أجر .

ضرب الله الأمثال للناس بالكواكب والآباء وبالأنبياء فظلم الناس تائبين غافلين حيارى سكارى  
في شهواتهم ، وزهد الأعبار والرهبان في الجمال العام وعكفوا على الشهوات البهيمية وتبهم في ذلك بعض رجال  
الصوفية في الأمم الإسلامية فقد رأيتهم يجوبون بلادنا المصرية ويطوفون على القرى والكفور ويتظاهرون  
بالصلاح والتقوى ويأخذون أموال الناس بالباطل وما هم بطاء ولا بوعاظ ولكن ساروا شوطا وراء الدرهم  
والدينار كما سار الذين من قباهم من الأعبار والرهبان الذين أطلق الله أوروبا من قبضتهم بسبب اطلاع القوم  
على دين الإسلام كما قدمناه عن السيدة الأروية التي أسلمت ، فهم أطلقوا من وثاق رجال الدين بسبب ديننا  
والسلمون في بلاد الغرب من طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وفي مصر والشام والعراق وبلاد الهند  
وجاوه قد وقفوا في شبكة هؤلاء الصيادين عن اتسوا بجملة الصوفية ظاهرا وهم عنها غافلون ، لا يامشرون  
للدين كلاً ولا والله إنما رجال الدين هم الذين يسيرون على سنن أبي بكر وخلفائه من بعده ، هم الذين  
يقضون آثار الأنبياء ويكون مقصدهم التل الأهل كما أوضعه أفلاطون في جمهوريته إذ نقل عن أستاذه سقراط  
أن الدين يقومون بحكم الجمهور يجب أن يكونوا أعلم الناس وأذكاهم وأتقاهم وأزهدهم في حطام هذه الدنيا  
وأقربهم من الله زاني ، وقال إن علمهم هو الذي يجعلهم أعفاء عما في أيدي الناس فهم وإن كان لهم السلطان  
على الناس ممنوعون بورعهم وأدبهم عن مجاوزة الكفاف من للأكل واللباس ، وهذه بيننا سيرة أبي بكر  
وعمر وهنجان وعلى .

إن الناس جد اللوت تجتمع أرواح الأخيار منهم في عالم واحد ، وأرواح الأشرار في عالم آخر ، وكما أن  
الشمس تزداد إشراقا بازدياد حجمها هكذا الأرواح القاضة تلتئم ذرات الشمس وتتحده وتزداد سعادة  
بازدياد الواصلين إليها من عالمنا ، وهكذا يزداد المهزمون عذابا بوصول الفجار إليهم إذ يشعرون بآلام تزداد  
بازدياد من يصلون إليهم من الأتقياء كما يزداد الفجار عذابا في الدنيا بشكائهم وازياد فتنهم وشروعهم .

لا سعادة لهذا الإنسان ولا راحة إلا بالمعطف العام فلا مدنية براقية مادام أهل الأرض لا يتعدون على  
منافعها العامة كما أوضحناه في كتاب [ أين الإنسان ] ولا سعادة في الآخرة إلا لنفوس صار باطنها جمالا وكالا  
وحبا للعلم وللإنسانية وخيرها ، والله هو الولي الحميد .

فما سمع ذلك صاحي قال لي : يتبين من كل ما ذكرته هنا أن أهل كل دين في الأرض طغفوا وبنوا ،  
فهذه أم النصرانية قد طغت في المال وقد قال لها المسيح مانعه : [ لا تكثروا لكم كنوزا على الأرض ]  
وذلك في إنجيل متى (٦) ولما أرسل رسله أمرهم ألا يحملوا عصا ولا حذاء ، وألا يأخذوا مالا لأنهم جمانا  
أخذوا فليعطوا جمانا ، وهكذا جاء في القرآن «قل ما أسألكم عليه من أجره ومع ذلك نرى الأمم الإسلامية  
تسارع في خطاها إلى اقتفاء آثار المسيحيين لاسيما بعض الشيوخ من رجال الصوفية الذين أشبهوا القيسيين  
في أخذ أموال الناس بالباطل ، فأجبت قائلا : نعم لقد صدقت إن أهل كل دين في الأرض طغفوا وبنوا  
وسأحدثك عن سبب ذلك .

اعلم أن كل دين في الأرض ينزل على أهله صافيا حيا لا تشوبه شائبة ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر أظهر السر واستنارت  
البل في هذا التفسير وسيكون في الشرق رجال يتنازرون بقولهم وبحكمهم وبتعاليمهم ، أنظر أنظر تجد أن

كل دين ينزل إلى الأرض يضيء ، كما تضيء الشمس والكواكب وبجي كما يحيى الماء ، انظر في دين الصينيين القدماء تجده في صدقه وحسنه وجماله وجلاله يشبه الإنجيل ويشبه القرآن في حسن جماله وصدقته .

لقد كان أقدم نبي عند الصينيين يسمى ( يو الكبير ) ظهر قبل المسيح بألفي سنة ، ثم جاء بعده بقرون الفيلسوف ( ليونسو ) وهذا قبل البلاد بمدة ٥٩٠ سنة وهو القائل : [ أسعف الناس في حاجاتهم أهد من كان موجودا في خطر ] هذا الفيلسوف عدوه لها متجسدا كما اعتقد النصارى في المسيح .

وكان ( ليونسو ) معاصرا ( لفيثاغورس ) سنة ٥٥٠ قبل التاريخ للمسيحى ظهر ( كوفيسوس ) وم أعظم فلاسفة الصين ، وعاش ٧٣ سنة ونحلى من الرذيلة وعمل بالفضيلة مثل ( بوذا ) وكان يقول لتلاميذه : [ إن الهبة النقية التي أوسمك بها هي انعطاف ثابت في النفس وميل يوافق عليه الصواب مجردنا من الأغراض الدانية وبضمانا إلى الداس بأسرهم فنخالهم جسما واحدا معنا فنفرح لفرحهم ونحزن لحزنهم ولا مانع يمنع من ملكته هذه الهبة أن يسي في رقيه الداني وطلب العالی . إنما تكون غايته في ذلك بذل النصح والمساعدة لإيهاض من دارت عليه رهي الزمان وكان ضعفه وسخوله حائلا دون نهضته ، وإن من اطلع على حقائق الأشياء لا يتحمل أن يبقى غيره متسكنا في ظلام الجهل والحيرة منكسرين لمصاعب الحياة ومهموها بل يتجدد ويحسدوم ويمهد لهم سبيل الخروج من ظلمات الجهل ويدخلهم مقدس العلوم ، ومق ملكت هذه الهبة القلوب جميعا يصبح العالم بأسره أسرة واحدة والناس أجمعون كإنسان واحد ، وبهذا الرابط العظيم السائد بين العظماء والضعفاء تصبح الإنسانية كلها جسما واحدا ] .

هذا هو كلام نبي الصينيين قبل المسيح وقبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك نجد الأئمة الصينية لها جمعيات من كل طبقة وبينهم جميعا تلك الروابط التي أشار لها دينهم ، فهذا القول وما يشابهه من الإنجيل والقرآن يدلنا أن الديانات تنزل من السماء متشابهة .

ولكن هناك سرا محبوبا يراه الناس بعيونهم ولكنهم لا يفهمونه ، ذلك السر هو السبب في طغيان النصارى وجهل المسلمين .

وبيانه أن الله أنزل النور وأزل الماء في الأرض قبل الأنبياء وقبل خلق الإنسان ، فهذا النور يختلط بالبات فيكون مساعدا للتفتح وللمر وللعب على حلاوتها ويكون مساعدا للحفظ على مرارته ، ومساعدا للسنا المسكى على شفاؤه لبعض الأمراض ، ومساعدا للمواد السامة النابتة في الأرض على حصد الأرواح ، الضوء ينزل من السماء بهجة وجمالا ولكن المخلوقات الأرضية حينما تلتقطه وتشمط عليه وتضمه لأنفسها تحوله إلى طباعها وأحوالها ، هكذا الماء ينزل من السماء فماذا يكون ؟ نراه يسلك ينابيع في الأرض فيكون على حسب الأسقاع التي يمر بها هناك ، فيكون ماء كبريتيا وماء جبريا وماء ملحيا ، وهكذا من أنواع المياه التي لا تصلح للشرب وإنما تصلح للأدوية ونحوها .

[ بناء عليه ] تقول : إن الأمور اللطيفة إذا اجتمعت بالكثيفة حوت إلى طباعها .

هكذا الديانات لما نزلت من السماء نزلت صافية ، ولكن عقول أهل الأرض حوت تلك الديانات إلى طباعها وقلبتها إلى أهوائها ، فهناك الديانة المسيحية التي أحسن خواصها الهبة العاتمة كيف صار رجال دينها كما تقدمم أسرع الناس إلى قتل آلاف الآلاف لأذى ذنب صغير أو كبير .

وهذا دين الإسلام ، انظر كيف نبخ أوائل رجاله في الزهد والورع كما قرأته هاهنا قريبا عن أبي بكر وعمر ، ثم جاء بعد الصدر الأول قوم لا يريدون إلا الدرهم والدينار والفخر والرياسة وأخذ أموال الناس بالباطل .

اللهم إن أكثر أهل الأرض يتبعون أهواءهم كما قال تعالى « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

اللهم إنك أنزلت آية الأجر والرهبان وأكلهم أموال الناس بالباطل في سورة التوبة النازلة أيام ظهور الإسلام وعلبته وارتقائه لتمهد السبيل للقائمين بالأمر ، ألا يجولوا الرياسة سيلا للال ؟ بل يكونون للأمم آبا . وليكن أمم الإسلام للتأخرة نامت يوما عميقا .

اللهم إني ألفت هذا التفسير وإني آمل أن يكون سببا في ظهور جيل جديد يصلح لتلقي تعاليم القرآن التي قام بها أقطاب الصدر الأول من الصحابة رضوان الله عليهم ولا يكونون كرجال انصارى للذكورين في هذا اللقار وأن يقطعوا دابر الرجال الذين يأخذون للال من اللولين مثل ما يأخذهم رجال الدين لللبي ، وإني آمل أن يكون هذا التفسير مهدا لمزرعة إسلامية سالحة تصلح لتعاليم هذا الدين ، والله هو الولي الحميد .

انتهى يوم الجمعة ضحى ٢٧ ماو سنة ١٩٢٧ ، وإلى هنا انتهى القسم الأول من سورة التوبة .

### (القسم الثاني)

إلا تنفروا يمدبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضرؤوه شيئا والله على كل شيء قدير \* إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم \* أفرأوا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون \*

### التفسير اللفظي

(إلا تنفروا) أى إلى الحرب ( يمدبكم عذابا أليما ) وجيحا ( ويستبدل قوما غيركم ) خيرا منكم وأطوع ( ولا تضرؤوه شيئا ) ولا يضر الله جلوسكم ( إلا تنصروه ) أى إن لم تنصروا محمدا صلى الله عليه وسلم بالخروج معه إلى غزوة تبوك ( فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ) كفار مكة ( ثاني اثنين ) يعنى رسول الله وأبا بكر ( إذ هما في الغار ) ثقب عظيم يكون في الجبل ، هذا الغار في جبل ثور يقرب من مكة مسير ساعة ( إذ يقول ) رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لصاحبه ) أبى بكر ( لا تحزن ) يا أبا بكر ( إن الله معنا ) معيننا ( فأنزل الله سكينته ) طمأنينته ( عليه ) على النبي صلى الله عليه وسلم ( وأيده بجنود لم تروها ) هم الللائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه ، وهكذا يوم بدر والأحزاب وحين أيدته باللائكة ( وجعل كلمة الذين كفروا ) أى دعوتهم إلى الكفر ( السفلى وكلمة الله ) دعوته إلى الإسلام ( هي العليا والله عزيز ) يمز نصره أهل كفته ( حكيم ) يذل أهل الشرك بحكته ( انفروا ) أخرجوا مع نبيكم إلى غزوة تبوك ( خفافا وثقالا ) ركبانا ومشاة ، صاعا ومراسا ، شبانا وشيوخا ، لاسلاح ممك أو معكم سلاح ، فأت عيالكم أو معكم عيال ،

جهازيل وسمانا (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) مما إن أمكن أو بأحدهما على مقتضى الإمكان (في سبيل الله ذلكم) الجهاد (خير لكم) من تركه (إن كنتم تعلمون) كون ذلك خيرا فبادروا إليه، انتهى التفسير اللفظي لقسم الثاني من سورة التوبة.

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَمَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ  
بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* عَفَا اللَّهُ  
عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ \* لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ \* إِنَّمَا  
يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَازْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ \*  
وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ  
الْقَاعِدِينَ \* لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْمُوا خِلَالَكُمْ يَبْمُونَكُمْ الْفِتْنَةَ  
وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ \* لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ  
حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا  
فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ \* إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ  
تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ \* قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا  
الْأَمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ \* قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا  
إِخْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِمَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِينَا  
فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ \* قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ \* وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ \* فَلَا تُنَجِّبُكَ أَمْوَالُهُمْ  
وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ \*  
وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ \* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا  
أَوْ مَفَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَعُونَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ

أَعْتَبُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُمَطَّوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ \* وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ  
 وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ \* إِنَّمَا  
 الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْلُومِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالنَّارِ مِينَ  
 وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ  
 النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٍّ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ  
 آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ  
 لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ \* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدُ  
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ \* يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ  
 تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرْهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَمُخْرِجٌ مِمَّا يَحْذَرُونَ \*  
 وَإِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ  
 تَسْتَهْزِئُونَ \* لَا تَعْتَذَرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ  
 طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ \* الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ  
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ \*  
 وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ  
 وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيمٌ \* كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا  
 فَاسْتَمْتَمُوا بِخِلَافِهِمْ فَاسْتَمْتَمْتُمْ بِخِلَافِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَافِهِمْ وَخُضِعْتُمْ  
 كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ \* أَلَمْ  
 يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ  
 وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أُنْتَهَمَ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
 يَظْلِمُونَ \* وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ  
 الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ  
 إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ



فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ . وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \*  
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَوْاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ \*  
 يُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِمَدِّ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ \*  
 وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا  
 يُمَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ \* وَمِنْهُمْ  
 مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ  
 فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ \* فَأَعْقَبَهُمْ نِقَاحًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا  
 أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ \* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ  
 وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ \* الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ  
 لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* اسْتَغْفِرُ  
 لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا  
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ \* فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ  
 اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ  
 نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ \* فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا  
 كَانُوا يَكْسِبُونَ \* فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا  
 مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْمُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ  
 وَلَا تَصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا  
 وَهُمْ فَاسِقُونَ \* وَلَا تُنَجِّيكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُمَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا  
 وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ \* وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ  
 اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ \* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا  
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ \* لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
 جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ \* أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ

جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ  
 الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَمَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ  
 عَذَابٌ أَلِيمٌ \* لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ  
 إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا  
 مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَآوَا وَأَعْيَنُهُمْ فَبِئْسَ مِنَ الذَّمِّ حَزَنًا  
 إِلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ \* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا  
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* يَمْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ  
 إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ  
 وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* سَيَخْلِفُونَ  
 بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَتَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
 بِجَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ  
 لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ \* الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ  
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَقْرَمًا  
 وَيَتَّبِعُ بِكُمْ الدَّوَارَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ  
 يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ  
 قُرْبَةً لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ  
 وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* وَيَمْنُ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَاقِقُونَ  
 وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَتُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ  
 إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ \* وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ  
 أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا  
 وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ

التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ \* وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* لَأَتَقَمُّ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدِ أَسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ \* أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \*

## التفسير اللفظي

نزل في التخلفين عن غزوة تبوك ( لو كان عرضا ) وهو ما عرض لك من منافع الدنيا : أى لو كان مادعوا إليه معنا ( قريبا ) سهل الأخذ ( وسفرا قاصدا ) وسطا مقاربا ، والقاصد والقصد : للعتدل ( لا تبعوك ) لواقفوك في الخروج ( ولكن بدت عليهم الثقة ) للسافة الناطقة الشاقة ( وسيحلفون بالله لو استطننا لخرجنا معكم ) وهذا من دلائل النبوة لأنه أخبر بما سيكون بعد القبول ، فقالوا كما أخبر : أى سيحلف التخلفون بالله عند رجوعك معتذرين يقولون « لو استطننا لخرجنا معكم » ( يهلكون أنفسهم ) أى حال كونهم مهلكين أنفسهم ( والله يعلم أنهم لكاذبون ) فيما يقولون .

واعلم أن هؤلاء التخلفين قد استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف فضابه الله وقال ( عفا الله عنك ) كناية عن الزلة فإن العفو من نواحيها ، يقول : عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذناك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوا في ترك الخروج معك إلى تبوك ، فهذا أحد الأمرين اللذين عوتب عليهما . والثاني أخذه القدية من الأسارى وهو مجتهد في ذلك ، وهذا العتاب لأنه ترك الأفضل ، والأنبياء يعاتبون على ترك الأفضل ( لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا ) ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ( بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين ) وعدم مجزئ التواب ( إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ) بين المنافقين وهم تسعة وثلاثون رجلا ( وارتابت قلوبهم ) واضطربوا في عقيدتهم ( فهم في ريبهم يترددون ) يتحيرون ، فالنتحير من شأنه أن يتردد وللتبصر ديدنه الثبات ( ولو أرادوا الخروج ) معك إلى غزوة تبوك ( لأعدوا له عدة ) أهبة لأنهم كانوا أضياء ( ولكن كره الله انبعاثهم ) نهوضهم للخروج فإذا هم ماخرجوا ( فتبطلهم ) فكسلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث ، ويقال تبط : وقف عن الأمر بالتهديد فيه ( وقيل اقموا ) أى قال بعضهم لبعض ، أو قال الرسول صلى الله عليه وسلم غضبا عليهم :

أى تخلفوا (مع القاعدين) مع للتخلفين بغير عذر . ثم بين حكمة عدم خروجهم فقال (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) إلا فسادا وشرا : أى ما زادوكم شيئا إلا خبالا (ولأوضحوا خلالكم) أى ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بإلقاء الحجمة والأحاديث الكاذبة فيكم (ييقونكم الفتنة) يطلبون لكم ما فتنتون به كأن يقولوا للمؤمنين لا طاقة لكم بدوكم وستهزمون منهم وسيظهرون عليكم (وفيكم سماعون لهم) أى مطيعون لهم قابلون لكلامهم (واقه علم بالظالمين) وعيد لهم وزجر (لقد ابتغوا الفتنة) تشتيت أمرك وتفريق أصحابك (من قبل) يوم أحد فإن ابن أبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك جد ما خرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرب من ثنية الوداع انصرفوا يوم أحد (وقلبوا لك الأمور) ودبروا لك المكائد والحيل ودوروا الآراء في إبطال أمرك (حق جاء الحق) النصر والتأييد (وظهر أمر الله) وعلا دينه (وم كارهون) على رغم منهم . وهذا القول نسليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تخلفهم وبيان ما تبسطهم الله لأجله وكره انبئهم له (ومنهم) ومن الناقضين (من يقول أئذنى لى ولا تفتنى) كالجدي بن قيس النافق قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تجهز إلى غزوة تبوك يا أبا وهب هل لك في جلاد بن الأسفر ، يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصفاء ؟ فقال الجدي : يا رسول الله لقد عرف قومى أى رجن مفرج بجنب النساء وإنى أخشى إن رأيت بنات الأسفر ألا أصبر عنهن ، أئذنى لى فى العمود ولا تفتنى بهن وأعينك بمالى ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد أذنت لك (ألا فى الفتنة سقطوا) يعنى وقعوا فى الفتنة العظيمة وهى النفاق (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم (إن تصبك حسنة نسؤم) من ضرر وغنيمة نخزن للناقضين (وإن تصبك مصيبة) القتل والمزيمة مثل يوم أحد (يقولوا) أى للناقضون (قد أخذنا أمرنا من قبل) تبجحوا بانصرافهم عنك واستحمدوا آراءهم فى التخلف عنك (ويتولوا) عن مقام التحدث بذلك إلى أهلهم (وم فرحون) سرورون (قل لن يصيبنا) من خير أو شر (إلا ما كتب الله لنا) قضى الله لنا (هو مولانا) الذى يتولانا وتولاه (وطى الله فيتوكل المؤمنون) وحق على المؤمنين ألا يتوكلوا على غير الله (قل هل ترصون) تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسينين) وهما الفتح والضيعة أو القتل والشهادة (ونحن تربيص بكم) إحدى السوءيين : إما (أن يصيبكم الله بجناب من عنده) هلاككم (أو بأيدينا) بسيفنا لفتلكم (فترصوا) بنا ما ذكرنا (إننا معكم مترصون) ما هو ما قبلكم (قل ألقوا) فى وجوه البر (طوعا أو كرها) طائفين أو مكرهين : أى غير ملازمين وملازمين (لن يتقبل منكم) ما أنفقتم طوعا أو كرها ، ونحو هذا قوله تعالى « استغفر لهم أو لا نستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ، وقول الشاعر :

أسيئ بنا أو أحسن لاملومة لدينا ولا مقلوة إن تفلت

ثم علله فقال (إنكم كنتم قوما فاسقين) متصدين عاقين (وما منهم أن تقبل منهم تقفاتهم إلا أنهم كفروا) أنهم فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه : أى وما منهم قبول تقفاتهم إلا كفرهم (بأنه برسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) جمع كسلان (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم اعتقدوا أن الإنفاق فى سبيل الله مفرم (فلا تصيبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليغذيهم بها فى الحياة الدنيا) الإعجاب بالشيء أن تسر به سرور راض به متعجب من حسنه : أى لا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا ، فإنما أعطاهم ذلك ليغذيهم بالمصاب فيها (وزهق أنفسهم) والزهوق الخروج بصعوبة : أى وتخرج أرواحهم (وم كافرون) ويحضون بالله إنهم لنسك) لمن جملة المسلمين (وما هم منكم) ولكنهم قوم يفرقون) يخافون القتل وما يفعل بالشركين فيظهرون بالإسلام تمية (لو يجدون ملجأ) مكانا يلجئون إليه متحصنين من رأس جبل أو قلعة

أو جزيرة (أو مغارات) أي غيرانا في الجبال جمع مضارة : وهو للوضع الذي يحور فيه الإنسان أي يستر (أو مدخلا) أو نقفا يتدسون فيه وهو مفتعل من السخول (لولوا إليه) لأقبلوا نحوه (وهم يجمعون) أي يسرعون إلى ذلك المكان .

يقول إن للنافعين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم إلى أحد هذه الأماكن لصاروا إليه لشدة بغضهم إياكم (ومهم) ومن للنافعين (من يلزك في الصدقات) يبيك في قسمها ويظمن عليث (فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) إذا للفاجأة أي وإن لم يعطوا منها فاجثوا السخط مثل ذى الحويصرة التميمي للسمي حرقوس بن زهير أصل الحوارج إذ قال « يا رسول الله أعدل فقال صلى الله عليه وسلم وبلك من يعدل إذا لم أعدل فقال عمر أئذني لي فأضرب عنقه فقال صلى الله عليه وسلم دعه » الحديث في البخاري (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) ما أعطاهم من التينة، وذكر للدلالة على أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم كان بأمره (وقالوا حسبنا الله) كائنا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) صدقة أو غنيمة أخرى فنال أكثر ما نلنا (إنا إلى الله راغبون) أن يئتنا من فضله وهذه الآية كلها شرط لو والجواب محذوف : أي لكان خيرا لهم .

ثم أخذ سبحانه يبين مصارف الصدقات فقال (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الفقير : هو من لا مال له ولا كسب يقع موقفا من حاجته، من الفقار كأمه أصيب فقاره . والمسكين : من له مال أو كسب لا يكفيه من السكون كأن الصخر أسكنه، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل المسكنة ويتوخذ من الفقر، والسفينة كانت لمسكين (والعاملين عليها) هم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها في جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم (ولؤلؤة قلوبهم) قوم أسلموا وبنيتهم ضعيفة فيه فنسألف قلوبهم، وأشرفا يترقب بإعطائهم إسلام نظرانهم، وأشرفا يتألفون على أن يسلموا كهيبة بن حصن وعدى بن حاتم وصفوان بن أمية ، فالأول لتقوية إيمانه ، والثاني نيته قوبة في الإسلام ولكن يرجى أن يرغب في الإسلام نظراؤه ، والثالث كان يميل للإسلام فأعطى ليلس ، وهناك قسم رابع وهو أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم من الكفار لا يبلغهم جيش الإسلام لبعدهم فيعطون من سهم للؤلؤة قلوبهم : أي يعطى للمسلمون ذلك إذا ضعفت نيتهم في القتال أو ضعف حالهم (وفي الرقاب) المسكانيين (والنارمين) الذين ركبهم الدين بأن استدانوا لأنفسهم في غير معصية ولا إسراف وليس لديهم وفاء أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله عليه الصلاة والسلام « لا تحل الصدقة لغني إلا لحنسة لغاز في سبيل الله أو لغارم الحج » وذكر من هؤلاء الحنسة العامل عليها (وفي سبيل الله) وللصرف في الجهاد بالإتفاق على التطوعة أو ابتياع الكراع والسلاح وبناء القناطر والصانع وجميع وجوه البر كعمارة للساجد (وابن السبيل) يعنى للسافر من بلد إلى بلد والسبيل الطريق ، سمي للسافر ابن السبيل للازمته الطريق ، فرض (فريضة من الله) أي قسمة من الله لهؤلاء (والله عليم) بالمصلحة (حكيم) فيما حكم لهؤلاء .

ولما فرغ من الكلام على من يلزون في الصدقات شرع يتكلم على فريق آخر من النافعين فقال (ومهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) يسمع كل ما يقال ويصدق . جعل هو نفس الأذن كما يقال للجاسوس هو عين .

روى أنهم كانوا يقولون محمد أذن سامعة تقول ما عشنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول (قل هو أذن خير لكم) لأنه يسمع الخير ويقبله وفسر ذلك فقال (يؤمن بالله) يصدق به لما قام عنده من الأدلة (ويؤمن للمؤمنين) وصدقهم لما علم من خلوصهم (ورحمة للذين آمنوا منكم) أي وهو رحمة لمن أظهر الإيمان حيث يقبله

ولا يكتم سره ، فإذن ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقاً بكم وزحماً عليكم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) بإيذائه .

وجاء رهط من المنافقين للتخلفين عن غزوة تبوك بعد أن رجع النبي صلى الله عليه وسلم يعتذرون إلى المؤمنين ويخلفون فنزل (يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه) أي الله وكذلك رسوله وذلك بالتوبة والإخلاص (إن كانوا مؤمنين) أي إن كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعديه في الآخرة (ألم يعلموا أنه) أي أن الأمر والشأن (من يحادد الله ورسوله) يجاوز الحد بالخلاف ، وهي مفاعلة من الحد كالمشافة من الشق (ف) حق (أن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الجزى العظيم) الملاك الدائم (يخذر المنافقون أن تنزل عليهم) على المؤمنين (سورة تنبئهم بما في قلوبهم) أي بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين ، ولقد سميت السورة الفاضحة والمبصرة .

يقول ابن عباس أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعبر بعضهم بعضاً ، لأن أولادهم كانوا مؤمنين (فل استهزئوا) أمر تهديد (إن الله يخرج ما يحذرون) مظهر ما كنتم تحذرون إظهاره من نفاقكم ، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحى بهم وفي استهزائهم بالإسلام وأهله حتى قال بعضهم لا وددت أني قدمت لجلدت مائة وأنه لا ينزل شيء علينا يفضحنا . ثم إنه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه فقالوا انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيات هيات فأطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على المرك فأنام فقال لهم قلم كذا وكذا ، فقالوا يابني الله والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولا من كذا في شيء مما يخوض فيه اترك ليصرف بعضنا على بعض السفر فنزل (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلب قل أبأفقه وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) لم يعابوا باعتذارهم لكنهم واعتبروا أنهم معترفون بالاستهزاء فوبخوا بسبب أنهم أخطئوا مواضع الاستهزاء (لا تعتذروا) أي لا تشتغلوا باعتذاركم وكيف تنفكم بعد أن اقتضخ سركم (قد كفرتم) قد أظهرتم كفركم باستهزائكم (بعد إيمانكم) بعد إظهاركم الإيمان (إن تنف عن طائفة منكم) جهين بن حبير لأنه لم يستهزئ معهم ، ولكن ضحك معهم ، أو كل من يتوب ويخلص الإيمان بعد النفاق (نغذب طائفة) وديعة بن جذام وجد بن قيس ، أو كل من يصرون على النفاق غير تائبين منه (بأنهم كانوا مجرمين) مصرين على النفاق أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء . الرجال (لنافقون و) النساء (لنافات بعضهم من بعض) أي كأنهم نفس واحدة فهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، وكان عدد الرجال منهم ثلاثمائة والنساء مائة وسبعين (بأمرون بالمنكر) بالكفر والعصيان (وينهون عن المروف) عن الطاعة والإيمان (ويقبضون أيديهم) شحا بالمال أن ينفق في البر وأنواع الخير (نسوا الله) تركوا أمره أو أغفلوا ذكره (ففسدهم) فتركهم من رحمته وفضله (إن المنافقين هم الفاسقون) هم الكابون في الفسق وهو هنا التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير (وعدا لله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هي) أي النار (حسبهم) كافيتهم في التعذيب فلا حاجة لغيرها في تعذيبهم (ولعنهم الله) وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين يلعنون كما تلعن الشياطين (ولهم عذاب مقبم) دائم يخوف الفضيحة بكشف سرهم إذا نزل الوحي به وما يقاسونه من تعب النفاق ، ثم خاطبهم الله بعد النبوة فقال فلنم (ك) أفعال (الذين من قبلكم) من الكفار في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف الخ ثم وصف هؤلاء الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر مالا وولداً فقال تعالى (كانوا أشد منكم قوة) بطشا ومنعة (وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلافهم) أي تمتعوا بنصيبتهم من الدنيا باتباع

الشهوات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة ، فالخلاق : النصيب ، وهو ما خلقه الله للإنسان وقدر له من خير  
 ( فاستمتعتم بخلافكم ) أيها الناقون ( كما استمتع الدين من قبلكم بخلافكم ) وهذا كما تقول أنت مثل فرعون  
 كان يقتل خير حق ويضرب خير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل ، فالتكرير هنا للتأكيد وتوبيخ فعلهم  
 ( وخضتم كالذي خاضوا ) أي وخضتم خوضاً كالخوض الذي خاضوا ، والخوض الدخول في الباطل واليهو  
 ( أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ) أي بطلت في الدارين ( وأولئك هم الخاسرون ) أي كما بطلت  
 أعمال الكفار للماضي وخسروا تبطل أعمالكم أيها الناقون وتخسرون . ثم رجع إلى التوبة بعد الخطاب  
 لينشط السامع ولينوع الأسلوب فقال ( ألم بأنهم ) أي ألم بأن هؤلاء الناقين والكفار وهو استفهام بمعنى  
 التقرير : أي قد أتاهم ( نبأ ) خبر ( الذين من قبلهم ) يعني الأمم للماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكتناهم  
 حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ( قوم نوح ) بدل من الذين قد أهلكتناهم بالطوفان ( وعاد ) أهلكوا  
 بالريح العقيم ( ونمود ) أهلكوا بالرجفة ( وقوم إبراهيم ) أهلكوا بالمدم ، وكان هلاك نمرود بعبودية  
 ( وأصحاب مدين ) أي وأهل مدين وهم قوم شعيب هلكوا بجناب يوم الظلة : أي بنار كانت فيها  
 ( واللؤتفكات ) مدائن قوم لوط اتفكت بهم : أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من  
 سجيل ، أو قريات السكدين . وائتفا كهون : لانقلاب أحوالهم من الخير إلى الشر وإنما ذكر الله هذه  
 الأمم لأن آثارهم ظاهرة بالشام والعراق واليمن ، وكل ذلك قريب من أرض العرب ( أتتهم رسلهم بالبينات )  
 بالأمر والنهي والعلامات فلم يؤمنوا فأهلكهم الله ( لما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) بالكفر  
 وتكذيب الأنبياء وذلك لاستعدادهم النفس الذي سبق به القضاء على مقتضى الفطر ( وللؤمنون ) الصدقون  
 من الرجال ( وللؤمنات ) للصدقات من النساء ( بعضهم أولياء بعض ) على دين بعض في السر والعلانية  
 يوالى بعضهم بعضاً في الدين واتفاق السكينة والعمون والصرة ( يأمرون بالمعروف ) بالإيمان بالله ورسوله  
 واتباع أمره واجتناب نهيه ( وينهون عن المنكر ) يعني عن الشرك والمعاصي . وللمنكر : كل ما ينكره التمرح  
 وينفر منه الطبع وهذا في مقابلة وصف الناقين ( ويقومون الصلاة ) للقروضة ويتمون أركانها وحدودها  
 وخشوعها ( ويؤتون الزكاة ) الواجبة عليهم وهو في مقابلة « ويقبضون أيديهم » ( ويعطون الله ورسوله )  
 في السر والعلانية ( أولئك سيرحمهم الله ) لاحتماله لأن السنين مؤكدة للوقوع ( إن الله عزيز ) غالب على كل  
 شيء ( حكيم ) واضح كلاً في موضعه ( وعد الله للؤمنين وللؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها  
 وما كان طبيعياً ) يطيب فيها العيش . وعن الحسن رحمه الله هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزرجد  
 ( في جنات عدن ) أي في بساتين خلد وإقامة ، يقال عدن بالمكان : أقام به ( ورضوان من الله ) أي وشيء  
 من رضوان الله ( أكبر ) من ذلك كله لأن الجنة وهي النعيم القيم تصغر في جانب خالقها كما يصغر قصر لذلك  
 وهداياه ونعمته في جانب تعريبه لزاره وإقباله عليه وتلطفه معه وإكرامه له وهذا أمر يعرفه العقلاء في الدنيا  
 مع المخلوق فكيف ذلك مع الخالق ؟ ( ذلك ) الرضوان ( هو الفوز العظيم ) وحده دون ما عداه ، ولقد جاء  
 في آية أخرى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وفي آية أخرى أيضاً « يا أيها النفس الطمئنة ارجسى إلى ربك  
 راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلى جنى » ( يا أيها النبي جاهد الكفار ) بالسيف ( والناقين ) باللسان  
 ( واغلظ عليهم ) في الجهادين جميعاً ولا تتأهبهم ، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت  
 فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه التلطفة ما أمكن ( ووأوام جهنم وبئس للصير ) جهنم ، ولقد أقام رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب للناقين للتخفيف فيجمع من معه منهم  
 الحلاس بن سويد فقال الجلاس والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا فحقن

شر من الحبر ، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلال أجل واقه إن محمدا صادق وأنت شر من الحبر ،  
 وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر خلف الله ما قال فرفع عامر يده وقال : اللهم أنزل على  
 عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل ( بحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ) وهي  
 إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحبر ، فقال الجلاس يارسول الله والله لقد قلته وصدق عامر كتاب  
 الجلاس وحسنت توبته ( وكفروا به إسلامهم ) وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإيمان ( وهموا بما لم ينالوا )  
 وذلك أن الجلاس مّم يقتل الذي سمع مقالته خشية أن يشبهها عليه ( وما تمعوا ) وما أنكروا وما عابوا  
 ( إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ) وذلك أنهم كانوا حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك  
 من العيش لا يركبون الحبل ولا يحوزون التناثم فأثروا بالتناثم وقتل للجلال مولى فأمر رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم بدبته اثني عشر ألفا فاستغنى ( فإن يتوبوا ) عن النفاق ( بك ) التوب ( خيرا لهم وإن يتولوا يعدبهم  
 الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة ) بالقتل والنار ( وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ) ينجيهم من العذاب ،  
 وقد تقدم أن الجلاس تاب ( ومنهم ) أي ومن النفاقين ( من عاهد الله ) حلف بالله كعشبة بن حاطب بن أبي بلتعة  
 ( لئن آتانا ) أي أعطانا ( من فضله ) اللال الذي له بالشام ( لنصدقن ) في سبيل الله ولنؤدين منه حق الله  
 ولنصلن به الرحم ( ولنكونن من الصالحين ) بإخراج الصدقة ( فلما آتاهم من فضله ) أعطاهم الله اللال ونالوا  
 صاهم ( غلوا به ) منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد ( وتولوا ) عن طاعة الله ( وهم معرضون ) معرضون على  
 الإعراض ( فأعقبهم نفاقا في قلوبهم ) فأورثهم البخل نفاقا تمكننا في قلوبهم لأننا كان سببا فيه ( إلى يوم بلقونه )  
 أي الله سبحانه وتعالى وهو يوم القيامة ( بما أخلفوا الله ما وعده ) وما كانوا يكذبون ( أي بسبب إخلافهم  
 ما وعدهوا الله من الصدقة والإنفاق في سبيله وبسبب كذبهم في قولهم « لنصدقن ولنكونن من  
 الصالحين » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « آية النفاق ثلاث : إذا حدثت  
 كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أتمن خان » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « أربع من كنن فيه كان منافقا  
 خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ،  
 وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » ولا جرم أن هذه الخصال ما عمت في أمة إلا حل بها البوار وأصبح  
 رحالها غير مصدقين فلا تكون لهم شركات ولا تجارات رابحة ولا مودة صادقة ، وهذا هو الحراب العاجل  
 للأمم ، فأين الدين إذن ؟ فليجتهد المسلم ألا يخلف الوعد وألا يكذب وألا يفجر في خصامه وألا يخلف  
 العهد ( ألم يعلموا ) أي للنافقون ( أن الله يعلم سرهم ) أي ما أسرّوه من النفاق بالعزم على إخلاف ما وعده  
 ( ونجوهم ) وما يتناجون به فيما بينهم من اللطاعن في الدين ( وأن الله علام النيوب ) فلا يخفى عليه شيء  
 ( الدين ) محله التمسك أو الرفق ( يلزومون للظوعين ) يبتون للظوعين التبرعين ( من المؤمنين في الصدقات )  
 متعلق بيلزومون .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث على الصدقة فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم  
 وقال : كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمست أربعة لبيالي ، فقال عليه الصلاة والسلام : بارك الله  
 لك فيما أعطيت وفيما أمست ، فبارك الله له حتى صولحت فحاضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا ،  
 وتصديق عاصم بن عدى بمائة وسق ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر ، فقال : بت ليلى أجر بالجرير  
 ( الحليل ) على صاعين فتركت صاعا لبيالي وجئت بصاع فلزمت النفاقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم  
 إلا ربا ، وأما صاع أبي عقيل فأغنى عنه ، فنزلت ( والذين لا يجحدون إلا جهدهم ) إلا طاقتهم على الصم ،



وهو على الفتح مصدر جهد في الأمر بالغ فيه ( فيسخرّون منهم ) فيزهرون ( سخر الله منهم ) جازاهم على سخرتهم  
كقوله تعالى « الله يستهزى بهم » ( ولهم عذاب أليم ) مؤلم .

روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبي سؤل وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم  
في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى ( استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن  
تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ) فقال صلى الله عليه وسلم لأزيدن علي السبعين ، فترى « سواء عليهم  
أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » فكأنه صلى الله عليه وسلم فهم أولا : أن المراد بالسبعين  
العدد المخصوص ، فجاء البيان أن المراد التكثير ، والعرب تستعمل السبعة والسبعين والسبعمئة في التكثير ،  
ذلك لأن السبعة فيها ثلاثة أوتار وثلاثة أشعاع ، ومعلوم أن الواحد ليس من العدد لأنه أصله ؛ فالسبعة أول  
الكثرة من الشفع والوتر ، والسبعون أبلغ من السبعة فقد ضربت في العشرة ( ذلك بأنهم كفروا بالله  
ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ) التمردين في كفرهم كعبد الله الذمكسور لأنه يخفي الكفر  
ويظهر الإيمان .

وبهذا تبين أنه ممن لا يرجى إيمانهم ، والاستغفار إنما يكون لمن يرجى إيمانهم فهو كالتيه على  
عذر النبي صلى الله عليه وسلم في الاستغفار ، والمنوع الاستغفار بعد العلم أنهم مطبوعون على الضلالة كما قال  
تعالى « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم  
أصحاب الحجيم » ( فرح المخلصون ) الناقصون الذين استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وخلفهم بالمدينة  
في غزوة تبوك كما تقدم في آيات كثيرة ( وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ) فلم يفعلوا  
مافعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم ( وقالوا لا تنفروا في الحر ) أي قال بعضهم لبعض ذلك ( قل نار  
جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ) فكيف اختاروها يباشر الكسل والترف والتنعم ( فليضحكوا قليلا  
وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ) من النفاق وهذا كناية عن السرور والتم ، ويراد بالقلة العدم ( فإن  
رجعك الله إلى طائفة منهم ) أي ردك الله إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين ، يعني مناقبهم ( فاستأذنوك  
للخروج ) إلى غزوة أخرى جد تبوك ( قل لن نخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا ) خبر معناه انتهى  
( إنكم رضيت بالعودة أول مرة ) فصار إسقاطهم من ديوان العزاة عقوبة لهم ( فاقصدوا مع الخالفين ) أي  
المتخلفين الذين لا يلبقون للحرب كالنساء والصبيان ( ولا تصل على أحد منهم ) أي من الناقصين صلاة الجنائزة  
( مات ) صفة لأحد ( أبدا ) ظرف ( ولا تقم على قبره ) أي كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ( تحليل  
للتقى : أي إنهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم ، وسبها أن عبد الله بن عبد الله بن أبي التقدّم ذكره طلب أن  
يكفن النبي صلى الله عليه وسلم أباه في قبصه وصلى عليه فقبل فاعترض عمر رضي الله عنه في ذلك ، فقال صلى  
الله عليه وسلم ذلك لا ينفعه وكنت أرجو أن يؤمن به ألف من قومه ، وروى أنه أسلم ألف من الحزرج  
لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله « ولا تقم على قبره » أي ولا تقف عند قبره  
للدفن أو الزيارة ( ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يخذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم  
كافرون ) هذه الآية كررت للبالغة ولتذكير الناس بأن ما على الأرض زينة الدنيا لاغير وبه العذاب فيها ،  
وأيضا الآيات نزلت في فرقتين ( وإذا أنزلت سورة ) ( وإذا أنزلت سورة ) أي بأن آمنوا ، وصح  
أن تكون أن مفسرة ( بالله ) متعلق بآمنوا ( وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم ) ذوو الفضل  
والسعة ( وقالوا ذرنا نكفن مع القاعدن ) الذين صدوا لعذر ( رضوا بأن يكونوا مع الخوالم ) مع النساء  
جمع خالفة ، والخالفة أيضا الذي لاخير فيه ( وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ) مافي الجهاد وامثال أمر الرسول  
صلى الله عليه وسلم من السعادة ( لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ) كأنه يقول

إن تخلف هؤلاء فقد جاهد من هو خير منهم ( وأولئك لهم الجبرات وأولئك هم المملحون ) الفأزون بالمطالب ( أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ) وهذا بيان لما لهم من الجبرات في الآخرة ، واستأذن رهط عامر بن الطفيل وأسد وغطفان في التخلف عن الجهاد بغزوة تبوك التي نحن بسدد الكلام عليها وقالوا : إن لنا عيالا وإن بنا جهدا فأذن لنا في التخلف ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم « قد نبأنا الله من أخباركم » وسيغنى الله عنكم ، وهناك قوم آخرون قدموا ولم يستأذنوا ، فهذا قوله تعالى ( وجاء للمذرون ) من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى فهو يوم أن له عذرا ولا عذره (من الأعراب ليؤذن لهم وقد ادّبن كذبوا الله ورسوله ) وهم مناققو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يستدروا فهم بذلك كذبوا الله ورسوله في ادّعائهم الإيمان ( سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ) وإنما لم يقل سيصيبهم لأن منهم من سيخلص في إيمانه في علم الله وهؤلاء جميعا لا يقبل اعتذارهم. ثم أخذ بين الذين أعذارهم صادقة فقال ( ليس على الضعفاء ) أي الأسماء في أبدانهم الماجزين عن الغزو مثل الشيوخ والصبيان والفساء ( ولا على المرضى ) ويدخل فيهم أهل الصمى والمرج والزمانة ، وبالجملة كل من كان موصوفا بمرض يمنع من الجهاد ( ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ) ثم وضيق في التخلف فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لأن الماجزين عن نفقة الغزو معذورون كفقراء من مزينة وجهينة وبنى عذرة ( إذا نصحوا لله ورسوله ) بأن آمنوا في السر والعلن وأطاعوا ولم يفشوا الأراجيف ولم يثيروا الفتن وقاموا بمصالح المجاهدين في غيبتهم لأهلهم في بيوتهم ( ما على المحسنين ) للمذورين الناصحين القامعين بشئون المجاهدين في بيوتهم ( من سبيل ) لاجتراح عليهم ولا طريق لتعابهم ( والله غفور ) يضر لهم تخلفهم ( رحيم ) بهم ( ولا على الذين يبنوا ولا حرج ولا إثم في التخلف عنك على الدين ) إذا ما أتوك لتحملهم ( لتعطيمهم الحموله ليلفوا إلى غزو المدون وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف ( قلت لا أجد ما أحملك عليه ) أضمرت قد قبله : أي قد قلت ، أي إذا ما أتوك حال كونك قائلا « لا أجد ما أحملك عليه » ( تولوا ) وهذا جواب الشرط ( وأعينهم تفيض من الدمع ) تسيل كقولك تفيض دما وهو أبلغ من يفيض دمها ، فالعين هنا جعلت كأنها كلها دمع فائض ( حزنا ) مفعول لأجله ( ألا يجدوا ) أي بأن لا يجدوا ( ما ينفقون ) في الجهاد ( إنما السبيل ) الحرج والإثم ( على الذين يستأذنونك ) في التخلف ( وهم أغنياء ) ثم استأنف ليان حالهم فقال ( رضوا بأن يكونوا مع الخوالم ) أي بالانتظام في جملة الخوالم وذلك إشارة الدعة والترف والتنعم ( وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ) أمر الله ولا يصدقون ( يستدرون إليكم ) يقيمون لأنفسهم عذرا باطلا ( إذا رجعت إليهم ) من هذه الغزوة ( قل لا تستدروا ) بالباطل ( لن تؤمن لكم ) لن تصدقكم ، وهو علة للنهي عن الاعتذار ( قد نبأنا الله من أخباركم ) علة لاتنفا. تصديقهم ( وسيرى الله عملكم ورسوله ) أتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ( ثم تردون إلى عالم الغيب ) ما غاب عن العباد ( والشهادة ) ماعده العباد ( فينبشكم ) يخبركم ( بما كنتم تعملون ) وتقولون من الخير ( ومن حولكم من الأعراب ) وهم أعراب مزينة وجهينة وأشجع وضمار وأسلم كانت منازلهم حول المدينة : أي ومن هؤلاء الأعراب مناققون ( ومن أهل المدينة ) وهم جماعة من الأوس والخزرج عطف على خبر للبتداء الذي هو « بمن حولكم » والبتداء ( مناققون ) وقوله ( مردوا على النفاق ) تمهروا فيه ، فيه تقديم وتأخير وتقديره : ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة مناققون مردوا على النفاق ( لا تعلمهم ) فإنهم بالقوا في النفاق بحيث إنك لا تعلمهم ( نحن نعلمهم ) يعني لكن نحن نعلمهم إذ لا تخفى علينا خافية ( سنذهب مرتين ) مرة في الدنيا بأن يجذبوا بأموالهم وأولادهم وتحيط بهم للصابب ويخرج لبعضهم مرض الديبة وهي جروح نارية تظهر في أكتافهم حتى تخرج من صدورهم بأن يناظروا بدخولهم الإسلام كرها للثقل والقوة وبأن يهانوا بالفضيحة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا

في يوم جمعة فقال : اخرج يا فلان اخرج يا فلان فإنك منافق ، فأخرج من المسجد أناسا وفضحهم ، فهذا هو العذاب الأول ، وهذه الفضيحة لهم بعد أن أعده الله بهم ومسامح له . وأما العذاب الثاني فهو عذاب القبر . وأما الثالث فهو عذاب النار وهو قوله ( ثم يردون إلى عذاب عظيم . و ) قوم ( آخرون ) سوى المذكورين ( اعترفوا بذنوبهم ) لم يعتدروا من تخلفهم بالأعذار الكاذبة كغيرهم وكانوا عشرة فبسة أو تقوا أنفسهم على سواري المسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين فرآهم موثقين فسأل عنهم فقيل له إنهم أقسموا ألا يجلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله هو الذي يحلهم فقال : وأنا أقسم ألا أحلهم حتى أمر فيهم فزلت فأطلقهم فسألوه صلى الله عليه وسلم أن يتصدق بأموالهم فيطهرهم ، فقال ما أمرت ، فزلت « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الخ » ( خلطوا عملا صالحا ) وهو إظهار الندم ( وأخرسيئا ) وهو التخلف وموافقة أهل النفاق ، والواو بمعنى الباء ( عسى الله أن يتوب عليهم ) يقول للمفسرون عسى من الله واجب ويتوب عليهم : أى يقبل توبتهم ، وقوله ( إن الله غفور رحيم ) أى يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه ، وقوله « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم » من الذنوب أو حب المال للوذى بهم إلى المعاصى كالتخلف للتقدم ( وتركبهم بها ) وتسمى حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين ( وصل عليهم ) واعطف عليهم بالثناء والاستغفار لهم ( إن صلاتك سكن لهم ) تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم ( والله سميع ) باعترافهم ( عليهم ) بندايتهم ( ألم يعلموا ) أى التوب عليهم وغيرهم ليتمكن في قلوب الأولين قبول توبتهم وليحرص الآخرون عليها ( أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ) إذا صحت ، والقبول هنا مضمن معنى التجاوز ( وبأخذ الصدقات ) يقبلها قبول من يثيب عليها ويخلف بدلها ( وأن الله هو التواب الرحيم ) كثير قبول التوبة والتفضل عليهم ( وقل اعملوا ) ماشتم ( فيرى الله عملكم ) فإنه لا يخفى عليه خيرا كان أو شرا ( ورسوله للؤمنون ) لأنهم يطعمهم الله على أعمالكم إما بالوحي في زمن النبوة كما رأيتم ، وإما بإلهام الناس ما خفى في نفوسكم كما قيل : [ السنة الخلق أقلام الحق ] ثم قال ( وسترّدون إلى عالم الغيب والشهادة ) يوم القيامة ( فينبشكم ) أى فيخبركم ( بما كنتم تعملون ) يعنى في الدنيا .

واعلم أن للتخلفين في هذه الآيات على ثلاثة أقسام :

[ أو لهم ] للناقون وهم الذين مردوا على النفاق .

[ وناهبهم ] النابيون للسايعون إلى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم ، وهم : أبو لبابة بن عبد المنذر

وأوس بن ثعلبة ووديعه بن حزام وغيرهم . وهم مختلفون في عددهم من ٣ إلى ٧ إلى ٨ إلى ١٠ ولا بهم معرفة ذلك .

[ واللهم الثالث ] موقوفون ومؤخرون إلى أن يحكم الله فيهم وهم للراد بقوله ( وآخرون مرجئون ) مؤخرون من أرجأته : أى موقوفون ، وقرئ « مرجون » بفتح الجيم وسكون الواو وهما لفتان ( لأمر الله ) في شأنهم ( إما يندبهم ) إن أصروا على النفاق ( وإما يتوب عليهم ) إن تابوا ( والله عليم ) بأحوالهم ( حكيم ) فيما يفعل بهم ، وإما للشك وهو راجع إلى العباد . وهؤلاء ثلاثة : كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن الربيع وقصتهم ستأتى في قوله تعالى « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » فهؤلاء تخلفوا عن غزوة تبوك الخ ما سأتى .

وروى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بشوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحدثهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا : نبني مسجدا وترسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصلى فيه أبو عامر الراهب الذي ترهب في الجاهلية وليس للسوح وتنصر ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم

للدنية قال أبو عامر : ما هذا الدين الذي حثت به ؟ فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم : حثت بالحليفة دين إبراهيم فقال أبو عامر فأنا عليها فكذب النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد جدال قال أبو عامر : آيات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا ، فقال صلى الله عليه وسلم آمين : وصحى أبا عامر الفاسق ، فقال أبو عامر الفاسق : لا أجد قوما يقانلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك حتى كان يوم حنين فلما انهزمت هوازن فرّ هو إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجدا فإني ذاهب إلى قصر ملك الروم فآني بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه ، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء ، فذلك قوله تعالى ( و ) فيمن وصفنا ( الذين اتخذوا مسجدا ضاررا ) مضارة للمؤمنين ( وكثيرا ) وتقوية للسكر الذي يضررونه ( وتفرقا بين المؤمنين ) أي الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء فأرادوا أن يتفرقوا عنه ويختلف كلهم ( وإرسادا ) ترقبا ( لمن حارب الله ورسوله من قبل ) وهو أبو عامر الفاسق وقد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم بنيانا مسجدا لدى العلة والحاجة واللبلة للطيرة واللبلة الشامية ونحن نحب أن تصل لنا فيه وتدعو بالبركة ، فقال : إني على جناح سفر وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه ، فما قفل من غزوة تبوك سألوهم إيمان المسجد : فنزلت عليه ، فقال لوحش : قاتل حمزة وممن بن عدى وغيرهما انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه ، فانطلقوا فضلوا وأمروا أن يتخذوا مكانه كنيسة تلتقي فيه الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام غريبا وحيدا ، وقوله « من قبل » أي من قبل بناء هذا المسجد . ألا ترى أنه آلى على نفسه أن يحارب النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يوم هوازن ( وليلحقن ) يعني الذين بنوا للمسجد ( إن أردنا ) يعني ما أردنا بينائنا ( إلا الحسن ) أي إلا القعدة الحسن وهي الرفق بالمسلمين الخ ما تقدم ( والله يشهد لهم كاذبون ) يعني في قولهم ( لانتم فيه أبدا ) أي لاتصل فيه أبدا ( لمسجد أسس على التقوى ) وهو مسجد قباء وقد أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقاء من يوم الاثنين إلى يوم الخميس وخرج يوم الجمعة أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ( أحق أن تقوم فيه ) مصليا ( فيه رجال يحبون أن يتظهروا ) من المعاصي والسكر والنفاق وإضرار المسلمين والتفريق بينهم ومن الحدث والحث والنجاسة والطهارة الباطنة وما يتقدمها من الظاهرة هي التي تقرب العبد من الله وتحميه في الناس ولا يقرب العبد من الله إلا بصفاء الباطن ، وكما صفا قرب بقدر القرب يكون حب الله ( والله يحب المطهرين . أفن أسس بنيانه ) ببيان دينه ( على تقوى من الله ورضوان خير ) على قاعدة محكمة هي التقوى من الله ( أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ) أي أم من أسسه على قاعدة ضئيفة وهو الباطل والنفاق الذي يشبه « شفا جرف هار » أي حرف مكان أكل الماء ماتحته فهو إلى السقوط أقرب ؛ فالشفا الحرف والشفير ، وقوله « هار » من هار يهور : إذا تداعى بفضه في إثر بعض كاهور الرمل ( فانهار به في نار جهنم ) فطاح به الباطل في نار جهنم ( والله لا يهدي القوم الظالمين ) لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم ( لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ) أي لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا حرارة وغیظا في قلوبهم ، والحرارة والغیظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم يورثهم ريبة في قلوبهم ، وهذه الريبة باقية في قلوبهم ( إلا أن تقطع قلوبهم ) أي تجمل قلوبهم قطعا وتفرق أجزاؤها إما بالسيف وإما بالموت : أي فهي باقية إلى أن يموتوا ( والله عليم ) بنيانهم ( حكيم ) فيما حكم به عليهم ، انتهى التفسير اللفظي . وفي هذا المقام لطائف :

[ اللطيفة الأولى ] في قوله تعالى « إلا تنفروا يذبكم عذابا ألما ويستبدل قوما غيركم »

[ اللطيفة الثانية ] في قوله تعالى « إلا تنصروه فقد نصره الله » الآية .

[ اللطيفة الثالثة ] في قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » .

- [ اللطيفة اربعة ] في قوله تعالى « فلا تمجك أموالهم ولا أولادهم » الآية .  
 [ اللطيفة الخامسة ] في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » .  
 [ اللطيفة السادسة ] في قوله تعالى « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب الخ » .  
 [ اللطيفة السابعة ] في قوله تعالى « ألم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وعمود و قوم إبراهيم - إلى قوله - ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .  
 [ اللطيفة الثامنة ] في قوله تعالى « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .  
 [ اللطيفة التاسعة ] في قوله تعالى « وهووا بما لم ينالوا الخ » .  
 [ اللطيفة العاشرة ] في قوله تعالى « قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » .  
 [ اللطيفة الحادية عشر ] في قوله تعالى « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » .  
 [ اللطيفة الثانية عشر ] في قوله تعالى « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفلتون » .  
 [ اللطيفة الثالثة عشر ] في قوله تعالى « سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » .  
 [ اللطيفة الرابعة عشر ] في قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله » .

اللطيفة الأولى « إلا تنفروا يذبكم عذابا ألينا ويستبدل قوما غيركم »

حكى الله في هذه الآية على الأمم الإسلامية أن تصبح في عداد الأموات إذا هي نامت وادعة ساكنة ولم تسع سعى الأحياء ، وأن تكون في خير كان ، وأن يستبدل بها إنما أخرى نحل في أماكنها ، تهديد شديد ووعيد عظيم أنزله الله بمن يتركون الجهاد في خفض من العيش ودعة .

ولقد أطال في ذلك أرسطاطاليس فيما كتبه إلى إسكندر يحذره من ترك للمالك الفارسية وادعة ، وعلل ذلك بزوال الدولة وحلول الأزمة وأن الناس يتحملون النعم والشدائد ولا يصبرون على النعم والدعة ، فإن الناس أيام الحروب يكون عندهم من النشاط والحركة وظهور الفرائز والقوى الكامنة ما يحرمون منه أيام سلمهم وفي وقت أمنهم ودعتهم ، وضرب الأمثال على ذلك بأمر خلت ودول مضت وأنهم بدعتهم وسكونهم وخفض عيشهم ذهبت ربحهم .

ولقد تبين ذلك في كل الأمم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، هكذا هنا يقول الله « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم » لأن الوجود في ارتقاء وتنازع . وكل أمة أحاطت بها السآمة وحلت بها صفات الأمن والدعة والسكل والبطر سلت القيادة لغيرها بمن هم أقدر على الحياة وأصبر على الجهاد وأولى بالقيادة ووكلوا إليهم أمرهم ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، والعالم في صعود ، فمن وقف أو رجع القهقري حل محله من هو أحق منه بالحياة ، ذلك هو النظام للستقيم والصراط السوي كما غلبت أمة الترك والفرس الأمم العربية في القرون الأولى من الإسلام ، ثم غلب التتر عليهم أجمعين ، ثم جاء الفرنجة فظفوا في ساحة الإسلام .

ثم جاء دور الأمم الشرقية وها هي ذه تريد أن تلعب دورها وتأخذ من الحياة حظها « ذلك تقدير العزيز العليم » وهذه هي الرحمة الإلهية والنعمة الربانية أن يكون العالم في ارتقاء وأن يولى زمامه الأكفأ وأن يظلم بخيلهم ورجلهم الأشتاء ليقوموا بأمر ربهم ويحفظوا نظام ملكهم فليس لله في الأرض من ولد ولا والد ولا صاحبة ولا صاحب ، وإنما هو عدل في أحكامه لا يبالى بأهل دين أو لغة أو جنس بل حكمه قاهر على الجميع ، خنس اليهود فأجلام وكسلت طوائف من المسلمين فأصنام ، وخنمت أمم ضالة غيرها فأردام « ذلك تقدير العزيز العليم » وهذه هي الرحمة في الوجود ، يبيت من لا تقع له في حياته ، ويحي من يسى في الوجود لدرس آياته « إن ربك عليم حكيم » .

## الطيفة الثانية قوله تعالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، الآيات »  
 روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين يوما لما اشتد بهم الكرب من ظلم المشركين بمكة  
 « إن رأيت دار هجرتكم سبعة ذات نخل بين لابتي ( وهما الحرتان ) فهاجر من هاجر إلى المدينة ورجع  
 من كان بالبيشة إلى أرض المدينة » ولقد حبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصعبه  
 وعلف راحلتي كانتا عنده من ورق السم أربعة أشهر ثم جاء الأمر بالهجرة فأخبر أبا بكر فأخذ رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم إحدى الراحلتين باليمن وقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم  
 الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، ثم توجه صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه إلى جبل نور فمكثا فيه  
 ثلاث ليال ، وكان يأتيهما بخبز القوم عبد الله بن أبي بكر ، واستأجر رجلا من بني الدليل هاديا خريتا ،  
 والحريتين الساهر بالهداية وواعداء غار نور بعد ثلاث ليال ، وروى أن المشركين طلعموا فوق الغار فأشفق  
 أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ظنك باثنين الله  
 ثالثهما ؟ فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله ، وقيل لما دخل الغار بحث الله حمامتين فباضتا في أسفله  
 والعنكبوت نسجت عليه ، ثم إن الدليل الدبلي عاد إليهما بعد ثلاث ليال فارتحلا ومعهما عامر بن فهيرة  
 والدليل المذكور فأخذ بهم طريق الساحل ، ثم إن سراقه بن مالك بن جشم طمع فباأعلنه كفار مكة من  
 الجعل العظيم لمن قتل النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وهو ديتهما فتبعهما بركض فرسه حتى سمع قراءة  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ملتفت وأبو بكر يكثر اللغات فساخت بدا فرسه في الأرض حتى بلغنا  
 الركبتيين وارتفع من ذلك الأثر دخان ساطع في السماء فنادى الأمان وأخبرهما بما يريد قومهما من قتلهما  
 وعرض الزاد والتاع عليهما فلم يقبلا ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب له كتاب أمن فأمر عامر  
 ابن فهيرة فكتبه في رقعة ، وكان أهل المدينة ينتظرونه حتى نزل يوم الاثنين من شهر ربيع الأول في بني  
 عمرو بن عوف وبقي عندهم بضع عشرة ليلة وأسس للسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه ثم ركب راحلته  
 حتى بركت عند مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت  
 به راحلته هذا إن شاء الله المنزل ، ثم ابتاع للسكان من صاحبيه الغلامين وبناء مسجدا اه .

## الطيفة الثالثة قوله تعالى « انظروا خفايا وتقالا »

قد تقدم معنى الخفاف والتقال [ وملخص المعاني التعميم ] ، فقل هذا يجب الجهاد على كل امرئ وهذا  
 الأمر منسوخ بقوله « ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآيات » كما سيأتي ، وبقوله « وما كان المؤمنون  
 لينفروا كافة » ومن العلماء من حمل الآية على أن الأمر للندب .  
 وروى أن أبا أيوب الأنصاري لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون مع أنه شهد بدرا فقبل له في ذلك ،  
 فقال يقول الله تعالى « انظروا خفايا وتقالا » ولا أجدنى خفيفا أو قتيلا ، وكذلك سعيد بن المسيب ذهب  
 إحدى عينيه ولم يترك الجهاد وقال إن لم يمكن الحرب كثرت السواد ، وقال صفوان بن عمرو كنت واليا على  
 حمص فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الفزو ، فقلت يا عم أنت معذور  
 عند الله ، فرفع حاجبه وقال : يا ابن أخي استغفرنا الله خفايا وتقالا إلا أنه من عبه يتبليه ، هذا ملخص  
 ما يقوله العلماء .

واعلم أن التحقيق في هذا للقيام أن الأمم كلها يجب عليها العمل العام ، فأصحاب القوة للدفاع ، وأصحاب  
 الصناعات لإحضار المدّة وكل امرئ في الآية مكلف بحمل لأنه لا دفاع بلا رجال أقوياء ولا دفاع للأقوياء

بلا سلاح ، ولا وقوف لهم في وجه العدو إلا بالنداء واللباس والطرق المنتظمة ، ولا طرق ولا غداء ولا لباس إلا بأعمال هامة ومدارس منظمة وحكومة قادرة وأمة مستيقظة وإدارة تامة .

وهذا ملخص دين الإسلام إذ يقول علماؤنا إن الصناعات كلها فرض كفاية ، فنقول الآن أيها المسلمون أين الكفاية ولا كفاية لديكم ولا صناعة ولا علم ولا حكمة ؟ فالجهاد واجب على الأمة كلها ، وعلى قادة الأمة أن يحملوا كل امرئ فيها استعد له من عمل نافع ، لافرق بين كنس الشوارع وتنظيف المساكن وتسييد الأرض وبين صنع للدافع والطائرات والكهرباء وما أشبه ذلك .

كل هذا واجب على الأمة كلها يجب أن تكون عاملة فإن لم يفعلوا ذلك أمموا أجمعين وعذبوا في الدارين وذاقوا العذاب المهون اه .

#### الطيفة الرابعة « فلا تصيبك أموالهم ولا أولادهم »

اعلم أن هذه الآية ذكرت في هذه السورة مرتين فيقول هنا « فلا تصيبك أموالهم ولا أولادهم » ويقول بعد آيات ولا تصيبك أموالهم وأولادهم الخ ، وقد جاء في أوائل هذه السورة « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ » فذكر هناك ثمانية أشياء : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن ، وحكم على من يقدم حب هذه على الجهاد بالملاك والدمار والعذاب . ويقول أيضا في هذه السورة « قل هل ترجسون بنا إلا إحدى الحسينين » فجعل القتل حسنى معادلا للقتل ، وجعل هلاك الأعداء بالقتل ثم موتهم وهلاكهم الأخرى عذابا .

فلخص ما ترى إليه هذه السورة بل كل دين صادق ، بل كل حكمة وفلسفة احتقار للذات والحياة وجعل ذلك كله مقدمة لولوج باب السكال والسعادة ، وعلى ذلك اقلب الأمر فأصبح ما يفرح به الناس في هذه الدنيا عذابا .

#### إيضاح هذا للقيام

اعلم أن الإنسان في الدنيا يظن أن سعاده فيها بما يناله من لذاته الحسية كالطعم واللبس والسكن والأبناء والآباء والأزواج والعشيرة ، وبما ينشئ عنه من الآلام والمصائب فيبقى حيا سلبيا مدى الحياة طويل السر ، ثم هو أبدا معذب بهذه الأتقال والأحمال فهو أبدا في نصب بما يصيب الأهل وللحال والولد وجميع ما حوله وبما يصيبه في جسده وهذا عذاب دائم ، فبينما يظن نفسه في سعادة إذا هو أبدا في شقاء بما ظن أنه سعادة .

ولقد تمزب عنه هذه الأتقال والأوصاب ساعة النوم والإغماء والسكر القوي والتنويم للتناطيسي ، فالتأم لا يحس بما يناله من النعم بارتكاب الذنوب ، وكذا للنسي عليه والسكران وهكذا للنوم تنويمنا تنويمنا فيسبغنا فيجئ إليه وقت النوم ما يريد منه النوم فيقال له أنت ملك كريم أو ملك عظيم أو بهيمة أو خنزير أو قفير فيتشكل كما يوحى إليه للنوم بالسكر .

ولقد شاهدت ذلك بنفسي في مصر على مرأى ومسمع من العلماء والأطباء الذين شهدوا هذه الحقائق وأقرّوها ، فما أنت ذا ترى أن ما نحمله من الأتقال قد زال عنا في بعض الأوقات لنارض كما يزولها الألم إذا شاهدنا رجلا يقتل قصاصا أو مريضا يشرب شرابا مرا فإننا لا نتألم لئنا باستحقاق الأول ومنفعة الثاني ، ونرى الطبيب يقطع عضو المريض لمرض الشفاء فنساعده ونشكره ، ونحارب أمة سطت علينا وقتل رجلا منا ونحن فرحون .

فهذه أحوال عرضت لنا غيرت أفكارنا جعلت للكروه محبوبا وصيرت للؤلؤم لذيذا ، واطالما غيرت البيئات أحكامنا ، جعلنا الضمة شرفا والشرف ضمة فيقول الفرنسي لا بد من أن يرقص رجل مع امرأتى وإلا كان ذلك عارا على ، ويقول الشرقى إن حصل ذلك فهو عار على .

كل ذلك فعل البيئة ، فتصعب كيف انقلبت اللذات الآلام والآلام لذات بأحوال عارضة ؟ فانظر كيف جاء القرآن بما هو أهم وأعمّ وجعل كل ما نملكه وما يلدنا نعمة علينا إن أمسكناه لذاته ونعمة إذا جعلناه للنفعة العامة وأفادنا « أن ذلك في كتاب ، وأن ذلك على الله يسير » وقال « لا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » أنا وقت النوم أرحمكم من تبة الصائب ، ووقت الإغماء والضعف العظيم الغير للقوى العقلية كحالة الهرم التام .

وهكذا أجمل العاشق لايبالى إلا بأن يصل إلى ما تحب من محبوبه ولا يبالي بغيره في الدنيا ، وربما عشق الإنسان وطنه أو علما من العلوم فذهل عما سواه ، فبالنوم أرحمكم وبالإغماء وبالمرض العادى والوطني والعلى غيرت أحوالكم القلبية .

فها أنا ذا أوجهكم بالدين إلى الاجتهاد ، وإذا كان بعض عبادى يشقون إنسانا عشقا مفرطا فيغيبون عن كل ما سواه ، سواء أكان المحبوب ذاتا أو وطنا أو علما ، فها أنا ذا فتحت لكم باب العشق العام فليجوه وطريق الحب الحقيقي فليصدوه فليكونوا آباء كراما للأمة ، وليكن أموالكم وأبنائكم وإخوانكم وعشيرتكم ، وهكذا علومكم وقوتكم وجيلتكم وقفا على الجهاد في أسبيلى ، فإذا نصرتم فالنصر منى ، وإذا قتلتم فإلى ترجعون .

ظاهر هذه السورة العذاب وباطنها الرحمة

إن هذه السورة نزلت للسيف وقد تركت البسملة في أولها لأن التسمية للرحمة ولارحمة هنا ، هنا ما قاله الطهارة كما تقدم ، ولكنك إذا تأملت سورة الفاتحة وأن الإنسان يقرأ صباحا ومساء « الرحمن الرحيم » ويحمد الله رب العالمين ، إذا تأملت ذلك أيقنت أن الرحمة غالبية ، وها أنت ذا تراها ظاهرة في هذه السورة فإنه وإن طلب فيها ضرب السيف فقد أزال أغلال الحياة عن الأعناق ووجه القلوب إلى وجهة واحدة .

ويقول علماء هذا العصر إن الأمة وقت الحرب تهمس بنشاط وفرح لانعلم بهما وقت السلم ، فانظر كيف انقلب الأمر وأصبح الحرب الذى يكرهه الناس نعمة والسلم والدعة والنعمة التى لا حركة فيها نعمة ؟ وهنا هو سر هذه السورة .

فالمساكن وللإيس والأولاد وللأل كل ذلك مصائب عاجلة بالتوائى والسكسل والنوم وهى نعمة باتعمالها فيها خلقت له ، وإن أردت تحقيق اللقاه فافقرأه فى سورة البقرة فى النصف الأول منها فافهم .

### السعادة لا تشرى بمال

رجل ينتحر وفى جيوبه ٦٠٠٠ جنيه

جاء فى بعض مجلاتنا المصرية فى ١٠ إبريل سنة ١٩٣٦ ما يأتى :

برى زائر شواطئ بحيرة كومو الجبلية فى إيطاليا تصرا أنيقا يقع وسط حديقة زاهية مترامية الأطراف وإنه ليمر البصر فيه طويلا ثم يتساءل لمن هذا القصر الباذخ والروض الناضر فى هذا الجوار الخلدى والبقعة للسروقة من الجنان ويتنى لو قدر له أن يمضى بقية حياته فى ذلك النيم الشامل ، ثم يسأل أحد اللاراة من



الوطنيين عن اسم صاحبه السيد ، ولكن ما أعظم دهشته عند ما يرفع هذا أكتافه ويخبره بأن صاحبه كان (جوزب بوجيني) الذي كان يعيش فيه وحده مع خدمه العديدين وكلابه التي كان يحبها ، وكان أهل البقعة لا يملكون من أمره كثيرا ولكن كانت تسرى الإشاعة بأنه كان شيخا تما لا يعرف السعادة رغم ثروته الطائلة .

كان (بوجيني) وحيدا وحده قاسية ، وكان يمكنه أن يشتري الأصحاب بماله الكثير وبذخه الوافر ، ولكنه ما كان يأبه لذلك فلم يكن له أصحاب حقيقيون ، وكان يندر أن يزوره زائر ولم يكن له أقارب ولم يتزوج وكانت حياته حياة عزلة ونسك .

كان (بوجيني) في وقت من الأوقات عاملا بسيطا في نيويورك حيث تجسس بالجنسية الأمريكية ، وبمرور الزمن جمع ثروة تقدر بالملايين ثم رجع إلى موطنه الأصلي ليتمتع بشرة ما جمته حياة الكد والاجتهاد ، وظهرت له بحيرة كومو بعد غيبته الطويلة جنة خالدة لا ينقص كمالها أي طرف أو رغد يشتره للمال فأمن بالسعادة هناك ، ولكن جاءت بعد حين ساعة الحمية التي تنهار فيها صروح الآمال والأحلام ، فقد اشترى بماله القصر والروض وكل أسباب الراحة والسكال ولكنها لم تشتت له راحة الفكر والرضا بكل ذلك فمل كل ذلك وسئمه وحنث نفسه إلى تلك الأيام التي كان يكذب فيها ويكذب طول نهاره من أجل بضعة الترام القليلة التي كان يكسبها في يومه ، والآن قد أنهى (بوجيني) حياته القلقة الثائرة حيث وجدته خدمه في صبيحة يوم مشنوقا في شجرة من أشجار روضه الزاهر ، وبجانبه هذه الرسالة الوجيزة [ لقد كشفت أثناء حياتي الطويلة أن أكوام المال لا تشتري السعادة الحقيقية ، وإن أذهب من هذه الحياة لأنى لا أقوى على احتمال وحدتها وما أشعر فيها من سأم عند ما كنت عاملا بسيطا في نيويورك كنت سعيدا جدلا ، ولكن الآن مع هذه الللايين أشعر بحزن دائم وأفضل للوت ] .

ووجد في جيوبه ستة آلاف جنيه كتب عليها (إلى الجحيم) ثم أخذ البوليس يبحث عن ورثته اه .

جمال هذه الآيات

كثرت ذرية أدنى الحيوان وأغذيته ولم يحشم نسا ولا أملا . والإنسان ناله الألم بذريته مع قلبها وبمملك من الأموال ليعلم أنه في دار ليست بدار قرار وأنه سائر إلى ربه يعيش بجواره كما قال تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففرّوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » جمال هذه الآية « فلا تسببك أموالهم ولا أولادهم الخ » هو الظاهر في هذا الوجود المحبوه عن القلوب لأن أكثر الناس لا يملكون .

اللهم إنك أنت الظاهر بجمالك ، العظيم بحكمتك ، الجليل العجيب الصنع البديع الإتيقان ، اللهم إنك أنت الذي ملأت السهل والجبل والنهر والحقل بذرية الذبابة والجرادة وحشرة أبي دقيق ولم تحشمها نسا ولا أملا في تلك الدرية وملكت بعض تلك الحشرات عيوننا وأجسامنا وأمتعتنا والذبيذ من أغذيتنا وسلطتها علينا بالعداب فتلقى في أغذيتنا وفي أجسامنا بذور الأمراض والحيات وللهلكات « إن ربي لطيف لما يشاء » أنت الذي جعلت الحيوان على ثلاثة أقسام : قسم يترك بيضه في الرء كالجراد والذباب الخ ولكن هذا القسم أنت أعطيت له الماما عجيبا ليضع بيضه في أما كن تنلسه كأغذية الإنسان ورونه وعيون صفاره والقاذورات وذلك في الذباب وفي حقول مناسبة على بعد مخصوص في الأرض وذلك في الجراد وهكذا ، ثم إن القبابة والجرادة ونحوهما تموت ، وأنت الذي تتولى شئون ذريتها فتملأ السهل والجبل والناس يحاربونها ولكن تلك الحشرات وأمثالها غالبت قاهرات على طول الزمان ، وقسم أمرته بأن يحضن بيضه إلى أمد معلوم ، وذلك لأنه أرقى ، فألممت الذبابة والحمامة والإناث من أنواع الدجاج والبط أن تحضن بيضها ، فإذا قص

أمرتها أن تلاحظها إلى أمد قليل ثم تستقل التربية وتفعل ما فعل الآباء ، ومع هذه العناية كانت التربية أقل من ذرية تلك الحشرات كحشرة القز وحشرة أبي دقيق والذباب الخ . والقسم الثالث ما حكمت عليه بالحمل والإرضاع وهي ذوات الأربع ، وكلما ازداد هذا القسم كالا زده عذبا في ذريته كالخيل والبقيلة والقردة والإنسان وهو أكثر تلك الحيوانات عذبا بذريته وماله ، وكلما ارتقى في سلم اللدنية ازداد عذبا بالتربية فيعيش الإنسان مجدا كادحا لتربية بنيه وبناته الذين قلّ عددهم ولا يقتصر على الإرضاع والكسوة والتغذية بل يدخلهم للدارس ويضيق حياته فيهم ، وهو كلما كثرت آماله وأمواله وذريته ازدادت همومه ، فاعجب لهذا الوجود ، ذباية تكون الأجيال الناشئة من ذريتها في السنة تزيد عن مليون ذباية وهي كلها تملك أجسادنا وأغذيتنا ولا نصب يشاها ولا تعب ، وإنسان يلد عدّة أصابع اليد الواحدة أو أقلّ فيعيش في نصب وتعب وهو مكدود وهو قليل المال كثير النصب والتعب لا يتسنى له أن يدخل منزل حاره إلا بإذن ، ولا يأكل إلا بنصب وتعب ، وهذه أبحاث لما الدنيا وغلبتنا وقتلتنا وأكلت زرعنا .

هذه صورة الحيوان والإنسان ، فاعجب أيها الدكي متى وتأمل كيف تلك الذباية مئات الألوف بالتناسل في الأجيال كل سنة ويولد الإنسان قليلا وهي لا تنضب وهو في العذاب مغمور ، وكيف يشاهد الناس ذلك صباحا ومساء وهم لا يحقون .

اللهم إن العلم مشاهد محسوس وأكثر الناس لا يحقون ، أنت يا الله بسطت العلم أمام أعيننا وأمرت التباب فباض في أفئتنا وأمرته أن يلقي علينا دروسا من الأمراض في أغذيتنا وقتل له نيه هذا الإنسان يذباب وقل له ها أنا ذا منكم بمالك كثير التربية وأنت تشقى بمالك وولمك قليل التربية ، سلطنى الله عليك لتبنيخ عالم للمادة وتحنن إلى عالم الأرواح وتبحث بقلبك عن حياة أسعد وهي التي بعد موتك ببقاء ربك والعالم الروحي .

فها أنا ذا أريك أيها الإنسان أنني أسعد منك حالا ومالا وذرية لأرقتك بالخروج من حياة المادة ، ولما جهل الناس منطق الطير ولم يقولوا ما حوّلهم من الضر والنشر ألقاه على ألسنتهم في محافلهم ومحاوراتهم بطريق الإلهام .

### ألسته الخلق أقلام الحق

لما حكى الله على الناس بذابهم في أموالهم وأولادهم ولم يفهموا منطق الطير كما قدّمنا ولم يدركوا سر هذا الوجود ولم يفقهوا أنه بذلك يريد إخراجهم حتى يحنوا إلى عالم أرقى خاطمهم بما يليق به على ألسته الرجال والنساء في كل زمان ومكان فتراهم يتبرمون ويتأفنون من هموم المال وهموم التربية ، ويقولون للمرأة ماذا أصنع يا بني وقد قلّ لى وقلّ مالى ؟ ويقول الرجل ماذا أصنع إنى لا أجد مالا لتطيم ابني ، وإذا أصابه ألم ونصب بكى وبكت امرأته .

وهكذا تراهم منغمين إذا اجتاحت الليل جائحة أو أصابته ملة ، كل هذا وهم يشاهدون الحشرات طافحات فرحات سعيدات كثيرة للتربية ، فكل ما نسمعه من تألم الرجال والنساء لأموالهم وأولادهم هو نفس ما يشاهدونه في الطبيعة . فالألسته الخلق في ذلك ناطقات بما خطه الله في هذا الوجود وكتبه بحروف كبيرة بحسمة منظورة يشاهدونها ولكنهم لا يحقون وقرّ بها إليهم بالألسته صباحا ومساء ، فلذا قال الرجال والنساء ما أتمس هذه الحياة الخ فهو نفس الذى ألقته الذباية والحشرة عليهم وهم لا يحقون .

### ظهور هذا السر على ألسته الشعراء

ولما كان الشعراء هم أصح هذا النوع الإنساني وهم الناطقون بما له من وجدان ، أبرز الله هذا السر على ألسنتهم وتراه كثيرا في العصر العربي قترى التفتي يقول :

كل من في الكون يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن؟

وترى الشاعر الإنجليزي (ترنش) يقول ما ملخصه :

إن الناس قسمان : قسم صفت الدنيا لهم فأقل ألم بزعمهم فهم دائما في نصب وألم . وقوم عاشوا في شظف العيش فأحسوا بأقل نعيم وانشرحوا صدورا ، وهذا نص ما ترجمته من شعره إلى لغتنا العربية إجابة لطلب التلاميذ بالمدراس الثانوية في كتابي للسمى [ جوهرة الشعر والتعريب ] .

أيذوق الفقراء السعادة أكثر من الأغنياء؟

[ من شعر ترنش الشاعر الإنجليزي ]

قوم صفت الدنيا لهم وساؤم محو عجب  
فيها شمس وبها قمر لم تحجب عنها حجب  
فإذا ما اغبر بأقهم مقدار الظفر له غضبوا  
وفربق عاش ودهرم ليل فيه السود النوب  
فإذا لمحووا من بارقة فرحوا جذلا وبهم طرب  
هذا مثل فيه عظة لدوى التوفيق إذا ضربوا  
فانظر زمرا سكنوا مصرا وبنوا قصرا ولم ذهب  
ولهم نعم فيها نعم فإذا راحت فلها لجب  
يشكون الدهر وما نصبوا إن شاكهم ور صخبوا  
فكان الفضل بما طلبوا مما من عليهم حرب<sup>(١)</sup>  
وكان المال جهنمهم وثرأ للمال لهم عطب  
وترى رهطاً سكنوا الأكوأ خ فذا شعر هذا قصب  
وحياتهم في محصة ومعيشتهم أبدا وصب  
حدوا الرحمن على نعم وبه فرحوا وله انتسبوا  
فكانهم لما سلبوا ما أعطاهم منه كسبوا  
فالحب كسام من حلل وبكأس سعادته شربوا

وهاك موازنة بين أبي العلاء وبين شارل ، وكذا شكير منقولاً مما نظمته ترجمة في ذلك الكتاب

قال أبو العلاء :

لحال بالقدر اللطيف نصير فليأ عنك تغاؤل وتطير  
من أحسن الأحداث وصفك ظابرا في التراب يأكله تراب أغبر  
ما قبل في عظم اللوك وعزم فإله أعظم في القياس وأكبر  
وصحاً ما دنياك رؤيا نائم بالعكس في عقي الزمان نصير  
فإذا بكيت بها فلك مسرة وإذا ضحكت فذاك عين صير  
فالمين تبكي في المنام وتجتلي فرحا وتضحك في الرقاد ومصير  
والنفس ليس لها على ما نالها صبر ولكن بالكراهة نصير  
يبدو للدرجج بازيا أو أجدلا فيروح محتكا عليه الصبر

(١) سلب للمال .

وقال أيضا :

آليت لا ينفك جسمي في أذى  
وإذا رجعت إليه صارت أعظمي  
هون عليك أملت نصرا في الوغى  
كسرى أصاب الكسرجابر ملكه

وقال شارل :

لا تضررن بما أوتيت من نعم  
لا يدفع القدر القدور سائبة<sup>(١)</sup>  
بل ينتضى الموت أسياف الفناء على  
والفأس والنجل الموجّ صفحته  
كم فارس بطل بالسيف مشتمل  
وحاصد هام قوم من منابتها  
فصار إكليله في يوم زينته  
إما على عجل الموت أو صل  
حتى قضوا نحبهم صفرا وجوههم  
وزهر إكليلهم ذاو ومثمر  
لا يجينك ما أوتيت من شرف  
وانظر إلى القاهر القهور كيف قضى  
وأودعوا حفرا يا بشما زلوا  
لكن على جدث الصديق قد عبق<sup>(٢)</sup>

وقال شكبير « كل من عليها فان » .

إن الحياة وإن غرّت مظاهرها  
قد مثلت في خيال الوهم بارزة  
كما ترى في خيال الظل من صور  
وكل قصر رفيع شاده ملك  
كذا البروج مشيدات على صمد<sup>(٣)</sup>  
وكل ما أوردته الأرض من عرض  
وإنما عنصر الأجسام من سدم

ضاع من المؤلف كتاب له فيه تعليق فقال قبل أن يشر عليه :

يقولون إن العلم لهمّ دافع  
ألم تراني ضاع مني مؤلف  
فكيف رأيت العلم يدني من المهمّ  
فميس فلم أصبر على ذلك الترم

(١) الدرر السائبة : الضافية . (٢) العلم : الجبل . (٣) جمع رهام : التراب .

(٤) جلوسا على الركب . (٥) الصمد جمع صعود : ضد هبوط .

(٦) أطر ، جمع إطار : ما أحاط بالشيء . (٧) الدرر : القصاد .

لأنى قد نظمت بين عقوده فرايد حتى لايشذ عن القهم  
قضاء قضاء الله في عالم الدنيا فرارا من الآساد تحرق في الهم

هذه أقوال المشهورين من شعراء العرب والشرق ، أحمد اللثبي وأبو العلاء من الشرق مع ( ترشى  
وشكبير وشارل ) من العرب ، بماذا نطقوا ؟ نطقوا بما نطقت به هذه المخلوقات حولنا ، نطقوا بما نطقت  
به الطير والحشرات القائلات بلسان حالها أتم أيها الناس مسجونون في أموالكم وأولادكم ، أما نحن فإننا  
في بحبوحة النعم ، نلد الألوف ولا نحزن ولا نجزع ولا تنصب في التربية والله تولاها عنا ، هذا كلام حشرة  
أبي دقيق والجراد والذباب وحشرة دود القطن .

إن العالم القدي حولنا كله ناطق ونطقه أفصح من نطق اللسان . إن العوالم التي خلقنا فيها جميلة وناطقة  
ولكن أكثر الناس لا يعقلون ولا يفهمون ، وبهذا نهم قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم  
تذكرون » فنحن خلقنا العوالم حولكم أزواجا فتوالدت وكثرت ولم تمان ما تمانون مع قنكم .  
زيد بذلك أن تذكروا وتعقلوا وتفهموا أن حياتكم الحقة لا تكون هنا على الأرض ولا في عالم المادة  
التي ترونها بل في عالم أجمل ، ولتلك رتب عليه قوله تعالى « ففرّوا إلى الله » والآية هنا موضحة لذلك الفرار  
إذ أبانت أن الناس في عذاب بأموالهم وأولادهم ، فهذا هو سبب الفرار وطلبه .  
ويقول الله في آية أخرى « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا »  
فالملك والولد يعنّبان وهما لا يقربان إلى الله لأنهما وسيلة والوسيلة لا تكون مقصدا ، فإذا جعلت مقصدا ساءت  
الحال وكانت سجننا وكفرا كما قال تعالى هنا « وزهق أنفسهم وهم كافرون » .

#### إيضاح

لما وصلت إلى هذا اللقاه حضر أحد الفضلاء من أهل العلم ، ولما اطلع عليه سألني قائلا : أين النطق  
القدي في المخلوقات حولنا والناس لا يفهمونه كما تقول ؟ فقلت : نطق الطير ونطق المخلوقات كلها ، فقال :  
مامعنى هذا القول القدي يشبه قول الصوفية والرموز التي لا تفيد ؟ فقلت : نحن الآن في مقام الحكمة والعلم  
والبرهان ، إن الطير ناطقات بما ذكرناه الآن . ولكن العاتمة والجهلاء يظنون أن النطق هو ماتنشى به  
أو تناغى به أمثالها ، كلا ! بل نفس الطير والحشرات وجميع الدواب عبارة عن كتاب كتبه الله بيده ، كتبه  
لنا وأكثر الناس لا يعقلون .

ألم تر إلى ما ذكرته من حكم الحشرات وتبيان حياتها وموازتها بحياة الإنسان ، ألم يكن هذا أفصح من  
نطق اللسان ؟ أليس نظام ذريّتها وتدير الله في حفظها وحبسه لنا في أموالنا وأبنائنا كافات في فهمنا أن  
حياتنا عذاب ؟ فلما أن جهل الناس هذا الكتاب القدي كتبه بيده أنطق الله بهذا المعنى الرجال والنساء وحتم  
بالشعراء من العرب والمعجم كما تقدّم ، وأزل في القرآن ما تقدّم من الآيات يقول « وما الحياة الدنيا إلا لعب  
ولهو » ، ويقول « ومن كل شيء خلقنا زوجين الخ » كما تقدّم ، ويقول هنا « ولا تمجيك أموالهم  
وأولادهم » .

أليس هذا هو القدي يقوله الطير في جوّ السماء ؟ فقال : مامعنى هذا ؟ فقلت : الطير مخلوق ترفع في الهواء  
وتعالى عن الهوام في التراب ، والسماك في البحر ، والبهائم في الأرض ، نظر إليها الطير نظر احتقار وفارقها  
وساح في الهواء والحرية ، الناس يرون هذا وكأن الطير يقول : أيها الناس اعبروا البحر وسيروا في الأرض  
وطيروا في الجوّ . فهذا كله لا يخبئ شيئا ، فأنتم محبوسون في الكرة الأرضية وفطركم تمنّ إلى عالم أرقى  
فاخرجوا إلى عالم أعلى بالعمل كما خرجت أنا من عالم الماء والتراب وظاهر الأرض إلى الهواء .

هذا هو بعض المنطق الذي نطقه الطير لسليمان عليه السلام في قوله تعالى على لسانه « يا أيها الناس علنا منطلق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل للبين » فهل ترى أن إيتاء كل شيء وإيتاء الفضل للبين لمعان ضللت تخطر بفرأ الطيور في جوار السماء ، أم هي هذه المعاني وأمثالها التي نطق بها كل شيء قبل نزول القرآن كما قال تعالى « قالوا أنظننا الله الذي أنطق كل شيء » فنطق الناس بالتبرم من الحياة ، ونطق الشعراء كذلك ، ونطق الطير في الهواء ، ونطق كل شيء هو الذي نزل به القرآن ، فقال لنا ما قالته الطيور والحشرات والهوام والشعراء ، وذم لنا المال والولد الذين هما وسيلتان لا مقصدان ، لماذا ؟ لأن الإسلام دين الفطرة ، فما أنت ذا رأيت الفطرة في هذا اللقال واطلعت عليها ؟ وهذه الفطرة التي أبرزها الله بتنويمه لخلقها في طير وحشرات وغيرها وفي كلام الناس والشعراء أبرزها في القرآن ، هذا معنى كون القرآن « ذكرى للعالمين » أي يذكرهم بما حولهم وما نحس به نفوسهم وهم عنه غافلون .

غفلة الناس عن الجمال وعن الفهم وعن النعم عامة

قاعدة : قد يكون الناس أشد غفلة عن أعظم النعم وأوضح النطق وأبهرا الجمال ، ألا ترى أنهم لا يعتبرون الهواء نعمة مع أنه أهم من الخبز والماء ، ذلك لأنه مبدول لهم وهم لا يقدرّون النعمة حق قدرها إلا إذا منعت ، وعلى قدر النعم يكون حفظ الجميل ولذلك يفرحون بالحلى من الذهب والفضة أكثر من الخبز والخبز أكثر من الماء ، فأما الهواء فلا يذكرونه .

إذن معرفة النعمة معكوسة مقبولة ، ثم إنهم يخاطبون بلسان أفصح من اللقال في أنفسهم وفيما يتعلق بهم ، واللسان الذي يخاطبون به أفصح من اللسان المعتاد جدا ، فالجوع والبرد والمرض والعطش وآلام الأم لبقاء ارضيع : كل هذه ألسنة ناطقة تحثهم على الأكل والشرب واللبس والتداوى وإرضاع الولد فقد يمتثلون ولكنهم لا يعقلون أن هذا إفهام وتفهم بل يساقون لها كما تساق الأنعام ، وإذا ساقتهم تلك الآلام التي جعلناها أفصح من الألسنة فإنهم كثيرا ما يألمون ولا يعقلون مثل ما يألمون من عموم الحياة فلا يعقلون ما المخرج .

ومثل ما يحصل للسليبي الآن من الله بسبب جهلهم وقلة انبعاثهم وتخاذلهم فأذلتهم الأم ، كل ذلك حاصل وهم لا يعلمون أن ذلك كله أفصح من اللسان وأوضح بل هو أفصح من منطق الجوع والمرض ، لذلك أنزل الله في كتابه « فترّوا إلى الله » وأنزل « إنما الحياة الدنيا لب وهو » وأنزل ما هنا وهو أن الأموال والأولاد عذاب ، وكما غفلوا عما ينزل بهم من العذاب غفلوا عما حولهم من الجمال الذي يطالبهم بارتقاء نفوسهم ؛ فبينما أموالهم وأولادهم تعذبهم يرون النجوم الجميلة الزائفة تنظر إليهم باسمه وتشرق حولهم ضاحكة وتشير إليهم مسلة وهي باهرة الجمال ، حسنات الأشكال تناديهم أن انتهزوا الفرصة اليوم واجملوا أموالكم وأولادكم معينين على إسعاد المجموع الإنساني حتى لا نسجنوا فيها ، فجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل المنافع العتمة حتى تحفظوا بالجمال الذي تجهلونه اليوم .

إن من الناس من يدرك جمال النجوم وهو في الدنيا فيعشق العلوم عشقا فيكون عنده المال والولد ولكنه منرم القلب بالعلوم ، فلا يصدّه مال ولا ولد عن ذلك الجمال ويجاهد نفسه وبماله في سبيل الصالح العامة التي سبقت لها هذه الآية حثا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على الجهاد والخروج من سجن المال واولد إلى إسعاد المجموع .

تظهر بعض سرّ هذه الآية في هذا الزمان

لانظر أن النوع الإنساني غافل عما ذكرناه ، فاعلم أن الحرب الكبرى إنما جاءت من أجل المال والاستعمار والاستئثار بالسلطان .

ظهرت الاشتراكية فانظر السلام عليها في سورة البقرة عند آية الربا ، هناك تعلم أن القوم يريدون أن يكون كل امرئ مساعدا للجموع ، أي أن يكون الناس كأعضاء جسد واحد وتكون المنافع أكل ، وهناك ذكرت لك أن الإسلام لم يقتصر على الزكاة بل جعل مال المسلم للجموع طوعا لا كرها .

ومن عجب أن هذه الفكرة منتشرة بين مئات آلاف الآلاف من الناس ، فقد جاء في الأخبار أيام كتابة هذا الموضوع في أواخر شهر إبريل سنة ١٩٢٧ أن شابا فقيرا اشتراكية لا يجد قوت يومه قد وقفه الله إلى كشف حديث في التصوير الشمسي أكثر إسراعا في إبراز الصور بأعمال قليلة فباعه بنحو مائتي ألف جنيه فزله عنه جميعه ، فبعثه إلى المعوزين من اللصويرين وبعضه من غيرهم .

إذن هذه التعاليم في أصلها موافقة للفطرة ، لأنها تجعل الناس ينفع بعضهم بعضا ويخرجون من ذل اللئيم بالمساعدة العامة ، إذن القرآن نطق بما في الفطرة ، والفطرة أبرزت هذا اللذهب .

وإياك أن تظن أني أبيع الاشتراكية ، كلا ! وإنما أقول معنى هذا أن الناس لما رأوا الشح المطاع والهوى للتبع خرجوا بقولهم من ذلك بما يقولون ولسانا تدرى ماذا يصنعون ، وإنما اللهم أن القرآن طلب أن يكون الإنسان مساعدا للجميع فرفناه ، فإذا كان عملهم موافقا له كل للواقعة أقرناه وإن انحرف عنه نبذناه أو هذبناه ، فليس للقمام في الانبعاث وإنما للقمام في الحكمة واللم ومواقفة القرآن لفطرة الإنسان ، وهذا هو معنى كونه دين الفطرة « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » اه .

اللطيفة الخامسة « وإنما الصدقات للفقراء ، الآيات »

(١) لا يجوز صرفها إلى بعض الأصناف مع وجود الباقي وهو قول عكرمة والشافعي ، وقد سقط سهم العامل وسهم المؤلفين قلوبهم إذا قسم الله زكاته بنفسه ويعطى ثلاثة من كل صنف .

(٢) لو صرف الكل إلى صنف واحد أو إلى شخص واحد جاز من هذه الأصناف كلها ، وهو قول عمر وابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وسفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل .

(٣) إن كان المال كثيرا يمتثل الأجزاء فرقه على الأصناف كلها وإن كان قليلا وضعه في صنف واحد .

(٤) يقدم الأولى فالأولى من أهل الحاجة ، فإذا رأى الفقراء حاجتهم أولى قدمهم وهكذا ، وهو قول مالك ، ومتى أعطى أحدا صدقة وجب أن لا يزيد المعطى عن أقل مقدار يسمى به غنيا فأقل التي لا تجوز الزيادة عليه .

والأئمة هنا مجال في القدر الذي يعطى وكل يرى بحسب اجتهاده؛ فالشافعي يقول بوجوب دفع الحاجة من غير حد ، وأبو حنيفة يكره أن يعطى رجل واحد مائتي درهم ، وأحمد بن حنبل كره أن يعطى أكثر من خمسين درهما اه .

واعلم أن الحق يؤخذ من مجموع هذه الأقوال ، فعلى رجال الحل والعقد في الأمم الإسلامية أن يؤلفوا لجائنا تنظر في أحوال الأمة ، وهناك توزع الصدقات توزيعا شريفا ، وأهمها أن تصرف لأرباب الحرف الشريفة النافعة للأمة فيكسبون من كد أيديهم ، ويجب أن يمنعوا عن الكسالي وأمرهم بالشغل ويعطوهم من الزكاة على مقدار مايساعدون في اجتهادهم ولا يعطوهم جزافا .

فالحق في هذه المسألة قد تضمنه أقوال الأئمة رضوان الله عليهم وعلى الأمة الإسلامية الجد والاجتهاد . وهام أولاء قد رأوا بأعينهم كيف أدت التفلسفة إلى ضياع بلادهم وجهالتها العمياء ، وإلى الله عاقبة الأمور .

اللطيفة السادسة قوله تعالى « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب الخ »  
اعلم أن هذه السورة قد خالفت أكثر القرآن ، ألا ترى أن الله مازك صغيرة ولا كبيرة في غزوة تبوك  
إلا أصحابها .

فيا عجبا ! ضحكة يضعكها الأصدقاء فيزل الوحي بالمؤاخظة عليها ، إن هذا لأمر عظيم وقد عهدنا النبوة  
لابتالي بمثل هذه ، والنبي صلى الله عليه وسلم عفو ، فكيف رأينا الله في هذه السورة يحصى على الناس ضحكهم  
في أوقات خلواتهم ، فإذا سئلوا قالوا « إنما كنا نخوض ونلعب » ثم إنهم يهددون بالهلاك العاجل والمعقوبات  
المنظمة ، وانظر كيف يقال لهم « كالدن من قبلكم كانوا أشد منكم قوة » وذكر قوم نوح وعاد وثمود  
وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات .

كل ذلك تهديد للناقضين الذين يعدّ عليهم تلك المنات والضحكات ، فيألت شمري كيف انقلب الأمر  
في هذه السورة حتى أصبح المسلم يؤخذ على ضحكة يضعكها ويهدد بأنه أصبح كالأمم السابقة .

### الجواب

اعلم أهلك الله الرشد أن هذا هو النظام الذي يجب اتباعه ، فإن الأمة إذا تركت بعض أفراد منها خارجين  
عن نظامها يحفرون دينها وعقائدها ويخرجون عليها كان هؤلاء جرثومة فساد يسرى في غيرهم ، ومثل هذا  
الهاء إذا انتشر في الأمة ضاعت قوتها وذهبت ريحها .

فالأعداء لا يكون إلا بفسكرة جامعة ، ولا جامعة في هذا اللقاع إلا الإسلام ، فإذا سخروا منه فلا دولة  
ولا نظام ولا حرب ، إنما يحلربون باسم الدين ، فإذا سخروا منه فقد دلّ على كرههم له ، فإذا لا حرب  
ولا نظام ولا غلبة على الأعداء .

واعلم أن الأمة الإسلامية اليوم لم يضعفها إلا جهلها ، فلا هي بالدين أتحدت ولا بشيرة انفتت ، وسيكون  
لها بعد اليوم شأن ورفعة ومجد « والله هو الولي الجيد » .

جوهرة في الكلام على قوله تعالى « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ »

الكلام عليها ينحصر :

(١) في الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) وفي الاستهزاء ببعض النسويين للدين .

(٣) وسبب ذلك الاستهزاء .

(٤) ونتيجته من ازدياد الجهل في الاستهزى وازدياد العلم والسعادة في الدنيا والدين للاستهزاء به .

(٥) أما الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد علمته ، وذلك أن بعض الناقضين أخذوا يخوضون في الحديث

في غزوة تبوك ويقولون : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام إلى آخر ما تقدم .

ولا جرم أن ذلك الاستهزاء راجع لقصر النظر وضعف البصيرة .

(٦) أما الاستهزاء بالمتدينين فذلك مستفيض في الأم الإسلامية للتأخرة .

ويانه أن المسلمين بعد الصور الأولى خارت عزائمهم وضل كثير منهم طريق التعليم بسبب الأحاديث

التي وضعها الواضعون كما في كتاب [الإتقان في علوم القرآن] للسيوطي وغيره رحمهم الله تعالى ، فقد تطوع

قوم ووضعوا أحاديث في فضائل السور وقراءتها ترغيبا في القرآن وتحجيبا في تلاوته لزعيمهم أن الأمة رضوان

الله عليهم مثل أبي حنيفة والشافعي قد صرفوا الناس عن القرآن إلى مذاهبهم وقد أقرؤا بذلك وأنهم يرغبون

الثواب من الله بهذه الأحاديث فانقسمت الأمة إلى طائفتين : طائفة تحفظ القرآن عن ظهر غيب تعبدا



أو طلبا للكسب أو للهرب من الجندية ، وطائفة تحفظ كالأولين ولكنها تعرف العلوم العربية والفقه وأصوله  
وفن التوحيد والذوق وما أشبه ذلك .

وهذه الطائفة بقسمها ينظر لها بعض الأمة نظرة الاستهزاء ، يقولون : إن حفاظ القرآن ليسوا بمتعلمين  
فيمتدوهم في مصاف الجهلاء ، وعلماء الدين غالبا يجهلون نظام هذه الدنيا ويظنون الفقه والأصول والتوحيد  
هي كل ما يطلبه الدين ، فهنا يكون استهزاء ان : استهزاء من هؤلاء العلماء بجميع العلوم وتكبر عليها غالبا ،  
واستهزاء من بعض الناس بهم لما يرون فيهم من قصور الباع في نظام هذه الدنيا وعلوم الفلك والطبيعة  
وما أشبه ذلك .

ومن أسباب الاستهزاء بحفاظ القرآن وبعض علماء الدين كما قرره ابن خلدون أن للتلم على الطريقة  
القديمة كان يلقي إليه العلم ويضرب ويهان فيمرن من صفه على القلة والاستكائة والضعف فتموت فيه غريزة  
الشرف والنخوة والشتم والمزعة ونخور قواه فلا يصلح للدفاع عن البلاد ، ولذلك ينظر له الناس  
نظرة المستضعف للستكين الجبان ، ذلك لما اعتاد من صفه على اللدة وانكسار القلب والضرب  
والخضوع الأعمى .

هذا ملخص ما يقوله العلامة ابن خلدون في المقدمة ، أما سبب استهزاء العالم الديني نفسه بالعلوم الأخرى  
فذلك لنقص التعليم فيشيب ويشيب معتقدا أن ما عدا فقه الشافعي والحنفي مثلا وما وراء الكتب للوضوعة  
في التوحيد والأصول إنما هو هراء لا يحصل له .

وأضرب لذلك ثلاثة أمثال :

[ للثل الأول ] أنه جاء إلى مصر منذ نحو ٢٠ سنة أمير هندي يسمى جمال وهو من مدارس الهند  
ومعه مترجموه وقد مر على الإستانة وأخذ فتوى من شيخ الإسلام هناك ، ولما جاء إلى مصر أخذ فتوى من  
شيخ الإسلام ، ثم جاء إلى ليأخذ مني كتابة عما يأتي :

قال : قد فتحت مدرسة في مدارس على تفقح الحاشية فحرم علماء الدين التاريخ والجغرافيا ، فكسبت  
أقول : [ إن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية والمسلمون جميعا آمنون بتركها ] .

[ للثل الثاني ] جاء إلى مصر سرى من سرارة الهند ، وقد أدخل ابنا له في المدرسة التحضيرية يدرّب  
الجماميز واتفق أني كنت هناك فصرّ قوه بي ، فقال لي ما يأتي : إن أسرتنا كبيرة جدا فمنها في كل مدينة طائفة  
وهم جميعا يرون أن إدخال أبنائهم في المدارس عار وعيب ومغايير للشرف فأنا لم أفدر أن أدخل ابني في مدارس  
الهند فأنتيت به إلى هنا بعيدا عنهم حتى لا يسلفوني بألسنة حداد .

[ للثل الثالث ] جاء إلى بلادنا منذ ثلاث سنين عالم سيني يسمى ( وان وين كين ) وقد قال لي ما يأتي :  
إني أرسلت من قبل أربعة قواد من قواد المسلمين في الصين لهم أمر مطاع ، ولما فتحوا أعينهم إلى  
بلادهم وجدوا أن للمسلمين أجهل الخلق في الصين على الإطلاق وكل علمهم راجع إلى الطلاق والبيوع والحيف  
والنفاس وما أشبه ذلك ، أما الوثنيون فقد ضربوا في كل علم بسهم ، قال : فما أنا ذا مررت على بلاد  
جاوه والهند لأعرف كما طلبوا مني هل ديننا مجرّد من العلوم وقاصر على الفقه ، والعلم محرم على السلم ولا ينتم  
به إلا كل كافر بديننا ؟ قال : فلما مررت في تلك البلاد لم أجد أثر العلم فوق ما هو معلوم بديارنا ولكن  
في مصر وجدت حركة أخرى ، وما أنا ذا ترجمت كتابك [ القرآن والعلوم العصرية ] وترجمت أيضا [ تفسير  
الفاحة ] وسأرجع إلى بلادى بذلك وبغيره من كتب العلماء بمصر .

هذه أمثال ثلاثة تعرف بها كيف كان استهزاء علماء الدين في أمة الإسلام بالعلوم في زماننا وذلك بلهوان  
والفلة والباع من الشيوخ الجاهلين ، والجاهل يكون تليفه مثله .

نتيجة الاستهزاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زماننا

أما نتيجة الاستهزاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فهي واضحة فقد صام الله مناقبين ، ومعلوم أن المناقبين في الشرك الأسفل من النار .

أما عواقب الاستهزاء في زماننا الحاضر ، فاعلم أن عاقبة الاستهزاء بالنبي الانصراف عنه احتقارا واستكبارا ، وإذا كان الله يقول في الكفار « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بشير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سيل الرشد لا يتخذوه سيلا وإن يروا سيل الفيّ يتخذوه سيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

وإذا كان سبحانه يقول « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » فهذا وإن كان في الكفار فليس معناه أن يكون السلم للنصرف عن العلم تكبرا واستهزاء واحتقارا قد انصرف عنه القدم والتقريع بل هو ملام مذموم داخل في العذاب المهون الذي ليس بمخلد وبلحقه شؤم عمله وذلك بطريق الاعتبار .

وإذا كان الله يقول في الكافر « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لانتح لهم أبواب السماء الخ » فهكذا السلم القادر على العلم المحترق له يلحقه الذم والتقريع بطريق الاعتبار وإن كان موقفا مسلما ، ولكن هذا رجل ناقص أو فاسق لأنه ترك فرض الكفاية أو فرض العين ، فهؤلاء من أيّ دين ومن أيّ نحلة لانتح له طرق العلم التي لانتح أبواب السماء لهم إلا بمفاتيحه ؟

قاعدة

كلما زاد للستهزاء به كالا يزيد المستهزى وبالا ، فإذا استهزأ عالم الدين الذي جهل علم الفلك وعلم النبات وغيرها بمن يتعلم ذلك ، فإنه لا محالة يقف في موقفه ولا يتخطاه فيرى غيره سبقه إلى تلك العلوم وأدركها .

فكلما زاد غيره علما من العلوم زاد هو له احتقارا فيكون هو أكثر جهلا والذي كان موضع احتقاره أكثر علما ، ولهذا الإشارة بقوله تعالى « الله يستهزى بهم ويمدّم في طغيانهم يعمهون » فكلما كان الصحابة يزدادون هدى بالآيات القرآنية كان الكفار يزدادون طغيانا بالكفر بها وجحودا .

هكذا هؤلاء الناقصون في العلم في الإسلام كلما زاد غيرهم علما بحمال الله وآياته وحجاب سمواته وأرضه ازدادوا هم إنما وجهلا .

ويرى بعض السلفين بل السواد الأعظم منهم أن أهل أمريكا والصين واليابان وأوروبا والأم الوثنية قد اغترفت من موارد رحمة ربهم وإن كانوا منحرفين عن التعاليم الإسلامية وهم لا يزالون مستهزئين بتلك العلوم محترقين لها ظنا منهم أن الإيمان بكفهم والنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحدها تشفيهم بلا علم وفاتهم أن يقرءوا قوله تعالى « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا الخ » فالكفار ظنوا أنهم يحسنون صنعا فهم أخسرون أعمالا بكفرهم .

هكذا السلم إذا ترك أكثر الدين وظن أنه كامل فهو من الأخسرين أعمالا وإن كان لا يخلد في النار لأنه يحسب أنه يحسن صنعا وهو غافل عن آيات ربه .

الاستهزاء بالآيات المذكورة في هذه السورة وضحت في (سورة يس) والقرآن يفسر بعضه بعضا وعبر هناك بما هو أشد للاستهزاء وهو الحسرة إذ قال تعالى « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون » ثم عدد ما يعتبرون به فذكر هلاك القرون للماضية ، وذكر أن الأرض من آيات الله ، وهكذا الحب والجنات من النخيل والأعناب واللبل والنهار والشمس والقمر ، وكذلك الحمل في بطون الأمهات

أو حملهم في سفن البحار وهكذا ، فهذه مجامع الآيات للاستهزاء بها وهي تشمل أكثر العلوم فهي عبارة عن العلوم الأرضية والعلوم السماوية .

هذا هو الذي أخرجه الله في معرض التحسر على عباده وهو آيات الله المذكورة هنا ؛ فالمسلم وإن كان لم يستهزئ بالرسول فقد أتى بأهمه وهو الجهل بهذه العلوم ، فالحسرة عليه كالحسرة على الكافر ، وإن كانت الحسرة على المؤمن لنفسه بالجهل إذا كان قادرا على العمل بحمائل الله وآياته وترك ذلك احتقار له ، والحسرة على الكافر لأنه ترك الإيمان ، والإيمان رأس العلوم كلها .

#### قاعدة

أكثر الناس تعرضا للاستهزاء أكبرهم ، فما من رسول ولا نبي ولا عالم نافع إلا كان في أول أمره موضع السخرية من عارفيه احتقارا لعلمه واستصغارا لشأنه ثم يظهر أمره ويعلو شأنه ويستنهزئون في غمرة ساهون ثم يموتون فلا تسمع لهم ركزا ، وأكثر الناس استهزاء أقلهم علما وأحظهم شأنا .

ولعل لذلك الإشارة بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » وبقوله تعالى في نوح « ويصنع الفلك وكلا مرة عليه ملا من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون الخ » .

ومن أكبر العار والشنار على الأمم الإسلامية أنها تركت الصناعات التي ملأت الشرق والغرب استهزاء واحتقارا لشأنها ؛ فأصحاب هذه الصناعات قد أحاطوا بنا من كل جانب .

ولقد نشأت بلاد الشرقية في بلاد زراعية فلم أجد لأحد شرفا في نظرهم في قريتنا إلا أصحاب للزراع الواسعة ، أما التجار والحداد وغيرهما فليس لهم احترام ، مع أن أمريكا بلغ عدد الصناعات فيها ( ٧٠٠٠ ) صنعة .

كل ذلك للعادة والإلف والجهل والاستهزاء « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » .

وملخص ما تقدم أن الاستهزاء لا يصدر إلا من نفوس ناقصة ، وأن كثيرا من السليين يستنهزئون بالعلم والصناعات وذلك كان من أهم أسباب الضعف والاعلال الذي عم الأمة ، وليس يخرجها من مأزقها إلا تعميم التعليم وجعل التعليم الديني بهيمة مشوقة فيها جمال العالم كله بحيث يحبها الأطفال فيرغبون في العلم شوقا ولا يرهبون ويضربون ، وليأخذ التعلم من كل فن طرفا وتوزع العلوم على مجموع الأمة وليكن رجال الدين جميعهم قادرين على حمل السلاح ليكون عندهم الشمو والإباء ويتعلموا علم الجندي ، بل ليكن المسلمون جميعهم شجعانا مدبرين وهم في قراهم على السكفاح والجلاد ، فهذا مجامع ما يمنع الاستهزاء ويصرف الحسرة عليهم إلى إغداق النعم لهم والحمد لله رب العالمين .

#### آثار الاستهزاء في بلاد الإسلام

مرّ في بلاد الإسلام وسل عن الصناعات وقل لهم إن العالم قد ارتقى بالصناعات فلا تسمع إلا احتقارا .

#### إيضاح أتم للاستهزاء بآيات الله

ضرب مثل للاستهزاء بآيات الله ، مواكب الله ومواكب الملوك والدول في عصرنا

(١) مواكب الملوك والدول هي الجيش والسلاح تعرض على الجمهور .

(٢) مواكب الله ثلاثة صفوف :

( أ ) الشمس والقمر والنجوم .

( ب ) الجبال والشجر والدواب .

(ج) للتطاد والطيارة والبريد البرقي (التلغراف الذي له سلك والذي لاسلك له) .

شرح هذه اللواكب وكيف يكون الاستهزاء بها والإعراض عنها وما نتيجة ذلك

الكلام على مواكب الملوك والدول والاستهزاء بها وكيف يكون ذلك

إن الله عز وجل أنزل القرآن وضرب الأمثال على أننا في الأرض لانقل المعاني الإلهية إلا بضرب الأمثال من أنفسنا كما قال تعالى « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء الـح » أي أن الإنسان إذا كان له عبيد فإنه يأبى أن يشاركوه في ملكه ، هكذا ضرب مثلا لنوره بالمشكاة التي فيها اللصباح الذي في زجاجة الـح ، فما نحن أولاء نريد أن نعرف معنى الاستهزاء بضرب مثل مما نشاهد في الدول الحاضرة لتعقل معنى الاستهزاء ونعمل بما نعلمه كما ضرب هو الأمثال ، فنشرح أولا كيف يكون الاستهزاء بالموالك الدولية لتقيس عليه الاستهزاء بالموالك الإلهية ليظهر لعلاء الإسلام في الأرض أننا وقفا في هذا الاستهزاء وإن كنا به غير عالمين .

لقد جرت عادة الأمم الحاضرة أن تظهر عظمتها أمام الأمم المحكومة فتبعث الجيوش مدججة بالأسلحة وتأمّر بمرورها في الشوارع وفي الليادين العامة في عواصم البلاد التي حكمتها أو احتلتها أو ملكتها فتوقع الرعب والهيبية والإجلال والإعظام في قلوب الرعايا فنحصل النتيجة وهي الخضوع للأمة الحاكمة ، ولكن في عصرنا الحاضر لما تنوّرت العقول وأضأت البصائر فسكّرت بعض الأمم في ذلك فقامت تلك اللواكب بالإعراض والاستهزاء .

فانظر لما حصل في الهند في عصرنا الحاضر إذ أرسل الإنجليز وليّ المهدي إلى بلادهم فأعرضوا في بعض المواسم وتولوا مدبرين وأقفوا الحوانيت والبيوت كأنهم يقولون نحن لانأبه بوليّ عهدكم ولا بجيوشكم . وهكذا في إرلانده كانوا إذا أرسلوا فرقة وعرضوها بسلاحها أقبل القوم منازلهم وحوانيتهم وتركوا المرور في ذلك الشارع الذي تمر فيه الجيوش .

هكذا أمتنا للصربية سنة ١٩١٩ م لما نارت نأرتها على الأمة الإنجليزية فإنهم أرسلوا لجنة برأسها عظيم منهم يسمى ( ملنر ) وهو من لورداتهم الفخام فقاطعه جميع أهل البلاد ، وإنما فعل أبناء بلادى ذلك انبعا لما يسمعون عن الأمم الأخرى العاقلة إذ يفعلون ذلك ، وهذه الأفعال تنتج نتائج : إما تخفيف العبء عن الحكوميين ، وإما إرسال المدافع لهم وإذلالهم ، وإذا عرفنا للثل الأول الذي يختص بأهل الأرض فلنتشرع فيما هو المقصود وهو للوكب الإلهي والإعراض عنه فنقول :

عرفت في للثال الأول الذي ضربناه مثلا للإعراض عن مواكب الله تعالى وأن الإعراض والاستهزاء ليسا باللفظ وإنما هو بالعمل ، هذا هو الاستهزاء العملي وهو أقوى وأشد وأسرع وأمضى من الاستهزاء اللفظي .

فانظر ما يقول الله في الاستهزاء بمواكبه ، يقول الله في سورة الجاثية « أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم » إلى أن قال « وقيل اليوم ننساكم كما نسينم لقاء يومكم هذا » إلى قوله « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرّتمكم الحياة الدنيا » إلى قوله « فقه الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وقال في سورة أخرى « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا صمتم آيات الله يكفر بها ويستزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » وقال في آية أخرى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » .

علم الله أن السلمين سيغفلون عن آياته ويظنون أن النطق بالشهادتين والاعتقاد بالله وأنيائه كافيان لحفظ

أمة الإسلام في الدنيا والدين ، فإذا فعل الله ؟ هاهو ذا أبرز لنا الصفيين اللذ كورين في مواكبه : صف الشمس والقمر والنجوم ، وصف الجبال والشجر والدواب ، هذان الصفتان معروضان لأنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، عرضها الله علينا جميعا وخلق لنا الأسماع والأبصار ورأيناها بأعيننا ففعلنا مع هذه اللواكب ما فعله أهل إرلاندة مع الجيوش الإنجليزية وما فعله الصربون أهل بلادى معهم ، وهكذا بعض أهل الهند ، أروانا الله هذه اللواكب وهي ستة أنواع : أربعة منها نهارا وهي الشمس والجبال والشجر والمواب ، واثنان منها ليلا وهي القمر والنجوم وقال لنا « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » وقال « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » وهكذا فأفادنا أن هذه آياته كلها ، فالشمس آية والقمر آية والنجوم آية وهكذا .

فهاهو ذا عرضها علينا فرأيناها بأبصارنا وأسمنا بالآيات القرآنية أن هذه آياته ، لماذا قال ذلك ؟ ليسجل علينا أن الاستهزاء بها والإعراض عنها استهزاء . بآياته فانطبق على أكثرنا قوله تعالى « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها الخ » وقوله « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا الخ » فهذه آيات الله بنص القرآن وهي مواكبه التي عرضها علينا .

علم الله أن بعض الأمم ستقابل حكامها بالإعراض فيكون ذلك علامة على العصيان فأزل قوله تعالى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » فجعل مجرد الإعراض كافيا لعقاب الكفار . وهاهو ذا الإعراض عرفناه بأنفسنا في الأرض من الأمم المحكومة وترتب عليه ما عرفه الناس .

أعرض المحكوم عن الحاكم وموكبه فأوجب الإعراض أنه ، هكذا أعرض المسلم عن مواكب ربه . فصل أثر إعراضه في أحوال الحياة ، قد عرفت آية الجافية إذ يقول « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا » ثم أتبعها بذكر أنه له الحمد وأنه رب العالمين وأن كبريائه في السموات والأرض ، فإذا استهزأ الناس بآياته فهو متصف بوصفين . وصف الكبرياء والتعالى ، ووصف الترية ، هو اللربى وهو للتكبر ، فإذا بفعل اللربى للتكبر للتعالى بمن يستهزئ به بمن رباهم على موأد كرمه وإحسانه وعرفت أنه حفظ السماء التي أعرضنا عنها وإنما حفظها من أمرين : إدراك أسرارها ، والعروج من أهل الأرض إليها .

فأما إدراك أسرارها فلم يعرف الناس منه إلا التزير اليسير ، وأما العروج إليها فإن الطيارات في وقتنا الحاضر ترتفع إلى حد معين وأعظمها وأقواها لا تتجاوز حدا محدودا ثم لا تقدر أن تتجاوزوه . إذن السماء حفظت من صعودنا إليها ومن إدراكنا لأسرارها ، ولم يكن لنا منها إلا أنها مواكب قد عرضت علينا فكنا عنها معرضين .

حفظت السماء وحرست بالشهب وحرم على الناس أن يعرفوا إلا ما وصل إليهم ، تكبر الله وتعالى وتعظم وعلم أننا أعرضنا عن آياته فأرسل لنا الصف الثالث من مواكبه وهو الطيارة والمنطاد والتلغراف ، هذه مواكب غير طبيعية بل هي صناعية ألقاها إلى العقل الإنساني من وراء الحجب والأستار التي أسدلها على علوم السموات والأرض وأزّلها إلينا مع كبريائه ، فالكبرياء هي الصفة التي اقتضت حجب العلوم عنا ولا ينزل علما منها إلا بالجد والتعب والنشيمر إذ لم يعلم الناس الطيارة والمنطاد والبريد البرق بقسميه إلا بعد الجهد والنصب والتعب ، إنه متكبر وإنه مربب ، فلكبريائه أحرس السموات وعلومها فتمنها ، ولتربيته أعطانا منها ما اجتهدنا في البحث عنه ، وسترى الكلام على الطيارة والمنطاد الخ في سورة النحل عند قوله « ويخلق ما لا تعلمون » والكلام على الشمس والنجوم والشجر قد مر في سورة الأنعام وغيرها ، وسيأتى الكلام على الجبال في سور كثيرة كسورة الفاهية وكسورة الرعد وغيرها .

ها أناذ قد أوضحت لك بفضل الله كبرياء الله بأن حرس السماء وجعلها سقفا محفوظا وتريبته فإنه يعطينا  
جد الثمب وكيفية الاستهزاء الفعلي الذي ظهر نظيره في الأرض ، إذا علمت هذا فاعلم أن الله لما عرض الصفيين  
الأوليين من المواكب وهي الشمس وما بعدها والجبال وما بعدها ونحن لانستيقظ بهما أردفهما نصف ثالث  
وهو الطيارة والظنطاد والبريد البرقي فأصبحنا نرى ثلاثة صفوف لاصفيين .

فإنه عامل للسلم الآن معاملة الدولة القوية للتكبرية القاهرة إذ ترسل الدافع للمعرضين عن مواكبها ،  
إنا ببهذا بما في السموات والأرض من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب قد عصينا ربنا بالإعراض  
عن معرفة كآله وحماه وحكمه ، وهذا نوع من الاستهزاء العملي بالإعراض وكفى به ذنبا ولا ينفع السلم ما يتعمل  
به من أن الإيمان كاف فإن هذه حيلة العاجزين .

ألم تسمع قول الله تعالى « أحبب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » فالإيمان وحده  
ليس يكفي الأمة الإسلامية ، إن الله فتنا وامتحننا بمرض السموات والأرض والجبال فأعرضنا فمرض علينا  
الطيارات فقربت منا بخلاف النجوم والشمس والقمر التي هي بعيدة عنا .

يقول الله لنا أيها المسلمون إن آياتي المظلمة الكونية أعرضتم عنها فهلا تفهمون آياتي الصناعية التي  
قربت منكم تتلقون رصاصها وقنابل مدافعها وآثار ضربها! وأنا أقول: أيها المسلمون كفى استهزاء بآيات الله .  
يقرأ السلم القرآن وهو عن العلم معرض ، وينظر في مواكب الله وهو لا يعقل ، ويرى أم الأرض  
اغترفت من أنهار أنعمه فلا يبالي كأننا لم نخلق في هذه الأرض أو كأننا ميتون .

ها أناذ أقول لكم [أخاطب قراء هذا التفسير لأنهم هم أصحاب الدين عليهم أعقول في إيقاظ المسلمين ،  
بهم تشرق شمسا ويضيء نهارها ويفلح جمهورها ] .

إن الفقيه والأديب والعالم السلم الذي يعيش ويموت وهو لا يفرح ولا يعقل ولا يتفكر فيما ذكرناه  
كالستهزي وهو معرض عن آيات ربه بل هو ليس بعالم البتة هو جاهل وإنما هو صاحب صناعة يعيش منها  
كالقضاء وكالتدريس ، هل يرضى المؤمن أو العالم أن يتصف بأنه مستهزي بآيات ربه ؟ .

أيها المسلمون اقرءوا هذه العلوم ولتكن عامة في الأمة كل بقدره ، وإلا فقد صدق علينا قوله تعالى  
« ومن أظلم ممن ذكر آيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين متفنون » وصدق علينا قوله تعالى  
« فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » ولا معنى للإعراض من أهل سبأ إلا أنهم تركوا سد العرم ولم يصلحوه  
ولم يحافظوا على نظام البلاد ، وقوله « فأعرضوا أكثرهم فهم لا يسمعون » هذا هو الذي فهمته في معنى  
قوله تعالى هنا فيما نحن بصدده من هذه السورة « قل أباؤه وآبائهم ورسوله كنتم تستهزئون » اه .

اللطيفة السابعة « كاذبين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة » إلى قوله « ولكن كانوا أنفسهم يظنون »  
تقدم الكلام عليها في اللطيفة قبلها ، وأزيد عليه : أن الله في هذه السورة يقول للمسلمين ما ملخصه :

إني أهلكم الأمم السابقة بظلمها وأزلت عليها الصائب والحزى بينما فلا تظنوا أنكم باسم الإسلام ناجون  
ولا باتباع نبي بحسب الظاهر من المذاب خارجون ، وكيف ينفعكم اسم الإسلام إذا غاب مسماه ، ألم أقل لكم  
في أول سورة الأعراف « كتاب أنزل إليك - إلى قوله - لتنذر به وذكرى للمؤمنين » فذكرت في السورة  
هناك هلاك الأمم وخراب الدول من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط وقوم شعيب ، فدكا ذكرت  
تلك الأمم هناك مخاطبا الكفار ذكرتها هنا مع زيادة ونقص فليكن الخطاب مع المسلمين الذين ناقفوا إذنا  
بأن اسم الإسلام لا يمنع العذاب ، وها هو ذا قد حقت كلمة العذاب اليوم على كثير من المسلمين لإعراضهم عن  
فضائل دينهم وهم يأمعون حقت عليهم كلمة العذاب .

تتعجب كيف قدم في سورة الأعراف أنه أئذ الكفار بمذاب كذاب هذه الأمم ثم جاء في سورة التوبة وأوعد المسلمين أنفسهم : أى المنافقين منهم بنفس ما أوعد به الكفار وقال هناك « وذكرى للمؤمنين » ولم يقل للمسلمين .

إن المسلمين قسبان : منافقون أئذروا في سورة التوبة ، ومؤمنون ذكروا في سورة الأعراف بما أصاب الكفار قبلهم ؛ فالكفار منذرون ، والذائقون منذرون ، والمؤمنون يذكرون ، وكل بن آدم في الدنيا لحوادث الأيام متعرضون

اللطيفة الثامنة « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم »

قوله « ذلك » راجع لرضوان من الله . اعلم أن أحوال الإنسان كلها ترجع إلى ما في نفسه فلا جنة ولا نار ولا لذات ولا نعيم ولا حور ولا ولدان ولا غيرها في الدنيا ، ولا في الآخرة لا ألم لها ولا لذة إلا إذا استعدت نفسه لقبول ذلك ؛ فالنفس مركز الآلام ومهبط اللذات ومنبع النعيم ومقام الجحيم ، فمن وضع في الجحيم أو الجنة وفقد الإحساس بما حوله بل هو في غفلة عنه فلا نعيم له ولا جحيم ، وكل نعيم وكل جحيم وكل لذة وكل ألم صادرة بإرادة خالق العالم ، فإذا أيقنت النفس أن لها ربها صلة وأنه راض عنها كان ذلك غاية الأمنى ونهاية السعادة ، لأن القلب محل السعادة والشقاوة ، وها هو ذا قد أيقن بالرضا وأنه مقبول وأن العناية الإلهية رفقته فهو ذو صلة قلبية ؛ وهناك بحسب بلدة لا تصورها نحن في الدنيا إلا بضرب مثل كأن نتظر إلى من يتصرفون من الملوك ورضوان عنهم كيف يحسون بسعادة ؟ وكأن نتظر إلى العاشق إذا علم أن معشوقه راض عنه لا صدود ولا هجر ، كيف يحس ببلدة وسعادة لا يشعر بها بقية الناس .

فأما مقام الرضا من الله فهذه درجة يعرفها من صرفوا أعمارهم في الإخلاص والذكر والتفكير والعبادة مع الفضائل النفسية « ولكل درجات مما عملوا » وهؤلاء لا يبالون بجنة ولا بخافون من نار ، لأن رب البيت أشرف من البيت ، والنظر إلى خالق الجنة أشرف وأتم من النظر إلى الجنة ؛ كما أن محادثة الملوك ومجالستهم أتم وأشرف من التمتع بطعامهم وشرايبهم عند ذوى النفوس الشريفة والعقول اللينة ، هذا ما يشير إليه قوله تعالى « ذلك هو الفوز العظيم » .

اللطيفة التاسعة قوله تعالى « وهموا بما لم ينالوا »

قد تقدم تفسيره ، ويقال أيضا إن اثني عشر رجلا من المنافقين هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك ، ويقال إن حذيفة لما سمع وقع أخفاف الإبل وقعقة السلاح قال : إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا ، ويقال أيضا إن المنافقين قالوا إذا رجعنا إلى المدينة عندنا على رأس عبد الله بن أبي سؤل ناجا فلم ينالوا ، أقول وكل ذلك محتمل والآية لا تمنع .

اللطيفة العاشرة « قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون »

يأيت شعري أين الفقه وأين كون نار جهنم أشد حرا من حر الشمس على المسافر إلى تبوك ؟ فما لفقه وما لذلك ؟ الإنسان يتأذى من حر الشمس وهو مسافر ولا سيما إذا كانت الشقة بييدة ، فأين نار جهنم حتى تنظرها وتقول إنها أشد حرا من هذه الحرارة الشمسية ؟ هذا هو السؤال الذى يختلج في العقول وإن لم تتطرق به الألسن

الجواب

اعلم أن الفقه لا يذكر إلا في الأمور الدقيقة ، وهذا القام دقيق لا يحمله إلا للفكرون ، فإن التوفى

والتكاسل والباطل عن الحرب داع إلى اجتماع الأمم التي حول الكسالى عليها فيطئون أرضها وبذيقونها العذاب المهون .

وأيضاً قدّمنا في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن الأمم التي لم تحركها عواصف الدهر ولم تهجمها مصائب الزمان ولم تهذبها الحروب يحيق بها الهلاك ، فإذا شئت أن توفظ أمة فحرك فيها حركة الحرب والجهاد فإنها تنشط من عقلمها وتقوم من سباتها وتستيقظ من غفلتها ، وإذا رأيت أمة هادئة ساكنة عاكفة على تفاليد عتيقة نائمة فاعلم أنها سائرة إلى الزوال ولا تترك ظواهر الأحوال ، وقد قدّمنا خلاصة رسالة أرسطاطاليس إلى الإسكندر في هذا المعنى فلا نبيدها .

فإذا كان ترك الحرب في الدنيا هكذا شأنه فما بالك بالآخرة وقد قال تعالى « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً » ومن أصابهم الجهل والكسل في الدنيا فإنه يكون طبعهم للآخرة في الآخرة فيرسلون إلى دار تليق بهم ، وهذا هو عذاب النار ، فهل هذه للعالم التي لا تعرف إلا بمزاولة العلوم يعرفها إلا لكل فطن لبق ففهم ، هذا هو المراد بقوله « لو كانوا يفقهون » .

اللطيفة الحادية عشر ، والثانية عشر ، والثالثة عشر

في قوله « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » وفي قوله « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » وفي قوله « سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم »

يقول في الخلفين تارة « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » وتارة « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » نرى عنهم الفقه مرة والعلم أخرى وحكم عليهم بأن قلوبهم منعت الحكمة بما طبع عليها فهي لا ترى ما يرد لها من معقول ولا منقول ، وهذا يكون الكلام فيه كالكلام في الذي قبله سواء بسواء فإن الكسالى عن الحرب تأخذهم ساعة العذاب المهون ، ولعذاب الآخرة أشدّ (راجع اللطيفة للتقدمة) وأما قوله تعالى « سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم » ولقد تقدم أن العذاب (عذابان) عذاب الدنيا بالمصائب الكثيرة وعذاب القبر ، والعذاب العظيم عذاب جهنم .

واعلم أن الظلمة والقتلة والفتاك وجميع أرباب النفوس الشريرة لهم أنفس تطالبهم بالسكّال وتهدهم وتذيقهم ألوان العذاب كما نص عليه سقراط في جمهوريته إذ قال : [ إن أولئك الملوك الظالمين والناس من حولهم يشنون بحسبهم بألم في تقوسهم على مقدار ما أجزموا أجزاء وفاقاً وحياتهم شقاء ووبال ] هذا معنى ما قاله سقراط ، وأقول : زد على ذلك في هذا اللقّام أن هؤلاء ظلموا بترك الجهاد فيحسون بوخس في ضمايرهم وأنهم حالة على غيرهم ولا أحد في الدنيا إلا وهو معذب بما فيها من المصائب في الأموال والأولاد والصالحون والظالمون سواء ، ولكن إذا كان للنفس مشرب ديني ومنهج أخلاقي احتسبت ثواب بما فاتها من أهل أو مال عند ربها واقبلت الحزن بالرضوان وسعادة وأصبحت هموم الدنيا لا قيمة لها ويصبح الإنسان كأنه ملك عند ربه وكأنه رضى عنه ، فإنه إذا رأى للمال والولد والرزق والذكر الحسن والصيت وكل ما يناله من خير وكل ما يصيبه من شرّ من عند ربه وما فاتته من الخير يعتقد أن له عوضاً في الآخرة وما أصابه من الشرّ يعتقد أنه تكميل لنفسه في الدنيا وثواب له في الآخرة ، فهذه الاعتقادات هي سبيل للرضا .

وقد تقدّم أن الرضوان هو التوزن العظيم ، وهذه الدرجة قد حرم منها للنافق فهو أبداً مضطرب لفقده مال أو ولد أو صديق ولا يؤمن بالآخرة ، فانظر كيف كان الفرق بين النعيم والعذاب ففكرة للفكرين ، فالجاهل معذب بالنعيم والعالم الحكيم سعيد على كل حال .



## الطيفة الرابعة عشر

وقد أخرجت لطول الكلام عليها ، اعلم أن الله ذكر أصنافا من المنافقين فمنهم :

(١) للمستأذنون في التخلف ليكونوا مع القواعد وهم أغنياء .

(٢) ومنهم من يقول أئذني لي .

(٣) ومنهم من يلزمك في الصدقات .

(٤) ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن .

(٥) ومنهم من عاهد الله الخ .

(٦) ومنهم الذين يلزمون الطوعين من المؤمنين الخ .

(٧) ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما .

(٨) والذين اتخذوا مسجدا ضرابا .

(٩) ومن حولكم من الأعراب منافقون .

(١٠) ومن أهل المدينة الخ .

فهذه عشرة أصناف أهم من ذكر من أهل النفاق في هذه السورة ، والله في هذا المقام قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله » .

روى أكثر القسرين قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري على غير الوجه الذي ذكرناه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يرزقه مالا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ثعلبة قليل تؤذي شكره خير من كثير لانطيقه ، ولما كرر ذلك قال له : أما لك في رسول الله أسوة حسنة ؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهابا وفضة لسارت فلم ينن عن الطلب وعاهد الله أن يعطى كل ذي حق حقه ، فدعا الله رسوله فأخذ غنما فتمت كما ينمو الدود فبعد أن كان يصلي النهار والعصر مع النبي تباعد عن المدينة لكثرة غنمه حتى صار لا يصلي إلا الجمعة ، ثم صار لا يشهد جمعة ولا جماعة ، ثم سأل عنه فأخبروه : فقال يا وبع ثعلبة ! ولما نزلت آية الصدقة أرسل له النبي صلى الله عليه وسلم عاملين للصدقة ، فقال : ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية ، ثم قال اذهبا حتى أرى رأيي : فلما رأها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرها باللهي صنع ثعلبة بطريق الوحي ، فنزلت الآية « ومنهم من عاهد الله - إلى قوله - وبما كانوا يكذبون » فأخبر ثعلبة بذلك فخاف ومعه صدقته فلم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يحنو التراب على رأسه ، ولما تولى أبو بكر لم يقبها كذلك وكذلك عمر .

ثم اعلم أن المقصود من هذه الآية أن نقض العهد ونحوه من إخلاف الوعود إيمه عند الله عظيم جدا حتى أنه ورد في الحديث « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتهم خان » وعدّها في حديث آخر أربعة : « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خانم لجر » واعلم أن علماء المسلمين لم ينفوا الأمة لمثل هذه الأمور وتركوا الأمة تكذب ونحون وتحلف العهد ولم يشعروا بينها هذه الإنذارات والعظات كما أشاعوا نواقض الوضوء وشروط البيع وعدد الطلاق مع أن هذه المسائل أهم وأولى وأقرب إلى أصول الدين من غيرها ، ويجب على العلماء أولا أن يتخلقوا بها ثم يشيعوها بين الشعب .

ومن كان في شك مما قلت فليتاأمل حال الأمة الإسلامية اليوم ، أو لا يرى أن تجارتهم بأرة وجماعاتهم متنافرة وأمواهم خاسرة .

أليس إخلاف الوعد وكذب القول والنش في البيع كل ذلك نقر بعضهم من بعض فضاعت الأمانة

وصدق الفرجة فصاروا هم القامعين بالأحمال ولم يزلوا هكذا حالا بعد حال حتى احتلوا البلاد واستولوا على البلاد واستبدوا الناس في عقر دورهم ، ما هكذا يكون المؤمنون .

إن إخلاف الوعد والكذب والحيانة جعلت الناس أشبه بالمنافقين حتى أصبحت مصر ترى أن العاتة لا يعتبرون الصادق ذكياً بل يقولون إنه غبي جهول ، اللهم أصلح أحوال العلماء والأمة الإسلامية بالصدق والأمانة « إنك أنت السميع العليم » .

ولتعلم أرشدك الله أن هذه الأخلاق التي فشت في المسلمين اليوم وأوقستهم في برائن الفرجة جاءت مصداقاً لهذه السورة .

ألا ترى أنه تعالى قد أوعد للمنافقين بتذكيرهم بحوم نوح وعاد ونمود الخ ، وهذه الأمم عذبت بألوان من العذاب وما ذلك الوعيد للمسلمين إلا على النفاق كما أوعد الكفار في السور الأخرى ، وهاهو ذا يقول في الحديث إن الكذب والحيانة وتفض اليهود وما أشبه ذلك نفاق وأنت تعلم من الآية أن النفاق يضيع سلطان الأمم فيجعلها في قبضة أخرى ويهلكها .

وهذا هو عذاب المؤمنات : أي للتقلبات ، وهذا انقلاب للأمم من حال إلى حال فتصبح في ملك أعدائها وتستخدم كالدواب ، فيعد أن كانوا سادة أصبحوا عبيداً .

فانظر كيف نص الحديث على أن الكاذبين الخائنين العاديين منافقون ، وانظر كيف أوعد الله للمنافقين في الآية جزائهم وضياع دولهم وتمزيق شملهم ولم يبين نوع العذاب ، وانظر كيف حصل الأمران في أمة الإسلام : نفاق كما في الحديث ، وتمزيق الشمل كما في الآية ؛ وهذا هو القول الحق .

ولهذا جاء القرآن ، وبهذا وأمثاله فليفهم المسلمون الدين فليترصد الفرائص ولتتمزق الأئمة وليتعظ العلماء ، وليصدقوا هم أولاً في كلامهم ، ولا يخلفوا وعودهم ، ولا يخونوا أحداً ، ولا يضجروا في الخاصة ، ثم ليحملوا الأمة على ذلك وليبلغوها أمثال هذه المعاني التي هي حقائق ثابتة ومعجزات للقرآن واضحة حتى تلم الأمة شعها وترجع مجدها وتروج تجارتها ويكون تجارها من الصادقين كما قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ولما ترك بعض المسلمين الصدق بارت تجارتهم وذهبت ربحهم ، وقد أذن الله اليوم باسترداد مجدهم ، وتمكين أمرهم ، وصدقهم ، وسيكون في هذه الأمة عاجلاً من يرشدونها والله هو الولي الحميد ، انتهى الكلام على القسم الثالث .

### (القسم الرابع)

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْوَاعَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْزَاعِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْتِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ • الثَّانِيُونَ الْمَائِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِبُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ • مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ • وَمَا كَانَ

اسْتَفْهَامُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَرْعِدَةٍ وَعَدَمًا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ  
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ \* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ  
 مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ  
 وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ \* لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ  
 الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ  
 لِأَنَّهُمْ رَدُّوا رُجُومًا \* وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا  
 رَحَّبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا  
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ \* مَا كَانَ  
 لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا  
 بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ  
 صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ \* وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ  
 وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا  
 كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا  
 إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا  
 فِيكُمْ غِلظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ \* وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ  
 زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
 مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ \* أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ  
 عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ \* وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ  
 بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ  
 لَا يَفْقَهُونَ \* لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ زَهْرٌ رَحِيمٌ \* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \*

### التفسير اللفظي

( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ) تمثيل لإنابة الله لهم الجنة على بذل نفوسهم وأموالهم ، ومصرّ أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها ، فقال يبيع والله مريح لا ثقيله ولا نستقبله نخرج إلى الغزو واستشهدتم استأنف لبيان ما لأجله الشراء ، فقال ( يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ) ثم أكد قال ( وعدا عليه ) فهو مصدر مؤكد لما دلّ عليه الشراء ( حقا ) واجبا ( في التوراة والإنجيل والقرآن ) أي إن وعد الله للجاهدين بالجنة المذكور في الكتب السابقة من التوراة والإنجيل كما هو مذكور في القرآن ، وقد علمت فيما تقدم أن الجهاد هو الرق للإنسانية كلها فهو معها يوم أن وجدت على الأرض ( ومن أوفى بعهده من الله ) تقرير لكونه حقا ( فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ) أي افرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم النعيم القيم ( وذلك هو الفوز العظيم ) من أهل الجنة ( الثابتون ) عن الكفر وعن المعاصي فتحزن قلوبهم على المعاصي ويندمون ويعزمون على الترك ويكون لهم على ذلك رضوان الله لامدح الناس وذمهم ، فهذه شروط أربعة لتوبة المعاصي ( العابدون ) الذين عبدوا مخلصين ( الحمدون ) لنعمانه ولما نأبهم من الشراء والضراء ( السامعون ) :

( ١ ) السامعون ، لأن الصيام عائق عن الشهوات وأيضا من الصائمين من وصلوا في رياضتهم إلى الاطلاع

على خفايا الحقائق .

( ٢ ) والسامعون للجهاد . ( ٣ ) والسامعون لطلب العلم .

وأعلام الثالث وأوسطهم الثاني وأقلهم الأول ، فهؤلاء كلهم سامعون ( الراكون الساجدون ) في الصلاة ( الآمرون بالمعروف ) بالإيمان والطاعة وحفظ الأئمة ونشر العلم ( والناهون عن المنكر ) عن الشرك والمعاصي ( والحافظون لحدود الله ) وأوامره ونواهيها وهذا مجمل الفضائل والسبعة قبله مفصل ، ثم إن عادة العرب أنهم بعد السبعة يأتون بواو ويقولون إنها واو الثمانية ، ولذلك قال « والحافظون » ولم يقل الحافظون ( وبشر المؤمنين ) للتصنيف بهذه الصفات .

يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبي طالب لما حضره الوفاة قل كلمة أحاجّ لك بها عند الله فأبى ، فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه ، فنزل « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » وكان ذلك في مكة ولا زال يستغفر لأبي طالب حتى نزلت هذه الآية في المدينة مع السورة وهي ( ما كان للذي آمنوا ) معه ( أن يستغفروا للشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ) أي ماجاز لحمد والذين آمنوا به أن يدعوا للشركين ولو كانوا ذوي رحمهم من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك ، أما الأحياء فالاستغفار لهم جائز ليطالب به توفيقهم للإيمان .

وروى « أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له صلى الله عليه وسلم إن من آياتنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالدم أفلا نستغفر لهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله هذه الآية : ما كان للذي آمنوا الخ » ثم عذر الله إبراهيم ، فقال تعالى ( وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ) وعدها إبراهيم أباه بقوله « لأستغفرن لك » أي لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان ( فلما تبين له أنه عدو لله ) بأن مات على الكفر

أو أوحى إليه بأنه لا يؤمن ( تبرأ منه ) قطع استغفاره ( إن إبراهيم لأواه ) لكثير التآوه ، وهذا كناية عن كثرة ترحمه ورقة قلبه ( حلیم ) صبور على الأذى ، وهذه الجملة لبيان ما حمله على الاستغفار ، وقد خاف جماعة من المؤمنين أن يكون استغفارهم قبل المنع معصية ، فأزل الله ( وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم ) للإسلام بسببهم ضلالاً ويؤاخذهم مؤاخذه الضالين ( حتى يبين لهم ما يتقون ) أى حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه سواء كان ذلك في الاستغفار للمشركين قبل المنع أم في شرب الخمر قبل العلم بتحريمها من قوم بدت ديارهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أم في التوجه لبيت المقدس وقد حوّل إلى الكعبة والقوم لا يعلمون لبعث الديار ، فكل ذلك قد ذكر في سبب هذه الآية ؛ فالمراد كما قال الضحاك : وما كان الله ليعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون وما يذرون ( إن الله بكل شيء عليم ) من المنسوخ والناسخ وما خالط نفوسكم من الخوف عند ما نهاكم عن الاستغفار للمشركين وما يبين لكم من الأوامر والنواهي ( إن الله له ملك السموات والأرض ) ملك السموات كالشمس والقمر والنجوم ، وملك الأرض كالشجر والدواب والجمال والبحار ( يحيى ) للبعث ( ويميت ) في الدنيا ( وما لكم من دون الله ) من دون عذاب الله ( من وليّ ) قريب ينفعكم ( ولا نصير ) مانع .

ولما كان ما تقدم يقتضى البراءة من ذوى القربى إذا كانوا مشركين بين الله بهذه الآية أن الله هو مالك الخزائن كلها فلتوجهوا إليه وهو الناصر وحده ( لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ) وهذا كقولهم « ونوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون » يأمر الله جميع الناس أن يسعوا للارتقاء في الدرجات ، فكما ينظم سالم من صبا إلى شباب إلى كهولة إلى هرم إلى موت ، هكذا يجب أن يترقوا في أحوالهم للنعوية من كمال إلى أكل منه .

وكل من كان في درجة من درجات السكال يشرب إلى ما هو أعلى منها ، وما دام في الدرجة الدنيا فإنه مطالب بالترقى إلى ما هو أعلى ، فيكون الارتقاء عن للرتبة الدنيا إلى العلية توبة من التقيصة واعتناق السكال ، وهذه هي التوبة المذكورة في هذه الآية وهي المراد بقوله « ليفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وهذا معنى توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار ( الذين انبعثوا في ساعة العسرة ) أى وقت الشدة ، فهم جميعاً ينتقلون من حال إلى حال أكل ، وهذه الشدة والعسرة كانت من الزاد ومن الحرّ ومن العدو ومن بعد الطريق ، فكان ذلك كله ضيقاً وشدة ، وغزوة تبوك كانت تسمى غزوة العسرة والجيش الذى سار فيها كان يسمى جيش العسرة فكان منهم عشرة يخرجون على بعير واحد يحتبونه بينهم وكان زادهم التمر للمسوس والشعير للتعبير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم لآك التمرة حتى يجد طعمها ثم يشرب عليها جرعة ماء وهكذا صاحبه حتى تأتى على آخرهم ولا يبق من التمرة إلا النواة ( من بعد ما كاد يزيد قلوب فريق منهم ) عن الثبات على الإيمان أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج منه ، وفي « كاد » ضمير الشأن والجملة بعده في موضع نصب ، وقرأ حمزة وحفص « يزيد » ( ثم تاب عليهم ) كرهه للتأكيد ( إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة ) أى وتاب على الثلاثة : كعب بن مالك وهلال بن أمية ، ومهارة بن الربيع ، وأوائل أمياؤم مضبوطة بلفظ [ مكة ] وآخرها بلفظ [ عكة ] ثم قال ( الذين خلفوا ) تخلفوا عن غزوة تبوك وهم المذكورون في قوله تعالى « وآخرون مرجون لأمر الله » فيها تقدم ( حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ) أى برحبتها : أى مع سعتها كأنهم لشدة حيرتهم وفرط قلقهم لا يجدون ملجأً يلجئون إليه ، فمثل ذلك بأن الأرض الواسعة الأرجاء البعيدة الأطراف لاتسعهم ، وللتأنيب فيما يقرب من هذا :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن التأتى عنك واسع

( وضاف عليهم أنفسهم ) أى قلوبهم لا يسمعها أنس ولا سرور من فرط الوحشة واتهم ( وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ) وعلموا أن لاملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم منع أصحابه أن يكلموا هؤلاء الثلاثة ولبثوا على ذلك خمسين ليلة .

وقد زادت الشدة عليهم أن أمروا أن يعزلوا أسام بعد أن مضى عليهم أربعون يوماً من المحسين ، وكان أحدهم يطوف السوق والمساجد فلا يكلمه أحد . قال كعب بن مالك : آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا ، ومن حديث كعب بن مالك أيضاً أنه قال : « جاء المخلفون فطفقوا يتندرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً قبل منهم علانيتهم وياهم واستغفر لهم ووكّل سرّارهم إلى الله تعالى حتى جثت فبست فبست تبسم للفضب وصدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك فقامت . وفى الحديث طول قد ذكرت ما بهم منه وهو قوله تعالى ( ثم تاب عليهم ) بالتوفيق للتوبة ( ليتوبوا ) ليكونوا من جملة التوابين ( إن الله هو التواب ) لمن تاب وإن عاد فى اليوم مائة مرة ( الرحيم ) المتفضل عليه بالنعم ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ) فيما لا يرضاه ( وكونوا مع الصادقين ) فى إيمانهم وعهودهم وفى دين الله نية وقولا وعملا ، والمراد بالصادقين هؤلاء الثلاثة وأمثالهم ممن صدقوا فى نياتهم واستقامت قلوبهم ولم يتندروا بالأعداء الباطلة الكاذبة .

ومن أظف ما يكون أن أبابكر يوم السقيفة إذ قال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، قال يا معشر الأنصار يقول الله « للفقراء المهاجرين - إلى قوله - أولئك هم الصادقون » من هم ؟ قالت الأنصار : أئمة ، فقال أبو بكر : إن الله تعالى يقول « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » فأمركم أن تكونوا مضا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأئمة الوزراء ( ما كان لأهل المدينة ) أى لساكنى المدينة من المهاجرين والأنصار ( ومن حولهم من الأعراب ) أى سكان البوادي من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وغيرهم ( أن يتخلفوا عن رسول الله ) يعنى إذا غزا : أى ليس لهم ذلك ( ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ) أى ولا يرغبوا بأنفسهم أن تصيبهم الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله فى مشقة السفر ومقاساة التعب ، وبجارية أخضر ولا يكونوا على أنفسهم أشفق من نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال ولا يرغبوا بصحبة أنفسهم عن محبة النبي صلى الله عليه وسلم فى الجهاد .

روى أن أبابكر بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب واللآء البارد ، فنظر فقال : ظلّ ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضحى والريح ، ما هذا بخير ؟ فقام فرحل نافته وأخذ سيفه ورمحه وصرّ كالريح ، فند رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب ، فقال : كنى أبابكر خبيثة فساكن هو ، ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له ( ذلك ) الخروج ووجوب التابجة ( بأنهم ) بسبب أنهم ( لا يصيبهم ظمأ ) شىء من العطش ( ولا نصب ) تعب ( ولا محصنة ) جماعة ( فى سبيل الله ولا يطؤون موطئاً ) ولا يدوسون مكاناً ( يغيظ الكفار ) بغضبهم وطرؤه ( ولا ينالون من عدو نبلا ) كالقتل والأسر والتهب ( إلا كتب لهم به عمل صالح ) إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب التابجة ( إن الله لا يضيع أجر المحسنين ) على إحسانهم تبييه على أن الجهاد إحسان لأنه تنكيل للكفار وصيانة للمسلمين عن استيلاء الكفار

وهذه الجملة تحليل لقوله « كتب » ( ولا ينفقون ) في سبيل الله ( نفقة صغيرة ولا كبيرة ) أى عمرة لما دونها أو أكثر منها ( ولا يقطعون واديا ) أى ولا يجاوزون في سيرهم واديا ( إلا كتب لهم به ) إلا أثبت لهم ذلك ( ليجزيهم الله ) بذلك ( أحسن ما كانوا يعملون ) أى يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق مادونه به إكثارا لأجرهم وتوفيرا لثوابهم وإسعادا لهم .

واعلم أن هذه الآية قد حتمت على جميع الناس أن ينفقوا للقتال ويتركوا الأعمال الأخرى ، فإذا جمعت الجوع ورفعت البنود واسطفى السكر للجهاد وجب على جميع المسلمين السرفهمهم ، وهذا أمر يوجب ضياع المدن ، لأن الناس إذا غزوا جميعا فمن لمدارسهم وطرقهم وزرعهم وتجاراتهم ؛ لذلك أعقبه بما يفيد أن أعمال الأمة يجب أن توزع على الأمة وعلى كل ما يناسبه ، فالعلماء يعلمون ، والحطباء يظنون ، والحكام يؤلفون ، والزراع يزرعون ، والسوقاس يفكرون ، وهكذا كما قدمناه مرارا في التفسير وكما أوضحت في أواخر سورة البقرة .

وقد قلنا مرارا إن الجهاد أمر دائم ، فالناس إذا رجعوا من الغزو والحياة كلها جهاد ، بل إن الجهاد بالحجة أبلغ من الجهاد بالسيف ، والنفقة في الدين هو الجهاد الأكبر ، فإذا سمعت الله في هذه الآيات يقول ولا يضلون كذا وكذا إلا كتب لهم كذا وكذا ، فاعلم أنك الآن وأنت تقرأ هذا التفسير وفي غد وأنت تنظر في أمر الأمة وتنظم شئونها وتربى أبناءها وتتصح جماعاتها ، في عمل من هذه الأعمال بل هو الجهاد الأكبر ، وكيف لا يكون أكبر وهو اللب ، ومن يجب أن الجمعات للسجدة تعتمد في نشر دينها على التعليم وفتح المدارس فكأنهم عملوا بما قاله علماؤنا من أن تعليم العلم هو الجهاد الأكبر وهو للقصد الأعظم .

انظر كيف يقول الله تعالى ( وما كان المؤمنون لينفروا كافة ) أى وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعا فإن ذلك يغفل بأمر العاش وتوزيع الأعمال كما أوضحناه في قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ) فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل مصر أو قرية جماعة قليلة ( ليتفقهوا في الدين ) ليتكفروا ويتجشموا مشاق تحصيل الفقه ( ولينفروا قومهم إذا رجعوا إليهم ) أى وليجعلوا غاية سبيلهم ومعظم قصدهم من تحصيل الفقه أن يرشدوا قومهم ينفروهم ، لأنهم يترفضون على الناس ويتبسطون في البلاد ( لئلا يهملوا ) إرادة أن يهملوا عما ينفرون ، وإنما خص الفقه بالذكر لأنه أهم .

وهناك وجه آخر وهو أن الآية من بقية أحكام الجهاد ، وذلك أن هذه الآيات لما وضعت للناقون فيها وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرايا نفر الناس كلهم للغزو ولم يتخلف أحد فنزلت هذه الآية وهي تقتضى أن ينقسم المسلمون قسمين : قسم يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم يسمع ما يتجدد من الوحي ، وقسم يسافر للجهاد ، فإذا رجع النزاة أخبرت الطائفة القاعدة من رجعوا بما سمعوا من الحديث والقرآن والأحكام الشرعية وصير معنى الآية ، فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد : أى وقصدت طائفة ليتفقهوا ، أى القاعدون في الدين ولينفروا قومهم المجاهدين إذا رجعوا إليهم : أى إلى القاعدين ، لهم : أى لئلا أولئك الراجعين يهملوا مخالفة أمر الله وهذا واضح وليس في مرجع هذه الضمائر مناقلة للفصاحة لأن اللقاع يفهم لتقصود منها .

واعلم أن التفسيرين يرجعان لتعرض واحد فالقصد توزيع الأعمال بين الناس ، وقد كان أهم عمل بعد الغزو تلقى العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فالأمر جدير بالعناية ، لجميع العلوم واجبة وقرائنها وفهمها من فروض الكفايات سواء أكان ذلك العلم قتها أم حديثا أم تفسيريا أم هندسة أم طبيا أم علم المعادن

أم الطبعة أم العلك أم صناعة الحرب أم بناء السفن أم علم الكهروباء أم علم للرأى ، كل ذلك لا بد منه لقيام  
أمر الأمة ، وهذه الآية واضحة ذكرت بعد الجهاد ليعرف المسلمون أمر دينهم .

فكل للمسلمين يجب أن يكونوا في جهاد ليل ونهار ، بل النوم نفسه جهاد لأنه به تقوى أجسامنا على  
العمل والطعام والشراب والرياضة البدنية ، كل ذلك متى قصدنا أنه مقوم لصحتنا نافع في قيامنا بأعمالنا كان  
جهادا ، فعل المسلمون جميعا أن تكون أوقاتهم كلها عملا وعلما .

وحرام عليهم أن يتركوا فنا أو علما أو صناعة ، وكل ذلك جهاد ، فقد اتضح أن توجيه الدفع والبنديقية  
والديناميت لصفوف العدو ليس هو كل الجهاد بل أفضل من هذا إقامة الحجج وإبانة السبل وإيضاح الحقائق  
ولقد سمى ذلك علماءنا الجهاد الأكبر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى  
الجهاد الأكبر جهاد النفس » فتأمل وتعجب كيف نام العلماء في سائر الأقطار عن مثل هذه الآيات ولم  
يوضحوها للعامة والخاصة ولم يفهموا الأمة أن الأعمال العلية والعملية جهاد .

وإذا كان للمسلمون في القرون الأخيرة لا يصدقون إلا بكلام العلماء السابقين فأنا أقول لقد أقاموا الحجة  
وبيّنوا في كتبهم ذلك فليس للتأخرين عذر ، ولقد قال القدامى بفسيح العبارة: إن تعلم العلم والتفقه في الدين  
هو الجهاد الأكبر ، وقالوا أيضا إنه فرض كفاية وهكذا بقية العلوم والصناعات .

فكيف نام الوعاظ والعلماء عن إيقاظ الأمة وإشاعة هذه الأقوال وتبئير النفوس وإثارة الحمية في القلوب  
وإبلاغ الناس وعد الله ونوابه وتفهمهم أن الحياة كلها جهاد حتى إذا مات الإنسان أحسن براحة ونعمة بعد  
ما قاسى من الشاق . وإنى أطلب منك أيها القارىء لهذا الكتاب أن تدل الأمة على هذه المقاصد  
توصى الناس بها ، وأقسم لك بالفجر والشمس والضحى « والمصر » إن الإنسان لفي خسر « لأنه يظن أنه  
يعيش كالحيوان يطلب أشاء ويولد ثم يموت « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فارتقوا عن تلك الطبقات  
وعرفوا أن الإنسانية لها مطالب سامية ومحوها في الأعمال النظامية العامة « وتواصوا بالحق » ولم يبالوا بما  
يصيبهم في سبيله « وتواصوا بالصبر » على الأذى . فكن أنت من هؤلاء فالأمر عظيم . ثم قال ( يا أيها الذين  
آمنوا قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار ) اعلم أنه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينفذ عشيرته  
الأقربين أمر أن ينزوا الأقرب فالأقرب من الأمم فقاتل صلى الله عليه وسلم أولا قومه فسأر العرب فأهل  
الكتاب من بنى قريظة والنضير وخيبر وفدك ، وغزا الروم في الشام ثم فتح الصحابة الشام فالعراق ثم سائر الأمصار  
( وليجدوا فيكم غلظة ) شدة وقوة وشجاعة وصبرا على الجهاد ( واعلموا أن الله مع التقيين ) بالمؤمن والنصر  
ثم ذكر المنافقين فقال ( وإذا أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ ) أى تصديقا وبقينا وقربة  
من الله : أى إذا أنزلت سورة من سور القرآن يقول بعض المنافقين لبعض ذلك القول استهزاء فأجابهم الله  
بأن الذين آمنوا تزيدهم هذه السورة للنزلة إيمانا لأن الآيات للتجدد تزيد للمؤمن إيمانا ، وأما الكافر فإنه  
بها يزيد كفره ؛ لأن عدد ما كفر به قد زاد كما زاد عدد ما آمن به للمؤمن ، وهذا قوله تعالى ( فأما الذين  
آمنوا فزادتهم إيمانا ) تصديقا ( وهم يستبشرون ) يفرحون بنزول القرآن شيئا فشيئا ( وأما الذين في قلوبهم  
مرض ) أى شك ونفاق ( فزادتهم ) سورة من القرآن ( رجسا إلى رجسهم ) شكا وكفرا إلى شكهم وكفرهم  
لأن الحباث يتبع بعضها بعضا والشك يستتبع الشك .

والقلوب إذا خلت من الحكمة وابتليت بالجهالة وأحاط بها سوء الظن وأقلق مضاجعها جهل الحقائق  
والوساوس فأصبحت في شك من الليل مظلم زادها ما يرد عليها من للسائل جهالة وظلمة خللك ليها وأظلمت  
سبلها ، وما مثل الشك والحيرة والاضطراب إلا كمثل للرض بزاد سوءا بتناول الزمن ويتشعب ويقوى  
ويزموا كما ينمو النبات والحيوان .



فهذا تفسير قوله تعالى « فزادتهم رجسا إلى رجسهم » كما في قوله في سورة البقرة « في قلوبهم مرض »  
 أي شك ونفاق « فزادهم الله مرضا » على قاعدة التثاق والتشعب واستفحال الماء ونفاقه الأمر .  
 فالشك والحيرة يكونان في أول الأمر بذرا ثم يثبت في القلب ثم يشر كفرا عظيما فاستحكم ( ومانوا وهم  
 كفرون ) ثم أبان ذلك وأوضحه بأنهم في كل عام يمزون مع النبي صلى الله عليه وسلم ويعاينون ما يظهر عليه  
 من الآيات ، ومع ذلك لا يتوبون لأن النفاق استحكم في قلوبهم والمرض غشى على أفئدتهم فلا تصلح قلوبهم  
 للإيمان وهذا كالدليل على ما قبله ، وهذا قوله تعالى ( أولايرون أنهم ) أي المناقين ( يفتنون ) يبتلون ويختبرون  
 بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات ( في كل عام مرة أو مرتين ثم  
 لا يتوبون ولا هم يذكرون ) لا يتوبون من نفاقهم ولا يعتبرون ( وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض )  
 تنامزا بالعيون إنكارا لها وسخرية ( هل يراكم من أحد ) إن قمتم من حضرة الرسول ، فإن لم يرم أحد  
 قاموا ، وإن رآهم أحد أقاموا ( ثم انصرفوا ) عن الإيمان تلك السورة لما تقدمت من المرض الذي نما فأعمر  
 هذا الإنكار فزادهم الإنزال كفرا ، وهذا كله إيضاح وتفصيل لزيادة المرض في قلوبهم ثم دعا عليهم فقال  
 ( صرف الله قلوبهم ) أي أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم ( بأنهم ) أي بسبب أنهم ( قوم لا يفقهون ) أي لسوء  
 فهمهم وعدم تدبرهم .

ثم أخذ يبين عدم تفقههم وبلادتهم فقال كيف تعرضون عن رسول منكم أيها العرب جاء لهدايتكم  
 وسعادتكم وسمى لجمع كلنكم وهو رحيم بالمؤمنين ، وأن من أعرض عن هديه فقد أعرض عن سعادة نفسه  
 ومن أعرض عن سعادة نفسه فقد كره نفسه وجمع في نفسه ( خصلتين ) يحب نفسه طبعاً وهو قد كرهها  
 بالبرهان فهو كاره محب في آن واحد وهذا أعظم البلادة فأين الفقه ؟ فهذا هو تقرير « أنهم قوم لا يفقهون »  
 ولوقهوا لأدركوا أن اجتماع كلمة العرب تخيف الأمم حولهم فيحصل لهم عز الدنيا الذي هم به منرمون  
 وهو كظلمة الإيمان والدين ، فهو وإن جاء للإيمان بالله والتقوى أصالة فقد جاء بمن الدنيا تبعاً كما ظهر  
 حالا في تلك الأيام ، وهذا قوله تعالى ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم ) من جنسكم عربي مثلكم ( عزيز عليه  
 ما عنتم ) أي شديد شاق عليه عنتم ولقاؤكم المكروه ، وذلك للمكروه إنما يكون بترك الجهاد والأعمال  
 النافعة والعلوم والفقه ، فلذلك طلب منكم الجهاد ( حريص عليكم ) على إيمانكم وإيصال الخبر لكم وهدايتكم  
 وصلاح شأنكم ( بالمؤمنين ) منكم ومن غيركم ( رءوف رحيم ) والرأفة وإن كانت أشد من الرحمة قدمت  
 محافظة على الفاصلة ( فإن تولوا ) عن الإيمان بك ( قل حسب الله ) فإنه يكفيك شرهم ويدينك عليهم ثم استدل  
 عليه بقوله ( لا إله إلا هو عليه توكلت ) فلا أرجو إلا هو ولا أخاف إلا منه ( وهو رب العرش العظيم )  
 الملك العظيم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه « أن آخر ما نزل هانان الآيتان » .

#### لطيفة

قد كنت كتبت عدة مقالات خطابا للمسلمين في الجرائد وفيها ما يناسب قوله تعالى « فلولا نفر من كل  
 فرقة منهم طائفة » فهامى ذه المقالة السابقة .

قد ثبت في المقالة السابقة أن فرض الكفاية ظاهر واضح من قوله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم  
 طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم الخ » ونحن بحمد الله ذاكرون في هذا اللقاع كيف كانت درجات  
 العلماء السابقين في البحث والمخطاط العلماء للتأخرين في ديار الإسلام ، وكيف قصرت عقول كثير منهم  
 فهم لا يعلمون .

أقول: لما وصلت إلى هذا المقام؛ قال لي ذلك العالم صديقي: إن علماء الإسلام لم ينكروا فرض الكفاية وعمومه في كل شيء، قلت لم ينكروه علما إجماليا ولكن عند العمل يسكتون عنه، وقد كان للتقدمون مدققين باحثين مفكرين، فأما الآخرون فإنهم ناموا وعكفوا على القليل من العلوم كأنهم لا يعلمون، قال فاذا ذكر مسألة واحدة لتبين بها تفصيل التأخرين، قلت ألم تقرأ مذهب الإمام الشافعي؟ قال بلى، قلت ألم تقرأ في كلام الأئمة السابقين منهم وتبهمم اللاحقون فقد قالوا: إن الإنسان يجب عليه أن يغسل جزءا من العضد إذا غسل الذراع مع الرفق، وعللوا ذلك بقولهم: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإذا كان المتقدمون عنوا أشد العناية بالدين.

ولما سمعوا قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين» أقول: لما سمعوا ذلك قالوا علينا أن نغتاط ونغسل جزءا من الساق وراء الكعبين وجزءا من العضد وراء للرفقين فإنه لا يتحقق تمام غسل للرفقين وغسل الكعبين إلا بغسل جزء مما فوقهما لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

هذه مسألة يعرفها سفار الطلبة في الأزهر والمعاهد الدينية.

فياليت شعري كيف يعرفون هذا ولا يفكرون في أمر الجهاد؟ يا سبحان الله! أفليس الجهاد واجبا كما وجب الوضوء؟ فلماذا لم يتابع المتأخرون هذه الباحث بنائية أشد ويقولوا إن الجهاد لا يتم إلا بالطرق الحديدية وبالزراعة النائمة وبالصناعات والأمانات والأخلاق ونظام البلاد حتى تضارع وتفوق أهل أوروبا، فقال العالم الديني صديقي: إن هذه الآراء المذكورة في ثنايا الكتب. قلت وهل هي أصل وجوبها من وجوب الوضوء إن الوضوء فرض عين، ووجوب هذه العلوم كلها فرض كفاية، وفرض الكفاية إذا لم تقم به جماعة عذبت الأمة كلها في الدنيا والآخرة، وفرض العين يجذب عليه تاركه وحده.

إن فرض الكفاية هو القلعة والسيج الذي لا يكون فرض العين إلا بعد وجوده وإلا فكيف يصل الناس أو يتوضئون أو يحجون أو يزكون أو يصومون وبلادهم محتلة ومحتلة وحكوماتهم معتلة، وفروض الكفائيات بتركها تخرب الأمم ونذل لغيرها ولا تستطيع القيام بالفرض العين، فإذا عرف كل طالب في بلاد الإسلام أن غسل جزء من العضد وجزء من الساق وراء للرفقين ووراء الكعبين واجب. فلماذا لا يعرف كل طالب أن العلوم التي في أوروبا وفي أمريكا وفي اليابان وفي الصين يجب على المسلمين جميعا أن يعرف كل طائفة منهم قسما منها حتى يكون للمسلمون كأهل أوروبا في علومهم ومعارفهم ونظمهم.

ولعمري إذا عرف كل طالب وجوب غسل جزء من العضد وجزء من الساق احتياطا لدينه فبالأولى يجب عليه قبل كل شيء أن يعرف أن البلاد لا حياة لها والدين لا بقاء له إلا بدراسة جميع العلوم وتعميم القراءة والكتابة في بلاد الإسلام.

أقول: ولقد أُنذرت أمة الإسلام بالقرآن وحذرتها وأوضحت لها طرق الواجبات، وإن أطلب كل مطلع على قولي هذا أن يفكر فيه وأن يقوم بشعره عند من يفقهون.

إن الأمة الإسلامية لما تركت هذه العلوم لم تبشر بالنصر ولم تكن مهدية إلى أقوم طريق ولم يكن كثير من هدايتها رجالا من أولى الألباب.

يقول الله تعالى «بشر عباد الدين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب» فاستمع القول واتبع أحسنه عام شامل لجميع العلوم والصناعات والأحوال. فقال إنك إذا عممت هذه الآية هدمت الدين وخالفت للتقدمين وللتأخرين وكأنك بهذا تقول للمسلمين إذا استحسنتم أمرا

فاتبعوه واتركوا دين الإسلام من الكتاب والسنة ، فأنت بفهمك هذا هدمت جميع الدين ولا يرضى بهذا المسلمون ، فقلت إن أحسن القول للذكور لا يصادم الدين ولا يخالنه بل هو ما يجب فيه لأن أحسن الأحوال هي التي يطلبها الدين ، فقال لو استحسنت رجل أن لا يصل إذن يكون من أولى الألباب ، فقلت له ليس هذا قولاً حسناً وإنما هو هوى وشهوة وغرض ، فكل صناعة أو زراعة أو علم وجدنا فيه خيراً في حياتنا فلنتخذ أسهل الطرق لحوزة لاستخلص أجمله ونهراء ولتعمل به ، فقال وكيف السبيل إلى معرفة هذا القول الأحسن ؟ فقلت [ لتشكيل لجنة في مكة ولبرأسها عظيم من عظماء الإسلام ] فكما أن لدول أوروبا جمعية أمم فلا يمكن لأمم الإسلام جمعية علم . وليكن في هذه الجماعة من كل طائفة من المسلمين : من الترك والهند والأفغان ومصر وسوريا الخ . وليكن في هؤلاء متضلعون في علوم : فهذا في الطب ، وهذا في العلوم الرياضية ، وهذا في العلوم الطبيعية ، وهذا في التاريخ . وليكن فيهم عارفون بأهم اللغات . ثم ليدرسوا نظم الأمم الأوروبية والأمريكية ثم ليجتثوا عما عندهم من العلوم وليأخذوا منها أجمل ما فيها ومن الصناعات ثم لتنتشر في بلاد الإسلام .

فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم « فبشر عباد الذين يستمعون القول » فإنهم استمعوا القول بلغات مختلفة « فيتبعون أحسنه » فذلك وصفهم بأنه هداهم ووصفهم بأنهم أولو الألباب وإنما كانوا أولى ألباب لأنهم استخلصوا لب الأشياء .

ولا جرم أن ألب أحسن من القشر فإنه هو القصد ، فالب إذن أحسن من غيره فذلك وصفهم بأنهم أولو الألباب ، فهؤلاء بشرهم الله بالنصر وبالجنة وبالنعمة في الدنيا والآخرة . فقال ذلك العالم صديق لم يبق إلا شيء واحد وهو هل عندك من دليل يؤيد أن السلم يستخلص من كلام الكافرين ويتبع أحسن ما يقولون إن للفسرين لم يقولوا ذلك ، فإن أوسع قول عندهم يرجع إلى أقوال علماء الإسلام ، فأما أخذ الأحسن من قول القرنيحة وعلماء اليابان فهذا لا يقبله المسلمون ، قلت له : قال الله تعالى « فاسألو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » فقال فهل أهل الذكر أهل أوروبا ؟ فقلت له : الذكر في كل شيء بحسبه ؛ فعلم الفقه عن الفقهاء ، وعلم الحساب عن العلماء به ولو كانوا كافرين ، وعلم الزراعة عن العلماء بها وهكذا ، فقال لا يزال اللقال يحتاج إلى دليل ، قلت أفيسكتيك عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال وماذا يكفيني إذن ؟ قلت ألم تعلم أنه صلى الله عليه وسلم والمدينة قد حاصرها الأحزاب من كفار مكة وغيرهم جاء له سلمان الفارسي وأخبره بأن الفرس كانوا يحفرون الخنادق حول مدنها إذا هاجمهم العدو ، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أمر بحفر الخندق ولم تكن العرب يومئذ تعرف الخندق ولا حفرة . فهذا القول قاله سلمان الفارسي وهو مسلم ولكنه نقله عن أم مجوسية يبيدون النار ، فلو كان الأخذ عن أوروبا وأمريكا غير حسن ، ولو كان اتباع الأحسن مما يوافق ديننا غير مرغوب فيه لكان صلى الله عليه وسلم نعي سلمان الفارسي عن هذا وقال له إن هؤلاء كفرون فلا تسمع قولهم ولا تتبع طريقهم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمع القول عن عباد النار وعن غيرهم فاتبع أحسنه ، فهناك طريقتان :

الأولى : أن يقف الرجال حول المدينة ويدافعوا عنها وهي طريقة الرب الجاهلة .

الثانية : أن يحفروا خنادق وهي طريقة عباد النار فاتبع الأخيرة وهي أحسن القول فبشره الله وبشر

أصحابه ونصرهم وأعزهم وهداهم ، وهؤلاء هم أولو الألباب .

أفلا يسع المسلمين ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أفلا آن الأوان أن يتذكروا ويعتبروا ؟

لقد شدت أيها الأستاذ في قولك وسرني منك ذلك التشديد تريد بذلك أن لا يبقى لأحد من المسلمين مطعن

في القول ولا شبهة ، وإني أحمد الله عز وجل أن وفق لهذه الرسالة وأرشد إلى ما يجب على المسلمين في مستقبل الأيام لحفظ كياناتهم إذ لم يبق عذر لمعتذر ، وحرام وإثم عظيم على من قرأ هذه الآراء وأمثالها فلم يتناقش فيها ولم يفكر ولم ينشر ما يماثلها إن كان قادرا بين جماعة المسلمين في الأمم الإسلامية لاسيما الأمم العربية والله هو الولي الحميد .

فهذه هي المقالة التي اخترتها من تلك المقالات في هذا القمام ، وهناك مقالات نشرتها في الجرائد أيضا بمناسبة ما جاء في الأخبار أن دولة (هولانده) قد حتمت على المسلمين من رعاياها أن لا يصلوا إلا برخصة في بعض الأوقات ، وأيضا راقبت التعليم مراقبة شديدة فكتبت هذه المقالات الست الآتية في جرائدنا المصرية قبل أن يلقوا هذا الأمر ، وبمد كتابتها جاءت الأخبار أنهم قد أرادوا محاسبة المسلمين ، وهذه المقالات توبيخ للمسلمين على ترك العلوم التي أورث الله لهم المذكور ، وهذا القمام هو المناسب لهذه الآية التي أوجبت فروض الكفايات .

## الإسلام والاستثمار وسبب تأخر المسلمين

### للمقالة الأولى

في شهر يونيو سنة ١٩٢٥ أصدرت الحكومة الهولندية قانونا فيه اثنا عشر فصلا تتضمن الشروط التي بمقتضاها يجوز مباشرة التعليم الإسلامي أهمها ما يأتي :

- (١) من أراد أن يباشر التعليم في العلوم الإسلامية فعليه أن يرفع ذلك إلى أمير البلد أو الوزير ويشرح له مقاصد التعليم .
- (٢) وأن يتخذ دفترا مخصوصا للتلاميذ وشرح أحوالهم ولا يلقى عليهم شيئا إلا بعد مصادقة الحكومة عليه .
- (٣) ورجال الحكومة لهم أن يتفقدوا ذلك في كل وقت لينظروا هل قال لهم شيء غير ما صادقت عليه الحكومة المذكورة .
- (٤) ورجال الحكومة أن يحضروا مجلس التعليم ويسألوا عما يشاءون من الأمور المتعلقة بمهمة التعليم ، ولهم أن يدخلوا متى شاءوا للدارس أو الأقسام الداخلية ، وإذا رأيت الحكومة أن التعليم مخالف لما تقدم فلها أن توقف التعليم إلى مدة سنتين .
- (٥) تسجن الحكومة ثمانية أيام على الأكثر أو تغرم ٢٥ روية على الأكثر كل من ارتكب الأعمال الآتية :

- (أ) من يعلم العلوم الإسلامية بغير إذن من الحكومة .
- (ب) من يقدم للحكومة تعريفات كاذبة بشأن تعليمه .
- (ج) من يتهاون في إكمال الدفتر المذكور .
- (٦) تسجن الحكومة شهرا على الأكثر أو تغرم ١٠٠ روية كل من ارتكب الأعمال الآتية :
  - (أ) من يلقى التعاليم في مدة إيقاف الحكومة إياها .
  - (ب) من يرتكب الأعمال للتقدمة أعلاه .

هذا هو أهم ما في هذا القانون لحصته .

هذه هي أحكام (هولانده) التي لا تبلغ عدد الأصابع من اللالين في أربعين مايو من المسلمين . بماذا

تعاملهم ؟ لا يصلون في الصحراء إلا برخصة ، لا يعلمون فروض الوضوء ، إلا إذا سمعها الحاكم العام وأقرها ، لا ينطقون في منازلهم وفي مزارعهم إلا بما يقرّ عليه الحاكم العام لأنه إذا حرم عليهم نفس الدين إلا بإذن من الأخرى لا يتمتعون بهم ألّبت ما دام فيه حياة للجموع .

ألا قاتل الله الجهالة العمياء ، جهالة المسلمين . أيها المسلمون ، اسمعوا: أتندرون لماذا حل بنا ما ذكرناه ذلك لمرور الأمراء والملاء في الأعصر الفائرة ورؤساء الدين جميعا ، إن رؤساء الدين سواء أكانوا صوفية أم علماء فقه أم أمراء في الأعصر الفائرة ، كانوا يفهمون المسلمين أن ليس عليهم سوى ما يقره . وانه لهم من العلوم وما يدرسون لهم من مقدماتها خوفا من أن ينبغ الشبان ويظهر العلم فيمقتوا الجاهلين من رؤسائهم وظلت الحال على هذا المتوال آمادا وآمادا حتى أصبح ذلك خلقا راسخا وسجية ثابتة وعادة متبعة ، ومن خالف تلك العادة عدّ فاسقا أو مبتدعا الخ .

ولكم قام في المسلمين قبلنا من دعا للإصلاح أي تعميم العلوم كالعلامة ابن رشد بالقرب فحكوا عليه بالإلحاد فمات شريفا وحيدا ونقل تلاميذه من اليهود علمه إلى أوروبا فأيقظها من رقدتها فارتقت وأخرجت من الأندلس المسلمين الذين كانوا لهم معلمين ، ولقد فعل قبل ذلك أهل الشرق بتعاليم الغزالي فأصبحوا بها جاهلين ، لم يكن هذان العالمان وأمثالهما مارقين من الدين ، كلا بل كانا يأمران بتعليم جميع العلوم الطبيعية والفلسفية فأبى الرؤساء خيفة على رئاستهم فظفوا جاهلين .

ذلك تاريخ أسلافنا في العصور المتأخرة ، جهل عميم ، وغرور كبير ، وذل مهين .  
أيها المسلمون ، لم يكن الله ليعطيكم أرضه وأنتم بها جاهلون ، ولا ليهيكم الأعضاء والحواس وأنتم عنها غافلون ، إن الله لا يعطى إلا لمن يشكر النعمة ولا يشكر لمن غفل عن استعمالها .  
أيها المسلمون : أفتظنون أن الله يلهم الأمم التعليم العام في ( هولانده وسويسرا وأمريكا واليابان ) ثم يبق المسلمون جامدين عاكفين على التورور .

أيها المسلمون ليعم التعليم أبناءكم في الحجاز ، في العراق ، في الشام ، في مصر ، في بلاد شمال أفريقيا ، في بلاد جاوه .

لعم التعلم . أقول هذا واجب شرعا وجوبا كوجوب أركان الصلاة ، وأقول فوق ذلك يجب تعلم الصناعات والعلوم التي أبرزها الله في الأرض وألهمها للأمم ، أقول يجب ذلك وجوبا شرعيا .  
سيقول قائل إن هذا الوجوب لم يرد في كتاب ولا سنة ، فأقول : كلا لقد أجمع علماء المذاهب أن الصناعات واجبة وجوبا كفاثيا ، ومعنى هذا أن كل صناعة يجب على المسلمين أن يقوم بها جماعة دون الباقين وتكون أعمالهم كافية للمسلمين ، فهذه الكتابة والقراءة إحدى الصناعات .  
ولقد ظهر في عصرنا الحاضر أن الأمم التي عمّ التعليم بها جميع الأفراد أرقى من غيرها ، وأما الأمم الجاهلة فهي ذليلة حقيرة غبية جامدة .

فإذن إن لم تعمّ القراءة والكتابة في أمم الإسلام فهي في خطر ، فإذن لا كفاية للأمم الإسلام إلا بتعميم القراءة والكتابة ، وهكذا يجب أن تخصص جماعة في كل أمة كصغر لكل علم ولكل صناعة بحيث يكون أطباء الأسنان يكفون البلاد ، وأطباء العيون وأطباء الأجسام ، وهكذا الزراعة والتجارة والحداثة والكهرباء وما أشبه ذلك .

وبعبارة أخرى : يجب أن يعمد المسلمون في جميع الصناعات والعلوم وإلا فالإثم عام على كل فرد ، وإن أرفع صوتي لأتمه الإسلام مبينا لهم الحقيقة ، فلا فرق بين التبحر في علم الفقه وعلم الطب وعلم الهندسة

وجميع العلوم وجميع الصناعات ، فإن لم يقيم في الأمة من يغبها عن الأجانب فيها فالأمة كلها مذنبية ، ففي ترك أي صناعة يكون العقاب على المجموع ، أما من ترك الصلاة فالعقاب عليه وحده أو على من رضى بتركه ، هذا وسأوضح هذا المقام في المقال التالي .

### اللقالة الثانية

#### خطاب إلى أمراء الإسلام المستقلين

ومن ثم تحت سيادة الأجانب وإلى جميع زعماء الإسلام وعظماؤه

إن الله أوجب علينا النصيحة لله ولرسوله ولكافة المسلمين ، إننا معاشر المسلمين مقصرون جداً في أمور ديننا ، إن العاكف على علم واحد أو عبادة واحدة أو ورد واحد أو ما أشبه ذلك وظن أن هذا وحده فيه رضا الله فهو مغرور جهول .

إن الله أنعم عليكم بأهمكم وبأرضكم ، وخلقكم وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، فهل أعطاكم هذه المواهب لتديموها ؟ أو منحكم هذه الأرض لتطلوها ؟ كلا . ألم يقل الله « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » ألم يقل « وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار » فهل خسر الله هذه النعم بأهم غيرنا ؟ أم نحن داخلون في الخطأ ؟ فوالله عار على أمة الإسلام أن تكون أول الخاسرين بهذا الدين .

ربما كان يشتغل بعض الجهل إذا كان المتقدمون ساكتين عن هذا الموضوع منفلين له ولكنهم أوجبوا جميع الصناعات ، وأقلّ الثغاة ترفها قيمة الصناعات والعلوم اليوم .

فيا ليت شعري من هذا الذي أفهم للمسلمين أن علوم الدين خاصة بالفقه ومقدماته ؟ من ذا الذي قال به ؟ إن من يقول إن الفقه وحده هو الواجب وبقية العلوم غير واجبة غير موجود في أمة الإسلام إلا إذا كان لا قيمة لقوله ، أيجمل في دين الإسلام أن يكون للمسلمون وحدهم للتقاعدون عن العلم ؟ أيجوز هذا ؟ أين دعاة الإصلاح ؟ فوالله ليسألن الله كل عالم بقولي هذا ولا يرفع صوته ، وليسألن الله كل من عرفه ، نعم إن كثيراً من الناس عن هذا غافلون ، وغفلتهم ناشئة من العادة والتقليد وإلا فالعلوم كلها والصناعات واجبة وجوبا كفاً .

اللهم لا كفاية إلا بتعميم القراءة والكتابة لجميع أفراد الأمة بقدر الإمكان ، اللهم لا كفاية إلا بنشر جميع العلوم من رياضية وطبيعية وفلسفية وسياسية وصناعية ، اللهم إن هذا صار معروفاً عند الخاص والعامة .

فيا عجبا لأمة الإسلام ! تلك الأمة التي نخطت البحر الأبيض إلى عدوة الأندلس وعلت أوروبا ورجعت بمنى حنين خائبة إذ قدر لها قادة جهلاء في تلك القرون وعلماء غافلون فأقدمهم وأناموهم حتى ذهبوا طغيين الرضى محزقي الأشلاء وهم خامدون ، أيجمل هذا أيها المسلمون .

أيها العلماء . أيها القادة لا عطر بعد عرس ، ولا غنماً بعد بوس ، قد حتم الأمر واقترب الوعد الحق والأبصار شاخصة ، وهل يجمل ذلكم بكم أيها التملون ؟ إنى أذكر علماء الإسلام بقول الله تعالى « إن الذين يكتبون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » فهل لكم أن تبنوا للناس أن العلوم كلها واجبة وأن أرض الله يجب أن يجرها عباده ويستخرجوا منافعها وإلا سلبها منهم وهم صاغرون .

أيها الأمراء ، أيها العلماء . أما أن لكم أن تتذكروا ؟ أو ما رأيتم كيف أذل الله الأمم الجامعة وحفظ المالة .

يا أسراء العرب ، يا أبناء الأبطال . ألا أذكركم بمجدكم القديم ؟ انظروا في التاريخ تجدوه ناطقا بأن آباءكم هم الذين قلبوا الكرة الأرضية فامتلات علما بعد أن كانوا بالجهل قانمين وقد خلطنا عليهم ملابسنا المليية وأصبحنا منها مجردين .

لمعنى لئن اختلف الشيعى والسنى والوهابى فى أمور فرعية فهل يختلفون فى التوحيد ؟ وهل يختلفون فى العلوم ؟ وهل يختلفون فى وجوب ما ينزىم الأئمة من العلوم والصناعات ؟

لحى الله الجهالة الخرقاء ، لحى الله الجهالة التى أسدلت الحجاب على وجوه العلم ومعاهده الباسيات وحجبت ذلك الشماع الباهر والحسن الناضر والجمال الساحر عن عيون العاقبين ، لحى الله أباما قضت على بناء المجد أن يرزحوا تحت أفعال الرؤساء الجاهلين .

أما والله لئن لم ينته الأمراء عن التقاعد وأهل القطننة عن التنافل لنترلق الصواعق على الناقلين ولتقطع رءوس أئمت إذ حان قطفوها وليحقق الله وعيده فى السليين إذ قال « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

من الآن فصاعدا يجب أن يكون قواد هذه الأمة وأفرادها من الطامنين على سائر العلوم ومن للتكرين ؟ فالرئيس الصوفى أو الدينى أو الأمير إذا لم يكن ملما بالعلوم فإن أتباعه غالبا على شاكلته « وليتصرن الله من يتصره إن الله لقوى عزيز » اه .

#### الصلحون فى الإسلام اليوم

##### المقالة الثالثة

أكثر للصلحين من الأمم الإسلامية اليوم إنعما بوجهون وجوههم إلى مقصد واحد وهو خلوص العقائد من الزيغ وطهارتها من الضلال ، وراهم يقصرون على ذلك مهمهم ويصرفون إليه وكدهم قرونا وقرونا .

وما مثلهم فى ذلك إلا كمثل من أخذ يقول لابنه [ إياك والسرة والكذب والفسوق ثم عطله من جميع المكاسب ] .

واعلم أن أحوال العقول الإنسانية ثلاث : إما أن تكون ملوثة بالعقائد الزائفة كأرض الزراعة السبخة لا تثبت إلا ما لا نفع فيه من النبات . وإما أن تكون طاهرة خالصة من الزيغ ولكنها معطلة كأرض سالحة للزراعة وأهلها لا يزرعون . وإما أن تكون غنية بالعلوم مزدانة بالحكمة كأرض تثبت كل نبات وفاكهة ونخل ورمان .

فإذا دأب الصلحون فى الإسلام على قولهم : دعوا الزيغ والإلحاد وطهروا العقائد ثم تركوا القول خالية من العلم ، بعيدة عن الحكمة ، غافلة عما أبدعه الله فى الأرض والسموات ، غير عالة بما أحاط بها فى الشرق والغرب من الأحوال ضرب بينها وبين العلم بسور عظيم ، فإعما مثلهم كمثل الفلاح الذى تى أرضه وأصلحها وجعلها أهلا للزراعة ثم أخذ يفتخر بما صنع فهو لاهمالة حاصد بعد ذلك زرع الندامة والحزى والتقهقر للبين ، هكذا دعاة الإسلام للصلحون إذا كان هذا دأبهم فليعلموا أن الأمر يخرج من أيديهم ، وليعلموا أن وقت حساب الأمم قد آن وأن الله سبحانه قد أزل القصاص فى الأرض ليطهرها من لتقصيرين .

أيها الرؤساء والعلماء ورجال الصوفية اتقوا ربكم وحرصوا الأئمة على التعليم واعلموا أن عز الإنسان بمن أتمته وذلك بذلها ، فكم من عقول دفنت ، وكم من مواهب ذهبت ضحية الجهالة ، وكم من قوى قيمة عظيمة أبدعها الله فى أبناء الفلاحين فى القرى والكفور ثم طاحت وضاعت وسال دمها على مذبح الجهالة والتفلة والتقصير .

الله قسم القوى والقدر على عدد الناس ولم يدر قوة صناعية أو قوة علمية إلا خلق لها في كل أمة من م  
أهل للبراعة فيها ، وهل يستخرج تلك الكنوز إلا التعليم ؟

أيها المسلمون ، أيها الأمراء في الإسلام ، أيها القادة أقول لكم قولاً حقاً : مادام المسلمون يحتاجون إلى  
إبرة أو مفتاح أو مدفع أو محراث أو أى شئ من الخارج وهم مقصرون في صنعه فهم معذبون يوم القيامة  
جميعاً ، والعذاب اليوم ظاهر في الدنيا فإن إذلال الأمم إذا نزل بها عم سائر أفرادها « والعذاب الآخرة  
أشد وأبقى » .

أيها المسلمون في الإسلام : بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطيبين ، ولم يبق في القوس منزع ، وحمّ الأمر ،  
لماذا أتم فاعلون ؟ أيسركم أن يكون فريق من المسلمين كالأمة العربية متجاورة البلاد متحدة اللغة والدين  
لافاصل بينها إلا الحدود الطبيعية تسرى متنافرة جاهلة لا يعرف للراشى منها السورى ؟ ولا العراق منها  
للصوى ؟ بل هم مشتتو للشارب ، مقطمو الأوصال ، فلماذا هذا ؟ أقول : إنهم لم يتعلموا ، ولتتلمذون . منهم  
تعليمهم غالباً أبتروا ناقص ، وإلا فبأفقه خبروني كيف يكون بممالك تعدد بالشركات تدخل في مملكة واحدة  
وهي للمالك المتحدة بأمریکا وبينهم من سائر الأجناس والأمم والأديان ؟ فيهم اليهودى والمسيحى والمسلم ،  
فيهم الألمانى والسورى والهندي واليابانى ، فيهم من كل أمة وهم متحدون ، أما أبناء الإسلام للتجاورون  
فلجهلهم ولقلة علمهم لم يعرف بعضهم بعضاً ، الألساء ما يضل الشرقيون ، اجتمعت للمالك للتحدة بالعلم ،  
واقترق المسلمون بالجهل سواء أ كانوا عرباً أم غير عرب .

أيها المسلمون ، عموماً التعليم واجعلوه على أساس متين ؟ فليكن التعليم الأوّلى عاماً ، ولتكن جماعات  
تختص بكل علم أو صناعة وبغير ذلك لاحياة ولا شرف ولا حرية ولا سعادة ، ألم تقرءوا قول الله تعالى ؟  
« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم » فانظروا  
كيف قرن الله العلم والقلم بخلق الإنسان في أول سورة نزلت ، انظروا كيف يقول « هل يستوى  
الدين يلدون والدين لا يلدون ؟ » فقد ذكر العلم ولم يذكر للعلوم ليكون التعليم على حسب  
ما يقتضيه الزمان .

إن الله يسأل العلماء والرؤساء والأغنياء في مصر وفى سوريا وفى العراق وفى أفغانستان والترك عن  
مجموع الأئمة ، والله للستمان .

#### الإسلام والاستعمار . لقالة الراجحة

تهافت الآراء فى بلاد الشرق ولا سيما فى بعض البلاد الإسلامية

إن العلم الناقص يؤدى إلى الاختلال والحبال ويضيع الأمم ويؤديها إلى دار البوار .

إن للتعلم الناقص أضراراً على الأمة من الجهلاء الأغنياء ؛ فالتعلم الدينى وللتعلم للدرسى كلاهما إذا كان ناقصاً  
العلم ألد أعدائها وأقوى مخربها فإن أعينهم فى غطاء فهم « الأخسرون أعمالاً ، الذين ضلّ سعيهم  
فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » يسيئون حيث يحسنون ، ويهدمون حيث يبنون ،  
ويحرقون حيث يرضون ، ويقطعون حيث يصلون ، ألا أحدتلك حديثين : حديثنا اتفق لى مع  
قاض عظيم ، ومؤلف كبير قد مضى إلى ربه وذكره مشهور فى أقطارنا للصربية وغيرها وهو للتعلم للدرسى  
بالعلم المصرى ، ثم أتبعه بحديث الإمام الفزالى عن علماء الدين فى زمانه أيام عصر الدولة العباسية فى الأيام  
الحالية والقرون للماضية لتعلم إلى أى حدّ يصل الجهل والضلال ، وإلى أى مدى يصل الضرر بالجهلاء .



## حديثي مع ذلك القاضي الشهير

منذ بضع عشرة سنة عهد إلى من قبل وزير المعارف أن أطلع كتاب [الرسالة الشريفة] في علم التصوف مع عظيم من عظماء الفرنجة ليرجمه إلى اللغة الفرنسية ، والذي أمره بترجمة ذلك الكتاب أستاذه الألماني للسمى (ماركس) فلما أخذنا في فهم تلك الرسالة التي ألفها الأستاذ القشيري الصوفي سنة ٣٥٠ هـ تقريبا وجعلها رسالة منه إلى الصوفية في بلاد الإسلام ، قال لي ذلك الإفرنجي يوما : إني أود أن أرى فلانا القاضي لشهرة اسمه في بلادنا فأرسلت إليه لحضر له وكله بالفرنسية ، ثم إن ذلك الإفرنجي أخذ في بعض أعماله فسألني ذلك القاضي قائلا : أنت من دار العلوم ؟ فقلت نعم ! فقال : هي مدرسة حسنة وقد خرج منها عظماء ، فقلت نعم ! ولقد أفادت البلاد بالمدرسين والفتشيين ولكن بقي شيء ، قال : وما هو ؟ قلت إن أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا ، قال لنا : إنكم انتخبتم من الأزهر والأزهريون إذا قرءوا علوم أوروبا وطبقوها على الدين أزهرت بلاد الإسلام وأينعت وأخذت زخرفها وازينت ، وما دام العلم في ناحية والدين في ناحية فإن بلاد الإسلام تبقى وحوشا يابا ، وقاعا صفصفا ، وصعيدا جريزا تذرؤه الرياح ، ذلك لأن هذه الأمة تعتقد بدينها وتمسك به ، وهذا التمسك يوجب الضدين ويحدث التقيضين ، فإن عالم الدين إن كان جاهلا فهم له تاجون ، وإن ارتقى في الدين كانوا عالمين ؟ فالأمة الإسلامية اليوم لقلعة العلم بهذه الدنيا ونظامها وجهل القائمين بإرشادها واقعة في برائن الاستعمار والإذلال ، فإذا قام فريق من أهل العلم الديني وكانوا على نور من ربهم في العلوم العصرية اتبعهم الأمة وأسرعوا إلى الرقي أكثر من جميع الأمم ، لأن العقيدة الدينية يكون لها أثر في العلوم وتحصيلها عظيم ، فقال القاضي : وماذا تصعد بذلك ؟ قلت : أفصد أننا معاشر للتخرجين من مدرسة دار العلوم قد وضعت في أعناقنا هذه الأمانة وهي تطبيق العلم على الدين كما قاله أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا ، وهذا فرض كفاية علينا لأننا قرأنا الدين وقرأنا قسطا من العلوم المعروفة اليوم ، فقال : (وكنتم أنا أعلم أنه ينكر جميع الديانات) أما أنا فإني أقول : العلم شيء والدين شيء آخر ، فقلت له : ولكن ذلك ؟ فسر أنت بملك وعقلك ! ولأسر أنا بديني ، فعمل أنت الناس الأمور المعقولة ، وأنا لقلعة على أعلمهم أشياء ليست من الدين وأدخلها عليهم وأنا الغالب ، لأن الناس يتبعوني وأقلهم هم الدين يقولون ، فأنا يتبعني ، وأنت يتبعك واحد ، ولا تزال الأمة في ارتباك إلى ما شاء الله ، فقال : إن الحرافات اللصقة بالعقول تزيلها العلوم الرياضية والطبيعية ، فقلت نعم ! ولكني أقول إني لا أمكنهم من قراءتها وأقول لهم هذا كفر فيتبعني الناس ويتركونك ، فسر بعقلك ولأسر بما عندي وأنا الغالب ، فقال : وما الذي في القرآن ؟ أليس الذي فيه (الجوق جميل) يريد بذلك أن الذي في القرآن إنما هو التشويق للعلوم ؟ فقلت نعم ! وإذا ظهرت أمة وأريد رقيها وقيل لها أيتها الأمة إن ربك يقول لك (الجوق جميل) فهذه الجملة يكفي أن تعود الأمة متى كان هناك قواد ، قال : وكيف ذلك ؟ قلت : هذه الجملة تجعل كأنها عصا يساق بها الناس إلى العلم ويجب أن تصقل وتوضع بين السماء والأرض ويقال انظروا جمال الجوق بجمال النجوم وجمال الزهر ، ومن هنا يدور البحث وتقرأ كل العلوم ، لأن العلوم كلها ترجع إلى ما فوق الجوق وما تحت الجوق ، ثم قلت : من العجب العجيب أن أرباب الفكر في الإسلام غاب عنهم أن أوروبا لما أرادوا الارتقاء لم تقل ترك ديننا ، فأما نحن فإننا نريد تركه . قام لوتر الصلح العظيم فأنشئ العقول ، والإسلام لا يحتاج إلا إلى نظرة بسيطة وقراءة العلوم لاغير .

يا عجبا ! لقد قال علماء الاجتاع إن الإصلاح الديني أسرع لرقى الأمة من الإصلاح السياسي ، فكيف ثابت هذه عن عقول الشرقيين ؟

قام المصلحون في أوروبا منذ ثلاثة قرون وهم مصلحون دينيون ولم يقولوا بترك الدين ، فيجى الشرق ويقول : كلا ! أما لا أنظر في الدين بل أتركه ، فنقول له : هلا فكرت فيما يطلب من العلوم ؟ وهل أوروبا تركت دينها إلى الآن ؟

فلما سمع منى ذلك قال : « الحق أحق أن يتبع » أما جادلت الشيخ فلان ، وأشار إلى عظيم دينى متوفى يحترمه أكثر المسلمين فما أفنى ، ولكنى الآن مقتنع ، كل ذلك وذلك العالم الإفرنجى مشغول بعمله فلما رجع ودّعه القاضى المصرى وانصرف ، فقال العالم الإفرنجى هذا منور ، نقلت له : لماذا ؟ قال : ألم ترنا رفعتنا أصواتنا ونحن نتكلم ؟ قلت بلى ! قال لقد سألتى : ما الذى تدرس لى أنت ؟ قلت : [ الرسالة القشيرية ] فاستهزأ بعلوم الإسلام فخرته وقلت له : قد أخطأت وعرفت أن النور فى بلادكم عظيم ، ويظهر أن العلم عند هؤلاء قليل ، ولقلة العلم يدعون أنهم تركوا الديانات احتقارا لها ، ولكنهم هم أنفسهم لاهم فلاسفة ولا هم مفكرون ، انتهى حديث القاضى والإفرنجى .

والآن أذكر آراء الإمام الغزالي منذ نحو ٩٠٠ سنة .

#### الإسلام والاستعمار ، للغة الخامسة

ذكرت فى اللغة السالفة حديثى مع قاض عظيم مصرى مضى إلى ربه لتعرف مقدار آراء بعض من لهم الزعامة فى بلادنا المصرية آنفا .

والآن أقل لك رأى الإمام الغزالي فى القرون الأولى ، والدولة الإسلامية لم يكن لها نظير فى الشرق والغرب ، ولم تخلق إذ ذاك انكلترا ولا فرنسا ولا ألمانيا ولا غيرها ، أى لم تظهر تلك الدول العظيمة بل كانوا فى غيابات الجهالة يرتعون ، وفى حندس الظلام يهيمون . وفى قياقى الممجيبة يرتعون ، ولم يكن للأمم الإسلامية إذ ذاك من يملوها فى العلم والحكمة .

فانظر إلى ما يقوله الإمام الغزالي عن أهل زمانه من رجال الدين الذين انكبوا على علم الفقه جهالة وغباوة وتركوا بقية العلوم التى لاتأتى بالمال ووبغهم وذمهم وحقر شأنهم وجعلهم طلاب مال لاطلاب دين .

فإنما كان ذلك فى زمان عز الإسلام فما بالك بهذا الزمان الذى أصبحت أقل دولة فى أوروبا أقوى من كثير من الأمم الإسلامية ، فلأقل لك ما قاله ذلك الإمام مما كتبتنه فى سورة البقرة وأنبته بما يناسب فأقول :

قال الإمام الغزالي فى الإحياء : ولو سألت الفقيه عن الدمان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التعريفات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها ، وإن احتيج لم تحل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التنب فيها فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهار فى حفظه ودرسه ويفعل عما هو مهم فى الدين ، وإذا روجع فيه قال أشغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه ، والفقطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقد تم عليه فرض العين بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها إلا طبيب واحد من أهل التمة ، ثم لاترى أحدا يشتغل به من علماء الدين ويتأثرون على علم الفقه لاسيا الخلافات والمجذليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع .

فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء

والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء ، هيات هيات ! قد اندرس علم الدين بتليبس العلماء سوء ، فافه السمان وإليه اللاد في أن يبيدنا من هذا التورور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان انتهى للقصود منه .

وأنا أقول : أيها الإمام ، قد مضى نحو ٩٠٠ سنة بعد تأليفك هذا الكتاب وللسلمون نأتمون جاهلون ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الإسلامية لا تزال كالمهد الذي تركت الإسلام عليه .

فيها معاهد دينية ولا تزال تلك للماهد في التليبس وبمعهم رجال للدارس الدين لا يجلو لهم إلا مدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي .

كل هذا للظهور ونولى الحكم والمهاماة ، أما الصناعات والمعلوم الأخرى فهي منبوذة إلا قليلا ، فليس عندنا مبرزون فيها إلا قليلا ، أما أوروبا فقد فمرتنا بآلاتها القانلة والحارثة والطاحنة وسبقونا في الاقتصاد والسياسة .

ثم إن للدارس عندنا تعليمها لفظي ظاهري لا يمشق الشبان في المعلوم والبحث فهو تعلم خال من الروح ، ولذلك سقطت الأمة في هاوية الاحتلال الأجنبي .

#### الواجب على المجالس الشورية أو النابتة عن الأمة

الواجب عليها أن تغلب التعليم قلبا تاما في المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية وتدخل فيها التهذيب وكل ما يرغب في حب الأمة ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية وعلم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن ، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط وإنما يكون على مقنضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

ولعلك تقول : كيف ندم التعليم في مصر وفيها نبوغ ظاهر لدى عيين ؟ فأجيبك بمقال سيأتي فيها على تحت هذا العنوان .

#### هل في الإسلام نابجون ؟

##### للقالة السادسة

لقد سألتني قائلا في المقال السابق : كيف ندم التعليم في مصر وفي بلاد الإسلام وعندنا نابجون ؟

أقول : إن هؤلاء النابجين في الأزهر والدارس (ولعل الإصلاح الحديث في المعارف وفي الأزهر ينمو) إنما جاء نبوغهم من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة وبيئاتهم ، أما مستوى التعليم فإنه ناقص جدا ، وأهم من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه إلى ما يحتاج إليه الأمة ، الإمام الغزالي يقول لنا في المقال السابق : إن البلاد مشعونة بأهل الفقه وهي خالية من الأطباء ويندد على علماء الدين ويقول : قد ذهب الدين وضاع ، لماذا ضاع ؟ لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع للطالب للأمة ، وأنا أقول : يا ضياع للسلمين اليوم ، يا ضيعة الإسلام ، أيها الإمام : للسلمون لا يزالون كما تركتهم ؛ فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملثون بلاد الإسلام وكذلك المهامون والفضاة في مصر ، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسلك الحديدية والبرق وعلماء طبقات الأرض وعلماء الأجنة وعلماء الليكروب وعلماء الحشرات وعلماء السياسات وهكذا فأوروبا هي التي أجيبتهم في بلادها وليسوا عندنا إلا لئبلا ، وأنت أيها الإمام تقول إن الدين ضاع ، وأنا أقول إن كثيرا من أهل بلادى يجهلون أن هذا من الدين ولا يعرفون بأن ديننا يحرم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات للمادن ، ولا يتصور أكرم أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذي به يكون القضاء ، وأقول قوق ذلك إنه قد أخبرني عالم صيني أن علماء الإسلام هناك ظنوا أن العلوم المصرية

مخالفة لقرآن فتأخروا عن أهل الصين للتعبين للدين الوثني فأصبح الإسلام في زماننا مانعا من العلم في نظرم  
والسلمون هناك يبلغون سبعين مليوناً .

ولقد جاء من الهند أمير يقال له جمال الدين من مدينة مدراس من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا  
والتاريخ ، وقد أفتى عليها شيخ الإسلام في بلاد الترك قائلاً : إن هذه العلوم لا بأس بها ، فقلت له : هذا  
تساهل من شيخ الإسلام ، بل العلوم كلها فروض وكفايات والسلمون جميعاً مطالبون بتلك الواجبات ، فكل  
صنعة وكل علم تنرم السلمين جميعاً ، فعليه أن يكلفوا طوائف منهم بإتقان تلك العلوم والصناعات المختلفة ،  
ثم قال لي : إن جميع علماء بلدي حرّموا هذه العلوم . أقول وقد أخبرني صديق لي من علماء تونس قائلاً :  
إن بعض العلماء في بلادهم يقولون إنه لا يجب شيء غير علم الفقه ، أما النظر للعالم العلوي والسفلي فيكفي أن  
ينظر الإنسان بينه ، فالإسلام اليوم أضعف منه في كل زمان .

وقد جاء في الجرائد منذ أيام ( يولييه سنة ١٩٢٧ ) أن ملك الأفغان أقفل مدارس البنات لأن علماء  
الدين حرّموا تعليمهن حتى استفتى علماء الأزهر وعلماء الهند فأفتوه بتعليمهن ففتح للدارس كرة أخرى ،  
كل ذلك لقصور التعليم الديني في بلاد الإسلام وعكوفهم على علم خاص ومقدماته .

وإني أطالب كل من وقع هذا في يديه [ هذا في كتاب تفسير المؤلف : نداء للعقلاء في الإسلام ] أن  
يبحث في هذا الموضوع ويفكر بقله ويستخرج العلوم الواجبة على السلمين ويرفعها لولاية الأمور ، فإنه ظهر  
بهذا القول أن علم الدين ليس خاصاً بالفقه بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعاً لشجرة واحدة هي الحياة  
الإنسانية ، كل ما عندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة راسخة ، فليقلب التعليم في المعاهد الدينية على حسب  
ما قلناه وكذلك في المدارس المصرية ، ولتكن للأمة حال جديدة فهذه الحال لا يجوز إبقاؤها وليدرس هذا  
للموضوع دراسة تامة ، فالإسلام وأمة الإسلام اليوم في خطر ولا نجاة منه إلا بما ذكرنا واتباع قوله تعالى  
« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

#### الأوقاف الإسلامية والمعاهد الدينية في البلاد الإسلامية

إذا تفرّر أن فروض الكفايات تشمل العلوم والصناعات وأن المعاهد الدينية يدرس فيها علم النحو  
والصرف واللغوي وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه ، وكذا الحساب والهندسة والنظر  
في الكون .

أفلا ينبغي أن ينظر في أمر الشهادة النهائية ويقال إن هذه العلوم كلها فروض وكفايات لافرق بين  
ما يسمى علوم الدين وما يسمى علوم الدنيا إذ ظهر أن هذه التسمية غلط وخطأ من السلمين .  
فإذا نظر رجال الحل والعقد في المجالس النيابية والوزراء والأمرء في أمر ما يحتاج إليه الأمة من العلوم  
والصناعات ثم قرّروا أن يكون في تلك المعاهد شهادات عالية أيضاً للهندسة وأخرى للطب والصناعات  
الشريفة باعتبار أنها فروض وكفايات وأن كثرة للتعليم في البلاد من نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا  
إذا حصل ذلك فإنني أراه موافقاً للدين بل أقول فوق ذلك إن مخالفة هذا تنافي الدين كما قرّر الإمام الترمذی  
من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء في زمانه .

الله عباد الله ! اتقوا الله في دينكم وأمتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه  
وأرقى منها بتقوى شهادتهم مع أنهم منسوبون للدين ، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقلّ ممن أخذها  
بالفقه لأنهما درسا معاً هذا القرن ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمرّ بحسب استعداده في الفقه ،  
وكذا الهندسة وأمثالها ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم في الامتحان التحريري بالأكثر .

ثم ينظر أهل الحل والعقد والأمراء في مختلف البلدان في الأوقاف الإسلامية وتنظم نظاما تاما فلا تبقى مبشرة كما هي الآن ، ويعزم الإنفاق على الماطلين القادرين على العمل بل توجه لما هو أصح لرفق الأمة واستخراج ما كمن من القوى والقدر في نفوس الناشئين .

#### تبيان معنى التفقه في الدين

ولما أتممت هنا كتابة هذه المقالات في جريدة ( كوكب الشرق ) على اللأ من علماء الإسلام واطلع عليها الأئخ المتقدم ذكره قال حسن ما كتبت : ولكن هل هذه الآية تحتاج إلى هذه المقالات كلها ؟ يقول الله تعالى « وما كان للؤمنون لينفروا كافة » ثم أمرهم أن يكونوا فريقين : فريق للجهاد ، وفريق للتفقه في الدين ، فهل التفقه في الدين هو هذا الذي ذكرته كله ؟ قلت : اعلم أن تقسيم الأعمال على الناس مأخوذ من هذه الآية بطريق الاستنتاج والقياس وإن آيت إلا أن يكون بطريق النص فسكر في معنى التفقه في الدين ، فقال : علم الفقه معروف ، قلت : إن القرآن نزل على نبينا العربي صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين ، فأما هذا المعنى الذي ذكرته أنت فهو اصطلاحى ، والاصطلاحى غير العمومى ؛ فالقرآن لم ينزل على قلوب علماء الفقه الاصطلاحى بل أنزل قبل وجودهم فستحيل أن يكون الفقه المعروف هو المقصود ، فقال : مامعنى الفقه في اللغة بالتحديد ؟ قلت : قال في القاموس المحيط : الفقه بالكسر العلم بالنبى والفهم له والفطنة ، ثم قال : وفقه كعلمه كتنفقه وفقهه تفقها : علمه كأفقهه وفاقهه : باحثه في العلم ؟ اه .

فإذن الفقه هو نفس العلم وقد يلاحظ فيه الفطنة ، فيكون من فقه الشيء أدق وأوفى علما من غيره ، فقوله تعالى « لينفقهوا في الدين » إما للراد العلم به وإما للراد العلم الأنتم مع الفطنة ، وهذا المعنى ليس خاصا بالأحكام الشرعية ، فالعلم الذى يورث خشية الله والخوف منه فقه ، والذى به الوعظ فقه ، وتدبر القرآن فقه وعدت نعم الله فقه ، والعلم الذى به الورع والعفة فقه ، والعلم بالله وآياته وأعماله فى عباده فقه ، لأن العلم والفقه بمعنى واحد كما عرفت ، قال : إذن كل ما عليه السلون خطأ وأنت بهذا تخطئ أمة بنامها وهذا لا يفرقك عليه أحد ، قلت : لم أقل هذا بل لا يخطر لجاهل ، قال : ألم تعلم أن علم الفقه خاص بهذا الذى دونوه ولم يقل منهم أحد بما ذكرته أنت ؟ قلت : هذا كما قلته لك اصطلاح والاصطلاح غير اللغة ، ولا مشاحة فى الاصطلاح وإلا فالآية تعطى هذه المعانى التى ذكرتها لك ، فقال : لئن تخلصت بهذا القول فلن تفر بما بعده . قلت : وما هو ؟ قال : وهل جميع العلماء السابقين كانوا فى غفلة فلم يقولوا ما قلته أنت ؟ إن هذا لصجب عجب ! قلت : أما لست محترما لهذه المعانى بل هى نفس ما قاله الإمام الغزالي فى الإحياء ، فقال : اذكر ما قاله بالنص ، قلت : قال فى الربع الأول مانصه :

#### بيان ما يدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم للمذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسمى المحموده وتبديلها ونقلها بالأغراض العاسدة إلى معان غير ما أراده السلف ، وهى خمسة ألفاظ : الفقه ، العلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة .

فهذه أسماء محموده وللتصفون بها أرباب الناصب فى الدين ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصلرت القلوب تنفر عن مذممة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسمى عليهم .

#### اللفظ الأول : الفقه

فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لابلنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع التريية فى الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه .

وقد كان اسم الفقه في العصر الأول، طاقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفاسد الأعمال وقوة الإحاطة بحجارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب وبدلك عليه قوله عز وجل « ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وهي الآية التي نحن بصدد الكلام عليها ، ثم قال : وما يحصل به الإنذار والتخويف ، هو هذا الفقه دون تعريفات الطلاق والطلاق والامان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقضى القلب وينزع الحشبة منه كما نشاهد الآن من التجردين له ، وقال تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها » وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى .

ولم يرد إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما تنكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا ، قال تعالى « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله » الآية ، فأحال قلة خوفهم من الله واستمظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه .

فانظر أكان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتعريفات الفتاوى أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم ، وقال صلى الله عليه وسلم « علماء حكماؤه فقهاء » للذين وفدوا عليه ، وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله : أي أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أنقام لله تعالى ، فكأنه أشار إلى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأفضية ، وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى ! قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤبسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه » . ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أفد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب » ، قال فالتفت إلى زيد الرقاش وزيد النمرى وقال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا وإنما كنا نعد فنذكر الإيمان وتدبر القرآن وتتفقه في الدين ونعدّ نعم الله علينا نتفقهها » فسمى تدبر القرآن وعدّ نعم تفقهها ، قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه المبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة » وروى أيضا موقوفا على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله « ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد ممتنا » وقد سأل فرقد السبخي الحسن عن شيء فأجاب ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ؟ فقال الحسن رحمه الله : تكلمت أمتك فريقت ، وهل رأيت فقها بينك ؟ وإنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، اللدائم على عبادة ربه ، الورع ، السكاف نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم ولم يقل في جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى ، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستنباع فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فبان من هذا التخصيص تلبس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ووجدوا على ذلك معينا من الطبع ، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه واللحال متعذر فوجد الشيطان مجاللا لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع ، انتهى ما قاله الإمام الغزالي .

فأنهم هذا المعنى أن الفقه يشمل أمرين : أحدهما تعداد نعم الله وهي العلوم كلها التي تدرس في مدارس أهل الأرض اليوم ، وعلوم تهذيب النفس الذي سماه علم الباطن وبعبارة أخرى . علم النفس وعلم الآفاق ، هذا هو ما يطلق عليه الفقه .

وفي هذا التفسير الاهتمام أكثر بعلم الآفاق الذي هو تعداد نعم الله وبه خشية الله تعالى كما قال تعالى « وإنما

يغنى الله من عباده العلماء « بعد ذكر ألوان الجبال والثمار والناس والدواب والأنعام ، فقال صاحبي : قد ذكرت كلام الإمام الغزالي في الفقه ، فماذا قال في العلم ؟ قلت : قال إنه يطلق على العلم بالله وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، وذكر أن هذا تسعة أعشار العلم التي كان يجعلها عمر رضى الله عنه ، قال : ثم خصصوه بالفقه ونحوه كسابقه ، وقال : إن ذلك صار سببا مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم ، وجعل التوحيد أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله تعالى فترك الإنسان شكايه الخلق ويرضى ويترك الغضب ولا يتبع الهوى كما يكون تاركا للتوحيد .

ويرجع التوحيد لطواهر القرآن التي تتسابق للأذهان فكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وقال في الذكر والتذكير إنهما يرجعان لمعرفة عيوب النفس وحقارة الدنيا والتذكير بنعم الله تعالى وتفصيل الصبر في الشكر ، وقال في الحكمة نحو ذلك ، ثم قلت له : فهل أدلك على ملخص ذلك كله ؟ قال نعم ! قلت : هو مجمل في سورة الفاتحة مفصل في القرآن .

إن العلم والفقه والتذكير والتوحيد والحكمة يرجع أغلبها إلى أمرين كما قدمناه :

أولهما : علم نعم الله وهي العلوم كلها من الطبيعيات والرياضيات وهي التي يعرف بها جمال الله تعالى .  
ثانيهما : معرفة جمال الباطن وسلوك النفس ، فهما اختلفت العبارات فالمرجع لجمال أنفسنا بالصفاء وتهذيبها حتى تقبل معرفة العلوم التي ملأت الكرة الأرضية اليوم ، وهذان الأمران المذكوران في الفاتحة .

الأمر الأول : أن الفاتحة فيها ذكر الحمد على نعمة تربية هذا العالم كله. والعلوم كلها هي معرفة هذه الدنيا ، ولا يتم الحمد إلا بمعرفة النعمة ولذلك صرح بها فقال « صراط الذين أنعمت عليهم » والإنعام هنا يرجع إلى نعمة العلم والعمل ، لأن النعم عليهم هم النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون ، وهؤلاء نعمهم عليه عملياً ، وإلا فالجهال والمصاة منهم عليهم بلا علم ولا عمل ، فأنه لما ذكر الحمد أتبعه بذكر النعمة وبعبارة أخرى أن يدرك المرء هذه النعم ويعرفها بذلك بالعلوم كلها .

الأمر الثاني : تهذيب الباطن وتطهير النفس وهو المقصود من هداية الصراط المستقيم .

هذا هو إجمال معنى التفقه في الدين في آياتنا التي نحن صدد الكلام عليها .

تفصيل هذين الأمرين في سور القرآن

ثم قلت : أعلم أن هذا المجمل في سورة الفاتحة فصله الله في القرآن فأنزل نحو ٧٥٠ آية في معرفة العوالم المحيطة بنا في السموات والأرض ، وذكر بنحو عددها أيضا آيات لأجل تهذيب النفس وعلم السلوك والتطهير وآيات القسمين المذكورتين بنصها في كتاب [ جواهر القرآن ] للإمام الغزالي .

ثم أعلم أن هذا التفسير قد قام ببيان أهم ما ذكرناه الآن بفضل الله تعالى ، ولقد ظهر فيه أن بقية آي القرآن تنحو هذا المنحى فإنك إذا نظرت إلى الفصص التي لم تدخل في تهذيب نفس ولا ترغيب في علم قد رجعت إلى هذين الأمرين كما تطلع عليه في هذا التفسير بإيضاح ، فآيات القرآن كلها ترجع لتهذيب النفس ولتعليم العلوم الكونية وهما الأمران المذكوران في الفاتحة ، وهذا كله يسمى تفقها في الدين ويسمى علما ويسمى بضمه توحيدا ووعظا وتذكيرا وحكمة ، ثم قلت له : فتبين لك أيها الفاضل أن لفظ التفقه في الدين يشمل العلوم التي بها تعرف الله والعلوم التي تهذب بها نفوسنا ، فأما ما عدا ذلك من الصناعات المنتشرة في الأرض فإنها تسمى فروض كفايات وهي تعين على الأمرين المذكورين ، فلما سمع ذلك قال : لقد استوفيت المعاني استيفاء ولكن تلك كلام الإمام الغزالي فيه اعتراض ، قلت : قل ما بدا لك ، فقال : أ أكثر أحاديثه

ضعيفة ، فقلت : إنما طلبت مني ما يأتي : هل قال هذه المعاني أحد ؟ فقلت لك نعم وذكرت ذلك ، أما ضعف الأحاديث فليس يضرنى لأنه يقول للمعاني الشائعة عند الصدر الأول ، فضعف الحديث ليس ينقص موضوعنا ، قال حسن : ثم قال لماذا لم تنشر هذا بين الأنام وتبين كيف يعلم المسلمون هذا في مدارسهم حتى يتفقوا في الدين ؟ فقلت : أما النشر فإن هذا التفسير قد قام به على مقدار طاقتي وهذا هو الممكن لي ، فقال : فلتكتب في الجرائد ؟ قلت : قد كتبت بضع عشرة مقالة في جريدة [ كوكب الشرق ] في نحو هذا المعنى بعنوان : [ خطاب إلى الأمم الإسلامية ] وقد أدرجت منها فيما تقدم المقالة السابعة ، وسأذكر هنا للمقالة الرابعة للنشرة في يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٧ م للوافق ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٣٤٤ هجرية ، وهذا نصها :

### من هم الأولى أن يسموا علماء الإسلام ؟

قال الله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

يخاطب الله كل عاقل مقرر له أنه أنزل من السماء ماء ، ومن هذا الماء خلق الله الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، وذكر أن الجبال بها طرائق مختلفة الألوان كاختلاف ألوان الأعمار : من طرائق بيض وأخرى حمر وثالثة سود شديدة السواد ، وهكذا الدواب من الحيل والبعال والحمر والأنعام من الإبل والبقر والغنم ، كل هذه مختلفات الألوان كالثمار والجبال ، ثم قال بعدها « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

فيا ليت شعري ! أي علماء يخشون الله ؟ أعلما الطهارة والتجاسة واليوع واليراث ؟ أم العلماء الناظرون في ملكوت السموات والأرض الذين آمنوا بالله الحكمة وتفكروا في خلق السموات والأرض تفكيراً مبيناً على براهين ثابتة في علم الحكمة .

ألا قبح الله الجهل والغرور ! ألا قاتل الله الكبرياء ! لقد صرف الله للتكبريين عن آياته فقال « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل النور لا يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

يقول الله في القرآن « إنما يخشى الله من عباده العلماء » بعد ذكره عجائب الأرض والسموات ، فيقول بعض الزعماء في الإسلام : العلماء ، أي بالغة ويكتفون من التوحيد بتلك الكتب التي وضعت لرد على قوم كانوا ضالين .

أيها المسلمون إنى أنصحكم أن علم التوحيد هو جميع العلوم من الفلك وعلم النبات والحيوان والإنسان وطبقات الأرض وجميع ما خلق الله .

يقول الله « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ » يوجه الناس على تقاعسهم ووقوفهم عن النظر فيما خلق الله في السموات والأرض ، يسمي الله هذه الطائفة المفكرة في بديع صنعه علماء وأنهم يخشون الله .

ولم يرد لا يخشى هؤلاء الناظرون الله إلا إذا كانوا ينظرون من طريق الدين ، فالدين الإسلامي يحرض على النظر ، ومن فكر في هذه العجائب التي خلقها الله فإنه يحسن في نفسه لله بالعظمة التامة والحب العظيم



وهناك ينبغ في الإسلام « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » هؤلاء هم العلماء الذين إذا كثروا في أمة الإسلام أضاءت بهم الأرض وأشرقت بنور ربها .

أيها المسلمون : أليس هذا كلام ربنا ؟ أليس هذا قول الله تعالى ؟ يقول الله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » ( بكسر اللام ) لخلق السموات والأرض واختلاف اللغات والألوان دلالات للعلماء لا للجهلاء ، وأي علماء هؤلاء ؟ أم علماء الفقه ؟ أم علماء الجدل المسمى بالتوحيد ؟ لا ، لا ! هو العلم بالفلك وعلم اللوالب الثلاثة من معدن وتبات وحيوان وعلم طبقات الأرض وفروعها .

إن علم الفلك ليس يكون إلا بعد علم الحساب والهندسة والجبر ، فهذه العلوم لا يتم علم الفلك إلا بها وهكذا علوم عجائب الخلق في الحيوان والنبات والإنسان لانتم إلا بالعلوم الرياضية أيضا ، والعلوم كلها شجرة واحدة أصلها ثابت في القرآن وفروعها في جميع أعمال الحياة وعنان السماء وأطراف هذه الدنيا . العلوم كلها متصلة متحدة متألقة ، فمن عطل بعضها حرم الجميع ولم ينل إلا ظواهرها .

قبالت شمري ! ألم يقرأ علماء الإسلام قوله تعالى « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ابتداء الآية بحملة اسمية تفيد التأكيد وجمل تسخير البحر لنا وجمل فوائده أربعا : أكل لحم السمك منه ، واستخراج الدرّ والمرجان ليكونا حلية منه ، وأن الفلك تجرى فيه بين أوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا وإسترااليا ، يقول العلماء إننا نستفيد بذلك التجارة وتبادل المنافع في الأقطار المختلفة .

هذه عناية الله بخلقه ورحمته بهم وتكريمه لبني آدم ، كرم الله بني آدم جعلهم في البر بالدواب والقطر ، وفي البحر بالسفن ورزقهم الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه ، فأله جعل من تكريم بني آدم حملهم في البرّ والبحر للذكور في هذه الآية آية تسخير البحر ، فقد سخره لتجري السفن فيه بأمره وهي تعملنا ونعمل بضائنا .

هذه بعض عناية الله بالأمم ولكن المسلم لما كرمه الله بهذه وأباح له استخراج الدرّ والمرجان من البحر ولي يجانبه وأعرض عن نعمة ربه وقال : مالي وللدرّ والمرجان ومالي وللسفن في البحار ، فلتصنع السفن ألمانيا وأمريكا وفرنسا ولتحملنا عليها إذا سافرنا ، أما الدرّ والمرجان فهما لا فائدة فيهما . فنقول :

أيها المسلم ، أيها العاقل ، أيها الفقيه ، انظر بعقلك أولا وانظر في الآية ألم يفتح الله لك خزائنه البحرية ألم يقل لك هاهو مرجاني في البحر فلك أن تستخرجه ؟ فيقول ففهم وهو متكبر محتقر : أي فائدة من هذه ؟ أليس المرجان خزانات تنظمها النساء يجعلنهن زينة ؟ وأي فائدة في هذه ؟ تقول له : اقرأ علوم الأمم الحاضرة ، اطالع على كتب الأمم النظيمة وأنها دخلت في قوله تعالى « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » فإذا استهزأت بهذا وأمثاله اتبعك الشبان وهم الذين يصيرون قادة فنكون عقولهم كعقلك فيموت العرب وبقية أمم الإسلام وذلك من كبرك وعظمتك ، والله يقول « فبئس مثوى المتكبرين » ويقول « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » ويقول « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » فالاستهزاء والتكبر سبب خراب بلاد الاسلام الآن .

فر بما يجيبك بعد هذا الكبرياء ويقول لك : حدثني عن منافع هذا المرجان ، إذا قال لك ذلك : فنل له إن المرجان عبارة عن هياكل حيوية ترسب في أبدان حيوانات دنيئة جدّا شكلها كشكل الأزهار ذات ألوان

مختلفة كاختلاف أزهار الأرض نظاما وبهجة وهي أجمل منها بما لا يقاس ، وهو يوجد حول جزائر بحر الروم في قاع البحر من ٣٠ قامة إلى ١٣٠ قامة ، وهو أشبهه بشجر قائم في البحر لا يزيد ارتفاعه عن قدم ، وأهمه يكون أمام تونس والجزائر ومراكش وبقراب نابولي وجنوى وسردينيا وكورسكا .

أندرى من يصوص على هذا اللرجان ؟ يصوص عليه القرنجة وهو ينمو في عشر سنين وكل سنة يصوصون على قسم منها ، ففي بعض السنين كانت الأزوارق الإيطالية ١٥٠٠ زورق وفيها ٤٢٠٠ نوتى وكسبوا في تلك السنة أربعة ملايين ومائتى ألف فرنك ، والفرنسيون والأسبانيون في تلك السنة كسبوا مليوناً وخمسة وخمسين ألف فرنك .

أليست تونس والجزائر ومراكش بلاداً إسلامية يأخذ الأوروبيون اللرجان من بحرهم وهم لا يعلمون شيئاً ؟

وباليت شمري ! أليس الله يقول في آخر الآية : « ولعلكم تشكرون » وكيف يشكر المسلم على نعمة لم يعرفها ؟ نعمة فتحت لأهل أوروبا بسبب علمائهم وأقبلت على المسلمين بسبب جهل بعض رجال دينهم ، ألا ساء مثل القوم للتكبرون العاقلون !

إن الله سيأكل كل من يقرأ هذا اللقال من العقلاء في الإسلام ولا يفكر فيه ولا يجد في البحث والتفتيش ، لأن هذا فتح لباب الفسك في آيات القرآن كلها « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنين » .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : صرفت نوع الكتابة للعموم في هذا اللعن ، فأرجو أن تنى بما وعدت به من كيفية التعليم في مدارس الإسلام لبولوج السعادة حتى يتفقه الناس في الدين ، فقلت : قد علمت فيما سبق أن النظر في عجائب السموات والأرض هو العلم الواجب شرعاً ، فأرى أن يتبدأ في القسم الابتدائى في المعاهد الدينية في بلاد الإسلام بمجموعة من المعادن والنبات والحيوان ويذكر فيها نبد من تلك العجائب والحكم القالية بحيث تكون سهلة التناول ، كأن يذكر الدرّ واللرجان ويبين مثلاً أن أنفس الزينة وهو الجوهر من حيوان بحرى وهو الحمار ، وأن ألثة اللطمومات من حشرة في البرّ وهي النحلة الطائرة في الهواء ، وأن أجمل ما يلبسه الناس من صنع دودة في الأرض وهو الحرير ، فيقول العلم مثلاً : انظر كيف جعل الله عزّ وجل أجمل زينتنا وألثة مطعمنا وأبهج ملبوسنا مصنوعات بدواب البحر والأرض والهواء ، وهذه الصناعات من أضف الحيوانات في الممالك الثلاث : الماء والتراب والهواء ، ويكثر من أمثال هذا وتكون جميع الدروس على هذا النمط ، ويسير على هذا للنوال ويذكر آية من القرآن ويترك الطالب يستتج ويؤمن بالله ويخرج به ، بهذا وحده يتربى الشعب الإسلامى ، وبهذا وأمثاله يخرج نابون ، وهذا هو الذى جاء له القرآن ثم يسير الطالب في كل المعادن من الحديد والنحاس والقصدير والذهب وغيرها مبينا فوائده . معظما خالقها مظهرا حكمته وبدائع صنعه ؛ فيذكر قوله تعالى مثلاً في الحديد « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ولا يكثر من الإعراب ولا صنعة الكلام ، بل يقول انظر إلى هذه القطعة من الحديد وهو اللسمى بالزهر ، وهذه تسمى بالحديد اللطاوع ، وهذه تسمى بالحديد الصلب ، وانظر الفرق بين الحديد الزهر والحديد الصلب .

ألا ترى أن الصلب يقبل الطرق والسحب ، والزهر ليس كذلك ؟ وترى الصلب يقبل القوة اللنطاطيسية أما الزهر فليس كذلك لأن الصلب نقى بما يداخله ، والأول مخلوط بأشياء غريبة عنه ثم يقول وهذا التوقع

في الحديد لقوائده ويشرحها ويذكر أنه من الجبال وكيف خزن فيها وكيف كان بمقدار الحاجة وكيف هدى الله الناس لاستخراجها ؟ وكيف كانوا قبل ذلك لا يعمل لهم إلا بالحجر أو نحوه .

ثم ينتقل إلى مجموعة من علم النبات ويشرح الزهر وجماله وكيف يكون الإلتحاق في زهر الحدائق والمزارع ، ويبين كيف كان الريح والحشرات مسخرات لتلك الإلتحاق وأن ذلك من عجائب القرآن إذ قال الله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح الخ » وهكذا يريه عجائب الحيوان البري والبحري كالحوت المسمى (بالقيطس) الذي يكون طوله عظيماً ورأسه فيه الزيت المسمى (بزيت الحوت) وهو عشرات من البراميل فيتعجب الطالب من حكمة ربه وغير ذلك من العجائب .

وهذا العلم هو المسمى علم الأشياء كان يدرس في مدارس مصر قبل الاحتلال وفي أوائله ثم رفع بعد ذلك ورجع إليها الآن .

هذا في القسم الأول في المعاهد الدينية ، أما في الثانوي فيقومون نفس علم النبات وعلم المدن وعلم الحيوان والنظام العام في علم الفلك حتى يشهد الطالب عجائب الإبداع والتكوين ويتأمل كيف تطلع الشمس وتغرب بمواعيد محددة لانتفص ثمانية واحدة إنهم قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » ويفهم أيضاً قوله تعالى « الشمس والنجم بحسبان » ولا يعرف الطالب ذلك إلا إذا أخذ نموذجاً سهلاً جداً من الحساب وقرأ نظام الكواكب السيارة والثوابت وعددها وأنها مئات الملايين وفهم أقدارها وأبعادها التي تعد بمئات الآلاف من السنين بسير الضوء .

هنالك يظهر في الإسلام « رجال لانلهمهم تجارة ولا يبيع عن ذكر الله » وكيف تلهمهم تجارة أو يبيع عن ذكر الله وهم يشهدون صنعه وآثار جماله وحكمته وبدائع صنعه في النجم والقمر والشمس والزهى والبر والبحر .

فإذا انتقل الطالب للقسم العالي في المعاهد الدينية فيخصص بعلم من العلوم العالية التي هي فرض كفاية كالعلوم العربية أو الفقه وأصوله أو التفسير والحديث مثلاً كالمهندسة أو علم النبات والحيوان أو علم الكيمياء والطبيعة أو علم الطب أو البيطرة ، كل هذه يطلبها الدين بصفة أنها فرض كفاية .

وعلى أولياء الأمور أن يجعلوا القسم العالي للاختصاص ويجعلوا العلوم موزعة على قدر الحاجة ، فلا يظن الفقه على المهندسة ، ولا علم الطب على العلوم الرياضية ، وكما يجب أن يعتدل المرء في أحواله فيرى القوى التي في نفسه تربية متساربة ، فلا التذاكرة تطفى على المفكرة ولا المفكرة على التهيئة . هكذا يجب أن يكون أفراد الأمة متعلمين بقدر الحاجة إليهم .

هذا هو الصراط المستقيم ، والله يؤتي الحكمة من يشاء « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب » اهـ .

ولما أتممت هذا المقال قال صاحبي المتقدم من أهل العلم والصلاح لما اطلع عليه : لقد أجدت كل الإجابة وفتحت باباً واسعاً لرقى الأمم الإسلامية في المستقبل ، ولكن أريد أن أسألك ؛ هل كانت الأمم الحميدة نائمة مما تذكره أنت الآن ؟ فقلت كيف تقول عما أذكره أنا الآن ؟ ألم تقرأ ما تقدم في سورة المائدة عند قوله تعالى « فبث الله غراباً يبعث في الأرض » وإني ذكرت هناك كلام الإمام الغزالي في أن فروض الكفايات تشمل أعلى الأمور الدينية كالسياسة وأوسطها كالحياكة ، وأدناها كالتزبالة والكناسة ، فالخرف كلها والعلوم كلها فروض كفايات ، إذن ليس هذا الرأي حديثاً ، وأذكر لك أيضاً الآن ما جاء في كتاب « جمع الجوامع » للإمام ابن السبكي وشرحه للجلال المحلى فقد قال : إن فرض الكفاية مهم يقصد حصوله

من غير نظر بالذات إلى فاعله ، وزعمه الأستاذ أبو إسحق الاسفراييني وإمام الحرمين والشيخ أبو محمد الجويني أفضل من فرض العين لأنه يسان بقيام البعض به الكافي في الخروج عن عهده جميع المكلفين عن الإثم المرتب على تركهم له ، وفرض العين إنما يسان بالقيام به عن الإثم القائم به فقط .

هذا نص كلام المتن والشارح . فإذن فرض الكفاية عند هؤلاء الأعلام وإن خالفوا غيرهم أفضل من فرض العين ، فإذن يكون الملوك للفظ المنظمون للأمة أفضل من العلماء الذين قاموا بأمور العبادات ، وعلى ذلك جاء في بعض كلام عدائنا [ أيها أفضل العالم أم الملك ؟ ] فكان الجواب هكذا [ من كان أثره للناس أكثر انتشارا فإنه أفضل ] فلما سمع ذلك قال هذا كلام العلماء ولكنني أريد العمل ، فهل قام المسلمون قديما بفروض الكفايات ، فقلت إن المسلمين هم الذين بعثهم الله نورا للناس كما بعث نبينا صلى الله عليه وسلم نورا لنا ، فقال هذه عبارات شائمة على الألسنة وقد عودتنا أن يكون كلامك مبرهنا عليه ، ومن ذا الذي يوافقك على أننا بعثنا لرفق الناس مع أننا اليوم أقل الأمم علما وعملا ، فقلت نعم اليوم كما تقول ولكن أسلافنا كانوا كذلك ، فقال هذه دعوى لا دليل عليها ، فقلت قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فلم يجعله رحمة للمسلمين وحدهم ، بل جعله رحمة للعالمين وليس يمكن أن يرحم صلى الله عليه وسلم الفرنجة مثلا وأهل أمريكا واليابان والصين إلا بواسطة أمته ، قال هذا إغراق منك في القول ورجوع عن طريق التحقيق إلى الخيال ، فإما أن تقول هذا كلام سماحي غيب ، وإما أن تأتي بقول يقنع الناس قاطبة ، فقلت له سأسمعك الساعة ما يقنع الناس قاطبة وأقدم قلبه مقدمة فأقول :

إن الله عز وجل يقول في آخر هذه السورة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم الخ » فلحرسه صلى الله عليه وسلم أنذرهم بالقرآن وخوفهم العاقبة فقرءوا علوم الأمم وأفادوا أهل أوروبا وأهل أوربا أفادوا العالم بعد ذلك ، ثم قلت وهل يقنعك في ذلك شهادة علماء أوروبا؟ قال نعم . قلت هاك مقاله العلامة (سيديو) أحد مشاهير علماء فرنسا المولود بباريس في ٢٣ يونيو سنة ١٨٠٨ م للواقعة ١٢٢٣ هجرية فقد جمع في عشرين سنة تاريخا في سفر من مؤلفات من يوثق بهم من العرب والفرنج ونشره في أوروبا فتحوّل الناس هناك عما رسخ في أذهانهم وأخذوا يقدرون العربية وعلماء العرب حق قدرهم وظهر فضل العرب لدى الفرنج وأنشأوا في ممالكهم مدارس لتعلم اللغة العربية وأخذوا يسارعون إلى حيازة الكتب العربية ويبدلون فيها النفيس ، ولم يقتصروا على ذلك بل رغبوا في حوز صور مبانهم وجميع ما كان لهم من الزينة ونحوها وآلات الملاهي وغير ذلك .

ولما أخذ السياحون يحبون البلاد الدانية والقاصية ليعتروا على ذلك غير مباليين بما يلقون من المشاق المائلة فخلصوا على ما في بيوت التحف والآثار من الأمثلة المتنوعة بقدر تنوع الحرف والبضائع وعلى ما في خزائهم من الكتب التي هي في جميع ما كتبه الإنسان من هزل وجد .

هذا هو نص مقاله أستاذا من مشي مدرسة دار العلوم قبل اليوم بخمسين سنة للرحوم على مبارك باشا في مقدمة ترجمته لهذا الكتاب من الفرنسية إلى العربية ، وهاك مقدمة الكتاب للمؤلف المذكور الذي هو المقصود الذي به تعرف أيها الفاضل بأن العلوم والصناعات التي هي فروض كفايات لولا آباؤنا من الأمة الحميدة لكان العالم كله اليوم في ظلام .

قال العلامة سيديو المذكور [ ما زالت منذ نيف وعشرين سنة أيمن ماله العرب من توسيع نطاق العلوم والتقدم في القرون التي بين عصر يونان إسكندرية مصر وأعصر الدول الحديثة الأفريقية ، ورأيت أن أذكر مجمل أخبار هذه الأمة المحترمة لدى الفرنج من أمد جيد وأن أضاهي ما جمعت بما أذاعه غيري لأكون أوّل

من دوت تاريخا عاتما في أخبار العرب وهو ميدان عام واسع المجال ربما كان فوق طاقة الواحد من الرجال .

ثم أخذ يمدح الأمة العربية بجميل أخلاقها واستقلالها إلى أن قال : «ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فربط علائق اللوثة بين قبائل بحيث جزيرة العرب ووجه أفسارها إلى مقصد واحد فعلا شأنها حتى امتدت سلطنتها من نهر التاج المار بأسيانيا وبرتغال إلى نهر (الكنج) أعظم أنهار الهندستان ، وانتشر نور العلوم والتمدن بالشرق والغرب ، وأهل أوروبا إذ ذاك في ظلمة جهل القرون الوسطة وكأنهم نسوا نسيانا كلياً ما وصل إليهم من أحاديث اليونان والرومان ، واجتهد العباسية ببغداد والأموية بقرطبة والفاطمية بالقاهرة في تقدم الفنون ثم تعزقت بممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية فاقنصروا على السلطة الدينية التي استمرت لهم في سائر أرجاء ممالكهم ، وكان لديهم من المعلومات والصناعات والاستكشافات ما استفادوا منه تصاري أسبانيا حين طردوهم منها ؛ كما أن الأراك والقول بعد تعلمهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم وأدوا إليهم مرتبات ، ولما انحسرت العرب في (بجيت) جزيرتهم ومحمارى أفريقية عادوا إلى عيشتهم البدوية مستغلين عمن عداهم حتى أزمته الدولة العثمانية الاتقياد وأجحف بهم فاقنصروا منتظرين فرصة أراد الوهاية استهازها في غرة هذا القرن التاسع عشر من البلاد لعتق رقاب الأمة العربية من تسلط الأجانب عليهم فلم ينجحوا وليثوا مستعدين للعصيان بإشارة من كبارهم ولا مانع من حصول ذلك في ممالك تونس ومراكش وكفا الجزائر التي حكمتها فرنسا فإن جميعهم على غاية من الاستعداد لإجابة رؤسائهم .

وهنا ذكر المؤرخين من الفرنجة قبله مثل (بوكوك) و (شولتنس) وغيرها إلى أن قال : والمستمدات الأصلية المشتمة على سير العرب لم تزل إلى الآن كنوزا مغلقة فلما معشر الفرنج وإن وقفنا على حقيقة تواريخ أبي الفداء وأبي الفرج والمسين النصراني المعروف بين أهل الشرق بابن العميد ، لكن ليس عندنا الآن إلا تراجم قطع من تواريخ ابن خلدون والمقرزى وابن الأثير وتواريخ كثير من المؤرخين من العرب والفرس ولما نحوز جميعها مترجما باللغة الفرنسية ، ومع ذلك يكفينا ما لدينا من تواريخ السلف في ضبط الحكايات وتحقيق الحق فيها ، بل تقدر بها على فهم ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم غير مغترين بما اعتاده المؤلفون من ستر خلفه الباطني كالفائل إنه كان رجلا مجذوبا محتالا طماعا يتمذر حصر هواغه ، والقائل إنه كان ذا قرحة لانظير لها وإنه من نوادر الوجود التي يحدثها الله لإصلاح الدنيا فإن هذين القولين لا يلفت إليهما ، بل يجب رفضهما ، والمقول عليه في وصفه صلى الله عليه وسلم ماقاله العلامة (أولسنير) فإنه فهم حقيقة الرسول وحكم دين الإسلام على جميع الممالك التي انتشر فيها على ما قاله في تذكركه التي وقعت موقع القبول سنة ١٨٠٩ ميلادية لاشتغالها على الأمور لدى أرباب مدرسة العلماء المشغولين بالعناوين والكتابات على الآثار القديمة ثم بالعلوم الأدبية .

وأما تواريخ الخلفاء الراشدين وكذا الأموية في دمشق وقرطبة والعباسية ببغداد والفاطمية بمصر ووصف تمزيق الممالك الإسلامية الشرقية التي أغار عليها الأراك ثم القول فدونها الفرنج تمدونا حسنا وأضفنا إليها ما تركوه من أصولها وهو وصف التمدن العربي الذي تمسكت أصوله في آفاق الدنيا القديمة أقوى تمكن . ولا يزال إلى الآن نرى آثاره حين نبحث عن مستمد مبادئ ما نحن عليه من المعلومات الأوروبية فإن العرب في غاية القرن الثامن بعد الميلاد فقدوا الحجة الحربية وشغفوا بحوز المعارف حتى أخذت مما قليل مدائن قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقنة وأصفهان ومصر وقد تفاخر بغداد في حيازة العلوم والمعارف ، وقرى ما ترجم إلى العربية من كتب اليونان في المدارس الإسلامية ، وبذل العرب همهم في الاشتغال بجميع

ما ابتكرته الأفهام البشرية من للمعلومات والفنون وشهروا في غالب البلاد خصوصا البلاد النصرانية من أوروبا  
ابتكارات تدل على أنهم أمتنا في المعارف ، ولنا شاهد صدق على علو شأنهم الذي تجهله الفرنج من  
أزمان بعيدة مديدة .

الأول ما أثر عنهم من توارخ القرون للتوسطة وأخبار الرحل والأسفار وقواميس ما اشتهر من  
الأممكة والرجال والجاميع الشاملة الكثير من الفنون الفاخرة .

الثاني ما كان لديهم من الصناعات القائمة واللباني الفاخرة والاستكشافات المهمة في الفنون وما أوسعوا  
دأرتهم من علوم الطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء الصحيحة التي ارسوها بغاية النشاط من القرن التاسع  
إلى القرن الخامس عشر من للبلاد (من سنة ٢٨٨ إلى سنة ٩٠٧ هجرية) وزعم المؤلف (شليجل) سنة ١٨٣٢  
ميلادية الموافقة سنة ١٢٤٨ هجرية أن المهنود والصينيين أعلم من العرب وأخبر أنه سيفق على كنوز معارف  
هاتين الأمتين مع أنه لم يحصل بعد دهواه بشرين سنة أجل القوائد الفلسفية والرياضية والجغرافية إلا من  
السكتب العربية القديمة .

نعم ألف الفرنج الباحثون عن الأمور الهندية كتباً كثيرة ، لكن لم يحصل منها أدنى تقدم فيما هي بصدده ،  
كما أن الفرنج المستخرجين فوائد من توارخ المملكة الصينية التي هي أقدم الدول لم ينجحوا إلا في إظهارهم  
الصينيين بأنهم أجهل أهل الأرض كالترك كما قاله المؤرخ أبو الفرج ، وأما المدرسة البغدادية المدونة للمعلومات  
التدوينية في الفترة التي بين عصر يونان الإسكندرية والأعصر الأخيرة فكانت مساعدة على استيفاض أهل  
أوروبا من رفقة الجهالة ونشر أنوار المعارف في جميع ممالك آسيا ، فقد انتشر علم العرب (الفلك)  
في الهندستان بواسطة العلامة البيروني المعمور بمكارم السلطان محمود الغزنوي حين انتقل إليها سنة ١٠١٦  
ميلادية الموافقة لسنة ٤٠٧ هجرية كما نشره بين السلجوقيين العلامة عمر خيام سنة ١٠٧٦ ميلادية الموافقة  
لسنة ٤٦٩ هجرية وبين للفول العلامة نصير الدين الطوسي مؤسس الرصدخانه بمدينة الراغة سنة ١٢٦٠  
ميلادية الموافقة لسنة ٦٥٩ هجرية وانتشر بين العثمانيين سنة ١٣٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٧٣٨ هجرية  
ونشره بين الصينيين العلامة (كوشيوكنغ) تلميذ الأستاذ جمال الدين سنة ١٢٨٠ ميلادية الموافقة سنة ٦٧٩  
هجرية في عهد السلطان كوبلاي خان كبير عائلة الملوك اليوانية ، وشيد (أولوغ بيغ) لعلم الفلك رصدخانه  
بسمرقند سنة ١٤٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٨٤١ هجرية وانتهى اشتغال المشرقين بالعلوم والفنون عقب زمان  
(أولوغ بيغ) ثم اطلع أهل الغرب من أوروبا على أسرار تلك العلوم فأخذوا يشتغلون بها حتى جددوا  
في البلاد الافرنجية التدوين واللغة العربية وفنونها الأدبية التي أخذت كل يوم في زيادة الانتشار بين الفرنج  
ومازلنا إلى الآن نستكشف أموراً مهمة من السكتب العربية القديمة وإن عزي ابتكارها زورا إلى بعض  
التأخرين من الفرنج ، ولانك أن فتح أمتنا الفرنسية بإالة الجزائر المغربية وكثرة علاقتها بمسلى إفريقية  
(ممالك المغرب) يزيد فيما اهتم به الفرنج المولعون باللغات والآثار الشرقية من البحث عن كتب المعلومات  
العربية التي لم يحس سلف الفرنج ما فيها من جواهر المعارف الثمينة ، وما أعظم اشتغالنا بتأخيخ جميع تاريخ  
الأمة العربية التي ظهرت أخبارها أحجب مظهر وبهرت أنباؤها دون غيرها من التوارخ كل من قرأ وتبصر ،  
ولذلك نفت أبناء أوروبا على بحر الزمان إلى تلك الآثار الجليلة التي خلفتها هذه الأمة .

هذا ما قاله المؤلف في المقدمة . ثم قال في صفحة ٣٣٥ عند الكلام على العلوم الطبيعية ما يأتي :

باب في العلوم الطبيعية التي كانت عند العرب وفيه مقدمة وأربعة مباحث

المقدمة

أند اتسعت العلوم الطبيعية زمن اتساع العلوم الرياضية ولكن لانعرف عصر نشأتها لتسلسل التصورات

في جميع الأشياء التي يحول العقل فيها ، نعم الاشتغال بمعرفة حقائق الكائنات العلوية والسفلية وتفصيل ما يتعلق بها وضبط قياس الحركة والقضاء الذي تتم فيه بواسطة التأمل في الطبيعة حدث زمن أرسطاطاليس على أن ذلك البحث كان في الغالب متعلقاً بالأجسام العضوية وهي الحيوان والنبات ثم ارتقى ذلك زمن العرب إلى درجة البحث عن القوى الطبيعية والجواهر الأولية التي تحلل لإدخالها في مركبات أخرى لأنهم كانوا يسكنون بحيث جزيرة العرب ما بين مدينة مسكات ومكة الذي به كثير من البهارات والصبوغ البسمية والجواهر النافعة والضارة للإنسان فالتفتوا إلى مزايا ما بأرضهم من النباتات النافعة في الطب والصنائع وزينة المعابد والقصور ومثلهم من في سواحل مالابار وسرنديب (سيلان) والسواحل الشرقية من قسم أفريقية فتحصل كل على مزية لم يعلها الآخر إلا بواسطة تجارات أمت من مخزن (جرها) الذي بين الخليج الفارسي واليمن وجاءت بحيث جزيرة العرب حتى بلغت كنعان والشام .

وأما البحث عن الجواهر الطيبة التي مدحه ديسقوريدس لأهل مدرسة الإسكندرية ، فمن محترفات العرب أنهم المنشئون للأجراجات الكيماوية والموروث عنهم ما يسمى الآن بقواعد تحضير الأدوية التي انتشر بعد من مدرسة (سالرنه) في الممالك التي في جنوب أوروبا .

#### البحث الأول في علم الكيمياء

قد أدى إنشاء الأجزاء والمواد الطيبة التي هي أول ما يلزم لفن الطب إلى الاشتغال بعلم الكيمياء الذي كان ابتداء العرب في التمدن مبدأ للاشتغال به وهو عبارة عن مجرد التحليل والتركيب لا تركيب الذهب والفضة المسمى بالكيمياء السرية والإكسير والحجر المسكوم وقد أوصلت العمليات الهرمسية وهي تركيب اللاغم والمخلوطات المعدنية التي عملت في المعادن المطروقة إلى أبداع الاستكشافات المعدنية وعرف تركيب الكبريتيك والماء العشر والماء المسكي وتحضير الزئبق وتخمير الجواهر الكؤولية وغير ذلك من مؤلفات أبي موسى جعفر الكوفي المشتهر في القرن الثامن من الميلاد والفخر الرازي المتوفى سنة ٩٢٣ من الميلاد .

#### البحث الثاني في علم النباتات والمادة الطيبة والاقتصاد الزراعي

لعدة اطلاع العرب على مزايا النباتات أدخلوا في الأدوية نباتات جهل اليونانيون خواصها كالراوند وحمق القمح الهندى وخيار شبر وورق السنا المسكى والإهليلجيات والكافور وعرفوا أنواع الطيب الزكية بكوز الطيب والقرنفل وغرسوا عدة أشجار من ذوات الزهور المذكورة والمؤثثة وعرفوا ما يتعلق بحسب آلات الكورة والأنونة ورأوا استعمالهم السكر في الطب أفضل من استعمال القديس العسل فأدخلوه في مركبات كثيرة كشراب الورد وأشربة جلالية (بضم فشد) وماجين كثيرة واشتغلوا بعلم الجيولوجية وهو معرفة تركيب طبقات الأرض .

وتسكلم ابن سينا في المادة الطيبة على شجرة الأرز المسماة (ديودقارة) النابتة في جبال (هباليه) وجعلها نوعاً من الشجر المسمى (جونبيريس) الداخلة من تركيب زيت الترمينتا .

وقد أنشأ عبد الرحمن الأول خليفة قرطبة بستان نباتات بقرها وبعث إلى الشام وغيره من الممالك الشرقية سياحين لجمع البذور النادرة وكان قد غرس بقرب قصره في الرصافة أول نخلة في قرطبة .

وبالجملة بذل العرب صادق الهمة والعزيمة في تعلم وتعليم جميع فروع العلوم المتعلقة بالمولدات الطبيعية . ولذا أنصفهم المؤلف (ليل) في كتابه الجديد بما حكاه من اشتغالهم بعلم الجيولوجيا ، ونقل (دساي) عدة فصول من كتاب القزويني المشهور باسم (يلين المشارقة) واشتهر حياة الحيوان للدميري الذي هو عند العرب بمنزلة (بوفون) عند القرعج ، وبلغت العرب في علم الزراعة أقصى درج السكال ، وأحدثوا في أسبانيا

السواقي ذات القواديس المعتادة الآن ، وكان عندهم في الاقتصاد الزراعي معلومات شيت بأوهام فاسدة إلا أنهم كانوا يعرفون طرقا عملية تستحق التفات الفلاحين إليها .

المبحث الثالث في علم الطب والمدرسة اليونانية العربية والفخر الرازي وابن سينا

أحضر ملوك الفرس الأكاسرة من ابتداء القرن الثالث بعد الميلاد العيسوي أطباء اليونان فنتشروا في البلاد الشرقية آراء أبيقراط الطبية حتى ساهت المدرسة التي بجنديسابور مدينة الاسكندرية أيام البطالسة ثم فتحت العرب البلاد فكان مركز التعليم ( أنطاكية وحران ) وظهر منهما أطباء جامعون في الغالب بين العلوم الرياضية والفلسفية عارفون باللغة اليونانية كالعربية التي ترجموا إليها كتب أرسطو وافلديس وبطليموس منهم يحيى بن ماسويه طيب هارون الرشيد ألف في الطب كثيرا من المؤلفات المعتبرة عند الشرقيين ، منها شرحه للشتمل على ثلاثين كتابا ، وكتاب في تحضير الأدوية ، ورسائل في أصناف الحلى والأغذية والترلات والحمامات وأنواع الصداق والشقيقة وغير ذلك ترجم كثير من مؤلفاته إلى العبرانية ويوجد بكنيخانات أوروبا كثير منها بالعبرانية والعربية . مات سنة ٨٥٥ ميلادية وله ثمانون سنة خلفه تلميذه حسين وأخذ من المأمون على كتاب ترجمه من اليونانية إلى العربية زته ذهباً ، ترجم كتابي جالينوس وأبيقراط وغيرها ، وألف كتابا كثيرة في الطب والمنطق الفلسفي ، واختبره للتوكل حيث سأله عن سم قاتل بمجرد تناوله فقال لا أعرف إلا الأدوية الحافظة للصحة فأنخذه طبيبا وأغدق عليه . توفي سنة ٨٧٤ ميلادية ، ومنهم جبرائيل المشهور في علاج كثير من الأدوية . والفخر الرازي محمد بن زكريا قام بإدارة المستشفيات في بغداد والري وجنديسابور وهو أول من أحدث المسهلات اللطيفة في الأجزاءات والتراكيب السكاوية الطبية واستعمال الحزام وأول من ميز القصب الخجرجى عن القصب الراجع الذي يكون أحيانا مضاعفا من جهة البين ، وكان يرى أهمية التشريح في الطب الذي ألف فيه أكثر من مائة مؤلف ، منها كتاب صخيم سماه [الحاوي في علم التداوي] ورسالة في الجدرى والحصبة استمدت منها سائر الأطباء ، وأهدى إلى الأمير المنصور حاكم خراسان في القرن العاشر من الميلاد أحد أبناء العائلة السمانية عشرة كتب حسنة الترتيب والأسلوب طبعت في مدينة ( ونديق البنادقة ) سنة ١٥١٠ ميلادية وهي أول ما بحث فيه عن الحجر عسى كبيرا ففتح أن يعالجه من الأطباء إلا من عرف عدد أعشبة الدين وساح في الشام ومصر وأسبانيا ، توفي سنة ٩٣٢ ميلادية واشتهر بعده بخمسين سنة على بن عباس الفارسي الهوسى ألف في الطب كتابا عشرين مجلدا ، عشرة في قواعد الطب وعشرة في عملياته سماه (لللكي) وأهداه إلى السلطان عضد الدول البويهى ترجمه إلى اللاتينية اصطفان الأنطاكي سنة ١١٢٧ ميلادية وطبعه ميخائيل كابلا سنة ١٥٢٣ في مدينة ليون بفرنسا ولم يكن في حكام العرب مثل الفخر الرازي وأبي علي الحسين بن سينا للولود في (انشائه) من ضواحي شيراز سنة ٩٨٠ ميلادية ، كان والده حاكما على شيراز وتعلم هو الطب في بخارى وعالج وهو ابن ١٨ سنة الأمير نوح السمانى وشفى من مرض عظيم فتقدم عند الملوك السمانية ووعدده محمود النروى الإغداق عليه إن أقام عنده فأبى ودام على التهرب في البلاد وأقام عند قابوس حاكم إقليم جرجان وجدد في ديوانه أعمال الطبيب اليوناني (ابرازستراتس) وجدد له موثلا في مدينة الري حين كان سلطانها محمد الدولة ثم في مدينة همدان حين اختاره ملكها خمس الدولة أن يكون وزيرا وطيبيا له ثم دعاه علاء الدولة للقيام بوظيفة الوزارة والطب بأصفهان ، ألف كتابا من أجل المؤلفات منها (القوانين) وهي خمسة كتب ترجمت وطبعت مرارا ، وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازي تدرس بمدارس أوروبا نحو ستة قرون تقريبا ، مات سنة ١٠٣٧ ميلادية .

للمبحث الرابع ، في مدرسة أسبانيا وابن القاسم وابن زهر وابن رشد وغيرهم

ظهر أيضا في مدرسة أسبانيا من الأطباء جمع منهم أبو القاسم خلف بن عباس المعروف عند الفرنج



بالوقاريس وضع علم الجراحة ووصف آلتها وكيفية استعمالها وما يحصل في بعض الكيفيات من الأخطار وعين لإخراج الحسوة موضع البضع الذي عينه متأخرو الجراحين من الفرنج ولم تعرف مؤلفاته بين الفرنج إلا في القرن الخامس عشر من الميلاد ، مات سنة ١١٠٧ ميلادية . وأبو مروان بن عبد الملك بن زهر ولد في بلدة ( بنافلور ) أدخل في لئادة الطيبة عدة أدوية ، وأحدث في علم الجراحة فتح شعبي النفس ووصف أمراضا لم تكن موصوفة قبل ، مثل المرض المعروف بالهاب الحجاب النصف للتامور المحيط بالقلب وتعين لرد العظام للثقل إلى مواضعها وجبر للتكسر منها ، ترجمت كتبه الكبيرة إلى اللاتينية غير مستوفاة الترجمة ، استخدم عند الأمير يوسف بن تشرفين صاحب مراکش فأغدق عليه ، ومن تلامذة ابن زهر أبو الوليد محمد بن رشد اتبع أصول الفللفة الأرسطاليسية . وألف رسالة في التزيان وكتبا في السموم وأنواع الحمى وشرحا على كتاب أرسطاطاليس ، وشرحا على قوانين ابن سينا ، وكتبا ضخما مشهورا ( بالكتبات ) طبع في مدينق ونديق وليون وغيرها .

وكان عبد الله بن أحمد بن علي البيطار أعلم الأطباء بعلم النباتات ساج في البلاد الشرقية زمنا طويلا وأكرمه السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي والكامل صاحب دمشق . اشتمل مجموعته للسمى ( بالأدوية المفردة ) القسم أربعة أقسام على وصف جميع النباتات والأحجار والعمادن والحيوانات ذات الحواس الطيبة أصاح فيه غلطات ديوسفوريدس وجالينوس وأوريان .

وبالجملة كان ملوك الشرق يدعون العلماء إلى دواوينهم ويستقبلونهم بأنواع التشرريف والأموال الجزيلة فكان منهم عدد لا يحصى حفظت أسماءهم في التواريخ ؛ اشتهر منهم في الطب ثابت بن قرنة الطبيب الفللسكي سنة ٨٥٠ ميلادية وأبو جعفر أحمد بن محمد الطالب الذي ألف سنة ٩٧٠ ميلادية في داء البرسام والبرسام وغيرها ، وعلي بن رضوان سنة ١٠٦٠ ميلادية ، وجزلة بن جزلة سنة ١١٠٠ ، وعبد الرزاق سنة ١١٥٠ ، وهبة الله سنة ١١٥٥ والجلدكي الذي ألف سنة ١٢٥٢ كتابا في الحجر للكرم للسمى ، أيضا ( بالكيمياء السرية والصنعة الإلهية ) وأبو الفرج سنة ١٢٨٦ وإسحق بن إبراهيم سنة ١٣٠٠ .

باب فيما كان عند العرب من الفللفة والإلهيات والفق، وللمعارف الأدبية ومخترعاتهم وفيه مباحث

للبحث الأول في عدم اقتصار العرب على شرحهم فلسفة أرسطاطاليس

زعم الفرنج أنه لم يكن فلسفة عربية وما ذاك إلا لجهلهم بأشغال العرب ، فإن جميع الدروس بمدارس أوروبا في القرون للتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفللسفية وكانت ترجمة حسين الطبيب ويعني النحوي كتب أرسطاطاليس مبدأ لاشتغال العرب بالمعلومات الفللسفية التي كان من رجالها الكندي ومحمد بن مسعود وأبو تمام النيسابوري وأبو سهل البلخي والاسفرايني والعميري ثم ظهر الفارابي وابن سينا فكانا أشهر رجال الفللفة لتدوينهما لها على الصورة للذهبية التي نقلها عنهما ابن باجه وأثير الدين الأبهري وعلي الخونجي وابن رشد وأبو السلت ونصير الدين الطوسي ثم اجالوا في مدارس للغرب ، ولا تنطق أن العرب اقتصروا على نصير كتب أرسطو ، بل كانوا يعرفون تآليف أفلاطون لاسما كتابه الأكبر للؤلأف في الترائع وعدة كتب منسوبة إلى ( فيثاغورس ) وكانوا يذكرون من قداماء اليونان كثيرين أورفيه وأوميروس المحتوية أشعاره على الفللفة الدينية والفللسفة السبعة وانكزاغورس وإراقليط وديمقراط والاباطية وسقراط وتلامذته وإقليدس والفللسفة الاسطوانية وكان عندهم في الجزء الثاني من تاريخ علم الفللفة مسائل فيمن كل فلسفة أرسطو ومن شرخها وفيما يخص مدرسة الاسكندرية ، وكانوا يعتمدون أقوال ( بلوتين ) و ( برقلوس ) ويلهجون كثيرا بالفضايا العلية ، وكانوا واسطة بين زمن الفللفة القديمة والفللفة للدروسة في أوروبا .

وكانت المجادلة بين أهل الظاهر منهم وباطن عدة قرون فضل فيها بعض أهل المدارس الشرقية على بعض وكان منهم معتزلة بصرية ومعتزلة بغدادية وحكاؤم الفلاسفة الذين ظهرت فلسفتهم على علماء الفرنج في القرون المتوسطة بل وعلى أرباب الأسرار الروحانية ومثل ماري بونايتطور . انتهى .

فما سمع صاحبي ذلك قال يا عجبا كل العجب هذا القول لم أسمعه إلا الآن ! وكيف يكون أسلافنا من الأمة المحمدية هم آباء العالم كله ؟ وكيف يكون ذلك شأنهم ونحن اليوم على ما نحن عليه جهال غافلون ؟ فقلت : ذلك ثلاثة أسباب :

السبب الأول : أن ملوك الإسلام إن كانوا صالحين سلمت الأمة ، وإن كانوا طالحين ضلت الأمة لافرق بين الأمويين والعباسيين في الشرق والأمويين ومن بعدهم في بلاد الأندلس ، فهؤلاء الملوك جميعا إن استقاموا استقامت الأمة ، وإذا فسدوا فسدت لهممهم وظلمهم فتضيع العلوم والصناعات التي هي فروض كفايات . مثال ذلك من كلام المؤرخ المذكور أن مجدا الخمار في الأندلس بعد ما ظن المسيحيون أنهم كادوا يطردون العرب من الأندلس أخذ يثير الهمة والتمانس بين أهل الصنائع ويشوقهم إلى الاختراع ويعطى مكافآت لمن أتى بشيء من ذلك فنجحوا وبرعوا في نسج أقمشة الحرير وغيره ، وكذا في النبات براعة أهل قرطبة وكفى بقصر السباع المعروف بالجرعاء شاهدا على ما كان لأهل غرناطة من العنى والمهارة في فن البناء مع ما لهم من الاجتهاد التام علوم الفلك والطب والكيمياء والرياضة والنحو والمنطق .

وأخذ هذا الملك يعمل غرناطة أعيادا لتمثيل الوقائع الحربية وأعيادا لمناضلة الفرسان وواسم لقائفة الأنوار وأخرى للنسابق ولعب أخذ الحاتم ، وبدعو أعيان الرعية إلى الأعياد والولائم العظيمة ، ولم يكن ذلك نتيجة جوره بل رفاهية للعبشة في سائر الرعية .

ولما كانت مدينة غرناطة كرسى مملكته مأوى للمسلمين اللثنتين لكثرة خيراتها الجاذبة لجميع من لم يرد الإقامة تحت حكم نصارى أسبانيا ، وكثرت للهجرة إليها حين أخذ الملك ( جاك ) يطرد للمسلمين من مدينة ( والنسة ) سنة ١٢٤٩ .

ولم يزل ملوك غرناطة متولين الحكم بها من سنة ١٢٣٨ إلى سنة ١٤٥٢ ميلادية محسنين ترتيبهم السياسي ، فقد رتبوا في كل بلدة خفراء منها وأعطوا جميع سكانها سلاحا يستعملونه حالة هجوم العدو فرفوه حمرات على ملوكهم للمتبعين من أداء واجباتهم اللوكية أو الدين لا يباؤن بمشاورة الأمة ، وجعلوا للمساكر المحافظين بالثغور إقطاعات من الأرض تكفيهم وعائلاتهم لتبنيهم على الوقاية من الأعداء ، وأثروا أنفسهم مثل ملوك الأقاليم للقرية بالقيام بما يلزم طوائف العفراء من نحو للأكل والشرب ، وأكثروا في الأسواق للبيع الضرورى ورتبوا في غرناطة التي دائرتها أكثر من ثلاثة فراسخ ضبطية ، وفي كل من منها ضابطا ورتبوا عساكر تدور ليلا في الأماكن التي لم يكثر طروقها ، وعملوا قوانين لزم من إغلاق المحل العامة كالأسواق وخصصوا كل حرفة بطائفة ، وعاقب كثير منهم من أفرط في شرب الخمر ، وأمروا اليهود أن يميزوا بعلامة من غير إساءة معاملتهم ، ومنعوا الربا في النقود وابتكروا في كتابة الحجج والصكوك طرائق واضحة تمنع للتنازع ، وشغلوا العلماء بتأليف رسائل في الصنائع العلمية وانقاد الأمة والفقهاء لقوانينهم النظامية بعد أن كانوا إلى هذه السلطنة مطلقا التصرف يفعلون ماشاءوا ، وأحدثوا لتأدية العبادة قوانين تنبئ عن كمال إيمانهم وعلو أفكارهم وشرف النأديب والتهذيب الديني منها انزال النساء عن الرجال في الساجد وخروجهن قبل الرجال وإكثار الطاعة في رمضان وتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء وأهلها أو إبقاؤها لتنفق في عمارات عامة النفع ، وفتح اجتماع الناس ليلا وإبطال التدب على الأموات عند دفنهم بقراءة أدعية على قبورهم ودفن الموتى عارين عن الثغائم وبقايات الأزهار للتأدية قبل هؤلاء الملوك .

وكان يستعمل في قوانين العقوبات على الجنح والجنابات الضرب بالسوط والنفي عن الأوطان وإشهار اللذنب بوضه على خشبة فاستبدل هؤلاء الملوك ذلك بجبس الذنوب في مكان يستغلون فيه ، وأبطلوا رجم اللذنين ، وأمروا بدفن من يقتص منه بالقتل مثل دفن سائر المسلمين .

وبما سلف يعلم أن مملكة ( غرناطة ) نظرا لما كانت عليه من الأمور الجليلة تستحق أن تعتبر في التاريخ من الممالك الشريفة لسن ساء حفظها حيث لم يكن توارث سلطنتها مقررا على قواعد متينة فتولاها بعد الملوك الجديرين بتعجب الأجيال المستقبلية من عدلهم وحسن سياستهم ملوك جبارة ليسوا بكفء للسلطنة التي محجوا زوالها من بحيث جزيرة أسبانيا .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : قد عرفت السبب الأول : وهو أن المسلمين لما جعلوا الملك ميراثا تولاه ملوك جهلاء فأضاعوا ما أسسه الفضلاء . قلت :

السبب الثاني أن هذه العلوم التي بها حياة الإسلام حقيقة ما كان الناس يدرسونها باعتبار أنها دين ، بل كانوا يدرسونها بأمر الملوك وتقربا إليهم كما تقدم آغا ؛ إذ كان المأمون يعطي زنة الكتاب ذهباً لمن يترجمه ، ولذلك كنت نجد أكثر المترجمين من المسيحيين كأن المسلمين ظنوا أن هذا مخالف للدين مع أنه هو قوام الدين .

السبب الثالث أن علماء الدين كانوا لا يتكلمون على فرض الكفاية بتوسع ، بل ترى ذلك في كتاب [ جمع الجوامع ] للنشر في بلاد الإسلام في علم الأصول لم يذكره إلا في الكلمات اليسيرة التي رأيتها حتى نسي للمؤلف عماد ديننا قاعدوا عنه ، وذلك لجهل التام في العصر المتأخرة ، فقال صاحبي : زدني من هذا ، قلت : أما الآن فلا وإن أردت للزيد فسترى هذا القام جميل الحيا ، باهر الطلعة ، باسم النور ، شريف المنقبة ، في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمناسبة قوله تعالى « وذكرهم بأيام الله » فهناك ترى أن موسى عليه الصلاة والسلام أرسل ليخرج قومه من الظلمات إلى النور ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أرسل ليخرج قومه من الظلمات إلى النور في نفس الآيات ، وأن موسى ذكر قومه بأيام الله كما أمره الله فذكرهم بخروجهم من ذلك فرعون ولصريين وما بعد ذلك ، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم ذكر قومه كما تقدم في سورة الأنفال وفي كثير من الغزوات مثل قوله تعالى « إذ يشيكم الناس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء » إلى آخر ما ذكرناه من النعم التي هي (١٤) نعمة ، وأنه يجب علينا في هذا الزمان أن نذكر أمة الإسلام بالحوادث السابقة من عصر النبوة إلى الآن وستراه هناك مفصلا مع الإيجاز وترى عصر النبوة وما بعده من المبشرين والأمويين وخراب بغداد والأندلس وانتشار العلوم وتقصها وإذلال العلماء كابن رشد وانتقال العلم إلى أوروبا وضياع بلاد الإسلام بعد عزها ، ثم ذكر علماء أوروبا في القرن السادس عشر وما بعده إلى نهاية التاسع عشر وأنهم حملوا العلم الذي أعطاه آباؤنا لهم وأنتا يجب علينا أن نسترجع المجد ونخدم الإنسانية لأننا لهذا خلقنا فلنرجع إلى سيرتنا الأولى ، فلما سمع ذلك صاحبي قال : سأنتظر حتى أقرأ تفسير سورة إبراهيم ، ولكن بقي عندي سؤال وهو : لماذا ترى بعض التعللين من أبناء مصر وغيرها من المسلمين يعتقدون أن المسلمين الأولين ما عملوا شيئا ؟ ما السبب في ذلك ؟ قلت : السبب فيه أمران :

[ الأول ] أن بعضهم بذلك يظهر تفوقه وعظمته على أبناء بلاده ، وهذه العظمة لا تظهر إلا بطمس معالم الأجداد وجدد الديانات ليقول الناس إنه فيلسوف عظيم .

[ الثاني ] أنهم لم يطلعوا على مثل ما نقلناه لك عن الترجمة حتى يعرفوا ما صرفته الآن من هذا القام ، بل إن أكثر هؤلاء يجهلون تلك العلوم فلا يعرفون إلا لغة من لغات الترجمة ويأخذون شهادات في تاريخ أو أدب أو نحو ذلك فيفرضون بما نالوا ويموتون شهداء الجهالة والنور اه .

## حديث جميل

في عجائب القرآن ومدهشاته إذ يشبه فيه الدين بشجرة ذات فروع

قال صاحبي : قد فهمت ذلك ، ولكن أرجو أن تحدثني حديثا جميلا يكون فيه سمر للبادي والحاضر  
أصرف به أن جميع العلوم يطلبها القرآن غير ما ذكرته سابقا حتى أزيد اطمئنانا وعلما ويثبت في قلوبنا أن ما فعله  
آبائنا من التعاضد عن العلوم العصرية خطأ وأن ديننا يطلبها جميعها لا فرق بين دنيوي وأخروي ، نقلت :  
اعلم أن جميع العلوم كشجرة أصلها ثابت في العقول وتستمد من النور الإلهي وفرعها يسمو إلى العلا ويمتد  
على طول الزمان ، وإذا نمت الشجرة إلى أعلى فإن فروعها تكون قسمين : قسم منها في القلب ، وقسم منها  
في الأطراف ، والقسم الذي في القلب عليه مدار الشجرة ، والقسم الذي في الأطراف يحيط بالقلب ، وأنت  
إذا بحثت الشجر كله وجدته على هذا النمط .

ولا جرم أن القلب في فروع الشجرة أهم من الأطراف ، أفنوافق على ذلك ؟ قال نعم ! قلت انظر :  
أليست العلوم في الدنيا كلها على قسمين : قسم به حياة الأمم وسعادتها وهي العلوم الطبيعية والفلسفية والرياضية  
وقسم به حفظ البلاد والعباد كالتقوانين وكالطب وما أشبه ذلك ، قال نعم ! قلت : فدين الإسلام له قلب كقلب  
الشجرة وأطراف كأطراف الشجرة ، قال نعم ! قلت : والقلب هي علوم الفلك والطبيعة من معدن ونبات  
وحیوان وإنسان وعلم النفس ، وهكذا علم طبقات الأرض ، وكذلك علوم الحساب والهندسة والجبر التي لا تتم  
حياة إلا بها ولا يعرف الفلك إلا بدرسها ، وعلم الفلك لا بد منه لأمر كثيرة منها سير السفن في البحار  
وهكذا ، قال نعم ! وهذه العلوم بها شكر الله وبها التوحيد ، وبها معرفة جمال الله ؛ فيها حب الله ، وبها  
عبادة الله ، وبها شكر الله ، وبها توحيد الله ، والزيادة في التوحيد والزيادة في الشكر واجبان عينيان على  
كل قادر .

وقد أجمع العلماء على أن شكر المنعم واجب ، ولا معنى للشكر إلا على نعمة ، ولا شكر على نعمة لانعرفها  
ولا معرفة لنعم الله حقا إلا بدراسة ما حولنا من السماء والأرض .

وعلى مقدار دراسة ذلك يكون الشكر ، إذ لا شكر على مجهول ، ولا حب لله بغير سبب ، وأهم الأسباب  
التوقف على دقة صنعه ، وجمال وضعه ، وبديع حكمته ، قال صاحبي : إذن هذه العلوم واجبة على كل مكلف  
وهذا محال . قلت نعم محال ! بل أنا أقول كل من قدر على المزيد منها يبحث لا يخجل ذلك بأحواله ووجب عليه  
لفول الله تعالى « وقل رب زدني علما » وقوله « واشكروا لي » ولا شكر إلا بما علمت .

فهذا هو قلب دين الإسلام ، وهو نفس علم التوحيد ، وهو الذي به تحفظ الأمة نفسها وتنفع الأمم  
وتعلم ، وهذا سر قولته تعالى « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

فمن عكف على علم الفقه وهو قادر أن ينظر في جمال النجوم وبهجة القمر والشمس وجمال الزرع  
والزهر وبهجة الأنهار والبحار فهو غير شاكر لله ، بل هو غافل نائم ساه .

وهذه حال أغلب المسلمين اليوم ، فلا علم بالله ، ولا شعادة في الحياة ، ولا ثروة ولا استقلال ، لأنهم  
أعرضوا عن هذه العلوم ، وهذا نفسه هو معنى قوله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا .  
ونعمره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها  
وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعناب الآخرة أشد وأبقى » فقال  
صاحبي : واهالك ! واهالك ! واهالك ! أتتلك آيات سبقت في المكفر فتجعلها في المسلمين ؟ قلت له :  
يا عجبا لك ! أليس يقول الله ؟ « ومن أعرض عن ذكرى » هو لم يقل كفر بي ، بل قال تعالى « ومن

أعرض عن ذكرى « والمسلم يجعله هذه العلوم أعرض عن ذكر الله الحقيق ، ألم تسبح فوله تعالى ؟ » الدين  
بذكرون الله قياما وتمودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا  
سبحانك الخ .

فقال : إذن أغلب المسلمين يحشرون عميا ، قلت : لست أقول هذا ، بل أقول الإيمان بالله يورث دخول  
الجنة ، ولكن عمى البصيرة يؤخر الدخول فيها ، فإذا كان شكر الله واجبا وزيادة التوحيد واجبة فإن  
تركها حرام ، وهذه معصية من الكبائر ، والكبائر القلبية أعظم جرما من الكبائر الجسدية ، وعليه  
يكون الضنك الذي حل بالمسلمين اليوم هو الذي جاء في قوله تعالى « فإن له معيشة ضنكا . ونحشره يوم  
القيامة أعمى » .

إن الله عز وجل سيعذب المسلمين حقا بعد الموت ويوم القيامة كما عذبهم في الدنيا على ترك علوم تعد  
بالشرات ، وعلى ترك صناعات تعد بالآلاف ، أمرهم الله بها فأنشأها وحضها واجب علينا وأكثرها واجب  
وجوبا كغنائنا ، وأعظم المصائب على المسلمين ترك الواجب الكفائي ؛ فالمسلم الواحد منا يعذب الله يوم القيامة  
وفي الدنيا بترك أمته صناعة واحدة أو علما واحدا .

هذا هو ماقاله علماؤنا رحمهم الله تعالى ، فإذا مات أحدا وهو يحمل من لأورار يهدد العلوم والصناعات  
أفليس يكون أعمى يوم القيامة وكيف يكن بصيرا والله يقول له « أنتك آياتنا فتسيتها وكذلك اليوم تنسى »  
« الملحون الذين يسمعون هذا القول ولا يقومون بنشره يحشرون يوم القيامة عمما على مقدار تقصيرهم ،  
وهام الآن يعذبون في الدنيا بإدلال الأمم لهم ، فإن تابوا وأقاموا ذلك خفضنا عذاب الجزى في الدنيا  
بإزاحة الأم الظلمة عما وفي الآخرة بالخروج من جهنم ، فقال صاحب : عزت الكلام على قلب الشجرة  
الإسلامية فأجب أن أسمع الكلام على القسم الثاني وهو الأطراف ، أقمت : أما أطراف الشجرة لإلامية  
فهي الفروع الفقهية والعلوم الإلهية من النحو والصرف وأمثالهما . فهذه العلوم مكملات ومنتجات للقسم  
الأول محيطت به كإحاطة فروع الشجرة الجانبية بالقسم القلبية ، ولا سبيل للقضاة أن يحكموا بالشرعة  
إلا بسياج يحفظ البلاد ، والسياج الذي يحفظها هو الصناعات والعلوم الطبيعية والرياضية التي بها تنمو  
مصالح البلاد ، وإلا فهل يتقاضى بين خصوم لا يبدئون وإنما الخصام لموجودين أحياء ؟ قال :  
حسن ما قلت .

بيان أن تشبيه الإسلام بالزرع والشجر سبأني في سورة إبراهيم وسورة الفتح

فهل ورد في القرآن ما يشير إلى هذا التشبيه الذي ذكرناه ؟ قلت نعم استرى في سورة إبراهيم وفي  
سورة الفتح أن الله يقول « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء  
تؤتي أكلاها كل حين بإذن ربها » ويقول « ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزر فاستغلظ فاستوى  
على سوق الخ » .

إن الله عز وجل علم قبل أن ينزل القرآن أن المسلمين سيقعون في هذا الجهل والذل للشين فأنزل  
هذين التشبيهين اللذين أبرزوا العلوم كلها كأها فروع لشجرة واحدة ، فالإخلال باقلب أمم من الإخلال  
بالأطراف ، وسترى هذا اللقائ واضحا في السورتين إن شاء الله تعالى .

حسن نظم القرآن في هذا التمثيل

ومن عجب أن الله عند الأمور المهمة يوظف النفوس لها بالتمثيل ، فهاهو ذا في سورة إبراهيم يقول  
« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة الخ » فانظر كيف قال « ألم تر كيف الخ » كما قال في سورة القدر

« ثم زلزل الذي حاج إراهم في ربه » فلإنيان بألم إيقاظ لنا نحن كأنه يوحنا على عدم العناية بالعلوم المكتونة المهزونة في التصير بالشجرة الطيبة ذات القروع للذكورة كما ونحا على عدم التفكير في عظام الحمار كيف نكسى باللحم ، أي على جهل علم التشريح ونحوه كما تقدم في سورة البقرة موضعا هناك ، فأما أذكر للسليين أن ينظروا في سائر العلوم كما أذكرهم بجم التشريح الذي هو أحدها .

#### ذكر حديثين

أحدهما بيني وبين عالم مسلم عظيم ، والثاني بيني وبين الأستاذ ( ادوارد براون ) الإنجليزي .  
وها أنا ذا أيها الأخ أحدثك حديثا دار بيني وبين أحد أفاضل علماء الشيعة من جهات حضرموت مشهور الاسم عظيم للقيام ، وإنما لم أذكر اسمه لأنني لم أستاذن منه في ذلك لأنه مسافر وقت كتابة هذا للوضع .

في يوم العيد الأكبر من سنة ١٣٤٤ هجرية زرت رجلا عظيما رداً لزيارته بمنزله بالعباسية ، ومنزله محط رجال العلم والأدب من سائر الأقطار ، لما استقرت جلوسى حتى قدم ذلك العالم الحضرمي الكبير وكنت لم أراه من قبل وقد بلنقى عنه قبل ذلك بأسبوع أنه يعترض على ما أكتبه في هذا التفسير ، فلما جلس أخذ يذكر المجلس بما لديه من علم جم وبراعة في الحديث والعلم فأعجبت أنا وأعجب الحاضرون به ثم دار الحديث بيني وبينه على ما يأتي :

ما تقول في الوهاية الذين هم قد استولوا على الحجاز ورأيت من كلامه أنه يفهم ، وهكذا جرى الحديث إلى الشيعة وأهل السنة ، فقالت له : إن جميع هذه الأمة على حق ؟ فالوهاية والشيعة وأهل السنة قوم مخلصون وليس عند أحدهم إلا ما اعتقده هو وعلم الفقه عند الجميع قد قام بما هو منوط به ، إن علم الفقه به تحفظ المبادئ والحقوق ونحفظ البلاد بالقضاء .

ولا جرم أن هذه الطوائف كلها قد حافظت على بلادها وعلى عباداتها ولكنهم جميعا مقصرون ، قال جميعا : قلت نعم جميعا ألا ترى أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة الذي جرى عليه السلدون منذ ١٣ قرنا لا معنى لتكراره الآن ؟ ومن اطلع على كتاب للوائف وغيره من كتب العقائد عرف كيف كان القادة يكيد بعضهم لبعض لأجل الملك ، وهكذا ترى للوكة العباسيين قد فضلوا مذاهب أهل السنة حتى لا يتبع الناس آل البيت ويبقى للكل لهم ، هذا الخلاف الآن مضى زمانه ، ومن المهن أن يعيش للسلم في القرن الرابع عشر ويتخيل نفسه في القرن الأول الهجري .

وها أنا ذا أنصت عليكم قصصا مع عالم إنجليزي شهير جاء إلى مصر في سنة من سنة العشرة الأول من القرن العشرين للسبحي ، أي منذ نحو (٢٠) سنة يسمى ( ادوارد براون ) وقابلي وحادثني في أمور الإسلام وكان يجيد العربية والتركية والفارسية ولغات أخرى ، فقال : قد كلفني دولتنا الإنجليزية أن أبحث في أهل السنة والشيعة من السليين هل يتفقون ؟ فافرت إلى تركيا وجلست بين ظهرانهم مدة وهكذا إلى بلاد فارس وعاشرتهم فرأيت مدهشات ، رأيتهم جميعا يكرهون أهل السنة ، يتخيلون أنهم هم الذين قتلوا الحسين رضي الله عنه مع أن الحسين مضى له (١٣) قرنا ، ولقد قال لي طالب من طلابهم : إنني قد تطرقت مع الروس ضد الترك ، حاربتهم بسيفي هذا لأنني أفضل الكلاب على التركي لأنه سني ، قل الأستاذ : وأما موقن أن هذا الجلبان ماذبح دجاجة مدة حياته ولكن البنض ملاقبه ، ثم قال : فعلت من هذا أن هذين الشعيين لا يتحدان ، قل : وعجبت كل العجب من هذه البلاهة الخفاء ، كيف برى هؤلاء أن قيصر الروس يحوس رجاله خلال ديارهم ويتمللون في البلاد ويوشك أن يتلدها ثم يرجعون إلى (١٣) قرنا مضت ، فهل

الحوادث التي مضى عليها تلك اقرون كلها نهمهم أكثر مما يصرونه داخل بيوتهم وما هو محيط بهم من كل جانب ؟ قلت له : ذلك لأن للسليين أكثرهم تركوا عقولهم ومواهبهم التي وهبهم الله تعالى وتركوا القرآن الذي قال الله فيه في مثل هذا اللغام « تلك أئمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » قال الأستاذ ادوارد : وقد تمت تقريراً للحكومتنا وسردت فيه هذه الوقائع وقلت هذلك الشبان لا يتعدان ، انتهى .

هذا رأيه إذ ذاك ، ثم قلت بعد ذلك : فهذه الحادثة تبين مصائب السليين للفسرين في العلوم ، فقال بعض الحاضرين : أي العلوم تنى ؟ قلت : إن في القرآن (٧٥٠) آية كلها في معرفة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء ، وما هي إلا العلوم الرياضية والطبيعية ، فلماذا تركوها وحصروا عقولهم في علوم جدلية وظنية ، أليسوا جميعاً ملزمين بالتوحيد ؟ قالوا بلى ، قلت : أليسوا جميعاً مأمورين بشكر الله ؟ قالوا بلى ، قلت : كيف ناموا من هذه العلوم ؟ نعم ناموا عنها لأنها صعبة عليهم تحتاج لزمان عظيم ومشقة فاستسهلوا الجدال والظن والتمس والتدح والرجوع إلى الوراء ، وتركوا علوم آباءنا إلى أوروبا ، علوم آباءنا التي لولاها ما كانت أوروبا ولا أمريكا ولا اليابان الحديثة ولا الصين الحديثة كما رأيت في كتاب [ سديو ] الفرنسي ( وقد تقدم في هذا اللغام ) آئمة تنام عن الحقائق وتفتتح بالجدل والشقاق والحلاف جهالة فاشية وموت أدبي ، الله الله فليقرأ النبي كالوهابي والشافعي والحنفي ، وليقرأ الزيدي والإمامي ، ليقروا واكلمهم هذه العلوم ، ألم يقرءوا قوله تعالى « ألم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » ألم يعلموا أن هذه العلوم هي حياة أممهم ؟ فقال بعض الحاضرين : ألسنت تخشى أن يرد عليك بعض الشهوريين في الفقه الإسلامي قلت له : اعلم أنه لن يقدر عالم أن يدفع ماقلته لأنني أقول قال الله ، وأقول إن العقل قضى بكنا ، وأقول إن علماء السابقين نصوا عليه في كتبهم ، فأى حجة تقائل بعد ذكر هذا ؟

العلوم شجرة متفرعة عن أصل ثابت وفرع في السماء ولم ينزل دين من السماء ولا حدث علم في الأرض إلا كان أولاً أصلاً منتظماً ثم تفرع على مدى الزمان .

وها هو ذا الفقه أصله من العصر الأول ثم تفرع طرقاً ومذاهب ، والفقه كله من مائة وخمسين آية ، فأين التفرع في سائر العلوم التي آياتها كثيرة جداً تعد بالآلاف ، فأقر الحاضرون جميعاً ماقلته واستحسنوه ، بل فرحوا به ، بل صاروا من أنصار هذه الدعوة اه .

ثم قلت لصاحبي : هذا وإنى موقن أن هذا الذي أذكره سيم أقطار الإسلام جميعها وسيكون لهذا القول أنصار وأنصار ورجال عظماء يقومون به وسيبشر الله هذا في القريب العاجل « ولتعلن نبأه بعد حين » .

### خاتمة

ختمت هذه السورة بقوله تعالى « وهو رب العرش العظيم » وقيل أيضاً فوق ذلك إنها خاتمة ما نزل على ربي .

والحكمة في ذلك أن هذه السورة جاءت للقتال والجهاد والبراءة من الشركين ، وقد جاهد المسلمون بنبوك بعد غزوات أخرى .

وهذا فيه ابتداء سقوط عروش الملوك العالم المعروف إذ ذاك ، وقد وعد النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين

فتح فارس والروم ، ولم يفتحها في زمانه ، فها هو ذا يقول « عليه توكلت » ومن توكلت عليه له  
العرش العظيم .

وهذه الأمم التي أحاربها لها عروش أقل من عرشه ، فهولاء محالة غالبها وستسقط تلك العروش في سلطان  
أمتي وتصيح في عداد قوتها .

وسأني في (سورة النمل) حديث المدهد وما في قصته من ذكر العرش إذ جاء فيها « إني وجدت  
امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم - إلى قوله - ألا يجدوا لله الذي يخرج الحب  
في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » فنكر عرشها  
وعرف عرش الله إشارة إلى أنه أعظم من عرشها ، ولذلك نقل عرش بلقيس فأصبح أمام سليمان الذي هو  
مرسل من عند رب العرش العظيم ؛ فالعرش الذي هو المخلوق أصبح في ملك من أرسل من عند رب  
العرش العظيم في سورة النمل ، فها هنا ذكر العرش العظيم فقيل « لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب  
العرش العظيم » ولم تذكر العروش الأخرى بل اكتفى فيها بالحض على العزوات لا غير .  
ويظن الأذكياء إلى أن هذه العروش ساقطة لاحتمال في يد السجين كما أصبح عرش بلقيس بين يدي  
سليمان عليه السلام .

وهذا من لطائف القرآن ومجائبه وهي الحكمة في اختتام السورة بهذه الجوهرة الثمينة ، ومن للناسبات  
قوله « ثم استوى على العرش » بأول يونس .

تذييل لتفسير سورة التوبة وأن الرحمة فيها من أسرار الصلاة

اعلم أن سورة التوبة فيها سر الرحمة التحلية في الصلاة . إن السلم في صلاته يناجي ربه بالقاعة والتشهد  
وبعض الأدعية وكلها مرجعها الرحمة العامة وإرجاع الأمور إلى الله .

ففي القاعة يقول السلم إن الحمد كلها لله على تربيته لله لم العلوي والسفلي الذي شملته الرحمة وعمه  
الإحسان والعدل في الحزا . فله وحده الخضوع والتوجه . وبه وحده الاستعانة ، ومنه تكون الهداية لصراف  
السوي ، صراط للتم عليهم الذين هم وسط بين طرفين ، وفي تشهد يفوض كل شيء لله ، فالتقاء في القاعة ،  
والتمظيم في التشهد خاصان بالله تعالى ، وهكذا سائر الأمور ، وكما أنه طلب الهداية من الله في القاعة أقر  
بنا بأن السلام عام من الله على الأنبياء وجميع الصالحين ، ثم هو يناجي ربه طالبا ازدياد الرحمة على النبي  
صل الله عليه وسلم وصالحى أمته والتوجه بالصالحين من الأمم السابقة ، ثم يستمد بالله من العقبات التي تموقه  
عن الطريق لربه ، ونرى السلم في الاعتدال من الركوع يقول نحو ذلك فيحمده حمدا بلا السموات والأرض  
وغرها ، وسأل في التبري من الحول والقوة ، فلا عطاء لتبره . ولا مانع لبطائه ، وهناك لا يقع الاجتهاد  
بلا إمامة وهكذا .

لنخص ما يقول المؤمن في صلاه التبري من الحول والقوة والاعتماد على الرحمة الواسعة من الله إليه  
وتفويض الأمور له وتسليمها إليه .

هذه هي القعود من الصلاة وهي لا تصح ولا بقا لها ولا ثواب إلا إذا حضر قلب العلى فيها ، ومضى  
حضر أشربت هذه العاني في قلبه ولا بد من العدل بها ، لأن الإنسان يحمل بما يعتقد . واعتقاد السلم إن  
أن الله هو الذي وهو السمان وله الخضوع وله العبادة ومنه الهداية ، ولا عطاء لتبره ولا عمل للعبد ، وهذا  
كله تدويض تام .

هذه هي صلاة السلم يكررها طول النهار وطول الليل ، وأعماله الدنيوية تتدخل هذه الصلوات ، وإذا  
مخلتها أثرت في أعماله وأعماله وأقواله مادام حاضر القلب في الصلاة .



وهنا بيت القصيد ، هنا تجلى ما أريده في هذه الحانة ، فلقد رأيت كيف نحى السلم عن الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والساكنين وقيل له إياك أن تكون الثمانية أحب إليك من الله فإها منه وإليه ، ومنها يرى السلم أنه إن قتل قاتل من مغم ، وإن صر فهو مغم ، وإن عاش عدوه أو مات فذلك كله مغم للسلم لأن صدره اشتق من عدوه بسذاب جهنم أو عذاب القبر إن مات أو بموته قتل بيد السلم .

فالحياة في نظر السلم كلها سعادة ، فلا فوات للال يحزنه ، ولا ذهاب العمر يؤذيه وإن انقصر فآله سيخيه إما في الدنيا وإما في الآخرة ، فإذا يكون قلبه غنيا وهو منشرج الصدر .

فانظر كيف أصبح هذا الوجود كله والأحوال جميعها في حق السلم رحمة وسلاما عميقا للرحمة للقروة في القاعة للتكررة في كل صلاة والسلام الذي يرفرف عليه في كل تشهد .

فالسلم إذن في رحمة وفي سلام دائمين وأصبحت الرحمة في العقيدة الراسخة التي تفتتها تلك التلاوات ، فالجرب والفقر واللوث والمزمنة والنصر والحياة والنفي ، كل هذه للتناقضات يصحبها الرحمة والسلام للمؤمن وإذا أصابه النصب والنصب والحمصة والفقر فهو في رحمة وسلام ، لأن السألة حوت من الساذيات إلى المنويات ، ومن القواهر إلى البواطن ، وإذن سر القاعة وسر الصلاة قد تجلى نجليا أعظم في سورة التوبة .

هنا ظهر سر الصلاة ، وسر القاعة ، وسر التشهد ، وسر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صالحي أمته ، وسر القنوت وغيره .

ولعمري إن هنا كله هو سر الحياة وسر السعادة ، أندري أيها الذي ماذا قال الحكماء والفلاسفة في هذا القام ؟ أندري ماذا صنف الفلاسفة للتقدمون في هذه للسائل ؟ إني أحبك على ماتقدم في سورة البقرة ، فلقد ذكرت لك هناك أن فيلسوفا يسمى ( قابس ) قبل الميلاد بمخمسة سنة ألف كتابا يسمى [ لتز قابس ] لخصته لك هناك ، ويرجع الأمر فيه إلى أن السعادة ليست في المال وجمعه ، ولا الجمال وبهجته ولا الولد وكثرته ، ولا العلم وعزته ، ولا الصيت وشهرته ، والسكن في الصر والنبات والرضى في مختلف الحالات ، فإن شئت فارجع إليه وإن شئت زدتك اليوم بيانا وأفدتك يقينا وحكمة وإيمانا .

تجيب كيف انفق العلم ولدين ، وكيف صنف الفلاسفة بقولهم ما نزل الوحي على نبيه ، وكيف يرى بعض الناس أن هذه اللواعيد الإيمانية ، والآيات القرآنية ، والبشارات الأخروية إنما جعلت لترغيب الجاهلين والضلع على أذقان السافلين ، ذلك لأنهم يظنون أنهم امتازوا بملهم عن بقية السليين إذا هم لافي العير ولا في التنفير ، فلام بقوا مع السامة القلدين . لام وصلوا إلى رتبة الحكماء المحققين .

فيا عجبا ! كيف يصل العلم أكثر التعللين ؟ وكيف يكون العلم ضلالا والتنوير به سرايا ؟

إن الذين يسمدون في الدنيا رجلا : جاهل له إيمان ، وعالم تام الحكمة والعبان ، فأما للتوسطون فهم الذين قلمهم الخبرة والشك في هذه الحياة ، فهم أبدا مذبذبون ويتلهون بالتهوات الجبانية في هذه الحياة ظنين أنها هي السعادة إذ لا سعادة في سواها ، وما التهوات إلا « ظل ذو ثلاث شعب . لا ظيل ولا ينش من اللمب » فهم يتقون الحر بالثار . • كالمستجير من الرمضاء بالنار • • فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون .

حكاية الكوخ الهندي

ألف علم من علماء أوروبا لا أذكر اسمه الآن كتابا يسمى [ الكوخ الهندي ] تحمله سياحة من العرب

إلى الشرق ، فطاف مصر وسوريا وسائر البلاد باحثا عن الحق أين هو ؟ فوجد المسيحيين والمسلمين واليهود جميعا مختلفين ، فقال في نفسه : أين السعادة إذن ؟ فوصل إلى الهند وانصل بالبراهمة فلم يبيحوا له الاتصال برئيسهم بل أزموه أن يجلس في مؤخر المجلس بعد أن اغتسل فأخذ يلقى أسئلة على آخر رجل في المجلس وهذا بقلبه لمن يليه وهكذا حتى وصل إلى رئيسهم ، وصورة السؤال : [ أين الحق ؟ ] فكان الجواب أنه عند البراهمة ، وبعد أخذ وردّ وجدال هزى الجمع بهذا الفرنسي فخرج يتعثر في أذيال خيته ، وبينما هو سائر إذ عثر بأمرأة تبكي حظها وتدب أيامها ، فسألها : ماذا دهالك ؟ قالت : إن زوجي مات ولم أحرق معه ، وكل امرأة مات زوجها ولم تزج نفسها معه في النار فتموت تعتبر نجسة فأنا نجسة فلا يكلمني أحد ، فقال لها : وأنا مثلك لأنني رجل مسيحي يعتبرونني نجسا فاصطلحا أن يتزوجا وعاشا في النفر يشاهدان جمال الله في طلوع الشمس وغروبها وجمال النجوم والتمر وبدائع الطبيعة في البساتين والأشجار والحيوان والهواء الطلق ثم رزقا ولما .

وبما اتفق لهذا الرجل أن مرّ به سائح فأخذ يحدثه وقال له : أنت سعيد ، قال إني لم أحسن بالسعادة إلا في هذه الحياة ، فجمال الله مشرق على أطالعه في نجومه وشمسه وقمره وزهره وشجره ونهره ومائه وهوائه وتمريد طيره وحسن صنعه ، فأما في أنوار وجمال وبهاء ، وهذا ولدي قرّة عيني وعين أمّتي وقد ابتعدنا عن ضوضاء المدن ودخائها وآلامها وكذبها وقضاياها ونفانها الخ ، فقال له : كيف نلت هذه السعادة ؟ قال له : بعد أن كملت نفسي بالمصائب وصبرت على النوائب ، فالمصائب هذبتها ، والنوائب مقلتها ، وحوادث الأيام كلفتها ، وقوارع الدهر شذبتها ، فأصبحت نفسي كالجلد للذبوغ ذهب تنته وصلح عمله ، فأما الذين لم تهذبهم الأيام ولم تصهرهم للمصائب فهم أبدا في حزن وألم ، فلا اللال ينهيم ، ولا الجمال وحده يرضهم ، ولا الصيت يخدمهم ، ولا الولد يكفهم ، فهم عرضة للهوان والذلة على كل حال ، فقال له : أياها الأبخ كيف تقول إن أحوال النوائب يسعد مع أن النوائب هي الشقاء وهي للذلة وهي الهوان وهي العذاب ، وإذا لم تكن هي عذابا فأين العذاب إذن ؟ لقد جلست الجحيم نيبا ، والفتى فقرا ، وقلبت النضايا ، ولم تصب الحقيقة ، فهل يكون الليل نهارا ؟ أم يكون الظلام ضياء ؟ أم اللوت حياة ؟ إن هذا هو العجب العجيب !

فقال اسمع يا صاح : إن الجبل صعب المرتقى فإذا تحققت أن فوق هذا الجبل حريقة غناء ، وطبورا مفردة ، وأنهارا جارية ، فأنت لامحالة مرتقى إليه ، فما دمت في الارتقاء فأنت في غناء ، ولا يكون الغناء إلا حيث لم تصل إلى قمته ، ومتى وصلت إلى أعلى الدرجات ، فهناك لا ألم ولا شقاء بل هناك ما يسر القلوب ويشرح الصدور .

هكذا يكون المرء في الحياة ، فما دامت نفسه لم تصقل بالنوائب فإنه لا يزال في نصب وتعق وبهتة لها كثيرا ، فأما إذا استكملت نفسه بها فإنه لا يهتم أمرها وتمر عليه اللذات والآلام كما يمر الليل والنهار والصبح والمساء ، فحمد صاحبه له هذا البيان وأدرك ما لم يعلم في المدارس من قبل .

فانظر أيها الدكي لدين الإسلام كيف رأيت في هذه السورة أصحاب نينا صلى الله عليه وسلم بلا تلم ولا فلسفة ولا حكمة عقلية قد نالوا هذه الأمانة وأصبحوا لا يبالون بالأهل والإخوان والحياة حتى قال أبو خزيمة : [ ظل ظليل ، وتمر يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسنة ، ورسول الله في الحر وشظف السفر والله لا يكون ثم ركب ناقته ] وكيف رأيتهم يتذوقون النعمة ليشربوا الماء عليها ، وكيف رأيتهم راضين فرحين متبهجين في قلوبهم ، وكيف رأيتهم يتقدمون للوت ، فاللالم مبدول والممر مبدول ، كل هذا بتي واحد وهو الإيمان .

فانظر كيف فعل الإيمان ما يحجز عنه العلم والفلسفة والحكمة ، وكيف جهل أكثر الناس أن السعادة راجعة للوجدان والفلسفة شرحتها والقرآن أبرزها .

انظر كيف كان أكثر الناس لا يملكون « يملكون ظاهرا من الحياة الدنيا » وهم عن سعادة هذه الحياة نفسيا معرضون ، وبأسرارها جاهلون ، وعن الحقائق غافلون « والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » . ٨١ .

ذكر المناسبة بين سورة التوبة والسور التي بعدها ، وهي سورة يونس

اعلم أن المناسبة بين السورتين من ثلاثة وجوه :

[ الوجه الأول ] أن سورة التوبة لأدب الجهاد وهداية الكافرين وقسم الغنائم وأكثر ذلك في السفر أما سورة يونس فإنها لتعليم الناس وهم آمنون مطمئنون .

[ الوجه الثاني ] اعلم أن الله عز وجل علم قبل أن ينزل القرآن أن الأمم الإسلامية ستبذل العلوم وبدائع آياته في سمواته وأرضه ظهريا وبذلك بذل كثير منهم للأمم المهبطة بهم ، فلذلك يقول في آخر التوبة « وما كان المؤمنون لينفروا كافة الحج » فأمرهم أن ينقسموا فريقين : فريق للسفر والجهاد ، وفريق للتفقه في الدين .

وعلم سبحانه أن هذه الكلمة سيصطلح الناس قرونا متطاولة بعد الصحابة والتابعين على اختصاصها بفروع من المسائل ليست هي كل الفقه كما تقدم بأوضح عبارة ، فلذلك جعل هذه الكلمة في أواخر هذه السورة وأعقبها بسورة يونس وشرح في أولها ما يفيد ذلك التفقه ، شرحها شرحا مستوفيا ، يقول الله هنا لتبقى طائفة يتفقهون في الدين وليندروا قومهم الحج وينسكروا على الناس تعجبهم من إرسال أحدهم لينذرهم ويبشروهم .

ثم أخذ يبين خلق السموات والأرض واستواء الله على العرش وتدبير الأمر وأنه أضاع الشمس وتور القمر وفقدته منازل ليلم الناس الحساب ، وأبان اختلاف الليل والنهار وحذر من اليأس من الآخرة والاكتفاء بالدنيا والاطمئنان إليها والغفلة عن هذه الآيات السماوية والأرضية وغيرها ، ومدح الصالحين للهدى .

وختم هذه الجمل بأن أهل الجنة يخطمون دعاءهم بتزويدهم الله وبعمده على تربيته للعالمين . لاجرم أن هذه هي مجامع التفقه في الدين . هذا الشرح المذكور في أول سورة يونس هو عينه ما ذكرناه سابقا ونقلنا معناه من كتب اللغة ومن كلام الإمام الغزالي .

إن الله عز وجل ليس عن الخلق غافلا كما قال « وما كنا عن الخلق غافلين » وسترى إن شاء الله عند تفسير هذه الآية كيف عرف علماء العرب عجائب هذه الدنيا التي هي داخلة في هذه الآيات القرآنية ، وعسى أن تطلع هناك على بدائع ألوان الحيوان وأشكاله التي عرفها القوم وعرفوا أن تلك الألوان وتلك الأشكال إنما خلقت لتكون وقاية لتلك المخلوقات الضعيفة من أعدائها القالات ، فترى الحشرة تخلق على هيئة حصاة من حجر الصوان مثلا ليجهلها الطائر الذي يبيس عليها فتبقى محفوظة إلى أمد .

فهكذا هنا ألهم الله الإمام الغزالي قبل نحو ٩٠٠ سنة أن يذكر العلماء بعده بأن الفقه الذي لم يعرفوا سواء إنما هو فقه اصطلاحى ، ولكن التفقه للذكور هنا غير ذلك وقد عرفته وعرفت أيها التلميذ أنه يرجع في أكثره إلى أمرين اثنين : تهذيب النفس وإثرائها بالعلم .

وهذان الأمران هما للذكوران في سورة القاعة التي ابتدئت بهذه الجملة « الحمد لله رب العالمين » ولفظ « العالمين » يشمل العالم العلوى والسفلى ، وهو مبسوط في تفسير القاعة .

جميع العلوم التي عرفها أهل أوروبا وأمريكا وبلاد اليابان هي إضافة في قوله « الحمد لله رب العالمين »  
أفلا تتعجب من كيف ذكرت الجملة بنهايتها في دعوى أهل الجنة ولم تذكر بهذه الهيئة بعد القاعة إلا هنا  
وفي أثناء سورة الأنعام التي ذكر فيها عجائب السموات والأرض ، لا يحمد الناس محسنا عليهم إلا إذا  
عرفوا نعمته وعلى مقدارها يكون إعظامهم له بقلوبهم وقيامهم بقضاء حوائجهم بموارحهم وثناؤهم  
عليه باللسان .

فهنا ثلاثة أمور : إعظام بالقلب وحب وهذا بالنسبة لله مطلوب ، ولكن ليس هذا بالتكليف وإنما  
هو نتيجة الشعور بالنعمة والقيام بقضاء الجوارح والأعمال هنا في حق الله مستحيل ، ف يرجع ذلك إلى  
الإخلاص في خدمة الناس والعمل لإسعادهم . أما التناء باللسان فلإنما هو وظيفة اللسان ، فاللسان هو آخر  
أواع الشكر الثلاثة .

إذن الحمد نتيجة من نتائج الإنعام المذكور في قوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » ولما أنعمت  
عليها وعرفوا العنة قاموا بإعطائك بقلوبهم وخدموا أمهم ونطقوا بالتناء عليك فقالوا « الحمد لله رب  
العالمين » وهذه الجملة مذكورة هنا لذكيرنا بنعم الله ؛ وبجارية أخرى : لتذكير المسلمين بقراءة مجاب  
السموات والأرض التي ذكر منها هنا الشمس والقمر والحساب وتقدير للازل الخ .

فهذه كلها من تربية الله للعالمين ، فسورة القاعة تاء ودعاء ، والتناء في أولها بالحمد وفي قسم الدعاء  
سبب الحمد وهو النعمة ، ففي القاعة ذكر السبب بعد السبب ، ثم أقول ها . فكالم ينزل الله عن الحشرات  
وأواع الحيوان خلقها على أشكال وهيئات تكون سببا في بقائها إلى أمد .

هكذا هو حظ الأمم الإسلامية الحقة قبل أن يخفها فها لها الأسباب ونظم الكتب وألم العلماء  
فشرحوا لفظ التنقيح مثل ما رأيت من الإمام النزالي وبق ذلك في الكتب المذكورة والناس عنه غافلون ،  
وبق الحلف يتبع السلف تسعة قرون والأمم من حولهم يعلمون وهم بأنهم .

وأول ضربة وقعت على عالم بعد موت الإمام النزالي تلك الضربة التي وجهت إلى العلامة ابن رشد  
إذ كفروه لأنه مع ما بينه وبين النزالي من الخلاف واقفه في أن هذه العلوم كلها هي التوحيد وهي المطلوبة ،  
فأذاه للسلمون وأهانوه ، ويقال إنهم بصقوا في وجهه ، ومرة طردوه من المسجد ، وأمر الملك بنفيه من  
العاصمة إذ ذاك بالأندلس ، وبق في بلدة لا يسكنها إلا اليهود احتقاراً لشأنه ، ثم رضى عنه ومات بعد قليل  
فتنافس العلم من بلاد الإسلام وذلك للسلمون في أقطار الأرض ذلاً عظيماً ، ذلك لأنهم جهلوا التنقيح في الدين  
الذي أمر به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعرفوا كيف يندرون قومهم ويشرحونهم ، بل عكفوا على  
تشويه من العلوم .

يقولون للمسي إذا دخل المدارس الدينية اقرأ فروض الوضوء ويطيلون في ذلك إطالة ويجعلون كل حياته  
في ذلك ولا يظهرون له جمال الله وعجائبه وبدائع صنعه ، ولا يشرحون له شرحاً مستقيماً إخلاف الوعد  
الحقد والحسد وما أشبه ذلك ولا يهذبون نفسه ، وصار ذلك خلقاً في الأمة الإسلامية فدلوأذلاً عظيماً وفقدت  
الإنسانية القائمة هذه الأمة للسكينة ، فلم تنفع نفسها ولم تنفع الناس وصارت عالة على الأمم فأذلوها كما فعلت  
النحل في قبيرها ، إذا ترى ملكتها القائمة بتدبير ملكها قد حصل لقاحها حملت وهناك في القفير ذكران  
النحل فتحمل سكان القفير من النحل للذكور على أولئك الذكور من الوجود لأن الله لا يبق في خلقه  
مالم يعمل له .

هكذا الأمم التي خلقها الله لما رأته الأمم الإسلامية غافلة جاهلة حملت عليها فأخذت بلادها وجعلتها تحت

إسرها إلا تلك الأمم التي استيقظت كالترك وكالفرس وكالأعنان فإنها لما استيقظت هذه الأيام أخرج الله منها الفرنجية « وإن عدتم عدنا » .

أقول فمضى النفع الذي شرحه الإمام الغزالي بقي في الإحياء وقد نام عنه المسلمون ، ناموا عنه نوماً عميقاً ماتت العناء والفسكرين ، وبقي المسلمون بعد تلك القرون مكغيبين بعلوم الصوفية حتى إنك ترى العلامة محيي الدين بن عربي قد أدخل جلّ الفلسفة والدين في كتابه [ الفتنوحات المسكية ] وخلطه بالتصوف حرصاً على العلم ولم يرد أن يعلمهم الفلسفة والعلوم الحسكية وبدائع السموات والأرض لأنها كفر عندهم وقد رأوه فوق طاقهم فأعطى المسلمون حتى جاء العصر الحاضر فأعان الله على هذا التفسير وأعان غيري على تأليف كتب في ذلك ، وهذا أو ان مرقى المسلمين .

فلن يقدر صفار العلماء على الظلم في عالم ولا مفكر لأن الأمم المتعلمة أحاطت بالمسلمين من كل جانب فليس يقدر أحد من جهلة المسلمين على مناوأة ما يكتب الآن لنشر العلوم والنفع في الدين الذي شرحه أسلافنا وغفل عنه من بعدهم فحين تستأنس بكتابهم ليعلم المسلمون أن هذه الآراء التي أذكرها في هذا التفسير ليست حديثة بل قالها آباؤنا ونام عنها من بعدهم ، وأن الله عز وجل أراد إيقاظ الأمة اليوم ولا أراد لما أراد وستبقى هذه الأمة أمداً يعلمه الله وسيحفظها كما حفظ تلك الحيوانات الضعيفة فإنه يقول « وما كنا عن الخلق غافلين » .

وإني أسأل الله عز وجل أن يوفق عند تفسير هذه الآية برسم صور تلك الحيوانات التي حفظها الله بسبب أنه خلقها مشاكلة لما حولها من شجر أو حجر أو مدر لتعلم أنه هكذا سيفعل بأمة الإسلام فيحفظها لأنها ستكون مشاكلة للأمم في علومها ومعارفها بل ستكون هي الأرقى .

فتبين بهذا أن النفع في الدين قد جاء ملخصه في أول سورة يونس ليعرف هذا المعنى للمسلمون ويخرجوا من جمودهم القديم إلى مجدهم الحديث ويقروا بجميع العلوم ويعرفوا آيات ربهم وينرحوا بحمالة وتعمر بلادهم وهم مبهجون .

وسترى أيها القدي في سورة يونس من عجائب إنقان الصنعة الإلهية ما يبهر الأبصار كالصور الكوكبية المرسومة بالصور الشمسية وكذلك الصناعة البشرية التي وضعها قدماء المصريين في معابدهم وفرق جنتهم المنطة؟ وكيف أبدع الله مئات آلاف من المجرّات التي كل منها تشتمل على مئات آلاف الآلاف من الكواكب وعرف الناس أبعادها إجمالاً ، وكيف عرفت ذلك الأمم حولنا فرسمت بعض الصور السماوية بهيئة جملة تسمى الناظرين ، وكيف حذر الله من الغفلة عن آياته سواء أكانت بصنع يديه كالصور السماوية أو بصنع عباده كقطعة تلك البروج التي سترها برسم قدماء المصريين .

وهذا قوله تعالى في سورة يونس « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » هذا تمام الكلام في الوجه الثاني من وجوه للنسبة بين السورتين .

الوجه الثالث : حتم الله التوبة بأنه جاء الناس رسول من نوعهم تمز عليه مشقتهم حريص على إيمانهم روف رحيم بالمؤمنين منهم . ثم تلا ذلك في أول يونس بأن هذا الكتاب الذي جاء به كتاب ذو حكمة وقل « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » فهذه الآية تكلمة وتتم لآية آخر السورة هنا . وليس في القرآن من سورة مبدؤها يوافق نهاية التوبة إلا سورة يونس فظهرت للنسبة بين السورتين .

وهذه المناسبة كالتى بين سورتي الطور والنجم ، فى آخر الأولى « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وفى الثانية « والنجم إذا هوى » وكأخى للأئمة وأول الأنعام إذ يقول فى آخر الأولى « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » إلى قوله « قد ملك السموات والأرض وما فىهن وهو على كل شىء قدير » ويقول فى أول الثانية « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » إلى قوله « يعلم سرركم وجهكم الخ » فخلق السموات والأرض راجع لقوله « قد ملك السموات والأرض » و « يعلم سرركم وجهكم » راجع لقوله « تعلم ما فى نفسى الخ » وهذا القرآن لانتفضى عجائبه ولا تنتهى غرائبه ؛ والحمد لله رب العالمين اه .

تسكلة للكلام فى مناسبة آخر سورة التوبة بأول سورة يونس

الفقهاء فى الإسلام فى الماضى وفى الحال والاستقبال

مرّ بك أيها الذكى الكلام فى هذه المناسبة وأنها من ثلاثة وجوه ، ومن أهمها أن التفقه فى الدين جاء فى آخر التوبة ، وجاء بعدها فى الترتيب سورة يونس ، وجاء فى أوائلها ذكر ضوء الشمس ونور القمر إلى آخر ما مرّ ، وأنبئه الآن بذكر ماضى الفقهاء وحاضرهم ومستقبلهم .

ألهم إن الحكمة والعلم آمن ما فى هذه الدنيا وخير العلوم ما به يعرف الإنسان قيمة نفسه وخير ما يكتبه المفكرون فى الإسلام البحث فى أحوال أمة الإسلام وعاداتها وأخلاقها ، وهأناذا باحث فى الفقهاء بما يناسب المقام .

الفقهاء فى عصر الصحابة

لقد كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كما مرّ بك من كلام الإمام الغزالى يعدّون الفقهاء أنهم هم أولو الألباب « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » ويعدّون نعم الله عليهم « ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » وهم الذين « تتجافى جنوبهم عن الضامع يدعون ربهم خوفا وطمعا الخ » .

الفقهاء بعد الصدر الأوّل

ذهب الصدر الأوّل فتضائل التفقه فى الدين وأحاز إلى ما هو معروف اليوم من الفروع العملية للكتبة من أدلتها التفصيلية ، فأما ما عدا ذلك من خشية الله وحبه والولوع به والتفكر فى جماله فذلك قضى عليه القضاء الأكبر وصار نسيا منسيا ، وهذا هو العصر الذى كان فيه الإمام الغزالى فى القرن الخامس الهجرى وقبله وبعده للآن .

الفقهاء فى زماننا

قد قلت لك قبل هذا إن أكابر علماء الإسلام قاموا على تلك الطريقة العقيمة المنتشرة فى أنحاء الإسلام إلى اليوم ودمتوها وشنعوا على القائمين بالدين ، ولكن رؤساء الدين فى الإسلام لم تزعمهم تلك الصيحات ولم توقظهم تلك المنبهات ولم يغيروا نهجهم بل الحلف يتبع السلف ، و« كل حزب بما لديهم فرحون » فتبع السنى ، والشيعى الشيعى ، فالحنفى والشافعى والمالكي والحنبلى والزيدى والإمامى ، كل هؤلاء عاكفون على ما درسوه عن أسيادهم موقنون أنهم أهدي من غيرهم عملا وأشرف أملا نابذين ما عدا ذلك بما ليس لهم به علم حافظت الأمة على حصر أفكارها فى واد ضيق فنام المسلمون نوما عميقا أدّى إلى اضمحلالهم لإقليلا منهم فهم مستيقظون .

ثم اتسع نطاق التسمية بالفقيه فلم يقتصر الناس في التسمية به على من يحفظ أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيوع والرهن والسلم والإجارة والوديعة والهبة والميراث والدعاوى والعنق والحليض والنفاس الخ ، بل صار هذا الاسم يطلق على كل من حفظ القرآن عن ظهر قلب وإن كان من أجهل الجاهلين ، وهذه طريقة منتشرة في بلادنا المصرية يسمون من حفظ القرآن بقية وإن لم يدرك من معانيه حرفا واحدا .  
وأقده يقول « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » وفي الحديث « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينك فلت تقرأه » وهذه التسمية لهذه الطائفة التي هي أعم من سابقها قد تكون مصحوبة باحتقار نوعا ما واستهزاء لسببين :

السبب الأول : أن هؤلاء غالبا كانوا قبل الآن يملون بالعسا والإذلال فتدل نفوسهم ونحنج .  
السبب الثاني : أن النفوس الإنسانية فيها نور إلهي عام تخترق الحجب وتعرف بعض الحقائق وإن لم تحسن التعبير عما تعقل فهنا يظن العامة أن هذا الفقيه لحفظه القرآن عنده علم وفي الوقت نفسه تعلم نفوسهم أن قيمته العلمية منحة ولكن لا يحسنون أن يجروا عن ذلك .

#### آثار ما تقدم في الإسلام

فانظر كيف كانت الأمم الإسلامية صورة مكبرة لعمقها ، فلما كان في الصدر الأول أمثال أبي بكر وعمر كانت الأمة شامخة الرأس عزيزة الجانب ، ولما صار الفقيه محصورا في الفروع في الأزمان المتأخرة أو حافظا للقرآن صارت الأمم الإسلامية كلها صورة مكبرة لعمقها ، فسكا عكف الفقهاء على حفظ السور أو على حفظ الفروع وغفلوا عما سواها ، هكذا الأمة غفلت ونابت ثم ذلت وخضعت ، ذلك هو تاريخ الأمم الإسلامية وقهاها قديما وحديثا .

#### الفقهاء في مستقبل الزمان

أما الفقهاء في مستقبل الزمان في أمم الإسلام فإنهم سيكونون أشبه بالحكام في أمة اليونان ، فيكون الفقيه في دين الإسلام هو المتمكن من العلوم الطلع على حقائقها الباحث للدقيق ، فإذا قرأ سورة يونس بمد التوبة كما تقدم بحث في الشمس والقمر والنازل للذكورات في أول السورة وأتبع ذلك بفهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وينادي في فهم يونس إلى أن يرى في آخرها أن الله نجى أجساد بعض الفراعنة لتكون تلك الأجساد البالية والمظالم النخرة المحفوظة في الأبنية للشاهدة عبرة للأمم المتأخرة فيدهش ما يرى في مصر ( كما استراه موضعا في سورة يونس قريبا ) من إقبال الأمم من أعيان أمريكا وانكلترا وفرنسا وألمانيا على الاعتبار بتلك الجثث المنطة والتفكر في تلك الصناعات العجيبة والدروس الشائقة النيفة وغرائب العلم وعجائب الحكمة والرسوم الفلكية المرسومة في محال عبادتهم وعلى السناديق التي فيها أجسامهم ( وستنظر هذا هناك قريبا ) وإذ ذاك يقول هذه من معجزات القرآن لأن الله لم يذم المرصين عن آيات الله إلا في موضعين في يونس :

الأول : عند ذكر السموات والأرض في أول السورة .

الثاني : عند ذكر الاعتبار بأجساد الفراعنة وأنها من آيات الله ، وهذه الآيات لم يفكر فيها الناس إلا في هذه الأيام ، إذن هذه معجزة قرآنية .

ثم ينتقل من ذلك إلى أن يحض الأمة على الاعتراف من محور علم الأوائل من أي دين ونحلة وأمة حتى إنهم يدرسون خرافات الأمم وأساطيرها ليستفعلوا منها الأخلاق والآداب التي كانت أعليها تلك الأمم فتريد

المقول حكمة والغوس علة ، فبالأولى يدرسون رسوم مبادئها وعندستها وعلمها وحكمتها ويفعلون ما نفعه  
ألمانيا اليوم وبقية أهل أوروبا فإن لهم طوائف خصصوا كلامهم لعمل أولعلم أولنا ربح أمة كما تعلم علم اليقين  
أن أهل ألمانيا عندهم قوم مختصون بالبحث عن علماء الشرق الأدنى مثلا وهكذا فالمسلمون أولى بهذا لأن  
الله يقول « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس الخ » .

[نظر الفقيه في مستقبل الزمان في سور أخرى من القرآن] ثم إذا قرأ سورة هود بعد سورة يونس  
وجدها قد جاء في أوائلها شيء عجب ، ذلك أن الله ضرب مثلا لبيده في خلقه بالملك على عرشه ، فإذا  
كان الملك يدبر أمر الرعية ويحافظ على ثنورها وتجارتها وزراعتها وسياساتها ، فهبنا قبيل ذكر العرش  
يقول « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » فيضاهي  
الفقيه إذن بين عرش الملوك وعرش ملك الملوك .

فعرش الملوك لدير الجبوش وحفظ الثغور والبلاد الخ ، وعرش ملك الملوك انظام السموات والأرض  
وإغداق الرزق على الحيوان والإحاطة به علما والمحافظة على حياته والتكامل به في غدوه ورواحه ، ثم يرى  
هذا الذي يدخل في قصص السورة كقول هود « إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ  
بأصنئها إن ربي على صراط مستقيم » ومن استقامة صراطه أن يأخذ بناصية الدواب وبناصية الإنسان .  
فكل حتى تكفل الله به لافرق بين الإنسان والحيوان .

ثم يتأمل الفقيه إذ ذاك فيقول : لماذا ذكرها هود وقد ذكرت في أول السورة ؟ ثم يجب على ذلك  
بأن علوم الحيوان في زماننا مدهشة عجيبة .

مثل ذلك ما استراه في سورة المؤمنون في قوله تعالى « ولقد خلقنا فرقكم سبع طرائق وما كنا عن  
الخلق غافلين » فإنك ستري هناك ما لا عين رأت من عيون الغافلين ، ولا أذن سمعت من آذان للتكبرين ،  
ولا خطر على قلب الجاهلين من حكم غالية وجواهر باهرة وغرائب مدهشة ، إذ ترى هناك رسوما شمسية  
لأشكال حيوانية :

(١) كفراش ذى أجنحة تشبه في صورتها ولونها وشكلها أوراقا جافة منبوذة .

(٢) وكروع من الحشرات قد وقع على جذع شجرة عتيقة والتصق بها فيظن من يراه أنه غصن ضخم  
من أغصانها قد قطع من أعلاه حديثا .

(٣) وكردود الفراش اللون باللون الظاهر الباهر حتى يقينه كل ناظر ويعرفه كل صادر ووارد وهكذا  
من كل شاردة غريبة ونادرة عجيبة سترها هناك برسمها إن شاء الله ، وتطلع على سر هذه الأشكال وضرب تلك  
الأشكال وتفهم فهمها حقا معنى « وما كنا عن الخلق غافلين » وأن الفراش ذا الأجنحة التي تشبه الورق الجاف  
إنما خنقت على هذه الصفة لتكون تلك للشابهة وقاية لها من الطيور التي تصطادها فعيش عليها . ففى مرت  
عليها لم تميزها من الورق الجاف فلا تصطادها ولا تغترسها .

وأما الحشرات الوافمة على جذوع الأشجار للناسبة لأغصانها فكذلك للاحتراس من أعداء  
تلك الحشرات .

وأما للسئلة الثالثة فذلك أن هذا الدود الذي ظهر والكشف بلونه وجسمه وتميز عن الشجر المحيط به  
فإنما ذلك لأنه كره الطير قد حربه الطير القترس قديما فسكره ، فذلك منحه الله لونا زاهيا ليكون ذلك  
اللون علامة للطير الآكلة للحشرات تمررها أن هذا طعمه كره فتجنبه مجرد منظره ولولا هذا اللون  
الذي به امتاز ذلك الدود لكان دائما محط أنظار تلك الطيور فتأني إليه فتذوقه وتريد أكله فلا تقدر  
فيكون الطير في شغل بما لا يتفهم ، وذلك الدود دائما خائف وجل من ذلك .



بهذا يفهم الفقيه قوله تعالى في سورة هود « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » ويفهم لماذا أعاد هذا للمنى هود في قوله « إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فمن درس هذه العلوم وأنتهزها أيقن أن الله نظر لكل حيوان نظرة خاصة وأعطاه شكلا ولونا وحجما يوافق كل للواقفة حاله .

فإذا عرف ذلك الفقيه عرف أننا معانر بنى آدم لسنا في حجاب عن نظر الخالق لنا ، فإذن هو يعامل كلامنا معاملة خاصة تناسب أحواله نتيجة نافعته له .

فإذا رأينا لون الحيوان لحكمة وشكلا لحكمة حتى إنك ستري في تلك الآية أن من الحشرات ما إذا جثم على ورقة أو غصن يرى على شكل زرق الطيور وذلك الشكل جدل وقاية له من الطيور الآكلات له ، فهذه الحشرات حين وقعها على شجر أو ورق أو حجر لا تلتمعها الطيور ، وكيف تلتمع ما لا تشك في أنه رزقها ، فهذا يبين الفقيه أن الله حقيق بالتوكل عليه ، وأن كل ما نحن عليه من عز أو ذل أو حزن أو فرح أو إقامة أو حال لله فيه حكمة تفضل عنا كما تفضل تلك الحكمة عن تلك الحشرات التي أشبهت زرق الطير لو كانت ذات عقل ووقت : لم خلقني يارب على شكل زرق الطيور ولم تخفني بهيمة كالجياح لله في ليل الظلام؟ فهذا يفهم الفقيه الإسلامي لماذا قال هود بعد قوله « إني توكلت على الله الخ » « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فإن أخذه بنواصي الدواب كما علمت وكما ستعلم عند تفسير آية سورة « قد أفلح المؤمنون » دليل على أنه آخذ بنواصي كل امرئ من بنى آدم وأن كل عمله فينا لحكمة تفضل عنا فلتوكل عليه .

وذلك الفقيه إذا قرأ أمثال ما سمعت الآن في الطير وغير الطير في موسوعات الكتب الفرجية كما افق لي في هذا القام يأخذه العجب كل مأخذ لأمرين :

[الأول] أن أم الفرجية للتأخرين قد برعوا في تلك اللماي التي هي حقا وصدقا تضمنها القرآن ولللمون غفلون .

[الثاني] أنه يدهش حين يرى القوم يشرحون تلك العلوم لعات العلوم فتسع قرائعهم وتتمو دولهم ويزيد رزقهم وليسهم ( كما رأيت أنا ) لا يكترون بذكر أنها فعل الخالق ، ولا بأن ذلك دال على جماله وحكمته إلا قليلا جدا مثل ما يذكره ( اسبنسر وأوليفر لودج ) و ( الورد أفيري ) وأمثالهم ، فهؤلاء يذكرون الخالق تبارك وتعالى عند ذكر بعض هذه المعجائب ، وأكثر القوم لا يهتمون بذلك ، وعليه سيكون قتهاء الإسلام محلين للأوروبيين في طريقة تدريس هذه العلوم ويصنعون في العلوم كما صنعوا بوجه ما في هذا التفسير فيجب الناس صانع العالم ويفرحون بالعلم غراما دائما ، هذا ما يراه الفقيه المستقبل في سورة هود .

ماسيراه الفقهاء الإسلاميون في سورة يوسف بعد هود

فإذا قرأ ذلك الفقيه سورة يوسف سمع الله يقول « لقد كان في يوسف وإخوانه آيات للسائلين » وأخذ يبرد نظام آداب يوسف في بيت العزيز إذ عفا عن الشهوات ، وهذا هو تهذيب الشخص وآدابه في السجن إذ أحسن للصاحبة مع المسجونين من المصريين وأخذ يعظهم ويدعوهم للإيمان وهذا أشبه بتدبير للزل ، ثم قبض على أزمة الأعمال العامة في الأمة المصرية والاقتصاد وتدير الدولة ، فكان هذا هو السياسة العامة وهذه هي نصف علم الفلسفة ، لأن الفلسفة فحان : قسم علمي ، وقسم عملي .

القسم العلمي : هي الرياضيات والطبيعات والإلهيات .

القسم العملي : تهذيب الشخص وتدبير المزل وتدبير المدينة .

فهذه الثلاثة هي القسم العمل ، وهناك يسمعه بناجي ربه شاكرًا له إتمامه عليه بالملك والحكمة الخ ،  
وطالبًا منه وفاته على الإسلام ولحوقه بال صالحين .

ومن هذا أن الفقيه يقتدى بيوسف في الحكمة العملية بأقسامها ، وبعد تمام النعمة يشكر الله  
على نعمه التي أفاضها عليه ويشهد له بإبداع السموات والأرض ثم يطلب الثبات على الإيمان واللحوق  
بالصالحين .

فإذا عرف هذا الفقيه في الإسلام أخذ يبحث في تلك الآيات في أول السورة والآيات في آخرها أي الآيات  
التي قبل قصص يوسف والآيات التي بعد قصته بنامها فيجد عجبا ، يجد أن التي في أول السورة جاء فيها أن  
هذه القصة فيها آيات للسائلين ، وأن التي في آخرها جاء فيها « وكأن من آية في السموات والأرض يمرّون  
عليها وهم عنها معرضون » هنالك يأخذ في الفهم ويقول :

يقول الله تعالى إن قصص يوسف إنما هو آيات للذين يسألون ولكنه في آيات أخرى يقول « إن في  
السموات والأرض لآيات للؤمنين » ويقول : إن خلق السموات والأرض من آياته واختلاف الألوان من آياته  
والشمس من آياته والقمر من آياته وهكذا كل مخلوق هو من آيات الله ، ويقول  
نارة إنها للمتفكرين ، ونارة للمؤمنين ، ونارة لمن يعقلون ، ونارة يقول إنها آيات لقوم يعقلون أو يقول  
« للعالمين » بكسر اللام ، ونارة يقول بعدها « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولكن في هذا القصص  
لم يذكر معه إلا السائلين عنه ، وإذن يفهم الفقيه أن هذه القصة إذا كانت آيات للسائلين فهنالك آيات  
لا تخص السائلين بل تتم العلماء والمفكرين ، وهي التي في السموات والأرض والناس يمرّون عليها  
وهم عنها معرضون ، إذن الآيات قسمان : قسم مسوع وهذا لمن اعتادوا أن يأخذوا العلم بالسمع  
والقليد والاعتبار .

وهذا القسم من العلم المسوع يفرح به الجاهل ويحتر به العالم ، فهو لجاهل علم ، ولدى العقل اعتبار  
كما قال تعالى « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » أما القسم الآخر وهي الآيات المقولة فهي درجات  
بعضها فوق بعض للمؤمنين نارة وللعلماء آونة .

ثم ينظر في سورة يوسف فيجد أن هذه القصة ليست كل آيات الله بل هناك من الآيات مئات ومئات  
في مئات لا تحصى قد أعرض الناس عنها ، بل من الآيات ما يختص بالعلماء الذين يدرسون العلوم كما سيأتي  
ذكره في سورة الحجر في قوله تعالى « وأنبأنا فيها من كل شيء موزون » إذ نظام الأوراق وأنه موضوع  
بحساب رياضي هندسي له جداول متناسقة بديعة تشمل أوراق الفصائل النباتية مرتبة كترتيب تلاميذ المدارس  
في الفصول كما ستراه مرسوما مشروحا موضعا .

هنالك يأخذك أنت وبأخذ الفقيه العجب إذ يرى نظاما يجهله جميع أهل الأرض إلا علماء النبات .  
فهؤلاء عرفوا نظام الأوراق وجداوله المنتظمة والدوائر المنتظمة على عدد من الأوراق معلوم مرسوم  
بأشكال حلزونية لها أعداد خاصة متناسبة كل المناسبة مع أوراق وأشكال النباتات الأخرى .  
ثم يرى هو وترى أنت أن هذا كله معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى ومن الأدلة البديعة على إبداع  
وإحكام صانع هذه الدنيا .

ثم بعد ذلك ينظر نظرة أخرى فيقول : اللهم إن هذا العلم اليوم غير معروف في بلاد الإسلام اللهم إلا لمن  
تعلموا علم النبات تعليما تاما ، وهؤلاء لا يعرفون شيئا من الدين إن وجدوا في الشرق واختصت هذه المعرفة  
بالعلماء بهذه العلوم .

اللهم إن قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للمالين » لم يظهر أكبر سره إلا في عصرنا ، فإن اختلاف الألوان والألسنة لم تظهر خبايا سره إلا في هذه الأيام ؛ إذ استبان أن ألوان الحيوان لها آثار في حياتها كما تقدم بعضه في هذا المقال وكما سيأتي في قوله « وما كنا عن الخلق غافلين » وفي غيرها ، إذن سرّ القرآن يظهر في هذا العصر .

من ذا الذي كان يظن أن للألوان أثرا في حياة الحيوان ، ومن ذا الذي كان يعرف أن جمال الزهرة سائق وداع للحشرة أن تدخل ازهرة فتشرب عسلها ، من ذا الذي كان يعرف أن الحشرة التي تماثل زرق الطير لونا وشكلا قد جعل ذلك فيها لحمايتها وحفظها وقائها ؟ .

حقا حقا ! إن هذا لا يفهمه إلا علماء قد اقتصوا بهذا الفن ، إذن هذا سرّ قوله تعالى « إن في ذلك لآيات للمالين » .

ولا جرم أن هذا من الآيات التي ليست للسائلين الذين لم يشترط فيهم أن يكونوا علماء بل هي آيات العلماء بهذه العلوم ، وهذه معجزة جديدة يسجلها العلم للإسلام . هذا ما يفهمه الفقهاء في المسلمين بعدنا في سورة يوسف .

نظر الفقيه الإسلامي في سورة الرعد بعد سورة يوسف

ثم ينظر نظرة في سورة الرعد فيجد أن الآيات الإلهية التي لم يذكر منها في سورة يوسف إلا التنبيه عليها والحث على الإقبال عليها قد كثرت في سورة الرعد كرفع السموات بغير عمد ، ثم تمثيل عظمة الله وسلطانه بما يشاهد الناس في الدنيا من عروش الملوك وتدبير الجمهور ونظام المدينة فقال « ثم استوى على العرش » ثم أخذ يفصل تدبير الملكة وحسن نظامها فأبان أنه ليس هذا العرش كعروش ملوك الأرض الذين ينظمون للمالك إلى آخر ما تقدم في السور السابقة في هذه المقالة بل هنا « سخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » فأما ملوككم فأعلى ما تطلبه عروشهم وغاية ما يقصده وزراءهم أن يسخروا الأمم لشهوانهم ويقودوا الجنود لتسخيرهم ، فلا مناسبة بين الملوكين كما لا مناسبة بين التسخيرين .

ثم ذكر أنه مدّ الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا ونباتا مكثونا من ذكر وأنتى ، وفي الأرض أماكن متجاورة مختلفة التربة للنظام العام ، ثم ذكر البرق والرعد والسحاب وأنه إذا كان الناس يخضع بعضهم لبعض بحسب القوة والضعف حتى إن التليل ليخضع للقوى منكم .

فهاهو الله يسجد له من في السموات والأرض وطائفة من الناس كما في ملوككم ، وهناك سترى ويرى الفقيه الإسلامي بعدنا قوله تعالى في تلك السورة « وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير للتمال » وبطلع على المقادير الحسائية والهندسية في العوالم المختلفة ما بين علوية وسفلية لاسيا ( القطع الثلجية ) التي لحظها القوم في الجهات الشمالية إذ أنك سترى هناك أشكالها الهندسية المسدسة البديعة النظام المتلازمة المبهجة التي عدوها بنحو الألف وقد رسموا منها جملة صالحة ، وهذا الذي رسموه ستطلع عليه وتعجب من أن التسديس تام في كل شكل مع أن كل واحد من تلك الأشكال اختص بحكمة بحيث إنك لا ترى شكلا منها مع آخرها في التسديس يوافق الآخر في إبداعه ونقشه ورقشته وبهجته وحسن نظامه فبعضها ترى أضلاعه كأنها أغصان محلاة بالأوراق متقنة الصنع مع أن كل مسدس من تلك المسدسات فيه ٦ مثلثات متساويات الزوايا كل زاوية ثلثا القائمة (١٢٠) درجة .

وهكذا سترى هناك حجاب القطع المتجاورات حتى أن امتزاج الرمل ببعض المواد كانت منه أنواع الزجاج القمر والمهدب في وجه أو في وجهين وتنتج ذلك في منافع الإنسان من تقريب الأشكال تارة وتكبيرها

أخرى ومنافع ذلك في إصلاح خطأ الأنظار في عيني الإنسان ، وهكذا ترى رسوم تلك الزجاجات ومحجتها مما يشرح الصدر وبه يهنا الحكماء .

نظر الفقيه في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ثم ينظر الفقيه الإسلامى في سورة إبراهيم فيجد أنه تعالى في أول السورة أفاد أنه أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولم يخص الناس بالعرب بل الأمم كلها هم الناس ، وقال في هذا الصدد إن الله أمر موسى أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور إذن موسى لقومه .

وهذا هو الذى حصل الآن ، فإن الدين يتبعون موسى في شريعته هم قومه وحدهم الآن ، وإن كان التوحيد ليس خاصا بهم فنحن اتبعناه وانبعا رسولنا صلى الله عليه وسلم في التوحيد ، أما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد قال الله فيه « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » فإذا نحن جثنا في الأرض بعد نبينا للناس كافة لا لأئمة وحدهم .

لهذا انتشر المسلمون في الصدر الأول في الكرة الأرضية ولم ينتشر الدين اليهودى إلا في بني إسرائيل مع أنه قد نسخ بالبعث المحمدى .

وسترى في تلك السورة عجائب التذكير ، جاء موسى لإخراج قومه من الظلمات إلى النور بنص الآية وجاء نبينا صلى الله عليه وسلم بعده كذلك لإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

ثم إن موسى ذكر قومه بأيام الله وهكذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مأمور أن يذكر قومه بأيام الله .

وسترى ويرى الفقيه في سورة إبراهيم ما الذى به ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من أيام الله للمسلمين كما ذكر موسى قومه بأيام الله من أنهم كانوا أدلاء عند فرعون وقومه ثم نجوا من ذلك وأسم الله عليهم ثم ما الذى يجب على علماء الإسلام بعدنا من تذكير شعوبهم بأيام الله في كل أمة بحسب الواقع التى حصلت لها وكيف تعتبر الأمم الإسلامية بتاريخها وسترى هناك النموذج الذى ذكرته للأمم الإسلامية من تاريخها العام من عصر النبوة إلى الآن .

وكيف كان جهل ملوك الإسلام وعلماء الإسلام في القرن السادس والسابع إذ هجم التار والتغول على المسلمين وهم قد جهلوا علم الجغرافيا وعلم تعداد الأمم وأحوالها كما ظهر جهل أمتنا المصرية من أمرائها وعلمائها إذ دخل نابليون البلاد وهم كانوا يظنون أنهم أقوى من أوروبا كلها لجهلهم بعلم الجغرافيا وقد « فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » فهزم جمعنا في أقل من ساعة من الزمان ، ذلك كله لجهل العام « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

هكذا سترى هناك كيف أراد الفرنسيون أن يختاطوا للناس عند وقوع الطاعون الذى هو من تربيتنا ومن نظام ديننا وله في الأحاديث النبوية والآيات القرآنية شأن عظيم ، فأخذ الناس يفرون من القاهرة لاعتمادهم وعلمائهم أن هذا ليس من الدين مع أنه في الحديث المذكور في قصة سفر عمر رضى الله عنه في بعض غزواته ، وكذلك في قوله تعالى « أم ترى إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » .

ثم سترى ويرى الفقيه الإسلامى بعدنا في سورة إبراهيم المذكورة ذكر العلماء من أوروبا بعد ذهاب دولة الإسلام الذين علموا الناس علوما وصناعات تقنعهم من ابتداء نهضتهم التى جاءت على أفاض دولتنا الإسلامية العلية إلى زماننا الحاضر .

كل ذلك هالك لندكر الناس بأيام الله في زماننا كما ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم الأمم في زمانه  
وكما ذكر موسى قومه وكما يذكر فقهاء الإسلام بعدنا أنهم « ليطهره على الدين كله ولو كره المشركون »  
والحمد لله رب العالمين .

هذا ما قصدت ذكره هنا من آراء فقهاء الإسلام الذين سيكونون بعدنا وهم الذين سينير الله بهم أمة  
الإسلام وغير أمة الإسلام تحقيقاً لقوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

[ تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الخامس من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ]  
وبالله

الجزء السادس ، وأوله : سورة يونس عليه السلام

## فهرس

## الجزء الخامس من كتاب تفسير الجواهر

	صفحة
٢	تفسير سورة الأنفال وهي تشمل على خمسة أقسام : مقدمة السورة .
٣	ذكر موجز في ملخص السورة السابقة ، ولماذا رتب هكذا إلى هذه السورة .
	[ القسم الأول ] « يسألونك عن الأنفال - إلى قوله - ورزق كريم » .
٥	التفسير اللفظي .
	لطائف القسم الأول لسورة الأنفال .
	[ اللطيفة الأولى ] في حال للسليين اليوم يتقاطعون على صفائر الأمور وقد جهلوا سبب نزول هذه الآية
	إذ أمر الله بتقسيم الغنائم بالعدل فزال شقاق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بسبب العدل ، فلماذا لا يفعل
	أمراء الإسلام ذلك ؟ .
٦	[ اللطيفة الثانية ] للتوكل على الله يستفيد فائدتين ، [ اللطيفة الثالثة ] تبين من هذه الآية أن أعمال
	القلوب مقدمة على أعمال الجوارح .
٧	حكم ظهرت في هذه الآيات ، ههنا أمران : أمر مقاصد السورة العاتمة ، وأمر مناسبة آخر سورة
	الأعراف لأول سورة الأنفال .
٨	سورة الأعراف منفرة ، وسورة الأنفال والتوبة مبشرتان بالنصر والفتيحة .
٩	حديث « إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا الخ » وكيف جهل للتأخرون من السليين إنذار
	سورة الأعراف ، وتحذيرهم من الطغيان في سورة يونس التي بعد سورتي النصر والغنائم المؤذنة بأن
	الطغيان بعد التمكن هو دليل الهلاك في الدنيا .
	دواء هذا الداء ، وذلك بمرض نماذج من جمال هذا العالم تعشق الأطفال في العلم عند قراءة آيات من القرآن .
١٠	الكلام على الوجع عند ذكر الله وزيادة الإيمان والتوكل على الله ، وحديث « الإيمان بضع
	وسبعون شعبة » .
	بيان خلاف الأئمة في قول السلم : أنا مؤمن حقا ، وتبيان أن النبوة قد أومأت إلى شرحه ، وتبيان
	هذا المقام بإيضاح .
١١	الإيمان في ديننا قد ابتلع جميع العلوم لأنها داخلة في الشعب المذكورة ، والمؤمنون كلهم كأنهم إنسان
	واحد ونقص علم أو مناعة نقص في إيمانهم .
١٢	الصلح في بلاد الإسلام .
	الإيمان أمر واحد كما أن الإنسانية عبارة عن الجسم والروح .
١٣	الكلام على صلح ذات البين .
	الكذب في القرى وفي المدن يبلادنا ، كيف استعاض الناس عن سعادة القلوب بذكر سعادة الباشا الخ
	فاستنوا باللفظ عن المعنى ، الأمم الإسلامية وجمعية الأمم في أوروبا .

- ١٤ الإصلاح العام وله شروط سبعة ، تحسر المؤلف على الأمم الإسلامية وأنهم لم يجعلوا التعليم عاما إجباريا  
تفسير القرآن في الحقول والحشرات .
- ١٥ وصف حشرة ( بق الهبسكس الدقيق ) .  
انتشار هذه الحشرة في نباتاتنا المصرية ، عداها تنتقل بالماء والهواء والحيوان .
- ١٦ نسلها كثير ، يحاربها الإنسان وهي تكثر إذن ، الله أكثر من الحشرات النافعة للنبات بالإفاح  
والعائكة به قال تعالى « ونبلونكم بالشر والحير فتنة » إن الأثمن من هذه الحشرات قد تلد بدون  
ذكر كما تكون الذكورة والأنثوية في نبات واحد معا ، إذن الذكورة والأنثوية في جميع الأحياء  
متحدثان إما فضلا وإما بالشوق .
- ١٧ كل ذلك يفسر معنى قوله تعالى « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »  
فهنا درجتان : إصلاح ذات البين بين المسلمين وتعارفهم مع جميع الأمم .
- ١٨ مافوق المادة ، تذييل لهذا المقام .
- ١٩ إن لدى يفهم ما يضرنا وما ينفعنا دليل على أن هناك عوالم أرقى منا نستلذ بذلك ولا نحب  
إلا النظام العام .
- ٢٠ الله مافرق الناس إلا ليجمعهم .
- ٢١ تذكرة آية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » سيأتي معناها وهو للمخلص الذي كتبه  
الأستاذ ( ستلانه ) التلياني لكتابي [ أين الإنسان ] وذلك ستقرؤه في سورة الحجرات لأن الكتاب  
مبنى على تعداد الذكور والاناث في الأرض كما في الآية وهكذا جميع أحوال الناس ومنافع الأرض  
فهي مختلفة وبهذا الاختلاف يتم النظام .
- ٢٢ كيف قصر المسلمون في قوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم » .  
فريدة مشرقة في سورة الأنفال والنبوة ثم القتال والفتح والحجرات .
- [ القسم الثاني ] في قوله تعالى « كما أخرجك ربك - إلى قوله - وأن الله مع المؤمنين » .  
مقدمة في سبب غزوة بدر ، والكلام على المعير والتغير .
- ٢٥ التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ٢٩ خمس لطائف : [ اللطيفة الأولى ] فيها استبان اقتحام الأخطار في قوله « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين »  
[ والثانية ] : أن هذا العالم السادي خاضع لناموس العقول .
- ٣٠ [ اللطيفة الثالثة ] دقة الملاحظة والبحث الصادق في أمور هذه الحياة في قوله تعالى « إذ يشيكم الناس  
أمنة منه » .
- [ اللطيفة الرابعة ] الثبات وقوة المزيمة ، [ اللطيفة الخامسة ] عدم الإهجاب بالنفس وترك الكبرياء .
- ٣١ [ القسم الثالث ] « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله - إلى قوله - والله ذو الفضل العظيم » .  
تفسير بعض الألفاظ ، بيان ما يحى القلوب وهو أرجة أمور :
- ٣٢ في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » أرجة أمور أيضا .  
تفسير بقية الألفاظ في هذه الآيات .
- ٣٣ سبع لطائف : [ اللطيفة الأولى ] في قوله تعالى « إن شر الدواب عند الله الصم البكم » .

- ٣٣ مشابهة الإنسان في حال نقصه لأنواع الحيوان ، [ اللطيفة الثانية ] « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم » .
- ٣٤ [ اللطيفة الثالثة ] كيف يحول الله بين الرء وقلبه وذلك بالنوم والجنون والإغماء والسكر وأحوال المرض ، تأثير الخطباء والشعراء والوسط والبيئة ، كلام العلامة ( جوستاف ليون ) .  
أدوار التنويم المغناطيسى وعجائبه وأن هناك ثلاث درجات يتذكر في كل منها ما لا يتذكره في الأخرى  
فها هو ذا الله قد حال بين للرء وقلبه .
- ٣٦ لمحات الأنوار وبواهر الأسرار في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين الرء وقلبه » والحيلولة  
تتحصر في ثلاثة أقسام :
- [ الأول ] الأصول الصناعية ، والأصول الخلقية ، والأصول العلمية ؛ فالأولى كالبخار والسكرىباء والمنطاد  
والطيارة قبل العلم بها ولجهل المسلمين بأكثر الصناعات اليوم ، لأن الله حال بينهم وبين فلوسهم إلا قليلا منهم .
- ٣٧ [ القسم الثانى ] الأصول الخلقية وذلك كاعتقاد الحجر وغيره .  
[ القسم الثالث ] الأصول العلمية ، وفيه فصلان :
- ( الفصل الأول ) في العلوم العامة .
- ٣٨ ( الفصل الثانى ) في معرفة الله عز وجل .
- ٣٩ الله جعل الشمس مثلا لنفسه فهي كبيرة مضبوطة بعيدة قريبة مقابلة لكل امرئ في الأرض لاحصر  
لضوئها ، هكذا الله عظيم كثير الإنعام الخ . إيضاح بعض صفات هذا المثل وآية « الله نور السموات  
والأرض » وحديث « إنكم سترون ربكم عيانا الخ » تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم رؤبة الله لكل  
امرئ محليا به بما يرى الإنسان القمر محليا به .
- ٤١ شفاء الصدور ومشرق النور من شمس بازغات ومعان باهرات في هذه الآيات « يا أيها الذين آمنوا  
استجبوا لله ولرأسول الخ » .
- ٤٢ وصف السماء وكواكبها ونور القمر وجمال الصباح وشروق الشمس ووصف قوس قزح وأبيات جميلة  
في وصفها والكلام على الكتب السماوية والمعارف النفسية والكتب الحكيمية .  
الجسم الإنسانى .
- ٤٣ النظر في النفس ، عقلة الناس عن القلب ذلك الذى جمع وصف السماء وكواكبها وأنوار أقمارها وشمسها  
وصباحها ومساءها وكيف كانت الأعداد لها وجود في ذهنى فالقلب يجمع بين الوجود في الخارج  
والذى لا وجود له فيه فهو أوسع والناس عنه غافلون إلا قليلا .
- ٤٤ الغذاء في تحوله إلى سمع وبصر دليل على أن المادة فكر لأن النمرة من جنس البدر ، النفس تتصور  
الواجب والجائز والاستحيل فعلى من عالم أوسع من عالمنا .
- ٤٥ النفس في حال النوم تمطيك صورة من الدنيا والآخرة ، استيقاظ النفس ونومها يمثلان الحياة واللوت .  
ياقوتة في عقد هذا المقال .
- ٤٦ ليس للدار على كثرة العلوم ، وإنما للدار على حسن التصرف والتعقل .  
نسى ونسك فيها قدرة مدهشة وقد حيل بيننا وبينها ، غرائب زهاد الهند .



- ٤٧ بيان « وإن النار الآخرة لم ي الحيوان ». التنويم القنطريسي وغيره كالمندى الذى دفن ستة أشهر ثم خرج حيا الخ .
- ٤٨ ضوء الياقونة وازدياد عجائبها كآلة الوسيط الأمريكى (جيمس) وكغلام صيرفى يجادل أعظم الفلاسفة فى حال استيلاء الروح عليه ، ولسكنه فى حاله الاعتيادية لا يدري شيئا من العلوم .
- ٤٩ آراء علماء الإسلام فى النفس الإنسانية وصفاتها واطلاؤها على العجائب .
- ٤٩ ما قاله الإمام الغزالي من أن النفس الإنسانية متى ذكرت الله فى خلوة وغابت عن الوجود خاطبها لللائكة ، فالانكشاف فى النوم وفى اللوت وفى صفاء النفس ، الجوع والصمت والسهرة والمزلة هى الأركان الأربعة للفتوح ، طريقة الجوع بحيث يأكل قليلا وذكر مضارها .
- ٥٠ اتجاه الأمم لفتح الحس الباطنى دائما بورثها الانعطاط .
- اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى قوله تعالى « واتقوا فتنة الخ » وفى قوله « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون » وفى قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول » وفى قوله « واعلموا أنما أموالكم » الخ .
- ٥١ [القسم الرابع] : « واذ يكر بك الذين كفروا » إلى قوله « ونعم النصير » .
- ٥٢ التفسير اللفظى .
- ٥٣ بقية التفسير اللفظى .
- ٥٥ لطيفة فى قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم الولى ونعم النصير » وفى بقية الآيات .
- [القسم الخامس] « واعلموا أنما غنمتم » إلى آخر السورة .
- ٥٨ التفسير اللفظى لهذه الآيات .
- ٥٩ بيان التحليل العقلى فى قصة بدر وكيف فصل الله فيها ١٤ مسألة فلم يدر ناسا يشام ولا نصرا ولا خاطرا إلا استخرج منها حكما لمنفعتهم .
- ٦١ الكلام على تكثير القليل وتقليل الكثير لإصلاح هذه الدنيا .
- ٦٣ بقية التفسير اللفظى .
- ٦٨ كيف صح أن قوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » ليس بمنسوخ كما حصل فى حرب مراكش حديثا إذ غلب الواحد عشرة كما هو معلوم . وهذا من عجائب القرآن فى هذا العصر .
- ٦٩ لطيفتان : الأولى قوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وبيان آثار الوهم فى الإنسان .
- ٧٠ بيان ما نقل من مجلة فى (برازيل) أن امرأة خرج ولدها ضفدعة .
- ٧١ كيف يتمرن المندى على الزهد فى الحياة ؟ وكيف يكون شؤم التفكير المهن سببا فى الحزن ؟ وكيف جرّب أحد الأطباء قوة الاستهواء فى قتل مجرم بالوهم الخ . وكذلك بائع اللبن فى إنكلترا الذى أوهمه المشترون أنه مريض فمرض .
- ٧٢ طريقة (اميل كويه) الفرنسى فى قوة الاستهواء وأنها تشفى كثيرا من الأمراض ، وقال إنه يجب على الأطباء للدواوة بالاستهواء .

- ٧٣ إذا ردّد الإنسان كلمات كل يوم تدل على أنه قد شفى من مرضه فذلك نافع عند (كوبه) الطبيب .  
اللطيفة الثانية « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة » الخ .
- ٧٤ الحرب من مقومات الأمم ومنشطاتها في الحياة ، والكسل والخمول يمتدان .
- ٧٥ للفرقات في الحروب من القطن والموادّ اللّثية . كيف يصنع الديناميت . الجلّاتين المفرغ وغيره .
- ٧٦ القطن والكبريت والنتريك قد حوّات إلى مادة محرقة . اقد أمرنا بهذه الصناعات استعدادا للحرب .  
نظرات الفلاح إلى شجرة القطن ، ونظرات علماء الحرب .
- ٧٧ تناسق آي القرآن وتلاحقها في مسألة عدة الحرب والقتال . التعجب من أن القطن الذي نلبسه كنت فيه قوة مهلكة .
- ٧٨ بيان أن هذه الخواص من عجائب خالق السموات والأرض . الابتهاج بالعلم والحكمة والتعجب من القطن وغيره ، فكيف كنت فيها تلك المهلكات ؟ .
- ٧٩ زهرة ناضرة بهجة في قوله تعالى « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة » .
- ٨٠ كيف أدرك أبو مسلم الحراساني غايته في الحرب بسبب الكتمان . وكيف كان الجيش الفرنسي قد كاد ينحل ، ولولا تنكّم الرؤساء لحسروا الحرب ، وهذا السرّ ظهر اليوم . أسامرك أيها القمكي في تنكبير القليل وتقليل الكثير ، فتقليل الكثير كما فعل اليابانيون في الحرب مع الروس إذ أخفوا سفنهم بالنويع وكصتر الشمس في أعيننا ، والمكس كالطفل عند أبويه .
- ٨٢ تفسير بقية السورة من قوله تعالى « ما كان لبيّ أن يكون له أسرى الخ » .
- ٨٣ حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم الخ » وبقية التفسير لهذه الآيات .
- ٨٥ لطيفة ذكر فيها أن الأئمة لو كانوا أحياء ورأوا جهل السليين لعلوم ولأمروهم بما نكتبه لهم الآن ، والكلام على ذمّ التفاعدين عن هذه العلوم .
- ٨٦ الميراث ميراثان : ميراث الحى ، وميراث الميت وشرح هذا اللقّام .
- ٨٨ سورة التوبة وبيان أنها أربعة أقسام ( القسم الأول ) من أول السورة إلى قوله « إلا قليل » .
- ٩٢ الكلام على سبب هذا النداء يوم الحج الأكبر .  
تفسير هذه الآيات تفسيرا لفظيا .
- ٩٧ خمس لطائف في هذا القسم .
- اللطيفة الأولى في قوله تعالى « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » ، وبيان أن الصديق رضى الله عنه أبى أن يترك الزكاة التي قرنت في القرآن بالصلاة ، وقد فصل الله الآيات لقوم يعلمون ، فهو بهذا من الذين يعلمون ، أما المسلمون اليوم فكيف صرح القرآن بالعلوم وهم نائمون ؟
- ٩٩ اللطيفة الثانية في قوله تعالى « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الآية .  
اللطيفة الثالثة قوله تعالى « ألا تخاتلون قوما نكثوا أيمانهم » .
- ١٠٠ اللطيفة الرابعة « أجعلتم سقاية الحاج الخ » .  
اللطيفة الخامسة « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم » .  
تفسير بقية الآيات من قوله تعالى « ويوم نحين - إلى قوله - عن يد وم صاغرون » .

- ١٠٣ مقدار الجزية ، مناكاة الجوس والسابئين وذبايحهم . وقالت اليهود عزير ابن الله الخ وحكاية بولس الرسول وحيلته .
- ١٠٤ حقيقة مسألة بولس وأنه رجل فريسي الخ ، نتائج الخلاف في النصرانية ، تنازع النصارى في أمر المسيح ، وذلك في أوائل الجبل الرابع وقد انقسموا حزيين : مقرّ بالوهبة للمسيح ، ومنكرها وظهور (أريوس) وإسكندر أسقف الإسكندرية ، الشتم بين آباء النصرانية ، أقام قسطنطين مجما في أنطاكية .
- ١٠٥ تفسير قوله تعالى « ذلك قولهم بأفواههم الخ » .
- ١٠٦ تفسير « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان الخ » .
- ١٠٧ تفسير « إن عدّة الشهور عند الله - إلى قوله - إلا قليل » .
- ١٠٩ اللطيفة الأولى في تحقيق الكلام في الأشهر الحرم .  
بيان أن من يقول بفسخ تحريم القتال في هذه الأشهر ومن لا يقول به متفقان مآلا .  
اللطيفة الثانية الشهور العربية والأفرنسية والقبطية وعلّة تسميتها بأسمائها ، كأن يقال المهرّم لتحريم القتال فيه ، وينابر مأخوذ من يانوس معبود خرافي كانوا يمثلونه بوجهين الخ ، وتوت هو نهوت إله الحكمة والقلم عند القبط .
- ١١١ اللطيفة الثالثة « يوم يحمى عليها في نار جهنم الخ » . ويان أن الاطلاع على علم الأرواح معجزة للقرآن في مثل هذه الآية .
- ١١٢ جوهرة باهرة في هذه الآيات وهي : « قل إن كان آباؤكم - إلى قوله - عما يشركون » مظهران وهما :  
(١) آثارها في الأمم الإسلامية القديمة وإهمال التأخرين . (٢) وآثارها في أم الإسلام .  
آثار هذه الآيات في صدر الإسلام .
- ١١٣ ذكر حكايات عن أبي بكر وعمر وزهدهما ، ثم ذكر غرور للتأخرين من الأمة الإسلامية .  
للقام الثاني آثار هذه الآيات في الانقلاب الأوروبي .
- ١١٤ الكاثوليكية وكيف كان البابا رئيسهم بذل اللوك في أوروبا إذ ابتدأ حكمهم من سنة ١٠٨ هجرية .  
كلام المؤرخ ( كرينوس اضربيا ) في بيع الفران بالنقود ، وكيف تاجروا بالضائر الخ .
- ١١٥ محازى البابوات ورؤساء النصارى أيام ( شلمان ) الكبير والإحراق والقتل والحرق والقتل صبرا ، وقد أحرق لويس الحادي عشر ١٨٣ شخصا مع راعيهم وهكذا غيره ألوا وألوا .
- ١١٦ ذكر المحكوم عليهم بمحكمة التفتيش بأسبانيا وأنهم ٥١٠٠ في مدة ١٨ سنة والذين أحرقوا ما بين ثمانية وعشرة آلاف الخ ، وقتل من المسلمين مائة ألف بإيعاز رئيس أساقفة أسبانيا ، وقتل في انكلترا وإيكوسيا لأجل الدين في مائتي سنة ألف نفس الخ .
- ١١٧ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت تحت عنوان : [ رجال الدين ] قد ذكرت ظلم رجال الدين في أوروبا وأن ( قولتير وروسو ) وأمثالهما لم ينشروا مبادئهم إلا بعد أن قرءوها في كتب المسلمين فأعنتت أوروبا من ذل رجال الدين بفضل الإسلام . تنبؤها بأنه سيأتي وقت قريب تسل فيه أوروبا وأمريكا .
- ١١٨ تذكر أن عمر كان عادلا والله يقول « وشاورهم في الأمر الخ » .

- ١١٨ القانون المدني ، صورة محوّرة من الشريعة الإسلامية . تحسرها على الشرق وعلى الإسلام .
- ١١٩ ذمها لعلماء المسلمين في مصر والحجاز وفي بني غازي الخ .
- ١٢٠ [ للظهر الثاني ] ماجاء عن علماء الأرواح حديثا بأوروبا ، معجزات القرآن في هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقا للقرآن ، [ الجوهرة الأولى ] مجمل هذه الآيات .
- [ الجوهرة الثانية ] في تحليل النفس الإنسانية وكيف قبلت جميع الوجودات وشاركت كل شيء وتوقفت على كل موجود وتودّ لو تتلغ العالم كله وشرح هذه الأربعة شرحا مستفيضا .
- ١٢٣ [ الجوهرة الثالثة ] معجزات القرآن التي ظهرت مطابقة لما تقدم عند بعض علماء النصارى الذين حدثوا الأرواح ، وذكر ( عمانوئيل سودنبرج ) وتاريخ حياته ومنزلته في المملكة .
- ١٢٤ ماذا يحدثنا عمانوئيل ، يقول إن الإفريقيين من بين جميع الأمم المحبوبون أكثر من الجميع في الجنة ولا جرم أن الإفريقيين مسلمون ، وذمّ المسيحيين وقال إن نصيبهم في الآخرة مزيج محزن ويقول إن الأرواح أخبرته بأن الله واحد وأن اعتقاد الثلاثة محير في الآخرة وأن الأطفال يدخلون الجنة ولا عبرة بمسألة ماء العمودية عند النصارى وهكذا .
- ١٢٥ كلامه في جهنم وأن أبوابها تحت سخور وفيها خرابات ومنازل بعد شوب نيران ، وقال إنه رأى الأرواح الشريرة تدخلها ، وقال إن الله يرى كالشمس وكل ذلك موافق تمام المواضع للقرآن .
- ١٢٦ اعتراض على المؤلف بأن هذا لا دليل عليه ، جوابه بأنه ذكره لثلاثة أمور : أولا هذه الآراء توافق كتاب الأرواح ، ثانيا توافق آراء خواص علماء الإسلام ، ثالثا إني نظرت في هذه الدنيا بعقل الخ .
- ١٢٧ تبيان نظام هذا الوجود ، وكيف كان كله متحدا وإذن لا يتم نظام الإنسانية إلا إذا أصبحت كلها نظاما واحدا مشاكلا لنظام هذا الوجود وإلا فهي إنسانية حقيرة دنيئة كما هي الآن .
- ١٢٨ بيان سقراط أن الدين يحكمون الجمهورية يكونون أعفّ الناس وأعلمهم ، وبيان أن أهل كل دين في الأرض طغفوا وبغوا كالمسيحيين وكالمسلمين وغيرهم وذكر آيات من القرآن والإنجيل .
- ١٢٩ دين الصين القديم للني ( يوالكبير ) ثم الفيلسوف ( ليوتسو ) ثم ( كوتسيوس ) وبيان أن الناس هم الذين يحصلون الدين الطاهر جاريا على حسب أخلاقهم فينزل صافيا من السماء وهم يجعلونه كدرا .
- ١٣٠ [ القسم الثاني ] « إلا تنفروا يذبكم - إلى قوله - إن كنتم تعلمون » .  
التفسير اللفظي « إلا تنفروا يذبكم الخ » .
- ١٣١ [ القسم الثالث ] « لو كان عرضا قريبا - إلى قوله - والله عليهم حكيم » .  
التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ١٣٦ « لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خيالا الخ » .
- ١٣٧ « ومنهم من يلزمك في الصدقات الخ » .
- ١٣٨ « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم الخ » .
- ١٣٩ « فاستمتعتم بخلاصكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاصهم الخ » .
- ١٤٠ « يخلفون بالله ما قالوا الخ » .
- ١٤١ « فيسخرون منهم سخر الله منهم الخ » .

- ١٤٢ « وأولئك لهم الخيرات الخ » .
- ١٤٣ « وآخرون اعترفوا بذنوبهم الخ » .
- ١٤٤ ذكر ١٤ لطيفة .
- ١٤٥ بيان اللطيفة الأولى « لا تنفروا يذبحكم عذابا ألما ويستبدل قوما غيركم » .
- بيان أن الأمم الإسلامية إذا تركت الأعمال العاتمة استبدل الله بها غيرها .
- ١٤٦ اللطيفة الثانية « لا تنفروا قد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين الخ » وفيه بيان لمجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . اللطيفة الثالثة « انفروا خفايا وعلانا » .
- ١٤٧ « فلا تصيبك أموالهم ولا أولادهم » وهي اللطيفة الرابعة . إيضاح هذا للقام ببيان أن الفكر هو الذي له أثر في عذابنا ونعيمنا ، فمن كان في جنة أو نار وهو لا يحس بهما فلا عذاب ولا نعيم عنده .
- ١٤٨ ظاهر هذه السورة العذاب وباطنها النعمة . السعادة لا تشرى بمال . وبيان الإيطالي للتمتع تخلصا من النوى والثروة مع أنه لا يعمل له .
- ١٤٩ جمال هذه الآيات ، وبيان أن الحشرات تله الآلاف وهي لا تمذب بالتدربة ، والإنسان يله الآحاد وهو معذب بها ، وهذا سر قوله تعالى « ففرّوا إلى الله » بد قوله « ومن كل شيء خلقنا زوجين لملككم تذكرون » الآية .
- ١٥٠ السنة الخلق أقلام الحق ، وبيان أن الناس يتبرمون من الحياة وهذا تعبير عما سطر بقلم الحكمة في الظاهر أمام الناس وإن كانوا لا يشعرون .
- ١٥١ شعر ترنس الانجليزي مترجما شعرا بالعربية في أن الفقراء يحسون بالسعادة أكثر من الأغنياء . موازنة بين شعر أبي العلاء وبين شعر شارل وكذا شكسبير الانجليزي مما نظمته سابقا في كتاب [ جوهرة الشعر والتعريب ] .
- ١٥٢ شعر شكسبير مما ترجمته إلى الشعر العربي بما يفيد « كل من عليها فان » شعر للتؤلف في كتاب ضاع منه قبل أن يرجع إليه .
- ١٥٣ كيف ينطق الطير للناس بلسان الحكمة يقول : انخذوا لكم مكانا في الملا كما انخذت .
- ١٥٤ بيان نطق الطير لسليمان في قوله « يا أيها الناس علنا منطلق الطير » غفلة الناس عن الجمال وعن الفهم وعن النعم العاتمة ، فالجوع والشبع والمرض وغيره كل هذا نطق أصح من نطق اللسان . فهم بعض سر هذه الآية في هذا الزمان وأن الحرب الكبرى إنما جاءت من أجل المال .
- ١٥٥ الكلام على الاشتراكية . اللطيفة الخامسة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين الخ » وإيضاح القام .
- ١٥٦ اللطيفة السادسة « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » وأن الاستهزاء بالدين يورث افتراق العقائد فتفرق الأفراد فتضيع الأمة . جوهرة في قوله تعالى « قل أبأبائه وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » الاستهزاء بانتدبين .
- ١٥٧ استهزاء علماء الفقه بجميع العلوم واستهزاء بعض الناس بهم .
- حكاية أمير هندي وسرى من سرارة الهند والعالم الصيني .
- ١٥٨ نتيجة الاستهزاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زماننا ، قاعدة كلما زاد الاستهزاء به كلما زاد للستهزى وبالا . الآيات المستهزأ بها واضحة في سورة يس .

- ١٥٩ قاعدة : أكثر الناس تمرضا للاستهزاء أكابره ، آثار الاستهزاء في بلاد الإسلام .  
 إيضاح آية الاستهزاء بآيات الله .
- ١٦٠ مواكب الله ومواكب اللوك والدول في عصرنا  
 إعراض أهل الهند وأهل إيرلانده وأهل مصر عن عظماء الإنجليز وجنودهم احتجاجا على احتلالهم  
 لبلادهم ، فالإعراض عن مواكب الدول له نظير وهو الإعراض عن مواكب الشمس والقمر والنجوم  
 لذلك أرسل مواكب أقرب وهي الطيارات والدافع .  
 ذكر ستة أنواع من مواكب الله تعالى التي عرضها وأعرضنا عنها كما تعرض الأمم المحكومة عن  
 عظمتها حكاهما .
- ١٦١ أعرض المحكومون عن بطش الحكام فأوجب ذلك أثره ، هكذا إعراضنا عن مواكب الله في الأرض  
 وفي السماء .
- ١٦٢ اللطيفة السابعة « كالدين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة » إلى قوله « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »
- ١٦٣ اللطيفة الثامنة « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .  
 اللطيفة التاسعة « وهووا بما لم ينالوا » .  
 اللطيفة العاشرة « قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » .
- ١٦٤ اللطيفة الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة .
- ١٦٥ اللطيفة الرابعة عشرة في أصناف المنافقين وم عشرة .
- ١٦٦ [ القسم الرابع ] « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » إلى آخر السورة .
- ١٦٨ التفسير اللفظي لهذه الآيات .  
 « فاستبشروا ببيعكم الخ » .
- ١٦٩ « إن إبراهيم لأقواه حليم الخ » .  
 ١٧٠ « وضافت عليهم أنفسهم الخ » .
- ١٧٢ « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار الخ » .  
 « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون الخ » .
- ١٧٣ ذكر مقالة أدرجت في الجرائد تناسب هذا المقام .
- ١٧٦ الإسلام والاستعمار وسبب تأخر المسلمين [ المقالة الأولى ] وفيها الأوامر التي صدرت في بلاد هولانده  
 وتلك المقالة كتبت قبل إلغاء ذلك الأمر ومعاملة المسلمين بالحسنى .
- ١٧٧ بيان أن المسلمين لا يتسنى لهم أن يعيشوا مع أمم أعلم منهم فلا بد أن يساوموا .
- ١٧٨ [ المقالة الثانية ] خطاب إلى أمراء الإسلام المستقلين ومن تحت سيادة الأجانب وإلى جميع زعماء  
 الإسلام وعظماؤه .
- ١٧٩ للصلحون في الإسلام اليوم [ المقالة الثالثة ] .
- ١٨٠ [ المقالة الرابعة ] تهافت الآراء في بلاد الشرق ولاسيا في بعض البلاد الاسلامية .
- ١٨١ حديثي مع قاض شهير . وذلك أن المؤلف كان يقرأ الرسالة القشيرية مع عالم فرنجي أمره أستاذته  
 الألماني بذلك . وقد حضر لزيارة العالم الفرنجي قاض مشهور في مصر بالتأليف ، وملخص الحديث :

أن القاضي يحقر الديانات وإن لم ينطق بذلك ، والمؤلف يوجب مزج العلوم بالدين والماضي بأبي ذلك ثم إنه خضع لحجج المؤلف .

١٨٢ اعترف القاضي الأهلئ المذكور بأنه مقتنع ولم يقنعه أكبر عالم في مصر قبل ذلك ، حديث الإمام الغزالي إذ يذم علماء الدين في زمانه ويصفهم بأنهم شرّ من الشياطين لصدّهم الناس عن هذه العلوم المعروفة الآن في أوروبا وأمريكا ، وذلك في مقالة عنوانها [ الإسلام والاستعمار ] .

مخاطبة المؤلف للإمام الغزالي يقول له المسلمون اليوم هم لا يزالون كما تركتهم لا يحبون إلا علم القضاء والمهاماة والراغبون في العلوم الأخرى قليل . الواجب على المجالس الشورية .

١٨٣ [ المقالة السادسة ] هل في الإسلام ناخون ؟

١٨٤ ذكر ماجاء في الجرائد سنة طبع هذه السورة أن ملك الأفغان كان قد أفضل مدارس البنات فاستنقى علماء مصر والهند فأفتوا بأن الأثنى كالكه ففتح للدارس لمن ثانيا .

١٨٥ بيان أن تقسيم الأعمال مأخوذ من الآية بطريق الاستنتاج بل بطريق النص ، وفي هذا ذكر المعنى اللغوي لتتفقه وهو غير الاصطلاحى المعروف ، وبيان ما يبدل من ألفاظ العلوم وهي خمس الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة .

١٨٦ أقوال السلف في هذه الألفاظ وأن الفقه كان يطلق على تعدد نعم الله وعلى ما به الخوف منه الخ .

١٨٨ من هم الأولى أن يسموا علماء في الإسلام .

١٨٩ منافع اللرجان النبات في البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر ونحوها في قاع البحر من ٣٠ قائمة إلى ١٣٠ ويغوص الإيطاليون عليه والفرنسيون والأسبانيون وبيان النفود التي كسبوها في بعض السنين والمسلمون ناخون .

١٩٠ ذكر أن الطعومات واللبوسات والجواهر من حشرة برية ودودة وحيوان بحري الخ .

١٩١ نقل الكلام في فروض الكفايات من كتاب [ جمع الجوامع ] وشرحه

١٩٢ أيهما أفضل : الملك أم العالم ؟ ، نقل كلام المؤرخ الشهير ( سيديو ) الفرنسي الذي اجتهد في إظهار علوم العرب وأنهم هم الذين أناروا أوروبا .

١٩٣ ذكر أنهم ملكوا من نهر ( التاج ) إلى نهر ( الكنج ) وأنهم بعد العزّ وللك لزموا جزيرتهم كرتة أخرى .

حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم الباطنية عند الفرنجة .

وصف للدين العربية .

١٩٤ ذكر من اشتهر من علماء العرب وبيان أنهم أعلم من الترك ومن الصين بعد البحث الطويل وانتقال علمهم إلى الهندستان بواسطة البيروني ، وإلى المغرب بواسطة الطوسي ، وإلى النمانيين أيضا ، ثم أهل أوروبا بعد ذلك ، وذكر أن العرب هم الذين أيقظوا أوروبا من الجهل وهكذا نشر علم العرب بين أهل الصين ( كوشيو كنج ) ، السلام على العلوم الطبيعية عند العرب .

١٩٥ مبحث علم الكيمياء عندهم ، مبحث علم النباتات عندهم أيضا ، وكذا المادة الطبية والاقتصاد الزراعي .

١٩٦ مبحث في علم الطب عندهم وللدسة اليونانية العربية والفخر الرازي وابن سينا .

- ١٩٧ مبحث في عدم اقتدار العرب على شرحهم فلسفة أرسطاطاليس وتكذيب العلامة (سديو) المذكور علماء الترجمة القائلين إن العرب ليس لهم إلا النقل عن اليونان .
- ٢٠٧ بيان أن الله ليس عن خلفه غافلا ، ولذلك حفظ في كتب المتقدمين معنى التفقه لعرفه في هذا الزمان ، كما أنه جعل بعض الحشرات على هيئة حصة ليكون هذا الشكل وقاية لها بصد عنها الطيور التي تصطادها
- ٢٠٨ إذلال المسلمين سابقا للعلماء كابن رشد بصقوا في وجهه ونفوه فلذلك هرب العلم إلى أوروبا من بلاد الاسلام وصار الناس يقرءون التصوف وحده ولكن في عصرنا لن يقدر أحد أن يقاوم للفكرين لأن الأمم كلها استيقظت وللسلمون أدبهم الدهر ووعظهم .
- ٢٠٩ ملخص التفقه في الدين قد جاء في أول سورة يونس .
- [الوجه الثالث] ختم الله النبوة بأنه جاء للناس رسول من جنسهم الخ وأول سورة يونس فيها مثل هذا تكملة الكلام في مناسبة آخر سورة النبوة بأول سورة يونس .
- ٢١٠ الفقهاء في الماضي والحال والاستقبال . الفقهاء في عصر الصحابة . الفقهاء بعد الصدر الأول . الفقهاء في زماننا .
- ٢١١ آثار ما تقدم في الإسلام . بقية نظرات الفقيه في سورة يونس .
- ٢١٢ نظر الفقيه في مستقبل الزمان في سور أخرى من القرآن كسورة هود ، وكيف يفهم استواء الله على العرش ؟ وما الفرق بين عرش ملك الملوك وعرش أولئك الملوك ؟ ويفهم معنى كون الله آخذنا بناصية كل دابة ومناسبتها لتوكل هود وما مثال هذا في الكشف الحديث . وذكر الفراش ذي الأجنحة التي تشبه أوراقا جافة أو التي تشبه غصنا ضخما على شجرة عتيقة أو الدرد اللؤلؤن الظاهر الباهر لأن طعمه كرهه فكان ذلك وقاية له . فهذه أخذ الله بناصيتها فهكذا يأخذ بناصية الإنسان لاسبأ الأنبياء .
- ٢١٣ بيان أن من درس علوم الحيوان وأتقنها فهم هذه الآية حق فهمها . وبيان أن الفقيه في مستقبل الاسلام ينظر فيها في موسوعات الترجمة من الحكم السجبية ويعجب كيف كان أكثرهم لا يتعجب إلا من نفس الصنعة ثم لا يتعجب من الصانع ، وذكر ما سيراها الفقهاء الاسلاميون في سورة يوسف بعد سورة هود عليهما السلام ذكر ما يراه الفقيه في سورة يوسف ولم قال « آيات للسائلين » .
- ٢١٤ بيان أن القصص المسموع غير الآيات المشاهدة أو المعقولة ولكل أساس مذاهب في العلم ، فمنهم الذين يستمعون ومنهم الذين يفكرون ؟ فللأولين قصة يوسف وغيرها ، وللآخرين آيات السموات والأرض التي هم عنها معرضون .
- بيان أن بعض الآيات الكونية كقوائم الأرتيب في نظام الأوراق على النبات اختص به علماء هذا الفن ، وأن نجابة الحيوان بسبب لونه كما تقدم لم يظهر إلا في زماننا ظهورا واضحا وهذا يفهم من قوله تعالى « إن في ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام ولم يقل للسائلين الخ .
- ٢١٥ نظرة الفقيه الإسلامى في سورة الرعد بعد سورة يوسف .
- ذكر القطع الثلجية التي ستذكر في قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » وسترسم هناك وبيان أنها مشتملة على مسدسات كل مسدس فيه ست مثلثات كل مثلث منها متساوى الزوايا كل زاوية منها (١٢٠) درجة .
- ٢١٦ نظر الفقيه في سورة إبراهيم عليه السلام ، وأن موسى ذكر قومه وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهكذا نبينا في الأمرين معا .



# الحوادث

## في تفسير القرآن الكريم

الشمس على عجائب رب العالمين وغرائب الآيات الباهرة

تأليف

الأستاذ المحكم الشيخ ططاوي جوهرى  
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا  
متع الله المسلمين بماله آمين

# الجزء الثاني

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة  
مضيفى البانى الخلبى وأولاده بمصر  
بهاجرة محمد بن عمران

« إن في ذلك لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »  
(قرآن كريم)

## بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سورة یونس مکیة ، وهی تسع ومائة آیه  
وهی سبعة أقسام

- [ القسم الأول ] فی دلائل معرفة الله تعالى والیوم الآخر ونعيم الآخرة من أوّل السورة إلى قوله « أن الحمد لله رب العالمین » .
- [ القسم الثاني ] فی أدلة مختلفة علی التوحید من النظر فی النفس والنظر فی القرون الخالیة ، من قوله « ولو يجعل الله للناس » إلى قوله « فننبشکم بما کنتم تعملون » .
- [ القسم الثالث ] فی أدلة البعث وأحوال البعثین من قوله « إنما مثل الحیاة الدنیا » إلى قوله « وصلّ عنهم ما كانوا یفترون » .
- [ القسم الرابع ] فی إثبات النبوة وتفریح الجاهلین وتوبيخهم مع أدلة إثبات الربوبية من قوله « قل من یرزقکم من السماء والأرض » إلى قوله « بما كانوا یکفرون » .
- [ القسم الخامس ] قصة نوح علیه السلام من قوله « وائل علیهم نبأ نوح » إلى قوله « كذلك نطع علی قلوب المتدین » .
- [ القسم السادس ] قصة موسى وفرعون من قوله « ثم بئنا من جدم موسى » إلى قوله « فبما كانوا فیه یختلفون » .
- [ القسم السابع ] فی تفریر ما تشتمّ کله من القصص والدلائل - من قوله « فإن كنت فی شک بما أنزلنا إلیک » إلى آخر السورة .

## ( الْقِسْمُ الْأَوَّلُ )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ \* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ \* أَمْ كَانَ لِلنَّاسِ عِجْبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ \* إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَافِعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعِنْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ \* هُوَ الَّذِي جَمَعَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِنْدَ السُّنِينِ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ \* دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

اعلم أن أوّل هذه السورة كالنعم لآخر السورة السابقة فإن آخر تلك يرجع إلى أن الرسول صلى الله

عليه وسلم :

- (١) أرسل من العرب . (٢) وهو روف رحيم بالمؤمنين .  
 (٣) وعلى الله وحده توكله . (٤) ثم وصف الله تعالى بأنه رب العرش العظيم .

وفي أوّل هذه السورة :

(١) أنه ليس من عجب أن يرسل الله للناس رسولا منهم وهو متمم للأوّل من السورة السابقة ، فكأنه يقول إنه ليس للعرب خاصة بل للناس عامة ، وكأنه من العرب هو من سائر الناس فهو لهم مرسل .

(٢) وأنه يبشر الذين آمنوا أنهم لهم منزلة رفيعة عند ربهم وهذا في مقابلة الأمر الثاني في السورة السابقة وهو أنه روف رحيم بالمؤمنين .

(٣) ثم وصف الله بأنه استوى على العرش وهو في مقابلة الأمر الرابع هناك .

(٤) وقوله «إليه مرجعكم جميعا» يفيد الوجدانية الاستفادة من اختصاص التوكل به ، ثم إن هذه السورة جاءت بعد الأنفال والتوبة اللتين اختصتا بالقتال والغزوات وقسمة الغنائم وذكر المنافقين ووعيدهم وما حكم عليهم به من العذاب والتوبيخ والتعريب ، وفيهما ذكر الصدقات وقسمتها على المستحقين فهما للمسائل الفقهية والأحكام العملية فناسب أن يؤتى بعدها بما يغذى العقل من الحكمة والعلم فهناك عمل إسلامي وهنا علم حكيم ولذلك ختمت سورة التوبة بأن الله ذو العرش العظيم تومئة لما سيذكر في أول هذه السورة من الجلال الإلهي والحكمة العلية وذكر الشمس وضيائها والقمر ونوره وأقسام منازله ومعرفة عدد السنين والحساب واختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والمعجائب للصنوعة ، والارتقاء من ذلك إلى تغذية الأرواح الإنسانية بهذه المعجائب النورية والازعاج عن العالم الكثيف والاطمئنان بالعالم اللطيف ، فمن الناس من يكتفي بالجمعات الجارية أنهارها ، ومنهم من يرتقى إلى سبحات الجلال ومقامات السلامة من اللادة وتغيراتها ثم يرتقى إلى مقام الحمد الذي تغذى النفس فيه بالمعارف العلية ومعرفة ترتيب الكائنات ونظامها .

#### تفسير الألفاظ

(الر) قد عدت حكمة هذه في أول سورة آل عمران واستبان هناك سر الحروف التي في أوائل السور وكيف كانت ١٤ وجعلت في أوائل ٢٩ سورة وكيف توقعت إلى أحادية وثنائية وثلاثية الخ ، وكيف كان عدد ٢٨ من الأعداد التامة وهو مما له علاقة بتشريح كثير من الحيوانات الفقرية وقرانها وكيف كان في ذلك رموز وإشارات تلامح عقول الأمم التي نزل القرآن عليها لاعتيادها الرموز والإشارات في الكتب السماوية والعلوم القدسية في نظرهم ، وكيف اتصل الكلام من ذلك إلى ماهو أمم وأكل من حيث إن اللغة العربية النازل بها القرآن سبقت إلى آخر الزمان لمنازل الفلكية والفقرات الحيوانية وبعض الأحوال الطبيعية وكيف وافق ذلك رأى مؤلف ألماني في روايته مستنتجا ذلك من تغير اللغات وثبات لغة العرب لبقاء القرآن بها فارجع إليه إن شئت ( تلك آيات الكتاب ) أي الآيات المذكورة الآتية في هذه السورة وما تقدمها ( الحكيم ) من الحكمة فهو ذو الحكمة ، أو هو قد وصف بوصف من تكلم به قال الشاعر :

وغريبة تأتي للولك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

وهو الحاكم في الاعتقادات وحكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى الخ وبالجنة لأهلها والنار لأهلها (أكان للناس عجا) استفهام إنكار للمعجب وعجبا خبر كان واسمها (أن أوحينا) والمعجب حالة تعمرى الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة ، وقد كانوا يقولون [ المعجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ] (أن) هي الفسرة (قدم صدق) سابقة ومترلة رقيقة سميت قدما لأن السبق بها كما سميت النعمة بدا لأنها تعطى باليد وأضيفت للصدق لتحققها وفي ذلك تنبيه على أنهم ينالونها بصدق القول والنية ( لسحر ميين ) أو « لساحر ميين » أي « أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم » فدا جاءم بالوحى وأذرم قال الكافرون الخ (استوى على العرش) استعلى بالقهر والغلبة كما جاء في آية أخرى « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استوتبتم عليه » والعرش إما بمعنى الملك وإما بمعنى البناء ، فكل بناء يسمى عرشا وبانيه يسمى عارشا ، قال تعالى « ومن الشجر وما يعرشون » أي يبنون وقال في صفة القرية « فهي خاوية على عروشها » والراد أنها خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها « وكان عرشه على الماء » أي بناؤه ( بالقسط ) أي جدانهم وقيامهم على العدل في أمورهم وذلك لا يتم إلا بإيمانهم (الحكيم) للنساء الحار ( الشمس ضياء ) ذات ضياء ( والقمر نورا ) ذا نور وما بالغات يسمى

شوقا وما بالدرش يسمى نورا ( وقدّره منازل ) أى القمر وإنما خصه لأن سيره أسرع وبه يعرف انقضاء  
 الشهور والسنين والشعر اعتبر الأهلّة أى قدره ذا منازل ( لتعلموا عدد السنين والحساب ) حساب الأوقات  
 من الأشهر والأيام فى معاملاتكم وتصرفاتكم ( إلا بالحق ) ملتبسا بالحق مراعىا فيه مقتضى الحكمة ( يفصل  
 الآيات لقوم يعلمون ) إذ لا يتنفع به سواهم ( اختلاف الليل والنهار ) عجىء كل واحد منهما خلف الآخر  
 ( وما خلق الله فى السموات والأرض ) من أنواع الصور والأشكال والمعجائب التى لا حصر لمددها ( يتقون )  
 العواقب ( لا يرجون لقاءنا ) لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وغرامهم بالمحسوسات عن العقولات ( ورضوا بالحياة  
 الدنيا ) لغفلتهم عن الآخرة ( واطمأنوا بها ) سكنوا إليها مقصرين مهمهم على لقائها وزخارفها ، أو سكنوا فيها  
 سكون من لا يرجون عنها فبنوا شديدا وأملوا بعيدا ( والذين هم عن آياتنا غافلون ) لا يتفكرون فيها  
 لانهما كهم فيها بضادها فهم جامعون بين الحسنيين : الانهماك فى الشهوات والغفلة عن عجائب الآيات  
 ( بما كانوا يكسبون ) بما واطبوا عليه وعمّروا عليه من الغاصى حتى صار سليقة لهم ( يهديهم ربهم لبعثناهم )  
 أى بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدى إلى الجنة أو لإدراك الحقائق ، ثم استأنف فقال ( تجرى من تحتهم  
 الأنهار ) حال كونهم ( فى جنات النعيم ) وقوله ( دعواهم فيها سبحانك اللهم ) أى دعواؤهم لأن اللهم نداء قد  
 ومعناه يا الله إنا نسبحك تسبيحا ( ونحيتهم ) ما يجيى به بعضهم بضاد ونحية اللائكة إياهم ونحية الله أيضا لهم  
 ( فيها سلام ، وآخر دعواهم ) دعائهم ( فمن الحمد لله رب العالمين ) أى أن يقولوا ذلك وأن محففة من التقبلة ،  
 انتهى التفسير .

هذه الآيات التى فى هذه السورة والتى تقدمتها آيات القرآن الذى نزلت فيه الحكمة وحكم فيه بين  
 الحق والباطل والضلال والهدى .

يا محبا للناس كيف يعجبون منا أن أرسلنا رسولا منهم لينذرهم أجمعين وينشر للمؤمنين ؟ أظنوا أن العلم  
 والحكمة والوحى تابعات للآل والبنين فلكل وجهة هو مولها .

أليس الله بأعلم بمن استعدت لآعلم ومن حرم الحكمة ؟ ها ضدان لا يجتمعان ، وكيف ينزل الوحي إلا على  
 المستعد له ؟ وليس الاستعداد بالعظمة والجاه ولا بكثرة الأنباغ ، وإنما هو استعداد فى القلوب وعطاء من علام  
 الغيوب ، فكيف إذن يعجبون بمن أوحينا إليه لينذرهم وينشر للمؤمنين أن لهم منزلة سامية ومقاما رفيعا ومجدا  
 يوم يلقون ربهم ، فلما أرسلناه إليهم قال الكافرون إن ما جئت به سحر مبين ، إن هذا ليس بسحر بل هو حق  
 قام عليه البرهان .

أليس ربك الله الذى خلق السموات والأرض فى أزمان متطاولة عددها ستة وسميت أياما واليوم عند  
 كل بحبه .

#### فصل فى بيان قوله تعالى « ستة أيام »

فإذا نظرنا لأهل الأرض رأينا اليوم عندهم عبارة عن دورتها مرة واحدة حول نفسها وكانت هذه  
 المدة معتبرة فى أزمان أخرى أنها بسبب سير الشمس حول الأرض كل يوم وليلة من الشرق إلى الغرب ،  
 فلما تبين بطلان هذا استقرار الأمر على أنه بسبب دوران الأرض على محورها نفسها ، فإذن أهل العقول  
 مستعدون أن يقبلوا أن يكون اليوم مقدرا بمقدار سير كوكب حول كوكب آخر ، وبناء عليه لو اعتبرناه  
 كذلك ونظرنا لكوكب من الكواكب الثابتة فإنه قد يتم دورته فى مئات السنين بل فى آلافها ومئات  
 الآلاف والآلاف كما تقدم فى مواضع من هذا التفسير ، فإذا قرأنا فى القرآن « وإن يوما عند ربك  
 كألف سنة مما تعدون » وقرأنا « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ونظرنا فى علم الفلك الحديث

فإننا نقول إن اليوم إذا اعتبرناه من هذه الناحية وإن لم يكن عندنا كذلك والعقل الإنساني قبل ذلك سابقا قلنا إن اليوم قد يكون آلاف الآلاف من السنين ، وإذن تكون تلك الأيام المذكورة في القرآن لتفتح القول إلى البحث ، فإذا سمع الناس أن الله خلق العالم في ستة أيام صدق الجهلاء المؤمنون وكذب وشك أكثر التملين وتركوا الدين وأصبحوا في حيرة وفي شك من ليل الجهالة مظلم ، ثم يبحث الحكماء منهم والصابرون في تحقيق ذلك فتكون نتيجة ذلك معرفة علم الفلك ، فهو يبحث عن عقيدته عسى أن يجد لها مصدقا من العلم ولو بالتأويل فينتهي الأمر أن الأمة قد ظهر فيها عالم بهذا العلم ، وهذا هو مقاصد المبيانات أن تكون الشكوك مبدأ للباحث ، والبحث يولد الحكمة والفلسفة وإذن يخرج النابغون في الأمة ، فالنابغون من هذا الباب خلقوا ، ومن عش الشك درجوا ولا مفر من هذه اللباحت في الدين ليخرج علماء مختلفون في علوم نافعة للأمم .

واعلم أني قد وفيت هذا اللقاع حقه في أول سورة الأنعام فلا أعيد هنا وأبنت هناك كيف كانت تلك الأيام الستة وساعد على ما ذكرناه هناك آيات كثيرة من القرآن فارجع إليه إن شئت .  
واعلم أن الآية هنا أفادت أن خلق السموات والأرض في ستة أيام كان متداولاً معروفاً عند الناس بدليل التعبير بالاسم للوصول ولا يكون للوصول إلا حيث تكون الصلة معروفة والصلة خلق السموات والأرض في ستة أيام .

أقول : إن هذا كان حقيقة معروفاً متداولاً عند اليهود والنصارى مذكوراً في أوائل التوراة فكانت هذه الجملة شائعة عند رجال الدين ، ولأنقل لك ملخصها من نفس التوراة .

قال في الإصحاح الأول من سفر التكوين : في البدء خلق الله السموات والأرض ثم شرح بعد ذلك النور والظلمة والليل والنهار ، وأن الأرض كانت خربة مظلمة وروح الله ترف على وجه الماء ، وقال إن للماء خلق الله فيه جليداً لما فوقه صار سماً ومنه للسماء والصبح والماء الباقي صار تحت السماء فاجتمع في مكان واحد وبقي الأرض صار يابسا وأبنت الأرض عشبا وبقلا وشجرا وجعل الله في السماء القمر والشمس والنجوم ، وجعل في الماء زحافات ذات نفس ، وخلق طيرا فوق الجبل وتنانين كبيرة والحيوانات المائية والبهائم والوحوش . ثم خلق الإنسان على صورة الله فسلطه على سمك البحر وطيور السماء وعلى البهائم وجعل الإنسان كبيره ذكرا وأنثى .

ثم ختم الإصحاح بما نصه [ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً] وقد كانت للمخلص الذي ذكرته لك مقبلاً على الأيام الستة اختصرته مخافة التطويل عليك ، وعلى ذلك كانت الأيام الستة معلومة مشهورة من التوراة المتعارفة بين الناس فلذلك ذكرها القرآن بالاسم للوصول .

فصل في قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر »

أي خلق الله السموات والأرض في أزمان متطاولة وأحوال متغيرة عدتها ستة وسبهاها أياما ، وبمجرد الخلق ليس تمام القصد وإنما أهم الأمور نظام الملك وإحكامه وحسن هئامه ، لذلك عطف بتم للترتيب الذي كرى إشارة لتباعد ما بين المرتبتين : مرتبة الخلق ، ومرتبة إدارة الشؤون ونظام الأمر ، فقال ثم استوى على بنائه الذي بناه بالتسطيح والتنشكيل بالأشكال ورفع السمك ونظام السكرات وإدارتها وتنظيم ما عليها من مخلوقات وحساب دوراتها ونسبتها إلى غيرها ونظام أيامها وشهورها وسننها وقمر ذلك ، وهذا على اعتبارنا أن العرش هو البناء ، أو يقال ثم استوى على الملك الذي شكله في الوجود وذلك للملك كالفصول الأربعة

وللمادن والنبات والحيوان والإنسان وجميع ما خلق الله في الأرض والسماء من الصور والأشكال على اعتبار أن العرش عبارة عن الملك والملك عبارة عن المخلوقات والنعيان بثولان إلى مقصد واحد مع فرق دقيق .

فصل في قوله تعالى « يدبر الأمر مامن شفيح إلا من بعد إذنه »

أي يتدبر أمر الكائنات على ما اقتضته حكته وسبقت به كلمته وهيبت بتحركه أسبابها وينزلها بقدر ، والتدبير تنزيل الأمور في مراتبها وعلى أحكام عواقبها لتلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي ، فهو يدبر أحوال الخلق في ملكوت السموات والأرض فلا يحدث في العالم السفلي ولا العلوي حادث إلا بتدبيره ، وقوله « مامن شفيح إلا من بعد إذنه » أي لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة في تدبيره ، فليس يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم ، وفي هذا رد على الكفار القائلين بشفاعة أصنامهم .

وتدبير العرش للذكور هنا يقرب منه ما سيأتي في سورة هود عليه السلام « وكان عرشه على الماء » فالعرش هنا مقرون بالتدبير وهناك فوق الماء وللمنى متقارب ، فإن معنى الماء هناك ما أشاره الله تعالى في قوله « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » إلى قوله « كذلك يضرب الله الأمثال » فقد جعل الماء هو الذي يبقى في الأرض لنفع الزرع والضرع والإنسان وقد نزع عنه الزيد فصار جفاء وجعل مثلا للقرآن والعلم . وجاء في حديث البخاري « مثل ما بينتني الله به من العلم والمهدي كمثل التيث الكثير أصاب أرضا الخ » فصرح صلى الله عليه وسلم بأن الماء مثل للعلم . وهكذا جاء في سورة البقرة « أو كصيب من السماء الخ » فجعل القرآن هناك كالمطر النازل من السماء وعليه سار الماء هنا هو العلم والحكمة والتدبير ، فافهم هذا اللقاه نجد أن قوله هنا « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » نظير قوله « وكان عرشه على الماء » فهنا يدبر العرش بالحكمة والعلم ، وهناك كان العرش على الحكمة والعلم ، وأيضا إن المخلوقات على أقسام : فمنها ما هو خير بعض ومنها ما أكثر خيره ومنها ما قل خيره أو عدم ، والقسمان الأخيران لا وجود لهما إلا في عيالات الناس والأوتان موجودان ، وتزى المخلوقات الطبيعية من هذا القبيل كالإنسان والحيوان وأعم هذه المخلوقات وأظهرها الماء ، فيه حياة النبات والحيوان والإنسان والطهارة ، ومع هذه النعم الجليلة يفرق فيه عالم نافع وناسك صالح ومحجوز مسكنة ويفرق السفن ، وهذا الشر القليل اقتضت الحكمة أن يحتمل للخير الكثير ، فالماء مثل للعلم والحكمة ومن الحكمة أن يضطر الضرر القليل في جانب النفع الكثير ، فعرش الله مبنى على الحكمة ومن الحكمة ألا تترك هذه المخلوقات الطبيعية وأن يتحمل الناس ما يصيبهم من الآلام في جانب النعم الكثير وأيضا إن هذه العوالم الأرضية خيرها أكثر من شرها فلذلك بقيت وما أبقاها الله إلا لهذه الحكمة الظاهرة في الماء الكون في كل مخلوق مادي .

فهذا من لطائف التعبير بلفظ الماء الذي استوى العرش عليه ، فكأنه سبحانه يقول اقتضت حكمتي أن أدبر الأمور على الخير المحض وعلى ما غلب خيره لأن من ترك الخير الكثير للشر القليل باء بالجهالة ورجع بالندامة وهو حسير ، فما أجمل التعبير بالماء هناك ، فتدبير العرش هنا للعامة وللعلماء ، وكون العرش على الماء هناك للخوادم والحكام « وما يعقلها إلا العالمون » وما أبدع هذا التعبير ليرضى للفكرين وليقع الجاهلين وكأن قول الله « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » رمز إلى حكمة الحكماء في هذا اللقاه ، فإنه لا يبقى في الوجود إلا ما غلب نفعه والماء كذلك فلذلك مكث في الأرض ، وهذا اللقاه معانيه في الحكمة مسطورة ، ومقامه فيها مبرهن عليها ميسولة ، فأنظر كيف أشار الله في القرآن بلفظ الماء إلى غاية الحكمة ونهاية

الصفة فرمز بالماء إلى ما أطال به العلامة ابن سينا في كتاب الإشارات وشرح الشرح كالرازي والطوسي بأطول المبارات ، ولكن نافع ما أجمل الحكمة والفلسفة إذا نجات في كتاب سماوي ورمز لها في الوحي النبوي ، فقه در الحكمة الدينية والعلوم النبوية والآراء الحكمية .

فانظر كيف اتفق العلم والدين والإيمان واليقين ، وإذا طالت الحياة وكتبت في سورة هود لا أذكر من هذا شيئا إن شاء الله ، وإنما أحبك على ماسطرته هنا ، فافرح بنعمة الله وبهجة العلم وكن من الشاكرين .

جمال في إشراق شمس المعارف من قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر »  
 إنما اخترت لك هذا العنوان في هذا المقام لأنك ستري فيه بهجة الناظرين وقرّة أعين الفسّكرين وزينة الدنيا والدين وجمالا يأخذ بالألباب وحسنا قصرت عن أقله زينب وليلي والرباب وحكمة نسر الحكماء وتدهش الأدباء .

حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمنسج

ذلك أنه بينما أنا جالس أرتب مسودات هذا التفسير لأقدمها للطبع إذ حضر صديق لي فقال :  
 يذكر الله تدبير الأمر ويقول في بعض آياته « يدبر الأمر بفصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم فوقون »  
 فهل لك أن توضح لي هذا التدبير بشكل يفهمه الخاصة والعامة وأرجو ألا تخجلني على علم الفلك وطبقات الأرض وما أشبه ذلك ، وإنما أنا أحب أن تحضر لي موضوعا واحدا يكون فكاهة للتفكّهين وزينة العاقلين ومسر الجالسين بحيث أحدثت به ابني وأمرت به جليسي وأنتفع به في حقلتي وبستمهله نجلي وتسير به الكهرباء وتستعين به السيارات ويشفي للرضى وتحتاج إليه الأندية العلمية وأكثر أهل هذه الكرة الأرضية ، فعرضت عليه أواعان النبات والحيوان فلم يرقه ما أقول ولم يعجبه للنقول ولا للمقول ففكرت مليا وقلت قد وفقت على ضالتك للثبوت وعرفت غايتك المحموده خذ القول عني واسمع التفصيل مني ، ذلك أن هناك شجرا لا ينبت إلا في (البرازيل) بأمريكا وفي (برنيو) وفي جنوب أمريكا وفي وسط استراليا وربما ينبت قليلا في جهات أخرى كإفريقيا ولكن أثره في كل مكان مشهود ، ثمرة ليست بما كولة كالنخاع ولا بمشروبة كتنقوع الاقحاح ولا بدواء كالسنا للسخي وغيره من العقاقير ولا بزيت كشجر الزيتون ، وإنما تستخرج منه مادة سائلة هي عدّة للسافرين وزينة الكائنين وشفاء للرضى ومنتاع للقوي ، تنقى الحدائق والمزارع وتدفع النار عن المنازل ، لا يستغنى عنها مهندس ولا كاتب ولا يقوم بدونها درس مدرّس ولا حساب حاسب عمت سائر طبقات المتعلمين ودخلت جميع الدواوين وجالست الوزراء والأمراء وحافظت على قوّة الكهرباء وكانت خير الحافظات للماء فهي نور الله في أرضه وإشراق شمس حكمته ومجيب حكمه وبديع صنعه ، يحسبها الجاهل من سقط المناع وهي عند الحكماء نور أضاء سائر البقاع ، فلما سمع ذلك مني قال صف لي هذه الشجرة وصفا مدققا وبين أعمالها محققا ودع الإجمال وهات التفصيل ، فقلت هذه الشجرة عظيمة الحجم كبيرة الساق قد ألهم الله الأمم قد بما فتقوا قشرتها السميكة ووضعوا تحت الثقب إناء ينزل فيه سائل لبنّي ، وذلك السائل يصير جامدا بعد نزوله في الإناء ، وهذه تسمى (كاوتشوك) باللسان الإفريقي (ربراتري) يعني (شجرة الأستيك) كما قدمنا أو (مطاط) الأول بالفرنسية والثاني بالإنجليزية والثالث بالعربية .

وذلك أننا نشاهد في بلادنا وفي جميع المدارس والدواوين مادة تحافظ على حجمها دائما سواء أردنا مدها أم أردنا ضغطها فهي ترجع إلى حالتها الأصلية ، بها نحمو ما أردنا محمو بما كتبتناه ونزيله وهي (الأستيك) المذكور قراها في أيدي التلميذ والأستاذ والكاتب والحاسب وهكذا ، وهذه المادة جد أن يلقوها



في الأواني يغلونها وينظفونها ثم يضعونها بين اسطوانتين من الصلب بهما تضغط وتصير قطنا شق وهذا هو الأسيتك النقي الذي يكون في الصيف طريا لزجا وفي الشتاء صلبا ثابتا .

إن منفعة هذا النوع خاصة بأسلاك الكهرباء ، وأنه يمنع انفلات أي ذرة منها فهو حافظها الأمين ، إن هذا النوع يمكن إذابته بسائل متخذ من (البترول) للعلوم ومتى أجيل بذلك سمي إذن (الاسيتك المحلول) وهذا منفعة في إطار العجلات التي تجرى بها الدراجات (بيسكل) التي يركبها الناس اليوم ويحركونها بأرجلهم فإذا نضب ذلك الإطار أمكن رتق فتحة بهذه المادة التي هي في الحقيقة من مادته .

### الاسيتك والكبريت

هذه المادة النقية المتخذة من الشجرة إذا أضيف إليها مقدار قليل من الكبريت فهي التي نراها بين ظهراينا وهذه لها خاصتان :

إحداها : محافظتها على حجمها . ثانيتهما : أنها أقوى مانع يمنع مرور الماء

فبالخاصة الأولى تصنع منها إطار العجلات في الدراجات التي وصفتها هنا وفي العربات وفي السيارات التي هي باللسان الأفرنجي (متركار) فهذه الآلات تصالح للركوب بهذه المادة وترجع الراكبين .

وبالخاصة الثانية تصنع منها قفل الماء التي تحفظ على درجة الحرارة السكامة فيه والوسائد التي يكون حشوها هواء ، والأواني التي يعمل فيها الماء الحار ليستدق بها للرضى بمقتضى أمر الطبيب ، وتصنع منها الأنايب التي في أيدي الرجال القامئين بإطفاء النار المشتعلة في المنازل والمدن والقرى ، وهكذا الأنايب التي تسقى بها الحدائق وتصنع منها (معاطف وأردية) تمنع المطر عن لابسها .

وهناك حال أخرى لهذه المادة ، وهي أن يضاف إليها من (٢٠) إلى (٣٠) جزءا من مائة جزء من الكبريت ، وإذا ذلك تصبح ذات خواص وأوصاف مغايرة لسابقتها صالحة لأعمال غير أعمالها ، ذلك أنها مادة سوداء لامعة صلبة كصلابة قرن الحيوان ، وهذه تصنع منها مساطر ومقايض توضع في نهايتها أسنة الأفلام وتدخل في كثير من الزينة وحلية نوع الإنسان ، انتهى وصف هذه الشجرة ومنافعها وخواصها .

### رسم شجرة الاسيتك



شكل (١)

ألا ترى رعاك الله سبحانه ؟ انظر ثم انظر كيف خصها الله بأرض دون أرض وجعلها في أمم دون أمم وانظر كيف جعل لها ثمرة غير ما عرفه ، نحن نأكل التمر ونتم الورد ونأكل القابن والقشدة من شجرة القشدة للعلومة ونلبس من الكتان والقطن ، كل ذلك معروف مفهوم إنما هذا له فائدة غير ما عرفناه وحكمة غير ما أدركناه ، فانظر كيف خزن الله هذه المنفعة في الشجرة حتى احتجنا إليها ، علم الله أننا نحتاج إلى الكهرباء بعد آلاف السنين ، فماذا صنع ودبر ؟ خلق هذه الشجرة قبل خلق الناس ووضع فيها هذه الخاصية ، ولما جاء هذا العصر قال أنتم لن تحفظوا ذرات الكهرباء إلا بهذه المادة وهي نقيه فلا كبريت يخالطها ولا غبار يمتزج بها فاذن تحفظ الكهرباء للإضاءة والإشراق في كل مكان ، مدد الناس الأسلاك البرقية (التلغراف) في الأرض ولم يحرق الناس شيئا

لدها في البحر حتى عثروا على هذه المادة فحفظت الأسلاك البحرية من أضرار الماء لها فبها كان تواصل الأمم وتعارفها كما قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فهمه إحدى دواعي التعارف ، أليس هذا هو التدبير ؟ يقول الله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ويقول « يدبر الأمر بفصل الآيات » فهذا من تدبير الأمر وهذا من تفصيل الآيات ، هذا بعض أنواع التدبير والتفصيل .

علم الله قبل أن يخلق حاجتنا إلى الأسلاك البحرية التي سيخلقها فدبر هذه الحكمة والحاجة المذكورة . دبر الله هذه المادة ووضعها في هذه الشجرة ، وخزن الفحم في أعماق الأرض ، ولما أراد ارتقاء نوع الإنسان علمه البيان وأرسله إلى باطن الأرض فاستخرج الفحم وجرت به القطرات وأدار الدوالب وسقى الأرض وحمل على ذات ألواح ودرر في البر والبحر واستخرج الكهرباء واحتاج إلى ما يحفظها فأرسله إلى تلك الشجرة فقررت عينه واستخرج منها ذلك السائل .

(١) فكان حافظ الكهرباء .

(٢) ثم ألهمه أن يذيب تلك المادة فأصبحت رتقا لفتق العجلات في سفره .

(٣) ثم ألهمه أن يضيف إليها الكبريت قليلا فكانت ساقية لبستانه مطعنة لنار احتراق منزله الخ ما تقدم .

ثم زاد الكبريت فعظمت المنفعة في الكتابة ونظام رسم الخرائط وجمال الكتب وزينة نوع الإنسان ، تبارك اسمك وتعالى جدك دبرت بحكمة .

(١) جعلت هذه الشجرة قليلة في الدنيا لأن كثرتها في الأرض معطلة للنافع بأثرة التجارة ، كيف لا وهل هي تشابه النخل يحتاج إليه في حوز الرطب والتمر وما أكثر حاجتنا إليه ، أما هذه الشجرة فإنها وإن عمت الحاجة إليها فإن ما نستعمله منها لا يوازي عشر معشار ما يحتاج إليه من النخل وكثير من أشجار الفاكهة والزيت ، لذلك قات هذه الشجرات في الأرض .

(٢) ثم هي متباعدة في أقطار السكونة ليرحل الناس إليها ولم تقرب من تناول كل حي فحي كالعلم محرم منه من لا يستعد له وإن كان المعلوم مشاهدا محسوسا ولا يحظى به إلا من هم له مشوقون وبحصيله مضمون ، إن هذا الإنسان خلق ليكون في حركة جسمية وعقلية أمد الحياة ، تباعدت مطلوباته لتكثر أعماله فتقوى روحه ويتعود الصبر والنيات ؛ فالحكمة في هذه الشجرة أشبه شيء ببعض الحكم في الحج ، جعل الله الحج ليكون من فضائله التدريب على فراق المألوف والتعرف بغير ما هو معروف والتأني عن الكسل واللبادة إلى العمل والسعي لصفاء النفوس وللزودة لتجلى للناس معاني هذا الوجود .

(٣) كلما كان الشيء أشرف كان أعز مطلباً وأغلى ثمناً وأبعد في طلبه كما نرى في الذهب والفضة والأحجار الكريمة وهذه الشجرة .

آراء نوع الانسان في أمثال هذا المقام

اعلم أن الناس في أمثال هذا الموضوع ثلاث طبقات :

(١) طبقة دنيا وهم العامة وكثير من أوصاف التعالين ينظرون الى مثل هذه المادة وأمثالها نظرياً الى ما يأتون ولا ينظرون الحقائق الكامنة فيه .

(٢) وطبقة وسطى وهم الذين يدرسون منافعها كما يدرسون منافع كل مخلوق .

(٣) وطبقة عليا وهم الذين تجلت مواهبهم ونظروا لهذا وأمثاله نظرة عامة محيطية ترجع الى التدبير العام والنظام الكلي أولئك هم أعلى نوع الانسان وهم آباء والناس جميعا أبنائهم ونسبهم الى الناس كنسبة الملوك والأمراء الى عامة الشعوب ، فهؤلاء يقودون المفكرين في الأمم الى النظرات العامة الشارحة للصدور ولنحو هذا جاء الأنبياء بطريق الوحي ، فهؤلاء نظرهم كلي وحسبك ما نرى في القرآن من أمره للناس بالنظرات العامة ، وكلما قلت هذه الطبقة من أمة قلت سعادتها ، وكلما كثرت زاد ارتقاؤها ، هؤلاء هم الذين يدرسون هذا الوجود درسا يفهمون به التدبير العام ، وهذه الطائفة تنقل في نوع الانسان كما قلت هذه الشجرة من بين الأشجار ولكن علمهم يعم الأفطار كما عمت منافع هذه الشجرة الأمصار .

هذا كله تدبير محكم منظم ، إن هذا الوجود كله ساعة منظمة وهيكلي محكم ، هذا الوجود كله لا فرق بينه وبين جسم الإنسان والحيوان من حيث الإتيان والنظام ، انظر كيف علم الله احتياج الناس في أسفارهم في عصرنا إلى ما يرتقون به فتح المجالات فوضع هذه الخاصية في تلك الشجرة . فسكا نرى العين في الإنسان والأذن وبقية الحواس لانتم منفعتها إلا بالأيدى والأرجل والأحشاء وبقية الأعضاء وأعصاب الحس والحركة بحيث نرى هناك اتصالا بين المخ وبين أطراف اليد والرجل وجميع الشعر ، هكذا نرى هنا ارتباطا وثيقا بين الناس وبين منافع الأرض في سائر الأفطار ، وهذه الشجرة من شواهد ذلك فهناك ارتباط القمح بالكهرباء بهذه الشجرة بحياتنا بعلومها بمدارسنا بالشمس بالقمر بالكواكب .

كل هذه متصلات اتصال أعضاء أجسامنا ، هذا هو معنى قوله تعالى « ثم استوى على العرش » ، وقوله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وقوله « يدبر الأمر بفصل الآيات لعلكم تلتقون » . انظر إلى قوله « بفصل الآيات » وانظر إلى أنه أتبعها بقوله « لعلكم تلتقون » لماذا جعل هذه الجملة بعد التي قبلها وأتبعها بها ، أما تفصيل الآيات فما هو ذا كثير في هذا التفسير ، أما الإيقان فلماذا يكون عقب ذلك ؟

#### الإجابة على هذا السؤال

يجب عالم البلاغة على هذا السؤال ويقول لما بينهما من الجامع العقلي أو الوهمي أو الخيالي إلى آخر ما تراه مسطورا في كتب البلاغة كافتتاح للعلامة السكاكي وكتاب السعد التفتازاني وغيرها ، وهذه إنما تنفع المتعلمين أثناء دراسة اللغة ولكننا نحن الآن نريد أن نبين ما عسى ذلك في عصرنا الحاضر : أي في القرن العشرين ، انظر إلى علماء القرن التاسع عشر فإنهم كانوا غالبا لا يعكرون في النظام العام باعتبار التدبير والإحكام بل باعتبار النشوء والارتقاء ، وكثير منهم من أنكر صانع الوجود لتنظيم لكل موجود لأن أنظارتهم انصرفت على مادون النظام التام ، فلما أن بزغت شمس العلم في عصرنا ظهر في الأمم مجددون وحكماء مفكرون ، منهم :

(١) العلامة (إيلي دوسيون) في كتابه [ الله والعلم ] الصادر سنة ١٩١٣ قال [ الفرضان اللذان يقوم عليهما مذهب الفائلين بالانتخاب الطبيعي وانتقال الصفات المكتسبة قد نقض الأول (سبنسر) و (ويسمان) نقض الثاني ] وقال إن انتقال الصفات بطريق الوراثة لا أصل لها وبرهن على أن هذه الشهادات الزعومة لا تقوم إلا على حكايات معترة لاتملو قيمتها العلمية عن قيمة حكاية الرضعات ، وترى أمثاله كثيرين في عصرنا أمثال الدكتور (ادوارد هارتمان) إذ قال : [ إن الدين قالوا إن هذا العالم وجد بلا قصد كلامهم من الأمور الوهومية التي لا أساس لها ، وعلا ذلك بأن الطبيعة ذات نظام ميكانيكي ، ولا يمكن النظام بلا قصد كما

لا يمكن القصد بلا نظام ، وكل ما لا نظام له فهو مهمل في فوضى كالثيران الهائمة والطبيعة التي يعملون بها ليست كذلك [ اه ] .

وأمثال (لويز بورديو) إذ قال : [ يجب أن يعترف بأن هنالك قصدا مقصودا وروحا مدبرة لأنه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها فالقصد يظهر في تلازم الحوادث ويشبث به ] .

وأمثال الأستاذ (فون باير) الألماني في القصد قال : [ إذا كانوا يملنون الآن بصوت جهورى بأنه لا قصد في الطبيعة وأن السكون لا يقوده إلا ضرورة عمياء ، فأنا أعتقد أن من واجباتي أن أعلن عقيدتي في ذلك وهي أنى أرى أن هذه الموجودات تؤدي إلى أغراض ومقاصد سامية ] .

وأمثال (كاميل فلامريون) الذى قال . [ إن درس الوجود يجعلنا ندرك أن له نظاما مقررنا وغاية دفع به إليها ، إن التبصر الذى يظهر في النباتات والحشرات والطيور الخ وهي غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها وامتناعا للشاهدات في النارخ الطبيعي يستنتج منها أن في الطبيعة عقلا مدبرا ] .

وهكذا كثير من الحكماء ذكرناهم في غضون هذا التفسير كلهم نظفوا بمعنى هذه الآية « يدبر الأمر » وهذه شهادتهم طرّا ترجع إلى قوله تعالى « لعلمكم ببقاء ربكم توّقون » فمطف الجملة التي فيها الإيقان في سورة الرعد التي تناسب ما في هذه السورة ظهر أثره في هذا الزمان فإن العلماء الذين أثبتوا وجود مدبر للسكون رجعوا في براهينهم إلى هذا التديير المحكم ، فالتديير والتفصيل كما رأيت في الشجرة المذكورة هنا هو الذى أورش اليقين واليقين أشرف من الإيمان وهو المذكور في قوله تعالى في سورة الأنعام « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الوّقين » فلما سمع صاحبي ذلك قال : هل من علماء غير هؤلاء بحثوا في هذا للوضوح وأنى لهم اليقين كلسابقين ، قلت : قد كتب العلامة (ادمون برييه) في مجلة [العالم الحى] سنة ١٩١٢ ، قال إن نفة الأستاذ (جينو) بتأثير البيئة (الوسط الخارجى) ضعيف جدا ، فإن هذه البيئات على ما يقول لا تصلح لإيجاد أى تغيير ورأى ثابت ، فالبط وسائر الطيور المائية ترى ممتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء . فيظن أن هذه الأغشية قد أوجدها نوع معيشتها ولكن بالنكس من ذلك في مذهب اللسيو (جينو) فإنه يقول بأنها وجدت لها مقدا بدون تأثير من الخارج وأخذ البط يوم لأنه وجد له أرجلا مغطاة تصالح للوم ، فهذه الحيوانات قد أعدت من قبل للوم : أى أنها خلقت لتعوم قبل أن تستفيد تركيب أرجلها من العوم .

(٢) وأيضاً الأستاذ (بلوچر) الألماني الشهير قال : [ لم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال الصفات بالوراثة ] وأيضاً قال الفزيولوجى الكبير (دوبوار بند) [ إذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن يعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلفت لمجرد تعديل الحوادث للراد تعامليها وأنها هي نفسها من للفترضات الغامضة ] فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذه أقوال لا أفهم لها معنى ، ما هي الصفات المكتسبة والوراثية ؟ هذا كلام غامض ، قلت : أنا قلت لك إن علماء القرن التاسع عشر وما قبله كانوا يقولون إن هذه الحيوانات يكتسب الفرع منها صفات الأصل ، وهذا أصل من الأصول الأربعة التي هي مذهب (داروين) .

(١) وهي أن الحياة ذات أطوار وتغيرات وانتقال من حال إلى حال .

(٢) وهذه التطورات تنتقل بالوراثة إلى النسل .

(٣) وأن الأحياء جميعها بينها تنازع البقاء .

(٤) وكلما كان الحى أتم وجودا وأقوى وأكل كل كان أصلح للحياة والبقاء والأضعف محكوم عليه بالفناء .

فهؤلاء العلماء في القرن العشرين نازعوا في بعض هذه القضايا ، ومعنى هذا أن الذهب الأول يقول : إن العالم لاصانع له وهتده التنوعات كافية في مقامه ، وعلماء هذا القرن الذين ذكروهم والذين لم أذكرهم هم الذين يقولون كلا إن للعالم صناعا وبرهانه ما يشاهدون من نظام الحشرات والإلهامات والمعجائب كما شرحناه في هذا التفسير وهو مضمون قوله تعالى « ثم استوى على الرش يدبر الأمر - هنا وقوله - يدبر الأمر يغسل الآيات لعلكم تلقاه ربكم توفون » ثم قلت : وبهذا ظهر أن هذه الدنيا ومن عليها من الناس أشبه بأم تربي أولادها ؛ فكما أن الأم يخلق لها الثديان قبل خلق الولد ، واللبن يخلق في الثدي قبل الولادة ، هكذا الناس خلقت لهم قبل أن يخلقوا هذه الحيوانات ، وهذه الشجرة التي نحن بصدد الكلام عليها وذلك من التدبير ويناسب قوله تعالى « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

هذا ، وسترى في سورة النحل والنمل والعنكبوت وغيرها من السور عجائب الحيوان وبدائع تلك الإلهامات والقوى التي أجمع حكام عصرنا في الأمم كلها على دلالتها على حكمة نظمها ، وهكذا سترى في سورة الذر عند الكلام على قوله تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » إفاضة الكلام على بعض الحشرات اللاتي خلقت لتميش في أجسام الحيوان والإنسان ، فالتناس حرم عليهم أن يأكل بعضهم لحم بعض لا بالقبية ولا بالأكل الحقيقي ، ولكن أحل الله ذلك للذرات صغيرة خلقها لتميش في أجسام أناس مستعدة للمرض وللموت لتخلو الأرض لعيرهم وتصلح بسكانها ، فلها شأنان : شأن أنفسها تميش وتنمو وتلد وتغلفها غيرها لتفهمنا قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا طائر بطير مجناحيه إلا أمم أمثالكم » فالثالثة هنا سيظهر أثرها في بعض أحوالها ، إذ تميش هذه الحيوانات القرية في أجسام الناس والحيوان ، وأما بالشأن الآخر فهي أنها أشبه بالنسطة الذين يكونون في المدن ليحفظوا النظام ويمنعوا تصادم المارة في الطرقات والشوارع ، هكذا هذه الحيوانات القرية خلقت لتقلل من الإنسان والحيوان « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة » ولو كره الناس أجمعون ، وهناك ترى أن هذه أيضا من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو وإنما علمنا بعضها لأنه قال « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » فالذي تعلمه الآن بما شاء الله أن يعلمه للناس من جنوده .

واعلم أن هذا التفسير جعله الله مقدمة لهضة الأمم الإسلامية فهو أشبه بشدى الأم قبيل الولادة ، إذ يكون مستعدا لدرء اللبن وكهذه الشجرة المنبأة في بلادنا ( بالاستيك ) وأيضا ( كوتشوك ) مأخوذة من كلمة فرنسية وتقدم ذكرها بالإنجليزية ، ويقال لها في بلادنا المصرية أيضا ( مطاط ) ، فكما خلقت هذه الشجرة قبل خلق السكرباء وأفادتها هكذا ظهر هذا التفسير الذي سبق ظهور آلاف من قادة الإسلام في مستقبل الزمان وسيقره وانه ويكون لهم شأن في رقى الأمم الشرقية « ولتعلن نبأه بعد حين » انتهى ما أردت ذكره في هذا المقام .

#### فريدة في التدبير العام

إن التدبير العام نوعان : نوع لتدبير القوة ، ونوع لتدبير المادة ؛ فالنوع الذي هو لتدبير القوى ، فذلك أننا نرى غرائز حيوانية وعقولا إنسانية وقوى قدسية ، أما الغرائز الحيوانية فهي أدنى الدرجات أنها قد ألهمت جميع ما يحتاج إليه في حياتها وبناء مساكنها وتربية أولادها ونظام أعمالها .

ناهيك ماترى من نسج العنكبوت ودقته ومسدسات النمل وهندسته وحرص الحشرات على تربية ذريتها سواء أكانت من التي تسكفل تربيتها كالنحل والنمل أم كانت تموت قبل أن يفقس بيضها كما ترى في الناموس الذي ستعرف تفصيله في سورة الذر عند قوله تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » والجراد ودود القز

إذ الناموس لا يضع بيضه إلا في اللسعات والأماكن التي تكون مرعى خصيبا لتربيته قبل استكمال قوتها .  
هكذا الجراد لا يضع بيضه إلا في أماكن خاصة وهي يدفنها في الأرض بحيث لا تكون أبعد ولا أقرب من  
الوضع الذي يصح معه التفرغ في الأرض . وهكذا سائر الطيور علمت وألمت جميع ما يحتاج إليه في أنفسها  
وذرياتها ، وهذا التفسير قد جمع ما يكفي ذا اللب في مثل هذا ، وهكذا العلوم اليوم في الأمم المحيطة بنا  
تكفلت بهذا البيان وأعطت اليقين للمكبرين ، وهذا كما قال الله تعالى « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »  
وقال « سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » فهذا هو التقدير وهذه هي  
الهداية وبهذا وأمثاله يكون العلم واليقين .

#### العقول الإنسانية

أما العقول الإنسانية فإنها أرقى من الفرائز الحيوانية ، إن الغريزة خاصة بعمل لا تحيد عنه ، ينسج  
العنكبوت ويصطاد بشبكته ويظير بنسجه كما يظير الإنسان اليوم في الجوّ ويعمل له ما يشبه القنطرة وبنى  
مساكن من نسجه . وهكذا مما سترأه في سورة العنكبوت مفصلا موضعا وهكذا غيره ، كل هذا لا يصل  
إلى درجة الإنسان ، فإن الحيوانات وإن كانت غرائزها بحسبها هي قاصرة ، أما العقل فهو أوسع نطاقا وأرقى  
وأقوم وأقوى فهو أعلى من الغريزة ، ناهيك ما تراه اليوم من الإبداع والارتفاع والارتقاء .

#### القوة القدسية

أما القوة القدسية فهي أعلى من التسمين . فالعقل وسط بينها وبين غريزة الحيوانات ، ولعلك تقول  
أين القوة القدسية ؟ إنها خاصة بالملائكة وأنت عودتنا في هذا التفسير أن نجعلنا نلمس الحقائق بقولنا .  
العقل عرفناه والغريزة فهمناها ، أما هذه القوة القدسية فإننا لم نعرفها إلا نقلا من كتب الديانات أو من  
كلام الفلاسفة ، قلت اعلم أن هذه القوة نعرفها نحن بأنفسنا ، ذلك أننا رأينا طائفة من هذا الإنسان لهم قوة  
غير القوة العاقلة وهي أشبه بفرائز الحيوان وغرائز الأمهات بالنسبة لأولادها ، قال هذا لم أنهمه فأوضحه ،  
قلت إن الأم والأب لهما غريزة أشبه بغريزة الحيوان من حيث العطف على ولدها ، إن للإنسان غرائزه  
كما للحيوان في الأكل وتربية الولد وغيرها ، ثم هو امتاز عن الحيوان بأن العقل ساعد الغريزة في تربية ولده  
ولكن الطائفة الممتازة التي ألقيت إليها القوة القدسية أو بعض آثارها هم طائفتان : الأنبياء والتابعون ومنهم  
الحكماء ، فالأنبياء يتلقون الوحي عن الملائكة . ولا جرم أن هذا فوق متناول العقل .

ثم إن الأنبياء اليوم ليس منهم أحد على الأرض وإن الله عز وجل خلق في كل أمة من أمم الأرض  
أناسا استعدادهم خلق للمعوم لا للخصوص ، فهم أبدا مغرمون بإسعاد المجموع أو بتعليمه يمدون ذلك  
في صدورهم ويحسون به في أنفسهم لا يقرّ لهم قرار ولا يكون لهم اضطراب إلا إذا جدوا في الأسفار وقطعوا  
القفار وركبوا متن البحار واستخدموا الكهرياء والبغار لنيل الأمان والأوطار وإدراك المعالي وحوز العلوم  
وتقع المعوم ، وهؤلاء ليهم ساهر ونهارهم عامل ، فهذه الحال لا تفارقهم ، وهذه الأخلاق لا تتأدرم فهم  
مع العلم ومع أهمهم أشبه بالأم الواهية على ولدها ، المولعة بغلظة كبدها ، ولكن هذه الصفة في هؤلاء الأشراف  
أعلى مقامها وأرفع منارا وأشرف مقصدا ومحتدا فلم تنحط إلى غرائز الحشرات ولا إلى عطف الأمهات من  
الآدميين والحيوانات بل إنها تعلو على العقل وتسخره فتجد تلك الموهبة تسوق العقول التي جاورتها  
في الأجسام التي حملتها فتحمل المتصفين بها على تحمل المصائب وقطع السباب وإفراغ الجهد في استخدام  
العقل ، ذلك هو وصف التابعين في سائر الأمم والله لم يخل الأرض قديما ولا حديثا منهم ، وكل يظهر في أتمه  
ما وفق له من أمر مادي أو معنوي ، كل ذلك لإلهام يلهمونه كإلهام الحيوان وعامة الإنسان ولكن هذا  
أعلى من العقل فهذا إفاضة من الملائكة ، وترى الإلهام في الأمم المادية كأهل أوروبا يرجع إلى المادة

وفي الأمم التي قصرت همها على الأمور الروحية نبغت فيها فقط وكلاهما إلهامه ناقص ، فأما الأمم الإسلامية التي ستظهر بعد هذا التفسير وأمثاله فإنها سيكون إلهامها جامعا للأمرين معا فلا يقفون عند الماديات كأهل أوروبا غالباً ولا على المعنويات والروحيات كبعض الأوروبيين وعمامة أهل الهند فيكون الإلهام شاملاً للأمرين نافعا في الروح والجسم والمعنى والمادة .

وهذا عرفت القوى الثلاثة : الغريزة والعقل والقوة القدسية ، وأن هذه القوة في عالم أعلى منا وتنزل على أفراد في الأمم المختلفة وتظهر على أيديهم منافع للناس وسعادة مادية أو معنوية ، وأرقى هذه الطائفة هم الحكماء الذين يدرسون هذا الوجود وهم مغمومون بربههم وبنظامه وبنظام الأمم ، فوجود هؤلاء في الأرض دليل على أن هناك قوى أعلى منهم يستمدون منها إلهاماتهم وهم يبنون عليها سواء أعلوا ذلك كالأنبياء أم لم يمدوا كالحكماء وبعض التابعين .

فهذا هو النوع الأول من النوعين العاقبين للتدبير وهو تدبير القوة ، فظهور أناس في الناس امتازوا بقرعة أرقى من غيرهم ، وعموم العقول في الناس وعموم الغرائز في الحيوان في ذلك كله معنى التنزل من السماء إلى الأرض يكون الوحي للأنبياء فيعملون العقلاء وهؤلاء العقلاء يفسكرون في الوحي وبذهبون مذاهب شتى لنفع الناس ، فهذه العقول كلها مسخرة لهذه اللوهم القدسية ، ثم إن غرائز الحيوان والإنسان تحت ذلك كله مسخرة مطبوعة كما سخر الله الإنسان ففتح الحيوان طوعاً أو كرهاً ، ألا ترى أنه يقدم الطعام للنور وللغرس وأنه يزرع القطن فيأكله الدود . فهو ذا الإنسان سخر طوعاً وكرهاً ككل مخلوق .

وملخصه : أننا نرى القوة القدسية ألفت شعاعاً من العلم على العلماء التابعين للأنبياء ، وبالإلهام للتابعين والحكماء ، وبالقوة العقلية زرع الناس ونظموا الأرض فأكل الحيوان أردنا أم لم نرد ، هذا هو معنى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » في هذا المقام وهو الكلام على القوى الثلاث وبه تم النوع الأول وهو تدبير القوة .

#### النوع الثاني من التدبير العام : تدبير المادة

إن تدبير المادة أيضاً داخل في قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » فكما رأينا القوى يمد أعلاها أسفلها ، هكذا رى المادة يمد أعلاها أسفلها .

ألم تر إلى الشمس كيف كان أهل الأرض لا يعيشون إذا لم يكن ضوءها مرسلًا إلى أرضهم فسترى في سورة « الشمس » صحاها « كما رأيت في مواضع كثيرة من هذا الكتاب مثل ما في سورة الفاتحة وغيرها ، أن كل مخلوق على الأرض لا يحيا إلا بوجود الشمس فلولاها لم يكن ريح تهب ولا ماء يجري ولا حيوان يدب ولا إنسان يوجد بل تكون الأرض قاعاً صفصفاً ، ثم إنك ترى السحاب يجري والرياح تهب كل ذلك لمنافع الناس على الأرض ، فهاهو ذا الأعلى تقع الأدنى كما نعمت القوة العالية وحافظت على من دونها طوعاً أو كرهاً ، سخرت العوالم المحيطة بنا لحياتنا ، وامتلأ الجو بالبخار والسحب وزلت الأمطار وزجر الرعد ولمع البرق وهبت العواصف فبنت الزرع وازيقت الأرض للناظرين وبهرت النجوم في سمواتها وأرسلت أشعتها تترى لأهل الأرض فساروا على هداية ضوئها في البر والبحر فكانت نورا لسارهم وهداية لمسافرهم ومرشداً لربانهم ونجاة لسفنهم وإسعادا لبدوهم وحضرمهم وهم آمنون .

#### مستقبل الأمم على الأرض وواجب المسلمين

ها أنت ذا أيها القدي قد اطلعت على ترتيب التدبير من السماء إلى الأرض في القوى والمواد ، وها أناذا أذكر لك نتائج ذلك في الأمم فأقول :

قد تبين لك أن العنقول موزعة على الناس وللنافع على الأرض في مواطن من هذا التفسير وأهل الأرض متضامنون وليس لهم دخل في إنزال المطر ولا ضوء الشمس ولا خلق الهواء ولا خواص الأرض ، تضئ الشمس وتثير الرياح بحرارتها فتجري السحب فتزل على الأرض والناس يتقون الماء فيها ويزرعون والماء يجرى في الأنهار إلى البحر الملح ، يظن الإنسان لأول وهلة أن هذا الماء الجارى إلى البحر ضائع لافائدة منه كما في ماء النيل بمصر ودجلة والفرات المحيطين ببلاد الجزيرة ، وكثير الكنج بالهند وكبير الأمزون وغيرها .

يقول الناس إن الماء يجرى أيام الفيضان إلى البحر ولا فائدة منه بل هي قوى معطلة وليس الأمر كما يظنون . إن الماء إذا سقى الحقول وأنبت العشب وعاشت به الأمم فإنما مثله مثل رجل يسعى أولاً ما يبقى جسمه ثم تراه يسعى ليربي أولاده ليمشوا بهده ، هذه حال هذه الأنهار ، الناس يعيشون بها ثم هي تجرف الطين والرمل والحصى إلى البحر كل سنة ليكون ذلك طبقات وراء طبقات بها تتكون الجبال في قاع البحار فيعلو هناك كما تعلو اليابسة كل سنة (بالعرين) الذى يحمله الماء ، تجمع الجبال التى تراها كالمقطم وكجبال همالايا وغيرها كما ستراه مفصلاً في هذا التفسير في السور التى بين سورتي يوسف والنحل إن شاء الله تعالى ، وفي قوله تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » إلى قوله « وإلى الجبال كيف نصبت » في سورة العاشية إنما تتكون أولاً في البحار في مئات الآلاف من السنين ، فهى أجنة في بطون البحور تخرج بعد أم طويل ، إذن ليست القوى معطلة ، فالتبر إذا عشنا بماه فوق الأرض فإن ما فضل يستعمله بإذن الله في إحداث عوالم ستكون بعد قرون ، فالجبال مكوّنات من فضلات الأنهار كما كوّنّت الأجنة مما فضل من غذاء الأبوين في أحسامهما ، فالطفعة منهما من فضلات الدم الجارى في عروقهما ودم الحيض الذى لا يكون إلا زمن القوة والابن الغدى للطفل ، كل ذلك فضلة فائضة من القوى كما فاض النهر وجرى فسكونت به هذه الجبال ، وليس معنى هذا أن الناس على الأرض ينامون ويتركون أنهارهم ؟ وإنما هذا تدير محكم ونظام عجب عام .

#### ازدياد الناس على الكرة الأرضية

ازداد الناس اليوم على سطح هذا السيار الذى نعيش فيه وازدحمت القرى والأمصار بسكانها واشترأوا إلى منافع الأرض وقد علموا أنهم متضامنون وإن لم يعملوا بهذا التضامن ، والذى أراه أن الناس سائررون إلى حال ستجمعهم طوعاً أو كرها ، سيفكر الناس في استخدام جميع المواهب العقلية في الإنسان والخواص في الأرض كما ستراه في ملخص كتابى [ أين الإنسان ] في تفسير قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وذلك بقلم الأستاذ ( ستلانة الطليانى ) تقريباً له وهو مترجم إلى العربية من التليانية ، فإن هذا الملخص هناك هو معنى الآية وهو موضع لهذا اللقاه .

قرب الوقت الذى نحاسب فيه كل أمة على ما فرطت في عقولها وما أهملت من أرضها كما في الكتاب المذكور ، قد رأيت ألا تسمى في الوجود معطل وأن ماء النهر الجارى إلى البحر له عمل فيضطر الناس إلى أن يحاسب بعضهم بعضاً على ما أضعوا من قوى ، وستقول كل أمة للأخرى إن عندك قوى محزونة في جبالك أو فى مائك أو فى أرضك أو فى عقول أبنائك فاستخرجها لأن النافع تعود منك على التجارة والبادقة وغيرها فإذا أتت قهرها غيرها واستخرجوا النافع وشاركوها ، ذلك سيتم متى ازداد عدد السكان سيضطرون لذلك اضطراراً لأنهم متضامنون كما قدمنا ، وأضرب لك مثلاً :

خذ ملابس صبي من صبيان المدارس فى أنحاء الأرض الآن فهى مركبة من :

(١) صوف يحضرونه غالباً من استراليا أو من جنوب أفريقيا .

(٢) أو قطن مستحضر من مصر أو أمريكا أو بلاد الهند .



- (٣) أو كان مستحضر غالبا من بلاد اروسيا أو بلجيكا أو إرلنده .  
 (٤) ويحتاج إلى سير من جلد مخصوص وهو يجلب من أمريكا الشمالية .  
 (٥) ويسنع ذلك كله في بعض ممالك أوروبا .  
 (٦) وأزرّة من فضة تستجلب من بلاد (السكيبك) .  
 (٧) ومشابك أخرى إما من نحاس أصفر مستخرج من النحاس الأحمر المستجلب من أسبانيا .  
 (٨) أو من قصدير من شبه جزيرة بلاد اللابو .  
 (٩) وكل هذه تحملها السفن فتعب البحار .  
 (١٠) وقس على ذلك كل ما يحتاج إليه .

واجب للمسلمين الذين ألف لهم هذا الكتاب

أيها الذكي إياك أن تظن أن إطالة هذا الموضوع خارجة عن الآية في التديير العام ، والتديير العام انحصر في القوى واللادة وقد رأيت تديير القوى من الأعلى إلى الأدنى ، والبادء أيضا من الأعلى إلى الأدنى وهذا ملخص ما ذكرنا وهذا الكتاب للمسلمين وأنت مخاطب لأنه لا يفهم هذا إلا أناس لهم قوة بها يفرقون المجموع والذي ذكرته علم والعلم إن لم يصحبه عمل ضاع فها أنماذ أو صيغ المسلمين ، إن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم من كل جانب وقد سبقهم الصاري والمجوس واليهود فعم التعليم اليهود واليابان وأوروبا ولم يبق جاهل إلا المسلم ولا يتعلم غالبا إلا القليل ، فجد كل الجهد واتخذ سبيلا إلى تعميم التعليم حتى نلحق بالأمم وهذا لا يحتاج إلى أكثر من عشرين سنة ، ومتى نما التعليم في الأمم الإسلامية أمكنها استخراج النافع من العقول ومن اللادة كما شرحنا ، يدبر الله الأمر من السماء إلى الأرض ونحن مكلفون أن نعمل بقدر طاقتنا ، ومتى ارتقت أمم الإسلام صارت مجارية للأمم الأخرى وحينئذ تكون مساوية لهم فلا تتمم أنها عطلت عقول أبنائها ولا منافع أرضها وخواصها ولا للطر النازل في أرجائها ، فإن لم تكن سابقة الأمم في ذلك فلن تكن مساوية لهم . هذه هي السبيل التي يجب اتباعها ونشرها وأن هذا التفسير وأمثاله في هذا العصر مقدمات لتلك الرقي للشهود والحمد لله رب العالمين .

فصل في قوله تعالى « وقدره منازل »

هي ثمان وعشرون منزلة أولها الشرطين وآخرها بطن الحوت وهي مقسومة على اثني عشر برجاً أولها الجمل وآخرها الحوت لكل برج منزلتان وثلاث منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين ، وإن كان تسعا وعشرين اختلفت ليلة واحدة .

القمر أصل الشهور والأسابيع

اعلم أن القمر لولاه لم تكن شهور ولا أسابيع ولكن اختلاف الناس عسيرا في حسابهم ؛ وبيانه أن دورة القمر التي تتم في ٢٨ يوما كما تقدم جملة مقياسا للشهر ، ثم بالنظر لاختلاف الفصول من شتاء وصيف وخريف وربيع جعل مقياسا لها فجعل كل فصل ثلاثة أشهر وكل شهر أربعة أسابيع وكسر .

فدورة القمر هي التي نهت النوع الإنساني إلى أقسام السنة الاثني عشر الهامة شهورا ، فأما سير الشمس فلم يحط الناس إلا بالفصول الأربعة باعتبار بعد الشمس وقرها وهي الدورة السنوية ، ههنا أخذت الأمم تفصل أيام السنة وشهورها بحسب ما يعين لها فإنيهم لما رأوا الأسبوع سبعة أيام لم ينظروا ليوم ينظر واحد .

(١) الكلدانيون والفرس يعملون ببداة من شررق الشمس ويعملونه ٣٤ قسما متساوية هي الساعات .

(٢) اليهود يتدنون من غروب الشمس إلى شروقها ليلا . ومن شروق الشمس إلى غروبها . فالساعات ليلا ونهارا تختلف طولها وقصرها بحسب الفصول عندم بخلاف السكندان والفرس فهي متساوية مع اختلاف الفصول .

(٣) الإيطاليون في أواسط القرن التاسع عشر كانوا يحسبون كاليهود .

(٤) العرب يحسبون النهار من مرور الشمس على خط الزوال مبتدئين من الساعة الأولى إلى الرابعة والشهرين التي تنتهي بمرور الشمس عند خط الزوال عينه في اليوم الثاني .

(٥) لم تتفق الأمم الكبرى كفرنسا وغيرها في مصالحتها العمومية لاسيما في مواعيد السكك الحديدية على ما كان عند العرب إلا في زمن قريب جدا ، وأسماء الأيام مستنبطة من أسماء الكواكب السيارة :

(١) الاثنين القمر عند الفرنجية .

(٢) الثلاثاء من مارس عند الفرنجية : أي للريح .

(٣) الأربعاء يرجع عند الفرنجية إلى عطارد .

(٤) الخميس يرجع إلى جوبيتر عندم : أي للشمس .

(٥) الجمعة يرجع إلى الزهرة .

(٦) السبت يرجع إلى ساتون : أي زحل .

(٧) الأحد يرجع للشمس وهذه كانت معروفة عند آباءنا العرب . فإذا قال الفرنجية مثلا إن الأربعاء وهو (مركردى) مشتق من مركور : أي عطارد ، فإن آباءنا قالوا إن يوم الأربعاء لعطارد وهكذا بنية الأيام بالقل عن الأمم .

ولقد انفتحت الأمم كلها على تحديد عدد أيام السنة ابتداء من القرن الثالث لبلاد واعتر أكثرهم أن مدة الأسبوع معادلة ربع دورة القمر حول الأرض .

(١) وكان الفرس والمصريون لذلك العهد يعتبرون السنة (٣٦٥) يوما مقسمة إلى اثني عشر شهرا ، والشهر ٣٠ يوما يضاف إليها في آخر كل سنة خمسة أيام (أيام النسي) ومع ذلك لم تطابق السنة الحقيقية . والأشهر عند قدماء المصريين هي (نوت ، فاووف ، أوثير ، شوكا ، توبي ، مشير ، مامينوت ، قرموني ، باشون ، بوني ، أبيني ، ميسوري) والشهر الأول منها وهو (نوت) يبتدىء في الاعتدال الخريفي (٢٢) منتمر من كل عام .

(٢) الصينيون كانوا يعرفون السنة الشمسية وقد ضبطوها مرات عديدة .

(٣) العرب : السنة تتألف من (١٢) شهرا والشهر مؤلف من (٢٩) يوما ويليه شهر مؤلف من ٣٠ يوما ، والسنوات السكبية زاد عليها يوم واحد ، والسكبية في كل ٣٠ سنة إحدى عشرة سنة والباقي وهو ١٩ بسيطة .

(٤) اليهود تفويجهم الهدي بالقمر وتفويجهم اللدي شمسي يبتدىء من فصل الربيع .

(٥) قدماء الرومان يبتدىء السنة عندم من فصل الربيع ولكن (رومولوس) مؤسس رومية قسمها عشرة أقسام ذاهلا عما رسمه القمر في سيره من نسخته السنة ١٢ قديما . وأسماء الشهور بعضها مشتق من أسماء الآلهة عندم ، هكذا : مارس ، ابرليس ، يونيوس . وبعضها أسماء أعداد وأضاف بعض ملوكهم شهرين آخرين وهما (جانواروس وفبرواروس) ثم أضافوا شهرا آخر فصارت الشهور ١٣ شهرا وهو أمر غريب . فانظر ماذا حصل ؟ جاء الإمبراطور (يوليوس قيصر) فوضع التقويم اليوناني بأن تكون السنة مؤلفة من ١٢ شهرا بعضها يحتوي على ٣٠ وبعضها على ٣١ يضاف إليها كل أربع سنوات يوما في السنة

الكبيسة ، ولما كان الرومانيون يجهلون نظام الأسابيع وسقطت الدولة الرومانية غيروا نظام الشهر الروماني وجعلوه على ما نعلم اليوم من الأسابيع للمروفة اليوم المجهولة عند الرومان .

وقد نقش الامبراطور أغسطس على أواح النحاس التقويم الذي وضعه قيصر وأطلق اسم يوليوس ( يوليوس ) على شهر يسمى ( كينتيكيس ) تخليدا لاسمه ، كما أطلق اسمه هو وهو أغسطس على شهر يسمى ( سكتيليس ) .

فانظر كيف اضطرت الأمم كلها أن تجعل السنة ١٢ شهرا لمأذا ١ لأن القمر لما دار حول الأرض ١٢ مرة كان هذا قريبا من السنة بنقص عنها نحو ١١ يوما فكان القمر في سيره ينطق بلسان فصيح قائلا : ها أنا ذا رحمت لكم الشهور فانسجوا على منوالى حتى اضطرت الرومانيون بعد ما قاسوا للشاق في تعديل السنة وقد عملوا عن سير القمر إلى حذف الشهر الزائد عن اثني عشر ، وأول من تفطن لهذا يوليوس ورجع إلى الشهور الاثني عشر كسائر الأمم . وهذا هو سر قوله تعالى « وقدره - أى القمر - منازل لتسولوا عدد السنين » فأفاد أن نظام القمر هو الذى يفيد السنين ويعرفها ويقسمها ولولاه لاختلفت شهورهم وضاعت مصالحهم .

ولما كانت الأمم بعضها محتاج إلى بعض نظم الله لهم سير القمر حتى يتبعوه في الحساب فتنتظم معاملاتهم ، فنظام السموات تبعه نظام أهل الأرض .

فصل فى معنى قوله تعالى « والحساب » من قوله « لتعلموا عدد السنين والحساب »

اعلم أن السنة الشمسية كما قدمنا فى كل أربع سنين فيها سنة كبيسة وثلاثة بسيطة ، وقاعدتها أن تقسم سنى التاريخ المسيحى على أربعة . فإن قبلت السنة القسمة فهى كبيسة وإلا فهى بسيطة ، ولا شك أن هذه السنة التى أكتب فيها هذا التفسير وهى سنة ١٩٢٤ تقبل القسمة على أربعة وإذن فهى كبيسة . أما فى هذه الساعة أكتب ليلة السبت نصف الليل اليلة السادسة من شهر سبتمبر من هذه السنة ، ومع ذلك السنة على هذا الحساب لم تزد على ٣٦٥ يوما و ٦ ساعات وهى فى الحقيقة ٣٦٥ يوما و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٥٠ ثانية أى ٣٦٥ ر ٢٤٢٢١٧ يوما وسطيا وحينئذ تكون كل سنة يوليوسية تزيد عن اللة الحقيقية لسنة الفلكية بكسر من اليوم مساو إلى ٠.٧٧٨٣ ر . أى ١١ دقيقة تقريبا ، وهذا الفرق وإن كان قليلا يصير يوما كاملا فى كل ١٣٢ سنة ، وفى سنة ١٥٨٢ ميلادية قد وصلت هذه الزيادة إلى عشرة أيام ، فأمر البابا ( جريجوار ليلوس ) الطليانى بأن يصلح هذا الخلل فأسقط ١٠ أيام من تلك السنة إذ جعل الخامس من شهر أكتوبر الخامس عشر ، ولما كان الفرق وهو ١١ دقيقة يصير ١٨ ساعة تقريبا فى كل مائة سنة وثلاثة أيام فى كل أربع مائة سنة ووجب إذن طرح ثلاثة أيام من كل أربع مائة سنة فأضاف إلى القاعدة اليوليوسية قاعدة أخرى وهى أن كل ثلاث سنين مثنوية عوضا عن أن تكون كبيسة تكون بسيطة والرابطة تبقى كبيسة وهم جرا .

والراد بالسنة الثنية ما ينتهى عدد التاريخ فيها بصرين مثالة سنة ١٦٠٠ ، ولزيادة السهولة انفقوا على أن السنة الثنية الكبيسة هى التى عددها يقبل القسمة على ٤٠٠ ، فسنة ١٦٠٠ كبيسة و ١٧٠٠ و ١٨٠٠ و ١٩٠٠ بسيطة .

وقد قبل هذا التعديل جميع الأمم ماعدا المسكوف والأروام والأقباط فإنهم بقوا على التعديل اليوليوسى ولذلك ترى فرقا ١٢ يوما بين حسابهم وحساب الأفرنج ١٠ منها هى الأيام التى أسقطها ( جريجوار ) والاثنان ناشن من جعلهم سنق ١٧٠٠ و ١٨٠٠ كبيستين والأفرنج جعلوها بسيطتين ، ومع ذلك لا يزال هناك فرق يبلغ ربع يوم تقريبا كل عشرة قرون فبكون يوما واحدا كل ٤٠٠٠ سنة بحيث يجب أن يضم يوم واحد

لسنة ٥٥٨٢ لأجل تعديل الخطأ المجتمع القليل جدا فتعجب من الحساب كيف بلغ في الهدنة مبلغا شغل العالم  
الإنسان أجمعه وقد كان ابتداءه سير القمر الذي قسم السنة ١٢ قسما ، وهذه الأقسام تنقص ١١ يوما تقريبا  
فشدت الشهور من حال إلى حال ، ومضى زادت عن ١٢ تذب الناس وحذفوا الزائد ثم أخذوا يحذفون  
ويزيدون أجيالا وأجيالا إلى أن وصلوا إلى الثواني من آلاف السنين .

أليس هنا هو سر قوله تعالى « تعلموا عدد السنين والحساب » أولم يكف أن يقول « عدد السنين »  
حق أضاف لها الحساب إشارة إلى هذه الدقة المتناهية ، فالقمر حكم عليهم أن يجعلوا السنة ١٢ شهرا ، وم  
اضطروا بالحساب أن ينظموا أيام الشهر ، فبدل أن يكون ٢٩ يوما و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة بحساب القمر  
زادوه نحو يوم تقريبا في الشهر الشمسي ، ولا يزال الحساب يتباهى في الدقة إلى الآن .

فيا عجب كيف كان القمر دليلا على الحساب ؟ وكيف شغل الناس بالمرق بين الشهر القمري والشمسي  
والسنة القمرية والشمسية ؟ وكيف كانت السنين الكيكية والبسيطة في الحساب العربي في كل ٣٠ سنة  
لا تزيد الزيادة للكسب فيها على ١١ يوما دائما أبدا ، وكل دور (٢١٠) من السنين وهذا الدور مشتمل على  
أدوار صغيرة كل دور منها ٣٠ سنة وهي سبعة أدوار ، فتعجب كيف كانت الكيكية الشمسية بحاجة إلى  
دقة أم كما رأيت وكل هذا سر قوله تعالى « تعلموا عدد السنين والحساب » وقوله « ما خلق الله ذلك  
إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » يعني أن الله راعى في خلق ذلك الحكمة والصلوة ولم يذر القمر  
والشمس يتخطان في سيرهما ويتفران في جرمهما بل ضبطهما بحساب على مقتضى احتياج الناس وحسابهم .  
وبهذا الحساب يزدادون دقة وحكمة ، فلو أنني جعلت الحساب سهلا سحرا لا كسر فيه لأدنى ذلك إلى جود  
غفولهم وموت نفوسهم وجهالة عقلاهم ، ولكن ذلك الكسر في السنين الشمسية والقمرية يؤدي إلى  
نبوغهم في الحساب فترتقى الأمم ، وإذا كانت الحرب في الأمة وشدة الحاجة إلى العلوم والصناعات تؤدي إلى  
ارتضاها ، هكذا هنا في الحساب ودقته تؤدي الأمم إلى رفعة الشأن ، فكلمة ازدادوا حيرة ازدادوا اجتهادا  
فأثروا ، هذا معنى قوله « ما خلق الله ذلك إلا بالحق » وختم الآية بقوله : لمن أفضل هذا ؟ أصله لقوم يعلمون ،  
يعني أن مثل هذا اللقاه لا يعرفه إلا العلماء به ، فأما الجهلاء به ولو كانوا أعلم الناس بالنحو والصرف واللغة  
والفقه فإن التفصيل ليس لهم ، فعار على أمة الإسلام أن تخلو من النابغين في هذا الفن ، وكيف نرى التعديل  
يأتي من أوروبا واللسلون نائمون اليوم وليسوا كتابهم الأولين .

اللهم إنك أنزلت هذا الكتاب وطلبت فيه أن تكون الأمة فيها علماء في كل علم ، فإذا قصرت الأمة كما  
هو حاصل الآن وليس أحد عالما بهذه العلوم إلا الفرنجة ، فمن يفصل لهم القرآن ؟ ولمن يقرأ ؟ وكيف  
يفصل الله الآيات لقوم لا يعلمون ؟

يارب إن المسلمين اليوم لا يعلمون أكثر العلوم ويمرون على مثل هذا القول مرة الكرام ولا حظ لهم منه  
إلا حظ الجائع من النسيم .

فيا ليت شمري لمن هذا التفصيل ولمن هذا القول ؟ يا الله إنك قد سلطت الفرنجة علينا لجهلنا .

يارب إنك فصلت هذه الآيات لقوم يعلمون الفلك ، والأمة غافلة فنقله أنت إلى الفرنجة وصرنا نقرأ  
القرآن ولا نبالي بما سمعنا ، إنك تفصله لقوم يعلمون لأن المسلمين اليوم قوم علم ذلك يجهلون .

فإنهم اجعل منهم قوما عاشقين للعلوم مختلفة وبث الحية في قلوبهم واجعل منهم من يحثون على كل صناعة  
وكل علم واجعل كتابي هذا مما يحرضهم على عشق العلوم وحب الحكمة والتخلق بخلقك وخلقك العلم  
والحكمة لأملك العالم الحكيم اه .

## هجة العلم في هذه الآيات

إن تقدير المنازل والبروج للشمس والقمر وسيرهما بحساب متقن هو الذي جعل الناس آمنين على أمرين :  
حساب المدرجات الأرضية ونظامها ، وحساب الميزان والسكيل والمساحة ، ولأبين ذلك في مقامين ،  
للقام الأول : حساب المدرجات الأرضية ومعرفتها وكرويتها ودورانها .

ألم أن أول من فكر في كروية الأرض رجل يقال له (أراتوستانس) هذا الرجل ولد في القبروان سنة ٢٧٦ قبل المسيح ودرس في الاسكندرية وأثينا ثم دعى إلى الاسكندرية سنة ٢٣٤ قبل الميلاد فأقام بها إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٤ ق. م وهذا الفاسكي ألف كتابا في معرفة جرم الأرض ، وقال إن الشمس تسكون عمودية فوق الأرض في مدينة أسوان وقت الانقلاب الصيفي ، فإذا نصب عمود في الأرض هناك لم يظهر له في الظهيرة ظل ممتد شمالا ، وإذا نصب عمود آخر مثله في الاسكندرية ظهر له ظل شمالي في تلك الدقيقة عينها ، وإذا رسم خط من أعلى هذا العمود إلى طرف ظله وجدت الزاوية التي تسكون بينه وبين الظل سبع درجات وخمس درجة فعلى المسافة بين الاسكندرية وأسوان .

وليان هذا اللقاه حق البيان أقول : إن هذا الفاسكي قد تزى في الجامعة المصرية بالإسكندرية التي أسسها بطليموس الأول وقد تخرج منها كثير من العلماء والأطباء ومنهم هذا الفاسكي فتأقت نفسه يوما أن يسافر من الإسكندرية إلى أسوان فسافر في نهر النيل فلاحظ أمرين :

[أولهما] أنه كلما أوغل في جهة الجنوب سفرا يرى بعض النجوم الشمالية الظاهرة تغيب تدريجيا .  
[وثانيهما] أن بعض النجوم التي لم تسكن ظاهرة تبدو تدريجيا تغطر له أن هذا لا يكون إلا إذا كانت الأرض كروية وكيف يقيس الأرض كلها ؟ إذن هناك اجترأ بقياس بعضها ثم بحسب الباقي وما ذلك البعض يازى ؟ هو ما بين الإسكندرية وأسوان فقامه فوجده (٦٨٠) ميلا وهذه المسافة هي التي ارتفاعها الشمسي عند الإسكندرية أكثر من أسوان ٧ درجات وخمس درجة ، فإذن هذه المسافة جزء من خمسين من الدائرة التي تحيط بالكرة وبضرب هذا العدد في خمسين يساوي (٣٤٠٠٠) ميل ، ثم قال في نفسه إذا أنا سارت من أسوان أيضا جنوبا واستمرت تأنى أرجع إلى الاسكندرية من الشمال ثانيا إذا قطعت قدر هذه المسافة المذكورة خمسين مرة ، هذا ما قاله ذلك الفاسكي ولكن الحساب الآن ليس كذلك فإن الدائرة حول الأرض لا تزيد عن (٢٣٧٠٠) ميل ، والسبب في ذلك الخطأ القدر بنحو (١٠٣٠٠) ميل ، أن أسوان ليست في جنوب الإسكندرية تماما بل هي تنحرف جهة الشرق الجنوبي قليلا لذلك طالت المسافة جدا ، انتهى ما ترجمته من الكتب الانجليزية مقتصرًا على الفائدة .

ومن المؤلم أن هذا العالم لما عمى في آخر حياته ترك الأكل حتى مات قانلا [ لاخير في حياة لا تصحبها لذة المطالة والعلم ] فذلك آثر الموت انتحارا .

انظر إلى الآية التي نحن بصدها وتفكر في عمل هذا الفاسكي اليوناني المصري كيف عرف بارتفاع الشمس المدرجات السبع والخمس وأنها هي جزء من خمسين من الدائرة المحيطة بالأرض وحسب المحيط كله ، لولا دوران الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ما أدرك هذا العالم هذا الحساب ، انتهى الكلام على كروية الأرض .

أما دورانها فإنه قد وضع فيما كتبه في كتاب [ جواهر العلوم ] وقد جعلته في محاوره بين فني وقتاة فلاقل ما دار بينهما من الحديث لتنف على ما كنت أكتبه في أول أيام تأليني ولترى أن دوران الأرض حول الشمس ليس غير مخالف للقرآن لحسب بل له منه دلائل كما ستراه فيما يأتي ، وهنا نقل ما في [ جواهر العلوم ] .

فصل في الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر في الأفلاك  
ومسألة الدوران والشمس هي الدائرة حول الأرض أم بالعكس ؟

فقال ياسيدي أرجوك ذكر مقال شاف يكشف لي حجاب الحفاء عن الهيئة فقد أشكل القول فيها  
وخالف السلف الخلف وكل حزب بما لديهم فرحون . فإني لا أدري ما الصواب فيها ؟ أقول الأقدمين الذين  
قالوا إن الأرض ساكنة وإن الشمس وجميع الكواكب تدور حولها ، أم قول العصريين القائلين بأن تلك  
الأجرام لا وجود لها وإنما السماء لها معنى آخر وهو الشمس المشرقة وتوابعها من السيارة وسيارة السيارات  
وأنها سبع طبقات بعضها فوق بعض وهي الأقدار السبعة المعلومه ، وأن الأرض هي التي تدور حول الشمس  
ثم ما الذي حملهم على ذلك حتى جدوا فيه وما الفائدة في تلك المباحث ؟ فقال اعلم أن المتقدمين والمتأخرين  
أفرغوا وطابهم في البحث عن الأجرام العلوية والكواكب المشرقة ولم يألوا جهدا في البحث عنها لميل الطباع  
البشرية إلى اقتناس شوارد العلوم وفوائد المنطوق والمفهوم ، ولذلك نرى كل إنسان يعجب بعلمه ولو في مسألة  
من دنيا المسائل ، فقلت ياسيدي وهل في العلم أدنى وأعلى ؟ فقال نعم إن المعلومات تنقسم إلى علوية شرفه  
وإلى سفلية تستضيء منها مركبة من عناصر سريعة الانحلال قريبة الدور ، واللذة في العلوم على حسب شرف  
المعلومات ، فكلما كان للعلوم أشرف وأفضل كانت الهجة به واللذة أكثر ، وكلما نقص عن رتبة الشرف  
والفضل بأن استمد من غيره أو كان قريب الدور والانحلال قلت الهجة به واللذة وأنى يستوى لذة معرفة  
موت فلان وحياته وغنى زيد وفقير عمرو وغير ذلك بلذة معرفة أقدار الكواكب وأبعادها وحساب دوراتها  
وسننها وشهورها وأيامها وانتظام سيرها في دوارها فإن اللذة بالأول وقتية قليلة بخلاف اللذة بالثاني فهي  
عظيمة جدا دائمة بدوام العلوم ، وعلى هذا القياس كانت سيرة العلماء والملوك والحكام والدول الكبيرة ألد  
من سيرة العامة والسوقة والجهلة والدول الصغيرة وكذلك العالم العلوي على السعلى . ولتلك كان البحث عن  
كمال الله وجماله أبهج وألذ في النفوس الشريفة لأنه لا أشرف منه ولا أدوم .  
وبالجملة فالبحث عن العلويات أمر لذيذ ولتلك انجذبت أفكار الأمم بأجمعها إليه وصوبت أسهم آرائها  
لرضه ، ولقد اطلعت على آراء قديمهم وحديثهم وعجربهم ومجرهم وغتهم وميمينهم فوجدت موضوع أبحاثهم دارا  
على محورين :

[ الأول ] القوانين الحسابية التي بها يعرف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول  
والانتقالات وغير ذلك مما توقف عليه أحوالنا المعاشية وعباداتنا ووجعنا وصومنا وإفطارنا وغير ذلك وهو فن  
التقويم المسمى علم الفلك وهذه القوانين ليس فيها بين المتقدمين والمتأخرين كبير خلاف بل هي متقاربة  
ولا خلاف إلا في أمور جزئية لا تهتم أصلا من الأصول ولا توجب خطأ في مقول .

[ الثاني ] البحث عن العالم بأسره وهو علم هيئة الدنيا وهو فن يبحث فيه عن الأرض مع غيرها من  
أجزاء العالم ، والعالم هو سائر المهدنات فهو صنعة عظيمة تشكل العقول عن الإحاطة بعلم ما احتوى عليه من  
المخلوقات وعن الأبعاد بين الكواكب ومقادير أجرامها وطبائعها وما تشتمل عليه وعن السيارات والثوابت  
وعن الشمس أي التي تدور حول الأرض أم الأرض هي التي تدور حولها وعن حقيقة السموات  
وغير ذلك ؟

وهذا هو الفن الذي حوى فيه وطيس الخلاف بين الأوائل والأواخر ، وعلماء هذا الفن مقررون بأن  
أدلتهم ظنية ، غاية الأمر أن بعضها أقرب إلى الظن من الآخر ويشهد له أنهم كانوا مطبقين على تقدير هدم  
الزهراء عن الشمس وعلى مقدار جرمها ، ثم في سنة ١٢٩٣ أرسلوا المارنيين إلى الجهات وحرروها فعرفوا

أن جميع حساب السابقين خطأ محض وأنها أقل من ذلك كله بعدا وجرما ، ومن الجائز ظهور الخطأ في هذا التحرير أيضا في وقت آخر .

وحيث كانت مسائل هذا القرن ظنية اختلف علماؤه في أسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد بعد الإجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس والأرض ، فقد كان علماء الهيئة في غابر الأزمنة على ما وصل إلينا يدرسون في مدارسهم ويعلمون تلامذتهم هذه الهيئة الجديدة للعرونة الآن ، فقد كان ( فيثاغورس ) الفيلسوف الشهير يعلم تلامذته في مدرسة ( كرونونيا ) من بلاد إيطاليا على طريقة حركة الأرض وذلك قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام بمدة خمسمائة عام معتقدين أن هذا اللرني الذي نسميه سماه أو فلسكا هو فضاء واسع وزرقته ناشئة من اكتساف الأشعة الشمسية للأجزاء الأرضية ، وأن الكواكب الثابتة في ذلك الفراغ عبارة عن شموس كشمسنا هذه ، وكل شمس حولها سيارات كسيارات شمسنا وأقمار كقمرها وذوات ذوات كما حول شمسنا ، وكل واحد من هذه السيارات والأقمار وغيرها عالم مثل كرة أرضنا ، ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة ولها دائرة مخصوصة بها وعدة متعلقات تدور حولها من السيارات .

ومن جملة السيارات الدائرة حولها هذه الأرض التي نحن عليها والقمر ملتزم لها ويدور عليها ومعها على الشمس وفوق ذلك صفوف دوائر شمسية متسكارة بعضها فوق بعض إلى حيث لا يحيط به النظر ولا يدركه السكر « وما يعلم جنود ربك إلا هو » فالسماوات عندهم عبارة عن هذه الدوائر بما فيها من الكواكب الكبيرة .

ولما شاعت هذه الطريقة في زماننا هذا وأراد العلماء تطبيقها على ما نبت عندهم من ظواهر الشريعة من كون السماوات سبعة قالوا معلوم أن الكواكب الثابتة سبع طبقات فما كان منها يرى في غاية الظهور والإضاءة فهو الطبقة الأولى ويقال لها المرتبة الأولى والقدر الأول وما كان أبعد منها غير كثير وأقل في الظهور والإضاءة بمقدار يسير فهو الطبقة الثانية وهكذا إلى الطبقة السادسة كل طبقة ترى كواكبها أبعد عن التي قبلها وأقل منها ظهورا واستتارة ، والطبقة السابعة هي التي خفيت كواكبها فلا ترى إلا بالمنظرة للعظمة ، فهذه الطبقات هي طباق السماء ، وفي قوله تعالى « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » قالوا السماء الدنيا عبارة عن الدوائر الشمسية التي نحن فيها للزينة بما احتوت عليه من السيارة وسيارة السيارة وذوات الأذنان وغيرها من متعلقاتها إلى نحو ذلك من التأويلات التي شرحها علماؤهم وكتم ورد عليهم من اعتراض وكتم أجابوا عنه .

وقد رأيت في بعض رسائل العلامة للرحوم عبد الله باشا فكري أن تلك الباحث مستوفاة التفصيل في كتاب [ أسرار الملك وللكوت ] وشرحه الموسوم [ بأفكار الجبروت ] والنشر المذكور في دار السلطة السنية وهو باللغة التركية ومنتنه بالعربية .

ثم إن هذه الطريقة كما قدمنا هي التي كانت سارية في أحوال المعمورة بين علمائها مستفيضة بين خاصتها وعامتها حتى جاء ( بطليموس ) قبل الميلاد بمائة وأربعين سنة فاختر القول بسكون الأرض ودورة الشمس عليها وبني مذهبه على ذلك فشاعت قاعده بين الناس واشتهرت في البلاد .

ولما جاء الإسلام وترجمت الكتب اليونانية إلى اللغة العربية نقلها الفارابي من فلاسفة الإسلام في مؤلفاته العربية أوائل القرن الرابع من الهجرة وتبعه ابن سينا وغيره . فمن جاء بعده وهجرت الطريقة للتقدم التي كان عليها ( فيثاغورس ) وقد قال هؤلاء العلماء إن السماوات أجسام متراكبة بعضها فوق بعض كطبقات

(البصلة) مناسفة ولا تقبل الحرق ولا الائتنام ولا بست حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا لون لها ولا توصف بلين ولا ملاسة ولا خشونة ولا خفة ولا ثقل .

وبالجملة فهي أجرام أنبوية شريفة مخالفة للأجسام العنصرية الأرضية في جميع أوصافها وهي التي تدور الحركة اليومية والكواكب تتحرك معها قسرا وللسيارات حركة أخرى مخالفة لحركة السموات : أي أن السموات تدور من الشرق إلى الغرب وتلك الكواكب معها ثم الكواكب لها حركة أخرى تدور بها من الغرب إلى الشرق كمنحلة على دولاب تسير متجهة إلى غير جهة حركته وبهذه الحركة المخالفة تكونت العصور والسنون وانتظمت أحوال العالم ودون ذلك في كتب للتقدمين .

ولما شاعت هذه الطريقة بين علماء الإسلام أخذ بعضهم في تطبيقها على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسكت عن ذلك فريق ، وفريق كفر القائل بذلك للذهب ثم برهن محققهم كالتزامي وغيره على أن هذه لا تصادم الدين وأن من اعتقد ذلك فقد جنى عليه وضلّ سواء السبيل وأضلّ الناس فإن الدين لا ينفي ولا يثبت ، وكما أن من يقول إن الله خلق (البصلة) ست طبقات أو سبعا أو ثمانيا وإنها كروية أو مثثة أو مربعة لا تكفر كذلك لا تكفر من يبحث في العلوبات إنكلها من مخلوقاته عز وجل ولم تذكر إلا الاستدلال على صانئها والدلالة واضحة على كل حال وعلى أي شكل ، وكثير من علماء الكلام كانوا ياضلون العلاسفة ويخطئونهم ويضللون فهمهم حتى قال العلامة الخزر الرازي إن الأقرب للقرآن أن تكون الكواكب سابعة في السماء كما يسبح السمك في البحر ، وأدحض حججهم في قولهم إن الحرق والائتنام مستحيل على الملك واستدل بقوله تعالى « كل في فلك يسبحون » وكان بعضهم يعرف الطريقة المستفضة الآن ويقارن بين الطريقتين ويميل إلى هذه الطريقة كما سيظهر قريباً ثم نبغ بيلاذ لمستان رجل يقال له (كوبرنيكوس) ماهر في العلوم الرياضية واشتغل بالهيئة والرصد والحسكة من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ من الميلاد وهي سنة ٩٣٧ من الهجرة فرجع إلى الطريقة التي كان عليها (فيثاغورس) للؤسسة على حركة الأرض وقرّر أن الشمس مركز وأن الأرض والسيارات تدور حولها ، فأولا عطارده ثم الزهرة ثم الأرض ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل ، وأيد هذه الطريقة بأدلة وأشهر ذلك في كتاب له عنوانه [ حركات الأجرام السماوية ] حكّم عليه في مجمع كنيسة رومة بالزنج والإلحاد ولو أمكنهم قتل لقتلوه ونهوا عن إظهار كتابه ومع ذلك شاع هذا للذهب فنسب إليه وقيل هيئة (كوبرنيكوس) ثم قام بعده جماعات في جهات متعددة وأزمان مختلفة في أنحاء أوروبا وعودوا على هيئته وسموها بالهيئة الجديدة وسموا التي قبلها بالقديمة ، وأنت ترى من هذا أنها في الحقيقة هي القديمة وأن تسميتها جديدة بحسب ما شاع وظنه كثير من الناس خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة ، والطريقتان مذكورتان مستفيضتان في الكتب الإسلامية وقد ذكرها العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد التتوفي سنة ٧٥٦ من الهجرة في كتابه المسمى بالمواقف وأورد على طريقة دوران الأرض اعتراضات ثلاثة ، ثم كر على تلك الاعتراضات بالقض والردّ وجرى معه على ذلك شارحه العلامة السيد الشريف على بن محمد الجرجاني التتوفي سنة ٨١٦ في شرحه وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧ فليراجعه من أراد وليتأمل البصير كيف كان علماء الإسلام يدرسون الطريقتين ويعرفونهما حق معرفتهما قبل أن يظهر (كوبرنيكوس) .

وبدعى البعض أن ما تلقفوه من أفواه أساتذتهم من الأفرنج تقليدا لهم مخترع من عندهم لم يسبقهم به أحد وهكذا نسبة كثير من المسائل إليهم مع أنهم في الحقيقة ناقلون عن غيرهم وبدعون أنهم هم السابقون فليتأمل المنصفون ، راجعي تاريخ العلامة (سديو) للأورخ النهير الفرنسي ، تعلمي الحجج الدامغة التي أقامها على أن أكثر الاختراعات لبني جنسه كذب محض وأنها في كتب العرب من قبل ، فصالت له قد طال



السلام في هذا المرسوم فما رأيك ؟ فقال : إني قرّمت الأسباب إلى رأي في صدر هذه المقالة وأريد الآ  
وضوحاً فأقول :

إن الله عزّ وجل فطر كل مخلوق على فطرة تناسب احتياجه ، ولو نظرنا لجميع الحيوانات التي على وجه  
الأرض وكذا الإنسان لوجدنا كل فرد منها يعلم ما يحتاج إليه حق العلم ويجعل ماعداه لظما من الله تعالى به ،  
ولما كانت الكواكب والأفلاك لا تحتاج منها إلا إلى القوانين الحسابية أظهرها لنا اللطيف الخبير بالبراهين  
القاطعة ولم يحمْ وطيس الخلاف بين الأمم في الأرمنة المختلفة فيها والخلاف فيها يسير جدا لا يهدم أصلا من  
الأصول ، أما معرفة أجرام السماء وسكانها وهل الأرض التي تدور أم الشمس ؟ فجهلنا به وعلنا سيات  
لا يتوقف عليه أمر من أمور معاشنا لما ثبت بالبرهان أن الحساب لا يختلف سواء اعتبرنا الأرض هي الدائرة  
أم الشمس .

ومن عجيب الأحكام أن أدلته ظنية فعظم الخلاف بين الطائفتين بالاثبات والنفي وكأن الله أراد أن يرينا  
أن أقرب شيء إلينا جهلناه ، وبالعجب كيف نجعل حالنا مع أرضنا ؟ أعين مقيمون أم ظاعنون ؟ ومستقرون  
أم متحركون ؟ وذلك مصداق لقوله عز وجل « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم »  
فكم من شيء جهلناه وهو قريب منا كسألة الروح فقد احتدم فيها الوغى بين العلماء في كل عصر ولم يهتدوا  
إلى الآن . وما علم الهيئة إلا كعلم الطب فإنه ظني أيضا ، فقالت الفتاة لقد بنيت كون الهيئة علما ظنيا على أنه  
ليس مما يحتاج إلى تحقيقه في المعاش والمعاد وعلى قياسه على الطب ، وأنا أحتج على أن المسألة يقينية بما رأيت  
في كتب القوم من البراهين فلا أسلم أن علم الهيئة ظني ، فقال اختصرى في البراهين فالوقت لا يسع والقصد  
أن يكون مجلسنا نبذا لطيفة وإعمار علوم لاجديا ، فقالت: استدلووا [أولا] بأنه لا يصح دوران الجسم الأكبر  
حول الأصغر فالعكس هو الطبيعي [ثانيا] كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الأرض [ثالثا] تغير ظل  
الأرض وقت الحسوف على سطح القمر بهيئة تدل على أنها دائرة وظلها تبع لها [رابعا] ذبذبة البندول فقد  
وضموه وضما بدقة لا يتأثر بمؤثر خارجي عليه فرسم خطوطا تتقطع وتكون رؤوسها أقواسا تطول كلما  
قرب البندول من القطبين وتقتصر كلما قرب من خط الاستواء وفيه يكون على خط مستقيم دائما [خامسا] أنهم  
وضموا مقداراً من الزيت في الكؤول وأداروه بإبرة فدار وتكور وتفرطح في قطبيه إلى آخر ما قالوا فعلها  
مثله ، فقال لها إبراهيم بعض هذه الأدلة أقيدة تمثيلية وهي لا تثبت حكماً . وبعضها مبني على الاستبعاد  
وهي لا يفيدان القطع ولكن باجتماعها أفادت الإتيان لا البتة ، فقالت الفتاة : هل القرآن ينافي هذا المذهب  
على فرض أنه يقين ؟ فقال إن القرآن كلام الحكيم الذي أعجز جميع البلغاء والفصحاء ولم يكن القصد منه  
أن تشغل أذهاننا بتطبيقه على كل مذهب يحدث في العالم وعقول الناس تتفاوت ، ولو طبقنا على هذا المذهب  
هل نؤمن أن نحدث مذاهب أخرى فوجب أن يطبق عليها أيضا ؟ كيف ولم تذكر العلويات فيه والكائنات  
الأرضية إلا يعرف كالصانع بالصنعة ؟ أما كون الصنعة دائرة أو ساكنة فذلك ليس محل بحث ، وكم حاول  
العلماء تطبيقه على الهيئة التي أدرجت في الأكتاف مع أن كثيرا من ظواهر الألفاظ كان مخالفا حتى جاء  
اكتشاف الإفرنج فأبطل المذهب السابق وظهر أن تلك المحاولة والتطبيق على المذهب الباطن لم يصادف محله ،  
على أن علماء الإسلام كانوا يضللون الفلاسفة السابقين ويخالفون مشاربهم بأرائهم الثابتة حتى وافقوا من قبل  
علماء الإفرنج في هذه الأيام ، فقالت وهل تذكر شيئا من ذلك ؟ فقال نعم .

أولا : نفس دوران الأرض ، فقد شتم من كلام صاحب المواقف أنه يستمدد وهذا كان قبل أن  
يعرفها الإفرنج .

ثانيا : كانوا يعتقدون النحاس والسمد وخراب الدول وعمارتها من آثار العلويات .

ثالثا : عنهم الحرق والالتهام في الفلك .

رابعا : أن الأفلاك لها نفوس وإرادات

خامسا : أن بعد الهواة كرة النار .

وكل ذلك نقضه علماء الإسلام وواقفهم الإفرنج في هذه الأيام ، على أننا لو أرخينا العنان للقلم ونظرنا في القرآن لوجدنا ما يشير إلى الطريقة الجديدة وإن لم يذكر في كتب للتقدميين ، منها قوله تعالى « صنع الله الذي أتقن كل شيء » بعد قوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » ومنها أنه قال « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يفتى الليل النهار » فذكر الليل والنهار بعد ذكر الأرض يشير إلى أنها من آثار الأرض ويقوى ذلك أنه قال « يفتى الليل النهار » فجعل الليل الذي هو ظلة الأرض يفتى به النهار الذي هو ضوء الشمس فبمعنى إلى أن الأرض هي التي تحدث ذلك بفعل الله تعالى ، ومنها « والشمس وضحاها » والقمر إذا تلاها » والنهار إذا جلاها » والليل إذا يشاها » فجعل النهار الذي هو في مقابلة وجه الأرض للشمس مجليا لها ، والليل الذي هو الظلة الأصلية للأرض منسبيا لها فأسند فاعلية ذلك لعبر الشمس وهو الليل والنهار الذي هو من آثار الأرض ، وهذان الوجهان ذكرهما العلامة الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي ، ومنها قوله « وكل في فلك يسبحون » بعد ذكر الأرض والقمر والشمس ، ومع ذلك كله فالقرآن لا يعارض شيئا من هذه الأشياء على أننا لا نحتاج لتأويل القرآن إلا لليقينيات وهذا ليس منها ، فإن نوع بنى آدم لا يمكنه أن يحيط بشيء من علم الله تعالى إلا بما شاء ، وهل يشاء الله أن نعلم ما لا مصلحة لنا في علمه ؟ بل علم مثل ذلك ربما أضر بمصالح الإنسان من حيث ولوعه بما هو بعيد عنه وربما يشغله عن أمور معاشه ، بل الأغرب أن أحد العلماء الفرنسيين للتأخيرين قال ما ترجمته [ إن للعقل حداً محدودا لا يتجاوزه ، فإتصاب العقل في معرفة الأجرام العلوية وماهيتها كما تناب البصر في أن يرى ما فوق السقف من أسفله ، فهب أنك أعتته بأعظم الرايا للكبرة فإنه لا يمكن أن يخترق السقف حتى يرى ما فوقه ] ويناسب هذا ما صرح به عالم الفرنسيين للسمى ( فيلكس لامبروس ) في القرن التاسع عشر من قوله [ إن الجذب كلمة يعلم منها الفعل لا السبب ، فإن هذا المعنى بحث عنه الطبيعيون فلم يوفوه الخ ما قال ] . فكلام هذين العالمين يؤيد ما قلنا من أن هذه ظنيات ، انظره في كتابنا [ ميزان الجواهر ] وسيرد عليك فيه أيها القارئ إن شاء الله تعالى أن كل حيوان له حد ومقدار في المعارف لا يتجاوزه ولا يتقص عنه ولولا ذلك لاختل نظام العالم . وهنا انتهى الكلام على المنام الأول وهو دوران الأرض وكرويتها .

### الشمس وشفاء الأمراض

قبل الانتقال إلى الكلام على [ المنام الثاني ] يحسن أن أنف وقفة معك أيها القارئ في ما نحن عليه من غناء الفكر وإتصاب الدهن بذكر بعض منافع الشمس فانتقل بك من مسألة الدوران وما يتبعها إلى منافع نورها في صحة أجسامنا وتنمية قواها لتري أنساع هذا النظام ، فبينما نراها تنقسم للأفصول بقرنها وبعدها وبجها الحيوان وتنمو النبات بها ، إذا بها تقوم مقام الأدوية التي امتلأت بها الصيدليات التي يشق بحس المرضي بها وكثيرا منهم تضره الأدوية لعدم تحرري الطبيب ولجهله وقلة علمه وعدم إساظته بأطراف موضوع المرض ، وقد أجمع العلماء أن المعالجة بالأمور البسيطة أفضل من المعالجة بالمركبة ، والبسيطة مثل الهواء والماء والشمس . فهناك ماقاله طبيب فاضل في مقالة نشرها في صيف هذه السنة ( سنة ١٩٢٧ م ) قال ما نصه :

## الاستشفاء بنور الشمس في الصيف

عند حلول فصل الصيف يؤمّ كثيرون من سكان المدن شواطئ البحار والجبال للاصطياف تنمنا بالراحة واستنشاق الهواء النقي لتنصح أجسامهم وتستقيم صحتهم ، ونظرا لحلول موسم الاصطياف هذا العام رأينا لفت نظر الجمهور وكل من يهجم الاحتفاظ بصحته وصحة عائلته وأولاده إلى أن هناك قاعدة كبرى ، بل هناك كل القاعدة من تمريض الأجسام للشمس .

ولما كانت الأشعة فوق البنفسجية وهي العنصر الفعال في الطيف الشمسي لا تتوافر بكثرة إلا على الجبال وشواطئ البحار وفي الحقول وذلك نظرا إلى صفاء نور الشمس وبقاوة الهواء في الجهات المذكورة . فإن هذه الأشعة لا تتوافر تماما في المدن حيث يضيع معظمها باختلاط نور الشمس برطوبة الهواء والتبار والأبخرة .

والبرهان المحسوس على ذلك أن مدة قليلة يقضها المرء في الحقول أو على شواطئ البحار والجبال يحصل الجزء المعرض للشمس من جلده أصفر اللون في حين أن الإنسان لا يتغير بشرته لو تعرض للشمس في المدن ولو كان ذلك مدة طويلة .

إن الحمام الشمسي مفيد جدا إذا استعمل بالعبارة التامة مع مراعاة الإرشادات التالية حتى يدرأ المرء عن نفسه ما عساه يتعرض له من الضرر ، أما طريقة تمريض الجسم للشمس فتتكون بالكيفية الآتية :

يجب أن يتلقى الإنسان ضوء الشمس مباشرة على جلده من غير أن يجعل بينهما حاجلا كالملابس والزجاج والحمام الشمسي يجب أن يتم الجسم ماعدا الرأس ، فإذا تضرر تمريض الجسم كله لسبب من الأسباب وجب تمريض أكبر مسطح مستطاع منه .

ويؤخذ الحمام الشمسي تدريجا لأنه إذا عرض الجسم كله دفعة واحدة من أول مرة مدة طويلة أصيبت الأضحاء بالاحتقان والبشرة بالنسلخ ، ويؤخذ الحمام الشمسي كل يوم حتى في الأوقات التي يكون فيها الجو مليدا ببعض الغيوم ، ويحتمل التعرض للشمس في الأوقات التي يكون فيها الحر شديدا ، كما يلزم تغطية الرأس بقعة من القش واسعة الأطراف ، أو يستظل بمظلة فاتحة اللون مع وضع نظارات ذات زجاج ملون . وعلى السيدات أن يضعن شاشا ملونا على وجوههن وأن يلبسن قفازات منعنا لتأثير نور الشمس واستمرار وجوههن وأيديهن ، ولابد من اجتناب تيار الهواء .

وتراعى في الحمام الشمسي أمزجة الأشخاص بالنسبة إلى السن ولون البشرة وحجم الجسم ، لأن المذكور والبدنين والسمرا اللون يتحملون حرارة الشمس وتمريض أجسامهم لها مدة أطول من للدة التي يتحملها الإناث والأطفال ونحيفو البنية ودوو البشرة البيضاء .

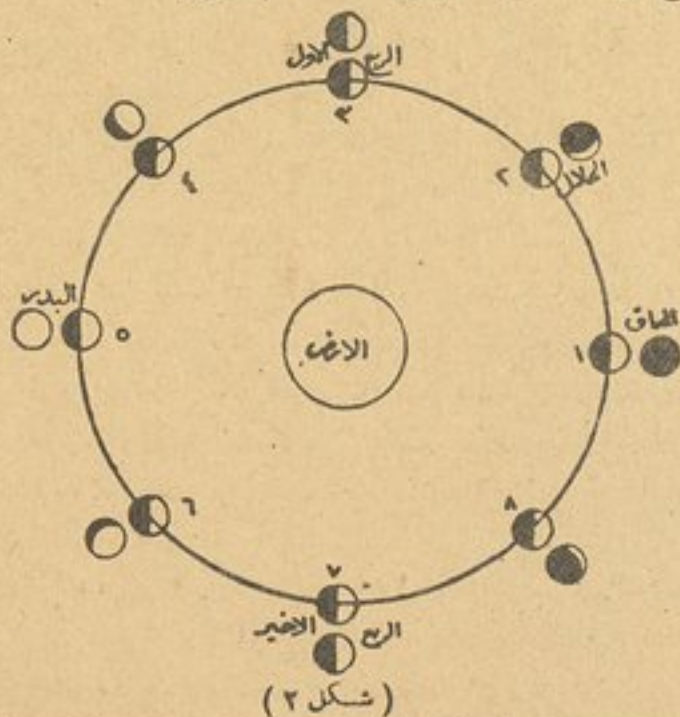
وعلى من يريد الاستشفاء بنور الشمس أن يشرب كمية كبيرة من مياه الشرب أثناء ذلك ، ويحسن أن يكون التعرض مرتين كل يوم : مرة في الصباح بعد طلوع الشمس بمدة قصيرة وقبل الفطور بنصف ساعة تقريبا ، ومرة أخرى قبل الغروب بنحو ساعة لأنه لوحظ أن الأشعة فوق البنفسجية تتكثف في الطيف الشمسي صباحا ومساء أكثر من وجودها وسط النهار ، واللواعيد التي هي أكثر ملاءمة في هذا الفصل هي ما بين الساعة السادسة والتاسعة صباحا ، وما بين الساعة الحامسة والسادسة مساء والتعرض يكون بالطريقة الآتية :

يضطجع الإنسان في الشمس ويغطي رأسه كما تقدم ، وفي اليوم الأول يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه مدة خمس دقائق ، وفي اليوم الثاني يرفع ملابسه عن أطرافه العليا والسفلى ، وبعد خمس دقائق يغطي ذراعيه وغطه ، وخمس دقائق أخرى باقي الأطراف ؛ وفي اليوم الثالث يرفع ملابسه عن بطنه وأطرافه ،

وحد خمس دقائق يغطي بطنه ، وخمس دقائق أخرى يغطي ذراعيه وغذيه ، وخمس دقائق نائمة يغطي باقي الأطراف ؛ وفي اليوم الرابع يرفع ملابسه عن جسمه وبعد أن يعرض صدره للشمس مدة خمس دقائق يغطيه ثم يغطي بطنه بد خمس دقائق ، ثم ذراعيه وغذيه بد خمس دقائق أخرى ، ثم باقي أطرافه بعد خمس دقائق من ذلك ويعرض ظهره مدة خمس دقائق ؛ وفي اليوم الخامس يرفع جميع ملابسه عن جسمه ويعرض عنقه مدة خمس دقائق ثم يغطيه وهكذا يوميا بالتدرج إلى اليوم السابع الذي فيه يعرض المرء جسمه جميعه مدة ساعة من الزمن ويستمر بعد ذلك على هذا للنول مدة ساعة أو أكثر حسب استعداده .

والنتيجة للؤكددة لتعرض الجسم للشمس هي تبيبه القوى وتحسين الشهية للطعام وإزالة فقر الدم وتنشيط الجسم الحمل وتنظيم الدورة الدموية وإعاش الجهاز العصبي وإصلاح وظائف الأحشاء وإبادة السكروات التي قد توجد على سطح الجلد وتحسين وظائفه ، كما أنها تضاعف الفعل الشافي للأدوية ومختلف طرق العلاج . هذا ، والفائدة التي تعود على من يستعمل الحمام الشمسي هي أعظم بكثير مما لو اقتصر المرء على استنشاق الهواء التي دون تعرض جسمه للشمس الأمر الذي دعا مصلحة الصحة العمومية لأن تجعل تعرض الأطفال لنور الشمس لوقايتهم من الكساح في القام الأول من نصابها للجمهور المنشورة في الصحف أخيرا مع العلم أن الأفكار انجهدت في أوروبا وأمريكا وخصوصا في ألمانيا لتعرض أجسام الأطفال إجباريا للأشعة فوق البنفسجية - واء كانت مبانرة من الشمس أو من الجهاز الصناعي لوقايتهم من مرض الكساح كما هي الحال عندنا في النظيم الإجباري للوقاية من مرض الجدري ، ولذلك ننصح المصطفين سواء كانوا على شواطئ البحار أو على الجبال أو في الحقول أن يهتموا بتعرض أجسامهم للشمس في الصباح والمساء أكثر من أن يهتموا باستنشاق الهواء النقي فقط انتهى . تذكره

تقدم السلام على الشمس والقمر في سورة الأنعام عند قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » وقد رسمت هناك صور الشمس وتواجهها ولم يرسم هناك القمر فوجب أن يرسم هنا وجوه القمر ، لأن ما هنا من الآيات مكتملة لما هناك إذ جاء في هذه السورة ما هو أوضح ، وترسم أيضا صور المجموعات الكوكبية والسدم ليكون الطالع على هذا التفسير قد ألمَّ بجمال هذا العلم وفرح بالحكمة ، فهناك صورة أوجه القمر :



## الكلام على المقام الثاني

وهو بيان أن الساحة والميزان والمكيال في بلادنا المصرية تاجعات لسير الشمس

ستمجب أيها الذكي من هذه الجرأة وتقول أى مناسبة بين الرطل والأفة والوقية والدرهم والقتنطار وبين سير الشمس وقول الله تعالى « لتعلموا عدد السنين والحساب » في هذه الآية تتمجج وحق لك أن تتمجج منى أن أذمى دعوى يصعب تصديقها بل لا تنقل ، وكيف يعقل أن الكيلة والربع واللوة والقدح والأردب في بلادنا المصرية منسوبة لسير الشمس ، وأى عقل يتصور ذلك ، إن الأردب ١٢ كيلة والكيلتان وية والكيلة الواحدة ربعان والربع ملونان ، وستدهش من قولى لك إن القدان منسوب مساحته لسير الشمس فى السماء ، سيدهشك قولى وتقول : أى مناسبة بين مساحة القدان وسير الشمس وآيات القرآن .

كل ثلاثة فدادين (١٠٠٠) قصبه والقصبه ثلاثة أمتار ، و (٥٥) سنتيمترا ، فأبن الشمس هنا وأبن القرآن ؟

ثم إن الناس يقيسون الأنواب بالذراع البلدى المعروف وبالهندسة وعندهم ذراع يسمى (الذراع النبلى) لامناسبة بين هذه كلها وبين الشمس وآيات القرآن ، هذا ما يخطر ببالك وقت كلامى فى هذا المقام . أما الجواب عليه فهو وإن كان يعرفك السبب فإنه لا يدع العجب ، بل إنك عند ماتعرف الحقيقة تزيد دهشا وعجبا ، فهناك ملخص ما سياتى فى سورة الرحمن ألخص لك منه ما يكفيك الآن ، وهناك يزيد الإيضاح .

إن الله يقول هنا « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » لماذا قدره منازل ؟ « لتعلموا عدد السنين والحساب » إذن تقدير المنازل يعدنا عدد السنين ويعلمنا الحساب ، والحساب يدخله الكيل والوزن والساحة للمبر عنها فى سورة الرحمن بالميزان إذ يقول هناك « والسماء رفها ووضع لليزان » ألا تظفوا فى اليزان ؟ يقول هناك إننى رفعت سمواتى ووضعتم فيها اليزان بحيث يكون سير الشمس وغيرها بحساب لأجل أنكم لا تزيدون فى ميزانكم ولا تنقصون بل يكون اليزان حقا ، فهذا هو قوله « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا اليزان » هذا كلام الله فانظر عمل الإنسان قبل أن ينزل القرآن بآلاف السنين .

محمد المصريون القدماء إلى (المهرم الأكبر) فبنوه على مقياس مدار الشمس السنوى فخلوا :

(١) محيط (المهرم الأكبر) جزءا من مليار من محيط مدار الشمس السنوى أى من ألف ألف ألف جزء منه .

(٢) ارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض أى مليار .

(٣) ضعف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم .

(٤) فالارتفاع نفسه يساوى جزءا من مليار من البعد بين الشمس والأرض .

(٥) ضلع الهرم يساوى جزءا من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية .

(٦) الضلع المذكور يساوى (٤٠٠) ذراع بلدى أو (٣٦٠) هنداسة .

(٧) الذراع البلدى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط أى من مائة مليار من محيط

الدائرة الشمسية .

(٨) ربع الذراع البلدى المكعب ألف درهم من الماء المقطر .

(٩) وكل ١٢ درهما أوقية وكل ١٢ أوقية رطل فالرطل ١٤٤ درهما والقتنطار مائة رطل ، ثم إن

المنائيس منها عشرى ومنها اثنا عشرى .

(١٠) الأردب ذراع بلدى مكعب .  
 (١١) الأردب إذن جزء مكعب من (٤٠٠) من الضلع المذكور ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية .  
 (١٢) الفدان (١٠٠) هنداسة في (١٠٠) هنداسة تسارى (١٠٠٠٠) عشرة آلاف هنداسة فطولها مائة وعرضه (١٠٠) فهو نسبة عشرية ، والهنداسة جزء من (٣٦٠) جزءا من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية .  
 (١٣) الذراع النبلى ٥ من ٦ من الهنداسة فيكون ضلع الفدان (١٢٠) ذراعا نبليا ، والفدان (١٤٤٠٠) ذراعا نبليا ويكون القيراط (٦٠٠) والسهم (٢٥) والدانق (١٠٠) فالذراع النبلى والهنداسة كلاهما يحسان الفدان (١٠٠ في ١٤٤) يساوى (١٤٤٠٠) .  
 هذا هو الذى فعله قدماء المصريين ، انظر كيف يقول الله « لتعلموا عدد السنين والحساب » وانظر كيف كان نفس هذا السر هو الذى صنعه قدماء المصريين كيف علموا أنه لن يستقيم لنا وزن ولا كيل ولا مساحة إلا بنسبة محفوظة وعلموا أن أرضنا ليس بها شئ ثابت فلم يروا أثبت من مدار الأرض حول الشمس في مدارها السنوى الذى هو مدار ظاهرى للشمس حولها ، علموا ذلك فبنوا الهرم الأكبر على مقتضاه حتى إذا تهدم رجع الناس إلى الدائرة الفلكية فقاوسها وإذن يصحجون مقياسهم .  
 هذا كلام الله وهذا سره الذى ظهر على يد قدماء المصريين قبل نزول القرآن بألاف السنين ، وهذا أعجب العجائب .  
 إن الفرنسيين لما أرادوا أن يجعلوا لهم وحدة حاولوا أن يصنعوا ما صنعه قدماء المصريين ، فإذا فعلوه ؟ قاسوا درجة أرضية كما فعل الفلكى المصرى المتقدم ذكره هنا ثم ضربوها في (٣٦٠) درجة التى هى الدرجات لكل دائرة وجعلوا ذلك (٤٠٠٠٠) أربعين ألف كيلومترا أو (٤٠) ألف متر وقالوا إن المتر الواحد جزء من (٤٠) مليون جزء من محيط الكرة الأرضية ، وعابه أخذ الناس يقدسون به ثم بعد ذلك علموا أن محيط الكرة الأرضية لم يكن قياسه مضبوطا بل هناك خطأ ، والإنجليز نظروا نظرة أخرى فإنهم عندما (الباردة) التى هى أقل من المتر فهمى نحو (٩١) من مائة من المتر ، هم أيضا حاولوا الرجوع إلى نظام الطبيعة ، جعلوا الباردة هى المقياس لأنها عبارة عن طول الساق المعدنى الذى هو رقاص الساعة التى يتحرك مرة واحدة فى الثانية إن رقاص الساعة إن طال قلت حركته ، وإن قصر أسرعته فهذا الرقاص الذى يتحرك مرة واحدة فى الثانية هو الذى جعلوه مقياسا ، وإنما أوردت لك فعل الفرنسيين والإنجليز لتعلم وجهة النوع الإنسانى فإنهم جميعا يريدون أن تكون مقياسهم على نظام ثابت وأى ثبات تغير النظام العام ، فالأوروبيون رجعوا للعالم الأرضى ونظامه ، وقداماء المصريين رجعوا لدائرة الشمس ، ثم إن الفرنسيين نسبوا جميع المسكائل والموازين إلى المتر كما فعل قدماء المصريين سواء بسواء .  
 وهنا عرفت الحقيقة وأدركت سرا من أسرار القرآن ، وههنا يتبدى لك العجب الأكبر ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى هذه السورة «الايوم نتجيك بيدنا لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون» .  
 أليس من الآيات التى أظهرها الله على أيديهم وغفل عنها أكثر الناس قبل زماننا ما ذكرته لك الآن فى الهرم وبنائه ؟ أليس الهرم محلا تدفن فيه جثث أحد القراعنة وإن لم يكن فرعون موسى ؟  
 وسترى فى هذه السورة أنهم وجدوا صورة البروج مرسومة على تابوت أحد القدماء من المصريين كما سأوضحه هناك ، فأنه أبقي جثث القراعنة وألمم علماءهم أن يضعوا أسرار السموات على تلك الأبدان تارة بالرسم والتصوير كما ستراه فى هذه السورة ، وتارة بالأبنية التى أسست على نظام السموات وسير الشمس

إن هذه هي الآيات التي وُجِّعَ الله العالم الإنساني على جهلها فقال « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ذم الله الناس على التغفل عن علوم قدماء المصريين التي دونوها على نوابيتهم أو بمبانيم وهندستها كما عرفت في الهرم

هذا هو السر المكنون ، وهذا هو العلم المخزون ، وهذا من أجل أسرار القرآن ، وليس التوسخ قاصرا على المسلمين بل يعم الناس كلهم كالفرنسيين والإنجليز الذين أسسوا موازينهم ومقاييسهم على نظم ليست أدق من نظام قدماء المصريين .

فيأت شعري كيف يعيش المصري للسلم ويعت وهو يعجل أن السكينة والذراع البلدي ومساحة الفدان منسوبة للهرم وليسير الشمس ؟ أم كيف يعيش المسلمون ويموتون وهم لا يعلمون أن هذا قد جاء في القرآن وأن موازين المصريين ومكاييلهم قد ذكرها الله في القرآن وهي له معجزة وأي معجزة !  
اللهم إن المسلمين اليوم قوم نيام وقد آن استيقاظهم وأقبلت أيام مجدهم « ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

#### تذكرة للأمة المصرية وللأم الإسلامية

قد كنت وعدت في سورة الأعراف أن أكتب في هذا المجلد ما كتبت له مجلس النواب المصري ومجلس الشيوخ والوزارة في شأن التعليم في المدارس المصرية أيام الاحتلال الأوروبي فإن هذه الآية جمعت العلوم التي يجب أن يعرفها المسلمون ولا يحرمون من علوم القرآن التي تمتع بها أهل أمريكا واليابان والصين وأوروبا لحسد الأوروبيين لنا خيفة رجوع مجدنا ، فملينا الآن لما رجع التعليم إلى حظيرة الوطن وردت بضاعتنا إلينا أن ندرس العلوم كلها ، وهذا نص للتذكرة :

#### مذكرة لإصلاح التعليم الثانوي بالمملكة المصرية

قدمت إلى أصحاب العالی رئیس مجلس الشيوخ ومجلس النواب ووزير المعارف

(١) لكل جماعة متحدة من الطوائف الإنسانية صفات خاصة تشملهم وأحوال معلومة تجمعهم وتثبت وحدتهم وتصون أمتهم ، فإذا انتفت تلك الصفات أو نقصت زلت قدمهم وزالت وحدتهم ففرقوا شذر ومذر وهم غافلون .

(٢) إن أقوى دعائم الوحدة ما يتعلمه الطلاب في المدارس العامة من العلوم ، فإن أواصرها تربطهم وتجمع الأبناء في ساحة الآداب والسكال .

(٣) ليس التعليم الابتدائي بمنزلة فتيل في هذا الضمار ، كلاب هو ممد لما هو أعلى مراما وأثبت نظاما ، وكذلك التعليم في المدارس العالية فلما هو لاختصاص الطلاب في أمور عملية . إن مدرسة الطب والصيدلة لمداواة الإنسان ، ومدرسة البيطرة للحيوان ، والزراعة لنظام الحقول ، والحقوق والقضاء لفنصل في الخاصات ، والهندسة لثرى وللبنيان ، والحربية والشرطة لحفظ الثور ونظام الجمهور .

(٤) فإذن التعليم الذي يشترك فيه أبناء الأمة ويحفظ وحدتهم ويوسع مداركهم العامة هو التعليم الثانوي وعليه الموقر في الأمم الراقية الآن وفي مصر قبل نحو ٣٥ سنة وما عداها فلما ممد له وإما صناعات عملية .

(٥) فلتنظر نظرة عامة في مدارسنا المصرية الثانوية ، إنها خالية من العلوم التي بها الحياة فليس بها علم النبات ولا علم الحيوان ولا خلاصة من تشریح الإنسان ولا نبذة في علم الهيئة ؛ الطالب في الثانوي لا يدرس طبقات الأرض الضرورية للحياة ولا مافی الجبال المصرية من المعادن ولا الأقوام الدين ولدوا المصريين وسكان

السودان ولا أوامر القرابة التي تربطهم ولا يعرف من تاريخ عظام مصر قديما وحديثا إلا قليلا مبعثرا غير مشوق لحب الوطن .

لقد حدثني الأستاذ (ادوارد براون) الإنكليزي المستشرق حينما زار مصر أيام اللورد كرومر قال :  
[ أرسلت لي حكومتنا البريطانية ثياب عشرات من رؤساء القبائل المجندين في حرب التناوب لأتكرم الأوراق المحفوظة فيها فوجدت منها ما يشابه الدولة العباسية خطأ وإنشاء ، ومنها ما يناسب دولة الأمويين ]  
فصعبت كيف يعرفون قبائلنا ونحن عنها غافلون ؟

(٦) إن الطالب في الثانوي ليس لديه ما يشوقه للعلوم وهو يجهد ما بين يديه وما خلفه وما تحته ، يجهد طبقات الأرض ومعادنها إلا قليلا ، ويجهد ما في داره من حيوان ، وما في حقله من نبات ، وما في جسمه من أعضاء ، ودورة دموية ، ودورة تنفسية ، ودائرة عرقية ، وما فوقه من نجوم لامعات ؛ اللهم إلا تلك البذرة الضئيلة في كذب الجغرافيا ، إنه لا يدرس نفسه ، ولا هضم طعامه ، ولا نظام الضياء والظلام ولا هزته التي يألفها ولا فرسه التي يركبها ، ولا الزهرة التي يستحسنها ويشمها ، إن التعليم في الثانوي يعول العقول إلى الخيال ويصرفها عن المحسوسات ، وهو الذي صرف بعض الأدهان عن حقائق العلوم إلى خيال الروايات وضباب الأوقات ، إن حاسة البصر جردت من أكثر مدركاتها العلية فانصرفت النفس إلى شهواتها إلا من لهم قدم في الفضل ثابتة وجد عظيم ، ومن أغمضت عينه عن اللذات ناب عنها سممه فاحتاج إلى قائد كما للمعان ، هكذا يفعل العرب إذا نصح للشرقيين ، لو كان التعليم الثانوي تاما كما في البلاد العربية أو كما كان في مصر قبل الآن لكان ذلك نورا على نور الذكاء وظهر الذكاء للصري فريدا .

(٧) لولا الذكاء الصري والاجتهاد الفردي والتعليم في أوروبا وعموم الجرائد والمجلات والهضة العلية المصرية مارأينا في البلاد ناخبين ولا قادة ماهرين ، لقد كان التعليم الثانوي شاملا في مصر في أوائل الاحتلال وقبله أكثر هذه العلوم الفعولة الآن ، ولقد كانت مدته خمس سنين وكانوا يدرسون العلوم المحيطة بهم ، ثم اعتري التعليم ما اعتراه بالتدرج وحررم أبناء النيل ارتشاف مناهل العلم بأصول الكائنات وجمال مصر ومجائب السودان وغرائب ما فيه من المعادن والنبات .

(٨) إن التعليم في المدارس الثانوية إن لم تتوجه هم أصحاب الشأن وأولى الأمر بالبلاد إلى تربيته أصبح المهندس أو القاضي أو كل من له رياسة عامة في الأجيال المقبلة في دائرة محدودة من العلوم ، يقول العلماء :  
[ البلاد خير من الفطانة البتراء ] وإذا كان الجهل شرافتر منه نقص يدلى إلى غرور ، فأولهما جهل بسيط ، وثانيهما جهل مركب تجمله الأمم المغيرة سلاحا لتقتل به الضعفاء ووسيلة لتغلب الأنبياء ، فأما الأمم المستقلة فهي التي تراعى النظام النام وتفتح باب العلم واسعا ليهرع طلاب الثانوي شوقا إلى العلوم ، إن اتساع التعليم الأولي في البلاد لا يخفى شيئا عن التعليم التام ، إن متعلما واحدا خير من آلاف الآلاف من المتعلمين تعلما أوليا ، فهو رأسهم يقودهم إلى طريق الفلاح ، فإكمال التعليم الراقى لقواد الأمم أكرم لها من تعميم التعليم الأولي في البلاد .

(٩) لقد أدرك هذه الحقيقة في مصر الأستاذ لمبير الفرنسي ناظر مدرسة الحقوق سابقا وظهر ذلك في حادثته المشهورة بينه وبين وزارة المعارف إذ أبان لها ذلك النقص الشأن في التعليم الثانوي قائلا إنه لإسالة بين قصه وبين السكالك في دراسة الحقوق ، وكيف يكون دارس الحقوق خاليا من مبادئ المنطق وبعض العلوم ؟ فكان جزاء ذلك الحر الشجاع أن قدم استقالته وسافر إلى ليون وأصبح أبا وأستاذا لطلاب الحقوق بفرنسا من المصريين إعجابا بذكائهم وهم مجدّون .



(١٠) إن لم يغير هذا المنهج أصبح طبيعة راسخة وهيئات هيئات أن يغيره متخرجون في مستقبل الأجيال. وكيف يفلتون غرهم ما يجهلون؟ وكل امرئ بملء مفتون، والفرور يعمى ويصم، والناس أعداء ما جهلوا، فإليكم أيها القادة أوجه خطابي هذا موقنا أنه يوافق مقاصدكم النبيلة التي أتجهت أنظاركم إليها حتى ترى زهرة البلاد مقبلين على العلوم عاكفين على البحث والتنقيب فلا تعود نسمع من أكبر تاجر للكتب في مصر أن أبناء البلاد معرضون عن الكتب العلمية عاكفون على الأدبية ونحوها.

إن المتعلم إذا اقبلت عين بصيرته العلمية فلم يعشق العلوم كان آخر عهده بها نيل الشهادة ويكون ذلك مفتاح الشرف والحرص فيود لو تفتح له الحكومة خزائنها ليقضى منها لباته ويكون عالة عليها وهو في ضرور، أما إذا انفتحت عين بصيرته بما ذكرناه من العلوم فإنه يرجع بأتمته إلى مهالي الفلاح، وإذا كانت مدارسنا الثانوية قبل عهد الاحتلال وفي عهده حافلة بهذه العلوم وكان للتعلمون نخر البلاد بها وكنا نتحسر على تلك الأيام.

فما أسعد هذا اليوم إذا خاطب شيوخ الأمة وتوابعها وحكوماتها الوطنية وتمرانها الناضجة أن أغشوا البلاد وأنتم خلاصة الأمة وقادتها وفيكم فطاحل التلعين والتأبين قبل فوات الفرصة، وليدرس للتهج الثابوي الذي كان في مدارسنا قبل مسخه وليرد عليه ما يناسب هذا الزمان حتى يقول أبناءنا: بلقنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لرجو فوق ذلك مظهرا. وها أنا ذا قد أدت ماوجب على ولهيئتكم للوفرة الرأي الأعلى.

جوهره سفة في أن جمال الكواكب قبة من عوالم الجنات عجبت في هذه الحياة اعلم أن الجمال على قسمين: جمال يثرفينا ما كمن من اللذات الحيوانية والشهوات الجسمية لداعية التناسل فهذا أدنى القسمين، وهذا نوع من العذاب للعجل في الدنيا وذلك يشبه قوله تعالى « فلا تصيبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون » وكل جمال لاحظناه في شجر أو زهر أو تصور أو حور في هذه الحياة وكان قصارى أمره الشهوات الطبيعية أو التملك أو ما أشبه ذلك فهذا قد شبت لديه بالألم وجته يجهنمه وسعادته بشقائه، فإننا نفرق بين جمال بستان تملكه وآخر لا تملكه بأن الأول يخالط جماله تكاليف الملك وعذاب الحرص وحسد العدو وغيره الصديق ومطالب نموه ورعايته وحفظه بأن نسقيه ونقيم عليه الحراس وما أشبه ذلك.

أما الذي لا تملكه من تلك للزارع والبساتين وما أشبهها فإن خطر بأنفسنا للوازنة بيننا وبين اللالكيين له ونحسرها أو حسدنا فإن ذلك من نوع العذاب، فأما إذا لاحظنا أنه كشجر البادية أو كالغابات العامة فإن ذلك الجمال لا ألم فيه يدعو لراحة النفس وسرورها وبهجتها على مقدار نصيبها من تعقل الجمال.

ولذلك نجد أن لكل أمة من الأمم الراقية حدائق عامة وبساتين ومنتزهات تسمى الجمهور، فترام بحرصون الحرص كله ألا تكون الأشجار مشجرة ولا الأزهار أرجة ذكية الراحمة، ذلك لتمتع أبطار الجمهور ولا تتناوله الأيدي، ولو أن هناك أثمارا مأكولة لحرص الناس على أكلها وتسايقوا إلى نيلها ونسوا جمالها فنصبح تلك البساتين أشبه في جمالها بالرجال عند النساء وبالعكس، فإن جمال كل من الصنفين يدعو الآخر إلى التناسل الدامي إلى العمل في الحياة والشقاء.

إذن البساتين العامة في المدن جعلت لراحة الناس من مشاق الحياة وأسقامها وآلامها ونسيان مرارها وسعيرها فليل بينها وبين الشهوات السيمية التي فر منها الناس إلى الضواحي والحلوات. ألا ترى رعاك الله أن جمال الكور والإينات إنما هو طليعة الثرية وما هو إلا كالجلب يرمى به للطائر فيقع في الشبكات، إنه مقدمات لنظلم الأسرات لاغير وكما ازداد سنهما وكبر بنوهما وبناتهما وأيت الحب

محول من الجمال الأدنى إلى الجمال الأعلى ، جمال للعائشة والسابقة في ربة البرية والتعاون والأنس والاشفاق بعد أن كانا في مبدأ التعارف لا يلحظان إلا حمرة الخد وجمال الوجه واعتدال الفخذ وطول الشعر ودعج العين ولبس الشفة وألا يفتر الثمر إلا عن لؤلؤ رطب أو برد أو أفحوان ، أصبحا لا يذكران إلا صحة الولد وإسماده وتربيته وآدابه وقوته وتعلمه وما أشبه ذلك من مطعمه وملبسه .

فهذا كله دليل على أن الجمال في الجنسين وسيلة لا تقصد لذاتها بخلاف جمال الحدائق العامة والنتزهات ، فإن الجمال هناك مقصود لذاته ولو خالطته اللواتي الشهوية كالفاكهة لرجع إلى ماسم الناس منه في منازلهم وحياتهم الحيوانية ، إذا عرفت هذا فأقم وجهك إلى النجوم وانظر جمالها ولآلئها .

الكواكب جنات عجبت للفكرين ولكن أكثر الناس عنها محجوبون

يا سبحان الله وإسمدانه . نظرت بأفقه إلى الأمم الأرضية اللعنية فأرحمهم بالحدائق في ضواحيها وزرعت لهم في الطرق أشجارا وجعلت لهم أوقانا يسمعون فيها للوسيقى وهكذا ، هذه لذات تكاد تكون خالصة من الآلام ليرحموا نفوسهم من الأعمال الشاقة ، فانظر ماذا فعل الله بعد ذلك ؛ أقل العيون وأقل الجفون وأطفأ السراج الوهاج وأبرز النجوم وأشرقت الأرض بنور ربها في الليالي اللطيفات وقال للحكام والعلماء : هذه هي الرياض فتمتعوا فيها وانظروا معانيها أنتم اليوم في حظيرتي فما كوها ، فلئن أعدت أعمكم الرياض العامة لرياضة العامة ، فما أنأذا أعددت حدائق السباوية لرياضة الخاصة فأنسينهم أسقام الحياة وآلامها أضعاف أضعاف ما أقل مع العامة ، إن العامة أظمت الأم أن يدوا لهم ما هو أقرب لمقولهم وأدنى إلى فهمهم ، فلم أخرجهم من سجن الحياة وذل العيشة إلا لما هو أقرب إليها وهي البساتين العامة فهي بساتين أرضية ، أما أنتم أيها الخاصة الذين أعددتكم لجوارى والقرب من العلم والحكمة فهاكم رياضاً جميلة واسعة هي سبيل الجنات فهناك تلهظون عظمة الوجود ، فلئن ابتهج العامة والجهلاء بمنظر زهرة في شجرة فأتم تبتهجون بدل كل زهرة بكوكب مشرق في ظلمات الليالي ترؤنه بأعينكم صغيراً وتلاحظونه بقولكم كبيراً ، فينبأ أعيانكم ترسمه على شيكيتها كأنه ليمونة إذا عقولكم ترسمه أكبر من أرضكم وأعظم من شمركم ، وما أنأذا أبعثت خيالك أن يتصور ما يشاء من الصور الحسان الجميلات فتتخيّلون ما سمعتم عن الأرواح في العلم الحديث من أن هذه الكواكب ربما كان فيها سكان وأنهم أرفع مقاما من سكان أرضكم وأبعد حالا وأنهم بالا وأشرف منزلة وتمنون التقاق بهم لتمشوا مبيشة أهنأ وتسدوا سعادة أكل ، فما أنأذا ملأت خيالك بحمال باهر من النجوم ثم فتحت الباب على مصراعيه لتتساقوا إلى الخيرات وتقولوا فلتكن أعمالنا مرضية وقلوبنا شقية حتى نسارع إلى ذلك الجمال ونعيش في باحات الكمال .

أقول هذا هو البستان الذي زرعه الله للفكرين من سائر أم الأرض ، وهذا البستان يحمله العامة في جميع الأمم ولا يقلونه ، هذا البستان لا ألم فيه البتة ، فجمال الحور الحسان في هذه الحياة مشوب بالآلم .

أما جمال النجوم فإنه مشوق لما وراءه من علم وحكمة ودراسة ، وكما أن جمال الحور الحسان داع للتأمل ، هكذا هنا جمال النجوم داع لتراستها ، فليقرأ الناس أقدار الكواكب وأبعادها وأوارها فتصبح العقول ونحن على الأرض في عوالم أرقى وأرقى وجدون المراد في الممالك فيشاهدون مشاهد تنسب لذة العقول الصغيرة على الأرض ويرون أن الضوء الذي يسير في الثانية الواحدة مقدار (٣٠٠) ألف كيلو متر يحتاج في وصوله إلينا من بعض الكواكب التي تراها ليلا إلى ثلاث سنين بل إلى (٥٠) بل إلى (١٠٠) بل إلى (١٠٠٠) بل إلى (١٠٠٠٠) ألف ألف ، بل إلى ستين ألف سنة ، وقد تقدم هذا في هذا التفسير في مواضع مختلفة ، وأيضاً يرون اختلافاً في أضوائها كالاختلاف في أبعادها ، فإذا جعلنا ضوء شمسا واحداً

فهناك كواكب من هذه تكون أضواؤها (١٠) مرات بل (٢٠) بل (١٠٠٠) بل (٨٠٠٠) ثمانية آلاف كاسهاك الرامح بل أكثر بما لا نعلم ، وهكذا في أقدارها بما لا يحصر له .

هنا مجمل ما يفكر فيه المفكرون في عالمنا ، إن الله عز وجل جعل على هذه الأرض أناسا أرقى من الناس وهم المفكرون وفتح لهم باب الجنة في هذه الحياة وهم على قسمين : قسم فرح بتخييل الأنوار في أضواء الكواكب وهذا لفته خيالية ، فهو إذ ذاك في سلام وأمان من المموم والأحزان مادام على هذه الحال ، وهذه الطبقة من الناس قد دخلوا في اللذة الخيالية التي سيكونون فيها في البرزخ بعد الموت ، وقسم نظر في علوم تلك العوالم وفتح الناس بها وأرشدهم وهذا أسعد ممن قبله ، وللأول الإشارة بقوله تعالى هنا « وحببتهم فيها سلام » والثاني الإشارة بقوله « وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين » .

رياض الجنات التي أعدها الله في هذه الدنيا للعارفين وهياها للمفكرين في قوله تعالى « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض الخ »

لقد ذكرت لك كيف جعل الله للناس في الأرض رياضاً في المدن وأعدّها للماء وللجاهلين وقد ذكرت لك بعض رياض الحكمة في السموات ، فلأرك في هذه المقالة الرياض الضياء في السموات التي كشفها الله اليوم وهياها لمن بعدنا من الأمم الإسلامية ليكونوا بها عابدين .

تعلم أيها الدكي أن أرضنا التي نسكنها قد عرف الناس مساحتها ووزنها وبعدها كما تقدم في سورة الأنعام وأنها تامة للشمس ، وهناك سيارات أخرى معروفة مذكورة في سورة الأنعام أيضا وللسيارات آثار وكلها للشمس تامة ، وهناك أيضا النجوم ذوات الذنب التي يقول العلماء في عصرنا إنها كعدد السمك في البحار وكلها دائرات حول شمسننا ، وما شمسننا هذه العظيمة التي هي أكبر من أرضنا بنحو ثلثمائة ألف مرة وألف ألف مرة إلا إحدى الشمسوس وهي من أصغرهن قدرا وتلك الشمسوس تمتد بمئات ألوف الألوف فيقال إنها تبلغ نحو (٢٤٢) ألف كوكب شمسي ، كل هذا معروف في هذا التفسير مرارا ، فهذه الشمسوس كلها هي للكونة للجمرة ، والمجرة يراها الناس بأعينهم كل ليلة صافية الأديم كأنها سائل لبي أو كأنها تين ولذلك نسمي عند العائمة [ طريق النبتة ] وعند الإنجليز [ الطريق اللبني ] وعند علماء الدين [ أبواب السماء ]

هذه هي المجرة التي شمسننا واحدة من شمسوسها وهي ترى واضحة ظاهرة كما قلت لك في ليلة ليس فيها سحاب ، يراها الإنسان بينه معترضة السماء من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي والناس لا يعلمون عنها شيئا ولم تعلم حقيقتها حق علمها إلا قريبا ، فقد كنا منذ نحو (٤٠) سنة ونحن نطلب العلم في دار العلوم نتلقى عن أستاذتنا في الفلك أن الشمسوس التي أمكن معرفتها في تلك المجرة لا تزيد على (١٨) ألف ألف شمس ، أما الآن فقد عرف العلماء منها أكثر من (٢٤٢) ألف ألف شمس ، وربما كان لكل شمس سيارات وتوابع ، هذه هي المجرة التي شمسننا واحدة من شمسوسها ، وما هذه المجرة إلا روض واحد من رياض الله التي زرعتها في هذا الجو القسيح المملوء من الأنير ، فهناك ما تلقيناه عن أستاذنا المرحوم حسن أفندي حسني الذي هو أستاذنا في هذا العلم ثم أتبعه بما عرفه العلماء في عصرنا ترى الرياض الزاهرة والجمال الفتان في السماء لشرف معنى هذه الآية ، وهذه صورة المجرة في الصحيفة التالية :

هذه هي الروضة الكوكبية التي  
شمسنا شجرة من أشجارها ، وأرضنا  
عصن من أغصان تلك الشجرة ، ومصر  
ورقة من أوراق ذلك العصن ، والقاهرة  
ذرة من ذرات الورق وسكانها وأنا منهم  
نميش حول تلك الذرة الصغيرة ، ونحن  
إلى الله ذاهبون ، وكما أن القاهرة بلدة  
مما لاعدت له من البلدان في الأرض ؛  
هكذا الهجرة ما هي إلا روضة واحدة من  
رياض لا حصر لها في هذا الجوّ الفسيح



( شكل ٣ )

وقد قسموا تلك الرياض الهبة في السماء إلى ثلاثة أقسام:  
فسم منها بسمونها ( القنوان ) التي يمكن تحليلها بالنظارات إلى جملة نجوم وتسمى مجموعاته كوكبية .  
والقسم الثاني بسمونها ( القنوان ) التي يمكن تحليل جزء منها إلى نجوم بالنظارات .  
والقسم الثالث بسمونه ( سدما ) لا يمكن أقوى النظارات تحليله .  
هذه هي الأقسام الثلاثة التي اصطلح عليها العلماء ، والقنوان : جمع قنو ، فكأن النجوم في هذين  
القسمين قنو النحلة أو عقود العنب ، ومن القسم الأول جملة الثريا الموضوعة في صورة الثور وهي مركبة  
من ( ٨٠ ) نجمة تقريبا ؛ ستة منها ترى بالعين المجردة ، والسدما : جمع سديم وهو في اللغة السحاب الرقيق  
وفي اصطلاح الفلكيين سحابة أو ضباب أو قطعة نيرة سحابة لا تخلل إلى نجوم مفردة بالنظارات القوية .  
المجموعات الكوكبية

تظهر المجموعات الكوكبية بشكل مستدير غالبا حتى  
يظن في مبدأ الأمر أنها من ذوات الأذنان ولسكن عدم  
تغير شكلها وعدم تحركها يميزها عن ذوات الأذنان ،  
والنجوم للنكوة منها المجموعات الكوكبية تظهر في جهة  
الركر أكثر عددا مما في الأطراف ، وقد حسب العلم  
( هرشل ) أن بعض هذه المجموعات التي شكلها كروي  
لا تشمل على أقل من ( ٥٠٠ ) نجمة منضمة إلى بعضها  
في سنة نظرها الظاهري لا يزيد عن عشر قطر القمر ،  
وأشهر هذه المجموعات قنوتوكان وهي في السماء الجنوبي  
وترى دائما بالعين العارية ( شكل ٤ ) والجزء المركزي منها  
ذو لون أحمر برتقالي فأحمر



( شكل ٤ )

ومثل هذا القنو ما هو مبين في شكل ٦ ( رسم قنوتوكان - شكل ٥ )



(شكل ٥)

القسم الثاني السدم التي يمكن تحليل بعضها

السدما التي يتحلل جزء منها تظهر في الغالب على شكل منتظم قليلا أو كثيرا ولا شك في أن هذه المجموعات هي من المجموعات الكوكبية ، غير أنها موضوعة بعيدا جدا أو أنها مركبة من نجوم صغيرة جدا يمكن تحليل بعضها بالنظارات ، وبعض السدم ذات الشكل المنتظم مستدير وبعضها يضاوي وبعضها ناقص مطاول جدا يقرب من المستقيم (شكل ٧) وبعض السدم البيضاوية حلقية كما يرى في (شكل ٨) وأحيانا ترى نجوم على نفس الحلقة .

(١) من الليزان (٢) من الجاني على ركيبه (٣) من الجدى (٤) من الدلو (٥) من الحية (٦) من الجوزا



(شكل ٦)

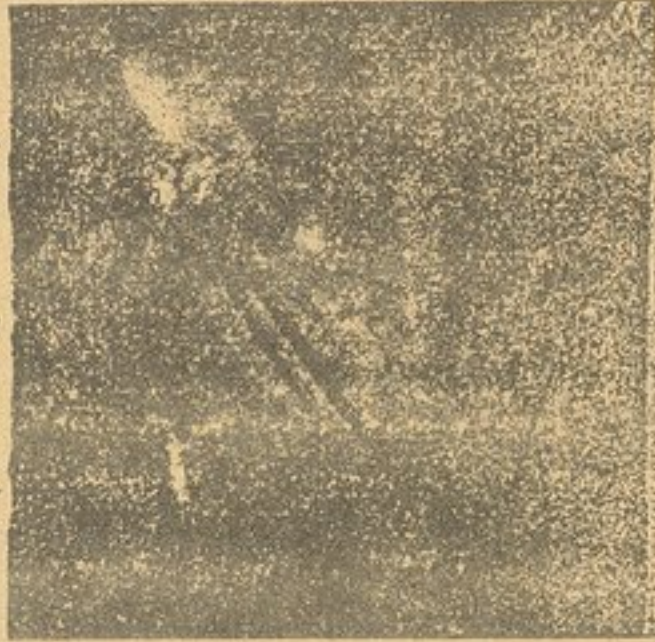


(شكل ٧)

ومن ضمن السحابات المنتظمة ما شكله مخروطي أو كشكل ذات الذنب ، ويمكن أن يكون انتظام الشكل مرتباً على قوة الآلة بحيث إن الانتظام لا يكون إلا ظاهرياً فعلى رأى (هرشل) تظهر سحابة كلب الصيد مثلاً على شكل حلقة مضاعفة في نصف دائرها وفي وسط الحلقة توجد سحابة لامعة جداً وخارجها عن الحلقة على بعد منها توجد سحابة صغيرة مستديرة .

[ القسم الثالث ] السدم الغير المحلولة ذات الشكل غير المنتظم ، توجد سدم لا يمكن أقوى الآلات حلها وهي سدم الرتبة الثالثة ، وهذه السحابات تظهر عموماً بشكل غير منتظم ، وذلك كسديم للراة للسلسلة ( شكل ٩ ) والسديم الحلقي الناقص للأسد ( شكل ١٠ ) .

( شكل ٩ - سديم للراة للسلسلة )



( شكل ١٠ - سديم الأسد )



وهذا القسم الثالث وهو السدم لم يعلم منه العلماء أيام تلقينا هذا العلم منذ أربعين سنة إلا خمسة آلاف فقط فهذه ترى كأنها سحاب أو ضباب ولكنها ليست واضحة وضوح المجرة ، أما الآن فهناك مائة مائة مائة

(هبل) يقول إنه رأى في ألواح التصوير للتصلة بالتلسكوب الأكبر الذي قطر مرآته نحو (١٠٠) بوصة نحو (ألف ألف) أي مليوني سديم يبلغ بعدها عنا (١٤٠) مليون سنة .

ومعلوم أن شمسا يصل ضوءها لنا في (٨) دقائق و (١٨) ثانية وهذه للسافة يقطعها القطر في نحو ٣٦٥ سنة ، وقلة للدفع في نحو ١٢ سنة ، فانظر كيف يكون بعد تلك السدم التي لا تبعد بأقل من مائة وأربعين مليون سنة فتعجب .

وهذه السدم منتشرة في أبعاد شاسعة جدا يبلغ البعد بين الواحد والآخر منها (١٨٠٠٠٠٠) سنة نورية ، وفي كل سديم منها مادة تكفي لتكوين مليون شمس مثل شمسا ، ومعلوم أن شمسا نجم من نجوم المجرة كما تقدم ، والمجرة نفسها سديم من السدم ، فانظر أيها الدكي وتعجب .

هذه هي الرياض الواسعة ، هذه هي جنات العلم والحكمة ، أرضنا صغيرة وحدائقها وبلدانها وبحارها حقيرة وشمسا صغيرة ومجرتنا إحدى المجرات ، والمجرات بلغ للعلوم منها اليوم نحو ألف .

يا سبحان الله ياسعدانه ، نحن محبوسون في الأرض هذه الأرض الصغيرة ، أما أنا فلا أرى فرقا بين اللجونين في السجون وبيننا نحن على الأرض ، فالمسجون يستروح بالأخبار عن أحوال أمته وأحوال حكومته ويشوق لذلك وهو في حجرة ضيقة والناس في الخارج أحرار ، هكذا نحن في هذه المجرة الضيقة عشا محكوما علينا بالبقاء في الأرض إلى اللوت وقد حرمانا من الصمود إلى السماء لننتهج بتلك الشمس وأوارها وسكانها ومجائنها ونفوح أخبارها ، وهذا قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » وقوله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء » .

لاجرم أن الجنة ليست تحتنا بل هي فوقنا ، إذن هي في السماء (راجع ما قلنا من الأحاديث وأقوال العلماء في سورة آل عمران) .

أفلمت ترى ممي أن مثل هذا هو المقصود من قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » أفلميس هذا هو النظر في السماء ؟ نرى في الليالي الصافية أديم السماء فترى قبة زرقاء جميلة المهيأ بها مجموعات كأنها ضباب ، وهذه المجموعات تبدو ضئيلة ثم بحث العلماء عنها فوجدوها نحو مليونين ، سبحان الله إن البعد شاسع بين العالم والجاهل ، الجاهل لا يرى في السماء شيئا والعالم يراها موطن الكرامة والحكمة والمخلوقات العظيمة .

هذه هي ما تشير له الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها ، فبعد أن ذكر الله ضوء الشمس ونور القمر والحساب واختلاف الليل والنهار قال « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الخ » فهذه ذابحاته ذكر الاطمئنان بالحياة الدنيا والنفلة عن آيات الله وعدم الرجاء في لقاء الله واستحقاق جهنم ، كل ذلك بعد ذكر جمال السماء وكواكبها . فعلوم السماء فتح لأبواب الجنة والنفلة عنها فتح لأبواب جهنم ، لأن الإنسان لا يشق إلى حياة أعلى إلا إذا علمها ، إما باتباع الوحي وإما به مع الدراسة العلمية كما أوضحناه غير مرة في هذا التفسير .

جوهرة في إشراق نور العلم في القلوب بإشراق نور الكواكب

ها أنت ذا أيها الدكي وأيت صورة المجرة وصورا لعوالم أخرى غير المجرة ، ورأيت أن عالم المجرة والعوالم التي تشابهها تزيد على مليونين ، ورأيت كلام العلماء في أبعادها التي بعدت جدا ، ومعلوم أن كل ذلك تحريم ، فهناك الآن آخر ما وصل له نوع الإنسان من العلم فيما رأته فأقرأ وانتظر غيره واقراء علوم الأمم حولنا بعد أن تفقه ما ذكرناه .



انظر إلى الهجرة التي رسمت هنا في صورة (٣) ارجع البصر كرتين لها تجد أنها هي التي فيها كواكب كثيرة منها شمسا ، إن المسافة التي يقاس بها البعد بيننا وبين الشمس التي هي كوكب من كواكب هذه الهجرة نحو ٨ دقائق و ١٨ ثانية كما تقدم بسير النور وقد عرفته بسير قلة الدفع وسير القطار في الأرض فلا نعيده ، نحن لا نقيس بعد هذه الهجرة إلا تدريجيا ، إذا عرفت بعد الشمس منها فإن بعد أقرب كوكب من كواكب هذه الهجرة وهو (ألفا قنطورس) يبلغ بسير النور ثلثمائة ألف ضعف بعد الأرض عن الشمس : أي ثلاث سنان ونصف سنة نورية .

فيا ليت شعري ماذا يكون ذلك البعد بالقطار أو بقلة الدفع ؟ مع العلم بأن النور يسير في الثانية مايسيره القطار في نحو ٤٥ سنة ، وما تقطعه قلة الدفع في نحو سنة ونصف ، ولنتنظر نظرة عامة في الهجرة فنقول :

يقول علماء عصرنا لتتخذ الشمس مركزا ولنرسم حولها كرة قطرها ألفا سنة نورية ، فهذه الكرة تشمل جميع الكواكب التي تراها بالعين المجردة ، وإذا أوسعنا هذه الكرة حتى يصير قطرها خمسا وعشرين ألف سنة نورية شملت جميع الكواكب التي في نظام الهجرة التي هي مرسومة أمامك .

صفة الهجرة : هي تشبه حبة العدس قطرها (٥٠) ألف سنة نورية ، والمسافة التي بين وجهيها عند مركزها عشرة آلاف سنة نورية ، وخارج هذه الهجرة عالمان آخران في غيوم (عجلان) يبعدان نحو (٢٠٠) ألف سنة نورية وهناك كون آخر يبعد (٧٠٠) ألف سنة نورية ثم على مليون سنة نورية تجد السديمين الكوكبيين في الرأفة للسلسلة وكوكبة الثلث وكل منهما طوله الأطول نحو (٥٠) ألف سنة نورية وهو طول قطر الهجرة .

ولكن هذه الهجرة وأجسادها الشاسعة عالم صغير جدا من العوالم ، فماذا بعدها ؟ الجواب : هناك مجاميع من النجوم وقد رأيت بعضها مرسوما أمامك في هذه الصفحات ، وكل مجموعة منها فيها نجوم كنجوم الهجرة وكلها منتشرة في الفضاء كأنها بساتين زرعتها الله في الفضاء للتسع ، أو كأنها جزائر في البحر ، لجزائرنا الأرضية في البحار للثانية ، وهذه جزائر في البحار الأثيرية التي تظهر لنا كأنها فضاء ، ويقولون في عصرنا الحاضر : إنها الأكوان (الجزرية) .

ولأذكر لك على سبيل المثال سديم الرأفة للسلسلة للتقدم ، وجدته العلماء يبعد عنا مليون سنة نورية وقطره خمسون ألف سنة نورية وفيه ألوف لللايين من النجوم أكثرها لا يمكن رؤيته ، والكواكب التي تراها فيه تزيد ألوف الأضعاف على شمسا من حيث النور واللحان بدليل أننا لو أقصينا الشمس عنا مسافة مليون سنة نورية لم يمكن رسمها بالمصور الشمسي ، أما هذه النجوم التي تبعد عنا هذا البعد الشاسع فإنها رسم فإذا كانت شمسا بالنسبة للكواكب التي عرفت صغيرة جدا وضوءها ضئيل ، وإذا كانت الهجرة فيها مئات لللايين من الشمس وكانت الهجرات الأخرى فيها كواكب مثلها أو أكثر وهي أضوأ ثم أضوأ ثم أضوأ ، أفليس هذا معناه أننا نصر في هذا الوجود ؟ وإذا قال الشاعر :

« إذا ذلّ مولى للره فهو ذليل »

فهكذا نقول إذا صر أهل الأرض بجانب الأرض وبجاراتها وجبالها ، وإذا صمرت الأرض بجانب الشمس ، وإذا صمرت الشمس بجانب مئات لللايين من كواكب الهجرة ، وإذا صمرت الهجرة بجانب مائة ب من عدد مليونين من الهجرات فما نحن في هذا العالم إلا صغر ، وبهذا نفهم قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فقلنا قليل كقلة أرضنا بالنسبة لشمسا ، وشمسا بالنسبة لهجرتنا ، وهجرتنا بالنسبة للهجرات ، وقد يش الناس أن يعرفوا لهذه العوالم نهاية .

وسيعرف المسلمون من ذلك معنى قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » وقوله « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر » اه .

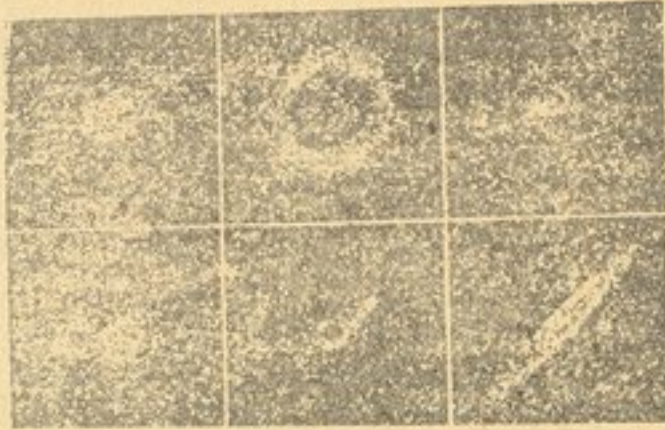
إذا عرفت هذا فهمت تفسير هذه الآيات ، فإذا سمعت الله يقول « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » وختمها بأنه فصل ذلك لقوم يعلمون أدركت ما قدمناه من أن البسائين العامة للعموم ، أما السموات فهي للملاء بها وهم الخواص ، وإذا سمعت قوله تعالى « إن الدين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا » ثم وصفهم بالاطمئنان بها والنفقة أدركت ما قدمناه من الحياة النزيلى وشقاها الذي لا مندوحة عنه وهو عين ماجاء في قوله تعالى عند ذكر الأولاد والأموال أنهما لعذاب في الدنيا

ثم لحص اللقاه كله بقوله « دعواهم فيها سبحانهك اللهم الخ » ويانه أن الإنسان في الأرض أشبه مسجوننا أبعد من ملكه كما تقدم ، فهذا المسجون له أربع أحوال : حال السجن ، وحال الخروج مع عدم الأمن من السجن ، ثم حال الأمن من السجن . ثم أن يعطى له ملكه ، فهذه الدرجات الأربع تحصل لنا فنحن الآن في سجن تكاليف الحياة والشهوات ، وإذا خرجنا منها ربما وقمنا في شقاء آخر وهو المعبر عنه بجهنم ، فإذا سلمنا منها فهو نعمة ، فإذا أعطينا الكمال اللائق لنا فهذا غاية للراد ، فقوله تعالى « سبحانهك اللهم » نزهة لله عن الحوادث ملحوظ فيه تشبه العبد به في الخلوص من الملائق النبوية وهو المرتبة الثانية للتقدمة وقوله « سلام » هو المرتبة الثالثة ، والرابعة كالعلم بهذا الوجود الذي هو جنة العارفين في الدنيا وفي الآخرة الذي لا يحق للحمد إلا به ، إذ لا معنى للحمد على تربية العالمين إلا بعد العلم بها ، ومن العالمين هذه الكواكب والشمس والقمر للضئيات المذكورات في الآيات التي يتمتع بها الخواص في الدنيا والآخرة والله يعلم أن العامة محرومون من هذا الجمال فألمهم رجال الحدائق فزرعوا لهم من تلك البسائين بعض روضات منظمة على أشكال (بيضاوية) أي اهليلجية وهي السبات بالقطع ناقص التي تشبه دوائر الكواكب في السموات كدائرة الأرض حول الشمس فإنها ليست دوائر ناقصة والشمس تكوّن في إحدى بؤرتيها سيفا وشتاء كما أوضحته في غير هذا اللقاه في التفسير ، فبسائين العامة في بعضها ذلك الشكل كما يذكر العوام بدوائر الكواكب التي لا يعقلها ليل إلا الخاصة .

#### تذكيرة

أيها الذي سيقرا هذا التفسير إن شاء الله شبان من المسلمين في حياتنا وبعد موتنا وسيرعون إلى بناء الراصد في الممالك الإسلامية في بلاد المغرب ومصر والشام والعراق وبلاد جاره ولللابي وسائر بلاد الهند الشرقية ، وسيكون هذا القول من أوكد الأسباب لارتقائهم في علوم النجوم وسائر علوم الحكمة ، لاسيما إذا قرءوا ما سيأتي في تفسير قوله تعالى في سورة إبراهيم « وذكرهم بأيام الله » كيف كان موسى يذكر قومه بأيام الله وكيف ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم قومه بأيام الله ؟ وكيف ذكرت أنا الأمم الإسلامية بأيام الله وكيف يتجلى لك هناك ما برع فيه آباؤنا الأولون من العلوم في الفلك وغيره ، وكيف شهد لهم العلامة (سدبوت) الفرنسي بأنهم سادات أوروبا وأساتذتها في العلوم ، وأنهم هم الذين أصلحوا علم اليونان كما وضعه هو بإصاحا تاما ونقلت أنا هناك بعضه ، ثم كيف كان بعض ملوك الدولة العباسية يجارون ملك الروم لأجل بخله عليهم بعلم يسمى (ليون) من شدة ولوعهم بالعلم ، وكيف غير الله عقولهم في أواخر الدولة فطاردوا العلماء كما فعل الملك يعقوب في الأندلس وابن رشد ، وكيف ذلّ للمسلمون شرقا وغربا بعد ندم العلماء ؟ وكيف كان الجهل سبب خراب بغداد ومصر وبلاد الأندلس وتفصيل ذلك كله مع الإيجاز ، ستقرأ هذا التفصيل هناك وتقرأ ما نبئت به بعد ذلك أوروبا لما أخذت علوم ابن رشد وكشفت من العلم ما انتفعنا به وأصبحنا عالة عليهم

في علمهم وصناعاتهم ، سبقوا هذا وذلك أبناؤنا للسمون والشرقيون وسيطرون لعلم سراجا ويرجعون مجددا  
صاع وعزاً ذهب ، والله هو الولي الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .



( شكل ٨ )

فصل في قوله تعالى « إن في اختلاف الليل والنهار  
وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتفنون »  
اعلم أن اختلاف الليل والنهار قد فصلته تفصيلا في سورة البقرة ، وأما الكلام على ما خلق الله في السموات  
والأرض فيها أنا إذا أزيدك بيانا فوق ما مضى منه في هذا الكتاب لينشرح صدرك ولتكون رياضة بعد الغناء  
في حساب السنين وأذكر لك لطائف :

#### اللطيفة الأولى : النبات المقترس

إن الحيوان المقترس يسطو على العزبان والأرانب والاعز والنعم وما أشبهها ، وهكذا كل حيوان يسطو  
على النبات فيأكله ليتغذى به ، والأكثر فيه أن يكون غير مقترس ، وماذا تقول إذا قصص اليوم عليك  
نباتا مقترسا .

ذلك أن العلامة ( آليس ) الإنجليزية قد كشفت نباتا في ( أمريكا الشمالية ) له ورق كأنه مصيدة الفار  
والورق مفاسل كفواصل اليدين والرجلين في الإنسان والحيوان وعلى ظاهرها زغب يقوم مقام الأعصاب  
في ظهر الإنسان ، ثم هناك شوك يحيط بها من كل جانب فإذا حامت حشرة صغيرة على الورقة أحس الزغب  
بها حالا فتنهت الورقة فتطبق عليها ولا تدعها تغلت وتفرز مادة عليها كما تفرز نحن عصارة البنكرياس  
في المعدة والريق في الفم على طعامنا ، وكما تفرز الحية المادة السمية فتضم طعامها بلا أسنان ولا معدة ،  
وحينئذ تمتص الورقة تلك النعمة وقد اقتصت لأنواع النبات من عدوها الحيوان وهي تقول :

فيوم لنا ويوم علينا . ويوما نساء . ويوما نسر .

وتقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

#### اللطيفة الثانية

نبات مائي يسمى عند النباتيين ( بغاليسثيرياسير اليس ) وهو ينبت في مجاري الأنهار ، ولقد علمت في هذا  
الكتاب أن لكل نبات ذكرا وأنثى ، وقد يكون الذكر في زهرة والأنثى في زهرة أخرى من الشجرة  
الواحدة كنبات القرع ، وقد يكون الذكر والأنثى في زهرة واحدة كالقمح ، وقد يكون كل منهما في شجرة  
كما في النحل ، ومن النوع الأول هذا النبات للمائي الذي نحن بصدد الكلام عليه ، فإن للزهرة الأنثى من  
ساقا لوليا طويلا ، وهذا الساق يجعل الزهرة ويعوم بها فوق الماء مرتصا لها في الهواء ، أما الزهرة التي

فيها لفتح التذكير فإنها ليست تعوم بل هي قريبة من التثبيت تحت الماء فإذا جاء الأجل وحل أوان الفجر ،  
فماذا يحصل ؟ أنزل الزهرة الأثني حتى تصل في الماء إلى زهرة الذكور ، أم يطول ساق الذكر حلالا فيصل  
إلى أعلى فيحصل الإلقاح ؟ كلا . لاهذا ولانذاك وإنما تنفصل زهرة التذكير وتصلد فوق الماء حتى تجتمع بالأثني  
وهي منفصلة ومتى حصل الإلقاح يتقبض لوب الأثني حتى تصير في قاع مجرى النهر عند ساق النبات في أسفلها  
وهناك يتم البذر ، فتعجب وزد علما واقرا « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض  
آيات لقوم يتقون » .

#### اللطيفة الثالثة : شجرة تخرس إنسانا

جاء في بعض المجلات المصرية العصرية أن في بعض الجزائر شجرة يقدسها أهل تلك الجزيرة ويبدوونها  
ويقدمون لها في كل سنة ثناء يختارونها لذلك فيحضرون معهم آلات الطرب من طبل وغيره ويضعون هذه  
البنت في أعلى الشجرة في مقعد هناك فيه مادة حلوة لذيذة من نفس الشجرة تشرب منها الفتاة ففسكر وتعيب  
حواسها فلا تثبت تلك الشجرة أن تجتمع أوراقها وأغصانها وأشواكها الناقلدة وقضبانها اللثوية التي تشبه  
الجبال فتضم جميعها على الفتاة والأوراق تسكنم أنفاسها والجبال تلتف حولها والشوك ينفذ في باطنها من أعلى  
ومن أسفل وتأخذ الشجرة إذ ذاك تضع الفتاة وتضمها وهي لا تقدر على النجاة والقوم يدقون الطبول فرحا  
بهذا العيد الذي وفي الحال لا يسمعون تأوه الفتاة وأنيبها وعويلها وصراخها ثم ينصرفون بعد ألا يبقى لها  
إلا ما تلتفظة الشجرة من عظام لا لحم عليها ولا عرقا وهكذا ، وذلك أيضا من انتقام النبات من الحيوان  
جزاء ما يفعل الحيوان في النبات « وريك يهاق ما يشاء ويختار ما كانت لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى  
عما يشركون »

#### اللطيفة الرابعة : كيف تظهر صور المخلوقات في فصول السنة الأربعة

انظر للدنيا في فصل الربيع [ من إخوان الصفا ] فإذا زلت الشمس أول دقيقة من برج الحمل استوى  
الليل والنهار واعتدل الزمان وانصرف الشتاء ودخل الربيع وطاب الهواء وهبّ النسيم ودابت الثلوج  
وسالت الأودية ومدّت الأنهار ونبت السيون ونبت العشب وطال الزرع ونما الحشيش وتلاأ الزرع وأورق  
الشجر وتفتح النور واخضر وجه الأرض وأخرجت زخرفها وازينت وفرح الناس واستبشروا وصارت  
الدنيا كأنها صبية شابة تزينت وتجلت للناظرين .

#### فصل الصيف

إذا بلغت الشمس آخر الجوزاء وأول السرطان تهاى طول النهار وقصر الليل وأخذ النهار في نقصان  
وانصرف الربيع ودخل الصيف واشتد الحر وحس الهواء وهبت السحوم وقصت الليالي وبيس العشب  
واستحكّم الحب وأدرك الحصاد ونضجت الأثمار رسمت البهائم واشتدت قوة الأبدان وأخصبت الأرض  
وكثر الريف ودرت أخلاف النعم وبطر الإنسان وصارت الدنيا كأنها عروس منعمة رعاء ذات جمال .

#### فصل الخريف

إذا بلغت الشمس آخر السنبلة وأول الليزان استوى الليل والنهار مرة أخرى وأخذ الليل في الزيادة  
وانصرف الصيف ودخل الخريف وبرد الهواء وهبت ريح الشمال وتغير الزمان وجفت الأنهار وقارت العيون  
واصفرت ورق الأشجار وصرمت الثمار وديست اليبادر وأحرز الحب وفنى العشب واغبر وجه الأرض  
وهزلت البهائم وماتت الموامم وانجحرت الحشرات وانصرف الطير والوحوش إلى البلدان الدفية وأخذ الناس  
بحرزون القوت للشتاء وصارت الدنيا كأنها كهلة مدبرة قد تولت عنها أيام الشباب .

## فصل الشتاء

إذا بلغت الشمس آخر القوس وأول الجدى تهاى طول الليل وقصر النهار وأخذ النهار في الزيادة وانصرف الحرير ودخل الشتاء واشتد البرد وخشن الهواء وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات وانجمرت هوام الحيوانات في بطن الأرض وضعفت قوى الأبدان وعرى وجه الأرض من زيبته ونشأت النجوم وكثرت الأنداء وأظلم الهواء وصارت الدنيا كأنها محجوزة هزيمة مدبرة قد دنا منها اللوت ، فإذا بلغت الشمس آخر الحوت وأول الحمل عاد الزمان كما في العام الأول وهذا دأبه « ذلك تقدير العزيز العليم » هـ . هذه صورة ما خلق الله من شيء في فصول السنة الأربعة وقد قال « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » أي تناقض ولا اختلال ، وها أنت ذا قد شاهدت أن هذه الرواية تمثل كل سنة تمثيلا متواصلا لاختلاف في فصول الروايات من حيث العموم وإنما تختلف في أحوال جزئية « فبارك الله أحسن الخالقين » . فصل في قوله تعالى « إن الدين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا الخ » لا بد في ذكر للناس بين هذه وما قبلها من بيان مقدمة في جبهة الناس وغرائزهم وما فطروا عليه . اعلم أن الناس في هذه الدنيا مولعون بما خلقوا له مغمومون بما استعدوا له لا يرجون سواه ولا يحجون إلا الوصول إليه .

- (١) فالفتاة في المدرسة مفرمة بالعرائس تلبسها وتلب بها .
- (٢) والصبيان فيها لا يهنا لهم إلا حب السلاح وآلات الحرب غالبا والغالبية في اللعب . ذلك أن الفتاة خلقت للولادة والتربية ، والفتى سيكون من شأنه مدافعة الأعداء عن البلاد .
- (٣) وترى قوما يميلون بحسب ما طبعوا عليه إلى التجارة .
- (٤) وقوما للزراعة . (٥) وقوما للإمارة . (٦) وقوما للملك . (٧) وقوما للعلم .
- (٨) وكل هؤلاء مختلفون اختلافا كثيرا .

وقد ظهر بالاستقراء أن من طلب شيئا وهام به ناله كله أو بعضه على مقتضى حاله ، وليس يكون الإنسان مفرما إلا بما شا كله وقد بناه ، فهل نخرم الفتاة بآلات الحرب والقتال ؟ أم للسعد للإمارة صناعة البديل ؟ ففي الحديث « كل ميسر لما خلق له » فليست ترجو الفتاة سلاح الحرب غالبا وليس يجب التقي أن يكون مرضعا وظئرا للأطفال وهكذا ، وإذن أصبح الناس بالنسبة إلى الأشياء على قسمين : قسم مستعد للشيء رجوه ، وقسم ليس مستعد له ليس رجوه ، فالحداد مثلا عادة لا يستعد للحكمة والفلسفة فهو لا يرجوها ومن خلق مستعدا لها يرجوها فيتأهلها الثاني ومحرم منها الأول .

فلننظر إذن نظرة في هذه الآيات نجد وصف السموات والكواكب وسير الشمس والقمر وهذا من نوع الجمال العالى وفي نوع الإنسان عشاق لهذا الجمال وفيه من لا يستحقون بل هم مكثفون بلما كل ولشرب والتناسل كالدواب والأنعام والغالبية كالآساد ، فشاق هذا الجمال يكفون على الحساب والمهندسة والجبر والفلك وحساب الثلثات ويهرعون إلى المرصد فينظرون النجوم ويتأملون أشكالها وجمالها وحركاتها ويدققون ويعسبون وهم بذلك فرجون مستبشرون . فهؤلاء يتنون لو يساعدهم القدر ويسبحون في عوالم السماء حتى يقفوا على كنه تلك العوالم ويعرفوا جمال الصنعة الإلهية ، وكلما ازدادوا علما ازدادوا سرورا وبهجة بتلك المعجائب والبدائع ؛ فالنظر للعوالم الملوية يهيج الصدور ويعمل الإنسان مفرما بالاطلاع على جميع العوالم ، أفول فهل هذا الغرام خلق في بعض هذا الإنسان باطلا كيف وقد خلقت الفتاة ومهما غريزة تربية الصغار في اللعبة وهي طفلة وكذلك التقي نخرم بالسلاح الذي هو من جنس ما يكون في مستقبله وهكذا أرباب

الصناعات والحرف كل يميل إلى ما خلق له كما كانت أمة اليونان في قديم الزمان تدخل الصبيان في الهياكل وقد وضموها صور جميع الحرف ويسألون الصبي عما يميل إليه فيجيبهم فيحكمون عليه أنه من أهل هذه الحرف وقد خلق لها .

فإذا كان الاستقراء أثبت هذه القاعدة فلنفس الغائب على للشاهد ولتقل : إن من أعظم هذه المحائب - يكون له مستقبل في الوصول إليها وإن العالم الأخرى أي ما وراء بدالوت قد أعد لكل امرئ فيه ما استعد له في الدنيا ، فأهل الترام بالجمال في صور هذا العالم من حيث الحكمة ودقة الصنع وإدراك المغانم سينقلون هناك على تلك الحال وينالون حظا بما أعزموا به وعشق هذه الأفلاك عشق لحاقها ومنظمتها ومبدعها فهذه غرائز أو شبه غرائز في النفوس فلا بد من الوصول إلى ما استعدت له وهذا هو بيت القصيد ولذلك سميت الآية هنا الناس ( بعد الكلام على عجائب الأفلاك والطبيعة ) قسمين : قسم لا يرجو لقاء الله ورضى بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن هذا الجلال ، وقسم في جنات النعيم ولهم ثلاث درجات في تلك الجنة [ أولا ] يعنون الله بنعمت الجلال وهي صفات التنزيه وهم منتعمون في لذات الجنة ونعيمها ثم يرون فيسكرون أن خالق الجنة أكبر من هذا كله وأعظم فيسبحونه : أي ينزهونه عما هم فيه من النعيم [ ثانيا ] بتبدي أيام سعادتهم فيجيبهم : ضمهم بضا بالسلام وهو الأمان من المخاوف فيقولون لبعضهم إن هذه اللذات في الجنة لا يجترها نقص ولا فقر ولا غم ولا غم فهذا هو السلام الذي يدور بينهم وبينهم . ضمهم وهذا من أعظم السعادات إذ يرى الإنسان نعيمه لا نقص فيه وقد فهموه من أنفسهم ثم يترقون من هذه الرتبة الإنسانية فيسمعون سلام الملائكة كما قال تعالى « وللملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم » وهذا سلام أعلى ويعنون إذ ذاك بسعادة أجمل من الأولى لأن سلام الملائكة من عالم منزه عن المادة فيكون أجمل وألطف وهذا يعدم لسباع السلام من الحق فإذا سمعوه خروا ساجدين ونسوا نعيم الجنة وحقر في أعينهم كما يصغر طعام الملك عند من حظى بمجالسته ومؤانسته وإذن يكون غذاؤهم هو النظر في ذلك الجمال الأبهى وفي عجائب القدرة وهذه هي الرتبة الثالثة مرتبة الحكماء والعلماء والأنبياء الذين مارسوا هذا الجمال في هذه الحياة الدنيا فيقولون « الحمد لله رب العالمين » وذلك أنهم يطلعون على تربية العوالم المحسوسة والمقولة وهناك تكون السادة الروحية التي يحسن الناس بعضها في أوقات قليلة ، بل إن كثيرا من الناس قد أدلوا بالعلم حتى نسوا كل شيء فما بالك إذا كان ذلك في تلك الساحات البديعة والمقامات الشريفة ، وإن أردت شاهدا على ذلك من العالم الأخرى ولم تكف بالاستنتاج فاسمع ما قالته روح (غاليليو) الفيلسوف الفلكي حين أحضرها ليستطلعوا رأيها في أحوالنا بعد الموت فأمدت عليهم مقالا صدقا لهذه الآية ، فقد أوضح هذا اللقال أيما إيضاح وكشف عن هذه الحقيقة اللثام وجاءنا من عالم الغيب يخبرنا أنه منعم بالتفرج على عجائب الفلك وأنواع النجوم بحيث يراها بأنفسها وأقدارها وأشكالها وأنه شاهد عوالم أرقى نفوسا وعقولا وأخلاقا ومدنية ولهم أعمال غير أعمالنا وعقول غير عقولنا وأنه هو يطوف في تلك الأرحاء وينهج بمرآها ، وأفاد أن الكواكب هناك مع عظم قدرها تنفرج عليها الأرواح الفاضلة كما تنفرج نحن على الزهر في الشجر ، وبين أن أرضنا هذه ستزول من الوجود وأما أرواحنا فإنها تبقى ثم ترتقي في عوالم أخرى عند الله وتسلم عن الهجرة وكيف يطلع هو اليوم على اللابئين من النجوم فيها ثم ينتقل إلى مجرة أخرى وهكذا في العوالم الشاسعة العجيبة ، وهذا القول من روح (غاليليو) هو ما يقوله علماؤنا [ إن جنة العارفين هي العلوم وللمعارف ولا نهاية لها ، أما جنة الغفلين فهي المآكل والشرب ] وأنا لا أطيل لك أكثر من هذا وإن أردت الاطلاع على هذا اللقال للفيد الطويل فاقراء في تفسير سورة آل عمران المتقدم في المجلد الثاني ، ولعلك تقول : كيف يقول (غاليليو) ذلك وهو كافر بالله ؟ أقول

هذا القول لم أجزم به وإنما نقلته ليعلم لللحدون من المسلمين أن عقيدة الآخرة موجودة بأوروبا التي هم يقدسونها ، فإذا كفروا بذلك فهم لا شرفيون ولا غريبون لأن الإلحاد قد جعله بعض صغار العقول من التملين صناعة يرتزقون بها إذ يوهمون الناس أنهم علماء حتى كفروا بملهم ، وهناك إجابات أخرى على هذا الاعتراض في تفسير آل عمران فارجع إليه هناك ، انتهى تفسير القسم الأول من هذه السورة .

#### مناسبة هذه السورة لآخر التوبة

قبل الانتقال إلى القسم الثاني يحسن أن نذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها بإيضاح فنقول :

لقد ذكرت في آخر سورة التوبة هذه المناسبة ، وأريد الآن أن أذكر للناسبات للتشابهة من أول سور القرآن إلى هذه السورة غير ما ذكر لكل منها خاصا به ، إن الجزء الثاني من سورة الفاتحة يشتمل على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط للتم عليهم ، وأول البقرة يفيد أن هذا الكتاب « هدى للمؤمنين » وهم الذين عبر عنهم في الفاتحة بالمنعم عليهم ، وآخر سورة البقرة جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين آمنوا بالقرآن وبالملائكة والكتب والرسل بعد ذكر أن لله مافي السموات ومافي الأرض وأنه سبحانه يعلم ماخفيه وما نظهره ، وهاهو ذا في أول آل عمران يذكر القرآن والتوراة والإنجيل وكل ما فرق بين الحق والباطل وهذا راجع للأمر الثاني في البقرة ، ويقول لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو راجع للأول . أما آخر سورة آل عمران فهو طلب التقوى من المؤمنين ، وأول سورة النساء طلبها من سائر الناس ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عام للأمم كلها ، وقيل آخر سورة النساء « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » وأتبعه بجواب استفتائهم في مسأله الكفالة ، وأول سورة المائدة خطاب هؤلاء المؤمنين بأوامر بعد أن أجاب استفتاءهم وآخر سورة المائدة أن الله له ملك السموات والأرض وما فيهن ، وأول سورة الأنعام بيان سبب كون الملك مختصا به ، ذلك لأنه خلقهم فهو يقول له ملكهما ثم يقول هو خلقهما وخلق الظلمات والنور ، وفي آخر سورة الأنعام يتبرأ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ثم أتبعه بطريقة الهداية وإخلاصه لله إذانا بأن الذين فرقوا دينهم يخالفون هذا التسليم لله وهذه الهداية ، وفي أول الأعراف أخذ ينذر من كفر ويذكر للمؤمنين تبيانا لنتيجة تبرئته منهم ، وفي أواخر سورة الأعراف يقول « يسألونك عن الساعة » فأجابهم بأن علمها عند الله وأتبع ذلك بأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا وأن الناس كلهم كذلك لأنهم في قبضته لأنه خالقهم واستطرد بدم الأسمم والشيطان ويطلب الإصغاء للقرآن الخ ، ثم أتبعه بقوله « يسألونك عن الأنفال » فكما سألوه عن الساعة فكان العلم عند الله ، هكذا سألوه عن الأنفال فكانت الإجابة عنها من الله ، وآخر الأنفال « إن الذين آمنوا وهاجروا - إلى قوله - بعضهم أولياء بعض » وهكذا الذين جردم فليخص ذلك أن هنا صلة دينية عامة وصلة رحم خاصة فلم يبق إلا ذكر الكفار بالبراءة منهم ، أما آخر برادة فإنه يفيد :

(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم . (٢) يهتم بأمرهم .

(٣) وهم ربما يعرضون عنه . (٤) وهو يتوكل على الله رب العرش العظيم .

وأول سورة يونس إنكار على الناس تعجبهم من إرسال رجل منهم إليهم وهو راجع للأول وكان حق التعجب أن يكون من إرسال ملك ، لأن اللوعظة إنما تكون ممن يشاكل لامن الخائف في الجنس ، وقوله « أن أنذر الناس ويشر الذين آمنوا الخ » راجع إلى الثاني وهو الاهتمام بأمرهم ، وقوله « قال الكافرون إن

هذا لساحر مبین « راجع لثالث ، وقوله « إن ربكم الله » إلى قوله « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » راجع إلى الرابع فهو توكل عليه لأنه رب العرش العظيم في آخر التوبة ، وهناك فصل ذلك بأن استواءه على العرش بعد خلقه السموات والأرض لأن للملك إنما يدبر الملك بعد تأسيه ، فهنا للناسبة دقيقة ثابتة إنما الذي يموزه التفصيل أنه عبر هنا بقوله « رب العرش العظيم » ثم عبر بأنه خلق السموات والأرض الخ يقول صلى الله عليه وسلم إن الله كافيه لأنه ملك متصرف في ملكه .

بيان الفارق بين توكل نبينا صلى الله عليه وسلم وتوكل هود في سورته الآتية

فأما هود فإنه يقول « إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » فهو توكل على من بيده نواصي كل دابة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم توكل على من له العرش العظيم وخلق السموات والأرض فكل منهما تذكر من صفات ربه مادل على زعة نفسه ، فهو يدبر السلامة له ولن اتبعه لأنه عادل في عمله فهو يحفظ كل نسمة ويكفوها ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يفكر في أمر الملك العام والنظام ، فهتمته متجهة إلى النظام العام وهذا هو الذي يليق باتبعه .

أيها المسلمون انظروا كيف كان اتجاه النبي صلى الله عليه وسلم واتجاهه إلى النظام ولللك والعرش والاصلاح العام فأعطى ذلك وابعه أصحابه وأنتم منهم فهدوا إلى الحكمة والعلم والنظر العام . أيها المسلمون كأنى أرى بيني رأسي أقواما منك يتفوا في المعلوم كلها وفاقوا الأمم . تلك الأمم التي لا تريد إلا نفسها ولا تحافظ إلا على كياتها . أما أنتم فإنكم الأعفون وأنتم تنظرون إلى العم . نظام السموات والأرض ونظام الأمم .

كونوا على قدم نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا يتسنى لكم ذلك إلا بالفكرة التي ذكرها في التوكل عليه فوجه وجهه شطر العرش العظيم وفصل ذلك في يونس بأنه « يدبر الأمر » .

إن أفضل صفة الانسان أن يتشبه بالله بقدر طاقته البشرية والله يدبر الأمر فيلديبر للمسلمون الأمور في الأرض تاجين في ذلك ربه بعد درس نظامه ونظام الأمم وليكونوا خير أمة أخرجت للناس . ومستحيل أن يتم ذلك لنا نحن في المستقبل إلا بالمعلم والعمل الذي شرحناه في هذا التفسير . المسلمون يتخللون القارات كلها فإذا صلحوا أصلحوا كل الأمم . والاصلاح العام هو تأخي جميع الإنسانية الذي ورد في الأحاديث أنه الاصلاح العام للضون عنه ينزل عيسى عليه السلام ولقد شرحته في هذا التفسير مرارا وثلث في غير موضع إنه لن يتم ذلك إلا بأخذ العدة له وتعميم التلميم في بلاد الاسلام الخ .

لم يكن الله ليجهل الإصلاح طرفة فذلك ما لانراه فلم يخلق الطفل في لحظة بل أبقاه في بطن أمه تسعة أشهر ولم يجهله شيئاً إلا بعد مروره على أحوال شتى ، اللهم إن الاصلاح العام وتدبير الأمر في الأرض ونظام العرش الانساني للناسب امرشك العظيم للوزون المنتظم لم يحصل فيما مضى ومستحيل أن يحصل في المستقبل إلا بعد إعداد الأسباب واتخاذ الوسائل وتعميد الطرق وتسهيل السبل له بارتقاء الأفراد والأمم سنين وسنين ، هناك يروح القول أن الناس يستأهلون أن يقبلوا تعاليم الهدى أو السبيح ، أما أن فردا سينزل إلى الأرض يضع سنين فيخير الأخلاق ويصلح الاحوال إلى أبد الآبدين ودهر الدهارين فهذا لم نعرفه في عمل الله عز وجل .

إن ولادة الجنين إنما تكون في حينه بعد استعداده للخروج ، فإله مدبر الأمر كما في هذه الآية مستو على العرش والتدبير يتطلب النظام والترتيب ، إذن لن يكون للمسلمون قائمين بمعنى هذه الآية إلا بشر العلم ومعرفة نظام هذه الدنيا والسعي في التعاون العام . هذا هو الذي يؤخذ من هذه الآية وبعض ضعفة العقول في بلاد الاسلام يتكلمون على المسيح اذا نزل بل هم يظنون أنهم ينالون على فرائض الراحة الوثير ويقضون



أوطارهم وهم آمنون بلا مقدمات ولا أسباب ، وهذا معناه الكسل والنوم ، وهذا ضد النبوة والسعوية الحمديّة على خط مستقيم فنحن نتوكل على الله رب العرش العظيم الذي يدبر الأمر ، فهكذا نحن يجب أن نتشبه بمن نتوكل عليه في تدبير الأمر ، لا أننا نبحث قوانا وتكلم على من سيرسله الله إلينا فيسمعنا ونحن نأتمون ، كلاً ثم كلاً .

#### العقائد لمقاصد

إن العقائد انما أزلت لحشا على الفضائل لا لاقراف الرذائل ، عقيدة المسيح وإن كانت أشبه بالظنيات لأنها من الأحاديث الصحيحة قد جاءت لعدة العدة ولنكون التل الأمل في هذه الأرض وتعود الأمم قيادة المحبة والسلام والوثام كما تقدم مرارا في هذا التفسير بإيضاح حين تضع الحرب أوزارها . هكذا عقيدة الإيمان بالملائكة تعلم أن هناك حالا أخرى بعد اللوت أشبه بحال اللاتكة للأبرار وبحال الصياطين للفسجار .

فقيدة اللاتكة لإصلاح الأخلاق ، وعقيدة المسيح لإصلاح الأمم بالعمل لا بالأمل ، هذا ما وقر في نبي الآن بمناسبة توكل النبي صلى الله عليه وسلم على الله ذي العرش العظيم الذي يدبر الأمر ، وأن همه للتوكل تنجيه إلى صفة من صفات التوكل عليه ، وقد حصل ذلك في هذه النبوة فكان لهذه الأمة عروش ملك في الأرض ولكن العرش العظيم لهذه الأمة هو النظام العام فيها بنظام الحب كما في نظام السموات والأرض القائم بالجزائية والحب العام ، والحمد لله رب العالمين اه .

#### ( القسم الثاني )

وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَمْتَجَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ \* وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَتَمَلَّوْنَ \* وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرْمُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ \* ثُمَّ جَعَلْنَا كُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ \* وَإِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فَهَلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَائِهِ نَقِي إِنْ أَتْبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ \* قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ \* فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ \* وَيَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُوَ لَاءَ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ

فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ \* وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً  
 فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ \* وَيَقُولُونَ لَوْلَا  
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْنَا إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ \* وَإِذَا  
 أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا  
 إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا مَكْرُوكُونَ \* هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ  
 فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَاوِيحٌ عَصِيفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ  
 كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ  
 لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ \* فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَمِينُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا  
 النَّاسُ إِنَّمَا بَقِيَّتْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا  
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

التفسير القطعي

قال تعالى (ولو يجعل الله للناس الشر) إذا طلبوه مستعجلين بأن يدعو الرجل عند الضرر والغضب  
 على أهله وولده ويتعجل البلاء والنعمة فيقول لعنكم الله ولا بارك الله فيكم ، يقول الله لو أن الله أجابهم إذا  
 دعوه بالشر الذي يستعجلونه به (استعجالهم بالخير) أي تمجيده لهم الخير : أي لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به  
 كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه (لقد قضى إليهم أجلهم) أي لأمتينا وأهلكوا جميعا . ولكننا لا نعجل ولا نقضى  
 وإنما نعجلهم إسماعيليا (فندد الدين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم) معاصيهم وشركهم وضلالهم (يعمّهون)  
 يترددون ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاما للحجة عليهم (وإذا مس الإنسان) أصابه (الضرر دعانا)  
 لإزائه مخلصا فيه (لجنبه) ملق لجنبه : أي مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) أي في جميع أحواله (فلما كشفنا  
 عنه ضرره مر) مضى على طريقته واستمر على جهالته وكفره ومعاصيه ونسى موقف الدعاء والتضرع (كان  
 لم يدعنا) أي كأنه لم يدعنا واسم أن المنفعة ضمير الشأن (إلى ضرره) إلى كشف ضرر (كذلك) مثل  
 ذلك التزيين لهذا الإنسان الذي نسي موقف الدعاء (زين للسرفين ما كانوا يعملون) من الانهماك في الشهوات  
 والإعراض عن العبادات (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يا أهل مكة ويا جميع الناس (لما ظلموا)  
 حين ظلموا بالتكذيب وعرف مواهبهم فيما لا ينبي (و) الحال أنهم قد (جاءتهم رسلكم) الحجج (البيانات)  
 الدالات على صدقهم (وما كانوا يؤمنوا) أي وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم ولخذلان الله لهم  
 (كذلك) مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم (نجزى القوم الجزمين) تجزيكم فوضع الظاهر  
 موضع الضمير دلالة على أنهم مجرمون (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) استخلفناكم فيها بعد القرون  
 التي أهلكناها استخلاف من يختر (لنتظر كيف تعملون) أي أخيرا تعملون أم شرا ؟ فتعاملكم على مقتضى  
 عملكم (وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الدين لا يرجون لقاءنا) أي للشركون لما غاظهم ما في القرآن من ذم  
 عبادة الأوثان والوعيد الشديد (أنت بقرآن غير هذا) ليس فيه ما يضيظ بما ذكر (أو بدله) فتسقط ذكر

الآلهة ودمتها وتجعل مكان آية العذاب آية رحمة فأجاب (قل ما يكون لي ما يحل لي (أن أبتلعن تلقاء نضوي) من قبل نفسي (إن أتبع إلا ما يوحى إليّ) أي لا أتبع إلا وحي الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل (إني أخاف إن عصيت ربي) بالتبديل من عند نفسي (عذاب يوم عظيم) أي يوم القيامة (قل لو شاء الله) غير ذلك (ما تلوه عليكم ولا أدراكم به) ولا أعلمكم بالقرآن على لسان (قد لبثت فيكم عمرا) مقدار عمر أربعين سنة (من قبله) من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه (أفلا تعقلون) أن من عاش أربعين سنة لم يمارس فيها علما ولم يدخل مدرسة ولم يشاهد عالما ثم جاء بأخبار الماضين والأحكام والآداب ومكارم الأخلاق وهذه المعانيب المتكررة لا يمكن أن يكون أمرا عاديا ، بل هو من طور آخر وهو الوحي (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) سواء أ كان بإسناد قول إلى الله تعالى لم يقله بإدعاء النبوة ، أم بإدعاء أن الله شريكا أو ولما (أو كذب بآياته) فكفر بها (إنه لا يفلح المجرمون . ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم) إن تركوا عبادته كأصنام (ولا يفهمهم) إن عبدوها (ويقولون هؤلاء) الأصنام (شفعاؤنا عند الله) في أمور للعالمين لأنهم ما كانوا يقرّون بالبعث لقوله تعالى « وأنسوا بالله جهد أيمانهم لايئس الله من يموت » وبعض العرب كان يقرّ بالبعث (قل أنبئوني الله بما لا يعلم) أي أخبروه بكونهم شفعا عند الله وهو لا يعلمهم (في السموات ولا في الأرض) وإذا لم يكن عالما بهم وهو يعلم كل شيء فذلك دليل على عدم وجودهم (سبحانه وتعالى عما يشركون) زه نفسه أن يكون له شريك ، ولما كانت هذه الأحوال مما يدعو إلى التعجب من هذا النوع الإنساني ، وكيف يجدون ما يضمنون ، ويقلدون من لا يملكون ؟ وكانت النفوس الإنسانية تميل إلى الحقائق أنى جد هذا بإحدى الحقائق الطبيعية الحكيمية الإلهية فأفاد أن نوع الإنسان يولد على الفطرة والحال الطبيعية فهم فيها متفقون لاختلافهم ، ومتحدون لامتزاجهم ، ولكن الحكمة في هذا الوجود تقضى الاختلاف والافتراق ليجتمع بعد التفرق المختلفون ليتعارف ، يد التجاهل للفرقون يخالف بين لغاتهم وأوطانهم وأزبانهم وعاداتهم وبيئاتهم وأحوالهم وألوانهم وممالكهم كما اختلف الزهر في الأشجار وطعوم الأثمار ، فإن هذا العالم على الاختلاف مخلوق وعلى الافتراق مجبول فإن لم يكن الاختلاف كان العالم هباء منثورا ، فإذا كان الاختلاف مبدأ ومنتها فكيف يتفقون في الدين ، وإذا لم يتفقوا في حال من الأحوال التي لا تنكاد تحصى فهم في الدين مختلفون وفي الحقائق متفرقون وإن كانت فطرتهم واحدة وإنسانيتهم في الأصل غير مفترقة ألا ترى أن تعريف الإنسان بالحيوانية والناطقة ، فهذا هو الأصل الساري في كل إنسان ، وبعد هذا افتراق في سائر الصفات والأحوال ومنها الدين ، وهذا قوله تعالى (وما كان الناس إلا أمة واحدة) بحسب فطرتهم ومقتضى إنسانيتهم (فاختلفوا) فصاروا في الدين وفي سائر الأحوال مختلفين (ولولا كلمة سبقت من ربك) أن الاختلاف سنة طبيعية وحكمة إلهية وغايتها السكينة واتحاد النفوس في كثير من الأطوار وتألههم بما زاولوا من الأعمال على درجات مختلفة وأحوال متباينة فيكون الناس بعد أعمالهم طول الحياة قد صاروا في حال أكل ، وكل جماعة منهم تتحد في عمل أو خلق فيكون هذا الاختلاف جميلا في مقاصده نبيل في نهايته ، لأنه يشر عقولا مختلفات الجمال كما اختلفت الأشجار في الأزهار والأثمار فصارت بساكنين بنفس الاختلاف ، هكذا تكون النفوس بعد الموت بفتنها في الأخلاق والأعمال كالرياض الزاهرات والحقول الباهرات ، فلولا اختلاف الثمر ما حمل البستان ، ولولا تفرق الزهر والشجر ما استحسنا الإنسان ، فقول الناس بساكنين العالم الأعلى كما أن الأشجار والأثمار يبساكنينا ، وكل ذلك إنما نشأ من الاختلاف .

يقول الله « ولولا كلمة سبقت من ربك » بهذا الجمال (لنضى بينهم فيها فيه مختلفون) ليمتاز الحق من البطل ، ومن الجمال أن يكون في العالم الروحي أرواح شريفة كما نرى في الأرض المنطل رشوك القتاد

وضروبا من الأشجار للرتة ، ونظير هؤلاء في نوع الإنسان الفجار والكفار ليكون ذلك دليلا على الجمال فإن الشيء لا يعرف إلا بضده ، وبضدها تميز الأشياء ، فبقاء الكافر وللوؤمن والصلاح والاطلاع إلى أجل محدود لتسكمل آجالهم فتظهر أحوالهم ظهورا أجلي ويكون الخنظل مع اللوز والأثل مع النخل وهذا هو النظام الجليل وهذا القول ظاهر في علم الفيلسفة الحاضرة والعلم للوروث فإن العالم كله من أصل واحد هي الهيبولى التي لا تصرف إلا بالمثل ، وعند بعض الحكماء المحدثين أن العالم يرجع إلى الجواهر الفردة وهي متناهية ، وعند المحققين إلى حركات ، فأما الإنسان فإن الأرواح قبل حلولها في الأجسام في أول نشأتها تكون متناهية لا تمايز بينها ومكثدا أجسام الأجنة في بطون أمهاتها تكون في أول أمرها متشابهة مع حيوانات أخرى ثم ترتقى شيئا فشيئا حتى تخالف سائر الحيوان باستكمال الخلق ، وعند الولادة يكون الاختلاف بين المولدين من الإنسان في أمور محدودة فإذا كبروا ورتبوا كان هناك خلاف عظيم ولذلك خلقهم الله كما قال في آية أخرى « ولذلك خلقهم » وهذا هو الحق والعلم الصحيح وما عداه فأقوال متفرقة وآراء غير محققة اختلط فيها الحق بالباطل والذهب النقي بالزبرج والزيف بالجيد ، والله هو الوليم الحكيم

ثم أتى بمسألة أخرى كانت سبب الاختلاف في النبوة وهو انتزاع آيات خاصة فقال ( ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الغيب لله ) وهو وحده العالم أن هذه الآيات للقرحة فيها مفاصد لا تنفع فيها ( فانظروا ) نزول ما افترحموه ( إني معكم من المنتظرين ) لما يفعل بكم بمجردكم ما نزل من الآيات ( وإذا أذقنا الناس رحمة ) خصبا وسعة وصحة ( من بعد ضراء مستهم ) أي من بعد شدة وبلاء كأهل مكة إذ حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم رحمهم الله فأزل عليهم المطر الكثير حتى أخضبت البلاد فلم يتعظ الناس بذلك بل رجسوا إلى الفساد كما مر في قوله « وإذا مس الإنسان ضر دعانا جنبه » إلى قوله « سر كأن لم يدعنا إلى ضره » ولذلك جاء جواب « وإذا أذقنا » موافقا لذلك الجواب مع إيضاح وتوبيخ فقال ( إذا ) هي لتفاجأة واقعة في جواب إذا الأولى كما تقع القاء : أي في الحال ( لهم مكر في آياتنا ) بالطمع فيها والاحتيال في دفعها ( قل الله أسرع مكرا ) منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، وقد تقدم عقابهم في سورة الأنفال والتوبة وآل عمران ، والسكر : إخفاء الكيد وهو من الله الاستدراج والجزاء على السكر ( إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ) الرسل هنا الحفظة فليس يحق على الله خافية ، ولما كان هذا القول وما مر قبله وهو « وإذا مس الإنسان ضر الخ » دالين على سرعة قلب الإنسان وعدم وقائه وتمامه وكان هذا المقام يحتاج إلى إيضاح أردفهما ثالث دلالة على أنه أمر يجب النظر فيه ، فإن عدم الثبات وسرعة القلب وجود التعمير يورث العذاب الأليم ، ولذلك قال ( هو الذي يسيركم في البر ) بأرجلكم وبالذباب والقطرات الجارية والعربات والسيارات الجارية بالكهرباء وغيرها وفي الهواء بالمرائب الهوائية والمطاود جمع منطاد ( والبحر ) بالسفن المائمة والقاطنة ( حتى إذا كنتم في الفلك ) السفن ( وجرين ) أي السفن ( ربيع طيبة ) لينة المهبوب ( وفرحوا بها ) أي تلك الريح اللينة واستقامتها ( جاءتها ) أي الفلك وهنا اعتبرت جمعا كأسد وهي مفردة كقفل ( ربيع عاصف ) ذات عصف : أي شديدة المهبوب ( وجاءهم للوج من كل مكان ) يحيثهم للوج منه ( وظنوا أنهم أحيط بهم ) أي أهلكوا وسدت عليهم مسالك الخلاص ( دعوا الله مخلصين له الدين ) من غير إشراك لأنهم رجسوا إلى فطرتهم لزوال العوارض اللائنة من ذلك قائلين ( إئن أنجيتنا من هذه لتكونن من الشاكرين ) نعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك ( فلما أنجاهم إذا هم يفتنون في الأرض ) يفسدون فيها ( بغير الحق ) مبطلين فيه ( يا أيها الناس إنما بينكم على أنفسكم ) فإن وبالها عليكم ، وأيضا هو على أمثالكم وبني جنسكم وجميع الناس متضامنون والبنى على من نفعه عائد عليك ضار بك ، تتمتعون ( متاع الحياة الدنيا )

على النصب ، أو ذلك مناع الحياة الدنيا على الرفع ( ثم إنا مرجعكم فنبتكم بما كنتم تعملون ) بالجزء عليه ، انتهى التفسير اللفظي .

اعلم أن هذا القسم متصل بما قبله وصلته بقوله تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياء » إلى قوله في آخر القسم « ونحبهم فيها سلام » وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .  
لقد بين لك هناك أن السلام على ثلاثة أنواع :

سلام الناس بعضهم على بعض يوم القيامة ، و سلام للملائكة ، و سلام الله تعالى ، و لابد من شرح هنا للوضع شرحا وافيا حتى يعرف اتصال هذا القسم بما قبله وإذن يظهر لك سره ، يمكن وجوهه بديع و عجب هجاب .

وهنا أصلان [ الأصل الأول ] أن هذا اللقاع عبارة عن مبحث في السعادة والسلام والأمن ، فكل من كان من الناس أهذا بالاً ورضى فهو إلى السعادة أقرب ، وكل من كان جزع النفس مضطرب القلب حزينا متألماً أو طامعاً أو ما أشبه ذلك فهو إلى الشقاوة أقرب على مقتضى ما انصف به قلة وكثرة ، وإذا كنت أيها الدكي بمن تابعوا هذا التفسير فقد عرفت ذلك [ الأصل الثاني ] أنه لا يتفق الأمن والسلام والراحة ، لجميع الناس في الدنيا دائماً في أم ومطالب تزعج لب اليبب وتوغر صدر الحليم ، فالخير والشر مقرونان في قرن ، وعليه تكون السعادة محالة في هذا الوجود ، فبانضمام الأصل الثاني للأول يتناقضان ولا يجتمعان وهذا الرأي وهو عدم السعادة في الدنيا قال به كثير من العقلاء ، وهناك سعادات اكتسائية يكتسبها الناس تقرّبهم إليها وهي :

(١) أنا نجد السلم في الصلاة يسلم ٢٦ في الصلوات الخمس الفروضة ، فإذا انضمت إليها النوافل بلغ القدر ضعفاً أو أضعافاً .

(٢) ولا معنى لهذا السلام إلا تذكرة السلم بالأمن وراحة الضمير وجدد للكره وجميع للصاب فهو يسلم على الأنبياء والصالحين وعلى نفسه بهذا المعنى ، فالسلم مأمور بطريق دينه أن يعتمد أنه في أمان من كل مكروه ، وأين هذا ؟ ذلك بثلاث طرق :

الطريق ٢٠١ طريق الإيمان ، فكلما أصابته مصيبة يقول « إنا لله وإنا إليه راجعون » وليس يكون ذلك باللسان وحده فيرى أنه يحمد الله رب العالمين ؛ أي ربهم بالبين والشدة للمبر عنهما بالرحمة وملك يوم الجزاء ، ويقول تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » فحق أحضر للرء في نفسه أن للكره من الله وأن الله لا يفعل إلا خيراً واطمأن لذلك كما في قوله تعالى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وقوله « هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » فإن عنده نوع سعادة ، فهنا أمران :

[ الأمر الأول ] إسناد الأمر لله وهذا عند الاستعداد له يعطى بعض الراحة للقلب ولهذا الإشارة بقوله « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير » لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فحق أيقن العبد أن كل شيء معلوم عند الله ارتاح قلبه جدا ووصل إلى السلامة على شرط الإيقان فتكون الحوادث مثل الليل والنهار .

[ الأمر الثاني ] أن يرى كل مكروه ظاهراً هو محبوب باطناً ، ويرى كل شر أشبه بالحجامة أو شرب الهواء الكريه فيكون متألماً منه ولكنه راض وهذا نوع من السعادة وله الإشارة بقوله « هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » حيث جعل القتل حسناً وأي مصيبة أعظم من اللوث حتى إن الصحابة كانوا يسرعون إلى الحرب لذلك . الطريق الثالث طريق الصبر وقوة العزيمة وهي التي شرحتها لك سابقاً في لئز قاس

في سورة البقرة ، وكذلك طريق كتاب [ للكواخ المندى ] الذى أعطيتك صورة منه سابقا  
تلخص مقصوده ، وإله الإشارة بقوله تعالى « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » وقوله « وبشر الصابرين »  
وما أشبه ذلك .

فهذه الأمور الثلاثة تعطى الإنسان سعادة كسبية مادام في هذه الحياة : ومستحيل أن يصل الإنسان  
إلى تمام السعادة في هذه الحياة إلا قوم مذهبون ذهولا دينيا أو دينويا بأن فارقوا إحسانهم فكيف يحزنون؟  
فالسلم في الصلاة وتكراره في الركعات يوقظ نفس السلم إلى أحد هذه للراتب عسى أن يصل إلى درجة  
الراضين وإن كانوا في مكروه وهذه نوع من السعادة والسلام في هذه الحياة ، هذا هو السر في تكرار  
السلم في الصلاة ، فإذا مات السلم أحس بالسلامة من الآفات والأمن إذا كان صالحا ، وبحس إخوانه بذلك  
فيحيونه به ، وليس ذلك تحية لفضيلة كما في الدنيا ، بل المعاني هناك متجلية كما تجلت الألفاظ في هذا العالم ،  
فإذا ارتقوا عن هذه الدرجة حينهم لللائكة ثم حياهم الله ، ففي الآية « ولللائكة يدخلون عليهم من كل باب »  
وفي آية أخرى « تحيتهم يوم يلقونه سلام » ففى حصل لقاء الله كان هناك السلام ، واللقاء هنا على من كان  
أكثر علما بالله كان أقرب للسلامة والأمن ، فقد يموت للرء ولا يلقى إلا العذاب ويحجب عن ربه فأين  
السلامة ؟ ولن يلقى ربه إلا بريئا من الذنوب كامل النفس ، هناك تفاض عليه العالم ويدرك سر الحليقة  
وإذن لا يكون هناك غم ولا هم لأنه وصل إلى منتهى السعادة .

فصل الإنسان أن يجد في الأخلاق والعلم ومنفعة الناس حتى ينال السعادة الروحية ويزيد من ربه قربا  
ولن ينال السعادة في الآخرة وهو لم يحصل أوائلها في الدنيا بالاكتساب وتطمئن نفسه في الدنيا بعض  
الاطمئنان وهذا يكمل له بعد الموت ، أما الذى مات مضطرب الفكر لآليات عنده إما لجهلته وإما لذنوبه  
فذلك لا يسعد في الآخرة لأنه لا مادة في الآخرة إلا إذا كانت أوائلها في الدنيا ، بقوله « تحيتهم فيها سلام »  
وآخر دعوانم أن الحمد لله رب العالمين « مردد لصوت السلام في الدنيا وفي القابلات بين الناس وللحامد الذى  
يحمدها الله والمعاني العلية التى أدركها الإنسان في نظام هذا الوجود ، فبدأ السلام والسعادة في الألفاظ  
في الصلاة ، وأوسطها في اكتساب ذلك بالإيمان وتهذيب النفس ، ونهايتها حصول السعادة والسلام فعلا  
وهو المبر عن سلام اللائكة ثم سلام الله تعالى ( تحيتهم يوم يلقونه سلام ) هذا هو القسم للتقدم ، ثم أتبعه  
بما هو في معناه كالتم له فقال : إن الناس يبعثون عن السعادة والسلامة بعدا شاسعا جدا لتفريطهم  
في اللصود من معنى السلام في صلواتهم وجهلهم القصد من تكرار السلام ، ذلك أنهم إذا أصابهم مصيبة  
وهم لم ينالوا درجة من درجات السعادة المتقدمة سمعت أنفسهم وكرهوا الحياة وأمن الرجل أهله ومن حوله  
وتعنى الموت ، ولو أننا سارعنا إلى إجابة الشر كما نسرع إلى الخير لمهلك الناس ، فهذا دليل أن هذا الإنسان  
خلق هلوفا يعنى « إذا مسه الشر جزوعا » وإذا مسه الخير منوعا » وكان يجب أن يكتسب صفة الثبات  
بأحد الأمور الثلاثة المتقدمة ، وإنما عبر بقوله « لا يرجون لقاءنا » إشعارا بأن هذه الآية من نواحي ما قبلها  
ولقاء الله إنما يكون للروح المهذبة الكاملة علما وأخلاقا وغيرها تمنح عنها فلا يلقاه فلا يرجو لقاءه .  
ثم أتبعه بجمل أخرى فذكر أن الإنسان لا صبر عنده وإذا مسه الضر دعا الله هلما ، فإذا زال  
الضر نسى ، وإنه إذا ذاق النعمة بعد الشقاء والتقى بعد الفقر ساقه البطر إلى تكذيب الآيات واتباع  
سبل الضلالات .

وزاد ذلك بما يعتره في البحر إذا اضطربت الرياح واختلفت الأمواج كيف يدعو خالقه ؟ فإذا نجاه  
نسيه ، فهذه الآيات قررت أن الإنسان سريع الانفعال يعنى للموت إذا أصابه الشر العمد لتكليه لجهلته

ويهلح ويطلب النجاة ، فإذا نالها غفل وهذه النفلات علامة الشقاء والبعد عن السلامة • وبضدها تتميز الأشياء • انتهى تفسير القسم الثاني .

لطيفة

إن ابتهال الإنسان قد إذا أصابه الضر أو أحاطت به الأمواج أو وقع في كرب عظيم دليل على أن للعالم خاتما ، ألا ترى أن الطفل يلجأ لأمه والفصيل والعجل وأمثاله ما كلها ملتجئات إلى أمهاتها ، هكذا حبات البرز في ظلمات الطين ملتجئات في تفتيتها إلى الأرض والماء ، فإذا ماشب النمل وقوى الحيوان واشتد النبات اعتمد كل على نفسه بتناول الغذاء من الخمار والهواء فهي مستقلات إذا قويت مبهلات إذا ضعفت ، هكذا الإنسان القوي إذا أصابه الضر وأحاطت به الأواء كر راجعا إلى مافي داخل قلبه من نور محبوبه وهو الوجدان الذي يرى أن له مرجعا خارجا عن المادة فيناديه قائلا [ يارب ] فإذا نجاه رجع إلى قوته ونسى ربه كما تغذى النبات بالهواء وحرارة الشمس لما قوى واكتفى الحيوان بالنبات مثلا فهذا برهان وجداني إقناعي على وجود الله .

( القسم الثالث )

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ بِمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ • وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فزَيْلْنَا يَدْيَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَحْبُودُونَ • فَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ • هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

( التفسير اللفظي )

قال تعالى ( إنما مثل الحياة الدنيا ) حالها العجبية في سرعة تفضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ( كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ) فاشتبك بسببه حتى خالط بفضه بضا ( مما يأكل الناس والأنعام ) وهي الزروع والبقول والحشائش ( حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ) زيتتها بالنبات

واختلاف ألوانه (وازبنت) وزينت بأنواع الزين وقد أدخمت النار في الزاي . وقرى « تزيت » على الأصل . فقد مثلت الأرض بالعروس وقد أخذت الثياب الفاخرة من كل لون كما كفتها وزينت بشيرها من ألوان الزين (وظن أهلها) أهل الأرض (أنهم قادرون عليها) متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها راضون لعلتها (أناها أمرنا) عذابنا وهو ضرب زرعها لبعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم (ليلا أونهارا جملناها) جملنا زرعها (حصيدا) شبيها بما يحصد من الزرع في قطعه واستصاله (كان لم نغن) كأن لم ين زرعها . أي لم يلبث: أي كأن الأشجار القائمة والنباتات الطيبة والزرع البهجة لم تكن غنيت من غنى فلان بالمكان إذا أقام به وقوله (بالأس) هو مثل في الوقت القريب والمثل به مضمون هذا القول وهو زوال خضرة النبات فجأة فيصير حطاما بعد ما كان غضا والنف وزين الأرض حتى طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح (كذلك) كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا كذلك نبين حججنا ودلائلنا لمن تفكر لتزول الشبهت ويكون اليقين .

وهذا القول متصل بما قبله من تغلب الأحوال على الإنسان تارة يطلب الموت والملاك ويلمن الزوج والأبناء لشوكة بشا كها أو زلة قدم يزها وأخرى يدعو بالنجاة من الضرر قاعدا أو قائما فإذا نجاه الله نسي الدعاء والدعوى وهكذا شأنه عند كل نعمة أزال الضرر فإنه يكيد كيدا ويصد عن سبيل الإيمان وإذا غشيه للوج ودعا بالخلص وجاءه الفرج لا يذكر النعمة ويرجع إلى سابق عهده . ثم أتبعه بهذا المثل إذ جعل حياة الانسان أو حظوظه أشبه بعروس ذات جمال وبهجة ودلال قد ازينت للناظرين فلبست من الثياب ألوانا وأخذت من كل زينة أشكالا فصارت حوراء في حلالها وحلالها .

فلما أعجبهم حسننا وفرحوا بها وظنوا أنهم منها متمكنون أنها صاعقة أو برد أوريح جعلها حصيدا كأن لم تكن قائمة بالأس . وهذا مثل للتشبهت بالدنيا الراغب في زهرتها وحسنها [ ذلك ] أن الله لما قال « يا أيها الناس إنما بيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا » أتبعه بهذا المثل لمن بنى في الأرض ونجبر فيها وركن إلى الدنيا وأعرض عن الآخرة . فالتشبهت بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون . فحظوظ الدنيا كبهجة النبات معرضة للزوال فجأة كهلاك النبات بصاعقة . ونفس الحياة كذلك يخترمها الموت فجأة والانسان لا يشعر بذلك . حياة الانسان للموت معرضة كل حين وشبابه وقوته وصحته وماله وولده وسروره ولذاته كل ذلك قد ضرب له هذا المثل . فالحياة ككتلك العروس والقوة والبأس والذكر والقيت والجمال . كل ذلك داخل في المثل إذ يترهبها الذهب والفضة في لمح البصر أو هو أقرب . فكيف من جميل أذهب جماله للرض . وغنى أهلك ماله الجوائح . وما قل ذكى قتل الله كاه والمقل هموم وأشجان فذهب إلى المارستان وذى بين شهود لحافل قواد للجحافل حصدهم النون . وهم لا يشعرون فأصبح فريدا وحيدا ، وكف من ذى صيت بعيد وذكر جميل أخى الدهر على ذكره بريية ذكرها وشغفا . تبيينوها وذنوب أشاعوها فأصبح المدوح مذبذوبا ، وكف من معجب بشبابه وصحته وهو مبهيج غخور جاءه الموت فجأة فأصبح من أهل القبور ، هذه المعاني وأمثالها داخلة في هذا المثل .

واعلم أن هذا المثل وما تقدمه إنما جاء بعد قوله في آخر القسم الأول « نعيمهم فيها سلام » تبياننا لما عليه الناس في الدنيا من عدم السلامة ومن الشقاء والفلة وذم الحياة والمطلع والجزع وما أشبه ذلك من كل ما يوجب الاضطراب كما تقدم في مثل البحر وأموانه والنجاة منه الخ ما ذكرنا وقرنا ، وهكذا نفس الحياة وحظوظها الخ . فما أبان ذلك أيما تبيان وأظهر كيف تكون عدم السلامة في هذه الدار وكيف يكون الاضطراب والزوال أتبعه بما هو المقصود فقال ( والله يدعو إلى دار السلام ) ومعلوم أن التكررة إذا أعيدت



معرفة كانت عين الأول فهو سبحانه يقول : ها أنتم هؤلاء عرفتم حياتكم ونسبها وتقلب قلوبكم وحفظوكم واحترام آجالكم في هذه الدار التي لاسلام فيها بحسب طبيعتها ، فما أنا ذا أدعوكم إلى دار الأمان والاطمئنان والسلامة للذكورة في قولي « ونحيتهم فيها سلام » فما أنا ذا أدعوكم إلى دار السلامة من الآفات جد ماتين لكم الهالك وللشاق ، ثم قال ( ويهدى من يشاء ) بالنوفيق ( إلى صراط مستقيم ) لأن الناس مختلفون استعدادا ، ولما قال هناك « وآخر دعوانم أن الحمد لله رب العالمين » بعد قوله « نحيتهم فيها سلام » أي بنظيره هنا بعد دعوته الناس إلى دار السلام ، فقال ( للذين أحسنوا الحسنى ) أي الجنة ( وزيادة ) هي النظر إلى وجه الله الكريم .

والنظر لوجه الله الكريم هنا معناه ازدياد العلم بآياته وجماله وحكمه ومجابهة وبدائه ، وكما ازداد علما ازداد بهجة ، فهذا النظر بهجة الحكاء والأنبياء ، وهو يقابل « وآخر دعوانم أن الحمد لله رب العالمين » هناك ، فقد تبين هنا كيف تكون دار البلاء ، ثم كيف تكون دار السلام ، ثم كيف يكون ازدياد العلم بالله للبر عنه بالنظر ، وأنت أيها الذي تعرف من نفسك الآن أمن أهل الجنة أنت أم من أهل النظر لوجه الله ؟ فإن كنت صالحا ولكن لا شغف لك ولا لذة في العلم بهذا العالم فأنت تكون في الجنة وهي دار السلامة ، فأما إذا كنت في جمال العلوم راغبا ورأيت في نفسك لذة وغراما بها فاعلم أنك ستنظر وجه الله حتما بعد الاستعداد التام .

روى صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم ندخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية ( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) » أخرجه مسلم .

فالعامة يتصورون شكلا ينظرونه كما ينظرون للوك ؛ فأما الخاصة فإن النظر لوجه الله ينتدى لهم في الدنيا بشق مصنوعاته وقراءة العلوم قديمها وحديثها فينفع أحدم الناس بالعلم كما ينفعهم الله بالخلق ثم أحدم يبرج في معارج السكالك متشبهًا بمحبوه سائرا في طريقه ، محبا لخلق ، ناظرا إلى جماله الذي تبدي في أصناف الشجر والنجم والقمر حتى إذا فاجأته للنون أصبح عند من كان محبوه ، وصار العائب شهودا ، والمحبوب موجودا وأدرك إذ ذاك أنه كان معه ولكنه هو عنه محجوب ، وإذا سمعت سيدنا عليا كرم الله وجهه يضر الزيادة بلؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب ، فما ذلك إلا عين ما ذكرناه ، وما اللؤلؤة إلا هذا العالم المخلوق يظهر العالم مجلوا جملا بهيا كلؤلؤة وهو مبدأ النظر لوجه الله الكريم ، فإن العالم الذي نحن فيه جميل كاللؤلؤة ، ومستحيل أن يعرف الإنسان جماله إلا بالعلم ، ومتى عرف الجمال عرف من هو الجليل وهذا هو النظر عينه ؛ فسيدنا علي يرمي إلى هنا القام لأنه يمزج على الأنعام نعرفه بمثال ، لأن الحقيقة تخفي على العوام وكثير من الخواص ، وقوله ( ولا يرهق وجوههم ) لا يشاها ( قدر ) غيرة فيها سواد ( ولا ذلة ) هوان : أي لا يشام حزن وسوء حال ( والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ) عطف على قوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ( ما لهم من الله من عاصم ) ما من أحد يصمهم من سخط الله ( كما أغشيت وجوههم ) غطيت ( قطعا من الليل مظلم ) لقرط سوادها وظلمتها ، وقوله ( ثم قول للذين أشركوا مكانكم ) أي الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم ( فزينا بينهم ) أي فرقنا بين العابدين والعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا ( وقال شركاؤهم ) أي الأستنام وكل معبود لهم ( ما كنتم إيانا تعبدون ) تبرأ للعبودين من العابدين ، فما كانت العبادة في الحقيقة إلا لأهوائهم ولمن زين لهم تلك العبادة ( فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ) أي كفى الله شهيدا وهو تمييز ( إن كنا عن عبادتكم لتافلن ) إن محضفة من الضميمة

والعلم فارقة بينها وبين النافية ( هناك ) في ذلك للكان ( تباو كل نفس ) تخبر وتدوق ( ما أسلفت ) من الصل فتعرف أبيض هو أم حسن ؟ ( وردوا إلى الله ) إلى جزائه ( مولاهم الحق ) ربهم ومتولى أمورهم على الحقيقة ، لا ما اتخذوه مولى ( وصل عنهم ) ضاع عنهم ( ما كانوا يفترون ) من أن آلهتهم تشفع لهم ، أو ما كان يدعون أنها آلهة اه .

#### لطيفة في النظر لوجه الله تعالى

لقد اطلع على هذا للقال أحد العلماء ممن لهم قدم في العلم راسخة ، فقال لئن سرتني في هذه المقالة حال قد سادتني حال ، قفقت وكيف ذلك ؟ قال كيف تجمل النظر لوجه الله الكريم عبارة عن العلم وأي شيء العلم ؟ إن الإنسان إذا رأى وجهها جميلا ابتلده وفرح ؛ فأما العلم فهو معروف ولا شيء فيه من ذلك ، قفقت له إن هذا للقام ليس يعرف إلا بعد البيان ، حقا إن الإنسان إذا نظر وجه الجميل سرته القدر والشكل والقون والأنت والقم والعين والحدّ وحسن الهيئة وجمال الزينة ، والعطف بكسر الأول ، والهذب والحدور والشنب وسائر ما يقوله الشعراء في أشعارهم ويدو في أقوالهم ، ولكن العلم شيء والشعر شيء ، فإن حاسة النظر إحدى الشبكات الظاهرة الخمس التي يسطاد بها العقل المعلومات والحب على مقدار العلم ، فإذا نظرنا إلى الجميل وسمنا نعمته وفصاحته وشمنا طيب ريحه وذقنا ما يذاق منه ولمسنا جلده ، هنالك يضم إلى النظر هذه للذكورات فتتضاعف اللذة ويزداد الحب ، فكيف بنا إذا تغلغلنا في باطنه وعرفنا مواهبه الباطنة من عفة وحلم وكرم وأدب وحسن خلق ومعارف وعلوم ، هنالك يحصل لذلك العالم به من اللذة به ما لا يوصف ومن الحب ما هو أعظم ؛ وإذن قد تبين لك أن النظر الذي أعظم قدره الناس ما هو إلا وسيلة من وسائل العلم وليس خارجا عنها وأن اللذة بنظر العين جزئية ، فإذا كان المخلوق للشاهد المحسوس لا يستلذ به إلا باستكمال العلم به ظاهرا بالحواس الظاهرة وباطنا بإدراك العلم ، فما بالك بمن لا تدركه عبوتنا ولا تصل إليه مشاعرنا ، فنحن إذن نلتجئ إلى العلم الذي عرفت أن النظر من جنوده وندع الفرع ونتمسك بالأصل ونقول للقصود هو الأشرف وهو العلم .

ولا ريب أن العلم مبدؤه في الدنيا ومن لم يبتدئ ذلك في الدنيا فليس له حظ من هذا العلم في الدنيا ، وذلك هو النور للذكور يسمى بين يديه بعد اللوت ، ومن لا نور له هنا لا نور له هناك .

#### اللطيفة الثانية

التفسير في علوم الكائنات يحرم أحياء المسلمين من العلبة وأمواتهم من النظر لوجه الله الكريم قد تبين أن النظر لوجه الله الكريم مبدؤه العلم في الدنيا ، ومن لم يعلم لم ينظر ، والعلم يرجع إلى النظر في جمال هذه المخلوقات ومحائب النفس وبدائع الصنع وتركيب الأجسام ونظام الوجود . والناس في الدنيا إذا قرءوا هذه العلوم على ثلاثة أقسام : قسم يقرؤها لمعاشه كالعلوم الرياضية لنظام الدرارين ونظام الجند وما أشبه ذلك ، وقسم يقرؤها ليتحلل به في المجالس ويتفاخر به على الأقران ، وقسم يقرؤها كما يقرؤها القبان للتقدمان ، ولكنه يتحرى النظام والجمال ويعبجه بهجة التترع ونظام النبات وحساب الطبيعة وبهجة النجوم ومحائب حركاتها وبدائع أشكالها ويتغافل في ذلك ، وهذا لاشك يهبجه إلى القرح بمن هو السبب الأول فيه وهذا مبدأ النظر ، وكما ارداد علما زاد حبا للصانع ، ولا نهاية لهذا العلم كما لا نهاية للحب ولا للذة ، هذا هو الحق الصراح الذي لا يحبس عنه .

والأمة إذا حظيت بهذه النعمة سعد أحيائها بالعبلة والمجد وفرح أمواتها بالنظر لوجه الله الكريم . فياعجبا كل المعجب لأمة الإسلام ! تلك الأمة التي جاء القرآن بترغيبها في الآخرة وخاطبها بما يعرفه

الخلق من الجنات المحسوسة ولم يشأ أن يترك الجنة الحقيقية والسعادة الأبدية التي هي أعلى من المحسوسات حتى يستتجها الفلاسفة والعقلاء ، كلاب لوطح لها بقوله « وزيادة » وجاءت السنة فمرتفتنا الزيادة وقالت هي النظر لوجه الله الكريم وأرتنا أت هذا سيكون الله عند أهل الجنة وهنا وصلنا إلى مقام الحكمة والعلم .

فالكتاب والسنة عندنا أريانا أن النظر لوجه الله أعظم اللذات والنظر يقصد منه العلم ، فإذا قيل إنه بين تخلق لنا خلاف هذه في الآخرة فهي أيضا علم ، وإذا كانت أعيننا في الدنيا من شبكات العلم فالأمر هناك ظاهر . فكيف تغفل أمة بهذا دينها عن علوم هي النعمة في الدنيا والسعادة في الآخرة .

أليس من صعب أن يكون في هذه الأمة من يكفر قارىء هذه العلوم وما هي إلا سعادة الأحياء وبهجة الأموات ، انتهى تفسير القسم الثالث .

### ( القسم الرابع )

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَبُنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ \* فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ \* كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَمْدُوهُ الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلْ اللَّهُ يَمْدُوهُ الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ \* قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَأَلْسِنَتُكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ \* وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ \* وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَأْتَهُمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْفَاسِقِينَ \* وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ بِمَا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ

تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَتَقَلَّبُونَ • وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ  
 كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ • إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ •  
 وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا  
 بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ • وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ  
 ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ • وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ  
 وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ • قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا  
 وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ  
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُنتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ • أَتُمْ إِذَا  
 مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ • ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ  
 الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ • وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ  
 لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ • وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَآفِيَ الْأَرْضِ لَأُفْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا  
 النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَآفِيَ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ • هُوَ يُخَيِّ وَيُخَيِّتُ وَإِلَيْهِ  
 تُرْجَعُونَ • يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ نَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَآ فِي الصُّدُورِ وَهُدًى  
 وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ • قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ •  
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ  
 لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا • وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ  
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ • وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا  
 مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَنْزُبُ  
 عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا  
 فِي كِتَابٍ مُبِينٍ • أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ • الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا  
 يَتَّقُونَ • لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ \* وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ \* هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ \* قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ \* قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ \* متاعٌ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

#### التفسير اللفظي

( قل من يرزقكم من السماء والأرض ) بأسباب سماوية كالضوء والطر ومواد أرضية فيكون منهما النبات والحيوان الخ ( أم من يملك السمع والأبصار ) يستطيع خافهما وتسويتهما تسوية بديعة تقدم شرحها في سورة آل عمران ومن يحمهما من الآفات العارضة ( ومن يخرج الحي من اللبث ويخرج الميت من الحي ) أي من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه مثلا ؛ وشرح ذلك المذكور في تفسير سورة الأنعام ( ومن يدبر الأمر ) ومن يلى تدبير أمر العالم كله علويه وسفليه ( فيقولون الله ) فيسجيوونك عن سؤالك أن القادر على هذه هو الله ( قل أفلا تتقون ) الشرك في العبودية إذا اعترفتم بالربوبية ( فذلکم ) أي الذي تولى هذه الأمور المستحق للعبادة ( ربكم الحق ) الثابت ربوبيته، فهو الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم وهو المالك لسمعكم وأبصاركم ( فماذا جد الحق إلا الضلال ) استفهام إنكارى : أي ليس بعد الحق إلا الضلال ( فأتى تصرفون ) عن الحق إلى الضلال : أي فكيف تفعلون ذلك ؟ وكما حقت الربوبية لله أو أن الحق بعده الضلال ثبتت كلمة الله وحكمه على الذين تمردوا في كفرهم وخزجوا عن جادة الإصلاح وفسدوا لأنهم لا يؤمنون ، وهذا هو قوله تعالى ( كذلك حقت كلمة ربك - إلى قوله - أنهم لا يؤمنون ) ثم أخذ يقم الحجة عليهم فوق ما تقدم فأخذ يحاورهم بطريق الاستفهام الإنكارى في أمرين :

(١) خلق هذه العوالم ابتداء منظمه وإعادتها .

(٢) وإيجاد الأدلة والمعاني والآراء والحجج التي تهدي النفوس إلى مطالبها الحقة، فأجاب عن الأول بأن الله هو الذي يبدأ الخلق ثم بيده ، لأن لجأهم لا يدعهم يعترفون بها ، وعن الثاني بأن الله هو الذي يهدى للحق لأنه نصب في هذا العالم دلائل وجمل نواميس تبهير العقول وتنتج علوما كثيرة يستخرج منها الناس أمور معاشهم ومعادهم ، ثم أخذ يتم الكلام في القسم الثاني لأنه المهم في مقام الهداية ، فقال هل الذي ينير للسالك ويوضح للشكليات وينصب الأعلام أولى بالاتباع أم الذي هو كالأعمى العاجز لا يهتدى إلا أن يهديه سواه ، فكيف تحكمون أيها الناس بما يقتضى صريح العقل بطلانه ؛ وكيف تكون الأصنام القائمة السمياء التي لا علم لها هادية ؛ فأنه الذي ملأ هذا العالم بالنواميس للتيرة السبل أولى بالاتباع . يقال هدى للحق وإلى الحق وكلاما في الآبة، وقوله ( أمن لا يهدى إلا أن يهدى ) أي من لا يهتدى إلا أن يهدى . وقرئ « يهدى » بفتح الياء والماء وتشديد الدال وبكسر الماء وفتح الياء وبكسر الياء والماء وبسكون الماء وتشديد النون :

أى يهتدى فى الجميع ، وهذا قوله تعالى « قل هل من شركائكم » إلى قوله ( فما لكم كيف تحكمون )  
 ثم قال ( وما يتبع أكثرهم ) فيما يعتقدون ( إلا ظنا ) مستندا إلى الخيال ، وللراد بالأكثر الكل ( إن  
 الظن لا يبنى من الحق ) من العلم والاعتقاد الحق ( شيئا ) من الإغناء ( إن الله عليم بما يفعلون ) هذا وعيد  
 لهم على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان ( وما كان هذا القرآن أن يخترى من دون الله ) أى افتراء من  
 الخلق ( ولكن ) كان ( تصديق الذى بين يديه ) مطابقا لما تقدمه من الكتب الإلهية للشهود بصدقها  
 والنبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم علما ولم يأخذ عن أحد ، وقد جاء فى القرآن قصص وأخبار مطابقة لما  
 فى التوراة والإنجيل ، فكيف يكون ذلك وهو لم يتعلم ولو أنه لم يطابق ما فى تلك الكتب لشنوا عليه العارة  
 السموات ولأزلوه فى منزلة هو منها براء ، فهذا معنى قوله « ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ »  
 وتفصيل ما حقق وأثبت فى العقائد والشرايع ( لا ريب فيه ) متفيا عنه الريب كالنا ( من رب العالمين ) فأخبار  
 كان أربعة : تصديق ، وتفصيل ، ولا ريب فيه ، ومن رب العالمين ( أم يقولون ) بل أقولون ( افتراء )  
 محمد صلى الله عليه وسلم ، والمهذبة الاستهزام الإنكارى ( قل فأتوا بسورة مثله ) فى النظم والبلاغة وقوة  
 المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثل فى العربة ، بل أتم أشد تمزقا وأقرب تمسكا منها بأساليب النظم والثر  
 ( وادعوا من استطعتم من دون الله ) أى وادعوا للاستعانة على الإتيان بمثله ما استطعتم من خلقه ( إن كنتم  
 صادقين ) أنه خلقه ( بل كذبوا ) سارعوا إلى التكذيب ( بما لم يحيطوا بعلمه ) بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن  
 يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه كالتقصص التى قصها وأخبار البعث والنشور والجنة والنار التى ذكرها فانهم  
 ينكرونها لجهلهم بها ( ولما بأنهم تأويله ) ولم تبلغ أذهانهم معانيه ولم يعرفوا بعد تأويل ما فيه من الأخبار  
 بالنيوب حتى يتبين لهم أصدق أم كذب ( كذلك كذب الذين من قبلهم ) أنبياءهم ( فانظر كيف كان عاقبة  
 الظالمين ) فيماتون كما عوقبوا إذا أصروا على العناد ( ومنهم ) من الكذابين ( من يؤمن به ) أى سيؤمن  
 به ويتوب عن كفره ( ومنهم من لا يؤمن به ) فيما يستقبل بل يموت على الكفر ( وربك أعلم بالمفسدين )  
 بالمعادين أو الصريرين ( وإن كذبوك ) ويشت من إجابتهم ( قل لى عملى ) جزاء أعمالكم ( ولكم أعمالكم )  
 أى جزاء أعمالكم ( أنتم بريئون مما أعمل ) فلا تؤاخذونى به ( وأنا بريء مما تعملون ) من أعمالكم  
 فلا تؤاخذكم بها وهذا فى حال الضعف ، فلما حان حين القوة تغيرت الحال ( ومنهم ) أى من هؤلاء ( من  
 يستمعون إليك ) حين تقرأ القرآن وتعلم الشرائع ولكنهم لا يقيلون كأنهم صم ( أفأنت تسمع الصم ) أى  
 أنتدر على إسماعهم ( ولو كانوا لا يحقون ) أى ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم بما أسدل على العقول من  
 الأوهام وما أوحى إليه العادة وما اتخذت له من الأمثال ( ومنهم من ) ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة  
 صدقك وأعلام نبوتك ولكنهم لا يصدقون كأنهم عمى لا ينظرون بأبصارهم ( أفأنت تهدى العمى ولو كانوا  
 لا يبصرون ) أى أحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة ، فهؤلاء كالصم  
 العمى الذين لا عقول لهم وهؤلاء لا يمكن إيمانهم ، وكل ذلك بنظام ثابت وحكمة عالية ، فإن ذهب البصائر  
 وقلة التفكير والعلم والانهماك فى التقليد إنما جاء كله بالاستعداد ، والاستعداد فى النفوس سائر بنظام الخليفة  
 وهذا النظام هو الصالح للوجود فلا ظلم فيه ، لأن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ( إن الله لا يظلم الناس  
 شيئا ) لأنه لا يفعل إلا على مقتضى العلم ، والعلم متعلق بالحقائق الثابتة التى تقتضها الحكمة ( ولكن الناس  
 أنفسهم يظلمون ) لأن هذه هى حقائقهم التى علمها الله وعلى مقتضاها كان الاستعداد ومن الاستعداد الناقص  
 والتام ، وهؤلاء فى قصصهم كالخشب يصلح للوقود ولا ظلم فى ذلك وغيرهم كالتمر يأكله الإنسان وكلاهما يقتضيه  
 النظام العام .

ثم هناك وراء هذا أبحاث لا يجوز ذكرها في مثل هذا التفسير العام ، وليس ما ذكرناه بمثلج للصدور ولا شاف لما في القلوب ، فان هذا وراءه أسئلة كثيرة توجه على هذا ولكن لاسيلا إلى الإجابة عليها ، فيجب على طالب الحقائق أن يفتح لنفسه باب العلم والمعلم واسع بابه والله يعطى من يشاء .  
والتصريح بالحقائق بربك جمال الله بأوسع معانيه وأن رحمته واسعة فاطلب هذا منه هو ولا تفهم العامة لئلا يقدحوا عليك في دينك وأنت على علم تام .

ثم قال : واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء للشركين لموقف الحشر ، ومعنى الحشر إخراج الجماعة وإزاجهم من مكانهم كأنهم لم يلبثوا في قبورهم أو في الدنيا إلا قدر ساعة من النهار وذلك لهول ما يرون : أى ويوم نحشرهم حال كونهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة وحال كونهم ( يتعارفون بينهم ) وهى حال مقدرة : أى يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً ، وهذا أول ما ينشرون ثم يتقطع التعارف لشدة الأمر عليهم وحال كون الذين كذبوا بقاء الله قد خسروا أنفسهم ( وما كانوا مهتدين ) إلى ما يصلحهم وينجيهم ( وإما زينك ) نصرك ( بعض الذى نعدم ) من العذاب فى حياتك كما أراه ذلك يوم بدر والغزوات بعده وفتح مكة كما تقدم فى سورة النبوة ( أو توفينك ) قبل أن تريك ( فإلينا مرجعهم ) فزيك فى الآخرة : أى إما تريك بعض الذى نعدم فيها ونعمت ، أو توفينك فإلينا مرجعهم ، فهذه الجملة جواب « توفينك » ( ثم الله شهيد على ما يفعلون ) أى مجاز عليه ، فالشهادة أريد نتيجتها وهى المجازاة ( واسلك أمة ) من الأمم ( رسول ) يبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق ( فإذا جاء رسولهم ) بالبينات فكذبوه ( قضى بينهم ) بين الرسول ومكذبيه ( بالقسط ) بالعدل ، فأجينا رسلنا وأهلكنا المكذبين ( وهم لا يظلمون ) والنجاة والمهلك فى الدنيا وهو معلوم وفى الآخرة بأن يشهد الرسول عليهم بالكفر والإيمان فيقضى بالمقاب والثواب كما قضى بالمهلك والنصر فى الدنيا ( ويقولون ) استبعاداً لهذا الوعد واستهزاء به ( متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ) بأبها النبي وبأبها للمؤمنون ( قل لا أملك لنفسى ضرراً ولا نفعاً ) فكيف أملك لكم فاستعجل فى جلب العذاب لكم ( إلا ما شاء الله ) أى ما شاء الله من ذلك كائن ( لكل أمة أجل ) مضروب لهلاكهم ( إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) لا يتأخرون ولا يقدمون فلا تستعجلوا فيجىء ، وقتكم وينجز وعدكم ( قل ) يا محمد لأهل مكة ( أرايتم ) أى أخبروني ( إن أتاكم عذابى ) الذى تستعجلون به ( بيانا ) ليلاً ( أو نهاراً ) وأنتم فى طلب معاشكم ( ماذا يستعجل منه المجرمون ) أى أى شئ من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال وهذه الجملة الاستفهامية جواب إن ، والجملة الشرطية كلها متعلقة بأرايتم أى أخبروني أى شئ تستعجلون من العذاب إن نزل بكم وكله مكروه لا يلائم الاستعجال ( أ ) تستعجلون العذاب ( ثم إذا ما وقع ) عليكم ونزل بكم ( آمنتم به ) أى آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس كما سيأتى فى هذه السورة من إيمان فرعون وقد أدركه الفرق ، وقيل لكم ( آلآن ) أى أحين وقع العذاب تؤمنون ( وقد كنتم به تستعجلون ) تكذيباً واستهزاء كما قيل لفرعون فيها سيأتى « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » فانظر كيف ذكر هذا هنا ليطبق عليه قصة فرعون حتى يعتبروا ويصدقوا أن الإيمان يجب أن يكون وقت القوة والإمكان لا وقت اليأس ، ثم عطف على قيل للقدرة ( ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ) الدوام ( هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ) من الشرك والتكذيب ( ويستنبئونك ) ويستنجزونك فيقولون إنكاراً واستهزاء ( أحق هو ؟ ) أى ماجئت به من وعد وقرآن ونبوة تقول به بجد أم باطل تهزأ به ( قل إى وربى إى لحق ) نعم وربى إن العذاب لكائن وإى من لوازم القسم ، ولذلك يوصل بواو فى التصديق ، يقال إى والله ولا يقال إى وحده ، ومنه [ أبوه ] عززل إى والله ( وما أنتم بمعجزين ) بفائتين العذاب ( ولو أن لكل نفس

ظلمت) بالترك أو بالتعدي على حقوق الناس أو حقوق الله تعالى (ما في الأرض) من المعادن والأشجار  
والخزائن (لافتدت به) لجملة فدية لها من العذاب فإن ما يملكه يقصد به نفع نفسه (وأسرّوا) فعل أسرّ  
يستعمل لإخفاء الشيء وإظهاره فهو من الأضداد وهو هنا بمعنى أظهرها (الندامة لما رأوا العذب) لأنهم  
بهتوا بما عاينوا مما لم يحسبوه من فظاعة الأمر فلم يقدرُوا على السكتان (وقضى بينهم بالقسط) أي وحكم  
بالعدل بين المؤمنين والكافر والرؤساء والرؤساء والظالمين والظالمين من الكفار (وم لا يظلمون)  
فيخفف من عذاب المظلوم ويشدد في عذاب الظالم ، وقوله «ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض»  
لو فيه حرف امتناع لامتناع ، وإنما امتنع ذلك لأن للكل شيء أين يأخذ الكافر الفداء وهذا قوله (ألا إن  
الله ما في السموات والأرض) وقوله (ألا إن وعد الله) أي ما وعد الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم  
من نواب وعقاب (حق) ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إلا ظاهرا من الحياة الدنيا (هو يحيى ويميت)  
هو القادر على الإحياء والإماتة (وإليه ترجعون) وإلى حسابه وجزائه مرجعكم فيخاف ويرجى (يا أيها الناس  
قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) الموعظة ما يدعو إلى الصلاح  
بطريق الرغبة والرغبة ، وشفاء الصدور خلوصها من الشكوك وسوء الاعتقاد ؛ فالعلم إذن قد جاءكم كتاب  
جمع الحكمة العملية التي تبين محاسن الأخلاق ومقاييسها والحكمة العملية التي تشفي الصدور من الجهالة  
والشك ، ثم قال «وهدى» إلى الحق واليقين «ورحمة للمؤمنين» لأنهم نجوا به من الضلال في الأخلاق  
وسوء الاعتقاد (قل) يا محمد (بفضل الله وبرحمته) فليفرحوا إن فرحوا بشئ (فبذلك فليفرحوا) والقاء  
في قوله «فليفرحوا» زائدة نظيرها في قول الشاعر :

• فإذا هلكت فبذلك فليفرحوا •

وكرر ذلك للتأكيد : أي ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته : أي ما آتاهم الله من اللواعظ وشفاء  
الصدور ونيل اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه ، وهذا يقرب من قول قتادة : [فضل الله الإسلام ورحمته  
القرآن] وقول غيره : [فضل الله القرآن ورحمته السنن] وقول أبي سعيد الخدري : [فضل الله القرآن  
ورحمته أن جعلنا من أهله] .

وهذه الأقوال كلها متقاربة ترجع إلى أن العلوم والمعارف علمية أو عملية خير من الأمور اللادية ، وهذا  
هو قوله (هو خير مما يجمعون) من حطام الدنيا فإنها سريعة الزوال .  
واعلم أن المعارف هي مصادر للمال ؛ فالعلوم مقدمة على الأعمال ، ولذلك قيل [نية للرب خير من عمله]  
والنية من نتائج العلم ، والعمل نتيجة النية .

وقد ظهر في هذا الزمان بأجلى مظهر أن الأمم التعلقة تتغلب على الجهالة فأصبح العلم مصدرا للقوة  
والمال ؛ فالعلم يرق العقول وصلح الأحوال ويحلب الأموال ، فأما جلب الأموال بالطرق المقيمة فإنه يضيع  
الوقت ولا يرفع النفس إلى معالي الأخلاق ، فأما العلم واقتناؤه فإن صاحبه يعرف من ضروب الأسباب  
ما يستغده ويسعد أمته بأدنى عمل كعلم الكهرباء فإن استمعا لها في إثارة البيوت وجرى للركبات أراح الإنسان  
من عناء النسي ، والحيوان من تعب الكد ، فلهذا العلم فإنه راحة للأجسام وسعادة للقلوب ، فبالعلم فليفرح  
المعلمون وبالنعم الدينية فليفرحوا لا باعتبارها أنفسها بل باعتبار أن الله أنعم بها : أي فليفرحوا بفضل الله  
على العبد لا بنفس النعم ، فمن أنعم الله عليه بولد أو مال أو ذكر فليكن فرحه بأنه صدر من الله وأن الله  
تفضل به عليه لا بنفس النعم لأنها زائلة خسيسة والذات الخسيسة صائرة للزوال ، فأما العلوم والمعارف  
والفضل الإلهي في ذلك وفي النعم اللادية فهو الذي يفرح به العبد .



وإذا كان قرآن شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، وبه وأمانه من فضل الله ورحمته يبرخ  
المؤمنون ، فكيف جعلتم مما رزقكم الله حلالا وحراما حرمتم على أنفسكم في الجاهلية شيئا وحلتم آخره كما  
تقدم في سورة الأنعام إذ قالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لكورونا ومحرم على أزواجنا إلى آخر ما تقدم  
شرحه هناك ، وكبحرهم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام ، فكيف فعلون ذلك ولا ترجمون في التحريم  
والتحليل إلى ما نزل في القرآن الذي هو شفاء الخ ، وهذا قوله تعالى ( قل أرأيتم ) أخبروني ( ما أنزل الله  
لكم من رزق ، أي أي شيء من زرع وضرع خلق الله لكم بإنزال الماء من السماء وضوء الشمس وإلحاحه  
على الأرض وإنبات النبات وخلق الحيوان وإتمامها ) فجعلتم منه ( أي من ذلك الرزق ) حراما وحلالا )  
كما تقدم ( قل ) يا محمد ( آفة أذن لكم ) أي أخبروني « آفة أذن لكم » في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون  
ذلك بإذن ( أم على الله تفترون ) أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه ، وقوله « ما أنزل » ما استفهامة  
العامل فيها أنزل ، وكرر « قل » للتأكيد ؛ ولما كان الافتراء على الله عظيما أردته بقوله ( وما ظن الذين  
يفترون على الله الكذب ) أي أي شيء ظنهم ( يوم القيامة ) يحسبون أنهم لا يحجارون عليه ، ويوم منصوب  
بالظن : أي أي شيء ظن القبرين في ذلك اليوم ما يصنع بهم وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهذا القول  
وعيد عظيم لأنه أهم أمره ، والاستفهام للتوبيخ والتفريع لمن يفترى على الله الكذب وليس تفريع الكاذبين  
وتوبيخهم إلا لهدايتهم وإزالة السبل لغيرهم إذا لم يهدوا ، فعذاب الله وتوبيخه وأمثالهما يقصد بها جميعها  
هدايتهم وإزالة سبلهم ، وهذا من جملة النعم . فلذلك أعقبه بقوله ( إن الله لود فضل على الناس ) بعنه الرسل  
وإنزال الكتب وتبيان الحلال والحرام وتفريع الكاذبين كما في هذه الآية ( ولكن أكثرهم لا يشكرون )  
هذه النعمة ولا يتبعون الهدى ، ولما كان عموم الفضل من الله لا يتم إلا وهو عالم بجميع أحوال العباد  
ظاهرا وباطنا أعقبه بذلك فقال ( وما تكون في شأن ) أمر مهم ويكون أيضا معناه القصد فهو على الأول  
اسم وعلى الثاني مصدر ( وما تتلو منه من قرآن ) أي وما تتلو من أجل شأن قرآنا ( ولا تعملون ) أيها  
الناس جميعا ( من عمل ) أي عمل ( إلا كنا عليكم شهودا ) شاهدين رقباء مطلعين عليه نحصى عليكم ( إذ  
تفيضون فيه ) نحوضون فيه وتندفون . من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه ( وما يبرز عن ربك ) وما يبعد  
عنه ولا يتعب عن علمه ، وأصل المزرب البعد ( من مثقال ذرة ) وزن مثقال صغيرة حمراء وهي خفيفة الوزن  
جدا ( في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ) يعني من الثمرة ( ولا أكبر ) يعني منها ( إلا في كتاب  
مبين ) يعني في اللوح المحفوظ ، ولا نافية للجنس وفي كتاب خبرها ؛ وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ( ألا إن  
أولياء الله ) الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ( لا خوف عليهم ) من لحوق مكروه في المستقبل  
( ولا هم يحزنون ) على ما خلفوا من خلفهم ، فلا من للمستقبل يخافون ولا على القانت يحزنون ثم بين من هم  
فقال أعني أو هم ( الذين آمنوا وكانوا يتقون ) الشرك والمعاصي ( لهم البشرى في الحياة الدنيا ) بالذكر الحسن  
وثناء الناس عليهم وبعبية الناس لهم وبيشارة الله في القرآن بالجنة لهم وبالرؤيا الصالحة براها الرجل أو ترى  
له وبأن يرى الولي عند النزاع مكانه في الجنة وينزل للملائكة بالبيشارة من الله عند الموت لهم فهذه البشارات  
السنة واردة في كتب التفسير وبعضها في الحديث وسيأتي إيضاح هذا المقام ( وفي الآخرة ) هي الجنة وأن  
تتلقاهم للملائكة مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وهذا بيان لتوليه إياهم ( لا يتبدل لكلمات الله ) أي  
ولا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ومنها ما وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى السنة رساله ( ذلك )  
أي كونهم مبشرين في النارين ( هو الفوز العظيم ) أي النجاة الوافرة فازوا بالجنة وما فيها ونجوا من النار

وما فيها ، وهاتان الجملتان اعتراض لتحتيق للبشر به ، وليس من شرط الاعتراض أن يقع بعده كلام يتصل  
بما قبله .

واعلم أن الولي هو الذي إذا رؤى يذكر الله وهو المؤمن التقى وهو الذي يجب لجلال الله لا المال  
ولا الجاه وهو الذي يذكر الله ويذكره وإذا ذكر الله وهو من الولاء وهو القرب والنصرة ، فهو  
يقرب له بكل ما افترض عليه وهو مشتغل القلب بالله مستغرق في معرفة نور جلاله ولا يرى بقلبه  
غير الله .

ولا جرم أن هذه الصفات انصف بها الأنبياء ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الولي  
لا يخاف إذا خاب الناس ولا يحزن إذا حزنوا فالأنبياء أولى ، ولذلك قال ( ولا يحزنك قولهم ) أي تكذيبهم  
وتم ريدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإطال أمرك ، وكيف يحزن وأنت ولي الله كما في آية أخرى « إن  
ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » وإذا كان العبد كذلك فلا يخاف من شيء ولا يحزن  
على شيء لو توفقه برحمة الله في السراء والضراء صعب أو مرض حبي أو مات ؟ وكيف يحزن والحياة وللموت  
عنده بيان كما في آية « قل هل ترجسون بنا إلا إلهي الحسين » فجعل النصر والقتل حنينين ، فالقتل  
في الجهاد حسنى والنصر حسنى .

ولعمري كيف يحزن من يرى النصر والملك يساويان الموت وترك الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك  
فكيف به إذا كان الله وعده بالنصر وله العزة وحده فإن عدم الحزن أحرى ، فذلك أعقبه بقوله ( إن  
العزة لله جميعا ) كأنه يقول كيف يحزن من قولهم فإن العلة والقهر والقدرة لله جميعا وقد وعدك بالنصر ،  
فأنت ستصبر عليهم فعلام الحزن إذن؟ وقوله ( هو السميع ) أي لأقوالهم ( العليم ) أي بعزائمهم فيكافئهم عليها ،  
وقوله ( إلا إن الله من في السموات ومن في الأرض ) أي من اللائكة والتفلين وإذا كان هؤلاء مملوكين لا يصلحون  
لربوبية فقيرهم من باب أولى ، وهذا استدلال على ما بعده وهو ( وما يتبع الدين يدعون من دون الله شركاء )  
وكيف يكونون شركاء وهم مملوكون ( إن يتبعون إلا الظن ) أي إنما يتبعون ظنهم أنهم شركاء ( وإن هم  
إلا يخرسون ) يكذبون فيما ينسبون إلى الله ، وقوله ( هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا  
أي مضيئًا لتبصروا مطالب أرزاقكم ومكاسبكم . تقول العرب [ أظلم الليل وأبصر النهار ] أي صار ذا ظلمة  
وذا ضياء ( إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ) أي مع اعتبار وتدبر ( قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ) تنزيها له  
عن اتخاذ الولد وتسجيح من كلهم الجاهلة ، وكيف يكون له ولد ، والولد إنما يكون لأمرين : أن ينفع أبويه  
في كبرها وأن يكون بقاء له كبرها بعد فناءهما ، والله ( هو العلى ) وإذا كان الولد لتبوية ضعف الوالد ولتقاء  
من فقره ولتشراف به من ذله ، فكيف يكون له ولد وهو غنى عن ذلك كله ( له ما في السموات وما في  
الأرض ) ملكا ولا يجتمع النبوة مع الملك ، وهاتان الجملتان تدحضان أن له ولدا فلا حجة لكم أيها الناس  
في ذلك ، وهذا قوله ( إن عندكم من سلطان بهذا ) أي ما عندكم حجة بهذا القول فإن الولد لمن افتقر إليه ،  
ولا فقر عندى والولد لا يكون مملوكا وأنا أملك السموات والأرض ومن فيهن فكيف أملك ما ألد والملك  
وإولادة لا يجتمعان ، فذلك ومخهم فقال ( أتقولون على الله ما لا تعلمون ) فهذا توبيخ وتفرغ على اختلافهم  
وجهلهم ، ولذلك رتب عليه قوله ( قل إن الذين يفترون على الله الكذب ) بأخذ الولد وإضافة الشريك إليه  
( لا يفعلون ) لا يفوزون بالجنة ولا ينجون من النار لاقرائهم ( متاع قليل ) يقيمون به رئاستهم في الدنيا  
وهم كافرون ( ثم إلينا مرجعهم ) بالموت فيلقون الشقاء للؤبد ( ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون )  
أي بسبب كفرهم ، انتهى التفسير اللفظي لهذا القسم .

فرايب القرآن في سورة يونس وهو - ويوسف

بمناسبة قوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء والأرض - إلى قوله تعالى - ذلكم الله فأنى تؤفكون » جلّ الله وجلّ العلم والحكمة وعظمت اللثة وظهر النور وبهر وتجلت الآلاء بأهرة زاهرة .  
يارب هل نامت الأمم الإسلامية هذه القرون عن هذه البدائع القرآنية ، يقول الله في أول سورة يونس التي نحن بصدد الكلام عليها مملخصه :

(١) إن الذي رباكم هو الذي خلق السموات والأرض

(٢) وهو الذي استوى على الملك .

(٣) وهو الذي يدبر الأمر .

ويقول هنا في مقابلة الأول « قل من يرزقكم من السماء والأرض » وفي مقابلة الثاني : إنه يملك أسمعكم وأبصاركم ويخرج الحي من البت ويخرج للبت من الحي ، وهذه الأعمال من مقتضى الاستيلاء على الملك ، وفي مقابلة الثالث : « ومن يدبر الأمر » .

ذكر هذه الأمور في أول السورة على هيئة الخبر وذكرها هنا على هيئة الاستفهام وذكر في ختامها تدبير الأمر ، فالعناية متوجهة إلى تدبير الأمر ، وهذا كقوله في سورة الطلاق « الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمز بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير . وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » فالعناية موجهة في هذين اللقائين إلى التدبير العام والنظام ، هذا مقام الشهود .

فهذا هو المقام المحمود ومقام الشهود الذي جاء في سورة آل عمران « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » أنزلت بأفقه القرآن وصرّفت فيه من كل مثل وفلت في هذه الدورة كما قلت في غيرنا ، يا عبادى ها أناذا أدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، فانظروا هذه للشاهد وزوروا هذه للعاهد . أما أنا فقد عجبت كل العجب من أمم ينزل كتابها موجهة عنانيته إلى هذا المقام المحمود ، ومقام الشهود مقام العلم ، والحكمة مقام الحكمة الذين يقرءون علوم هذه الدنيا فيها يعيشون وبها يوقنون وبها يرجعون إلى العالم القدس .

يا ليت شعري هل يعلم الناس بعدنا ، هل يملكون أن سياسة القرآن وإن كانت متوجهة إلى الدعوة إلى الله قد تضمنت جميع مطالب الدنيا فإنه يستجبل علينا أن نشهد هذا التدبير والنظام إلا بعد دراسته ومتى درسناه قام فريق منا ، فاختص بالمقام المحمود مقام الشهود فمرجت روحه إلى المقام الأقدس ، وهذا كقوله في سورة البقرة « لعلمكم تفكرون في الدنيا والآخرة » لجميع العلوم الكونية مبدؤها النظام الدينى ونهايتها الرقى العقلى وشهود التدبير .

وإني أحمد الله وأشكره أن هباً الأسباب وأعد المدد لهذا المقام بهذا التفسير فهو إن شاء الله كاف لمن قرأه أو جله وفهمه يهديه إلى مقام الشهود ، وبه يكون من أولى العلم الذين هم مطوفون على الملائكة الذين يشهدون الوحدة سارية في هذا العالم مع العدل والقيام بالقسط ، ولهذا وأمثاله يقول الله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » هذا مقام العلماء والحكام والأولياء . هذا مقام الحمد ومقام الصديقين ، وسيكثرون في هذه الأمة عما قريب .

هذا ما تجلى في نفسى اليوم صباح السبت السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ [أما سورة هود] فقد تجلى فيها ما استراه هناك من العجب ، فستجد هناك من آيات الله الباهرة التي لم تعرف حق معرفتها إلا في زماننا وستشهد هناك مشهدا يهرك ، وترى نور الله مشرقا على الحيوانات وتندرك منها ما لم يكن ليخطر ببال حكيم

من أكار الحكما . فبينا ترى حيوانا أمامك له لون أو شكل فتمرّ عليه بلا فكر إذا بك أمام مشهد إلى باهر مجيب ، أندري لم هذا ؟ هذا لأن الله ذكر في أول السورة أنه مامن دابة في الأرض إلا عليه رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها ، ثم بعد آيات كثيرة جاءت قصة هود وأعاد الكرة على مسألة الحيوان فقال « مامن دابة إلا هو أخذ بناصيتها » إذن يعلم العقلاء أن هنا سرا يجب التنبيه له ؛ فكما كان السرّ في سورة يونس تدبير الأمر العام ، هكذا كان السرّ في سورة هود تدبير أهمّ الأمور في الأرض وهو عالم الحيوان ، ولعله لذلك سميت السورة هود ، لأن أهم ما فيها إنما هو الأخذ بناصية الحيوان المذكورة في قصة هود ، يرشدنا الله بنياته بتدبير الأمر وإعادة ذكره وبنظام الحيوان وكلامه إلى أن القرآن أنزل لمثل هذا .

أنزل القرآن لأقوام يعقلون هذه النعم ويفكرون في التدبير المحكم العام نارة والحاص أخرى ، أفلا تعجب متى يباح كيف نام للسلمون وهم يقرءون القرآن ويدرسون التفاسير ؟! أين كانت عقول للتأخرين ؟ .

اللهم إني قد نصحت وأدبت ما على ، اللهم فاشهد فإنه لا عنذر للمسلمين بعد ما كتبت في هذا التفسير ولا عنذر لمن عرف هذا ولم يصرف حياته في نشر هذه الفكرة في أمم الإسلام .

أما سورة يوسف فقد جاء في أولها « تلك آيات الكتاب المبين » ثم أعاد ذكر الآيات قيل أواخر السورة فقال « وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون » .

يقول : ليست قصة يوسف ولا غيرها هي كل الآيات ، إن أهل الأرض مغمورون في الآيات تحيط بهم من كل جانب ولكنهم عنها معرضون ، إذن سورة يوسف عنايتها بالنظام العام ، وسورة هود عنايتها بنظام الحيوان ، وسورة يوسف وجهتها أن التدبير العام والتدبير الخاص كلاهما دلالات على الله وهي كثيرة جدا حتى ذكرها بلفظ « كأين » .

#### مقاصد قصص القرآن

اعلم أن قصص الأنبياء أشبه بأشجار ذات ثمر وورق وأزهار ؛ فالجملة يكتبون منها بظواهرها ، والحكاء والعلماء ينتهون ثمراتها ، فترى صفار العلم يبحثون في الآثار وفي كتب التاريخ يقول أحدهم أين قوم عاد ؟ أين آثار نوح ؟ وهل مجد في آثار الصريين ذكر يوسف ؟ وهل حقيقة كان يوسف وزير للبالية ودر الأمور ؟ فبينا هؤلاء يضيعون أوقاتهم في ذلك عسى أن يعثروا على ضالهم للشهوة فيؤمنوا إذا بالطائفة الحكيمة تعرض عن هذا ويقول هذه أشجار وأزهار جاءت لمواعظنا نحن آمنابها والإيمان لن يكفينا ، فلا بد من اليقين ، وأين هو اليقين ؟ ثم يجدون ذلك اليقين في تنايا القصص ؛ إذ يقول هود : إن كل دابة أخذ الله بناصيتها ، وفي يوسف أن قصته ليست هي كل شيء ، فالله تعالى كلها آيات ؛ فاليقين والرفق في الدنيا والآخرة إنما يكون بالتوجه للقاصد والثمرات لا للأغصان والزهرات ، ولذلك ختم سورة يوسف بأن في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، إشارة إلى أن الناس قسمان : قوم أولو ألباب ، وقوم أولو قشور ؛ فأولو الألباب يعمدون إلى لب هذه القصص ، وأهل القشور يرجعون إلى قشور العلوم كالم الآثار في التاحف أو في نواويس قدماء الأمم عسى أن يتروا على تصديق هذه .

كل له غرض يسمى ليدركه والحرف يجعل إدراك الملا غرضا

للتدبير ثمرتان : ثمرة علمية ، وثمره عملية

إن تدبير الأمر الذي ذكره الله هنا وفي آيات أخرى قد ظهر لك أيها الذكي ظهورا على قدر الطاقة الإنسانية ، وقد رجع إلى نظام هذه الدنيا وحسن إنسانها ومجاشها ومن نال هذا الحظ في هذه الدنيا فإنه

يختلس له أوقاتا يلحظ فيها جمالا لا يعقله العاقلون فيسليخ من هموم هذه الدنيا انسلخا مؤقتا ، وهذا الانسلخ يقره من السعادة ويبعده من شقاوة المادة ، وهذا هو المعنى فيما ورد « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا . قالوا وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال مجالس الذكر » ولنا نبحت الآن في صحة سند الحديث وإنما معناه صحيح ، لأن الذين أدركوا معنى هذه الدنيا يتخلصون من ذل الحياة وأسر المادة في بعض أوقاتهم وهذا هو الذي يشير له الحديث « أرحنا يا بلال بالصلاة » وإليه الإشارة في قوله تعالى « فلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم » فأنتقال هموم الحياة فيها آلام قد تصير أشد من ألم النار بل كثيرا ما يحرق الإنسان نفسه في أيامنا هذه تخلصا من هموم هذه الحياة ، إذن هموم حياتنا قد تعادل النار وقد تكون أشد منها ، وكما ورد من الأخبار في هذه السنة عن قوم أحرقوا أنفسهم وأنا نفسي أعرف رجلا جينه في قرية (الرج) بالقرب من القاهرة علمت منذ شهرين أنه تخلص من آلامه للرضية بإيقاد النار في جسمه ثبات محترقا بالنار تخلصا من نار المرض الشديد . فإذا جعل الله النار المحسوسة على إبراهيم بردا وسلاما فهو يجعل نار الحياة التي تشبهها أو تزيد عليها بردا وسلاما أيضا ، وذلك بإتجاه النفس بالعلوم العامة الداخلة في قوله « يدبر الأمر » .

ضرب مثل لهذا المقام وهو الاستعداد بمشاهد التدبير

اعلم أن جميع العلماء الذين أغرموا بعلم خاص كالطب والهندسة وكل علوم الالهة وكلهم الحيوان ، وهكذا يحسون براحة من هموم الحياة في الوقت الذي يحصرون همومهم في علمهم ويعسون بقلبه ، فهناك أمران : نسيان هموم الحياة في لحظة الاشتغال بالعلم ولقد نفس هذا العلم ، فإذا كان هذا في علم حزني فما بالك بمن نظره في هذا النظام العام كما هو مذكور خلال هذا التفسير .  
لاجرم أن هذه الطائفة لها لذة أعلى من لذات غيرها ثم يعقها آلام الحياة المتعانة وهكذا ، فهذه هي الثمرة العملية للعلم بالتدبير العام .

الثمره العملية لتلك التدبير

أما الثمرة العملية فاعلم أن التدبير كلما كان أتم كانت الوحدة أقوى وأكمل ، وكلما كان التدبير أضعف كانت الوحدة أضعف ، ولتلك تقول هذا لفر ، فما معنى ضعف الوحدة وما قوتها ؟ أقول :  
اعلم أن الأمم التي فوق هذه الأرض وتعيش معها من أمم الشرق والغرب قيمان : أمم تملك وعقلت فقامت بالعدل في أمور الحياة وانصفت بصفات الإنسانية فهذه يكثر عددها كأمم الألمان والاطليان وهكذا الولايات المتحدة . فهذه الأمم عظمت وقويت وحدتها وهذه الوحدة لم تم لها إلا بنظام وتدبير ، ولولا حسن التدبير والتعقل ما اجتمعوا ، فالاجتماع نتيجة حسن التدبير والنظام . فأما الأمم الجاهلة فهي التي يقل فيها حسن التدبير وتتفرق شيئا ويذوق بعضها بأس بعض ؛ فالأعراب في البوادي والأمم الجاهلة تراه متفرقين بحارب بعضهم بعضا .  
واعلم أننا في زماننا نرى الأمة العظيمة الواسعة الأكناف الكثيرة المدد تسطو على التي قل عددها ، وكان الله بذلك يذكرنا بأنكم أيها الناس مادتم غير عاملين بنظامي غافلين عن حكمي في تدبيري فانكم مغلوبون على أمركم .

الآن نرون أنكم لما قل عددكم سلطت عليكم من هم أكثر جمعا لأنهم غالباً ما أكثر جمعهم إلا لصلوات بينهم وحكومات تقضى بالحق في مشكلاتهم ، فأما للتنازول للتشاكسون فاني أسلط عليهم الأقوياء الذين قلدوني في عملي . إنني دبرت هذه الدنيا وجعلتها علما واحدا ، ولذلك تراه متصلا غير منفصل يستمد بعضه من بعض

والناس لما تجزوا عن تقليدي في صمقي عذبهم على مقدار هذا العجز ، ولو أنهم فلدوني في تديري لكانوا  
أوفر جمدا يخاف عدوم منهم لو حدتهم القوية للمستمدة من وحدانيتي .

هذا ما فهمته من قوله تعالى « ومن يدبر الأمر » في هذا الآيات . وملخص هذا كله أمران :

[ الأمر الأول ] أن الناظر في هذا العالم الذي درسه يكون له أوقات يلح فيها جناب القدس وينال  
بهجة لا يعرفها سواه .

[ الأمر الثاني ] أن الأم التي هي أتم نظاما تكون أوفر عددا والعكس بالعكس ويكون العز غالباً  
لكثرة العدد للنظام أو لقوة الجماعة التامة ، وانقل لمن ليس كذلك .

كيف يشهد الناس التديير في هذا النظام

اعلم أننا مادامنا في هذه الأرض فإننا لانشاهد صانع هذا العالم بمحواسنا كالسمع والبصر الخ . لأن هذه  
لا يدرك إلا الأجسام وإنما تدرك آثاره في نظامه وتدييره وتبنيجه ويكون ذلك سعادة معجبة في الدنيا وهي  
أرقى السعادات لأنها خاصة النفس الإنسانية ، فإذا انسلخنا من هذه الأجسام إما بالموت وإما بالباطات .  
فقد رى فوق ما يراه الناس في الأرض ولكن لانشاهد الله عز وجل قط إلا إذا خلصت أرواحنا من كل  
ما يلزمها من عوائق الكمال ، فإنها بعد لتوت مادامت ملطخة بالآثام تكون أشبه بالمادية ولا تزال  
ترتقي في الصفاء طبقاً عن طبق حتى تصير روحاً خالصة أشبه بالملائكة فتعابن الله .

ولما كان الإنسان في هذه الأرض على هذه الحال ذكر في المرتبة الثالثة في قوله « شهد الله أنه لا إله  
إلا هو والملائكة وأولو العلم » فأولو العلم في الأرض يشهدون آثار النظام والملائكة يشهدون مشاهد أرقى  
ولا يعلم الله حق معرفته إلا الله تعالى ، وليس كلامنا في الأنبياء فهذه طبقة لها مقام لسان من أهله حتى نخوض  
فيه ، انتهى .

لطيفة في قوله تعالى « ألا إن أولياء الله الخ » وتحقيق هذا اللقائ

اعلم أن قوله تعالى « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة - متصل بقوله تعالى - وما يتبع  
الذين يدعون من دون الله شركاء » فأما ما بينهما وهو قوله تعالى « إن الله لدو فضل على الناس » وما اتصل  
به من ذكر أن الله مطلع علينا حين نتدفع في شئوننا وحين تنزل القرآن لأجل تلك الشئون لتعمل بمقتضاه  
وحين نعمل أى عمل وأن الله عز وجل لا يثيب عنه شئ صغير أو كبير وذكر الأولياء وأنهم لا خوف عليهم الخ  
وذكر صفاتهم وأمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يجزى وتذكيره بأن العزة لله جميعاً وذكر أن لله ما في السموات  
وما في الأرض ، فهذا كله كقدمات لقوله « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون  
إلا الظن » لتأييد قوله أو لا « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » واعلم أن عادة القرآن  
أن يدخل في غضون من المصالح والعارف والحكم ما يثلج له قلوب المستبصرين ، فبينما تراه يثبت عدم الشرك  
وخطأ الكافرين تراه يأتي لك بالمعجب المعجب من عموم علمه ونصر أوليائه ، وكأن حكاية الكفار كانت  
سبباً في إدخال هذه الحكمة العجيبة الجليلة .

واعلم أن مدار المقال في هذا اللقائ على عموم علم الله لكل صغيرة وكبيرة ، وأولياء الله تعالى هم الذين  
تقدم تعريفهم بأنهم المتحابون في الله كما في حديث مسلم « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : أين المتحابون  
علائي ، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » . وفي رواية الترمذي « لهم منابر من نور ينبتهم النبيون  
والشهداء » . وفي رواية « يحمل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن ، يفرح الناس ولا يفرعون ، ويخاف  
الناس ولا يخافون » وتقدم أيضاً تعريفهم أنهم يذكرون بذكر الله ويذكر الله بذكرهم ، فقد روى أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تبارك وتعالى : إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم » وهذا ذكره البغوي بغير سند .

فهؤلاء الأولياء لا يخافون ولا يحزنون ، وأعلم أن في الولاية معنى القرب وليس القرب من الله بالمكان وإنما القرب له بالعلم ، فإذا علم العبد أن الله سبحانه هو الذي نظم هذه الكائنات وأحاط بها علما وربط العالم العلوي بالسفلي بحيث جعل ضوء الشمس والقمر والكواكب نافعاً لزرعنا ولنا وللحيوان وجعل حركات تلك الأجرام معلمة لنا وهادية بحيث نعرف بها أوقاتنا وسير سفننا في البحر بمواقع النجوم ، وكان هذا العالم كله جسم واحد ، فكل حركة وسكون معلومة عنده جعلت لمصلحة حتى أدنى حركة من كوكب ، وهذه الأرض التي نحن عليها ومن هم فوقها مرتبطون بالعوالم الأخرى ارتباطاً لا انفكاك له .

فإذا عرف العبد هذا وأيقن به ثم زاد ذلك الإيقان بما يرى من الأدلة والبراهين الدالة على علم الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة فإنه لا يخاف ولا يحزن ، وقد قال الله تعالى في آية أخرى « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسر لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فهذه الآية تشير إلى أن العبد متى أيقن أن الله يعلم كل شيء وقد كتبه في اللوح المحفوظ فإنه لا يحزن ولا يفرح لأنه يعلم أن ذلك لا بد منه وأن الله يفعل لمصلحة العبد ، ولا يظلم ربك أحداً وأن العبد إذن لا تقصير عنده لأن القدر غالبه ، فالمدار على إيقان العبد بأن الله يعلم كل شيء وهذا اليقين عزيز الوجود ، وإنما الذي في القلوب إنما هو الإيمان والإيمان أقل من اليقين .

ولما كان للقيام مقام العلم وعمومه لكل شيء أتبعه بذكر الأولياء للإشارة إلى أن ولايتهم إنما جاءت من جهة افتقارهم بالعلم ، ومن عجب أن يذكر في الحديث « الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » ، فمن عبادة بن الصامت قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى - لهم البشرى في الحياة الدنيا - قال هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له » أخرجه الترمذي ، وفي البخاري عن أبي هريرة قال صلى الله عليه وسلم « لم يبق بعدى من النبوة إلا البشيرات ، قالوا وما للبشيرات ؟ قال الرؤيا الصالحة » وفي البخاري أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وروى مسلم « وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ، والرؤيا ثلاث : الرؤيا الصالحة بشري من الله ، ورؤيا مخزبي من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث للره نفسه » .

قال العلماء إن ولي الله لا استراق سمع في جلال الله يكون عند النوم مشغول القلب بالله فلا يرى إلا صدقاً . ويقال إنما كانت جزءاً من ستة وأربعين لأن مدة الوحي ٢٣ سنة وكان في ستة منها يؤمر في النوم بالإندثار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً .

أقول : إن في ذكر الرؤيا هنا إشارة إلى أمر أعجب وعلم أحكم ، فإن الناس كما قاله بعضهم لم يصدقوا الأنبياء إلا لما ركز في نفوسهم من أن فهم من يرى جنس رؤيا صادقة تقع كما رؤيت . فذلك جوزوا أن يكون من الناس من يطلع على النبيات الدينية كالأنبياء ، وأيضاً إن الإنسان إذا رأى رؤيا وقعت كما هي وكان قد رآها قبل وقوعها فإن ذلك دليل أن الله تعالى يعلم كل شيء قبل حصوله ، وإذا كان العبد قد علم ذلك قبلها بزمن يسير ، فآله قبل خلق الإنسان فعليه تكون الرؤيا الصادقة من الدلائل عند الناس أن الله يعلم كل شيء قبل حصوله ، والإيمان لا يكفي لذلك لأن الإيمان لا يعطى الناس اليقين وإنما الإيقان بأحوال أخرى فرق الإيمان .

فأعجب لذكر أولياء الله بعد ذكر علم الله وكيف كانت الولاية هي القربى والفقرى إنما تكون بالعلم ،

ومن زاد عدده بهذا العالم ونظامه وأيقن بانتظامه ورأى تناسق العوالم العلوية والسفلية وارتباط بعضها ببعض وأن حركات الكواكب لما اتصل تام بملئنا ونظامه ، وهذا النظام أشبه بما في الصلاة من الدعاء بالهداية العامة ، إذ يقول للصلب « اهدنا الصراط » ولا يقول اهدني وحدى ، ويقول إن الهامد لله لأنه ربي العوالم كلها ، ويقول إن التعظيحات كلها لله ويلقى نظرة على النبوة العامة وعلى الناس الصالحين كأنهم شخص واحد تسلمهم السلامة من الله الذى يسلم عليهم يوم القيامة .

أقول : فمن ينظر للعوالم وهي مرتبطة ارتباطا محكما والأمة كلها وارتباطها في دعاء السلم وأنهم جميعا متصامنون متحابون يدعو آخرهم لأولهم ويعلم آخرهم أولهم كما ارتبطت العوالم كلها بعضها ببعض فإنه يعتبره الدهش من نظام بديع وثيق وبخار له لاسيا إذا لاحظ تألق الأنوار الشعة في نواحي هذا العالم وحسابها الدقيق البديع فإنه يحمر ساجدا لتلك العظمة ويجب ذلك الجمال ويبحث في العلوم على ضالته للنشودة ، ويرى أن بيته أن يقف على ذلك السر المصون وأن العالم كجسم واحد تدبره ذات واحدة لا يعزب عنها صغير ولا كبير من أموره ، ثم إذا ازداد هذا الرأى عنده فمرف أنه لا يفعل إلا المصلحة لذات المخلوق نفسه وأن الخير والشر الجارين على كل مخلوق إنما هما لئلا يهلك ، وإذا تأكد عنده أن الله يعلم كل شيء وهو المحرك لكل شيء ، فإن لا محالة يزول عنه الخوف والحزن فلا يخاف من مستقبل ، لأنه يرى الله الرحيم هو الذى يتولاه كما تولى كل حيوان ونبات ولا يحزن على ماض لأنه يعلم أنه لا فعل له فكيف يندم على ما لا قدرة له عليه .

واعلم أن الناس وإن كانوا مؤمنين لا يزال يساورهم الوسواس ويقولون : لو فعلنا كذا لحصل كذا ، ويخافون من أحوال آتية في الحياة وبعد الموت وذلك لعدم تفهمهم بأن الله مطلع على الصغيرة والكبيرة ، ولو عدوا ذلك مع علمهم أنه أرحم من الأم ما هلمت قلوبهم ولا جزعت نفوسهم ولكنهم إلا قليلا منهم لا يعلمون ذلك فكانت الرؤيا التي وردت في البخاري ومسلم أنها من البشريات نافعة أيضا في إيقان الناس بأن الله يعلم الأشياء قبل حصولها فيستيقظون لذلك العلم ويقنع لهم باب المعرفة فيرون الله مطلقا على العباد ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيقول الحزن والخوف .

واعلم أن الأولياء والأنبياء والعلماء والأكابر والحكماء جميعا يخافون ويحزنون ولكن الخوف والحزن عندهم جزئى لا كلئى لأنهم يعتقدون نهاية كل شيء وأن الله هو الخالق فيفوضون الأمر إليه ، وأيضا إذا جد العبد واجتهد وصل كل ماوجب عليه ثم نزل القدر حزنه يكون ضئيلا بالنسبة لحزن الجهلاء الذين قصر نظرهم .

هذه هي الحال العامة في سائر الأولياء والأنبياء عليهم هذه حالهم على سبيل الإجمال وهناك حال خاصة ، ذلك أن العبد إذا استغرق في معرفة الله بحيث لا يحظر بياحه في تلك اللحظة شيء مما سوى الله ، ففي هذه الساعة تحصل الولاية التامة وصاحبها لا يخاف شيئا ولا يحزن بسبب شيء ، وكيف يعقل ذلك والخوف والحزن لا يحصلان إلا بعد الشعور بالشيء ، والمستغرق في نور جلال الله غافل عن كل ما سوى الله فيجتمع أن يكون له خوف وحزن ، وهذه درجة عالية والناس في كل وقت يشاهدون من هو مغرم بمشوقه حتى ينسى ما له وولده ، ومن هو مغرم بقتال عدوه فينسى ولده وماله وقت الانهماك في القتال ، ومن هو مستغرق المهمة في شئون أخرى ، وكلهم على هذا التوال وهذه حال خاصة ليست دائمة .

وكل هذا الذى ذكرناه في الدنيا ، أما أحوال الناس في الآخرة فالأولياء والأنبياء هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فهذا تفصيل للقام



## حكاية

عن إبراهيم الخواص أنه كان بالبادية ومعه واحد يصعبه فاتفق في بعض الليالي ظهور حالة قوية وكشف  
 تام له فجلس في موضعه وجاءت السباع ووقفت بالقرب منه والرديد تسلق على رأس شجرة خوفا على نفسه منها  
 والشيخ ما كان فرعا من تلك السباع ، فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففي الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده  
 فأظهر الجزع من تلك البعوضة ، فقال المرید : كيف تليق هذه الحال بما قبلها ؟ فقال الشيخ إنما حملنا  
 الباردة ما حملنا سبب قوة الوارد النبي فلما زال ذلك الوارد قانا أضعف خلق الله .

وهذه الحكاية سواء أصحت أم لم تصح رمز لحال جميع الناس أنهم إن ورد وارد عليهم أهمهم شغلهم  
 ذلك الوارد ، فرب رجل تقطعه السيوف في الحرب وقد غاب شعوره من خوف أو ذهول ، وهنا في حب  
 الله قد يغيب الشعور للحب أو لمشاهدة جمال غالب في النفس ، وعلى ذلك تفهم ما يتخفى به كثير من الناس من  
 قول ابن الفارض : وبما شئت في هواك اختبرني فاختباري ما كان فيه رشاك

فإن هذا القول بقوله صاحب الإحياء الذي كان قبل ابن الفارض بأكثر من قرن عن بعض الصوفية وقال  
 إن قائمه أصيب بحصر البول ثلاثة أيام فاضطوا أن يجمع الأطفال ويقول لهم قولوا فلان كذاب فلان كذاب  
 ثم عفا الله عنه وشفي

والحاصل أن الناس في الدنيا أقسام :

(١) منهم من يرى أن العالم مادي لا عقل فيه ، وكل ما فيه إنما هو مصادفات وحمق وحزن ، وهؤلاء  
 يحزنون ويخافون .

(٢) مؤمنون بالله ولكن هؤلاء في أكثر الأوقات غافلون عن أنه مطلع ومقدر لكل شيء ، فهؤلاء  
 ربما قلّ الحزن والخوف عند التذكير ولكنهم في أكثر الأحوال مثل غير للتدينين يسرون على مقتضى  
 المادة من الملح والجزع .

(٣) مؤمنون أنبياء صالحون ، وهؤلاء بتكرار ذكر الله والاعتبار يقلّ الحزن عندهم ولكن  
 هذا ليس مطردا فيهم ، ومنهم من تغلبه الحال فلا يخاف ولا يحزن إذ ذاك ، فإذا زالت تلك الحال رجع  
 إلى عادته .

(٤) مفكرون عرفوا أن الله مطلع على كل شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ،  
 وهؤلاء ربما يقلّ الحزن والخوف عندهم ، ولكن ذلك يجوز أن يقف للرء بنفسه على أن الله يعلم كل ذرة  
 ويكون ذلك نصب عينيه يراهين لا تقبل الشك عنده ويقتنع هو بها ، وهذا يكون أقرب إلى السعادة  
 فلا خوف ولا حزن عنده إلا قليلا ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله  
 يسير لكيلا تأسوا الخ » .

والحق أن الإنسان لا يهدأ له بال إلا إذا أيقن وشاهد أن هذا العالم في يد الله وأنه للطلع على صغير  
 الأمور وكبيرها وأنه لا يفعل إلا لمصلحة العبد وأن كل ما يفعله العبد أو يتناهبه كان مقدرًا في الأزل ، متى تم  
 ذلك تمت سعادة للرء في الدنيا قبل الآخرة لأنه أصبح ولا حزن عليه ولا خوف ، وكيف يخاف وهو يتقن  
 أن الله رحيم ، وأن ما أصابه من خير ليس من نفسه ، وما أصابه من شر ليس من نفسه ، وأن ذلك بالقضاء والقدر  
 والله لا يتبدل لكلماته ومقدراته فإنها كلها بقضاء الله ولا يتبدل لتلك القضاء وهذه راحة تامة نسبية ، فإذا  
 انضم لذلك أن يكون للرء متوكلا على الله حقا ، أي قائما بكل الواجبات وكل ما يجب عليه وقام في حياته على  
 السنن للرسوم الطيبي ، فمثل هذا العبد سعيد اليوم وسعيد غدا ، فلا حزن اليوم ولا خوف ولا شقاء غدا

وإلا أن تظن أن التوكل على هذا النمط غير سائغ ، فلتعلم أن التوكل إن لم يتم بكل ما ذكرته فهو مغرور  
وليس بتوكل ، انتهى القسم الرابع .

( الْقِسْمُ الْخَامِسُ )

قِصَّةُ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَإِنلُ عَلَيْهِم تَبَا نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي  
بِآيَاتِ اللَّهِ فَطَلَبِي اللَّهَ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ  
غُمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ \* فَإِن تَوَلَّيْتُمْ \* فَأَسْأَلُكُمْ مِنَ الْأَجْرِ إِنْ أَجْرِي إِلَّا  
عَلَى اللَّهِ وَأَمْرُتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ  
خَلَائِفَ وَأَعْرَجْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ \* ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ  
بَيْنِهِمْ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ بَخَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ  
كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَدِّينَ

الفسير اللفظي

اعلم أن الله لما ذكر في هذه السورة أمر الكفار وأنهم لا يفلحون وأن العزة لله جميعا وأن لكل أمة  
أجلا وأن العذاب آت وما أشبه ذلك من الوعيد تصريحا وتلو بما ناب أن يذكر قصة ، لأن التاريخ أحكم  
في الغوس وأوفق للمقول وأشد وقعا وأعظم وعظما ، فقال ( وإنل عليهم ) يا محمد ( نبأ نوح ) خبره مع قومه  
( إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم ) نظم عليكم وشق ( مقامي ) مكاني ، يعني نفسه ، كقوله تعالى  
« وإن خاف مقام ربه جتان » أي خاف ربه ، أو مقامي : أي مكاني بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاما  
( وتذكري ) إياكم ( بآيات الله فطلبت ) وفتت به ( فأجمعوا أمركم ) فاعزموا عليه : من أجمع الأمر  
إذا نواه وعزم عليه ( وشركاءكم ) الواو بمعنى مع : أي اجمعوا أمركم مع شركاءكم ( ثم لا يكن أمركم ) في قسدي  
( عليكم غمة ) أي لا يكن قصدكم إلى إهلاك مستورا عليكم ولكن مكشوف مشهورا تجاهروا به ، والغمة  
الستر ، من غم إذا ستره ( ثم أقضوا إلي ) ذلك الأمر الذي تريدون بي : أي أدوا إلي ما هو حق عندكم  
من هلاك كما يقضى الرجل غريمه ، أو استنوا ما أمكنكم ( ولا تنظرون ) ولا تهملوني ( فإن توليتم ) فإن  
أمرضتم عن تذكري وضحي ( فما سألتكم من أجر ) من جعل يوجب توليكم عن نصحي ويستدعي النصح  
الحزن على ما يفوتني إذا توليتم وإنما أذكركم لوجه الله وذلك أوقع في النفس ( إن أجرى إلا على الله ) وهو  
الثواب الذي يشيئ به في الآخرة ( وأمرت أن أكون من المسلمين ) من التسلمين لأوامره ونواهي  
( فكذبوه ) فداموا على تكذيبه ( فنجيناه ) من التبرق ( ومن معه في الفلك ) أي السفينة . يقال إنهم كانوا  
ثمانين ( وجعلناهم خلائف ) أي جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض بعد المهالكين ( وأعرجنا الذين  
كذبوا بآياتنا ) بالطوفان ، وقوله ( فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ) تحذير لمن كفر بالرسول صلى الله عليه

وسلم وتسلية له ، وقد تمّ هذا فإنهم حلّ بهم ما حلّ بقوم نوح في الفزوات التناجات فأولئك أغرقوا وهؤلاء  
 قتل منهم قوم والآخرون أسدوا كما أسلم ذرية الدين قتلوا وتمّ الأمر وهو من عجائب القرآن بل هذه أم  
 معجزة فكيف يقول هذا في مكة ثم صبح الأمر ويتم النصر كما أنذرهم وهذا هو العجب العجيب (ثم بشنا)  
 أرسلنا (من بعده) من بعد نوح (رسلا إلى قومهم) كل رسول إلى قومه (جاءهم بالبينات) المعجزات  
 الواضحة الثبته لدعواهم (لما كانوا ليؤمنوا) لما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة تمسكهم بالكفر (بما كذبوا  
 به من قبل) أي بسبب تعوّدكم تكذيب الحق ونجرتهم عليه حتى صار كالطبيعة فيهم ، ثم قال مثل ذلك  
 الطبع (نطبع) أي نغتم (على قلوب المتدين) أي المجاوزين الحد في التكذيب ، انتهى تفسير  
 القسم الخامس .

### ( الْقِسْمُ السَّادِسُ )

قِصَّةُ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا  
 وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ \* فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ \* قَالَ مُوسَى  
 أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ \* قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَا  
 وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَتَكُونُ لَكُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُهَا وَالْأَرْضُ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ \*  
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ \* فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ  
 مُلقُونَ \* فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ  
 الْمُفْسِدِينَ \* وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ \* فَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً  
 مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ  
 لَمِنَ الْمُرْسِفِينَ \* وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ  
 مُسْلِمِينَ \* فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ  
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ \* وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَبُوتَا وَاجْتَمَعُوا  
 يَبُوتَكُمْ قَبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ \* وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ  
 وَمَلَائِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ  
 وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ \* قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا

فَأَسْتَقِيمًا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ • وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمُ  
 فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ  
 بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ • آ لَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ •  
 فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدَيْكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ .  
 وَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُورًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ  
 الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

## التفسير الفظي

قال تعالى ( ثم جتنا من جدم ) من بعد هؤلاء الرسل ( موسى وهرون إلى فرعون وملكه بآياتنا )  
 بالآيات التسع ( فاستكبروا ) عن اتباعهما ( وكانوا قوما مجرمين ) معادين الاجرام واجترأوا على تكذيب  
 الرسل لما انطبع في نفوسهم من القنوب والقسوة . ثم أخذ يفصل ذلك فقال ( فلما جاءهم الحق من عندنا )  
 بتظاهر للمجزات الباهرة ( قالوا إن هذا لسحر مبين ) فائق في فنه واضح ( قال موسى أتقولون للحق لما  
 جاءكم ) هذا استفهام إنكارى وللقول محذوف تقديره إنه لسحر ، ثم قال ( أسحر هذا ) وهو استفهام آخر  
 على سبيل إنكارى يعنى أنه ليس بسحر ، ثم احتج على صحة هذا بقوله ( ولا يفلح الساحرون ) يقول لو كان  
 سحرا لاضمحلت ولم يبطل سحر السحرة ولكنه لم يضحل وأبطل سحر السحرة فهو إذن ليس بسحر  
 ولما لم تستقم دعواهم أنه سحر شرعوا يدعون دعوى أخرى إذ ( قالوا أجبنا لتلفتنا ) لتصرفنا . واللفت  
 والفتل أخوان ( عما وجدنا عليه آباءنا ) من عبادة الأصنام ( وتكون لسكا الكبرياء في الأرض ) أى لللك  
 في أرض مصر وسمى لللك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ( وما نحن لكما بمؤمنين ) بمصدقين ( وقال  
 فرعون اتنوني بكل ساحر عليم ) حاذق في السحر وذلك لمعارضة للمعجزة التى أتى بها موسى ( فلما جاء السحرة  
 قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى ماجتم به السحر ) أى الذى حتم به هو السحر  
 لا ما ساء فرعون وقومه سحرا ( إن الله سيظلمه أو سيظلمه بطلانه ) إن الله لا يصلح عمل للمفسدين  
 لا يثبت ولا يقويه لأن السحر نمويه لا حقيقة له . وقد شرحت هذا للوضع في سورة البقرة فارجع إليه إن  
 شئت ( وبحق الله الحق ) وبشبهه ( بكلماته ) بأوامره . وبوعده الصادق لموسى أنه يظهره أو بما سبق من  
 قضائه وقدره لموسى أنه يظلم السحرة وأن الحق يبلو على الباطل ولو بعد حين ( ولو كره المجرمون )  
 ذلك ( فلما آمن موسى ) في مبدأ أمره ( إلا ذرية من قومه ) إلا طائفة من ذرارى بنى إسرائيل أى إلا أولاد  
 من أولاد قومه لأنه دعا الآباء فلم يجيؤوه خوفا من فرعون ولم يجبه إلا طائفة من أبنائهم مع الخوف كما هي  
 العادة أن الشبان أسرع لقبول الدعوة الصالحة . أما الشيوخ فقد تصلبت فيهم الآراء القديمة ولبسوا ثوب  
 للثة ضافيا عليهم ولم يصل لذلك أبناؤهم كما هو دأب الأمم كلها . فالشبان أول سابق للوطنية والسياسة  
 وللإتلاط العام ، فقوله ( على خوف من فرعون وملكهم ) أى أشرف آل فرعون ( أن يغتفم ) أى أن  
 يظلمهم فرعون وهو بدل منه . فهنا القول تبيان لحال كل دعوة دينية أو سياسية في أول أمرها إذ يكون  
 للثبوت من الشبان ومن الضعاف وهم خائفون وجلون من رجال السياسة وللوك وإعنا أفرد الضمير الفاعل  
 في قوله • أن يغتفم • للدلالة على أن الخوف من اللأ كان بسببه ( وإن فرعون لعالم في الأرض ) لعالم

فيها ( وإياه لمن للسرفين ) في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية . ولما كان الدعاة دائما يشجعون للدعوتين  
ويشتنونهم على اللبدي الجديدة ورأى موسى شبان بنى إسرائيل خائفين وجلين أخذ يشتمهم ويقوى إيمانهم  
ويرمهم أن الله هو مدير الأمور وأمرهم بالنوكل عليه فامتلأوا أمره وطلبوا من الله ألا يبتليهم بتعذيب  
الظالمين وأن ينجيهم برحمته من كيد القوم الكافرين ومن شؤم مشاهدتهم وهذا هو قوله ( وقال موسى )  
إلى قوله ( ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ) وقوله ( توكلوا ) أى تقوا وقوله ( مسلمين ) مستسلمين  
لقضاء الله مخلصين له ( فقالوا على الله توكلنا ) لأنهم كانوا قوما غاصبين فذلك قبل توكلهم وأجاب دعاءهم  
إذ قالوا ( ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين ) موضع فتنه : أى عذاب بعد موتنا أو لاصدنا بعذاب من عندك  
فيقول قوم فرعون لو كانوا على الحق ما عذبوا ويظنون أنهم خير منا فيفتنون بذلك ( ونجنا برحمتك من  
القوم الكافرين ) أى وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستبدونهم ويستملونهم  
في الأعمال الشاقة . ولما كان من عادة الأنبياء وسائر الصالحين أنهم بعد أن يطعشوا قومهم ويسكنوا  
جأشهم يعيشون فيهم روح النظام ويأمرهم بالاستقامة ونظام المدن وحفظ المال العامة أردفه عما يفيد أن الله  
أوحى إلى موسى وهرون أن يجعلا قومهما بمصر بيوتا من بيوتها رجسوا إليها ويتوطنون فيها وأمر الجميع  
أن يجعلوا تلك البيوت مصلى يصلون فيها خيفة من الكفرة من آل فرعون لئلا يظهروا عليهم فيؤذوم  
ويقتوم عن دينهم كما كان ذلك في أول الإسلام وفي أول كل دين جديد من الأديان وأمرهم بإقامة الصلاة  
فيها حتى يأمنوا على أنفسهم ، ثم أمر موسى أن يبشرهم أنهم لا يصل إليهم مكروه وهذا قوله تعالى ( وقال  
موسى ربنا إنك آتيت فرعون ) إلى قوله ( العذاب الأليم ) ولما كان لكل داع من الدعاة نظرة فيمن بلغهم رسالته  
فأارة يدعو بالملاك كنوح ، وثارة رجبوا أن تكون منهم ذرية مؤمنة فيقول « اللهم اغفر لقومي فإنهم  
لا يعلمون » كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وثارة يكون الدعاة بين هاتين الحصلتين كما في هذا المقام ، دعاسيدنا موسى ربه  
قال ربنا إنك أعطيت فرعون وأشرفا قومه ما يميزون به من اللباس وللراكب وعوها كما هو مشهور  
في الشرق والغرب من آثار الفراعنة ، وأنواعا من اللال وتكون عاقبة ذلك أنهم يصلون الناس عن سبيلك  
ويكونون فتنه لمن رآهم من الناس على هذه الحال ، فيارب الطمس على أموالهم واعتمها بحيث لا ينتفضون بها  
بأن يدفونها في القبور والنواويس ويعملوها حليا للولك ولللكات في قبورهم فاجعل يا الله كل همهم في ذلك  
الطمس ، واشدد على قلوبهم : أى قسها واطبع عليها حتى لا تؤمن إلا بدينها القديم ورأيها العتيق من دفن  
الأموال والتزين بها تحت التراب وتحلية الأموات بها وتبقى البلاد للمصرية معرأة من الحراس لأن الحراسة  
يلزمها اللال والبال معظمه يكون تحت التراب فذلك نجد بيوت المصريين القدماء أكثرها من اللبن . أما  
القبور فإنها مزينة بالرسوم والتماثيل وبالذهب والفضة وبجميع الأحجار الثمينة . ولما استمرروا على هذه  
الحال مدة طويلة وقست قلوبهم دخل البلاد ملك الفرس وأهلك الحرث والنسل وذاقت مصر العذاب الشديد  
بسبب العقائد المورثة التي جعلتهم منهكين في دفن الأموال مع الأموات وجعلتهم يبدون الحيوانات كالمهرة .  
ولما دخل [ قميز ] مصر في مدة الأسرة السادسة والعشرين التي هي الأسرة الثامنة بعد خروج بنى إسرائيل  
من مصر لم يساعده على إهلاك البلاد إلا عبادة المهرة فانه أمر بإيقاف صف من القطط بين الجيشين فتعاضى  
العسكر المصريون أن يضربوا آلهتهم وهي القطط واتعض عسكر الفرس على مصر بسبب أن قست قلوبهم  
على عبادة الحيوانات كما قست بدفن الأموال في القبور فذهبت مصر سدى ولم يؤمن المصريون إيماننا صحيحا  
إلا بالدين المسيحي بعد ذلك وإلا بالدين الإسلامى آخر الزمان . فهذه هي القساوة وإنك ترى آثار المصريين  
الآن في القبور وأهل الشرق وأهل الغرب يتقنون عليها ، وتجب من القرآن وحكمه وتجب كيف ذكر الله  
هذا وكيف قال الطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم وكيف ظهر الأمران . فالأموال ملأت متاحفنا

للمصرية و متاحف فرنسا وأمريكا وانكلترا وسائر متاحف أوروبا ، وطمس القلوب ظهر أمره في بقائهم على جهالتهم حتى تصروا لما كانت النصرانية في أول أمرها تم أسلموا إلى الآن .

أليس هذا من العجب . أو ليس من العجب أن الله لم يذكر طمس الأموال فيما أذكر ولم يذكر نجاة الأجسام كما سيأتي إلا في الفراعنة . أو ليس هذا من عجائب القرآن . وكيف يذكر طمس الأموال وقد ظهرت ونجاة الأبدان بغير أرواحها وهذا أمر مشاهد كما سأوضحه قريبا . وكل هذا وذلك في الأرض المصرية الآن واضح . إن هذا له عجب عجيب وهذا هو قوله تعالى « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون » إلى قوله « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » قوله « ليضلوا عن سبيلك » أي ليضلوا الناس عن طاعتك وهو متعلق بآيت ، وربنا نكرر للأول وللأخ في التضرع وهذا كقول « إنما على لهم ليزدادوا إيمانهم » والطمس على الأموال هنا معناه دفتها وعدم ظهورها والانتفاع بها وهو المعروف الآن . وليس ما قبل في بعض التفاصيل إنها مسخت حجارة بحق لأنه ظهر خطؤه الآن والقرآن معجزة باقية إلى آخر الزمان ، وقوله « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » جواب للدعاء والمراد بالعذاب الأليم ما أحاط بالأمة المصرية من العذاب الذي حل بها من العقاب المنحرفة عن سنن دينهم الأصلي الذي كانت فيه العبادة على وجهها فطمسوا على الأموال وعبدوا الأصجار والحيوانات فكان ذلك سببا لدخول الأمم بلادهم كما تقدم وهذا هو العذاب العام ولم يؤمنوا بدين خال من الوثنية حتى جاء المسيح فاتبعوا دينه قبل أن ينسخ ثم جاء الإسلام فاتبعه أكثرهم ولم يكن ذلك إلا بعد أن ذاقوا العذاب الأليم من الأمم المهتة من الفرس واليونان والبطالسة والرومان فهذا هو العذاب الأليم العام ، وهناك عذاب أليم خاص وهو ما حصل لفرعون وجنوده لما غرقوا في اليم ولم يؤمن فرعون حتى رأى العذاب الأليم بالترق ولم ينفعه إيمانه كما ستراه قريبا . ولما كان هذا الدعاء واردا من موسى موافقا لما في علم الله وأمره للطرود في الأمم من أنها تسير على نوااميس ثلاثها وتوافقها ومن نوااميس المصريين ملازمة الثنن في عبادة الأوثان ودفن النقوش والرسوم والأحجار الثمينة والذهب والفضة أردفه بما يفيد الإجابة (فقال قد أجيبت دعوتكما) يعني موسى وهرون ( فاستقيا ) فائتينا على ما أتينا عليه من الدعوة وإزام الحجة ولا تستجيلا فان ما طلبنا كأن ولكن له وقت معلوم . ويقال إنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة ( ولا تبغمان سبيل الدين لا يطمون ) أي طريق الجهة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعده الله تعالى فليس في الأرض من داع لأمر عظيم إلا إذا كان واقعا بنجاح دعوته وظهور أمره . فأما الذي لا تامة له بمستقبل أمره فانه لا نجاح له في عمله ولا ثبات له في دفعوته . ثم أخذ بشرح العذاب الأليم الخاص للتقدم فقال (وجاوزنا بين إسرائيل البحر) أي قطعنا بين إسرائيل البحر الأحمر وجوزناهم فيه حتى بلغوا الشط حافطين لهم . وقرئ « جوزنا » كضف وضاعف ( فأتبعهم فرعون وجنوده ) أي لحقهم وأدركهم (ضيا وعدوا) أي ظلما وعدوانا : أي باغين وطادين أو للبنى والعدو (حتى إذا أدركه الترق) لحقه (قال آمنت أنه) أي بأنه ( لا إله إلا الله آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ) في وقتها . قال ابن عباس لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل ، والإيمان والتوبة عند معاينة لللائكة والعذاب غير مقبولين وفي آية أخرى « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » وفرعون ذكر الإيمان والإسلام واعترف بهما ولم ينفعه ( الآن ) أي قال الله أو لللائكة الآن تتوب وقد أضمت التوبة في وقتها وتكبرت عنها وآثرت دنياك الفانية ( وقد عصيت قبل ) كعرت بالله ( وكن من للفسدين ) في أرض مصر بالقتل والترك والدعاء لتير الله وعبادة الجبل للسمى [ جبل أيس ] وبعض الطيور ( فاليوم نتجيك ) بعدك بما وقع فيه قومك من قهر البحر ونجسك على نجوة من الأرض ليرك بنو إسرائيل وغيرهم ( بيدتك ) في موضع الجبل : أي كاملا سويا ( لتكون لمن خلفك ) لمن وراءك من بنو إسرائيل وغيرهم من أمم الشرق والغرب

(آية) أي عبرة وموعظة ليعرف الناس أن أعظم اللوك قدرا وأجدم جيتا وأعظمهم ذكرا وأرقهم منزلة وأسماهم مقاما وأرفعهم مجدا قد تخلفته للنون ونزل به الهون . وها هوذا في الأحد مدفون وفي الصندوق مقفلا عليه . وأيضا يتر الناس بالقرون الحالية والأمم الماضية فيعرفون صناعاتهم وعلومهم ومعارفهم . ومن عجب أن القرآن لم يذكر هذا القول في أمة من الأمم ولا في جيل من الأجيال إلا في قدماء المصريين فانهم هم الذين سخرهم الله بقائدهم التي أودعها في نفوسهم وربطها ربطا وثيقا في قلوبهم أن يحفظوا أمواتهم في صناديق مقفلة ، وليس يعرف أحد من المسلمين معنى قوله تعالى « فاليوم نتجيك بيدك لتسكون لمن خلفك آية » إلا إذا حصر إلى بلادنا المصرية وشاهد جثث اللوك في صناديق هجيبة الشكل بدية الصنع وهي محنطة منذ ثلاثة آلاف وأربعة آلاف وخمسة آلاف أو ستة آلاف سنة وعليها أكتافها لم يبل منها ثوب ولم يفتت عضو من الأعضاء فيها ولم يكن ربما ، فهذه الجثث الباقية التي نشاهدها في متاحفنا المصرية لاسيا ما يتجدد حديثا كقبرة [ توت عنخ آمون ] التي أشرنا إليها في سورة البقرة عند قوله تعالى « محبوبهم تحب الله » شواهد ناطقة وحجج قائمة على جمال الله عز وجل ونعمه التي أغدقها على الأمم السالفة والأجيال البائدة ، وكيف أعطاهم هندسة وعلما ونظاما هجيبا غفل عنه المحدثون ، وكيف نظقت آثارهم بما لله من مجد وفضل ومن على الأمم القديمة ، وكيف عجز اللاحقون عما أنشأه السابقون ، وكيف ألم الله قدماء المصريين أن يبقوا هذه الجثث ذخيرة لنا وآية قائمة على جمال الله وجلاله ، وكيف كان ذلك منفعة للأمم الحديثة ودرسا لعلمائها أنهم مسبقون بأهم أعظم قدرا منهم ، إن هذه الآية من بدائع القرآن، وعلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يدرسوا علوم قدماء المصريين ، أليس من العيب عليكم أيها المسلمون أو ليس من العار المتجمل ، أليس من أكبر اللصائب التي حلت بأمة الإسلام أن الفرنجة هم الذين يتسابقون إلى تعلم لغة القوم ويمنون علينا أنهم أعلم منا بها ، أو ليس من المهزول للبيكي أن أمة الإسلام هي التي تجهل قدماء المصريين الذين قال الله فيهم « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

فيا ليت شعري لم ذكر هذه الجملة هنا ، وكيف أوردتها في هذا المقام ، وكيف يقول إن كثيرا من الناس غافلون عن آياتنا لا يفكرون ولا يعتبرون بما تقدم ، أليس ذلك لعظم الأمر وأن قدماء المصريين سيكون لهم شأن وأنه بهذا الآية به للمسلمين إلى ذلك .

وأنا أقول : أيها المسلمون ، أما أن لكم أن تدرسوا الأمم القديمة ، أما أن لكم أن تدرسوا علوم الأمم القديمة والحديثة ، أما أن لكم أن تدركوا مجدكم وشرقكم ، وكيف يسبقنا إلى علمهم أهل أمريكا وأهل ألمانيا وغيرهم ، إن ذلك هو الضلال الكبير والحزى العظيم واللصاب الجلال .

يا أمة الإسلام ، قد شبعتم نوما فاستيقظوا ، قد أدرككم الفرق فأفبقوا ، قد طحككم الدهر بكله فانتبهوا .

فها هو ذا كلام الله ، وهذه حوادث أيامه قد أساطت بكم وفيه عاقبة الأمور .

واعلم أن كل أمة لها مبدأ وجهاد للسكال ، ثم تناقص واختلال ، فهكذا بنو اسرائيل جاءهم موسى فهدوا حتى خرجوا من أرض مصر ونجوا وتم أمرهم واستقامت من السنين ثم اختلفوا في دينهم وهذا قوله تعالى ( ولقد بقونا ) أنزلنا ( بنو اسرائيل مبقوا صدق ) منزلا صالحا مرضيا وهو [ الشام والقدس والأردن ] لأنها بلاد الحصب والخير والبركة ( ورزقناهم من الطيبات ) أي تلك للنافع والخيرات التي رزقهم الله بها ( فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ) فما اختلف هؤلاء الذين فضلنا بهم هذا القمل من بنو اسرائيل إلا من بعد ما قرءوا التوراة وعلوا أحكامها ( إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ) فيجز الحق من اللبطل بالأنجاء والملاك .

## ﴿ لطيفة في موازنة هذه القصة بأحوال الأمة الإسلامية ﴾

اعلم أن هذه الآيات أفادت ما يأتي :

- (١) إنكار قوم فرعون لدعوة موسى وادّعاءهم أنها سحر .
  - (٢) احتجاجهم أن هذا فيه هدم المجد القديم وهو مجد الآباء ، فخالفتهم ذهاب فضلهم واحتراف عن سنتهم .
  - (٣) أنكم تبهون أنه يكون لكم لللك في البلاد .
  - (٤) إحضار السحرة ومعارضة معجزة موسى سحر الساحرين .
  - (٥) ذكر إيمان طائفة من أولاد بني إسرائيل .
  - (٦) أن هؤلاء خائفون من فرعون وقومه أن يذبوهم .
  - (٧) وعظ موسى لبني إسرائيل أن يتوكلوا على الله .
  - (٨) موافقتهم له وطاعتهم وتوجههم إلى الله بالدعاء .
  - (٩) أمر الله لموسى أن يحض قومه على اتخاذ المساكن وجعلها مصل .
  - (١٠) تبشيرهم للمسلمين .
  - (١١) دعاء موسى على بني إسرائيل بطمس أموالهم وبقاتهم كافرين .
  - (١٢) استجابة الدعاء .
  - (١٣) عبور بني إسرائيل البحر .
  - (١٤) اتباع فرعون لهم وغرقه هو وجنوده .
  - (١٥) نجاة يده وحكمة ذلك .
  - (١٦) استحكام أمر بني إسرائيل ورفيقهم .
  - (١٧) وقوع الاختلاف فيما بينهم .
- واعلم أن هذه الصفات التي لحقت بني إسرائيل هي بينها التي لحقت بأمة الإسلام ونبينا صلى الله عليه وسلم .
- (١) فقد دعا الله فكذبوه .
  - (٢) وظنوا أنه يريد الملك فرضوا عليه أن يملك أمرهم ويترك ذم آلهم ، وأبضا أنه يريد هدم ما كان عليه أبائهم .
  - (٤) آذوه كثيرا وكادوا له كيدا عظيما .
  - (٥) ما آمن به أولا إلا الضغناء .
  - (٦) كانوا خائفين من أهل مكة كصهيب وبلال وغيرها حتى هاجر قوم إلى الحبشة وهاجر الجميع إلى المدينة .
  - (٧) وعظ النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالتوكل .
  - (٨) موافقتهم له وطاعتهم .
  - (٩) بنى النبي صلى الله عليه وسلم مسجدا في المدينة واتخذ المسلمون مساجد كثيرة وسكنوا بيوتهم وصلوا فيها وفي مساجدهم .
  - (١٠) في أكثر القرآن بشارت للمؤمنين .
  - (١١) دعا النبي صلى الله عليه وسلم لقومه فقال « رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .



(١٢) استجاب الله دعاءه ففتح مكة وأسلم قومه وذرّيتهم للآن .

(١٣) نصر المسلمين في زمن النبوة وبعده .

(١٤) هلاك الكافرين في كل وقعة .

(١٥) نجاة المسلمين في كثير من الوقائع .

(١٦) استحكام أمر المسلمين وعظمتهم في القرون الأولى ورفعتهم .

(١٧) اتلاف المسلمين وتنازلهم منذ (٨) قرون فهم في اضطراب سياسي عظيم .

فهذا التاريخ يضارع تاريخ الإسلام وقد ذكر هنا ليكون عبرة للمسلمين ودرساً لهم ليتمطؤوا له .

لطيفة في قوله تعالى « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون »

تقدم أي قررت في هذه الآية أنها لا تحض على فهم علوم المصريين والبحث في أطوارهم وأن الله لم يذكر أمة بأن أبادها عبرة لمن بعدهم وأتبعها بحملة كهذه إلا المصريين ، فلنذكر من آيات الله التي ألهمها للمصريين القدماء ليكون ذلك ذكرى للمسلمين وعبرة وليجروا في البحث عما دفنه الله في الأرض وما أظهره في الأمم حتى يعرف المسلمون كل شيء بحيث تختص كل طائفة بمباحث خاصة يتقدمون في معرفتها ، وهذه العلوم كلها فرض كفاية ، فلا تقل لك [ أربع نبت ] من علومهم :

النبتة الأولى : محاوراة فلسفية بين مصري ورومي

وجدت في قرطاس محفوظ في متحف (برلين) وإليك ترجمتها من كتاب الحضارة القديمة :

(١) قالت الروح لصاحبها ليس في الموت فزع للإنسان .

(٢) أقول لنفسي كل يوم إنه كرجوع الصخرة إلى المرعى حين يخرج وبذهب إلى الساحة بعد تألمه

هكذا حال الموت .

(٣) أقول لنفسي كل يوم كأنه استنشاق بشذا العطار أو كالجلسة في بلد السكر ، هكذا حال الموت .

(٤) أقول لنفسي إنه كجري تمر به مياه النيل الفائض .

(٥) أو كرجل دخل الجندي ولم يثبت أحد أمامه ، هكذا حال الموت .

(٦) أقول لنفسي إنه كرجل ذهب في ضياء القمر ليصيد الطير بالشبكة فوجد نفسه في إقليم لا يعرفه ،

هكذا حال الموت اه .

#### النبتة الثانية

اعلم أن من أعجب معجزات القرآن هذه الآية التي نحن بصددتها ولم يكن للتقدمون من أمتنا الإسلامية ولا قدماء العرب ولا المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم يعلمون شيئاً عن الجثث المصرية ولا عجائب علومهم ، ولذلك تجرد للفرس يذكرون أن أمواتهم مسخت حجارة ، أفلا تعجب للقرآن كيف ظهر في هذا العصر العجيب العجائب من الجثث المحنطة والعلوم الخفية والحكم المنظمة التي أشار لها القرآن بقوله « لنكون لمن خلقك آية » وأفاد أن أكثر الناس غافلون عن العجائب .

فانظر كيف ظهر في هذا الزمان أيام كتابة هذا التفسير أعظم الكدور المصرية وهو كوز [نوت بنخ أمون] وقد كشفه رجل يقال له ( هوارد كارتير ) بعد أن بحث ٣٢ سنة في البلاد المصرية مجدداً في ذلك وقد أحدث ظهوره دهشة إعجاب في العالم كله .

وفي يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ فتح الباب المختوم بنجم الملك لبعض الغرف ووجد بالفرقة الثالثة صندوق بديع داخله جثة الملك وجواهره الثمينة وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالحجارة الكريمة ويبلغ طوله نحو

سنة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار تقريبا ، ووجدت العرقة الراجعة مملوءة بأثاث من أنظر الفاخر مرتبة ترتيبا حسنا يفرق منظرها في جهاتها وعظمتها ما وجد في العرفتين الخارجيتين ، وتوافد عشرات الألوف من أوروبا وأمريكا على القطر المصري للتمتع بمشاهدة هذه الآثار الثمينة ، وفوق ذلك قد اهتمت دور الصناعة في أوروبا وأمريكا للحصول على نماذج للأزياء المصرية الأثرية للاباس وأثاث المنازل والأواني ليصنعوا نظيرها وهم يضحون عشرات الألوف من الجنيهات في سبيل الحصول على هذه النماذج وبدأت السيدة القرييبة في مدن أوروبا وأمريكا متجملة بلباس ملابس قدماء المصريين في عهد [توت عنخ أمون] .

وفي صباح ٨ مارس سنة ١٩٢٣ أبصر المارة في شارع (فت أفينو) وهو أعظم شوارع نيويورك ثلاث سيدات يسرن معا وقد لبسن من قمة الرأس إلى أخمص القدم ثيابا مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمة واحتدين أحذية على شكل (الصندل) فكان ثيابهن هذه موضع إعجاب وقبلة أنظار الجميع وهكذا في انكلترا وغيرها ، وقد اشتد الإقبال في أوروبا وأمريكا على درس تاريخ مصر وحضارتها القديمة ومشاهدة آثارها الكثيرة المنتشرة في المناحف ، فالتاس يقبلون زرافات على المناحف التي فيها آثار مصرية . وقد أعلق المدفن يوم الاثنين ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ على أن يفتح نائبا في الحريف المقبل ، وهذه الليلة التي أكتب فيها هذا المقال ٢٧ من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ لم يفتح القبر إلى الآن وسيظهر بعد فتحه العجب العجيب .

أفليس هذا من سرّ قوله تعالى على سبيل الإشارة والتلخيص ؟ « لتكون لمن خلفك آية » فهذه آيات الله التي ظهرت لعباده آيات الصناعة والتطريز والزخرفة والنقش والهندسة والبناء ، وكذلك الاعتبار والاعتناظ وتذكر الموت والبلى ، كل ذلك ظاهر اليوم لجميع الأمم ، فعلى المسلمين أن ينظروا جمال الله في كل شيء سبحانه وتعالى جل جلالا وعزّ كلالا .

#### التبذة الشائكة

أقدم كتاب في العالم تصانح الحكيم المصري القديم [ آني ] لتليذه [خونسو هتب] في عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم [توت عنخ أمون] أي منذ ٣٣٠٠ سنة تقريبا وهي ٤٨ نصيحة نقلت عن ورقة بولاق البردية التي - ثمر عليها [ماريت باشا] مؤسس مصلحة الآثار المصرية في أحد مقابر الدبر البحري بطيبة بالأقصر سنة ١٨٧٠ م ، وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنكليزية وصميت [ ورقة بولاق ] لأنها حفظت بالمتحف المصري في وقت أن كان في بولاق ، ولأذكر لك بعض هذه الحكم تيمنا بالقرآن القائل « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ولأذكر لك ما اخترته منها اختصارا للقول :

(١) أخلص لله في أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلاحظك عنايته فإنه يهمل من تواني في خدمته .

(٧) من انهم زورا فليرفع مظلمته إلى الله تعالى فإنه كفيل بإظهار الحق وإزهاق الباطل .

(٨) اجعل لك مبدأ صالحا وضع نصب عينيك في جميع أحوالك غاية شريفة تسمى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة ونهي لك مكانا في الآخرة فإن الأبرار لانزعجهم سكرات الموت .

(٩) صن لسانك عن مساوي الناس فإن اللسان سبب كل الشرور ، وتحرم محاسن الكلام واجتنب قبائحها فإنك ستسأل يوم القيامة عن كل لقطة .

(١١) لاتهمل الترحم على والديك ، وهنئ قمت بذلك قام به لك ولدك .

(١٢) اعين بأبنائك كما اعتنت بك أمك ولا تنضبها لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك  
 (١٥) إذا كنت قوى الإرادة فلا تدع المرأة تقلسط عليك .  
 (٢٠) النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية .  
 (٢٥) إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها  
 (٢٨) لا تبحر بكلامك شعور الناس فيسئان بك  
 (٣٤) ليست السعادة بالثروة وحياسة الأموال ، إنما هي في استتارة العقول بالفضيلة والتخلق بالفتاة  
 والرضا والصفاء .

(٣٨) لا تستسلم لليأس والقنوط مهما قام في سبيلك من العقبات والشدائد .  
 (٤١) لا تشق بالناس المهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالإخلاص فإنهم  
 يجرؤنك إلى الخراب العاجل .  
 (٤٦) تطلق مع ضيفك وحادثه ببشاشة ولا تسمح له بالتطرف في الحرية حتى يخرج عن حدود  
 الاحتشام .  
 (٤٨) لا تكن شرها فإن الإنسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يحملها طريقا للحياة  
 الأبدية . انتهى .

هذا هو الذي اخترته من حكمه ، وهناك ضاع أخرى لرجل يقال له (قائمه) وآخر يقال له (بتاح حنپ)  
 وهذا الأخير قد وجدت له (٤٤) لوحة قد نقشت عليها حكمه ، ولأذكر لك منه ثلاثة ألواح  
 [ لوحة ١٠ ] إذا تواضعت امتثالا لرئيس فليكن سيرك مع الله حسنا جدا ، فالسعد لا يأتي إلا عن  
 إرادته وليس هناك أحكام سوى مشيئته .

ومما جاء في اللوحة الرابعة عشرة [ تمسك برأيك متى كان الحق يدك ، إن الذي يملك نفسه خير ممن  
 غمره الله عطايا ، لأن الرجل الذي ينقاد لهواه يكون تحت سلطان امرأته ، بين منهاج سلوكك من  
 غير كلام ] .

وجاء في اللوحة (٣٤) ليكن وجهك باشا ماعتت .

#### النبذة الرابعة

كان قدماء المصريين يعتقدون بقاء النفس وكانوا يرون أن الإنسان يكون أمام محكمة مكونة أمام الإله  
 أوزيريس ٤٢ قاضيا ويتولى الرئيس عملية وزن القلب ووضع في كفة لليزان والعدل في الكفة الأخرى  
 فإذا رجحت الكفة الأولى أوساوت قبل التوفي في مملكة أوزيريس ، وأهم هذه المملكة عندهم الزراعة  
 فتقوم الأرواح بحرق الأرض وبذرا الحلب وجنى محصول النيرة الساوي وهي أحسن وأجمل من ذرة الأرض ،  
 وفي تلك المملكة تكون الأرواح في المجاري الساوية ويجلس تحت وارف ظلال الأشجار الباسقة وتلب  
 الأنساب التي نهواها ، والإنسان يكون له جسم روي يبدأ في الوجود من وقت أن يوضع في القبر ويأكل  
 للتوفي خبزا لا يتفنن وشرب خمرا لا يفسد وملابسه أردية بيضاء ويجلس على عرش وسط الملائكة الذين  
 يجلسون حول شجرة الحياة ويلبس التاج الذي يعطيه له الإله ويجيش مع الإله (رع) إلى الأبد .

وعملية التحنيط المعروفة عند قدماء المصريين التي أشار لها القرآن بقوله « فالיום نتجيك بدنك »  
 محفوظا كسائر قدماء المصريين إنما اخترعوها سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد وبقي إلى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد لاعتقادهم  
 أن النفس بعد أن تمر في أدوار كثيرة تمود تتحل في الجسم فلذلك كان التحنيط ، ولهم قصة خرافية وهي أن

(أوزوريس) كان يحب أمته المصرية فعلها وفتح البلاد الأخرى بغير حرب ومعه (نوت) ولكن أخوه (سيت) غار منه فصنع له صندوقاً وأهداه له على شرط أن يكون على مقدار جسمه ، فلما دخله أفضله عليه وهو متحد مع الضباط وألقاه في النيل فبحث عنه زوجته (إيزيس) وعثرت عليه في البحر وخبأته في غابة كانت أشجارها مشكائفة وذهبت تبحث عن ابنها (حوريس) في مدينة (بوتو) جنوب البرلس في الدلتا ، ثم إن (سيت) عثر على الصندوق وهو يسطاد في ضوء القمر فقطعه ١٤ قطعة وبعثها فبحث عنها (إيزيس) وجمعتها إلا قطعة واحدة وركبتها في مواضعها من البدن وحنطت اللابسة جسمه وصنعوا له تمائم ولقائف ، فهذا انتقل من القبر إلى السماء وله فيه قصر عظيم وأصبح ملك (أوزوريس) هو الذي يصعد إليه الأرواح الطاهرة بعد الموت ولا بد من التحنيط وعمل السحر والطلاسم ، هذا هو السبب في التحنيط عندهم اه .  
فبحان من جعل الحرافات سبباً في الملوم النافعة للانسان وحفظها على مدى الزمان ، والحمد لله أولاً وآخراً .  
ويقال إن فرعون موسى عثر عليه منذ سنين في جهات الوجه البحري في مديرية الشرقية ، وعسى أن عثر على هذا النص فألحقه بهذا الكتاب ، والله للستعان .

فرعون موسى قد وجد بدنه وهو بالمتحف المصري

وبعد كتابة ما تقدم بيومين اطلعت على ما كتبه أستاذنا في علم الآثار المصرية الأستاذ أحمد بك نجيب أمين ومفتش الآثار المصرية في [ اللوسوعات ] في أعداد مختلفة ، فلأخص ما كتبه بناية الاختصار قال :  
إن رمسيس الثاني (سيروستريس) هو الذي ربي موسى عليه السلام . وأن ابنه (ريان با) وهو المعروف باسم (منفطه) هو الذي غرق في البحر وهما معا من الأسرة التاسعة عشرة ، قال وقد أجمع العلماء أن فرعون (منفطه أوريان با) هو التريق والحمد لله على وجود جثته الآن ، وأما العبرانيون فإنهم دخلوا مصر أيام احتلال العماليق لها وأقاموا في وادي غسان المعروف الآن برأس الوادي بمديرية الشرقية ولفظة (فرعون) كانت اسماً عاماً لملوك مصر كلفظة (قيصر) علم على كل من ولي الروم ، و (كسرى) لسكل من ولي العجم ، و (نجاشي) لسكل من ولي الحبشة ، و (أمبراطور) لسكل من ولي رومه ، وفرعون أصله (إبرعا) أو (فريا) معناه (الدار العظيمة) لأن (فر) معناها الدار و (عا) معناه العلية أو الجليدة أو العظيمة كما يقال الآن (الباب العالي) أو (الباب المهيأوني) ، قال : وبعد رمسيس الثاني الذي ربي موسى و (منفطه) أو (ريان با) الذي غرق في البحر لم يذكر في الآثار شيء عن العبرانيين ، قال وإني في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٩٠٠ فحنت تابوت (فرعون) بشهد من علماء الآثار وقسته فكان طوله من قمة رأسه إلى قدمه متراً واحداً واثنين وسبعين سنتياً وعرضه عند الأكتاف أربعون سنتياً ، ومن قمة رأسه إلى الكتابة التي على صدره ٤٥ سنتياً ، قال ولم أر وجهه لأنه مسجى بأكفان من قماش الكتان يضرب لونه إلى الصفرة الداكنة من تأثير الحنط عليه ، وتابوته مصنوع من قماش كالورق القوي خال من الكتابة وهو لاشك أنه ليس تابوته الأصلي ، ومعنى (ريان با) شمس العلم أو روح الشمس ، وقال أستاذنا أيضاً : إن رمسيس الثاني استعمل العبرانيين في بناء قلاع كبيرة وعمل طريق بحر بوسطها يخرج من مدينة رعسيس ويسلك إلى الشرق مع الجنوب حتى يدخل قسم آسيا ، وهناك قلعة باسم فرعون موسى نفسه ابن رمسيس الثاني وهي مذكورة في ورقة من البردي أرسلها أحد العمال إلى رئيسه يطله بما فعله ، وهاك نصها [ مما أسرته به خاطر سيدي هو أني أخبره أنا أعطينا الحرية التامة إلى قبائل الأعراب الآتية من إقليم (اليدوم) تمر بناية الحرية من قلعة (خانوم) للملك (منفطه) وهو فرعون موسى كما تقدم ، وهناك حجر محفوظ بالمتحف المصري مكتوب في السنة الخامسة من حكم هذا الملك عليه لفظة (إسرائيلو) أي الإسرائيليون ، وهاك ترجمة بعض عباراته (وقيلة خاني سلمت فلسمت ، وقيلة كتعان قد

سجنت على أتبع كيفية ، وأهل عسقلان أحضروا أذلاء ، وأهل غزة وما حولها جاءوا أسارى ، وقبيلة (أباوامين) انعدمت ، وأمة (إسرائيليو) هلكت وما عاد لديها حبوب للأكل ، وقبيلة خارو صارت كأرملة حقيرة بمصر [ اه .

وقال رحمه الله في سبب ادعاء الملك (منفته) الألوهية : إن هذه عادة هؤلاء ، الفراعنة جميعا ضعافا كانوا أم أقوياء . قال وانظر إلى مشكلة المطرية تجدد عليها ماصورته [ الجليل حياة كل مولود ملك الصعيد والبحيرة دام بقاء صاحب التاج معطى الحياة لسلك موجود الإله العظيم ابن الشمس الخ ] وهذا المدوح هو الملك (أوزرتسن الأول) في العائلة الثانية عشرة وهو صاحب هذه المسلة ، قال واقعد كان (رمسيس الثانى) والد فرعون مصر أول من سخر العبرانيين في الأعمال فبنوا له مدينة رعحميس ومدينة بيتوم ، وهالك نص ورقة ردية محفوظة في بلاد الإنجليز بقلم رجل مصرى يسمى (كابيزاك) أرسلها إلى رئيسه للدعوة (بى كانبناح) يعلمه أنه أعقد أمر الملك سيده وصورنها [ قد أطعت أمر سيدي رعحميس وفعلت ما أمرنى به حيث قال لى أعط قبحا إلى العساكر الخفراء وإلى العبرانيين الذين يغفلون الحجارة لبناء الحصن العظيم بمدينة رعحميس الذين هم تحت رئاسة (أمنان) رئيس فرقة المحافظين على العمال فكنت أعطيهم قبحا فى كل شهر حسب الإرادة السنية التى أمرنى بها سيدي ] وعلى ظهرها مکتوب [ هذا حساب البنائين الذين أدوا الأعمال المفروضة يوما فيوما بدون انقطاع عن العمل ماعدا الرجال الذين يصنعون الطوب ] ومدينة رعحميس اختالف العلماء فى مقرها ؛ فقبل إنها مدينة (سان الحجر) بمركز فافوس بمديرية الشرقية ، وقال أستاذنا بدار العلوم المفتش للذكور إنها فى مكان أطلال (المسحوظة) بالشرقية ، فالمسحوظة المذكورة هى رعحميس ، وقد وجد اسم رعحميس على لبنها (طوبها) وهذه المدينة أجمل المدن المصرية وقد وجدت ورقة من البردى محفوظة فى بلاد الإنجليز فيها قصيدة لشاعر مصرى اسمه (بنينا) يحجر أحد الأمراء السمي (أمنم ايت) وكان الملك رعحميس دعاه لوليمة يوم الفراغ من بنائها ، قال [ لما دخلت مدينة رعحميس وجدتها فى أحسن حال ما لها مثل فى عمارات (طيبة) ولا عمارات (جبل السلسلة) فهى مدينة النعم وحقولها مملوءة بالأشياء اللذيذة وللأ كولات الفاخرة وحيضاتها مملوءة بالسماك والطيور اللاتية تدرج على غدرانها ومروجها خضرة وسفن البحر تأتى إلى تمرها وتكثر فيها الخيرات طول السنة وينشرح صدر من يقم فيها إذ ليس بها من يعارض ولا من ينازع والصنار والكبار فيها بيان وترى فيها الجوارى الحسان جوارى الملك قائمات على أبوابها والفرح عاما فى جميع أرجائها ، عشت يارميس فى صحة وعافية ] .

وقال بروكش بأشا : إن موسى عليه السلام تربي فيها حيث كانت محل إقامة الملك ، أما تحت مصر فكان فى مدينة (طبة) أو (طيوه) ومكانها الآن الأقصر أو الكرنك والقرنة ومدينة أبو بدمرية قانا اه .  
وذكر أستاذنا أيضا فى تلك المقالات ما وجد متفوشا باللغة البريائية على جدار معبد الكرنك مما يختص بتعذيب الأسرى ، قال (سطر ٥) لما كان الملك (منفته) هو الذى يحطى الحياة إلى قومه حضهم على ترك الحمول (سطر ١٣) أتى (مرابو) ملك اليبين بن ديد بجنوده المؤلفة من المشاوشيين والسكهاكين والسرديانيين والشكلاشين وهجم على مصر (سطر ١٦) وجمع ملك مصر رؤساء عساكره وقال لهم اسمعوا أنا الملك (منفته) لخارس ، أنا رب مصالحكم أنا أبوكم . هل فيكم من يمانلى ويحبى أولاده مثلى ؟ ها أنتم ترتعشون كالوز أمامى (سطر ١٩) ها هو العدو دخل بلادنا هل يستطيع النيل أن يردنا عنا ؟ كلانم كلا (سطر ٢٢) مرادى الآن قتل الأعداء وسجهم على بطونهم كالسماك ولا عبرة برئيسهم الذى صورته كهورة الكلب (٢٥) أنا الذى يبدى الإعطاء والمنع والهدايا تحت حكمى ، أنا (منفته) القاهر ملك مصر (سطر ٣٣)

واندفعت عساكر المشاة مع عساكر العربات على العدو فأغرقوه في بحر الدم (سطر ٤٦) أما عساكر مصر وشبانها فنادوا يسوقون حميرا تحمل القنائم والأحبال المقطوعة من العدو مصنوعة حزما وموضوعة في جلود (سطر ٥٢) ٦٣٥٩ لبيون مقتولون وأحضرت أحاليهم (سطر ٥٦) ٦١١١ رجلا من الأعداء قطت أحاليهم بحضرة الملك (انظر لهذا التوحش) . (سطر ٥٧) ٢٣٧٠ أيد مقطوعة أحضرت لدى الملك (سطر ٥٩) ٩٣٧٦ أسرى .

ورجع الملك إلى طيبة في موكب حافل ، وقد وجد مكتوبا في ورقة محفوظة مانسه : ما أعظم عودتك أيها الملك إلى (طيبة) نظلك سحابة النصر وعربتك تسحبها الرجال ، أما الرؤساء للملوبون في شون أمامك التهقري وأنت تسوقهم إلى حنهم اه .

وإنما قلت لك هذا لتعرف كيف كان فرعون موسى يعذب الأمم المنلوية ؟ وكيف سخر بني إسرائيل كما سخرهم أبوه . وكان يفهم قومه أنه سطر الحياة وفي يده كل شيء . وهذا ما جاء في القرآن من قوله « أنار بكم الأهل » وغيره ، وهكذا تعذيب بني إسرائيل المتكرر في القرآن اه .

#### نبذة خامسة ردًا اعتراض

لعلك أيها القارئ المطلع على هذا الكتاب تقول كيف أطلت في هذا المقام ؟ ولماذا تذكر حكم القوم تارة ومظالمهم تارة أخرى ؟ ولماذا تكرر هذا القول ؟ أتريد أن تعلمنا عنهم ؟ أوليس القرآن بكاف ؟ أو ليس ديننا بيننا ؟ أقول : على رسلك ولا تلم .

اعلم أن من يظن أن قراءة القرآن وفهم معانيه القريبة والابتصار عليها يكفي للسليم مخطئ . كل الخطأ بل جاهل كل الجهل ، قل لي برك إذا سمعت الله يقول « وقد على الناس حج البيت » أفلا تسمى إلى الحج أم تكنتي عنهم الآية ؟ فلا إخالك إلا قائلًا لا بد من الحج .

أقول : هكذا يقول الله هنا « فاليوم نتجيك » يانفطه (ريان با) ونحفظك في أماكن بالبلاد المصرية ونأمر بتحنيطك وبقائك للساحيين والقادين والرائحين « لتسكون » أنت وأمثالك من الفراعنة « لمن خلفك آية » ترعدم إلى العلوم والمعارف والانتماظ بذهاب القرون ويقف على صنائع قومك وعلومهم أهل أمريكا وآسيا وأفريقيا وأوروبا ، والمسلمون أيضا متى قهقوا وعقلوا « وإن كثيرا من الناس » في الشرق والغرب « عن آياتنا » في بلادك وقومك وعلومك ومعارفكم وسبركم وغيرها مما خلقنا في السموات والأرض « لتأفلون » والفتلة موجبة الحرمان كما سيأتي في قوله تعالى « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » فأما إذا لم يفهم الناس واطلموا على علوم الأوائل كقدماء المصريين وشاهدوا في الحكم السابقة وغيرها أن الله قد أزل عليهم منذ سبعة آلاف سنة أنه وزن الأعمال وأنها إذا ثقلت نجا صاحبها وإذا خفت لم ينج ، وأن الرجل المظالم إذا دعا الله ينجي ، وأن قوى الإرادة لا ينبله النساء ، وأن المخلص لله تلحظه عنايته ومن توفى في خدمته يمهله وأن من اتهم زورا ورفع مظلمته إلى الله فأنه يظهر حقه ، وأن السعادة ليست في المال وحده بل في القضيبة والقناعة ، وهكذا من الحكم الشريفة العالية ، إذا فعل الناس ذلك ولم يفعلوا عرفوا أن شرائع الله القديمة كانت كالحديثة وأنها متتالية متتابعة متحدة في الأصول ويحصل للره اثنتان واطمئنان .

أوليس الله بأمرنا أن ننظر في السموات والأرض ، فإذا ن آيات القرآن تشير إلى آيات السموات والأرض وما أتجه عقل الإنسان قديما وحديثا ، فأيات القرآن أشبه بالمنظار العظيم ترى به الأشياء القريبة والبعيدة فمن ظن أن المنظار مقصود لذاته فهو جاهل كمن يرى أن القرآن وحده كاف فهو مخطئ . إنما القرآن نزل ليصل به ولا عمل به إلا بأن نبحث فيها خلق الله في السموات والأرض من العجائب ونقرأ العلوم وندرس علوم

الأمم : أى أن يكون في الأمة طوائف لكل علم طائفة تقوم بعلم أو صناعة ولو كانت تعد بالآلاف ، انتهى الكلام على لحسنات المصريين وسيئاتهم العملية .

الكلام على محاسنهم العلمية ، نظام السموات عند قدماء المصريين

جاء في أوائل السورة « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » وقال « إن في ذلك آيات الخ » . وكرر لفظ الآيات ثلاث مرات وهكذا ذكر الآيات وضم الإعراض عنها في الكلام على فرعون ، فبالت شعري يمرّ هذا القول مروراً علينا ولا نعطيه حقه ، ذم الله الغفلة عن الآيات عند ذكر الشمس والقمر وذمها عند الإشارة للفراغة فما هذه الموافقة في سورة واحدة ، ولماذا نذم الغفلة عن الآيات في سورة واحدة ، إن في ذلك سرا عجيباً فاستمع لما سيأتى :

علم الفلك وقدماء المصريين

جمال الصور السماوية يسحر العقول - احتجب عن جميع الناس وهم ينظرونه - محاولة قدماء

المصريين قبل غيرهم كشف هذا الحجاب - رسمهم الصور السماوية التي يقرؤها الناس في أوروبا

والشرق الآن - وجوب معرفة نتائج العقول في الشرق والترب لأن العقل البشرى صنع الله

كما أن عقول الملائكة من صنعه فالعالم كله مصنوعاته وعلى المسلمين أن يعرفوها

اعلم أننا خلقنا في جوّ من الجمال والبهجة والحسن والإتقان والكمال والسعادة والحبور ، ولو أننا أدركنا ما نحن فيه من الجمال لذهلت عقولنا وأصبحنا فاقدى الشعور والإحساس لانقل .

أقول هذا لك أيها التذكي وأنا موقن به ، إن الله وضع أرواحنا في هذه الأجسام الأرضية تلك الأجسام التي وضعت بحكمة ودقة وأحاطت بها الأنوار من الشمس والقمر والكواكب والجمال ، الشمس تقسم الزمن أياماً ، والقمر يقسمه شهوراً كما تقدم موضحاً ، والشهر الواحد يجعله أربعة أقسام ؛ فمن الحاق إلى التريبع أسبوع ومن التريبع الأول إلى ليلة البدر أسبوع ، ومن ليلة البدر إلى التريبع الثاني أسبوع ، ومن التريبع الثاني إلى الحاق أسبوع .

فالشمس والقمر قد فصلنا الزمن تفصيلاً ، فالأيام والسنين الشمسية عرفت بسير الشمس كما تقدم والأسابيع والشهور القمرية والسنين القمرية عرفت بالقمر ، إذن الشمس والقمر تكفلاً بتقسيم الزمن أياماً وأسابيع وشهوراً قمرية وشمسية وسنين كذلك ولولا ذلك لم نعرف الأيام وما بعدها ، ونجد القمر والشمس والكواكب لا تخطئ في سيرها والأنوار الفاتضة منها على الأرض جميعاً بهجة تتلون كما تتلون في أنوارها القول فانوار الكواكب ليلاً مختلفة في الظلام الحالك والقمر يقسم الليل تقسماً بأضوائه ويظهر ويختفي على أشكال مختلفة ، وهكذا أنوار الشمس تختلف في أثناء النهار ، فبينما ترى ضوء أدنى كوكب بالنسبة إلى الشمس أقل من مليون مليون وضوء غيره من الكواكب أقل من جزء من مليون من ضوء الشمس وضوء البدر أقل من جزء من ثمانمائة ألف جزء من ضوء الشمس تراها أيضاً والقمر يتلونان ألواناً محسوبة منظمة جميلة لا يستقران في هيئتهما على حال ، الحيوان حولنا والنبات وعجائبهما لا تنهى ، في أرضنا عجائب كثيرة ، أجسامنا مصنوعة من الحكمة بل هي حكمة مدبجة ؛ لو أن أرواحنا خلقت في هذه الأرض مجردة عن المادة لذهلنا من الجمال الذي غرقنا فيه ولكن من لطف الله أنه أجاعنا وأعرانا وسلط الحر والبرد علينا وجعل الأرض لنا دار عمل ونسب وشقاء ، لماذا ؟ ليحببنا عن هذا الجمال ، ولماذا ؟ لأجل أن يحفظ عقولنا قريباً فلا يعطيا هذا الجمال إلا بمقدار شيئاً فتبتنا بالتدريج وهذا التدريج يكون بالتعليم .

فصل في أن أول من تفتن لرفع الحجاب عن جمال السماء هم قدماء المصريين

قد قلت لك أيها التذكي إن الناس خلقوا في الجمال وحببوا عنه وهم بالتعلم يعرفونه شيئاً فشيئاً ، وهأنذا

أذكر هنا أن أول من ابتدأ معرفة هذه العلوم هم قدماء المصريين على خلاف في ذلك ، وإنما أردت ذلك ليظهر  
سر القرآن ولماذا يذكر النقلة عن الآيات ويذمتها في السموات والأرض وفي معرض ذكر أبدان الفراشة  
وسوى بينهما في ذم النقلة .

إن هذا الزمان هو زمان ظهور النور الإسلامي ، انظر ماذا ترى ؟ ترى أن الأمم ما عدا المصريين كانوا  
في غفلة ساهون قبل العصر السكندوني ، فقد كان العبريون لا يعرفون سوى بلادهم وما جاورها من الممالك ،  
وكان اليونان في أيام هوميروس الشاعر المشهور : أي قبل المسيح بسبعائة سنة يظنون أن بلادهم وآسيا  
الصغرى في وسط السكونة بحيث جعلوها شاغلتين جزءا عظيما من سطح الأرض ، وقالوا إن حولهما جزائر  
البحر المتوسط وإن مصر وسوريا وإيطاليا حول ذلك البحر المحيط .  
وتنبه بعد ذلك ( بطليموس ) في عهد الرومان سنة ٢٣٠ إلى شيء من ذلك ، وهكذا أخذ العلم ينمو  
شيئا فشيئا ، أما الأئمة المصرية فإنها كانت قد سبقت هذه الأمم إلى معرفة نظام السموات وسور  
نجومها وبروجها .

هيئة السماء في صندوق حتر بطييه وهيئة البروج فيه

وما صاحب هذا الصندوق إلا من الفراشة الذين نجحهم الله يدينهم فكان لمن خلفه آية للشرقيين  
والأوروبيين فهو مصداق للقرآن وذلك من آيات الله في القرن العشرين .

واعلم أني قد قدمت لك في سورة الأنعام نبذا من الصور السماوية عند قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم  
لأبيه آزر » وأن تلك الصور ثلاثة أقسام : الصور الشمالية ، والصور الجنوبية ، والبروج التي هي داخل  
منطقة فلك البروج ، وذكرنا هناك أن الصور كلها نحو ٤٨ صورة وهي سماة بأسماء أشياء أرضية من  
الحيوانات وغيرها ، ثم أقول الآن : إن الناظر إلى السماء لا يرى فيها رسم حيوان ولا إنسان ولا شيئا من ذلك  
فإذا سمعهم يقولون التور وهو أحد البروج أو الجدى أو السنبل أو الحوت فاعلم أنه لاحوت ولاسنبله ولأنور  
ولا شيء من ذلك ، وإنما هي صور خيالية تخيلوها سموها ، وتجد أم الأرض قد انفقوا جميعا على تسمية  
مجموعات النجوم بأسماء ولكنهم لم يتفقوا على تلك الأسماء ولا في واحد منها ؛ فالصينيون أكثروا من أسماء  
المجاميع حتى بلغت ثلاثمائة اسم وسموا بعضها بأسماء عظماهم ، والعرب سموها جميعا بأسماء حيوانات وغيرها  
كالذهب الأصفر والذهب الأكبر وبنات نعش الصغرى وبنات نعش الكبرى ، والآريون سكان الهند صوروا  
السماء بصور أخرى في كرتهم التي آتموها قبل المسيح بنحو تسعة قرون ، فرسموا فيها نجمة ووزنين وشجرة  
كبيرة فيها كلب وصورة زنجي ضخم الجثة ، والصور اليونانية التي ذكرها بطليموس في المجسطي يظهر كما  
قال بعضهم إنها عملت في بلاد العرب أيام الجاهلية وأهل (أسكندينايا) سموها بالكلب وللركبة والنزل  
و (الإسكيمو) وضعوا بينها صورة حيوان بحري في بلادهم ، وترى التراب في العربية مشتقة من التراء أي التقى  
وفي اللسان المصري اسمها الكثرة لكثرة نجومها ، وفي الهندية الدجاجة وفراخها ، وهنود أمريكا يسمونها  
بما معناه الرجال والنساء أو الرافعات ، وللمصريون القدماء كان عندهم كرات مصورة من قديم الزمان  
ولم تزل آثارها في قبر الملك (سبق الأول) في بيان الملوك ، وكذلك في قبر الملك رعمسيس الرابع في مدينة  
(أبو) ففها صور بعض مجاميع النجوم مثل النهر والسهم والكركدن ومن .

ها أماذا الآن أكتب هذا وبين يدي الصور للنقولة من كتاب أبي الحسن الصوفي الذي ألفه في أواسط  
القرن الرابع للهجرة نسخت للسلطان (أولغ بك كوركان) والصور للنقول عنها كانت ملونة وهي لسان  
الصور السماوية وقد أجاد للصور رسمها وتزيينها وأفرغ فيها دقيق الصنعة ورسم الكواكب فيها بالذهب ،  
وها أناذا أشاهد في الكتاب أمانى الآن صورة التنين من رسم العلامة المذكور ، ولكن ليست هذه



الصورة بلونة كالمقول عنها ، هذا ما أردت أن أقدمه في هذا للوضع قبل الدخول في التصود وهو الكلام على صور قدماء المصريين التي صوروها ووجدت الآن في مقابرها مصورة على صناديقهم مصدقا للآية إذ يقول الله « فاليوم نتجيك يدك لتكون لمن خلفك آية » هانحن أولاً نقرأ آيات الله للرسومة في مقابر قدماء المصريين .

أكتب هذا وأما هيئة البروج الاثني عشر وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والبريزان والقوس والجدي والذئب والحوت ، وهاهو ذا صندوق حتر القدي وجدوه بطيبة وفيه رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها وبسترها ثوب طويل وفي رجلها ثقلان وعلى رأسها عصاية وقد رسمت فوقها الشمس وعلى جانبي المرأة البروج الاثنا عشر ، منها ستة عن اليمين وهي السرطان والأسد والسنبلة والبريزان والقوس ، وستة على اليسار وهي من الجدي إلى الجوزاء ، وترى هذه الصور واضحة جلية فترى صورة السرطان على يمين المرأة الخ .

وهكذا بقية البروج فترى الجوزاء بهيئة امرأتين متقابلتين قد مدت إحداهما يدها إلى الأخرى للسلام عليها وأمسكت كل منهما يد الأخرى ورجل كل منهما تخطو إلى الأخرى والثور واقف قبل تلك الصورة ، والذئب عبارة عن رجل واقف يصب الماء من إناء بين يديه ، والجدي نصفه معزى ونصفه الآخر على هيئة السمك .

صورة منطقة فلك البروج التي وجدت في هيكل (ذندرة) في عصر القياصرة الأول

ها أناذا أرى شكلها أمامي في كتاب [الحضارة القديمة في مصر والشرق، الجغرافيا الرياضية] أو [علم الهيئة عند قدماء المصريين] لصديقنا للرحوم الأستاذ الجليل أحمد بك كمال ، ها أناذا أيتها الدكي أبت لك كيف تصور الناس هذه النجوم قديما ؟ وكيف جعلوها مجاميع ؟ وكيف صوروها بما يعرفون ؟ وكيف كان قدماء المصريين قد رسموها وجعلوها في مقابر عظمائهم وكبرائهم ؟ وكيف صوروا البروج التي نعرفها نحن بنفس الصور التي نعرفها كالثور والسنبلة والحمل والحوت الخ ؟ وكيف كان هذا العمل من النوع الإنساني كله قديما وحديثا وعند علماء الإسلام وأوروبا ليكشف الناس الحجاب الذي حجب عقولهم عن ذلك الجمال الذي ستره عنهم الشهوات والحروب والنواب وحدثان الدهر وتقلباته . فهم بهذا الدرس يختالون ليدركوا جمال هذا العالم الذي نبش فيه ، وكيف حث الله على النظر في هذه السورة وذكر الشمس والقمر والضياء والثور ؟ وكيف ذم للمرضين عن ذلك الجمال في الآيات كما ذم للمرضين عن الآيات في مقام ذكر نجاة فرعون بيده ليكون لمن خلفه آية ، وكيف كانت الفراعنة قد رسم على صناديقهم تلك الصور السماوية وأودع في مقابرهم وآثارهم حكمة الله عز وجل في السماء والأرض .

القرآن يأمر بالنظر لكل ما هو محكم الصنع

إن الله يأمرنا بالنظر في مصنوعاته كلها كالشمس والقمر والأرض ، وبالنظر في مصنوعات الحيوان كالعنكبوت والنمل والنحل وفي النبات الذي هو تحت تدبير اللائكة ، وهكذا كل حيوان وإنسان وغيرها إن اللائكة بالنسبة لله تعالى « وفيه لثلل الأظنى » كالعين والأذن واليد والرجل للإنسان ؟ فكما أن أحدنا يقول رأيت عيني أو رأيت أنا ويقول سمعت أذني وسمعت أنا ، فالسامع والرأى إنما هو نفس الإنسان إذ الأذن والعين إنما هما له ، فهكذا يقول الله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها » ويقول « قل يتوفاكم ملك الموت » فعمل الملك هو عمل الله ، وما للملك إلا نوره سبحانه وتعالى وشأن من شئونه ، وما عمل القلاء من نوع الإنسان من هندسة وتصوير وعلم وحكمة إلا آثر من آثار اللائكة ، إذ الثابت في ديننا أن كل عمل إنما يكون من إلهام ملك إن كان خيرا ، ومن وسوسة شيطان إن كان شرا ، إذن علوم قدماء المصريين

للسونة في الهياكل وكذا كل العلوم التي ألقاها لللائكة على قلوب العلماء في الهند والصين وعلماء الإسلام وعلماء ألمانيا والنمسا والمجر واليابان وغيرها ، كل هذه يجب علينا النظر فيها وجوبا كفايا ، وإذا قصرنا فيها عاقبتنا الله بما نحن فيه الآن وزادنا منه ، أما أنا فإني أدبت ما قدرت عليه ونصحت أمتي .

إن الله ذمّ للمرضين عن آياته في هذه السورة بعد ذكر الشمس والقمر كما ذمّ للمرض عن آياته بعد ذكر فرعون الذي نجاه بيده وجعله آية ، فثبت بهذا أن مصنوعات الله ومصنوعات الحيوان ومصنوعات العلماء والفقهاء من بني آدم كلها مصنوعات وآياته ، وإذا كنا مأمورين أن ننظر في النبات وجماله وفي نظام النحل وأفعاله والنسكوت ونسجه ، فبالأولى نؤمن بأن ننظر في فعل من هو أرقى وهو الإنسان وتأخذ بالأحسن والأفضل منه .

اللهم إني قد أدبت الأمانة لأمتنا الإسلامية ، وأنت أيها الدكي القاري لهذا التفسير مشول مثل فعلم أمتك وأدركها وأخرجها من سجن الجهالة وأفهمها كتاب الله والله لا يضيع أجر المحسنين اه .

#### تذكرة

اعلم أي كتبت ما تقدم ولم يكن ليخيل لي أني أرسم هاتين الصورتين الفلكيتين الصريتين لما فيهما من صور بعض الحيوانات فانفق أن وقع نظري على كتاب مؤلف حديثا فيه صور بعض الحيوانات وقد صدر بمقدمة فيها أحاديث وردت يؤخذ منها جواز صور الحيوان إذا كانت لا تعلق لها ، فعجبت كيف اطاعت على هذا اليوم ؟ فسكرت في الأمر ونظرت نظرا عليا ففتح لي باب لن يقفل على المسلمين بعد الآن .

ذلك أنه ظهر لي أن الصور الشمسية ماهي إلا أضواء شمسية [ وبعبارة أخرى ] ظلالمها والظلال إذا حرمتها امرؤ فقد انسلخ من عقله ودينه ، وكل امرئ يباح له النظر إلى صورته في المرأة فإذا دام النظر وتكرر لم يحرّم ، وما الصور الشمسية إلا كالصور في المرأة الخ ماسيا في فاعتقدت الإباحة والأحاديث الواردة في الجواز لما يرسمه الناس بأيديهم لبرسم الشمس إلى آخر ماسيا في شرحه .

فيها أناذ الآن أذكر ثلاثة فصول :

[ الفصل الأول ] في رسم الصورتين الفلكيتين اللقولتين عن قدماء للصريين مع شرح العلامة أحمد بك كمال .

[ الفصل الثاني ] في الكلام على ما يجوز من الصور وما يمتنع وما يجب .

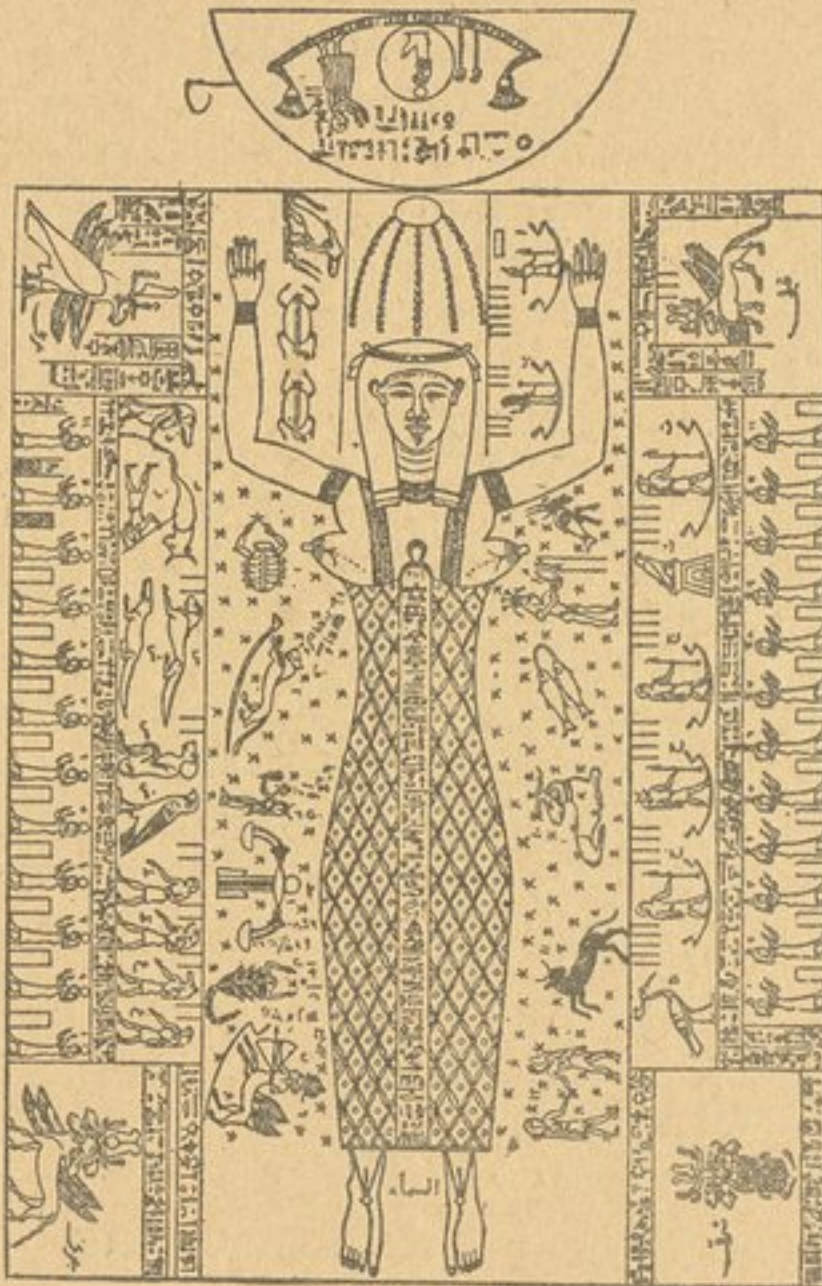
[ الفصل الثالث ] في الكلام على بناء الأهرام بمصر لأن ذلك البناء من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة القدماء .

#### الفصل الأول في رسم الصورتين المذكورتين وشرحهما

قال العلامة الأثرى الكبير أحمد بك كمال في كتابه [ الحضارة القديمة ] ما نصه :

إن قدماء للصريين في عصر اليونان أو الرومان حسبوا هيئة السماء بالكيفية التي وجدت على صندوق حتر بطبية ( شكل ١١ ) وفيها رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها وبسترها ثوب طويل مثبت على الأكتاف بحمالات وفي رجلها نعلان ، وعلى رأسها عصابة وفوق رأسها إشارة هيروغليفية يشار بها إلى الشمس ذات الأشعة ، وعلى جانبي هذه المرأة البروج الاثنا عشر ، منها ستة عن اليمين وهي السرطان والأسد والسنبلة والليزان والقرب والقوس ، وستة عن اليسار وهي الجدى والنمل والحوت والحمل والثور والجوزاء ، وأجلّ شيء يستحق الالتفات إليه الكواكب السيارة الخمسة البادية الذكر وهي بين النجوم المنتشرة عن يمين المرأة (نوت) منها اثنان فوق برج الأسد وهما كوكب المشتري وكوكب زحل أشير إليهما بحرف (ف) كما أشير بحرف (ق) إلى كوكب المريخ للوضوح بجانب برج السنبلة ، وفوق هذا البرج اسمه

وهو (تر - سب تاحم) وبين لليزان والعقرب عند حرف (ك) كوكب عطارد ويسمى (سبك) ونحت ذلك  
 قوش صعبة الحل موز لها بحرف (ل) وهي تدل على برج اليزان ، وبين العقرب والقوس في للكان  
 الرموز له بحرف (م) كوكب الشعرى الجمانية (تر - دوا) والكتابة التي فوق العقرب صعبة الحل أيضا وهي  
 اسم برج العقرب ، ويرى فوق القوس اسمه (بشت) وقد وضع فوقه حرف (ن) للدلالة عليه ، أما الصور  
 المرموز لها بحروف (ت ش ج ح خ د) فإنها تدل على كواكب عرفت مدة القراعة لأنها وجدت مرسومة  
 على بعض آثار الأسرة التاسعة عشرة والعشرين ، وقد عرف قدماء المصريين نجوما غير ما ذكر كالرسومة  
 بين ذراعى (نوت) وكالجزاء للشار إليها بحرف (ا) والشعرى الجمانية والنجم المسمى (حسن - مون)  
 أو (رتز) أى النسر الواقع والذب الأكبر للرسوم على هيئة نخد الثور يسمى (ضيس) والنجم (آن) والأسد  
 (س) والتمساح (ش) والصور الأربعة المشار إليها بحروف (ط ظ ع غ) يرمز بها لللائكة الأربعة المختصة  
 بحفظ أحشاء الأموات وهي (أمست) و (حي) و (دواموتف) و (قبج سنوف) وقد جعلت هنا رموز النجوم  
 أما الأربعة والمشرون صورة التي عن يمين ويسار المرأة الدالة على السماء فهي رموز للأربع وعشرين ساعة  
 فساعات النهار جعلت على هيئة نساء فوق رؤوسهن قرص الشمس إشارة إلى النهار، وساعات الليل رسمت  
 أيضا كنساء فوق رؤوسهن نجمة إشارة إلى الليل وبجانب ساعات النهار كتابة معناها [ السلام عليك  
 أيها المتوفى حز بن المرحومة بحر الخ ] .



( شكل ١١ )

فالساعة الأولى هي ساعة الفجر والأخيرة هي ساعة المساء ، وقد رمز للقط الأربعة الأصلية في أركان شكل (١١) أيضا بمجوانات ، فللهمة البحرية سبع له أربعة أجنحة ورأس كبش فوقه قرنان وبينهما قرص الشمس تعلوه ريشتان وبجانبيه ثعبانان وأشاروا للهمة الشرقية بسبع له أربعة رؤوس كباش ، وللهمة الغربية يباسق له أجنحة ورأس كبش عليه ريشة وقرنان فوقهما ثعبانان ، وللهمة الغربية بسبع له أربعة أجنحة وأربع رؤوس كباش ، ويشاهد في الرسم الذي فوق رأس المرأة (نوت) الدالة على السماء مركب الشمس وفيها صورة للتوفى (حتر) انتهى الكلام على الشكل الحادي عشر .

الكلام على الشكل الثاني عشر

هو الذي وجد في هيكل (دندره) وهو رسم لمنطقة فلك البروج صنع في عصر القياصرة الأول وهو وإن كان متأخرا لا يخلو من الفائدة ، وإليك رسمه :



(شكل ١٢)

هذه الدائرة وجدت في هيكل (دندره) الذي بنى في القرن الأول وهدم في آخر أيام البطالسة وتم بناؤه في عهد القيصر أغسطس وذلك فوق معبد قديم من الطبقة الأولى اهتمت به ملوك الأسرة الثانية عشرة وأعظم ملوك الطبقة الوسطى مثل (مختمس الثالث) و (رمسيس الثاني والثالث) وكانت المنطقة مرسومة في سقف الرواق الثاني من جهة الجنوب وقد أخذها الفرنسيون بأمر للرحوم محمد علي باشا سنة ١٨٢١ وحملوها إلى مدينة باريس ، فترى في هذه المنطقة (١) أربعة من صور النساء واقفات جمات للدلالة على الشرق والغرب والجنوب والشمال وهي تحمل السماء ويساعدهن في ذلك ثمانية من صور (حوريس) جاثيات رؤوسها على شكل الباشق وجسمها بحكم الإنسان ، وهذه المنطقة المحمولة على أيدي هذه الصور الاثني عشر تنقسم إلى (٣٦) قسما وكل قسم إلى عشرة أقسام فيكون مجموع الأقسام (٣٦٠) قسما والقسم يوم ، وكانت هذه الصور الاثنا عشر التي رمز إلى اللائكة رأس منطقة فلك البروج القديمة المصرية في أقسامها كافة ، ثم لما جاء اليونان بمصر ونشروا منطقتهم الفلكية جعلوا كل ثلاثة من هذه الصور قسم من الدائرة وبهذه التجزئة بقيت المنطقة معتمدة للآن لدى علماء الفلك ، وبشاهد في نفس المنطقة وفي أقسامها بعض نجوم رصدها المصريون قديما كالدائرة المشتملة على ثمانية من اللذنين للقلوب الأيدي الجائين على الركب وعلى

الثمان الكبير للتوج بالتاج (انف) وتبتدى للمنطقة في أعلى هؤلاء اللذين يبرج الأسد ثم بواسطة البرج الأخير وهو السرطان تدخل في الدائرة الموضوعة فوق الأسد بحيث يتكون من الجميع شكل حلزوني ، ويرى في داخل الدائرة أن الكواكب قد رسمت كل خمسة معا في هيئة رجال تسير الهويانا .

قال (شامبليون فيجاك) من تأمل هذه الدائرة وجدها مبتدئة في وسطها يبرج الأسد للرسوم كالسبع السائر فوق ثعبان ومن خلفه امرأة ، ثم برج السنبله وهي امرأة في يدها اليسرى سنبله قمح ثم يلي ذلك من اليمين إلى اليسار برج الليزان بكفتيه ثم برج العقرب ثم القوس نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور وله أجنحة ثم يليه الجدى نصفه ماعزى ونصفه الآخر سمكي ومن يده الفللو وهو كرجل يصب الماء من إناء بين يديه ثم الحوت وهو أسماك مجتمعة في مثلث مخصصة بإشارة الماء ثم الحمل وهو أول البروج اليوم عند علماء الفلك وهذه الثور وكلاهما مرسوم فوق صورة إنسان سائر وبينهما الجوزاء ثم السرطان .

هذه هي البروج الاثنا عشر المرسومة داخل المنطقة ولأجل الوصول إلى معرفة ترتيبها والوقوف على أول بروجها نكتفي بالتأمل إلى السرطان إذ هو الموضوع مباشرة فوق رأس الأسد ، وعليه فالاثنا عشر برجا موضوعة على شكل حلزوني وتعرف الشكل بسهولة لأن مبدأها الأسد كما تقدم ، أما غيره من البروج فيتمه مرتبة حسب ترتيبه الوارد في المنطقة ، وأما باقي الصور المنتشرة في دائرة للمنطقة فهي نجوم أشهرها الشمري الثمانية وهي للرؤفة كالبقرة فتراها نائمة في سفينة وعلى رأسها نجمة وفي جبهتها هذه العلامة (☉) الدالة على الحياة وهذا النجم يعرف عندهم باسم (أيس) ويتبع هذا الفصل [جوهرة ثان] الجوهرة الأولى في عجائب هذه الصور الفلكية المصرية ، الجوهرة الثانية في فوائد ذلك للسلمين .

#### الجوهرة الأولى

انظر أيها القاري في هاتين الصورتين ، لقد تبين فيهما ما في علم الفلك من نوابت وسيارات وما عرف الناس من البروج الاثني عشر . وانظر كيف تجلى ذلك في الصورة الأولى التي وجدت في قبر حتر مرسومة على صندوقه بهيئة صفيين عن يمين وشمال وفي صورة معبد (دندره) بهيئة شكل حلزوني عجيب ، وكيف أمكن القوم أن يبينوا في صورة على مقدار راحة اليدين الجهات الأربعة وأيام السنة وأصولها وشهورها وبروجها وقد رسموا ذلك بصور آية في الحكمة وآية في الصنعة وغرائب الإبداع ، ههنا تجلى معنى القرآن ، ههنا تجلت بدائع الفرقان .

ذكر الله في أول السورة الشمس والقمر ونورها وحسابهما وذمّ المرضين عن ذلك ، وههنا أبان أن للإنسان صنعا في ذلك وذمّ المرضين عنه ، إذن الله يذم المرضين عن صنعه والمرضىين عن صنع عباده .

ألا ترى رعاك الله أن صنعه قد تجلى في الصور المرسومة في أول السورة مثل صور أوجه القمر وصور سديم المرأة للسلسلة وسديم الأسد وصورة المجرة .

هذه هي الصور التي لم تمسها يد البشر وإنما وضعت في السماء بيد خالقها ورسمت على قراطيسنا بضوء شمس ، ثم إنك ترى هنا صوراً أخرى رسمت بيد العباد من آلاف السنين لتتجمع أشتات الصور السماوية وتبين للناس مناظر السماء وبروجها موضوعة بأشكالها حتى تكون أسهل مأخذاً وأوضح تصوّراً وأقرب فهماً ، جلّ الله وجلت الحكمة ، ههنا [رسمان] للصور السماوية ، رسم في أول السورة بيد الله ، ورسم هنا بيد العلماء ، ذم الله المرضين عن الصورتين ولم يفرق في الدم بين من أعرض عن الآخرة ومن أعرض عن الأولى ، بل إن صور قدماء المصريين الصناعية أقرب إلى الفهم لأنها صور معدة للدراسة وأقرب إلى الأذهان ، إلا إنها هي أشبه بكتلة المخ الإنساني ترسم عليه صور شتى فيحفظها .

هكذا الصور الفلكية لقدماء المصريين تجمت شتات علم الفلك فصارت كمرآة النجم وهي صغيرة تربه كل عامرة وقصر ، انتهى الكلام على الجوهرة الأولى .

### الجوهرة الثانية في فوائد ذلك للمسلمين

رب مطلع على هذا يقول : كيف ساغ لك أن تعرض على قراءة علوم القدماء وهم قوم عباد أوثان ؟ أليس القرآن يفتينا . أقول : هذه شبهة قد نشرها إبليس بين المسلمين ليعدمهم عن ربهم وبذلهم لحلقه ، لم يقل أحد من علمائنا إن هؤلاء قوم محكوم عليهم بجهنم بل أجمعوا أن أهل الفترة ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان .

فالأهم التي لم تبلغها دعوة نبي نحاسية على مقتضى عقائدها وليس محكوما عليها بالملاك ، فهذه شبهة ضالة خاطئة ، وأيضا هب أنهم ضالون فهل ضلال قوم يمنعنا عن أخذ ما لديهم من النافع .

اللهم إن كل قوم يحرمون ذلك فهم قوم ضالون ، وكيف يحرم الناس ذلك وقد قال الله « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » يقول « لهم قلوب يعقلون بها » ولم يبين أى معقول يعقلون ، أعلى يد كافر هو أم على يد مسلم ؟ وإذا كان ابن آدم يقول في سورة المائدة كما مر هناك « ياويلتى أجهزت أن أكون مثل هذا التراب فأوارى سواة أخى » أى أن الإنسان يتلقى العلم عن التراب ويأخذ الحكمة عنه إذا وجد نفسه مقصرا عنه في فضيلة أو عمل ما ، فإذا رأى التراب يدفن أخاه يكون من النقص أن لا يدفن أخاه ؛ فكما تحسر ابن آدم على نقصه بالنسبة للتراب ، فهكذا يتحسر المسلم على كل ما يمكنه علمه مشتق من علم الطيور وبالأولى ما كان من علم الإنسان ، والتحسر على نقصه عن التراب يكون أكثر تحسرا على نقصه عن الإنسان الذي هو أقرب إليه وهو من جنسه .

وهذا هو المقصود في هذه الجوهرة ، يعنى أننا نكون في حيرة ونقص شديدين إذا سبقتنا أوروبا التي هي في زماننا .

وإذا سبقنا قدماء المصريين ولم نعلم ما علموا ، فمن تحسر على معرفة التراب في دفن أخيه التراب فما أحرأه أن يتحسر على علوم مكتوبة له مرسومة على ألواح مرصودة في المقابر مهيئة له ثم هو يولى مرضا عنها حتى عليه قول الله « يا حيرة على العباد الخ » .

### حكاية النملة وسيدنا سليمان عليه السلام

وياليت شعري إذا كان نبي الله سليمان عليه السلام يقول « يا أيها الناس علنا منطلق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل اللين » ثم أخذ يذكر قصة النملة التي صمها في وادي النمل تقول « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » مع النملة سليمان ، فماذا فعل ؟

(١) تبسم ضاحكا من قولها .

(٢) « وقال رب أوزعني » أى ألهمني « أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي » .

(٣) « وأن أعمل صالحا ترضاه » .

(٤) « وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .

تبسم سليمان فرحا بأنه عرف ما تقوله النملة واعترف بنعمة الله عليه وعلى والديه وطلب من الله أن يعمل صالحا الخ ، فيقول سليمان إنه علم منطلق الطير وأوتى من كل شيء ، ويقول إن هذا فضل مبين ، فإذا كان منطلق الطير مع ما عطف عليه فضلا مبينا ، فما بالك بمنطق الحكماء والعلماء من نوع الإنسان .

إن الإنسان إذا عرف ما نطق به الحكماء وما دقّوه في الأوج والكعب والطواير يكون أولى بالشكر والإقرار لله بالفضل .

إن العلم للودع في الإنسان أهدى من العلم للودع في الحيوان ، فإعلان النبي سليمان شكره لله على علمه بمنطق الطير حزن لدوى العقول أن يعرفوا نعم الله فيما نالوه من حكمة الحكماء وعلم العلماء .  
اللهم لم يبق بعد هذا البيان عند لأم الإسلام بعدنا ، اللهم قد أبنت بفضلك لهم ما يجب عليهم من العلوم ونقل الحكمة ، إن للسليين بعدنا هم الذين يعرفون ما قرأته جميع الأمم وما ظهر من عجائب هذه الدنيا .

مرّت على للسليين قرون وقرون وهم ناعمون بعد العصر الأولي ، أنامهم شيوخهم للمرورون قتل أولو الألباب وذلك الأعقاب وهذا أوان استيقاظهم ، فليكونوا فيما مضى أشبه بحيوان عاش في بيضة فصار دودة ثم فيلجة كدودة القر ، وها هو ذا قد جاء أوان استيقاظهم وبناء مجددم فيكونون أشبه بذلك الحيوان وقد حل وثاقه وصار في حرية يتمتع بالنسج والشجر وأعمال الأزهار اه .  
فهذا هو قوله تعالى « فاليوم نتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » انتهى .

ذكرى أيام الشباب وشكر الله تعالى على نعمة العلم والرفان

قد ذكرت في سورة الأنعام أن عويل نساء قريتنا على عظيم من عظمتها كان ذلك بورثي حزنا على جهلي ، وأوضح الآن أكثر أيضا فأقول :

لقد كانت هذه حالي أيام الشباب ، فكنت إذا سمعت الناديات يندبن بهيئة منظمة موسيقية تحدث في قلبي رقة وآلاما على جهلي بعلم الفلك ، لأنني كنت أنظر إذ ذاك إلى النجوم في الليالي للظلمة وهي تلمع خلال النخيل المحيط بالقرية ، فكان يخيل لي أن أصواتهم ترتفع في طبقات الجو صاعدة وأنا أصعد الأنفاس حزنا على جهلي بعلم هذه النجوم ، وتارة كانت تحدث هذه حزنا في نفسي على الآثار التي خلفها الألوان وأعمس وأحزن على ما أودع فيها من عجائب ، ولست أدري سبب افتران بكاء النساء بهذا ولا بذلك ، ولكن هذه كانت حالي ، وقد كنت أيام الصبا قبل للراهقة آبيت في الحقل مع أقاربي فأسمع طنين التاموس في الحقل فأحس في نفسي بحزن عميق على جهلي بهذه الدنيا وهذا الوجود وكأن ذلك الطنين أرسل إليّ ليذكرني بالجهل الطويل للتمد كامتداد هذه الدنيا فلا أدري أوائلها وأواخرها ، هذه كانت حالي أيام الصبا وحالي أيام الشباب .

أفلا يحق لي الآن ، بل أفلا يجب عليّ أن أشكر الله وأعلن فضله عليّ إذ جمعت من عجائب وغرائب النجوم والأفلاك صورا جميلة وبدت بهيئة ظريفة قد زينت لناظرين ، وبعض هذه الصور الهية وبعضها بأيد بشرية مدفونة تحت أطباق التري كما كنت أجد في نفسي أن في السماء عبرا ، وفي الأرض وآثارها للدفونة خبرا .

اللهم إنني قد علمت من ذلك على قدر الطاقة البشرية وأدركت بعض نظام هذه الدنيا ، فأنا اليوم أحمده وأشكرك على فضلك العظيم ومنتك الكبرى إذ أرينني من عجائب كواكبك ومن غرائب خزائن الآثار التي رسمها القدماء ، وقد انقلب حزني في الشباب على الجهل سرورا في الشيب على العلم والحكمة والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

الفصل الثاني فيما يجوز من الصور وما يمتنع

ولما أردت أن أصنع صورة البروج للمستخرجة من قدماء المصريين للذكورة حضر صديق لي من قراء



هذا التفسير وهو من أهل العلم الصالحين المطلعين ومن قرأه وهو الشيخ محمد السيد دياب ، فقال : كيف تضع صوراً في التفسير والتصوير حرام ؟ فقلت إن الصور على نوعين : نوع ورد ذكره في الأحاديث وكلام العلماء ، ونوع لم يرد . أما الذي ورد ذكره في الأحاديث وكلام العلماء فهو قسمان : التصوير الذي له ظل والذي لا ظل له ، والأول منها محرم بالسنة وقد شرط له العلماء أن يكون على هيئة يعيش بها الخ ، والقسمة الثاني مباح لما روى عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة » قال بسر ففرض زيد بن خالد فمدناه فإذا نحن في بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبد الله الحولاني : ألم يحدثنا في التصاوير ؟ فقال إنه قال « إلا رقماً في ثوب ، أسمعته قال لا ؟ قال بلى ! فذكره » وروى الترمذي بسنده « أنه دخل على أبي طلحة الأنصاري يعود فوجد عنده سهل بن حنيف ، فقال : فدعا أبو طلحة إنساناً يزرع عطاء تحت ، فقال سهل لم ترعه ؟ قال لأن فيه تصاوير وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما علمت قال : أولم يقل إلا ما كان رقماً في ثوب ، فقال بلى ! واسكه أطيب لنفسى » وقال الترمذي حسن صحيح . وروى « أن عائشة رضي الله عنها كان لها قرام ( ستر ) سترت به جانب بيتها فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم أميطي عنى فإنه لا تزال تصاويره تعرض في صلاتي » اهـ .

وجاء في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي والترمذي عن أبي هريرة « أن جبريل أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر بالستر الذي فيه تماثيل فيجعل منه وساداتان توطآن » فهذا يدل على أن تلك الصور ترجع إلى التصوود منها وهي مباحة .

أما النوع الذي لم يرد ذكره في الأحاديث ولا كلام العلماء فهو التصوير الشمسي وما هو إلا صور رسمها الله بشمسه فأحتال الناس على سكونها فسكنت كما يرى الإنسان صورته في المرآة ، فهل يباح لنا أن نراها فيها ولا يباح بقاؤها ؟ إنها من نوع الظلال الشمسية ومن حرم الظلال الشمسية تحت جبل أو حائط أو جمل فقد اغلغ من عقله ودينه معا .

فالصورة الشمسية لم ترسم بأيدينا والنظر إليها كالنظر إلى الظلال العروقة ، على أن هذه كالمعجزات القرآنية في هذا الزمان ، يقول الله سبحانه « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً » فها هو ذا سكونه للرموز له في الآية ، فقال الشيخ محمد السيد إذن هذا مباح : قلت بل هو واجب ، فقال أين الدليل ؟ قلت هو هنا للتعليم والتعظيم واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، كما يقول الشافعي رضي الله عنه في غسل المرفق مع غسل البراع ، قال وهل هذه هي تعاليم إسلامية ؟ قلت بل هي لب الإسلام وقبله ، إنها صور البروج والبروج تشمل المنازل للذكورة في هذه السورة في قوله تعالى « وقدره منازل » فكيف يعرف الناس المنازل إلا برسمها ؟ فهي تفسير للقرآن وهي توحيد لله تعالى وهي شكر له .

إن التوحيد هو العلم بما هو في هذا الوجود ، وهذا الوجود لا يعرف إلا بأمثال ما ذكرناه وهو من ملكوت السموات والأرض الذي أراه الله إبراهيم الخليل ، فقال تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من اللوقين » فهذا يكون الإيقان الذي هو أرقى من الإيمان ، ومعلوم أن الشكر علم وعمل وهذا لب العلم وهو الذي حض النبي صلى الله عليه وسلم على تعلمه فقال « نحن أحق بالشك من إبراهيم » ومعنى هذا أن علينا أن نبحت ونجد حق نوقن ، ولا معنى للبحث والجد إلا في علوم هذه الكائنات التي يكون بها اليقين تشبهاً بالخليل عليه السلام الذي نظر فيها وأيقن وإن كنا لا نصل إلى مقامه ، فقال ذلك الصالح : ولم خصصت الرسم بما نقل عن قدماء الصريين ؟ فقلت :

[ أولاً ] إن هذه أرقى وأكمل من غيرها في التعليم .

[ثانياً] إن الله سبحانه ذكر النازل في هذه السورة ثم جاء في نفس السورة فذكر فرعون وهو من قدماء المصريين وقد جعل بقاء جسمه آية ، فتحنزى للناس بعض هذه الآية التي وجدت في مقابرهم لبخاص من النضلة عن الآيات في قوله « وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » فهائنا استبان أن الفعلة عن آيات الله [ومنها الآيات التي خباها الله في قبور الفراعنة] مذمومة منهي عنها ، وهذه الأسرار لم تظهر إلا في هذا الزمان فوجب علينا أن نظهر للناس أن القرآن قد أشار إلى علوم قدماء المصريين ، وهذا منها لاسباباً أنه هو للذكور في نفس السورة وهي صور البروج والنازل .

فهذه العلوم من جهة فرض عين على كل قادر على الازدياد من التوحيد ومن الشكر ، وفرض كفاية بحيث يكون في الأمة من يعرفونه مثل جميع العلوم والصناعات .

#### ملخص ما تقدم

إن هذه الصور وضعت فيما هو فرض عين على كل قادر من وجهين : وجه التوحيد ، ووجه الشكر ، وفرض كفاية على الأمة بحيث تخصص له جماعة يقومون به من وجهين أيضاً : وجه أنه علم الفلك ، ووجه أنه علم قدماء المصريين فيكون ثوابه هنا مضاعفاً ، والقائم به قائم بفرضين معا السكماية الأمة ، ثم قلت له أيها الفاضل لنفرض أن أحاديث الجواز وإباحة الصور لم ترد وأن حديث أبي طلحة وهو قوله صلى الله عليه وسلم « لا تدخل لللائكة بيتا فيه صورة » لم يذكر فيه ما بعده وهو إباحة التصوير إذا كان رقما في نوب . وبالإجمال لنفرض أنه لم يرد شيء من الحل ولم يرد إلا الهى ، فهل تمنع رسم الصور ؟ قال نعم ! قلت له قد ورد في رواية من نفس هذا الحديث « لا تدخل لللائكة بيتا فيه كلب أو صورة » قال أذكر ذلك ، قلت إذن سوى الحديث بين الكلب والصورة ! قال نعم ! قلت فهل هناك نهى عن كلب الصيد أو حراسة الفم ؟ قال لا قلت لماذا ؟ قال لأن كلب الحراسة ينفعنا لحفظ غنمنا ، قلت ثم ماذا ؟ قال وأيضاً كلب الصيد يفيدنا في حياتنا نأكل مما يصطاد لنا ، قلت إن الصور في عصرنا الحاضر أنفع لنا من كلب الصيد و كلب الحراسة إنها تحرسنا وتفيدنا ، قال هذا لا أعقله ، قلت أنت تعقله ولكنك تريد أن تعلم الناس ، قال حقا ، قلت له اعلم أن الناس اليوم في أوروبا وأمريكا واليابان وبلاد الترك قد عرفوا من العلم ما يجعله كثير من الناس ، ذلك أن الحيوانات على قسمين : قسم نراه ، وقسم لا نراه ، والذي نراه بالنسبة لما لا نراه قليل جدا .

إن جميع ما على الأرض من الأعمام والبهائم والحشرات والطيور لاتساوى في تعدادها ما في جسم رجل أسابه طاعون أو حمى أو مرض الجدري أو الحصياء أو حمى التيفوس أو حمى التيفود ، فهؤلاء جميعا لا يمرضون ولا يموتون إلا بحيوانات دقيقة تحدث ذلك .

وقد احتال علماء هذه الأمم فصوّروا تلك الحيوانات وعرضوها على الناس وهي مكبرة ألف مرة وعشرة آلاف ومائة ألف ، فظهرت خراطيمها مع أجسامها فترفها الناس فاحترسوا منها بأن أتوا بما يضادها فأهلكوها فأنجوا كثيرا من الناس بذلك ، ولولا ما فعلوه ما بلغ قطرنا للمصرى اليوم (١٤) مليوناً بعد أن كان (٣) ملايين أيام للرحوم محمد على باشا تقريبا وهكذا جميع الأمم .

وأيضاً هذه الحيوانات وغيرها لما رسمت في الكتب وظهرت صورها عرف الناس حمان ربهم وحكمت وإتقانه وإبداعه فأمنوا به .

ألا ترى إلى ما ذكرته لك في سورة الأعراف عند قوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شيء » فقد قلت لك هاك إن علماء القرن العشرين من المعاصرين لنا في أوروبا أدهشهم نظام ربهم في حيوانه ، فقالوا إن علماء

القرن التاسع عشر آراؤهم في العالم كآراء البحار وهو أقرب إلى الخرافة ، إذ يظنون أن هذا العالم جاء بالمصادفة والانتخاب الطبيعي الخ .  
 فإذا كان هذا شأن الصور الحيوانية للكعبة إذا فرضنا أنها مرسومة بأيدينا ، أفلا تساوى تلك الصور كلاب الصيد و كلاب الحراسة ؟

وإذا جاز لنا أن نحرس غنمنا بكلبنا ونصطاد الفزاه به ، والصيد واقتناء الغنم مباحان : وقد خرجنا بذلك عن كراهة اقتناء الكلب ، أفلا نخرج عن كراهة الصور أو تحريمها إذا كانت مرسومة في الورق ! قال أما هذا القول فهو حسن ، قلت ماذا تريد بحسنه ؟ قال إنه ثبت الجواز إن لم يرد في الحديث جوازه مع أن الأحاديث نطقت بجوازه ، قلت ليس هذا جوازا إنما هو وجوب ، وكيف لا يكون وجوبا ونحن لو تركنا معرفة هذه الحيوانات وحرمتنا رسمها على أطبائنا لجهلوا أمراضنا ولقتكت بنا تلك المخلوقات ، أفلا يكون ترك ذلك حراما ؟ قال بلى ! قلت إذن حراسة الإنسان والحيوان من الطاعون واللوات أفضل آلاف المرات من حراسة غنات في البادية لأعرابي ، قال نعم ! قلت إذن رسم الصور وتكبيرها يكون واجبا لأمرين : معرفة الله وشكره ، وحفظ الأمم الإسلامية من الهلاك ، فقال يا للمعجب ! إن هذا القول جميل ، وإن من البيان لسحرا ، وأود أن ينشر هذا القول بين المسلمين لأن هذه الأمة قد رسخت فيها هذه العقيدة وأكثر الناس لا يفرقون بين صورة وصورة ، ولا بين حالة وحالة ، بل الناس غافلون نائمون يسمعون بحريم الصور فيأخذونها على علاتها ، والعامية يتبعون صفار العلماء وصفار العلماء أعينهم في غطاء عن ذكر الله وعن التغطاء عن ذكر الله أن نخفي صور الحيوانات العجيبة فلا يفظنون لها .

فالمسلمون اليوم وقعوا في برأتين أسدين مفترسين : أسد جاء من الخارج وهي الأم الزاكية بذلوتهم ويفترسونهم للجهل الخبيث عليهم ، وأسد من الداخل وهم صفار الفقهاء في الدين الذين تصدروا للفتيا واتبعهم الناس وأعينهم في غطاء عن ذكر ربهم فضاعت الأمة فريسة للأسيدين : أسد الأعداء الخارجيين ، وأسد الأعداء الداخلين بجهلهم وهم الأعداء حقيقة . وفي التل [عدو عاقل خير من صديق جاهل] فهو لاء أسد قاه جاهلون يحفظون كلمات ولا يفقهون معناها ، فإن الله وإنا إليه راجعون . وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى [ إن من ينصر الدين بطريق الجهل أضرت عليه من أعدائه ، وناصر الإسلام أكثرهم جاهلون ] قلت له لا تأسف وتعلم أن الله أذن للمسلمين اليوم بالارتقاء ، وهذا التفسير من مقدمات تلك النهضة ، فلا يكن في صدرك حرج مما ابتلى به المسلمون من الجهل وانه على كل شيء وكيل ، فقال أنا كما قدمت موقن بهذا الموضوع ولكن بهذا البيان أفرح ليطلع عليه المسلمون ، وإني قد اطلعت في تفسير الفاتحة الذي نشر حديثا في كتاب خاص أنك ستكتب في النحل وفي العنكبوت وغيرها عجائب لا تحصى ، فأنا أود كما يود أهل العلم جميعا أن ترسم تلك الحيوانات بالتصوير الشمسي لترى بأعيننا تلك الحيوانات مكبرة ، فترى أرجل النحلة والنحلة الست وترى أرجل العنكبوت الثمان وهكذا ، وإذا كانت محاورتي معك قصدت منها أن يطلع للمسلمون في بلاد الإسلام وأنا قبل ذلك مقتنع بحديث مسلم وغيره ، فإنني أود أن أقابل أكابر علماء الحنفية والشافعية والمالكية وآتى بأرائهم لوضع هنا حتى يكون رسم الصور إجماعيا بمن يعتد بهم ، فلما أطلعت على ما كتبه جماعة من هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر من المذاهب كلها رأيت أنهم اتفقت آراؤهم واختلفت عباراتهم ورجعوا جميعا في المعنى إلى أمر واحد وهو جواز التصوير الشمسي كالذي يصور في هذا التفسير ، وهذا نص مقاله شيخى وأستاذى بالجامع الأزهر شيخ السادة الشافعية ومن هيئة كبار العلماء بنسبه قال : [ التصوير المحرم إنشاء صورة تشبه صورة الحيوان بخلاف حبس صورة حيوان بنحو زجاج فليس بتصوير

وحيث لا حرمة بل هو مثل حبس الصورة بالمرآة وهذا الحبس ليس مجرام [ ونحو نحوه صدقنا الشيخ يوسف المدجوي من كبار علماء المالكية وهكذا غيره .

فلما قرأت ما ذكر قات له الجواز لا يكفي بل هنا يكون الوجوب ، لأن العلم لا يظهر حقائقه في هذا الزمان الذي انصبت فيه دوائره إلا برسم صور المخلوقات الحية وغير الحية كما تقدم .

وإذا سمعنا صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة «أميطي عنى فإنه لا يزال تصاوره تعرض في صلاتي» فإنما نهم منه أنه لم يمنعه من ظهوره أمامه في الصلاة إلا أنه شغله دنيا ، إذن التصاور شغلتها في الصلاة فأمر بإمالتها .

إذن إذا كانت التصاور تعرفنا جمال الله وحكمته في كتبنا التي ندرسها فإننا لا نبيطها ولا نبعدها لأنها مذكرة بالله وبجماله .

إن العلماء استنجوا من وجودها عنده وأمره بالإمالة في تلك الحال أن الصور التي لا تظل لها مباحة فكيف بنا إذا رأينا صور الكتب التي ترشدنا إلى جمال ربنا ونظام حياتنا ، فهل هذه تبيطها ؟ كلا والله ! ثم كلا ! بل المفهوم من الحديث أننا نبيطها وجوبا أو ندبا .

#### تذكرة

بعد أن كتبت هذا زارني أحد الفضلاء فاطلع عليه فقال : إن ما أبديته من الأدلة كاف في جواز بل وجوب الصور الشمسية لإظهارها الحفايا والدقائق كي يحيط الإنسان علما بما في هذه الحيوانات من العجائب ولكن هذا ليس ينتفع به جميع المسلمين وهذا التفسير عام لا يختص بأهل سنة ولا بشيعة ولا بأمامية ولا يزيدية بل هو كتاب عام ، وفي هذه الطوائف من لا تنفعه البراهين العقلية ولا تكفيه الأدلة الحكيمة ، وإنما يقول على نصوص القرآن أو الحديث . وما عدا ذلك يضر بهم به عرض الحائط ، فهل لك أن تذكر ما يناسب الصور الشمسية من الآيات القرآنية ولا تنف عند ما ذكرت من قوله تعالى « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا » وأن هذه الصور إنما هي من أشعة الشمس واحتال الناس عليها فأسكنوها فان مثل هذا لا يجترى به ذلك الفريق من المسلمين ، فقلت إن تصغير الكبير وتكبير الصغير قد جاء بما في غزوة بدر ، ألم تر أن الله يقول « وإذ يريكوم إذ التقيم في أعينكم قليلا ويقول لكم في أعينهم يقضى الله أمرا كان مفعولا » ويقول « إذ يريكوم الله في منامك قليلا ولو أراهم كثيرا لفشتهم وتنازعتم في الأمر » فهنا صغر الله الكبير كما رسمت صور السماء في هذه السورة مصغرة ، وهكذا صور الهجرة وأنواع السديم فهذه قد رسمت لنا مصغرة لكي تكون أماننا ، أما هي فلا حصر لعظمتها فهناك صغر الله للمسلمين في أعين الكفار وصغر الكفار في أعين المسلمين عند اللقاء وصغرهم في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، كل ذلك ليقدموا على الحرب ، وههنا صغرت صور المجرمات وأنواع السديم ليدفعنا هذا لدراستها ، فهناك التصغير لإيقاع الحرب لينتشر الإسلام والعلم ، وهنا وضعت أماننا صور الكواكب والأرض وغيرها في العلوم جميعها كالجغرافيا والنبات والحيوان والفلك وعلم طبقات الأرض لتعلمها وتعلمها ، فالتصغير هناك للحرب والحرب لتشر العلم وهو دين الإسلام ، والتصغير هنا لتجتهد في البحث فتعلم فكلاهما للعلم صغر جيش الكفار في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفي أعين الصحابة عند التقاء الجيشين لتشر العلم ، وهكذا هنا صغرت هذه المخلوقات بالتصوير الشمسي لتشر العلم ، فقال صاحبي هذا والله أعجب العجب ، إن هذه أمور لا تخبر بالبال واستنتاج فاض ولكنة حق ولكنه لا يزال ناقصا ، أنت الآن عرفتنا تصغير الكبير ولذك لم تأت بما يدل على تكبير الصغير ولا يكفينا قوله تعالى « ولو أراهم كثيرا لفشتهم وتنازعتم في الأمر » لأن « لو » تدل على الامتناع فهنا أطلب منك أمرين [ الأمر الأول ] ما للنسابة بين رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ورؤية الصحابة جمع التذكرة

من أعدائهم جمع قلة وبين التصوير الشمسي [ الأمر الثاني ] أين تكثير القليل ؟ فقلت له الرؤيا عبارة عن انطباع صور في الخيال الذي اصطالحوا على أنه في ، قدم الدماغ ، فاذا رأى الإنسان شيئا في المنام فمعناه أنه انطبع في مخيلته لأقل ولا أكثر ، فإني صلى الله عليه وسلم لما رأى الأعداء قليلا انطبعوا في الخيلة قليلا وهكذا لما رأى الصحابة رضوا الله عنهم أعداءهم طبعوا في الخيلة عند كل واحد منهم قليلا بعارض سواي لانعده وحصل لهم في اليقظة ما حصل لآبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهذا أمر سهل والصورة الشمسية ما هي إلا ما طبع على جرم من الأجرام بأشعة الشمس وهذا للطبوع ينتقل بنظر العين إلى الحس المشترك والحس المشترك يوصله إلى الخيال ، فرجع الأمران إلى التصوير الشمسي ورؤية الصحابة ورؤيا النبي صلى الله عليه وسلم إلى النتيجة وهي وجود صور في الخيلة لأقل ولا أكثر وبهذه الصور تكون نتائج على مقتضاها فيكون الإقدام على الحرب هناك والإقدام على التفكير والمعلم هنا . أما [ الأمر الثاني ] وهو تكثير القليل فهو المذكور في غزوة بدر أيضا ، ألم يقل الله تعالى في سورة آل عمران « لقد كان لكم آية في فتية التفاضلة تقاتل في سبيل الله وأخرى كفرة برونهم مثلهم رأى الدين والله يؤيد بنصره من يشاء » فانظر كيف أيدهم بالصر إذا جعلهم في عين العدو ضعفي عدده ، وعدد العدو كان نحو ألف ، إذن يكون جيش الصحابة صار مقدار نفسه نحو ست مرات ومقدار جيش العدو مرتين لأن جيش الصحابة نحو ثلث جيش الأعداء ، فهنا لما اتقى الجيشان وكان كل منهما يرى الآخر صغيرا صار أصغرهما أكبر من أكبرهما لما أراد الله نصر ذلك الأمر فأراهم للآخرين ضعفي عددهم ، فهذه الإراءة قد جعلها الله لنصرهم على عدوهم ، هكذا هنا إذا نحن كبرنا صور الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والعنكبوت والحيوانات الثرية التي تكون سدا في الحصى والجدرى وأمثالها بنال علما ، وذلك أننا يزيد باق علما فزوجه ونشكره وبطباع الحيوان فهما فتعاشاه وتركه وتكثر جموعنا وتقل أمراضنا ، ثم قلت إذن التكثير والتقليل قد جاء في القرآن والله عز وجل أنزل ذلك في القرآن ليعلم المسلمين أنهم سادات هذا العالم ، فليصغروا الكبير لهذه الرسوم الكوكبية والجغرافية وغيرها حتى يستطيعوا دراستها ، وليكبروا الصغير حتى يتمكنوا من فهمه وتفعله ، فلما سمع ذلك صاحي قال الآن عرفت أن هذا القرآن لا يزال بكرا وأن آياته لم تزل محجوبة عن الناس ، هانحن أولاء نقرأ هذه الصور صباحا ومساء ونكرر تقليل الكبير وتكثير القليل والناس حولنا قد اتهلوا من ينابيع العلم وكرعوا من أنهر الحكمة والسلدون هم الساهون اللاهون ، تصغر الأمم الصور السماوية وللناطق الأرضية وتكبر الحيوانات الصغيرة وذرات طلع الأزهار في الأشجار وتعرف مستقر كل شيء ومستودعه ، والسلدون لا يعتبرون بما في القرآن ، ولا يفكرون أن الصور التي رسمها الناس كلها ترجع لهذين : تصغير كبير لتقريبه ، وتكبير صغير لتمكنه ، هذا هو أول العلم وهذا آخره والقرآن ذكر الأمرين معا في نفس القرآن فجعل التصغير للإقدام على الحرب والتكبير لفصل الخطاب وإيقاع الهزيمة ونصر من يشاء ، فقلت له إن في قوله تعالى « إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » إشارة إلى ما ذكره الآن ، فالعبرة في الآية ترجع إلى نصر جند الله مع قلتهم وخذلان الكفار مع كثرتهم ، وهذا الاعتبار قد سار شوطا بعيدا باجتهاد الأمة كالشافعي إذ جعل القياس مأخوذا من هذا الاعتبار ، ونحن نقول ويقاس على تكبير الصغير هناك وتصغير الكبير ما ذكرناه هنا ويكون ذلك اعتبارا لأولى الأبصار ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله اه .

فقال صاحبي أرجو أن تفصل فوائد المسلمين في تصغير الكبير وتكبير الصغير ، فقلت سيقوم للسلدون قومة رجل واحد على علوم السموات وعلوم الأرض من القارات والمعادن والنبات والحيوان والإنسان ورمونها ليفهموها مصغرة ثم يرسمون أيضا الحيوانات الثرية الصغيرة فيكبرونها ، ويتفهمون بكل موجود صغيرا أو كبيرا لأنهم بهذا يقدرون على فهمه ، واعلم أن المسلمين أقدموا على ذلك ولكن باعتبار أنه لاعلاقة

له بالدين ، أما اليوم فانهم سيقدّمون عليه باعتبار أنه من الدين ، وسترى في هذا التفسير إن شاء الله تعالى  
مجايب الحيوانات وغيرها مكبرة ، وترى رسوما مدهشة كما ترى في سورة النمل فهناك صور مسا كنه مكبرة  
ومزارع التي يزرعها ويحصدها ويخزنها ، وترى فيها طرقا زراعية جميلة يقرؤها أهل أوروبا لأبنائهم  
ويفرحون بحمل ربهم ، وللسلمون محرومون من جمال ربهم وقد آن أوان ارتقايتهم « ولينصرن الله من  
ينصره إن الله لقوى عزيز » والحمد لله رب العالمين اه .

الفصل الثالث في الكلام على بناء الأهرام لأنه من أسباب النجاة لبعض أيدان الفراعنة

ظهر جمال الله الأمام قديما وتجلّى لهم بنجومه الباهرة وأنواره الظاهرة ، يا الله أنت سلبت العقول  
وسخرت النفوس وأخذت الأئمة وأذعت حيك في البرية ، وأزت نفوسا في أرضنا وهي محبوسة في هذا  
الهيكل اللصوب ، يا الله نرت كواكبك الدرية في سمواتك العلية وقسمتها مناطق وروجا وخالفت بين  
أما كتبها وأقدارها وأبصارها وأضوائها وثقت في القرآن « وأشرق الأرض بنور ربها » .

يا الله أنت أبعجت العقول وأزت النفوس بنور هذه الكواكب تلك الافاضات في الدياجي الساحرات  
الطرف الناعسات العوانس ، إنك يا الله خلقت في هذه الأرض نفوسا أسكنتها في هذه الأجسام ثم شرحت  
صدورها لهذا الجمال وزينته عندها وصرفت أكثر الناس عنه وهم غافلون ، وهؤلاء الذين أدركوا هذا  
الجمال جعلتهم للناس قادة وجملت وجوههم وقلوبهم وأفواههم وشرقتهم على عبادك وعلمتهم من لذك علماء  
وأكتبهم حكمة وجعلتهم للعلم وارثين ، كما نظروا نجما يتلأأ أو قمر ابيض ، أو شمسا تشرق رأوا في ذلك  
سناك وجمالك ، وأنت تقول في القرآن « وهو الله في السموات وفي الأرض » .

من هذه الأمم الأمة المصرية ، أولئك الذين بهرهم جمالك وشغف قلوبهم باهر نور نجومك فأولعوا بك  
مفرمين وهاموا في جمالك متممين ، وأرسلت لهم نبيك إدريس الذي يسمونه (هرمس الهرامسة) وأيضا  
(هرمس الثلث) وأيضا (أخنوخ) وينطق به في هذه الأيام . وقد يقال له (سيزوستريس) .

هذه أسماء لسمى واحد عندهم ، ويسمى بهذا الاسم التجم السمى (الشعري الجمانية) أو (كلب الجبار)  
وهذا الكوكب أيضا يسمى (نوت) فلغرامهم بجمال النجوم الباهرات اختلط عليهم نور العلم الذي أفضته  
على رسوك إدريس بالنور الظاهري الذي أفضته على هذا الكوكب فأشركوها معا في هذا الاسم ؛ فكلاهما  
يسمى بالأسماء للتقدمة ماعدا لفظ (نوت) فيظهر أنه خاص بالكوكب المذكور .

وقد نسبوا إلى من يسمى بهرمس المذكور أنه كان حاكما في الأرض ووضع بها كثيرا من العلوم وألف  
مئات من الكتب .

ثم إن الكوكب المذكور يظهر مدة الفيض ويختفي في آخر تلك اللمدة ، فسموه باسمه وقالوا شهر (نوت)  
أي الشهر الذي يظهر فيه للعبود (نوت) وهو خفيبر السماء وملك الكواكب وبقى الشمس من الوقوع  
في الهاوية للهلكة وهو للوكل بكتابة أعمال الأموات يوم الحساب ويده لليزان وكانوا يصورونه قابضا على  
رقعة يكتب فيها موازين الناس .

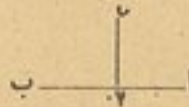
هذا ما كان عند قدماء المصريين في هذا الكوكب .

هذا الكوكب هو قبة المصريين القدماء

فلما تنهم جمالك وأنسنتهم أنوار وجهك وانجم حكماؤهم إلى مقامك الكريم ، بنوا مقابرهم بحيث تكون  
أنوار هذا الكوكب ساقطة عليها عمودية لامةة ليكون الشعاع أمكن منها وأكثر إشراقا عليها لتتوالى  
الرحمات على ما وصل إليهم في دينهم القديم .

ومن هذه القبائر الأهرامات الثلاثة الظاهرة بناحية الجزيرة التي تبعد عن النيل ثمانية كيلومترات وثلاثمائة متر وهي منسوبة إلى ( خفو ) و ( خفرع ) و ( منفرع ) ، وهؤلاء اللوك من الأسرة الرابعة بمدينة ( منف ) بالقرب من الجزيرة ، والمهرم الأول منها للاول من الأسماء وهو ( ١٧ ) فدانا والباقيان للأخيرين ، والحجارة التي بنى بها الأول تسكنى سورا يحيط بأرض مصر ، ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران ، ويبتدى من الإسكندرية إلى أسوان إلى البحر الأحمر ومن السويس إلى المريش .

وهذه الأهرام الثلاثة التي هي من عجائب الدنيا دعا إلى بنائها الاعتقاد الدينى إذ ذلك ونحن ليس لنا في هذا مدخل لأن ديننا جاء بعد ذلك الدين ، فهم أم قبلنا لانحكم عليهم بل يحكم عليهم النبي المرسل لهم وهو سيدنا إدريس عليه السلام ، وقد قال الله فيه « ورضنا مكانا عليا » وألمم للصريين أن يجعلوا نور ذلك الكوكب الجليل ذا وضع عمودى على الهرم كما تقدم ، حينئذ سألت ذلك الصالح فقال لى : قل لى تورك الله بالعلم مامعنى كون الوضع عموديا ، قلت معناه أن هذا الكوكب الذى يطلع جهة الجنوب أيام الفيضان يسقط نوره على حائط الهرم متجها اتجاهها مستقيما كقطرات المطر تنزل على الأرض فلا تنحرف يمنة ولا يسرة ، قال أوضح هذا للقال ، قلت إن أستاذى للرحوم أحمد أفندى نجيب مفتش وأمين عموم الآثار المصرية نقل فى كتابه عن للرحوم محمود باشا الفلكى أن بناء الأهرام كان قبل الميلاد بنحو ( ٣٣٠٣ ) معتمدا فى ذلك على أن قدماء المصريين لما بنوها جعلوا أشعة الكوكب النورية تقع عمودية عليها من جهة الجنوب ليتبرك بها الأموات من داخل الهرم كما أننا نجعل روس أمواتنا متجهة دائما نحو القبلة تبركا بالكعبة للطهرة ، وقال وقد علم من رصد هذا الكوكب أنه ينحرف فى كل سنة عن وجه الهرم بقدر ثانية وثلاثى ثانية ، وكان قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة يوازى فى مسيره لمدار الشمس متى كانت فى نهاية منطقة البروج أو للنقبات الشتائى ، فقال صاحبى هذا قول لا يفقهه أكثر الناس ، فقلت سل : فقال مامعنى كون الضوء يميل ثانية وثلاثى ثانية ؟ فقلت انظر هذا الشكل :



فالخط ( ج د ) عمودى على ( ا ب ) فالضوء كان يأتى أيام البناء مستقيما كالخط ( ج د ) ، والفرع الذى بين ( ج د ) وبين الناحيتين من الخط ( ا ب ) يقال لها زاوية وهما زاويتان ( ا ج د ) و ( د ج ب ) فهاتان الزاويتان تقسم كل منهما ( ٩٠ ) جزءا كل منها يسمى درجة والدرجة ( ٦٠ ) دقيقة والدقيقة ستون ثانية الخ ، فهذا الضوء كان يسقط عموديا ، يعنى ليس مائلا إلى إحدى الجهتين ، وكما حرت سنة مال ميلا يسيرا جدا وهو ثانية وثلاثى ثانية ، والثانية تتكون من تعدادها الدقيقة والدقائق تكون منها الدرجات ، قال فهمت الآن ، ولكن بقى أمر واحد وهو كيف يتبركون بهذا النور ؟ قلت هذه كانت عقيدة القوم سواء أكانت عن نفس النبي إدريس أم كانت من تزيير وضع الدين ، إنما الذى يظهر أن أصل هذا الدين كان شريفا ذا جمال وكال لأنه جذب نفوس القوم إلى المعالى والحكمة والجمال الإلهى الذى يكون الأحق به أمة الإسلام ، فقال وأتى دخل لأمة الإسلام فى هذا المقام ؟ قلت حياك الله قل لى : أليس إدريس رفعه الله مكانا عليا ؟ قال بلى ! قلت أليس نبينا صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يتبع الأنبياء ويقتدى بهم ؟ قال بلى ! قلت هؤلاء القوم أغرموا بالكواكب وجمالها وحسبوا ، ويقول الله « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها » ويقول « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقس لو تعلمون عظيم » ويقول « والنجم إذا هوى » ويقول « رب للشرقى

والعرب « ويقول « رب للشارق وللغرب » وأخيرا يقول « رب الشمري » شوقا للسلم للنجوم وجمالها ونسب على أنه « هو رب الشمري » والشمري هي ( توت ) وتوت هذا معبود المصريين وقد دخل في أسماء ملوكهم فقبيل ( توت عنخ أمون ) مثلا . وهؤلاء الملوك القرمون بهذا الكوكب جذبوا إلى مصر في زماننا أعظم العلماء والحكام من أوروبا وأمريكا وغيرها .

كل ذلك ليُشاهدوا تلك العلوم وتلك المعارف التي ذم الله من أعرض عنها فقال « فاليوم نتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

الحمد لله للنعم للتفضل وقد أراني الله في زماننا سر القرآن قد ظهر للبيان ، وقد كشف الله بعض آيات العلوم التي تركها قداماء المصريين وأبرز الهرم ومجائب الهرم وما الهرم إلا مقبرة جعلت لتضم عظام بعض اللواتي من ملوك القداماء والناس يتقاطرون لينظروا آياته في ذلك مصداقا للقرآن .

### الكعبة وكوكب الشمري

فقال ذلك الصالح يا عجبيا ! إذا كانت الشمري وغيرها من الكواكب قد جذبت نفوس القوم وصرفت همهم إلى جمال العلوم ، فلماذا لم تمكن لنا إحدى تلك الكواكب قبلة بدل الكعبة التي بناها الناس بأنفسهم مع أن الكواكب أجمل وأبهر ، فقلت اعلم أن الله عز وجل جعل أمة الإسلام آخر الأمم لتفتبس سائر علومها وقص قصص الأمم لذلك .

ولما كان القداماء القرمون بالكواكب إذا طال عليهم الأمد قمت قلوبهم وحمدوا على ذلك الكوكب الذي هو قبلتهم وعبدوه ونسوا رب الكوكب ، صرف السليين عن ذلك وجعل لهم الكعبة قبلة وفتح عقولهم لسائر العلوم وحرضهم على النظر في كل جميل من كوكب وجبل وشجر وخص الشمري بالذكر ، فقال « وأنه هو رب الشمري » فالشمري التي عبدها قداماء المصريين وبعض العرب كما سيأتي في سورة النجم ليست إلها بل هي من آيات الله تعالى وهو ربها كما هو ربكم .

فالسلم يستقبل الكعبة ويعبد الله بالنظر في مجائب الشمري وغير الشمري وسيرت علوم الأمم ويقراء ما قرأه قداماء المصريين من مجائب هذا الكوكب وغيره ، ولما كان النظر في العالم العلوي أعلى ما يطلبه الدين . قال الله في إدريس « ورفناه مكانا عليا » فليكن هذا الملوك لإدريس نورا للمسلمين الذين لا يستقدون ألوهية في الشمري ولا في غيرها ولا يفتنون بكوكب ولا بغيره . بل يؤمنون الكعبة التي لا يتجبل فيها ألوهية كما تجبل القداماء ألوهية الشمري لأنها تطلع عند الفيضان فتصبح القبلة كأنها إله ، لأنها قبلة .

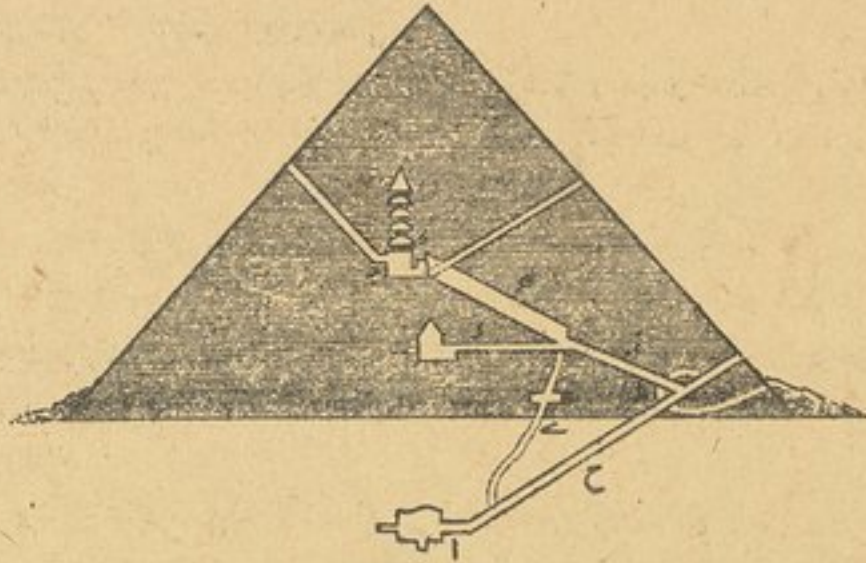
بهذا أصبح للسلم سيذا عن مطلق الكفر بما هو قبلته ، وفي الوقت نفسه مجذوب إلى النظر في جمال هذه النجوم ، فقال صاحبي عجبيا لهذا اللقاع ! إنني لم أر أحدا من القسرين ذكر هذا ، فقلت إن هذه العلوم لم تظهر إلا في زماننا ، وللقرآن عجائب وبدائع يظهرها الله حينما بعد حين ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما توفى جعل الله في القرآن أسراراً تظهر وقتا بعد وقت ، كأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال حيا وهذه معجزاته تتوالى ليطمئن الناس ويوقنوا برهم ويزيدوا علما كما قال تعالى « وقل رب زدني علما » فالسلم يزيد علما والسلم يقرأ جميع العلوم ، والعلوم فروض كفايات ، والسلم مادام قادرا على النظر والفكر فهو مأمور به شكرا لربه ، وزيادة معرفة .

إن السليين في مستقبل الزمان سيكونون أرقى علما من غيرهم ، ولهذا التفسير إن شاء الله دخل في تشويقهم إلى كل علم وكل حكمة وكل جمال في الأرض وفي السماء ، لأنه مصداق لقوله تعالى « سنبهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فهذا التفسير فيه بعض الآيات التي أراها الله للناس في زماننا .



معجزة القرآن في هذا الزمان

ومنها هذا الهرم الذي أفضنا في الكلام عليه الناخذل في قوله تعالى « فاليوم نتجيك بيدتك لتكون لمن خلقك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » انتهى .



( رسم الهرم ، شكل ١٣ )

بيان قوله تعالى « لتكون لمن خلقك آية »

اعلم أن صورة الهرم للرسمية أمامك فيها تمازج يقصد منها إحلال من يريد دخول الهرم معجزة لقوله تعالى « لتكون لمن خلقك آية » وذلك أنه لن يكون آية من قدماء المصريين إلا من بقيت جثته محفوظة ، وكيف تبقى محفوظة إلا ببناء يكفها وضلال الذي أراد سرقتها وإجماع دول أوروبا وأمريكا على حفظها ، هذا هو المعجزة القرآنية .

انظر إلى نقطة ( أ ) التي هي رواق تحت الأرض ، فذلك لا يمكن الوصول إليه الآن لأن طريقه مسدود .

ثانيها نقطة ( ب ) وهي الرواق المعروف الآن باسم رواق اللسكة ، وتلك التسمية لم يبق دليل عليها لأن

ثالثها نقطة ( ج ) وتعرف باسم رواق الملك .

رابعها نقطة ( د ) وهي بسطة يخرج منها مجريان للهواء أنزلق منهما حجران كبيران فأغلقا منفذى رواق الملك غلقا محكما بعد وضع جثته فيه داخل تابوته .

خامسها نقطة كل من ( هـ و زح ) وهي سرداب معدة لتوصيل الأماكن لبعضها .

سادسها نقطة ( ط ) وهي بسطة يخرج منها السرداب الذي فتحه للأمون .

سابعها نقطة ( ي ) وهي البئر التي نخب فيها عقول أولى النهي .

والقصد من ذلك كله أن يضل السائر فلا يهتدى إلى السبيل ، وتقل أستاذنا في الأثر الجليل مانعه :

[ قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحيم في كتابه : ( تحفة الألباب ) فتح للأمون الهرم الكبير وقد دخلت

في داخله فرأيت قبة مربعة الأسفل ، مدوّرة الأعلى ، كبيرة في وسطها بئر وهي مربعة ينزل الإنسان فيها فيجد في كل وجه من تربع البئر بابا يفضى إلى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب على كل واحد وقد بليت لطول الزمان واسودّت أجسامهم وهم مثلنا ليسوا طوالا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شيء ، وأجسامهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالنشاء لطول الزمان ، انتهى ] .

ونقل عن غيره أنهم بعد اللتيا والتي والجهد الطويل والشقة وجدوا في أعلاها بيتا مكعبا وفي وسطه حوض من الرخام مطبق ، فلما كشفوا غطاءه لم يجدوا فيه غير رمة بالية ؛ فعند ذلك كتب للمأمون عن نقب ماسواه ، انتهى .

شكر الله على الحكمة والعلم ، وأن الإسلام أعتق الإنسانية من الحرانات

إني أحمد الله على نعمة العلم والحكمة ، إليك اللهم الشكر على ما تفضلت بالحكمة وألمعت من العلم أذكر أيامك معي وأذكر أيام أن كنت مجاورا في الجامع الأزهر حوالي سن العشرين ثم أرجع إلى بلادى في القرى ببلاد الشرقية ، ثم أخرج من بين البيوت لعلني • أحدثت عنك النفس بالليل خاليا • وكنت أشد قول مجنون بليل :

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدثت عنك النفس بالليل خاليا

وكنت أسامر النجوم الراقصات في دياجى الظلمات وأفكر في أمرها وأمر هذا العالم وأمر آثار قدماء المصريين وأمر الأمم التي في الأرض التي مدت في بلادنا السكك الحديدية وقطارها .

ولطالما كنت أقول ياليت شعرى ! ماهذه الأطلال القديمة وما علوم أهلها وماذا تصنع الأمم اليوم في علومها وصناعاتها ، ولماذا لا أرى للسليين حركة فكرية مثلهم ؟ ولماذا أرى شيوخ الدين لا يفكرون فيما حولهم إلى آخر ما في كتاب [ التاج للرصع ] في أوله .

كل ذلك كان يدنى ، وأذكر أنى كنت عاهدتك أنى إذا اهتديت لحل العمى من هذا الوجود وعرفت بضه فإنى أنشره لمن بعدى حتى لا يضل شيان بعد ضلالى ولا ينالهم نصب كما نالنى ، بل أنا أجعل ما أعله لهم شرابا خالصا سائما للشاريين ، هذا ما كان يجول بخاطرى ؛ فما أنا ذا اليوم أحدثت بنعمتك على وأقول :

لقد منّ الله على بعد طول الزمان واليأس والنسب بالحكمة والعلم وألمنى أن أوّلف هذا التفسير الذى أرجو أن يكون ذخيرة ونورا للأذكياء بعدى .

إن أكثر ما أكتبه في هذا التفسير يحول بنفسى الآن ويكون قوى الهجوم على النفس بحيث لا يفارقنى في غدوى ورواحى ، وخلقوى وجلونى ، وصبرى مع الأصحاب وصحقى ، ونوبى ويقظتى ، فلا ملجأ لى من هذه الخواطر إلا بكتابها ، ومتى سطرتها هدأت النفس واستراحت واستقبلت غيرها ، ذلك شأنى في هذا التفسير .

وهذا الذى أكتبه في هذا اللقاه قد كان خاطره قويا ، فكما كنت أتخيل هذه الأمور في الصغر متحسرا أشد الحسرة على جهلى بها ، هكذا أنا اليوم أجد فى النفس ميلا قويا إلى كتابتها ونشرها وأحسن بأنى بلغت أملى من هذه الحياة بذلك [ وقد فى خلقه شئون ] وعظمت لى أن هذا سيكون سائقا وشائقا لأولى القاه إلى حوز العلم والحكمة .

وإني كثيرا مايقع في قلبي أنني لو لم أكتب مايهجم على نفسي من الحواطر الجميلة المهاجة على ، فإن الله يجعل العقوبة لي في هذه الحياة .

ولقد من الله على بنشره ، لقد من الله على بذلك وشرح صدرى وقد كتبت بأجده فيها ، والله هو الولي الحميد .

تفصيل أنتم لقوله تعالى « لتكون لمن خلفك آية »

وكيف أعتق الإسلام الأمم من الحرافات

علم أن الديانات القديمة كلها كانت أشبه بهذا العالم الذي نعيش فيه ، ألا ترى رعاك الله أن الشوك يصعب الورد ؟ والغذاء الذي تأكله تصعبه فضلات ؟ والنمر لا يكون إلا معه الورق ؟ والحلب لا يكون إلا مع العصف ؟ هكذا كانت الديانات ، فإذا نزل إدريس على الصريين بدين سماوى فهاهو ذا قد تغير الدين وصار ممزوجا بحرافات حتى إنك لترى أنهم وجدوا كثيرا من الأحجار النحوتة على هيئة الأهرام واللسلات موضوعة في المقابر بجوار الأموات ، وهكذا وجدوا أحجارا رسمت عليها صورة الأهرام وبازائها علامة الكوكب المتقدم وكل ذلك للتبرك ، فكانت الأهرام رمزا لهذا للعبود الذي كانوا يصورونه في معابدهم في هيئة جسم إنسان له رأس طائر ( أيس ) وهو أبو قردان وكانوا يعبدونه أيضا .

إن في نظر ذلك لبرة للعقلاء ، فانظر إلى قبلتهم وهو الحرم كيف جعلوه مع كوكب الشعرى مناط الألوهية . ثم انظر في مسألة السماء كيف كانوا يقولون إن جميع الأجرام السماوية تحت رياسة الشمس ، وتارة كانوا يرسمون السماء على شكل وادى مصر تشقه الحجرية وقد مثلوها بالنيل وحصرها مثل بين سطحين ممتدين من الجنوب إلى الشمال وقسموا السماء إلى أقسام كأقسام مصر والشمس تطوف عليها كل يوم في مسيرها من الشرق إلى الغرب وتدخل في المساء في فتحة جبل مثلوه ( بجبل العرابة للدقونة ) أو ( الحرابة للدقونة ) التي بمديرية جرجا بالصعيد ثم تنور في سراديب وتقاسي آلاما ونضى على قوم آخرين ثم ترجع لناكرة أخرى بعد المشقة والآلام

وقالوا أيضا في الروح الشقية تحوّل دعواتها وصلواتها إلى عبث وهزؤ فتجلبد وتلعن وتبحث عن جسم إنسان لتسكنه وتكون في مرض وذلل أو جنون ، أو عن جسم حيوان وتدوم على ذلك قرونا إلى أن تستوفي العذاب ثم تموت وذلك بشهادة القلب ، قال أستاذنا المذكور : وقد وجد على أحد أوراق البردى ماصورته [ أيها القلب التي خلقت لي وأنا في بطن أمي وأنت ممي إلى الدنيا لاتنازعني ولا تشهد على بين يدي الله ] أما الروح الراضية للرضية فاتها جد الحساب أخذ بيدها الرجا الصالح وعفها الشياطين ولكن تلاوة العزائم تمنهم ثم تتحد الروح بأوزيريس وتصير مثله : أي تدخل في العنبر الذي خرجت منه وتمقطع للساكن السماوية وتزور جسمها متى شاءت ، ولذلك يحفظون الأجسام .

هذه آراؤهم في السموات وآراؤهم في الأرواح وآراؤهم في الدين ، فانظر أيها المسلم إلى دين الإسلام إن الديانات القديمة فيها الفس والسمين : واختلط فيها الكذب بالصدق كما هو شأن الناس في أقوالهم وأفعالهم وكما هو شأن ما كلفهم ومشاربهم ولكن الله يريد رقى الإنسانية ، فماذا فعل ؟ أنزل الدين لليسى ، فماذا حصل ؟ لم يرض بالأصنام وجمال الإله واحدا ولكن أذاعه جعلوه ثلاثة ؛ فقام الإسلام وقال كلا ! الإله واحد هناك زلزلت الأرض زلزالها ، زالت الأصنام تماما : وفات الزمان الذي تقدس فيه الشمس والكواكب ونزل قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » فليست الشعرى التي ترسم على أحجار للصريين مع هرمهم هي الله

بل هو ربها ، وأيضاً ليست الشمس هي الإله وبعد ذلك انطلقت العقول وقام المسلمون بحركة العلم في العالم من القرن السادس الميلادي إلى القرن الحادي عشر .

وهناك تعلقت أوروبا من المسلمين كما وضع بعضه في آخر سورة التوبة ، ويتضح بآية في قوله تعالى « وذكروا ما يأمركم الله » في سورة إبراهيم عليه السلام وصار المسلم بل كل عاقل في الأرض فك عقال عقله للمسلمون ، يقرأ كل علم وكل فن ويقرأ المسلم « وقل رب زدني علماً » ويقرأ قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » فآيات الله في كل بنا . وشجر وحجر وكوكب ؛ فالهزم آياته ، والنجم آياته . وتدرج الأمم من الجمود في القرون الأولى إلى الحرية العلمية اليوم في عصرنا آياته ، وتطور المسلمين لأوليين للعالم الإنساني من آياته .

وسترى في سورة إبراهيم تصميم العلامة ( سدوي ) الفرنسي وجزمه أن العرب وسائر الأمة المحمدية هم نور العالم ولولاهم لم يكن لهذه الدنيا رقى وآنى فيه بمئات الأدلة القطعية كما رأيت وسترى بعضه .  
ولذلك ترى الأمم اليوم أن الشمس التي هي سيدة الكواكب عند قدماء المصريين والبابليين صارت في أخريات الشموس كما أطلعناك عليه في سورة البقرة وآل عمران والأنعام وغيرها حتى أن بعض تلك الشموس ضوءها مقدار ضوء شمسنا ( ٨٠٠٠ ) ثمانية آلاف مرة بدلاً أكثر من ذلك ، وأن الشموس لا حد لعظمتها وعددها وأنها تبلغ مئآت الملايين ولا يزال الكشف يزيدنا بياناً .  
إذن علم قدماء المصريين من العلم الذي حدث وانتشر بسبب ظهور الإسلام الذي حرك أوروبا والعالم للبحث .

إن دين الإسلام جاء لمحو الخرافات وللإعتماد على العقل ونبذ كل ما ليس معقولاً ، هذا هو سرّ قوله تعالى « لتكون لمن خلقت آية » فالآية هنا واسعة النطاق من علوم وصناعات بلا اعتقاد يحصر الفكر ، وبالقرآن عدنا فك عقال العقول حتى اقتنصت شوارد العلم في الأرض وفي السماء .  
إن الإنسان اليوم غيره بالأمس ؛ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

#### لطيفة وذكري

قد كنت وأنا مرهق رأيت أهل قريتنا قد عثروا على رجل مدفون في قاع بركة أمام قريتنا ولم يجدوا إلا عظامه وقد وجه وجهه إلى جهة الجنوب ، وقد بنى عليه قبر بكل من الأرض للصيرية الحصيد الجافة المعروفة في بلادنا ( بالنراق ) وقد حفظ ذلك القبر جنته آلاف السنين وهو تحت وجع الأرض بنحو ثلاثة أمتار .

فها أنا ذا أحمد الله عز وجل اليوم إذ عرفت سرّ هذا الدفن وأنه قصد به التوجه للهزم للشمول ببناء كوكب الشمري وعرفت اليوم أن هذه خرافات وأن الإسلام محاذق وجعل قبلتنا الكعبة ودأبنا النظر في كل كوكب وجمال كل شمس ووجهنا وجهها لله لا لا لكواكب ولكن ندرس كل كوكب وكل شمس وقد فتح الله للناس أبواب السماء فدرسوا ، وهام أولاء يدرسون علم الأرواح كما اطلعت عليه في سورة آل عمران والبقرة ، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وفي اعتقادي أن هذا التفسير وأمثاله سيفتح مجالاً للأمة الإسلامية وستقوم أمم بعدنا من المسلمين يرقون رقى عالياً ويحدثون في الأرض قوة كما أحدث أجدادنا أصول هذه النهضة ، والحمد لله رب العالمين اه .

وجدان المؤلف أيام الشباب والشيب وكتاب الله تعالى وأمم الإسلام

ها أنا أحدثك بها لكي عن أيام شبابي وشيبي بأوسع مما تقدم فأقول : ذكرت لك آغافاً شوقى إلى العلوم أيام الشباب ، وها أنا ذا أوضعه فأقول :

قد كان يطربنى مر النسمات على الأعشاب فيسرى تبريدها ويطربنى تمايل الأعصان وحفيف الأوراق وتنى الحشرات وعصف الرياح « والليل إذا تجسس . والصبح إذا تنفس » وإذا غربت الشمس وظهرت النجوم أجلس على بساط من الحشائش وأخذ أستمع لما في الحقل من نغمات وأنظر لما في السماء من نجوم باهرات ، وكنت كفى في محفل جمع بين بهجتين : بهجة النظر للأقصات الحسان القاصرات الطرف الناصرات الهجيات وهى النجوم ، وبهجة لأوسيقى تشف الآذان يدياع الألحان ، فالناظر سماوية والنغمات أرضية ، هذه الصور الجميلة عندي طبعت في الخيلة يوماً فيوماً وليلة فليلاً ، دام ذلك سنتين وسنين .

وقد كان خلوة الجوف بالصوم ولقيام بعض الليالي أثر في ذلك الجمال والبهجة والشوق ، ذلك الجمال الخيالى دعا العقل إلى الجمال العلمى ظهور المحاسن فى الطبيعة التى ارتسمت فى خيالى لاتفارقها ، ألجأت القوة العاقلة أن تجعل بالمحاسن كجمال الخيال ؟ ولا محاسن للعقل إلا صور معنوية هى الحكمة والنظر فى مختلف العلوم .

الجمال مضططيس العلوم يجذب إليه كل ما هو جميل معنوى ، جمال الوجوه فى الحى يجذب العاشقين ، وانطباع الخيال بالجمال يجذب العلوم والحقائق لتسكن فى العقول .

جلت آفة وجل الدم ، إن شبيه الشيء منجذب إليه ، وللمجاورة حكمها ، جاور الخيال العقل فى الدماغ ، فلما رجع الأول بالدرر الحسان من الكواكب والنغمات حن الثانى إلى حقائق الوجودات ليتعلى بالحكمة ويزدان بالعلوم .

النفس واحدة والعالم واحد ، العالم الذى نعيش فيه واحد ونفوسنا تنظر له أيام الصغر واحداً ، فجميع العلوم عندها علم واحد لا علوم ، كما أن العالم أشبه بجسم واحد ، هكذا العلوم المختلفة كأنها واحد ، العلوم كشجرة واحدة لها فروع وأعصان .

ضعف الإنسان فوق الأرض فلم يطق الفرد الواحد أن يعرف هذا الوجود ، قسم أوصافه إلى أقسام : هى كل قسم منها علماً مع أنها كلها أوصاف شيء واحد هو هذا العالم ، لهذا ترى العلوم قسمت على الأفراد كما وزع الإحساس فى الجسم على الحواس ! فللمسمع غير ما للبصر .

هكذا العلوم قسمت على الناس فيجدرن زيد ما لا يحسن عمرو ، ذلك لضعفهما كما ضعفت العين أن تسمع السمع إلى البصر ، وضعفت الأذن أن تسمع الإحصار إلى السمع « وربك يخلق ما يشاء ويختار » « لا مضيق لحكمه » وهذا قوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفاً » فلولا هذا الضعف لكانت جميع العلوم عنده علماً واحداً ، كنت أنظر للأشياء جميعها بلا فارقة بين علم وعلم ، أنظر للآثار والأطلال والأشجار والأخبار وتاريخ الأمم والصناعات وأمم القرون وأمم الإسلام ودين النصارى ودين الإسلام .

ذلك هو الذى حركنى إلى سائر العلوم التى اطلعت على كثير منها بمدرسة دار العلوم وعلى باقىها بالاطلاع على علوم شرقية وغربية .

ها أنا ذا الآن فى العقد السابع من حياتى أنظر فى أمر نفسى فأجد الترام القديم والحلب والشوق قد تجملت لها مع طرب وسرور كما قال مجنون ليلي :

فشاب بنو ليلي وشب بنو ابنا وأعلاق ليلي فى الفؤاد كما هبنا

فنفسي في شيئا مفرمة كما كانت أيام شبابها ، بل هي أشد غراما والغرام اليوم بالنشر والتعليم ، والغرام إذ ذاك بالتحصيل ، وفي النشر ازدياد لعلم وابتهاج بالتحقيق .

كتاب الله تعالى

لقد كنت أيام الشباب لا أرى في هذا القرآن معاني لأني حفظته بلا عقل ولا فكر وكنت أسوء الظن بمن يقولون إنه يدعو إلى العلوم ، وكنت أقول إن هؤلاء مرادون كاذبون ، فلما درست ونظرت أيقنت بأن هذا القرآن يدعو الناس إلى مختلف العلوم ويشوقهم لها كما كنت أشواق لها زمن الشباب . فكأن هذا القرآن يدعو النفوس إلى فطرتها ، وإذا قال الله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فيه تلميح إلى ما قرأنا ، فنفسنا تطلب كل العلوم وهذا القرآن يشوق لها « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وما ذكرته الآن سيظهر أثره في أمة الإسلام .

أمة الإسلام

إن الأمة الإسلامية تطلع اليوم على أمثال هذا الكتاب ، وهناك نفوس خلقت مفسورة على النظر مجبولة على التفكير فتستأجلها الحيرة والحيرة كما قابلتني أيام شبابي ولكن الله أذن بإررار هذا التفسير ليكون مفتاحا يفتح للعقول مجال النظر فيفرون من سجون الجهالة العاتية في البلاد الإسلامية وينطلقون من حبس المقول إلى ساحات الجمال وبساتين العلوم . رحمة الله الحكمة ، ويشمون أزهارها ويقتطفون ثمارها . هذا الكتاب تبصرة لمستزيد ، ومنهج لمريد ، وبلغة لقاصد ، وزاد لساافر ، وفك عقال معتقل ، وفتح باب ، وهدي وذكرى لأولى الألباب ، انتهى .

تحفة مهداة للمستبصرين في الإسلام والنظر في كتب الفرج وجمال الصور

للوجودات في الأرض والسموات

تبين من هذا أن سبب هذا التفسير ومبدأ النظر في جمال هذه الدنيا صفرا وتحصيل العلم وحب النشر في الكبر ، ذلك كله مبدؤه النظر في جمال الأرض وجمال السماء .

ولقد اطلعت على كتب الفرجة للبنديين فرأيتها عملة بالصور الجميلة الحسنة من شجر وزرع ونمر وكوكب وقرع حيث يشاهد الطفل في مدرسته صور ما كنت أشاهده في الحقول ، فتبارك الله الذي ألهم الناس أن يحاكيوا الطبيعة ويشاكلوا صور للوجودات وجمالها .

هكذا فلتعلموا أيها المسلمون ، لتقم طوائف منكم وليدرسوا نظم التعليم ونظم الكتب والصور التي فيها والحكايات التي تدرس للأطفال والنحف العلمية اللذيذة ، ولتخذوا لكم أحسن للثل وأجمل الطرق ، ولتعلموا أبناءكم حب هذا الجمال كما أحببناه ، فكل هذا الوجود آيات الله وكله نور الله ، وكله دين الإسلام ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى تفسير القسم السادس من سورة يونس .

( الْقِسْمُ السَّابِعُ )

فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ • وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَكَوْنُوا مِنَ الْخَالِسِينَ • إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ • وَلَوْ جَاءَتْهُمْ

كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ \* فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ  
 يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ \* وَلَوْ شَاءَ  
 رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُسْكَرُهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ \*  
 وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَمْقِلُونَ \* قُلِ انظُرُوا  
 مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ \* قُلْ  
 يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ \*  
 ثُمَّ نُحْيِي رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ \* قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن  
 كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ  
 الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* وَأَنْ أَقِيمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا  
 وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ  
 فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ \* وَإِنْ يَسْتَسْكِ اللَّهُ بِضُرِّكَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ  
 يُرِيدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \*  
 قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ  
 ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ \* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ  
 يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

## التفسير اللفظي

قال تعالى ( فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ) من القصص على سبيل الفرض والتقدير ( فاسأل الذين  
 يقرءون الكتاب من قبلك ) فإنه محقق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك ، والمراد تحقيق ذلك  
 والاستشهاد بما في الكتب السابقة وأن القرآن مصدق لما فيها ، والحطاب وإن كان قلبي صلى الله عليه وسلم  
 فالقصد أتمته ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أشك ولا أسأل » ( فلا تكون من الممتريين ) أي الشاكيين  
 بالترنول عما أنت عليه من الجزم واليقين ، وقوله ( ولا تكون من الذين كذبوا - إلى قوله - من الخاسرين )  
 من باب التهيب والتثيت وقطع الأطماع عنه كقوله « فلا تكون ظهيرا للكافرين » ( حقت عليهم كلمة  
 ربك ) أي وجبت عليهم لأن استعدادهم بينهم من قبول الإيمان ( لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية ) فإنهم  
 لا يؤمنون بها ( حتى يروا العذاب الأليم ) فيثبت لا ينفعهم الإيمان كما حصل لفرعون الذي قال « آمنت »  
 بعد قوات الفرصة كما في قوله « أتم إذا ما وقع آمنت به الآن وقد كنتم به تستمعلون » فانظر كيف ذكر

فرعون وغرقه لمناسبة ماضى في هذه السورة لتكون تلك القصة تطبيقاً على هذا القول ، فقوله في مسألة فرعون « آلا وقد عصيت قبل » هو كالفول للتقدم آنفاً « أتم إذا ما وقع آمنتم به » وهو بمعنى ما جاء في سورة الأنعام « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها » وقد أوضحت للقام هناك بما لا مزيد عليه ، وههنا يقول الله في هذا المعنى « إن الذين حقت عليهم - إلى قوله - حق يروا العذاب الأليم » ثم أتبعه سبحانه بما يفيد فتح باب التوبة وقت القدرة فقال ( فلولا كانت قرية آمنت ) أى فهلا كانت قرية من القرى التى أهلكتها آمنت قبل معاناة العذاب ولم تؤخر الإيمان كما أخره فرعون ( فنفخها إيمانها ) بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها ( إلا قوم يونس ) لكن قوم يونس وهو استثناء منقطع ( لما آمنوا ) أول ما رأوا أماراة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله ( كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتنهم إلى حين ) أى إلى انتهاء آجالهم .

يرى أن يونس عليه السلام بحث إلى أهل نينوى من اللوصول فكذبوه وأصرروا على تكذيبه فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث ، فلما دة الوعد أغامت السماء غيماً أسوداً دخان شديداً فهبط حتى غشى مدينتهم فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الضعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين كل والدها فغن بعضها إلى بعض وعات الأصوات والمجيج وأظهروا الإيمان وأخلصوا التوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم الضر . ويقال إنه كان يوم عاشوراء يوم الجمعة ( ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ) بحيث لا يشذ منهم أحد وإنما لم يجتمعوا على الإيمان بل منهم من لم يقبله للنظام الذى اختاره الله بحيث يختلف الناس باختلاف الأزجة والأحوال والأخلاق وأن الاستعداد هو الذى عليه مدار الارتقاء والانحطاط ولن يكون القضاء إلا على مقتضى الحقائق الثابتة وهؤلاء هذه حقيقتهم ، وهل يشاء الله إلا ما هو حق ؟ ( أنأنت تكفره الناس ) بما لم يشأ الله منهم ( حتى يكونوا مؤمنين ) بخلاف للشبهة مستحيل ، وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان قومه شديداً الاهتمام به ، ولذلك قرره بقوله ( وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ) أى بإرادته وأطافه ونوفيقه ( ويجعل الرجس ) أى العذاب ( على الذين لا يعقلون ) لا ينفعون بقولهم فلا ينظرون الحجج والآيات ولا يفكرون فيها فيكونون ظالمين عما حل بالأمم السالفة وما أصابها من خير أو شر وعقل وفكر وجهل وغباوة كما جاء آنفاً « لتكون لمن خلقك آية » ونهى على الناس غفلتهم عن ذلك وعما أعقبه من السموات والأرض وعما بينهما فقال ( قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ) من عجائب صنعه والآيات والمعبر باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع والثمار مما لا يتأهى من حكم بارعات وآيات بينات وغرائب مدهشات ، كما أمرهم بالنظر فى هجائب الأمم وأبدانها الباليات وآياتها الباهرات .

فمن قرأ العلوم الفلسفية والعلوم الرياضية والطبيعية فهو من اللوحدين توحيداً حقيقياً أرقى من علم التوحيد للشهور إذا وجه نظره إلى نظام العالم العام وتعجب من جمال صنعه ، أما إذا قرأه قراءة الغافلين كما كثر من من يتعلمون بالمدارس اليوم فأولئك عن ذلك مبعدون وهم عن الله غافلون .  
وهكذا من قرأ علوم المصريين والبابليين والآشوريين والأوروبيين فى تاريخهم وأحوالهم العجيبة يكون ذلك منه امتثالاً للدين وترقية للعقل وله ثواب عظيم مادام رعى لغرض شريف .

ولما كان ذلك لا ينفع به إلا ذوو الاستعداد العقلى أردفه بقوله ( وما تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ) بحسب ما سبق به العلم ، وما نافية ( فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ) مثل وقائعهم كما يقال [ أيام العرب لو قائمها ] ( قل فانظروا إلى معكم من المنتظرين ) أى فانظروا هلاكى إلى معكم



من المنتظرين هلاككم ، ولقد جرت عادتنا فيما مضى أنا نهلك الأمم الذين كذبوا ( ثم تنجي  
 رسلنا والذين آمنوا ) من تلك الأمم إجماع كذلك الإنجاء ، تنجي محمدا صلى الله عليه وسلم  
 وصحبه حين نهلك الشركين ، حق ذلك حقا علينا ، وهذا هو تقدير قوله تعالى ( كذلك حقا علينا  
 ننج المؤمنين . قل يا أيها الناس ) خطاب لأهل مكة ( إن كنتم في شك من ديني ) وصحته وسداده فهذا  
 ديني فاستمعوا وصفه ، ثم وصف دينه فقال ( فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ) أى الأسماء ( ولكن  
 أعبد الله الذى يتوكلتم ) أى بعبادته ، وإنما وصفه بذلك ليربهم أنه هو الذى يتقوى ويخاف بخلاف ما يعبدون وهو  
 ما لا يقدر على شيء فكيف يخاف ( وأمرت أن أكون من المؤمنين ) أى بأن أكون : أى أن الله أمرني  
 بذلك بما ركبت من العقل وبما أوحى إلى في كتابه ( وأن أقم وجهك للدين ) أى وأمرت بالاستقامة في الدين  
 بأداء الفرائض والالتناء عن القبائح أو في الصلاة باستقبال القبلة ، فهذا عطف على أن أكون ( حنيفا ) حاله  
 من الدين أو الوجه : أى مستقيما عليه غير معوج عنه إلى دين آخر ( ولا تكون من الشركين ) مع الشركين  
 على دينهم ( ولا تدع ) لا تعبد ( من دون الله ما لا ينفعك ) في الدنيا والآخرة إن عبده ( ولا يضرك ) إن  
 لم تعبه ( فإن فعلت ) عبت ( فإنك إذا من الظالمين ) من الضارين لنفسك ( وإن يمسك ) يصبك ( الله  
 يضرك ) بشدة وأمر تكبره ( فلا تكشف له ) فلا رافع للضر ( إلا هو ، وإن يردك بخبر ) بنعمة وأمر تسرببه  
 ( فلا راد لفضله ) لأمناح لعظيته ( يصيب به ) بالخير ( من يشاء من عباده وهو العفور الرحيم ) فتعرضوا  
 لرحمته بالطاعة ولا تياسوا من غفرانه بالمعصية ( قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ) الرسول أو القرآن  
 وليس لكم بعده عذر ( فمن اهتدى ) بالإيمان والتابعة ( فلنأمنن أنفسنا ) لأن نعمه لها ( ومن ضل ) بالكفر  
 ( فلنأمنن بضل ) عليها ( لأن وبال الضلال عليها ) ( وما أنا عليكم بوكيل ) بحفيظ موكل إلى أمركم ، وإنما أنا بشير  
 ونذير ( واتبع ما يوحى إليك ) بالامتنال والتبليغ ( واصبر ) على دعوتهم ونحمل أذيتهم ( حق يحكم الله ) بالصر  
 وإظهار دينك ( وهو خير الحاكمين ) لأنه لا يمكن الخطأ في حكمه لأنه مطلع على السرار كاطلاعه على الظواهر  
 بخلاف حكام الناس فليس لهم إلا الظواهر .

خاتمة في عجائب هذه السورة وما تقدمها من السور

انظر إلى عجائب هذه السورة وما تقدمها . انظر كيف ذكر في أوائلها بدء الخلق وهو يجده ، وكيف  
 جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وكيف قدر للنازل وعلم عدد السنين والحساب ، وذكر اختلاف الليل  
 والنهار وأخذ يذم الذين هم عن آياته غافلون وجعل لهم النار بما كانوا يكسبون .

وانظر كيف ذكر في خواتمها كما ذكر في أوائلها ، ذكر أنه جعل جنة فرعون الموضوعة في نجوة :  
 أى مكان مرتفع من الأرض آية وذم للمرضين عنها كما ذم المرضين عن آيات السموات والأرض ؛ فهناك  
 يقول « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك  
 مأواهم النار » وهنا يقول « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » فجعل الغافلين عن آيات الله في الأمم  
 كالغافلين عن آيات الله في السموات والأرض .

عجب عجاب للقرآن وحكمه العجيبة ! وهنا أمر بالنظر في السموات والأرض وأعد الذين لا يعقلون فقال  
 « ويجعل الرجس » أى العذاب والحذلان « على الذين لا يعقلون » : أى لا يستعملون عقولهم .

فاظر كيف كانت أوائل السور تتكوايمها ، نظر وفكر وتمثل وذم للغافلين ، وانظر كيف سوى بين  
 الجهل بالعوالم العلوية والسفلية والجهل بأحوال الأمم كأمة للصربين ، فهذه من القرآن دلالات واضحة .

أن علوم قديما للصريين وغيرها كعلوم الفلك والطبيعة من تركها من الأمم أصبحوا في أسفل سافلين ولم يهتم في الآخرة وهم في الدنيا أيضا معذبون لأنهم جهلاء « ومن كان في هذه أعمى » لا يعرف العلوم الكونية والنظامية والسياسية « فهو في الآخرة أعمى » لا يرى طريق النجاة ، والقصود أن تكون هذه العلوم قائما بها طوائف من الأمة لكل علم جماعة .

لئن قرأ تاريخ للصريين فهو قارى آيات الله ، ومن قرأ علومهم فهو مطالع آيات الله ، وكذلك الآشوريون والبابليون وجميع الأمم .

ومن درس ماعرفه الألمان والإنجليز والأمريكان من علوم الفلاحة والسياسة والتجارة والتجارة والحداثة والنبافة وما شاكل ذلك كان مطالعا على آيات الله بدرسه للعلوم التي يرضاها والحكمة التي للعباد أهداها .

فويل للسليين التافلين وويل ثم ويل لهم إذا غفلوا بعد ما بيناه ، وهلاك لهم إذا ناموا بعد ما بسطنا .  
فيا ترى شعري ماذا يريد المسلمون ؟ أولم يكفهم أن الله سلط عليهم أوروبا فملكتم بلادهم شرقا وغربا وهم نامون ؟ أولم يكفهم أنه ألمهم طائفة من المسلمين الآن فنبهوا المسلمين أن جميع العلوم والصناعات واجبة فرض كفاية وهم غافلون ؟ أو ما علموا أن العذاب حل بهم وهم لا يشعرون ؟ وسلام ثم سلام على من يفهمون المسلمين في الأنظار الإسلامية واجباتهم وعلومهم التي حرموا منها وهم لا يملكون .

وكما فعل ذلك في هذه السورة فعل في سورة الأعراف فجعل في أوائلها ذكر الرياح والسحاب والطرر ولقاء الثمرات ، وفي أواخرها النظر في ملكوت السموات والأرض وحذرهم من اقتراب آجالهم ، هكذا فعل في الأنعام ، فجعل في أولها خلق السموات والأرض والظلمات والنور ، وفي أواخرها أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وأنه رب كل شيء .

وفي السائدة ذكر في أوائلها حل الأنعام وحرمتها وقصة ابن آدم للشملة على أن الإنسان يتعلم من الحيوان وذكر في أواخرها أنه ملك السموات والأرض .

وفي سورة النساء ابتداء بذكر خلق الإنسان وأنهم من نفس واحدة ، وجعل في أواخرها ذكر السموات والأرض مكررة .

وهكذا سورة آل عمران ابتدأها بوصف الله بأنه الحى القيوم وكيف خلق الجنين في بطن أمه وصوره وجاء في أواخرها « إن في خلق السموات والأرض الخ » .

وهكذا البقرة جاء في أوائلها « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والدين من قبلكم الخ » ، وفي أواخرها « قد ما في السموات وما في الأرض الخ » .

فهذه السور من ابتداء البقرة إلى هذه السورة هذه كانت مبادئها وهذه كانت خواتمها كلها خاصة في أوائلها وأواخرها على النظر في علوم السموات والأرض ، فأما هذه السورة فقد أبانت أن التافلين عن علوم الأمم السالفة مالمون غافلون ، والتافلون معذبون في جهنم ، والعذاب هنا في ترك فرض الكفاية .

اللهم ألمهم أمتنا الإسلامية عقولا راقية ونفوسا كبيرة ؛ فوافق لئن لم ينته علماء الإسلام عن هذا التصير لتكون هذه الأمة في المالكين ويستبدل الله بها غيرها « وإن تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

فياحبا لأمة الإسلام كيف ينامون ؟ كيف يغلون ؟ وهذا القرآن بين أيديهم يقرءونه صباحا ومساء .

ولعلم أيها الدكي اللطع على هذا الكتاب أنك مستول عن هذه الأمة ، وإياك أن تقول من أنا .  
 فإنك متى كنت مغرما بقراء أمثال هذا الكتاب فلا جرم تكون نفسك من ذوى الحد والعلم الذين يعرفون  
 قيمة أنفسهم وهم مصلحون فلنكن مصلحا ، ولنرشد الناس بقلمك ولسانك وحديثك ، واتحرض الأمة على  
 حوز العلوم .

فلمررى لقد قابلت طوائف هذه الأمة المسكينة من أهل جاوة وسومطرة وبلاد الملايو وبلاد سيام  
 وبلاد العرب وغيرهم من الأمم والممالك ومن بلاد الصين فوجدتهم جميعا خاملين خاملين ناعمين لم يحفظوا .  
 وذلك لما رسخ في عقول علماء الدين أن الدين بيد عن العمران ، بيد عن الأوطان ، بيد عن العلوم ،  
 بيد عن الصناعات ، فضلوا بذلك وأضلوا وهم لا يحفلون ؛ فلتنقذ الأمة من ضلالها ، ولتنشلها من وهديها  
 ولتطعمها على دينها الصحيح في نحو ما سطرنا وفي مثل ما كتبناه ، والله هو الهادي إلى سواء الصراط .  
 تم تفسير سورة بونس عليه السلام .

## سورة هود مكية ، وهي مائة وثلاث وعشرون آية

وهي أربعة أقسام :

[ القسم الأول ] في المقصود من الرسالة ، من أولها إلى قوله « ليلوكم أيكم أحسن عملا » .  
 [ القسم الثاني ] تأنيبهم على استبعادهم البعث والإلحاق إلى قصص الإنسان ، ومقاصد أخرى من قوله « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت » إلى قوله « هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » .  
 [ القسم الثالث ] من قوله « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » إلى قوله « بشئ الرعد للرعود » في قصص الأمم والأنبياء .

[ القسم الرابع ] في طريق هداية الأمم إلى الفلاح من قوله « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك » إلى آخر السورة .

هذه أقسام السورة . ولقد كنت لحصنها منذ ١٤ سنة وأنا مدرس بدار العلوم وقسمتها على هذا المنهج ولكن القسم الثالث تبعه قسمان موضحان له تابعا له فصارت الأقسام ستة . ولما كان الإنسان في كل سن من أسنانه عمل يناسبه وإنشاء بلائمه ورأى يوافقه رأيت أن أكتب ذلك للملخص لتطلع على ما كتبت إزدادك وأنا مدرس بدار العلوم وتوازنه بما أكتبه الآن فستجد أن الرأي اللاحق هو السابق فأسذكر ذلك للملخص ثم أتبعه بتفسير السورة إن شاء الله . هاك ما كتبت إزدادك لتطلع على محمل تفسيرها كأنه مرآة ثم أذكره مفصلا في اللاحق ،

تفسير هذه السورة ، مقاصدها ست :

للقصد الأول من أول السورة إلى قوله « ليلوكم أيكم أحسن عملا »

ابتداء الله عز وجل هذه السورة بالمقصود من الرسالة ، وهو عبادة الله عز وجل والإجابة إليه بالتوبة وعبادة المؤمنين الفائزين بالفوز في الدارين والسعادة في الحياتين الدنيا والآخرة ، وإنذارهم بالعذاب إن أعرضوا فقد جمع بين الإنذار والتبشير والإخافة والإطمان وهذه هي الطريقة المثلى وذلك في قوله تعالى « الر » كتاب أحسنت آياته « إلى قوله « عذاب يوم كبير » ثم أخذ يشرح سعة علم الله وإحاطته بالكائنات فلا تحفى عليه خافية بما أبان من اطلاعه عليهم وهم مستغشون بنياهم في احتلالهم وفي أسرهم وعند نومهم ويقظتهم وعلى الدواب البرية والبحرية في غدوها ورواحها وليلها ونهارها وتقديره أرزاقها وقيامه بما يقم به أودها وبيق حياتها ويحفظ نسلها إلى أجل مسمى ، ثم شرح قدرته عز وجل بما أبدع من عجائب السموات وعرش الأرض ولم تسكن شيئا مذكورا حينما كان عرشه على الماء ، فما قدسناه منحصر في العبادة والتوحيد والإنذار إجمالا والتبشير ، ولقد كانت العناية بصفات الله أمم والاهتمام بقدرته وعلمه أعظم ليكون آدمى خاضوع لعظمته والإيمان بجله وحكمته ، وذلك آدمى لإجلاله والخوف من عقابه وهيبه سلطانه وامتثال أمره واجتباب نهيهِ والإيمان ببديع حكمته حتى لا يكون العالم بلا غاية ، ولا أعمال العباد بلا نتيجة .

والقصد الثاني وهو من قوله « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت » إلى قوله « هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » أخذ فيه يؤنبهم على استبعادهم البعث بعد الموت ووصفهم له بالسحر واستبطانهم عذاب الدنيا إذ يقولون « ما يحبه » وما أجمل أن يشرح خلق الإنسان العام وما فيه من النقص والجهل فهو اليشوس من القرج ، الكفور بالله إذا إصابه الضر ، وهو القرج البطر الفخور إن أذاه الله نعمه ، ذلك لجهل الإنسان وقصر نظره الحيوانى الطبيعي ، ولا مفر من هذه الحلقة الشائنة إلا بالصبر في الضراء والسراء بالعبادة

والسكينة والوقار وبضبط النفس في النهي والانتعال عن الانتداس بالمادة وأن يفكر في زوال الحياة وفناء  
الذات وانتقال المال من يد إلى يد وتسرّم الآجال وذهاب الأموال وسرعة تقلب الأحوال ، وبضبط النفس  
في الحالين من فقر وغنى يصير الإنسان رجلاً كاملاً ، وما أنسب أن يسلى النبي صلى الله عليه وسلم مما يضيق  
به صدره بما يقولون عليه تسلياً له وتثبيتاً لغزاه فأزل عليه ما يتلج صدره إذ قال « فلعلك تارك بعض ما يوحى  
إليك » إلى قوله « إنما أنت نذير » .

ثم شرح حال الرائيين والناقبين والشركيين وأبان أن أعمالهم حابطة وأظهر ما عليه المؤمنون والتي وصحة  
حجتهم ووضوح طريقتهم وتبليج نور شمسهم وانقشاع النور بأضوائه ووضوح الحجية بالقرآن وسطوع النور  
بالبیان بقوله « أمن كان على بينة الخ » ولم يبق من أنواع الإيضاح إلا أن يمثل أولئك الذين لم يروا شمس  
الهداية ولم يتبينوا نور العلم والحكمة وسطوع الحجية الواضحة في القرآن بأنهم عمى لا يبصرون وصم لا يسمعون ،  
والآخرون مبصرون سامعون .

فتعجب كيف تدرج من أول السورة إلى هذا المقام من حال إلى حال ، فتوحيد بقده عبادة يتلوه نظلم  
وعلم يتلوه إنذار بعذاب من بعد ذلك إيضاح وإيضاح وبيان يقفوه بيان حتى صار العقول محسوساً والقالب  
مشاهدة فصدع بالأمرفوصف قوماً بالعمى والصمم ، وآخرين بالبصر والسمع فالعمى عن رؤية السموات  
والأرض والدواب ومستقرها ومستودعها ، والصمم عن سماع الموعظة والإنذار والتبشير ، ولم يبق بعد  
هذا البيان إلا أن يقص القصص ليعتبروا ، ويقوم البلدان ليذكروا ، ويسمعهم التاريخ ليزجروا  
لعلهم يبصرون عدا إذ قال « وتلك عاد الخ » ولعلهم يسمعون ما حلّ بالأمم الغابرة والأجيال البائدة  
ولا يكونون صما عن الواعظ عما فلا يبصرون آثار الأمم البائدة وأطلالها المأمدة وأحوالها الذميمة  
ذلك هو العجب العجيب

القصص الثالث من قوله « واتخذنا نوحاً إلى قومه » إلى قوله « بنس الرشد للرفود » وفيه تحطيط  
البلدان التي سكنتها هذه الأمم والإلماع إلى تاريخهم . ذكر الله في هذه السورة عاداً ونموداً وإبراهيم ولوطاً  
وشعياً ، فقوم نوح بنبيهم نوح ، وعاد بنبيهم هود ، ونمود بنبيهم صالح ، وقصص إبراهيم لم يذكر معه  
قومه فيها ، وأهل سدوم بناحية حمص بالشام بنبيهم لوط ، وأهل مدين بنبيهم شعيب ، وأهل مصر  
بنبيهم موسى .

#### مساكنهم

أما قوم نوح قبيل الهند ، وقيل بالعراق وما والاها . وأما عاد ونمود فهما بجزيرة العرب حوالي اليمن .  
وأما إبراهيم فقد كان في تلك الحال بفلسطين من أعمال الشام بعد أن رحل بابن أخيه لوط من أرض بابل  
فكان هذا بفلسطين وهذا سدوم . وهي خمس قرى بينها وبين فلسطين نحو أربعة فراسخ . وأما أرض  
مدين فعلى شاطئ البحر الأحمر تجاه بلاد صعيد مصر من الجهة الشرقية ، وأما أرض المراعنة فمعلومة  
وهي مصر .

ألا تتعجب كيف كانت الأمم المذكورة في السورة محصورة في جزيرة العرب وما حولها داخلية الآن  
في حوزة الإسلام .

ليتعجب طلاب العلم ولتذكروا كيف كانت هذه السورة جامعة تقصص الأمم المحيطة بالكعبة أو ما يقرب منها  
وكيف أراد الله إيقاف أقوام سكنوا تلك الأقطار بعد نومتها وحياتها بعد موتها وعزها بعد ذلها وشرفها  
بعد ضعتها ، وكيف دخل الإسلام هذه الأقطار وعمت هذه النيار فدخل اليمن وما حولها وضم جزيرة العرب  
ومصر والعراق وبعض أقطار الهند ، هذه بعض حكم القصص لم يذكرها الله إلا إيقافاً لأهلها فاستيقظوا  
وتذكروا لأهلها فتذكروا .

## المقصود الرابع : استنتاج الأخلاق مما ذكر في المفسد الثالث

جرت عادة الله أن لا يهلك أمة ، ولا يبديد دولة ، إلا إذا عاث أهلها في الأرض فسادا أو بطشوا بطش الجبارين وطفنوا وبنوا واستكبروا وأفسدوا فتكون العاقبة الملاك في الدارين والعذاب في الحياتين والشقاء بالويلين ، فإن الله لا يهلك القري لكفر أهلها إذا كانوا مصلحين لشأنهم منظمين مدنهم حافظين لأمرهم ضابطين لنظامهم قاعين بأعمالهم كما قال تعالى في هذه السورة « وما كان ربك ليهلك القري بظلم وأهائها مصلحون » فأما إهلاك قوم نوح فبسبب الإعراض عن الهدى واستمراء مرمي الجهل والإخلاق إلى الأرض والتباعد عن الرشد واتباع طرق الفسق والاستكبار على العقلاء الذين آمنوا واسترداهم واستهزأهم بالهدى والهدى وأنتمهم أن يأخذوا العلم عن بشر مثلهم والحكمة عن واحد منهم ، إلا أن نوحهم حيوانية وجلاهم حجرية كمثل أولئك الذين لا يرضخون إلا بالعلم غريب عن الديار نازح عن الأوطان لما أنهم لا يحتلون إلا كما تنقل العائمة الجهلاء من الخضوع للجبارين والأخذ عن الجهوليين أو السحرة لما كرين أو القوم الذين لقوة سلطانهم بالترهات وحيلهم بالطلسمات ، أما العقول فهم عنها معزولون ، ثم إن الكبر والجهل صنوان وهما رضيعا لبان وفرسارهان وخليلان لا يفتقان لا يفتقان لا يفتقان فهلكوا بالترق وبأدواب الطوفان .

وأما قوم عاد فلقد طفنوا في الأرض وبنوا وقالوا من أشد منا قوة فأنادتهم أرباب والزراع وأهلكتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم

وأما نوح فكفروا النعمة ولم يشكروها وجمعوا بين تيمنتين : تمتت في طلب الآيات وخوارق العادات وكفر على نعمة أعطوها فلم يحمدوا الله فيشكروها بل ذبحوا الناقة ظالمين وأكلوا لحمها كافرين فاصفرت الوجوه ثم احمرت ثم اسودت ثم أخذتهم الصيحة التي صاحها جبريل وزلزلت الأرض ورجفت بهم رجفة فأصبحوا هالكين ، جمعت نوح بين [ الحستين ] معاداة العلم بالنعمت وطلب الخوارق للعادات والبغى والظلم فقد أساءت في القوة العلية ولم تحسن في القوة العملية ، وقوم لوط فسقوا وأومأوا بالشهوات الخبائية ففعلوا ما يبئد النسل وطفنوا في شهوة الفرج كما طفى أهل مدين فيما به قوام الأجسام من الكيل وللوزون ، وما طفنوا قوم فرعون إلا كعاد وقوم نوح ، فالنتيجة أن قوم نوح وقوم فرعون وعادا ملكتهم القوة الغضبية وأضلهم النفس الشيطانية ، وقوم لوط وأهل مدين ضلوا بالقوة الشهوية ، هؤلاء فيما بقي الأجسام ، وهؤلاء فيما يديم النسل ، فهؤلاء فيما يسد الجوعة وهؤلاء فيما يتناسل الحيوان والإنسان .

وقوم شعيب عليه السلام أغمضوا القوة العقلية فاستجروا العمى على الهدى .

هذه مجامع علم الأخلاق ذكرها الله في السورة تذكرة لهذه الأمم وإيقاظا لها وإذانا بأن الأمم التي أهملت شأنها فلم تتوارادتها ولم تستيقظ عقولها ولم تصلح شؤون نفوسها أولئك التي اغترت بأنفسها وفرحت بما عندها من العلم ونامت على مهاد الراحة واستكبرت عن أخذ العلم بمن كانوا أعلى منهم مقاما وأرقى شأنًا وأوسع حكمة كملكه مراكش أيام استقلالها وعظمتها أو تلك التي أطلقت أيدي العابثين من أبنائها فلم يأخذوا على أيدي الظالمين فساد الفساد بتطفيف للكيال واللبزان وعموم الرشوة وإعطاء المرء ما لا يستحق من الأعمال ونحس الفضلاء حقوقهم وترك حل الأمور على ظاهرها فأولئك لا محالة ذاهبون للدمار واقضون في شرك الويل والتبور .

المقصود الخامس : استنتاج النظام العام الحالى من هذه السورة في هذه الأمم وكيف كان هلاكهم تابعا لسقوطهم في الأخلاق والفضيلة والآداب ، وكيف رجسوا لتاريخهم القديم اليوم وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

إن هذه الأمم التي قصها الله تعالى في هذه السورة بعد أن هلكوا واستوصلت شأقتهم ملكت أرضهم وسكنها قوم آخرون وهي الآن بلاد الإسلام فتحن أهلها للكفون وأصحابها للسيطرون ، ولما طغى أهلها البائدون أخذتهم صاعقة العذاب المهون ؛ فمنهم من أغرق ، ومنهم من أهلك برمح صرصر عانية ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت دياره فصاروا صعيدا جزرا ، وتلك القصص من اللغات عند سامي القرآن ، فلنفس حالنا اليوم بمن حللنا ديارهم واتخذنا مساكنهم وننظر هل أحسننا الخلافة وعرفنا قوله تعالى « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » .

ترى أن البلاد العربية خاوية من العلوم ، خالية من النظام ، عريقة في التقاطع والتدابير ، وهكذا مصر لما أن رأيت جبيصا من النور لم تعرف كيف تبصر ولم تزن أعمالها وخلطت عملا صالحا وآخر سيئا ، وهذا القول منذ ١٤ سنة كما قدمت لك ، أما الآن فإنها أخذت في الاستقلال والرقى ، وهكذا أرض بابل وما بين البحرين فإن الجهل لا يزال ضاربا أطنا به في ربوع الإسلام فلذلك أحاطت به من كل جانب اللصائب وحق بنا للكروه من كل جانب ، وهذا مقدمة لعذاب الحزى في الحياة الدنيا مثل ما حلّ بأسلافنا ، حذونا حذوهم حذو القفزة بالقفزة ، وما ذكر الهلاك الدنيوي إلا ليندبرنا بالهلاك التدريجي والعذاب العظيم باحتقار الأمم لنا واستهزائهم بنا ففقد تركنا عقولنا وشأنها فلم نرب القوة العقلية ولم نم الفكر الإنساني وكثرت أربنا والنش في الليام كما فعل أهل مدين وتجرأنا على المحرمات كقوم نمود ، والطامة الكبرى أننا فرحنا بما عندنا من العلم وصممنا آذاننا عن الحكمة التي أرسل الله أنوار شمسها على أرض القارب وكساها وجه اليابان والصين وأذانبها لأمة الأمريكان فتكبرنا عن العلم ونحس الجاهلون وأعرضنا عن الحكمة ونحن معرضون ونمنا والناس مستيقظون ، هذا ما كتبتك إذ ذاك ، ولكن الآن دبت أرواح في جميع هذه البلاد وعسى أن ترق هذه الأمم وهم فرحون مستبشرون .

للقصد السادس : دواء هذا الداء وخاتمة السورة من قوله تعالى

« ذلك من أنباء القرى » إلى آخر السورة

لقد بان لك حالنا اليوم وما أحاط بنا من مكروه وما نزل بنا من شر ، وكيف أصبحت أمم الإسلام غارقة في بحار الجهل تائهة في قفار الضلال بعيدة عن طريق الهداية إلا قليلا ، وكيف عكفوا على المجد القديم واستكبروا في الأرض بغير الحق واكتفوا بما عندهم من علم قديم ومجد موروث وأهلوا الأخلاق والفضائل وقال قائلهم لمن يسأله عن سبب انحطاط أمم الإسلام (إنها المعاصي) ولو سأله أي هي أقال النية والنجبة والخمر وما أشبهه . وأكثرهم يجهل أن الجهل أكبر المعاصي وأن نظام المدن وورق التجارة وإتقان الصناعة وإحكام الزراعة ونظام الإمارة من أفضل العلوم والجهل بها أكبر المعاصي وأفصح الخاوي ، وأن عكوف كل امرئ على شأن نفسه وحده وتركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسوأ أتراوأ أكثر خطرا وأعظم ضررا من غيبة ونجمة .

ولا سبيل لصلاح البلاد الإسلامية وإسعاد الأمة المحمدية إلا أن يحدوا في العلوم والصناعات وأحكام التجارات والإمارات ونظام المدن والجماعات ، ولم يؤسنا ربنا من السعادة ولم يقنطنا من إصلاح حالنا ونصير المادة .

ألا ترى كيف ذكر الدواء بعد الداء فقال « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » واسبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الدين ظلوما أظفوا فيه وكانوا مجرمين » فإن مناه هلاكنا

في الأمم النابرة والفرون البائدة مرشدون ناصحون وعلماء واعظون وحكام مبصرون ينهون غوغاهم ويرشدون جهالمهم ويضربون على أيديهم كما فعلت أمة اليابان والصين والأمريكان ، فإن الأمة إذا اقتربت من العطب وانسلت إليها الإهلاك من كل حذب فأيقظ أهلها للوقوفون وأرشدوا لموضع الهدى الناصحون أرجعت الغمز إلى نفسها ونصرت على عدوها وإذ ذلك لا ينالهم هلاك الدارين ولا يحيط بهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولا عذاب السمير في الآخرة .

وتعجب كيف يقول بعد أن أتت قصة فرعون « تلك من أنباء القرى قصص عليك منها قائم وحصيد » وكيف أرجع الظلم إليهم وقال « وما ظنناهم الخ » ولكن ظلوا أنفسهم لما نعمتهم الآلهة للعبودية ، هكذا لم ينفع أهل الشرق اليوم من يعدم ويمنيهم من بعض الرؤساء الجاهلين بل زادهم تقييما ، ثم قاس أحوال الأمم في الأرض بهذه الأمم المذكورة فقال « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة » ثم شرح عذاب الآخرة وكيف يسعد قوم بالجنة ويشقى آخرون بالسمير .

مقاصد الدين [أمران] بقاء الأجسام بنظام للدين وحفظ النسل وسعادة الأرواح بالعلوم والشوق إلى معرفة الله والعبادة ، ولا أرواح بلا حياة ولا حياة بلا نظام .

لذلك كان جل مقاصد هذه السورة حفظ الأجسام وبقاء المدن ونظام الجمعية وحفظ الأموال ليهب الناس لجمعها ويتضافروا على العمران ويكثر النسل فيقى الله عليهم البخس في الميعات والقواط والامتكبار عن العلم النافع ، فهذا كله لبقاء الأجسام وهو النظام المدني .

ولقد أرشد الله لحفظ الأرواح وزكيتها بالعبادة والتوحيد والأخلاق العاضلة . فتعجب كيف غفل المسلمون اليوم عن النظام المدني ؟ وكيف يقرءون ولا يعلمون ويعيشون ولا يفكرون ؟ إلى أنذر المسلمين اليوم كما أنذرهم الله وأقول لهم ليقم في كل قطر من أقطار الإسلام رجال يحضون على العلوم ليكثروا ليرشدوا إخوانهم ليأمروا بالمعروف لينهوا عن المنكر ، أحذر المسلمين أن يهلكوا كما هلك من قبلهم ، إلى أنذرهم صاعقة المدافع والمذاب الوافع ماله من دافع وحصد النفوس وذهاب الفلوس وضباع القرى ، ومن يشي به .

آيات الأخلاق ، آيات العلوم ، آيات الأحكام ، آيات النظام العام

آيات العلوم من هذه السورة إحدى عشرة آية

« إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير » إلى قوله « في كتاب مبين » وقوله « وقيل يا أرض ارجعي إلى ربك » وقوله « الظالمين » وقوله « إلى ربك يرجعون » إلى قوله « مستقيم » وقوله « فإن تولوا فقد ألقيناهم ما أرسلنا به إليكم » إلى قوله « حفيظ » وقوله « ولو شاء ربك لجلدنا الناس أمة واحدة » إلى آخر السورة .

وهذه الآيات في الأكثر تبيان لعظمة الله عز وجل وجلاله وقدرته وسلطانه وعلمه ورحمته التي وسعت كل شيء .؟

ومن أعجب ما في هذه الإحدى عشرة قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » لن يقل دقائق إحاطة الله علما بالنواب إلا من قرأ علوم الحيوان ووقف على غرائزه ومعجابه وبدائع تركيبه ومحاسن صنعه وما أتت له من أعضاء منظمة ووهب من قوى درآكة وصور براءة ونفوس مختارة .

إن في الحيوان آيات ، وفي النحل لمجيا ، وفي النمل لحكما ، وقرأ إن شئت هدية العنكبوت ونظام بيوت النمل وبدائع دودة الحرير ونظام الجراد ودود القطن وكيف أكلت مما تلبس ولبست مما نبتت



أختها دودة الحرير ، فكيف كانت إحداهما تلخ علينا لباسها والأخرى تسلبنا ما زرنا لنلبسه ؟ إن  
في الحيوان والإنسان لغرائب « وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوفنون » كل ذلك في كتابي  
[ جمال العالم ] انتهى .

آيات الأخلاق منها قوله « الر » كتاب أحكمت آياته « إلى قوله « عذاب يوم كبير »  
في هذه الآيات الثلاث خلق التوبة ، ثم إن قوله تعالى بعد ذلك « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها  
منه إنه ليطغى كفور » إلى قوله « وأجر كبير » فيه ذم خلق الأشر واليأس وطلب الصبر على البأساء  
وضبط النفس في السراء والعسر ، وقوله « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا » إلى قوله « وباطل ما كانوا يعملون »  
فيه ذم صفة الرياء . وقوله « وإلى عمود الخ » فيها خلق التوبة وشرفه ، وقوله « وإلى مدين أحلام شعيبا »  
فيه طلب العدل في السكيل والميزان ، وقوله « ونولا كذا سبقت من ربك » إلى قوله « لا يضيع أجر المحسنين »  
فيه الأمر بالاستقامة وترك المداينة والركون إلى الظلمة والصدع بالحق والاستعانة بالله وفعل الحسنات والصبر .  
أما آيات الأحكام فقوله تعالى « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك  
ذكرى لذاكرين » واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين « وقد زلت في عمرو بن عرفة بائع الثمر وقد قبل  
أجنية ، وهذه الآية تدل على أوقات الصلوات الخمس ، فطرفا النهار الفجر فيه صلاة العداة ، والشيء فيها  
الظهر والعصر ، والزلف أي الساعات القريبة من النهار لصلاة المغرب والعشاء ، ولا تنكفر الصلاة  
إلا القنوب الصغائر على الأوجه ، أما آيات النظام العام فهي مخوى السورة ومقصودها والله أعلم .  
هنا هو للخصم الذي كتبه في ذلك التاريخ ، فلا شرع في تفسير السورة تفصيلا بعد ما عرفتها إجمالا  
وقرأت حكمها الثريفة ومجانيها المنيفة لتسكون على بينة من معانيها وفي الفهم على صراط مستقيم

### ( القسم الأول )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر • كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ • أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا  
اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ • وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُتِمِّمْكُمْ  
مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ  
عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ • إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • أَلَا إِنَّهُمْ يَدْتُلُونَ  
صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَفْشِفُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ  
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ • وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ • وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ  
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

لأبتدى الكلام على البسملة وعلى قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها  
ومستودعها كل في كتاب مبين »

جرت عادة العلماء في الإسلام أن يسهبوا في الكلام على البسملة في أول كتبهم ويشرحوا ما يحصها من العلوم الاثني عشر الأدبية كالنحو والصرف واللغوي والبيان والبريد والخط والإنشاء الخ .  
 أما في هذا التفسير فإني تكلمت عليها في أول سورة الفاتحة وبينت الكلام في رحمة الله عز وجل أي في القصد من إنزال القرآن إلى هذه الأرض ، إن أكثر العلماء رحمهم الله أرادوا ترقية العقول واتساع الهمم بالعلوم التي هي آلات الفهم ، أما أنا فإني بحمد الله أكتب هذا التفسير لأناس لهم حظ من هذه العلوم فعلى أن أوجه الهمم إلى ما هو للقصد من ذكر الرحمة وقد ذكرت شيئاً منها في الفاتحة وشذرات في سورة آل عمران عند قوله تعالى « بيدك الخير » وقوله تعالى « وترزق من تشاء بغير حساب » فبينت هناك رحمة عز وجل في الحشرات وغيرها وأنه سبحانه أخذ بناصيتها وهكذا عند قوله تعالى في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » وكذلك في قوله تعالى في سورة الأعراف « ورحمى وسعت كل شيء » . وههنا أقول إن الله كرر الرحمة في القرآن في أول السور فوق المائتين وهكذا ذكرها في مواضع كثيرة كقوله تعالى « وهو أرحم الراحمين » في سورة يوسف ولم يفد الأمر عند هذا الحد بل قال في نبينا صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ولا جرم أنه الآن في العالم الأعلى فوجب أن نكون نحن المسلمين على الأرض قائلين بالرحمة ، والرحمة على [نفسين] رحمة بالحيوان ، ورحمة بالإنسان ؛ أما الرحمة بالإنسان فلن تتم لنا إلا إذا أصبحنا عالمين بقدر طاقتنا بعلوم هذه الدنيا حتى ترقى نفوسنا وترقى غيرنا ، ومستحيل هذا الرقي إلا بنشر العلوم بيننا أولاً وهكذا الصناعات وحينئذ ترشد غيرنا ونكون رحمة . أما الآن فلا فن يجمل الرحمة العامة كيف يستعملها وكيف ينشرها بين الناس فرحمنا على مقدار عملنا فيها ، وعملنا فيها على مقدار علمنا ، وعلمنا اليوم قليل ، وأما الرحمة بالحيوان فإننا معاشر الأمم الإسلامية لم ننشرها بين الشعب بل حصرت في كتب الفقه والأهم الإسلامية ساهية لاهية عنها والفرجة قاموا بجمعيات للحفاظ على الحيوان في بلاد الإسلام وهذا بسبب كتبهم التي ألغوها لصغارهم وفيها ما يرقق القلب على الحيوان وبورث الشفقة .

فلا ذكر ما جاء في الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم ثم أتبعه بما يفتح الله به . وقيل أن أذكر الأحاديث أقدم مقدمة فأقول :

إن العالم على [نفسين] عالم لطيف وعالم كثيف ، فالعالم اللطيف لا ندري منه شيئاً إلا العلوم والأنوار والجمال ، نحن في هذه الأرض نحسّ بنعمة العلم وبنعمة الجمال وبجمال النور ، هذه النعم الثلاثة نحسّ بأنها خالية من الحزن ومن الكدر والتعس والشقاء ، يقف الإنسان مبهوراً أمام الجمال فينسى كل حزن ويشعر بسرور وخفة روح ولطف الحب الذي سببه الجمال يأخذ باب صاحبه على مقدار الإحساس بالجمال فيغيب عن كل حزن وكدر في ذلك الزمن الذي غشى على قلبه ، ولقد عرف الناس أن الحب درجات : درجة دنيا وهو حب الجهال للجمال الظاهري فإنه سريع الزوال . وحب العلماء للجمال العلم ، فهذه درجة وسطى . وحب الحكماء وأولى الأبواب خالق الجمال ، وهذه هي الدرجة العليا ؛ فالجاهل يلهيه الجمال الحيواني في وقت ما من حزنه وغمه وشقائه ، والعالم والحكيم يجذبان لذة لا يحسّ بها الجاهل في علمهما وحكمتهما وإدراك منظم هذا الوجود على تدرج طاقتهما وهكذا النور الذي هو عالم وسط بين الماديات واللعنويات يسرّ النفس على قدر إدراكها له .

هذه مظاهر تبعث في النفوس ارتياحاً لعالم المجرّدات الذي لم تنله في هذه الدنيا ، أما عالم الماديات فإن الرحمة فيه لا تكون إلا باستعمال الحكمة وإظهار بدائع القدرة واستكمال صور الوجودات بأنواع التنظيم

والإحكام ، إذ يظهر أن هذا العالم اللادى الذى نعيش فيه عالم متأخر تنطب عليه الشقاوة ولكن بد القدرة  
ومحبب الإبداع والإحكام قرآبه من الرحمة ، وفي هذا التفسير من عجائب التدبير لأجل الرحمة ما يكتفى اللبيب  
مثل ما ذكر فى سورة البقرة عند قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض » وفى آل عمران عند قوله  
« بيدك الخير » وفى آخرها أيضا ، ومثل ما ذكر أول سورة اللائدة ، وهكذا ما جاء فى آية « ورحمى وسعت  
كل شئ » فلا نعيده ولكن نشير إلى هذا الأخير مما ذكر هناك :

(١) مثل أن الأرض يموزها ما يقلل أضرار اللواد الرطبة التى يفسد الجو بقاءها فيحصل الهلاك ،  
لتلك خلق اللباب والجراد ونحوها من الحشرات .

(٢) وكثير من هذه الحشرات تضرّ الزرع فجاء البرد أيام الشتاء قتل تلك الحيوانات .

(٣) وهذا البرد يضرّ البذر والزرع الناشئ حديثا زمن الشتاء لاسيا فى البلاد التى اشتدّ بردها لجلد  
لها الثلج واقيا مانعته من بذر وزرع فى البرّ ومن ممك فى البحر لأن الثلج فوق سطح البحر يمنع البرودة  
عما تحته فيبقى الماء يندو فيه السمك وروح برحمة الله ثم يشتد حر الشمس فيذيب الثلج فيخرج الزرع  
نضرا بهيا جميلا .

فانظر لتدبير منظم حشرات لإفلال الرطوبة ، فبرد لقتلها ، فثلج لإضعاف آثار البرد ، فشمس لإزالة ذلك  
الثلج ليخرج النبات ، هذا مثل واحد من آلاف آلاف الأمثال التى نراها فى هذا العالم تدلنا أن النظام  
والحكمة والتدبير حى التى جعلت فى عالمنا بعض الرحمة لا كلها ، إن أرضنا كثيرة التغير سريعة التبدل قصيرة  
الأعمار كثيرة الزلازل منيت بالشر ممزوجة بالخير فلاخير إلا جعل مصحوبا بشر ولا تقع إلا مع ضرر ،  
ذلك كله لأن عالمنا غير مستعد لتمام الرحمة ، فليس من العالم اللطيف الجميل الذى تطول فيه الأعمار ويظهر  
فيه الجمال وبتلاؤا فيه باهر الأنوار المدهشة ، بل إن مالمدينا من النور يصرقنا عن السرور به الرزاق الأرضية  
هذا هو عالمنا ، لعلك من هذا تفهم الحديث الذى أخرجه الشيخان والترمذى عن أبى هريرة  
رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة  
ونسعين وأزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها  
خشية أن تصيبه » .

إن هذا الحديث لا يقطعه إلا من درس علوم الطبيعة والفلك ، وكما ازداد الإنسان علما ازداد بصيرة ،  
نحن رأينا الناس لا يرتقون فى هذه الدنيا فى مال أو علم إلا ينسب وتعب ، رأينا نظام الحيوانات فى البرية  
مبني على اللعابة ، ورأينا الآساد تأكل الطباء رحمة بالآساد وبالطباء والناس ، فلولا هذه الحصاة لملاّت  
الحيوانات الآكلة العشب السهل والجبل ولملاّت رعبها عند هلاكها أقطار الأرض فكان ألواء فاتقت  
الحكمة بقاء العالم ، وليس لهذا طريق إلا أن يخلق حيوانا يقلل ذلك التكاثر ويظهر الأرض من الرمم  
ليجعلها فى جوفه بحيث يطعمها ويحميها إلى مادة لانفن فيها فيكون بعضها من جملة جسمه وبعضها فضلات  
خارجت من السيلين ، فهذه وأمثالها تدبير ولطف « إن ربى لطيف لما يشاء » فهذا التدبير يدهش العقول  
للفكرة وترى فيه ما لا يخطر ببال الشعوب من الخيل المعجبة الناظرين للمدهشة للفكرين ، ولعل هناك  
عوالم ألطف وألطف فتكون الحياة فيها أشرف وأشرف وأبقى وأطول ويكون الأحياء أعلم وأعلم ، لا كما نحن  
عليه فى الأرض من رحمة أقل وعلم ضئيل حتى خاطبنا الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فلهذا علنا  
مناسبة لقلة الرحمة الواصلة إلينا التى منعها نقص استعدادنا حتى لم نزل من الرحمة إلا واحدا من مائة ،  
وافق الحديث الآبة .

الحديث يمتد على أن رحمتنا واحد من مائة ، والآية جعلت علينا قليلا . قل العلم قتل الرحمة وليس ذلك كله إلا من نقص علمنا الذي نعيش فيه ولم نستعد إلا له ، إن نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، وقد ورد في الأحاديث ما أوجب علينا أن نحذو حذوه فيها مثل حديث ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الراحمون برحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض برحمكم من في السماء ، الرحم شجرة من الرحمن من وصلها وصله الله . ومن قطعها قطعها الله تعالى » أخرجه أبو داود إلى قوله « من في السماء » والترمذي بنامه ، والشجيرة : بكسر الشين المعجمة وفتحها بعدها جيم : القرابة المشتبكة كاشتباك المروق .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » أخرجه الشيخان والترمذي .

وفي رواية أخرى لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » .

وقد وردت أحاديث في رحمة الله تعالى ، منها الحديث للتقدم الذي جاء فيه ذكر مائة رحمة عن الشيخين والترمذي ، وورد فيه زيادات لمسلم مثل قوله : فيها أي في الرحمة الواحدة ، تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض .

وجاء في حديث رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألزقته بيظنها فأرضته فقال صلى الله عليه وسلم : أترون هذه للمرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه قال فأنه تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .

وجاء في رحمة الحيوان ما روى عن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيه فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث بأكل التري من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فإلا خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله تعالى له ففجر له . قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا قال في كل كبد رطبة أجر » أخرجه الشيخان وأبو داود .

وفي رواية أخرى « أن امرأة بشارت كلبا في يوم حار يطيف بيثر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقعا ففجر لها به » (الموق الحف) .

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال « كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل (الهدف : ما ارتضع من الأرض وحائش النخل : نخلات مجتمعات) فدخل حائطا (بستانا) فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه فأنام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسح ذفراه فسكت (ذفري البعير : اللوضع الذي يمرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران وهما ذفريان) فقال من رب هذا الجمل فقال من الأنصار هو لي يا رسول الله ، فقال أفلا تتق الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدنيا (تتعبه بكثرة استعماله) » أخرجه أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم « لاتخذوا ظهور دوابكم مناير إنما سخرها الله لكم لتبائسكم إلى بلدكم تكونوا باليه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض فاعلوا حاجتكم » أخرجه أبو داود .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأينا حمرة (بضم الحاء وتشديد الليم : نوع من الطير في شكل الصفور) تمرش (ترفر) وترخي جناحها

وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من طبع هذه بولدها ردوا ولدها إليها ، ورأى قربة نمل قد أحرقها فقال من أحرق هذه ؟ قلنا نحن ! قال إنها لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار .

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقربة نمل فحرقته فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح » اهـ .

نظرة في هذه الأحاديث وفي الآية التي نحن صدد الكلام عليها

يقول الله تعالى « وما من دابة في الأرض إلح » ويقول هود « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ويقول في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم إلح » وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول شكوا الجمل إلى وبأمر صاحبه بالرفق به ، ويقول غفر الله لبيئ سقت الكلب بجفها ، ويقول في الطائر من طبع هذه بولدها ؛ هذه الأحاديث توجب النظر والبحث وتوجب على علماء الإسلام في سائر الأقطار أن ينشروها وبشروها ويقولوا للناس في نشراتهم وفي كتبهم [ ينبغي عدم أخذ صنائر الصافير والطيور من أعشاشها ] .

خطاب إلى علماء الإسلام

أيها العلماء . وبأيها المسلمون ؛ أما أن لكم أن تذبوا هذه الأحاديث وتقولوا للأمة بإياكم وأخذ فرخ الحمام من أمه قبل استكمال تربته ، وذبح العجل مادامت أمه ترضعه ، وإياكم وصيد الطيور البرية مادامت ترى أولادها وتقولوا يجب دراسة علم الطير والدواب والحشرات وفهم طباعها فهما تماما ثم جعل الأحكام مطابقة لذلك بحيث تحرمون الصيد في وقت التربة والبيض وما أشبه ذلك .

إن هذه الأحكام تختلف فيها العلماء اختلافا كثيرا ولكن لا معنى للخلاف مع وجود الحديث ، ولعل الأمم للسيحية أقرب إلى الرحمة منا .

اللهم إني أبرأ إليك من هذا الجهل الفاشي في أمة الإسلام ، اللهم قد نهيت وأوضعت وحسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم إن نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة وقد أئذر وحذر ولكن الناس أهملوا والأمم كلها تيقظت إلى هذه الرحمة ونحن اليوم جهلاء بها وأنت أرحم الراحمين ، فألمم العلماء في الإسلام إكمال ما ابتدأناه وشرح ما أجهلناه ، ألممهم إلهي أن ينظروا في هذا الوجود ، ألممهم أن ينظروا في الأمم حولهم ويفرروا علومهم بلغاتهم بهم يجدونهم قد عطفوا على هذه الحيوانات وفكروا فيها ، ومنهم من يرحمها وقد ألفوا جماعات تجوس خلال ديارنا لرحمتها وإن كان عليهم أئبر وناقصا ، ألممهم أن يفكروا في أمر الإسلام وكيف يكون المسلمون أقل رحمة بالحيوان من غيرهم غفلة وجهالة وبداء عن الحق وأنت قد ذكرتنا بأن هذه أمم أمثالنا وما فرطت فيها وأن عليك رزقها وأنت تعلم مستقرها ومستودعها وأنت آخذ بناصيتها ، فإذا كانت هذه منزلتها منك فكيف جهلنا نحن المسلمين منزلتها عندنا ؟

أباح للمسلمون صيد الحيوان بلا قيد ولا شرط وخالفوا العلماء وخالفوا رسولك القائل « من طبع هذه بولدها ردوا ولدها إليها » هذا الحديث المذكور في كتاب [ تيسير الوصول لجامع الأصول ] فهو في حكم الأحاديث الصحاح .

ألم بأن المسلمين أن يدرسوا هذه الأمم درسا مدققا ؛ إنا وإياها نكون أسرة واحدة ، فعني تساعدنا في الزرع والضرع والسفر ، وهي اللعنات لنا لتطربنا في حقولنا وللعطيات لنا ملابس ومسكن ومناظر جميلة

ومنها القنات لحشرات الفانكات بزرعنا ، وكيف يعرف الناس أن ولد الحمام يخالف ولد البط والأوز والدجاج من حيث عطف الأبوين ، وأن القريق الأول في حاجة إلى الأبوين معا يعطقان عليه لضعفه ويطعمانه ، وأن القريق الثاني يخرج قليل الحاجة إلى الوالدين لقوته بالريش والنقار والقوة والاستقلال والجري وراء أمه من وقت الولادة وتماطى الغذاء من الأرض فلذلك لم يحتاج إلى عطف ذكر البط والديك بخلاف ذكر الحمام الذي يعاون الأم ويعطقان معا على الولد ويتقطع قلبها أسفا وحسرة وحزنا إذا فارقها وهو ضيف .

أقول : كيف يعرف الناس ذلك كله إلا بالدرس والعلم ؟ أفلا يحسن أن يتبغى العلماء وحكومات الإسلام بعد ظهور ما كتبنا هنا إلى هذا الأمر ويحرموا الناس صيد أمثال ( الحطاف والمصفور والسمان ) أيام تربية الأولاد ، وهكذا صيد أفرانها الضعاف : أي أن يتركوا الأبوين والذرية أيام الحضنة ثم يصطادون ما يشاءون بعد ذلك حين استقلال الولد عن الوالدين فيصيح الأفران في غنى عن الأبوين فلا يتقطع قلبها ولا يترك الأفران الصغار مقطوعات لا عائل لها .

ومنى زال سبب العطف زال التحريم وهناك يكون المسلمون قائلين بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل « ردّوا ولدها إليها » وذلك لسبب الحزن الشديد والعطف من الأم للررفة ، فأما بعد الاستغناء فإن الأولاد تكون مباحة وإذن يصبح هناك فرق بين صغار الحمام وصغار الدجاج فيؤخذ فرخ الدجاج وهو صغير لأن الأم لا يتقطع قلبها أسى وحسرة ، أما الحمام فبعكس ذلك ، وهكذا بقية الطيور التي يقول فيها الحديث « ردّوا إليها ولدها » ويكون ولد البط كولد الدجاج لأن المدار على شدة العطف وعدمه . هذا ما أراه في هذا المقام .

إن هذا الكتاب عام للمسلمين من جميع اللذاهب ، فلا هو خاص بأهل السنة ولا بالشيعه ولا بالإمامية ولا بالزيدية ، بل هو تفسير للقرآن مع الاستعانة بالسنة ، فهاهو ذا كتاب الله وهاهو ذا حديث رسوله صلى الله عليه وسلم وهاهو ذا وجدانكم ورحمتكم وإحساسكم الشريف أيها العلماء وعطفكم ورحمتكم ورحمة رسولنا صلى الله عليه وسلم فهل ترون أننا نكون أتقى الأمم ونبينا بث رحمة العالمين ، البيودية محرمون جميع الحيوان ، ونحن أمة وسط فأبوح لنا حيوان وحرّم علينا آخر وأمرنا بالنظر والاعتبار وتقديم في سورة المائدة أن هناك حيوانات نافعات لنا منعت حكومتنا المصرية صيدها بسبب ما كتبناه كما ستراه في سورة يوسف قريبا قتلنا فليحرّم صيد هذه الطيور لمنفعتنا لنا في حقولنا ولتجعل هذه قاعدة ، إن المسلمين يدرسون علوم هذه الدنيا ومحرمون صيد كل حيوان نافع لهم وهذا أمر يجب ألا يختلف فيه العلماء ، فمن قطع أصبع نفسه أو يده حرم عليه هكذا هذه اللاتق تساعدنا قتلها حرام لأن ذلك يفرت منفعتها أما التحريم الذي أذكره هنا فهو للشفقة والرحمة التي تكررت في أول كل سورة وفي كل ركعة صباحا ومساء وفي القرآن وفي الحديث ، فمن الجهالة والتقليد الأعمى اللذموم الأبله ألا يفرق المسلم بين أفران الحمام مثلا وأفران الدجاج ، فلنأمر حكومات الإسلام قاطبة بتحريم اصطياد كل طير في فصل الربيع إبان تربية أولادها حتى يستغنى الصغار عن الأبوين . ومن هذا الحمام الذي تربيه في منازلنا ، فليحرّموا عليهم ذبح صغار الذرية مادامت في حضنة الأبوين ، فأما الصغار منها إذا استكملت قوتها فهناك يكون الآام الأثمات قد قتل كثيرا وخفت فلا بأس إذن من أخذها .

قد اعتاد المسلمون أن يقدموا دروس الصلاة والصيام على أمثال هذا ، وكان الأجدر أن تؤلف كتب للصغار فيها هجائب هذه الدنيا باختصار ويذكرون فيها بعض الأخلاق ورحمة الحيوان ، وذلك كله قبل الكلام

على أركان الإسلام حتى إذا اشتاقوا لربهم وأحبوه بحمال صنعه وعموم رحمته أخذوا يبينون لهم كيف يصلون لصلواته إليه ويقربوا منه فيصلون بحب لما يعرفون من عموم رحمته لهم ورأفته بهم وبالحيوان ، هذا ما وثقت له اليوم والحمد لله رب العالمين .

فعلبك أيها الدكي القاري لهذا التفسير أن تنشر هذا بين الناس بقدرك ولسانك ومالك من قوة وقدرة أو إمارة ، فالمسلمون اليوم في حاجة قصوى إلى انكزري وأنا أرجو أن يحى الله بك قلوبا وقلوبا فإن الكتاب لا يعمل له وإنما العمل للرجال ، والله عز وجل يسألني عن السليين ويسألك عنهم مادمت موقفا بما تقرؤه في هذا التفسير والله هو الولي الحميد، وحبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، انتهى الكلام على البسطة فلا شرع في تفسير السورة .

#### التفسير اللفظي

قال تعالى ( الر ) تقدم في أول سورة آل عمران ، هذا ( كتاب أحكمت آياته ) نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم من القصاد وليس ينسخها دين بعدها وأحكمت بالحجج والدلائل ، ويصح أن يقال إنها من حكم بالضم إذا صار حكما ، فإن فيها أمتهات الحكم النظرية والعملية كما قدمنا في ملخص السورة ( ثم فصلت ) كما تفصل القلائد بالفرايد ، فمن دلائل توحيد إلى أحكام إلى مواعظ إلى قصص أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد : أي بين والحص ، وتم للتراخي في الحال لا في الوقت كما تقول بحكمة أحسن الأحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل ( من لدن حكيم ) فذلك أحكم الآيات ( خير ) بتفصيلها فذلك فصلها . ولما كان في فصل معنى القول جىء . بأن للفسرة في قوله ( ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ) كأنه قيل : أي لا تعبدوا الخ ، ثم عطف عليه ( وأن استغفروا ربكم ) من الشرك ( ثم توبوا إليه ) بالطاعات ( بيمينكم متعانا حسنا يطول تفهمكم في الدنيا بمنافع حسنة ويعشكم في أمن ودعة وعيشة مرضية ونعمة متناهية ) إلى أجل ( مسمى ) إلى أن يتوفاكم ( ويؤت كل ذي فضل فضله ) ويعط كل ذي فضل في دينه جزاء فضله في الدنيا والآخرة وهذا وعد للؤمن التائب بثواب الدارين ( وإن تولوا ) وإن تتولوا ( فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ) يوم الشدائد في الدنيا يقحط أو قتل كما حصل فقد أكلوا الجيف كما قيل وقتلوا في الغزوات النبوية ، وفي الآخرة أيضا بجناب جهنم ( إلى الله مرجعكم ) رجوعكم ( وهو على كل شيء قدير ) فيمتنع من يستحق بالرزق ويعطى ذا الفضل فضله وبما قب للسهو ويشيب الحسن يوم القيامة .

وهذه الآيات دالة على قدرة الله تعالى ، ثم أتبعها بما يفيد عموم علمه كما عمت قدرته فأبان ما كان عليه للشركون فانهم إذا دخلوا بيوتهم يخون ستورهم ، ويخون ظهورهم ، ويتشون بئسابهم . ويقول الرجل منهم : هل يعلم الله ما في قلبي ؟ فرد الله عليهم قائلا ( ألا إنهم يشون صدورهم ) يرضون بقلوبهم من قولهم : نيت عناني ، وهم قد أرخوا الستور ، وأحنوا الطهور ، واستغشوا بالثياب ( ليستخفوا منه ) ليطلبوا الحفاء من الله بتلك الأعمال ( ألا حين يستغشون ثيابهم ) ويخون ظهورهم ويخون ستورهم ( يعلم ما يسرّون وما يعلنون ) فلا تفاوت في علمه بين سرهم في تلك الستور والثياب وعلمهم في الجامعات والمخاف ( إنه عليم بذات الصدور ) أي بالأسرار ذات : أي صاحبة الصدور . وإذا علم ما خفي في الصدور فعلمه بغيره أولى .

ولما أثبت قدرته وعلمه العالمين لجميع نوع الإنسان شرع بقررها لجميع الكائنات مبتدئا بالدواب التي هي أقرب إلى الإنسان لمشاركتها له في الحس والحركة شيئا بالسماوات والأرض خاتما باستنتاج أنه قادر على البعث فقال ( وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ) غذاؤها ومعاشها ( ويعلم مستقرها ) في الأصلاب ( ومستودعها ) في الأرحام ؟ فإثبات القدرة بعموم الرزق وإثبات العلم بأنه يعلم مستقرها ومستودعها كما ذكر في الإنسان أنه يتمتع متاعا حسنا متى استحق ذلك وأنه يعلم ما يسرّ وما يعلن على سبيل ألف والنشر للرتب ( كل ) كل واحد من الدواب

وأحوالها ( في كتاب ميعين ) مذكور في اللوح المحفوظ قبل خلقها ( وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ) تقدم شرحها فيما مضى في بونس وفي أول الأنعام ( وكان عرشه على الماء ) وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة بونس بأن الماء العلم : أي وكان ملكه قائما على العلم ولا يزال كذلك ، وإنما خلق السموات والأرض ليربي ذوى الأرواح فهما بالخير والشر ، وهذا قوله ( ليلوكم أيكم أحسن عملا ) أي ليختبركم بين الحياة والموت أيكم أخلص عملا ، ولولا ذلك لسكان خلق العالم عبثا « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » بل خلقناهما ليربي فيهما نفوسا وترقيها لحياة دائمة وغايات شريفة ويكون لها حياة وموت وارتقاء ، ومحطاط ابتلاء وامتحانا .

## لطائف

اللطيفة الأولى في قوله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت الخ »

لما اطلع على هذه السورة بعض العلماء حدثني قائلا :

إني رأيت ( الر ) في سورة بونس وفي سورة هود قد ذكر الله بعدها الحكمة ، فهو سبحانه يقول في بونس « تلك آيات الكتاب الحكيم » وهنا يقول « أحكمت آياته » ثم يقول « فصلت » ثم يصف نفسه بأنه حكيم وأنه خير ، ومعلوم أن كلام الله موزون بميزان .

وإذا كنا نرى جميع أفعاله موزونة في أصغر الترات فيمكن كلامه فلماذا أكثر من ذكر الحكمة بعد هذه الحروف .

(ج) لو أنك اطلعت أيها القائل على ما تقدم في هذا التفسير لأمكنك الجواب ولعرفت الحقيقة .

(س) كيف لا أعرفه وأنا متذكر كل ما قلته أنت في هذا اللقار ؟

انظر ، ألم تقل في سورة آل عمران : إن « ألم » جاءت لإيقاظ السليدين للفرور الذي نشأ في الإسلام كما اعتر اليهود وإن نتيجة ذلك وجوب نشر العلوم الفلكية والطبيعية والرياضية والعقلية وإلا حقت كلمة العذاب علينا وهذا واضح في سورة آل عمران ، وأيضا أنت قلت إن « ألم » في سورة البقرة مذكر بمسألة الجهاد وبمسألة تحليل العناصر ومعرفة حقائق المادة بعلم الكيمياء العضوية وغير العضوية لأن هذه الآيات هناك مبدوءة بهذه الحروف « ألم » فقال تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم الخ » وقال « ألم تر إلى الذي حلج الخ » فصارت هذه الحروف شيرة لعلم الكيمياء وللجهاد ولتتميم العلوم وكذلك في « الص » جاء فيها ما يقرب من هذا مفصلا موضعا شارحا المقصود من ( ص ) التي تشير إلى الفصص وأن تلك السورة قد جاء فيها قصص آدم وبنه من الأنبياء وأن هناك استثناجا قد ذكره الله في نفس السورة ليعلمنا كيف نستنتج من القرآن ومن كل شيء كمسألة اللباس الذي زال عن آدم للذكر بأنه أنعم علينا بالقطن والسكتان الخ وأنه أنعم بلباس النقوى الذي هو خير الخ ، وهكذا توالت قصص الأنبياء هناك وظهر أن كل حجة احتج بها للمعادون كانت أشبه بحجة إبليس كأن يقولوا « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » فصار الاغترار بالآباء أشبه باغترار إبليس بأصله وأنه من نار وأن الناس على الأرض اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم سائررون على هذا النمط .

فهذا بعض ما تقدم في معاني هذه الحروف . فكيف تقول إنى لو كنت عرفت ما تقدم لعرفت الجواب ؟ أما أما فإنى بعد ما تقدم أقول إنه لا يكفي للجواب ، فإن تكرار الحكمة والتفصيل وأنه خير يدل على مغزى أعم مما تقدم وأبعد مدى وأقوى وأعم .

(ج) إن هذه الحروف أتتها الله في القرآن ليخرج بها السليدين من ظلمات الجهالة إلى مشارق النور وبما هي الحكمة ومناهج السعادة وباحات الجمال وساحات العلم والسكال .



علم الله عز وجل قبل أن يخلق الخلق أن للسليبي سيدامون نوما عميقا وهم غير مقصرين ، بل هم  
مخلصون لربهم ولدينهم فأزل الله هذه الحروف لترفع المشاوة عن أعينهم بعد نومها وتوقظ جماعاتهم  
بعد غفلتها .

(س) أما كون هذه الحروف ترفع عن أعينهم المشاوة وكونهم هم غير مقصرين في نومهم فهذان أمران  
لا أعقلهما وكيف أعقلهما ؟ .

(ج) أما كونهم غير مقصرين في نومهم فإني أوضعه لك .

أنا من البلاد المصرية ولي نظراء من بلادنا نوجهنا إلى الأزهر لتعلم العلم فوجدنا أماننا النحو والمقه  
والتوحيد ، وهكذا علوم اللغة العربية وعلم الأصول وما أشبه ذلك ، تلك العلوم التي أهدرت إلينا عن آباءنا  
وأجدادنا من عصور مضت وقد سلطت عليهم ملوك وأمراء ووقصوا فيها وقت في الأمم الضنك ولم يستخلصوا  
لنا من ظلم الظالمين إلا ما وصل لنا .

تعلمنا هذه العلوم ثم نظرنا حولنا فرأينا أمما ودولا وعلوما فرجنا إلى القرآن فوجدنا أن العلوم التي  
ارتقت بها الأمم يطلبها القرآن فلا نسا صرنا فصحاء الأمة بتلك العلوم .

أقول لك : لولا اطلاعنا على هذه العلوم ما أكتفينا أن ندعو الأمة لها ، فأسلانا الذين ورنوا هذا العلم  
كان أكثرهم لم يطلع على هذه العلوم ومن اطلع منهم ألف ونصح الناس بقراءتها ، ولكن الجهل كان يمنع  
الناس من اتباعهم . وعلى ذلك تقول : إن أحوال الأمم الإسلامية كانت محنة عليهم أن يبشوا على  
هذا للنوال .

فإذا كان علماء الدولة العباسية قد حاز كثير منهم المقول وللغول ودعوا إليها كالتوالي رحمه الله والرازي  
ومثلهما ابن رشد بالأندلس وكثير غيرهم ، فإن للتأخرين أرغما أن يتلموا العلوم الثقلية وقلت فيهم العقيلة  
فهم كانوا لا يعلمون ، ولذلك ترى كثيرا منهم خاربوا للفكرين في هذه العلوم كما تراه واضحا في سورة الأنعام  
عند قوله تعالى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » فإذا علم علماء الإسلام للأخرون منهم من عرف  
ودعا لما عرف ، ومنهم من جهل ، ومنهم من عرف أن هذه حق ولكنه خاف على شهرته فخارب القائمين  
بها ، وهؤلاء كلهم عند ربهم وهو يجازي كلا بما فعل .

فالمدار في الأمم على شيوع الفكرة ، فحق شاع أمثال ما كتبنا في هذا التفسير فان الأمة تسير على منواله  
ومنوال أمثاله ولا تقصر .

والمستول الآن عن هذه العلوم أمثالك أنت ممن أيقنوا بهذه الفكرة فهم هم للمستولون كما أنتي أنا مستول  
ولكن الله سبحانه أعانني بشر هذا الكتاب وهو حقا سعيدك كما أعلنى بأن تنشر الفكرة بين المسلمين ،  
أما وأنت وكل من عرف هذه الآراء التي رأيتها في هذا الكتاب فهو مستول ، أما الذي لم يطلع فكيف  
يطلع الناس ؟ فالناس على حسب أساندهم ومن يماشرونهم ؟ فعلم الناس فأنه سلك عنهم واحذر  
من التقصير .

هذا معنى قولى إنهم غير مقصرين في قولهم : أى ظالما ، فتجد علماء الدين الإسلامي اليوم راضين بما  
حصلوا من العلم وذلك بسبب ما قلته الأساندة لهم والحلف يتبع السلف ، ولكن هذه الهمة الحالية ستقلب  
التعليم رأسا على عقب ويصبح الحق الإسلامي جو حكمة وعلم وإبداع واختراع ونظام واطلاع على بدائع الجمال  
الإلهي وروائع الإحكام الصمداني وغرائب النور النجوى .  
هذا شرح لقولى إنهم كانوا غير مقصرين ، وأما

(س) فقال أرجو ألا نجيب عن السؤال الثاني : أى أن هذه الحروف سبب في إزالة العتادة إلا بعد أن أسألك في نفس الجواب الأول .

(ج) سل ما بدا لك

(س) ما أهم الأسباب في جهل المسلمين بجمال هذا العالم القدي نعيش فيه امع أن الله لا يعرف إلا به والحكمة لا نتم إلا به ، والمقول لا ترتقى إلا به ، ونظام الأمة لا يتم إلا به .

(ج) قد أشرت إليه في الإجابة .

(س) هذا لا يكفي !

(ج) قد تكرر ذكر هذا في التفسير في مواضع كثيرة .

[ ذلك ] أن الإمام الغزالي في كتاب الإحياء شرحه شرحا وافيا وبين أن علماء الفقه في زمانه اعتادوا أن يسموا هذه الأحكام الشرعية بلفظ ( فقه ) ولفظ فقه كلمة بمدوحة ، فإن الله يقول في القرآن « لقوم يفقهون » فعنى كلمة مدحها القرآن والحديث جرت على الألسن بأنها الأحكام الشرعية وصرفت الناس عن جمال ربهم ومجائبه ونباته وحيوانه وشمسه وقمره ونجومه الباهرات ، ومجائبه الظاهرات ، وآياته الدهشات ، وحكمه العاليات ، ثم درج الخلف على ما كان عليه السلف وأصبح العالم في الإسلام هو من يتعاطى هذا العلم في ذلك العصر وبه يتولى القضاء ويتصدر في المجالس ويصبح غنيا بالمال والعظمة والجاه ، يحتاج إليه الملوك في تصريف الدولة ، لأن الفتوى عليها مدار أمر الأمة لأن الدولة إسلامية والأحكام شرعية ، ذلك هو ملخص مقاله الإمام الغزالي ، ثم أخذ يذمهم ويقول هؤلاء يقرءون هذه العلوم للدنيا لا للآخرة وجعلهم شرا من الشياطين وينتد كثرنا ، وقال كيف يتركون الطب والسياسة وجميع العلوم ويقولون إنهم يقرءون فرض كفاية مع أن فرض الكفاية جميع العلوم والصناعات ، إذن هم لا يريدون إلا الدنيا وإلا فلماذا لا يقرءون الطب وتركوه في يد النصارى واليهود ؟ .

هذا ملخص كلام الإمام الغزالي ، فانظر كيف رأينا أننا نحن جئنا في زمان لا دولتنا قوية الجانب فنعتز في الدنيا بها ، ولا نحن متعلقون بفرضي ربنا .

فإذا كان العلماء في زمن الإمام الغزالي يطلبون الدنيا وكانت عندهم دنيا فكيف تقرأ علم الدنيا القدي لا يأتي بالدنيا أيضا ، لأن أكثر العلماء من الشافعية والحنفية والمالكية ، والحنفية في بلادنا للصربة أكثرهم لا يولون القضاء ، لأن القضاء اقتصر على مسألة الأحوال الشخصية وأصبح القانون الفرنسي هو الساري في بلادنا .

وقد علمنا أن بلاد الترك قد جرت على قانون دولة أوروبية فإذن يكون على رأى الغزالي علماء الدين إذا ساروا على نهج المتقدمين أسوأ حالا ألف مرة من الذين كانوا في زمن الإمام الغزالي ، لأن أولئك طلبوا دنيا ولا آخرة لهم فنالوا الدنيا لأنهم لهم صولة بصولة الدين .

أما للتبحرون في هذه المذاهب في هذا الوقت فهم لا يتلون دنيا ولا آخرة إلا على نياتهم فقط ، أما الدنيا فلا وظائف لأكثرهم ، وأما الآخرة فإنها لا تنال إلا بأعمال تحتاج لها الأمة وعلوم كذلك ، والأمة في حاجة إلى صناعات وعلوم أخرى غير القضاء ، والعلوم التي تنال بها الآخرة هي الأخلاق وتهذيب النفس ومعرفة مجائب الله تعالى في سماواته وأرضه حتى يكون الإنسان موقنا شاكرا .

هذا هو السبب القدي حصر علماء الإسلام في الدوائر الضيقة ، وهناك سبب آخر وهو حصر طائفة من

الأمة الإسلامية في حفظ القرآن بلا عقل ولا فهم . وهذه أيضا نكبة أخرى بل القرآن يفهم ويسئل إما مع الحفظ وهو أفضل ، وإما بلا حفظ ونتيجته ترقية العقول والمعلوم والأمة ومعرفة جلال الله (س) ماسبب اقتصار طائفة في مصر وبلاد المغرب وبلاد العرب ونحو ذلك على حفظ القرآن بلا عقل ولا فهم ؟

(ج) من أسبابه ما جاء في [ الإتيان في علوم القرآن ] للعلامة السيوطي قال في الجزء الثاني صفحة ١٥٥ مائنه :

فصل : أما الحديث الطويل في فضائل القرآن سورة سورة ، فإنه موضوع كما أخرج الحاكم في للدخل بسنده إلى أبي عمار اللروزي أنه قيل لأبي عصمة الجامع من أين لك من عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ، فقال إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتملوا بفقهاء أبي حنيفة ومغازي ابن إسحق فوضعت هذا الحديث حسبة .

وروى ابن حبان في مقدمة تاريخ الضعفاء عن ابن مهدوي قال: قلت لميسرة بن عبد ربه بن ابن جثث بهذه الأحاديث ؟ من قرأ كذا فله كذا ؟ قال وضمتها أرغب الناس فيها .

وروينا عن المؤتمل بن إسماعيل قال : حدثني شيخ يحدث أبي بن كعب في فضائل سور القرآن سورة سورة ، فقال حدثني رجل بالمدائن وهو حى فصرت إليه فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ بواسط وهو حى فصرت إليه ، فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ بالبصرة فصرت إليه ، فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ ببادان فصرت إليه فأخذ يدي فأدخلني بيتا فإذا فيه من التصوفة وبينهم شيخ ، فقال هذا الشيخ حدثني : فقلت يا شيخ من حدثك ؟ قال لم يحدثني أحد ، ولكننا قد رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن . قال ابن السلاح وقد أخطأ الواحدي للفسر ومن ذكره من للفسرين في إبداعه تفاسيرهم اه ، من [ الإتيان ] للذكور للعلامة السيوطي رحمه الله تعالى .

فإذن ظهر لك الأمران : انكباب الناس على الفقه ، وانكبابهم على حفظ القرآن .

فالأول : للقضاء في القرون للتقدمة وللإتباع وحسن التبة في القرون للتأخرة .

والثاني : لأجل الأحاديث التي أكثرها موضوع لأجل حفظ القرآن .

(س) الآن قد آمنت بأن هذه هي أسباب الفقه وحفظ القرآن ، فأرجو الآن أن ترجع للوضوع الذي كنا فيه فقد صدقتك عن إكمال الكلام فإنك كنت ابتدأت بحجب عن قولك ، لماذا كانت هذه الحروف هي التي ستوقف الإسلام ؟

(ج) تبين مما قدمته لك أن للسلمين غالبا تقوادم العادات والأنتباع ، والمائة يتعمون الخاصة والخاصة يتعمون من قبلهم ولا يفكرون لماذا سار الأولون على نمطهم ، قال نعم ! قلت فهذه الحروف قد أزلها الله في القرآن وذكر الحكمة والتفصيل قال « من لدن حكيم خبير » فآله حكيم ، وآله خير ، وآله فصل (آيات ، وآله أحكمها

هذا كله ينبئنا عن أمر جيد الثور عظيم للقرى ، فإن العاقل إذا سمع هذا القول وعرف أنه قول الله يقول في نفسه : لماذا هذا كله بعد حروف لا معنى لها ؟ فيفكر فيها طويلا ثم يقول إنما أفردها الله بذكر في أول السور لأمر عام هام وهو ما أشرت إليه سابقا ، ألا وهو قراءة جميع العلوم .

إن هذا العصر عصر الكيمياء ، إن الكيمياء ترجع للركبات إلى عناصرها الأولى ، والعناصر الأولى قد بلغت ثمانين ولها جدول ستراف في ( سورة النكبوت ) والجدول عجيب شيق جميل يدلنا على حكمة ونظام

بديع حتى إن من يطبع عليه يدهشه هذه الحكمة ، إنك ترى أن كل عنصر له مع العناصر التي قبله في صفه والتي بعده والتي فوقه والتي تحته : أي في الصف الأفقي ، وفي الصف الرأسي نسب وزنية وأخرى طبيعية وكماوية ؛ فسترى هناك أن العناصر التي بنها الله في الأرض والكواكب والنبات والحيوان مثل الأكوچين والأدروچين إلى آخرها عند النظر إلى صفاتها الطبيعية والكبائية والوزنية تصبح متشابهة مرتبة منظمة مصفوفة بحيث لو غاب أحدها لفرق محله من هذه الصفوف .

ولقد أخبر العلماء عن بعض العناصر قبل كشفها ، ولما كشف ثلاثة منها وضعوها في موضعها فصارت أشبه بحجم إنسان واحد عرف موضع عينه وأذنه وبطنه وهكذا ، فانظر لعناصر متفرقات في البراري والقمار والبحار لما جمها العلماء شكلت شكلا واحدا في هيئة تدهش العقول .

فهذه العناصر هي أصل العالم الذي نعيش فيه وهذه العناصر كلها ترجع إلى عالم لم يره أحد يسمى (الأثير) وهو عالم واحد لا يشم ولا يذاق ولا يلمس ولا يسمع ولا يرى .

هذا هو الذي منه كانت العناصر ، ومن العناصر كانت هذه السموات والأرضون على رأي العلماء في عصرنا الحاضر الذي هو أقرب إلى القرآن وإلى حروف (ال - و) التي في هذه السورة ، فان القرآن وجميع الكلام في سائر اللغات مركب من الحروف الهيائية ولن تعرف لغة من اللغات إلا بتحليلها إلى حروفها الأولية ، ولا يتسنى الكتابة ولا طبع كتاب تأ إلا بإيراد الحروف ثم تركيبها ؛ فكما لا تعرف اللغات إلا بمعرفة حروفها هكذا لا يعرف شيء من هذا العالم إلا بتحليله ، ولا يعيش حيوان ولا إنسان إلا بتحليل اللواتي التي حوله ، وإلا لم يكن شيء في عالم الحيوان ولا عالم النبات ؛ فأنه عز وجل حكم على عالمنا الذي نعيش فيه ألا يكون حسن قوام إلا بالتحليل ورجوع للركبات إلى عناصرها سواء أكانت أغذية للأجسام أو أغذية للعقول ، بلا غذا. لإنسان أو حيوان أو نبات ولا علم لعالم بأمر من أمور هذا العالم إلا بتحليل ذلك للعلوم ، ولا رقى في صناعة أو طب أو زراعة إلا بتحليل الأشياء إلى عناصرها .

(س) هذا كلام غامض ، وأي مناسبة بين العلوم وهضم الطعام ؟ إن هذا مما يسمى للفارقات لا للواقعات .

(ج) إن الذي أذكره الآن هو الحقائق وسأوضحها لك الآن ، ولتعلم أن هذا هو السر الذي نزلت به هذه الحروف وهذا أوان ظهوره للناس ، لأن الله علم أن السلم متقاد للقرآن وقد جعل الله هذه الحروف لتكون نورا يستضيء به المسلمون لأنه حكيم ولأنه خير ولأنه أحكم الآيات ولأنه فصلها ، ومن تفصيل الآيات أنه أتى بحروف الهجاء التي هي أصول للكلمات ، فكانت الكلمات فصلت إلى حروف ، وكما أن الحروف أصول للكلمات هكذا العناصر أصول للمخلوقات .

فعل المسلمين أن يبرعوا في فن التحليل والتركيب في هذه العوالم التي هي مركبات من العناصر كما ركبت الكلمات من الحروف

هذا هو السر الذي أراد الله إظهاره في هذا الزمان .

(س) أرجو أن يوضح هذا اللغز من وجهين :

[ أولا ] كيف كان الإنسان هو الذي يحلل هذه العوالم ؟

[ ثانيا ] كيف تستدل هذا الاستدلال وهل رأيت أحدا من السماء نحا نحوك في هذا الاستدلال ؟

(ج) اعلم أن الله وضع هذا الهيكل الإنساني بهيئة ناطقة بما يأتي : أي أن الجسم الإنساني كماه الآن

أما هي بهيئة خطاب من الله للعباد وهذا ما يسمعه قلبى الآن بكلام أنصح من كلام اللسان وأسرع قبولا في الأدهان

يقول الله: أي عبادي المسلمين ، إن العالم الذي تمشون فيه خلق لأجل أن تحلوه وتركبوه وإلا فلا بقاء لكم ولا سعادة في الدنيا ولا الآخرة .

أي عبادي المسلمين : ها أنا ذا خلقتكم على الأرض وخلقتم لكم النبات والحيوان والمدن ، فنفس أحدكم واحدة ولكنها لها قوى ظاهرة وأخرى باطنة ، فبالقوى الظاهرة التي لفوقكم حللتكم مركبات العالم حولكم .

أم تروا إلى أسماعكم كيف اختصت بمالم الأصوات التي في المادة سواء أكانت حيوانية أم إنسانية أم نباتية موسيقية وغير موسيقية .

أم تروا إلى أوصالكم كيف اختصت بالصور والأشكال والألوان والأصوات والحركات والسكنات والأحجام والأشكال والسطوح والقرب والبعد .

أم تروا إلى أذواقكم للتبته في ألسنتكم كيف اختصت بأن تميز الحلو من الحامض واللحيع والحريف واللز والمفص والرّ وغير ذلك .

أم تروا إلى حاسة الشم فيكم التي تميز الروائح الحبيثة من الطيبة وإلى حاسة اللمس التي تميز الناعم للمس من الخشن ، والحار من البارد ، والثقل من الخفيف ، والصلب من اللين .

أي عبادي : هذه صفات المادة وهي ست وثلاثون صفة مقسمة على حواسكم الخمس ، أنا الذي خلقت لكل امرئ منكم نفسا واحدة وجعلت لها خمس قوى وقسمت الحواس على هذه الحواس ، أنا الذي خلقت هذه الحواس بهذه الحواس ، فهذا نوع من التحليل الذي أودعته فيكم ولكن أكرهكم لا يظنون .

إن العالم الذي أنتم فيه غليظ ثقيل كثيف ، فانظروا رحمق أيها السلمون كيف تلتفتت جعلت حواسكم وأعضاءكم فلتفتت هذا العليظ فصلح لطفكم ولطفكم ، خلقت الغذاء في أجسامكم حتى استحق أن يتحقق بحملة أجسامكم وحوالت صور اللواد حولكم إلى عقولكم فكانت مواد لها تزيينها ذكاء وفتنة ، كل هذا من نوع التحليل .

أيها السلمون : فلماذا حرمت أنفسكم من رحمق الواسعة التي وسعت جميع العالمين ؟ ضربت لكم الأمثال بأجسامكم وعقولكم وأزيتكم أنى لطفت المادة فصلحت لأعديتكم وأدويتكم وتعلمكم وأدخلتها في عقولكم فامتزجت صور معانيها بعقولكم كما امتزجت لطائف موادها بأجسامكم .

كل هذا أبرزته لكم أيها السلمون في هياكلكم رحمة بكم وحنانا وسعادة وأنتم أيها السلمون تصرون على الجهالة فأبرزت ذلك في الحروف التي في أوائل السور لعلكم تتفكرون .

يعيش ابن آدم ويموت بل ربما يكون من الماء وهو لا يدري أنى جعلته بطبعه يحلل الخلوقات أمامه بحواسه وهو لا يشعر وأكثر الناس لا يشعرون .

أي عبادي المسلمين : ها أنا ذا قسمت الخلوقات حولكم على حواسكم ، جعلت الشموس والأقمار والنيران من قسم الحاسة البصرية وجعلت النعمات في الجوق من اختصاص الحاسة السمية وجعلت الخلاوة وما معها كلها من قسم الذوق الذي في ألسنتكم وجعلت رائحة الورد العطرية وضدها من حاسة الأنف الشمية وجعلت الحرارة والبرودة والنعمومة الخ من قسم حاسة اللمس ، أليس هذا هو التحليل ؟ لا تقدر حاسة واحدة أن تقوم بهذا كله ففرقتة على الحواس الباطنة .

فإذا اجتمعت هذه السور في عقولكم استخلصت قواكم الباطنة منها سورا حفظتها عندها فكانت هناك

رسوم وأشكال في عقولكم فيها تتصرفون وبمانيها تنفذون كما أنكم بأجسامكم تعيش أبدانكم ، فصور  
المسوسات ترتقي العقول ، وبالتدريج بها تبقى الأجسام .

#### الأغذية والعلوم لا يتان إلا بالتحليل

وكانه سبحانه يقول مخاطبا لنا بهذه البيئة التي نعيش فيها أيضا ، يقول : أي عبادي هذه الأغذية المحيطة  
بكم من حيوان ونبات ومعادن بها تعيشون وتفكهنون وتتداوون وتفرحون وتمرحون وتسرون ولم يتم ذلكم  
لكم وان يتم إلا بتحليلها إلى أصغر أجزائها .

ألا ترون أن الطعام تتناولونه بقواطعكم وأنيابكم فكل من هذه يعمل في الطعام عمله ، فيها  
ما هو للقطع كالسكين ، ومنها ما هو للتخزيق كاللسان ، ومنها ما هو للطحن ثم يتل الطعام بالريق فيساعد على  
هضمه ثم ينزل في المعدة لتغلبه المصارات المختلفة فتزيد في هضمه : أي رجوعه إلى مادة أشبه باللبن قد  
وصلت إلى أقصى تحليلها حتى يمكنها أن تتركب مرة أخرى في أجسامكم فتصبح لحما وشحما وظفرا وعظما  
وكبدا وقلبا وورثة وكلية وشعرا وعظما وعجيجا وهكذا ، فلو لا رجوعها إلى أدق حالاتها بالتحليل ما أمكن أن  
يكون هيكلها عظيما أو وجهها جميلا أو شكلها عجيبا .

أي عبادي للسليين : هذه أعمالى في بنيتكم تحليل لغذائكم ثم تركيب لأعضائكم ، هذا عملى في حياتكم  
وحياة حيوانكم ونباتكم لولا التحليل التام ما كان هذا التركيب الجميل ، هذا هو القى تشاهدون آثاره ،  
هذا عملى في أجسامكم وبشابهه عملى في عقولكم ، فأنتم قد خزنتم صور المسوسات في عقولكم وريتموها  
في نفوسكم

وكا أنى فصلت المسوسات على حواسكم هكذا صور المسوسات في نفوسكم قد قسمتها على قواكم الباطنة .  
فهذه الصور الرسومة في عقولكم التي اقتبستموها مما شاهدتكم قد جعلت فيكم قوى في الدماغ منها  
ما يحلل ويركب لتلك الصور كما تصورون أعلام بأقوت تشرق على رماح من زبرجد ، ومنها ما يحلل المعانى  
ويركبها بقوة عاقلة تصرف فيها كعلم للنطق وكتدبير المعاش ، ومنها قوة تحفظ الصور وأخرى تحفظ المعانى  
لأجل أن تستحضروا ذلك عند الحاجة إليه وهذا كله تحليل .

فهذه المادة لاسلطان لكم عليها إلا بتحليلها إما تحليلا ماديا وإما تحليلا عقليا ، والتحليل المادى  
إما بالحواس الخمس ، وإما بتحليل الأغذية ، والتحليل العقلى بالخيال والعقل .

أي عبادي للسليين : هذا هو فطرى في حياتكم الجسمية والعقلية ، لاجلها لكم إلا بتحليل الغذاء ولا علم  
لكم إلا بتحليل المعلومات ، هذا حاصل عندكم ولكن أكثركم عنه غافلون ، لهذا أنزلت هذه الحروف إن  
هى إلا تحليل للألفاظ لأرشدكم إلى مستقبل أمركم .

إن مستقبل الإسلام العلم والحكمة وتفصيل هذه العوامم كما فصلت الآيات .

إن مستقبل الأمم جمعا مرتبط بدراسة نظام هذه الدنيا ، ولا دراسة إلا بتحليل الموجودات  
المادية والذاتية

ولا جرم أن الحروف من عالم الكلام ، وعالم الكلام يكاد يكون وسطا بين عالم الحس وعالم العقل وإن  
كان هو من أعراض المادة ولكنه لطيف يقرب في لطفه من عالم الضوء الذى يقرب من الأثير فيكون  
تحليل الكلمات إلى الحروف رمزا إلى دراسة هذه الدنيا كلها دراسة تامة ترجع الأشياء إلى أصلها كما رجع  
الطعام إلى مادته في أجسامنا وكذلك المعقولات في عقولنا حلت هكذا فليكن مستقبل الإسلام وهو النظر  
في ملكوت السموات والأرض ولكنه نظر يقينى ولا يقين إلا بتحليل العلوم تحليلا تاما ، انتهى .

ولقد ظهر أن هذا العصر عصر الكيمياء فبها تقدمت الزراعة والصناعة والطب وجميع مرافق الحياة فالكيمياء الآن عليها مدار الحياة ، وناهيك مافي هذا التفسير من خبر كشف استخراج السكر من نشارة الخشب والقررة .

وكذلك كشف أن الفحم يقرب في تركيبه من البترول وأن كلاهما يحتوي على كربون وعلى أكسوجين بمقادير مختلفة وأنهم يجتهدون في أن يجعلوا مقدار الأكسوجين في الفحم مساويا له في البترول فيحول الفحم إلى بترول وحينئذ يصبح في العالم قوة جديدة لا يستهان بها .

ويظن قوم أن الناس سيجدون حتى يخترعوا قوتنا لما مما نشاهده من أضعف المواد المخلوقة ، هذا فضل الكيمياء في وقتنا الحاضر فهي قوام اللدنية الحاضرة .

هذا هو الذي يرى إليه القرآن ، هذا هو بعض السر في ذكر هذه الحروف في أول السورة وهذا هو بعض الحكمة التي ذكرها القرآن وهذا هو الزمان الذي ناسب ظهور هذه العلوم فيه ، فإذن هذه الحروف خزنت في القرآن لأجل هذا الزمان حفظنا ما وحفظها من قبلنا لنوصلها لمن بعدنا مع مقصودها وهو حوز جميع العلوم ، وما العلوم إلا بعد التحليل والتحليل هو الذي أتت به الحروف قتل ما نشاء في العلوم وقتش فإنك لا ترى علما إلا فيه تحليل فتركيب ، ولا تركيب إلا بعد التحليل التام وأخصها فن الكيمياء .

إن المخلوقات التي حولنا ونعيش بها ماديا وعقليا كلها ترجع لهذا المعنى ، نحن نأكل النبات والحيوان فنتغذى بمادتهما ونعمل أجزاءهما وتركيبها ونقتنى صورها في عقولنا ونحللها ونركبها وهكذا نعمل في الباني وذلك لتغذية عقولنا ، وترانا نذكر الثور والأسد في كليلة ودمنة وابن آوى وتخييل حيل ابن آوى وضحكة على الأسد وعلى الثور حتى أوقع بينهما العداوة فافتقر الأسد الثور ثم ندم ثم حاكم ابن آوى فقتله بالجريرة السياسية ، وترانا نتخييل الحمام وهو يتخلص من شبكة القاصص كأهل مدينة واجيدة متحدين .

وكذلك ترى العراب والساحفة والظبي وما شاكلها قد اجتمعت وهي طوائف متنافرة لمصلحة وهكذا ترى السنور والفأر لما فاجأها عدو لهما أخذ الفأر يفرض قيود السنور ولم يأمن لعدوه القديم وهو السنور وأبقى بعض طيات الجبل فلم يقطعها حتى اقترب الصياد خيفة أن يفترسه القط .

وهكذا نتخيّلنا وتصورنا صوراً شتى في الحيوانات كابن عرس والناسك الذي رجع فوجد ابن عرس قد قتل الثعبان الذي أراد أن يغتصم بابن الناسك فظن حماة أن ابن عرس قتل ابنه هو فعجل بقتله ثم تبين له أنه أخطأ لأن ابن عرس حافظ على ابنه فندم ندما شديداً وهكذا من الحكم التي لاحظها الإنسان وتخيّلها ووضعها على ألسنة الحيوانات ، كل ذلك لصفاء ذهنه وذكاؤه وعقله وجودة قريحته ، وكل ذلك لم يخرج عن كونه تحليلاً وتركيباً ، والتحليل هو الوارد في الحروف التي في أوائل سور القرآن وأعقبها الله بذكر الحكمة والتفصيل ، والحكمة والتفصيل ظاهران واضحان في هذا الوجود المحسوس والمفقول .

أنزل الله القرآن وقال إنه أحكمه الخ ، ومعلوم أن الكلام اسم وفعل وحرف والاسم والفعل كنانان دلنا على معنى والحرف كلمة لم تدل على معنى في نفسها ، أما هذه الحروف التي في أول السور فهي حروف لامعية لها في نفسها ولا في غيرها فأين هي من الحكمة وهي قد زلت في كتاب مقدس أنزله الله ، والكتب النابوية تكون إشارتها أبلغ من عبارة غيرها .

أبو بكر الصديق والشافعي وكيف استنبجا من القرآن

تفطن الصعابة والمجتهدون لأمثال هذا لتقام

إن القرآن كتاب مقدس ، والكتب المقدسة شريفة للقرآن ، ولكل حرف ولكل كلمة ولكل آية

منها سرّاً بلا حفظ ويعلم ، وإذا كان الأسماء واللوك ورؤساء الجمهوريات في وقتنا متى جاء دورهم في القول ونطقوا بجملة نحرمت الأسماء البرقية برا وبحرا ونشرها في أقطار الأرض وشرحوها شروحا ومجثوا ودققوا واستنتجوا وأخذوا بمنطوقها ومفهومها ومقدمها ومؤخرها وألغوا عليها ما يحمله بغيران وثلاثة إذا جمع ما كتب في الأمم كلها ، فما بالك بمن هو الذي خلق الدول والأمم كلها ؟ فإذا قول في كلامه ؟ فإذا لنا الحق أن نوضح ونستنتج ونفهم ونقول لم جاء بهذه الحروف التي لا معنى لها في أوائل السور ، بل نقول كيف ياجتنا الله هكذا في أول سورنا القرآنية بهذه الحروف وهي التي لا معنى لها ؟ ثم نسمة يقول لنا بعدها إن هذا الكتاب أحكمت آياته وفصلت ويقول إنها من لدن حكيم خبير ، كل هذا ليفتح لنا الطريق ناهيك ما استنتجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إنه استنتج من شيء ليس بحرف ولا صوت ولا فعل ولا اسم بل هو استنتج من تقديم كلمة على أخرى قطع ، وماذا استنتج منها ؟ استنتج منها الدولة الأموية والدولة العباسية ، استنتج منها دولاً وإمماً ومملوكاً ، لولا هذا الاستنتاج لم تكن تلك الدول ولا أولئك اللوك في الابدلس وفي الترق .

ألم تر إلى ما ورد أنه رضي الله لما وقف في سقيفة بني ساعدة وخطب أيام وفاة النبي صلى الله عليه وسلم والأنصار يقولون « هنا أمير منكم أمير » قال لهم قولوا أقمهم ، وماذا قال ؟ قال إن الله قدم للمهاجرين على الأنصار فنحن الأسماء وأنتم الوزراء ، فلما قالها طأطأت الرؤوس وخشعت القلوب وخضعت الأعناق ورضى الأنصار بخلافه فريksen ولم يعارضوه ، لماذا هذا كله ؟ لأمر معنوي هو تقديم وتأخير ، قدم الله كلمة على أخرى فأذلت وأعزت وجملت دولاً ومملوكاً في قوم وحرمت آخرين في زمن ألف وثلثمائة سنة أي ١٣ قرناً كل هذا لتقديم كلمة على أخرى ، وترى الإمام الشافعي اعتبر هذا في الوضوء فأوجب الترتيب في أعضائه ، لماذا ؟ لأن الله رتب تقدم عضواً على آخر ، فذلك يجب علينا تقديمه في وضوئنا ، فإذا كانت هذه حال الصحابة والمجاهدين قبلنا فالأمر هنا أهم وأعظم ، ذلك ليس تقديماً ولا تأخيراً بل هو إثبات لأمر محيية مكررة في (٢٩) سورة وهي حروف تبلغ نصف الحروف المجانية وقد كررت في أول القرآن ووسطه وآخره فهذا أمر عظيم أعظم ألف مرة من تقديم أو تأخير ، بل هذا أمر أعظم فكيف يأتي في القرآن إلا لعناية أعظم وأعظم ، إن النية والسر قد ظهرا في زماننا ، فإذا كان تقديم للمهاجرين على الأنصار أهم دولاً وأقام دولاً فهكذا فليكن ما هو أهم وأعظم وهي هذه الحروف القرآنية للفرقة لإيقاظ المسلمين في آلاف السنين الآتية لدراسة جميع العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والفنية والعقلية والقلبية ، ذلك هو السر المخزون والجوهر للكنون خزنه الله في القرآن لأهل هذا الزمان .

(س) هل تريد أن الإنسان منا يعرف جميع العلوم .  
(ج) كلا لقد ضرب الله لنا للثل بأنفسنا فلكل امرئ منا نفس واحدة وقد قسمت العلوم بالمحسوسات على حواس متعددة ، فهكذا فلتكن الأمة ، يخص نواب الأمة أو رئيس الجمهورية أو الملك ، كل طائفة من الأمة لهم من العلوم خاصة أو لصناعة ، وهذا هو السمي فروض كفايات ، فكما قام السمع بالأصوات والبصر بالصور والأشكال الخ وكان في ذلك مصلحة جميع الجسم هكذا تكون الأمة .

(س) إن أوروبا قامت بهذا العمل كما طلبه الله في القرآن وأبرزه في هذه الحروف .  
(ج) أوروبا فعلت ذلك بقولها ونم ما فعلوا ، أما للسلمون فقد أناموا عقولهم وجهلوا دينهم وهاهو ذا الآن قد ظهر سره وسيطلع على هذا السر للسلمون في هذا التفسير وفي غيره ويقرءون العلوم مقنونة ومنقولة ، ويقومون بدورهم في الحياة ويعرفون علوم الأنفس وعلوم الآفاق والحمد لله رب العالمين اه .



الطبيعة الثانية في قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها

ومستودعها كل في كتاب مبين »

اعلم أن القرآن أصبح اليوم مفسرا بالعلوم التي عرفها الناس شرقا وغربا ، وأن العلماء في أوروبا قد تبحروا في علم الحيوان ، فلما اطلعنا على ما كتبوه في كتبهم وما ترجم عنهم ألفينا هذه العلوم كلها مقصود القرآن ، فقل لي رعاك الله :

يقول الله في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » وهنا يقول إنه « يعلم مستقرها ومستودعها » ويقول: عليه رزقها ، ويقول: إن ذلك كله في كتاب مبين ، وإذا كان الكتاب الذي فيه رزق الحيوان ومستقره ومستودعه مبينا فإن الحيوان يسير على نهج قويم تبعاً للكتاب الذي بينت فيه أعماله .

ولقد ذكرت حوادث عجيبة للحيوان في سورة الأنعام في المجلد الرابع فارجع إليها إن شئت ، وههنا أذكر حوادث حيوانية أخرى تعرفنا كيف كان ذلك في كتاب مبين ، وكيف كانت هذه كلها أمما منتظمة للمستقر والمستودع كما سترى في سورة النور عند ذكر الطير هناك أن لها رحلة الشتاء ورحلة الصيف كالتي تسكون من أواسط أفريقيا إلى بلاد الإنجليز في فصل من السنة ، وهكذا طيور أوروبا تأتي إلى مصر وتونس والجزائر ، وهو أمر عجب ستراه هناك مفصلا ، وهكذا النحل والنمل والعنكبوت وعجائبها كل في سورته فانتظره وافرا وارق لتسكون عليها حكما ، فهناك ما أذكره لك من عجائب الحيوان ومستقره ومستودعه .

#### العجبية الأولى : قضايا الطير وأحكامها

اعلم أن الناس في عصرنا الحاضر أدركوا أن للحيوان إدراكا خاصا وتديرا محكما على قدره فقد رأوا : (١) أن الطير قد تقيم المحاكم وتتعاكم كالبشر ، فبها ما يشاهد في الغربان ذات القنازع التي تكون بجزائر (شتلندا) فهذه تجتمع في حقل أو على تل وينتظر بعضها بعضا يومين أو أكثر عند تواجبه عن الحضور حتى يجتمع كلها معا ثم تفرد اثنين أو أكثر منها جانبا وتقيم عليها غربانا تحرسها فتمنعها من الفرار وبشرع مابق في العيق والنعيب جماعات جماعات أو كلها معا مدة من الزمان ثم تهجم على المحجور عليها هجمة واحدة ، ولا تزال تتقدمها وتتقرها بمناقيرها حتى تمزقها كل ممزق ويمض كل منها بعد ذلك في السيل الذي جاء منه ، فالمحجور عليها بمثابة المجرمين ، والحارسة لها بمثابة الحرس والجماعات الناعية والناعقة بمثابة القضاة والمهامين والنفذين للأحكام .

والدلك زعم للشاهدون لهذه العمال أن غربان (شتلندا) تقيم المحاكم وتتعاكم كالبشر .

(٢) ومنها ما يشاهده القس (أدمند فقس) في غربان بلاد الإنجليز المروفة بالندفان ، قال كنت يوما راكبا جوادى فسمعت نعيما شديدا ملاء الآهق ، فالتفت وإذا غدفان كثيرة في حقل فدنوت منها ووقفت حيث أراها ولا ترائي وجعلت أراقبها فإذا هي منتظمة في حلقتين حول غداف في الوسط وكلها تنفق وتنطق بأجنحتها شديدا كأنها تنقد غيظا وتهيج انتقاما ، والندفان التي في وسطها ينطق ويصفق مثلها ويقاومها ويخاصمها والحراس تطير هنا وهناك وكأنها لا تنقبه إلى ما حولها لاشتغالها بما هو دأثر بين رفاقها ، ولذلك لم ترائي ولم تنذر بالخطر كجاري عاداتها ، وبعد هنية تغيرت أحوال الندفان التي في الوسط بنقته فنكس رأسه وخفض جناحه وأقل من النعيب كأنه أقر بذنبه فجعل يطلب الصفح عنه ، وحينئذ وثب عليه غدفان الحلقة الداخلة ومزقته بمناقيرها تمزيقا ونبت الندفان كلها نعيما شديدا وطار بعضها بعيدا وبعضها قريبا اه .

والغداق مشهور بالسرفة ولاحتلاس فقسطو صغاره على عشاش كباره وتسرق ما فيها من دقاق الحطب وتبقى أعشاشها بها تخفيفا لمشقة جمعها عنها ولكنها لا تفعل ذلك إلا إذا كانت الكبار غائبة عن أعشاشها فلا تراها، ثم متى عادت ووجدت أعشاشها مسروقة لا تزال تبحث عن السارق حتى تعرفه فتشكو أمرها إلى جماعة الغدقان فتبعث ثمانية أو عشرة منها إلى عش السارق فتخربه ولا تبقى له أنرا .

(٣) حكى بعض الصعدين في جبال (البا) قال : كنت يوما أصعد في جبل من جبال سويسرا فأثبتت مطشنا من الأرض قد أحرق فيه ستون أو سبعون غرابا بغراب واحد وأكثر من التعميق والتصفيق كأنها تتشاور في أمره وكانت تصمت أحيانا فينتدى هو بالتعميق والتصفيق كأنه يدافع عن نفسه دفاعا للتمهين أمام المهاكين ، ولا يزال يفعل ذلك حتى تعود جماعة الغرابان إلى الصياح والنغواء ويضيع صوته بين أصواتها فيصمت ، واستمرت على تلك الحال مدة ، وكأنها رأيت ثبوت التهمة عليه فأعملت فيه مناقيرها حتى قتلتها ومزقتها إربا إربا ثم طارت وتفرقت وغابت عن الأبصار ، وهل هذا إلا كونها أمما أمثالنا وقد علم خالقها مستورها ومستودعها .

(٤) ومن ذلك ما يشاهد في العصفور وهو أنه إذا تشاجر اثنان منها يذهب أحدهما إلى جماعة العصفور ثم يأتي أربعة أو خمسة منها وتتعض على اللعدي وتبادره بالنقد وهي تتواقع بعضها على بعض حتى ينال منها كفاها ، وكان جماعة العصفور تصفح عنه بعد ذلك فتعامله معاملة من لم يرتكب ذنبا .

وحكى الأب بوجان الفرنسي أن خطافا بنى عشافره عصفور فدخل إليه وامتنع فيه عاياه فاستغاث الحطاف برفاقه فجاءت مئات وحاوات إخراج العصفور منه فلم تستطع لأنه كان محوطا بالقش من كل جانب وكان يقعد التي تهاجمه من الباب فعدا شديدا فبصدها ويطردها مولولة من الألم ، ولما أعيأها أمره رجعت عنه وظن الناظرون أن العصفور قوى عليها ولكنها ما غابت حتى رجعت والطين ملء أفواهها فهجمت على النفذ وسدته بالطين لتقتل العصفور داخله خنقا جزاء اعتدائه ، ذلك لأنها أم أمثالنا علم الله مستورها ومستودعها .

(٥) ومنها ما رواه الرسل الفرنسي لا كروي عن السيطر، وهو أنه كان يوما راكبا قاربا فرأى جماعة من طائر (السيطر) للمروف (بمالك الحزين) ترعى في الماء الضحاح فقاربها محاذرا لأنها شديدة النفرة والإجفال واختبأ وراء شجرة بحيث يراها ولا تراه ، والذي نهى إليها شدة لغوها وانمطها ، فلما وقف لمراقبتها سكنت وأحدثت بسيطر منها من كل جانب ووقف السيطر بينها لا يبدى حراكا ثم عادت إلى ما كانت عليه من الانمط والغو وبقيت كذلك مدة ثم سكنت فجأة ووثبت عليه وما زالت تنقره حتى قتلتها . فل لا كروي المذكور وكل من رأى ما رأيت يحكم أن السيطر للقتول تعدى شريعة جماعته فحكمت عليه بالقتل وقتله .

(٦) وروى الكتاب عن (القلاق) روايات كثيرة تؤيد ما ذكرنا وتدل على أن (القلاق) شديد الأثرة والغيرة على عرضه ، من ذلك أن جراحا فرانسويا مقبلا في أزير رغب في الحصول على لفاق رغبة شديدة فلم يحصل عليه ، وانفق أنه عثر على عش لقلقين فاختلف بيضمهما منه وأبدله ببيض الدجاج ، ولما أفرخ البيض إذا الفراخ كلها لفاق فغاب الذكر ثلاثة أيام ثم عاد ومعه لفاق كثيرة فركت كلها وأحاطت بالأبي وجعلت تلقق وتلغظ شديدا ثم وثبت عليها ومزقتها تمزيقا وطارت ولم يبق في العش حي .

ومن ذلك ما رواه للطران سنلي الإنكليزي عن قلاقين في جوار مدينة (برلين) وهو أنهما بنيا عشهما على مدخلة بيت فطلع صاحب البيت يوما ووجد فيه بيضة فأخذها ووضع بيضة أخرى مكانها ولم يشعر بها ثم

أفرخت البيضة أوزة ، فلما رآها الذكر طار وحلق فوق العش وهو يلقق شديدا حتى غاب عن الأبصار  
وبقيت الأنثى في مكانها تربي فرخ الأوز كأنه فرخها ، وبعد أيام سمع أصحاب البيت لفظا شديدا في حقل بجانبهم  
فنظروا وإذا جماعة من القفال قد اجتمعت معا وأخذت تلقق شديدا حتى سدت أصواتها الفضاء ثم صعدت  
ووقفت لقلق على عشرين ذراعا منها وجعل يصوت كأنه يحاطبها ثم عاد ووقف آخر مكانه ولقق لرفاقه  
كالأول ، وما زالت تعمل ذلك حتى قارب الزوال ثم طارت كلها معا طالبة العش وأمامها دليل منها  
هو صاحب العش ، وكانت أشاء ملازمة عشها وهي خائفة خوفا شديدا ولا تبدي حركة ، فلما دنا منها دفعها  
دفا عنيفا حتى أخرجها من العش ثم انقضت القفال عليها ومزقتها ومزقت فرخ الأوز معها وخرت  
العش وطارت .

وروي (القس موريس) أن بعضهم أبدل بيض القفال ببيض الدجاج في عش والأنثى لا تدري ذلك ،  
فلما فرخ البيض ورأى القفال أن الفراع فراخ دجاج اغتاظا ومزقا الفراخ بمقاربهما .  
وحكى آخر أن رجلا أتى بقلق ووضع مع آخر داجن في بيته فقام الداجن على رقيقه ونقده نقدا مؤلما  
حتى اضطره إلى الفرار وهو على آخر رمق وبعد أربعة أشهر عاد ومعه ثلاثة غيره فهدمت على القفال الداجن  
وما زالت تنقره حتى أهلكته انتقاما ، وهذا كله تفسير للقرآن وبيان للسفر وللستودع وأنها أم أمثالن .  
(٧) إن الذي يراقب طبائع الحيوان الأعجم يحكم أنه يدرك وجوده حتى الإدراك وما يترتب على ذلك  
الإدراك أيضا .

انظر إلى الكلب مثلا تر من أفعاله وظواهره أنه عالم بوجود نفسه ، اطرح له عظمة ينهشها فتعلم أنه  
يدرك حقوقه ويدافع عنها ، راقبه جروا ابن سنة أو سنتين يلعب مع ولد ابن أربع سنوات أو خمس تعلم  
أنهما كليهما ينشراحن باللعب ويفهم أحدهما الآخر فوجدان أحدهما مشابه لوجدان الآخر ، وراقبه بالنار  
يذهب للصيد مع صاحبه فتجد أنه يفهم ما يجب عليه فعله ويفعل ذلك الواجب كما يفعله الصياد صاحبه فيصيد  
كما يصيد ويفرح عند الفوز بالطريدة ويتناظ عند الشل كما هي الحال مع صاحبه .

إن الكلب لا يستطيع أن يحول انتباهه للبحث عن قوى عقله والنظر في أفعالها وأن يكشف الترائع  
التي هي خاضعة لها إلى غير ذلك من مباحث الفلاسفة وعقلاء الناس ولكن ذلك لا يستطيعه الأولاد الصغار  
أيضا وربما عجز عنه أكثر العامة الذين لا يهتمهم إلا ملاحظة ماحولهم ولا يلتفتون إلى السكليات والبحث عن  
أفعال عقولهم .

فمثل الكلب كما قيل مناسب لحاله ، كما أن عقل الطفل مناسب لحاله ، ولا يمكن أن يعقل الطفل بعقل  
الفيلسوف الكبير مالم يخرج عن الطفولية . وكذلك لا يعقل الكلب عقل الفيلسوف مالم يخرج عن السكلية ،  
فالتفاوت في العقل بين البالغ والطفل والكلب تفاوت في الدرجة فقط ، ولا يستدل منه على أن عقل الإنسان  
نوع وعقل الكلب نوع آخر أو على أن الوجدان خاص بالإنسان دون غيره من الحيوان .

(٨) قد اشتهر الكلب بالأمانة والوفاء وهما من أجل الصفات ، وقد ثبت بالتجربة والشاهدة أن  
الأصناف العليا من الكلاب متصفة بأوصاف أخرى أدبية ، فكلاب (نيوفونديندا) التي تنتقل القرى ،  
وكلاب (سان برنار) التي تنبش الناس من تحت الثلوج متصفة بجزء النفس ، فلا يمكن أن تقبل رشوة ولا أن  
تسرق شيئا ليس لها وهي تموت حبا بالوفاء فتبذل حياتها دون ودية أودعتها والحراس التي تقيمها أسراب  
الوحش والطيور لتحرصها من قدوم مفاجئ عليها تثبت في أماكنها وتضدى رفاقها بأرواحها وتلك صفة من  
أجل الصفات الأدبية .

(٩) إن إناث الوحش والطير تصبر على الجوع والمرض والألم لطم صغارها وتحميها من الأوجاع ، فلم تكن تستطيع ضبط أهوانها وشهواتها ما فعلت ذلك ، وأسراب القردة والقبيلة وبقر الوحش والوعول والطور القواطع ونحوها يتسلط بعضها على بعض ويخضع بعضها لبعض ، وكلب الراعي يتسلط على الغنم وقد يسوسها كساحبه وهي تنقاد له اقتيادها للراعي .

ومنى انفتت القردة على نهب حقل من الحقول يتقدمها كبيرها دبلا فيمشى على رجله منتصبا ويتعكز على عصا يديه وهو يتلفت يمينا ويسارا حذرا من عدو مفاجئها وهي تتبعه دابة على الأربع متحذرة حتى تصل إلى الحقل ثم يقم الدليل حراسا منها على أطراف الحقل فتقف نحرس ولا تمتد يدها إلى ما أمامها وتتفرق البقية في الحقل فتعيث فيه وتمرح وتأكل حتى تشبع ثم يقطف كل منها سنبلتين أو ثلاثا ويعملها للحراس فأكلها متى رجعت إلى محبتها .

(١٠) الطائر الذي يبني عشه في مكان ظليل يتسلط على الطبيعة وحرها وبردها كالبناء الذي يبني القصور الباذخة ، وكل باني وكر وقاطن وجري يسود على الطبيعة في ذلك لأنه يتخذها لإعظام حاجته وقضاء أعراسه ، وكل صائد وقانص من الوحش والطير يصيد ويقنص ويطم صغاره باستخدام الطبيعة إذ لاتأتيه الطرائد عفوا ، وكل من راقب أفعال الحيوان لا يسهه إلا الإفرار بأنه يستخدم الطبيعة على قدر حاجته أيضا ، انتهت اللطيفة الثانية .

#### اللطيفة الثالثة في قوله تعالى « وكان عرشه على الماء »

لقد تقدم الكلام على هذه الآية بما يشرح صدور الحكماء ، وبمزج العلم بالدين والحكمة بالقرآن ، وهناك قد نجلى من اللغز ما يبهير الأبصار ويشرح الصدور ، وفسرت هذه الآية بآيات أخرى في القرآن .

ولأذكر لك هنا وجها آخر لتفسيرها موافقا للذي ذكرناه مشهورا : روى عن رزين العقيلي رضى الله عنه قال « قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان في عمامة فوقه هواء وما تحته هواء ، وخلق عرشه على الماء » أخرجه الترمذي ، والمعنى مقصورا معناه لاشئ ثابت لأنه مما عني عن الخلق لكونه غير شئ ، فكانه قال في جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شئ غيره ، ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء : أي ليس فوق المعنى الذي هو لاشئ موجود هواء ولا تحته هواء لأن ذلك إذا كان غير شئ فليس يثبت له هواء بوجه .

والسماء بالمد : السحاب الرقيق وهو حق أيضا ، فإن العوالم المحيطة بنا كانت كالبخار المنتشر الذي يدور ويحرق كما في آية أخرى « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » ثم تكونت الشمس والسيارات والأقمار ، فالمراد بالسحاب الرقيق على هذه الرواية إنما هو عالم الشمس قبل تكوينها ، وقد تقدم في تفسير البقرة أن علماء القللك رصدوا الآن ستين ألف سديم في حال التكوين الآن تدور حول نفسها كما كانت شمسا قبل تكوينها وتنام حالها ، ثم هذه الستون ألفا بعد آلاف الآلاف من السنين ستكون شموسا كشمسنا ولها أقمار توابع لسياراتها وسيارات كما حصل لأرضنا إذ كانت قديما كذلك فكانت كالدخان المنتشر وهي دائرة ثم تفلدت بعد آلاف الآلاف من السنين حتى صارت على ما هي عليه وهي الآن تتنامس ، وبعد آلاف الآلاف تحرق أرضنا ، ثم أخواتها السيارات ، ثم أمهت الشمس .

وهذا كله سر قوله في الحديث « كان ربنا في عمامة قبل خلق السموات والأرض » أي كان مدبرا للسحاب عابيا عليه لأنه كان فيه كما في قوله « ولأصلنكم في جذوع النخل » يعني على جنوعها وهذا أبلغ

في الممكن ، فانه تعالى متمكن من هذا السحاب : أي البخار المنتشر يتصرف فيه ويدبره وينظمه تنظيماً محكماً  
ويحمله سموات وأرضين ويخلق فيه مخلوقات عظيمة .

قال أبو بكر البيهقي على المعنى الأول : في كتاب [ الأسماء والصفات له ] وقوله صلى الله عليه وسلم « كان  
الله ولم يكن شيء قبله » يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرها . وقوله ( وكان عرشه على الماء ) يعني وخلق للماء  
وخلق العرش على الماء ، ثم كتب في الذكر كل شيء . انتهى .

فتعجب كيف ورد الحديث بالماء والنصر على اختلاف الروايتين : فأحدها ذكر فيها أن لا شيء مع الله ،  
والثانية أن الله كان مدبراً للسحاب .

فإذا لاحظنا أن العالم لم يكن موجوداً البتة فهناك المسمى وهو العدم المحض ، وإذا لاحظنا أن عالمنا كان  
بخاراً منتشراً بعد انعدامه فهناك تدير في ذلك البخار حتى يصير شمساً ثم يتم الخلق ويكون على مقتضى العلم ،  
وهذا هو قوله « وكان عرشه على الماء » فالعدم ثم الدخان ثم خلق العالم على مقتضى العلم وهو القصد بقوله  
« وكان عرشه على الماء » ولا يزال كذلك كقوله « وكان الله غفوراً رحيماً » .

فتعجب كيف يطابق الحديث ما جاء في علوم العصر الحاضر وأن العالم كان بخاراً وأن هذا أمر مقرر  
في العلوم الحديثة ، ثم كيف كان هذا العالم الذي نحن فيه منظماً على مقتضى العلم ، وتعجب كيف اتضح معنى  
كون العرش على الماء بعد ذلك .

ولا يتم لك فهم هذا المقام إلا إذا قرأت ما جاء في سورة يونس في مسألة العرش وهناك ترى المعجب  
الجباب ، وحكمة الله في القرآن ، وجمال التعبير وحسن التنسيق ، فما أجل العلم ، وما أبهج الحكمة إذا  
ازدانت بالدين ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، انتهى القسم الأول .

### ( الْقِسْمُ الثَّانِي )

وَلَنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ  
مُبِينٌ \* وَلَنْ أَخْرِنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ  
لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* وَلَنْ أَدْفِنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ  
نُؤْتِيهَا مَنْهُ إِنَّهُ لَيَبْغِ كُفُورًا \* وَلَنْ أَدْفِنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ \* لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ  
السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا \* إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ \* فَلَمَّا تَرَاكَ تَارِكًا بِمَعْصَمٍ مَائُوحِي إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ مَدْرُكٌ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ  
عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ \* أَمْ يَقُولُونَ  
افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِشُرُوحِ مِثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ \* فَلِمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْمُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَإِنَّ لَإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ  
مُسْلِمُونَ \* مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا

لَا يُبْتَخَسُونَ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلٌ  
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* أَفَنُكَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى  
 إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ  
 فِي نَفْسٍ مِنْهُ إِنَّهُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن  
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى  
 رَبِّهِمْ الْأَلْمَنَةُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ \* الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ  
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ \* أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
 مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ \* أُولَئِكَ  
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ \* لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ  
 الْأَخْسَرُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ  
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \* مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّبْعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ  
 مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ :

#### التفسير اللفظي

قال تعالى (ولئن قلتم إنكم مبعوثون من بعد الموت) أي ولئن قلت يا محمد ذلك لهؤلاء الكفار (ليقولن  
 الدين كذبوا إن هذا إلا سحر مبين) يعنى القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) يعنى إلى  
 أجل محدود، وأصل الأمة في اللغة الجماعة من الناس، فكأنه قال سبحانه إلى انقراض أمة وبعث أمة أخرى  
 (ليقولن ما يحبسهم) أي أي شيء يحبس العذاب، وذلك منهم استهزاء بضون أنه ليس بشيء. (الأيام يأتيهم)  
 العذاب (ليس مصروفًا عنهم) أي لا يصرفه عنهم شيء. (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أي ونزل بهم  
 وبال استهزائهم (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة) رخاء وسعة في الرزق والعيش وبسطنا له الدنيا (ثم نزعناها  
 منه) يعنى سلبناه ذلك كله وأصابته للصابب فاجتاحته (إنه ليحسب) يعنى يظن قانطًا من رحمة الله آيسًا من  
 من كل خير (كفور) أي جحود لنعمتنا عليه أولاً، قليل الشكر فله بل مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.  
 قال بعضهم [يا ابن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدتها، فإن نزعنا  
 عنك فينبغي لك أن تصبر ولا تياس من رحمة الله فإنه العواد على عباده بالخير] ثم قال تعالى (ولئن أذقناه  
 نعماء بعد ضراء مسته) أي ولئن أئمتنا على الإنسان وبسطنا له العيش بعد الضيق والعناء (ليقولن ذهب  
 السيئات عنى) أي للصابب التي سادتني (إنه لفرح) بطر بالذم مفتقر بها (ظهور) على الناس مشغول عن  
 الشكر والقيام بحقها، وإنما عبر بالمس والإذابة ليعين أن الإنسان يياس ويفخر لأدنى ضرر وأدنى نعمة ويشير  
 إلى أن نعم الدنيا وقصمها قليلة بالنسبة لما في الآخرة، ثم استثنى من نوع الإنسان من صبروا على الضراء إيمانًا

بأنه واحتسابا وثقة بعدله ورحمته وأنهم بالضراء يرتقون عنده فقال (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) شكرا للنعم التي ذاقوها في حالة السراء (أولئك لهم مغفرة) لتوبتهم (وأجر كبير) وذلك كقوله تعالى «والصبر إن الإنسان لخر» إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ونواصوا بالحق ونواصوا بالصبر» وقوله «إن الإنسان خلق هلوعا» ثم فسره فقال «إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا للصابين الخ» وهذا للقيام قد استوفيته في سورة البقرة فارجع إليه إن شئت .

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملا والكامل ينال أعلى الحاصل فيصبر على الضراء به الله على ذلك تمليا لأتمته أن يصبروا على الضراء كما صبر النبي صلى الله عليه وسلم على السهريين الذين إذا تلا عليهم القرآن قالوا له هلا أنزل عليك كثر لتنفق منه على الأتباع كالمملوك؟ وهلا جاء معك ملك يصدقك؟ وهذا تضيق منه الصدور ويبحث على كتمان بعض القول حق لا يصاب صاحبه بمكرهه، وهذه الحال جيلة في النوع الإنساني لأنه يائس إذا مسه الضر وهذا ضر عظيم .

قال العلماء ولا يلزم من توقع الشيء لوجود ما يدعو إليه وقوعه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو هنا عصمة الرسل من الحياة في الوحي ، قال تعالى (فعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك) يقول الله إن هذه الحال تدعو إلى كتمان الوحي وضيق الصدر فإن الاستهزاء وما أشبهه يدعو لذلك ، ولكن العصمة النبوية منعت من الحصلة الإنسانية العامة وذلك تعليم لجميع أهل العلم في الأمة الإسلامية أن يصبروا كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا يأسوا من روح الله وأنهم مستمدون من هذه الروح الشريفة فلصبروا كما صبر الأنبياء وخاتمهم نبينا صلى الله عليه وسلم ليكونوا بمن استثناهم الله في هذه الآية إذ قال «إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير» ثم قال الله له (إنما أنت نذير) أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك فسواء ردوا عليك أو افترحوا فأمرهم حين فما بالك يضيق صدرك؟ وكيف يضيق وأنت قد أدت ماوجب عليك من التبليغ فليس عليك هدام وقد أمرت بصبرك على أدام (والله على كل شيء وكيل) فهو يحفظ مايقولون ويفعل بهم مايجب أن يفعل فتوكل عليه وكل أمرك إليه فما عليك إلا البلاغ بصدور منشرح فلا التفات إلى استكبارهم ولا مبالاة بسفهمهم واستهزائهم (أم يقولون افتراء) أم منقطعة ، والهاء ضمير راجع لما يوحى إليك (قل فأنوا بشرسور مثله مفتريات) كما افتريت أنا بزعمكم هذا القرآن وأنتم عرب مثلي وفيكم الفصحاء والبغاة والشعراء ، فإذا افتريت هذا القرآن فافتروا عشر سور مثله وأظهروا فصاحتكم وبلاغتكم ، وقد تحدثم في سورة يونس بسورة واحدة في الإخبار بالغيب والوعد والوعيد والأحكام وما أشبه ذلك ، لأن الفصاحة والبلاغة بدون ما ذكر أسهل ، أما الوعد والوعيد والأحكام والإخبار بالغيب فهي دقيقة اللغوي تحتاج إلى عقول أنضج ونفوس أكمل حتى تقبل النفوس على آرائها وشتان ما بين الناحية والشكوى .

فأبن التريا وأبن الشرى وأبن معاوية من على

فلما تحدثم بهذا الكلام أمره أن يقول لهم (وادعوا من استطعتم من دون الله) حتى يعينوكم على ذلك (إن كنتم صادقين) في قولكم إنه مفترى (فإن لم يستجيبوا لكم) بإتيان مادعوتهم إليه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنهم كانوا يشاركونه في التحدى الذي يثبت يقينهم ويكمل إيمانهم ولذلك رتب عليه قوله (فاعلموا أنما أنزل يعلم الله) ملتبسا بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه إلا هو (وأن لا إله إلا هو) أي واعلموا أن لا إله إلا هو ، فأما تلك الأصنام فليست بألهة فهي عاجزة عن كل شيء ، وفي هذا تهديد وإقناط لهم من

أن يجيرهم أنفسهم من بأس الله إذا جاءهم ، ودلالة على وجوده ووحدايته بصدق هذا الكلام الثابت بمجزم  
عن الإتيان بشر سور مثله في البلاغة بل بسورة واحدة في الأحكام ونحوها .

ولما كان هذا الكلام برهانا على صدق النبوة ووحداية الله رب عليه قوله ( فهل أتم مسلمون )  
الخطاب للمسلمين أيضا : أي فهل أتم ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذ تحقق عندكم إعجازه كآه  
قبل أسلموا وأخلصوا لله العباد ؛ ولما كان الكفر مع وضوح الحججة وظهور الحججة وبيان مجزم الظاهر من  
عدم إتيانهم بشر سور مثله مفتريات كما يزعمون مزريا بالقوة العقلية موقعا في الرياء والتظاهر بخلاف الواقع  
ناسب أن يؤتى بعدها بما ينفر النفوس من الرياء فوصف للرأيين بحمسة أوصاف :

[ الأول ] أنهم يوفون أجورهم على أعمال البر في الدنيا بالصحة والعافية والرزق وما أشبه ذلك .

[ الثاني ] أنهم لا يبخسون : أي لا ينقصون من أجور أعمالهم في الدنيا .

[ الثالث ] أنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار .

[ الرابع ] أنهم في الآخرة حبط ماصعوه فليس لهم عليه ثواب .

[ الخامس ] أن عملهم في نفسه باطل فترتب على بطلانه ما تقدم في الرابع مع عدم الثواب عليه ؛ وهذا  
هو قوله تعالى ( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ) يعني بعمله الذي يعمله من أعمال البر والطاعات والصدقات  
كأن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليقصدوه بالمعطاء وكأولئك  
النافقين الذين كانوا يطلبون بنزولهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم ولا يريدون ثواب الآخرة ،  
وكالذين يتعلمون العلم لغير الله تعالى ( يوف إليهم أعمالهم فيها ) أي توصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من  
الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وتدفع عنهم المكروه ( وهم فيها لا يبخسون ) لا ينقصون شيئا من  
أجورهم ، وذلك القول في أهل الرياء والنافقين والكفرة ( أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار )  
في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت النيات السيئة فيستوفونها في النار ،  
فأما الكافر والنافق فلهما التأبيد . وأما المؤمن فالعذاب منقطع بعد أجل محدود ( وحبط ماصعوا فيها )  
أي لم يبق لهم ثواب في الآخرة لأن الثواب على الإخلاص ، وهؤلاء لا إخلاص عندهم ( وباطل ) في نفسه  
( ما كانوا يعملون ) لأنه لم يعمل على ما ينبغي وبطلان العمل ترتب عليه عدم الثواب ، وعدم الثواب أوزمهم  
النار ، فالجلمة الأخيرة علة لما قبلها وهي علة لما قبلها فافهم .

ولما كان ما تقدم رائعا لشأن المخلصين في أعمالهم واضحا لشأن الرأيين أردفه بما يفيد أنه لا تقارب بين  
الطائفتين تأكيذا لما تقدمه فقال أنجملون الفريقين في منزلة واحدة ، فمن كان على بينة من ربه فكفهم صلى  
الله عليه وسلم ومؤمنى أهل الكتاب ، وكل مؤمن محاص ، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ إن بين الفريقين  
تباعدا وتباينا ، فالهزمة للإنكار ( على بينة من ربه ) أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق  
وهو دليل العقل ( ويتلوه شاهد منه ) أي ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل ( شاهد منه ) ومن قبله  
كتاب موسى ) شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن ويتلو ذلك البرهان أيضا من قبل القرآن كتاب موسى  
عليه السلام وهو التوراة حال كونه : أي كتاب موسى ( إماما ) كتابا مؤتمنا به في الدين قدوة فيه وحال كونه  
( رحمة ) أي نعمة عظيمة على المنزل إليهم لأنهم به يفوزون في الدار الآخرة ( أولئك ) أي من كان على بينة  
من ربه ( يؤمنون به ) بالقرآن ( ومن يكفر به من الأحزاب ) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ( فالنار موعده ) بردها لأحماله ( فلانك في سربة منه ) من للوعد أو القرآن ( إنه  
الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ) لقلعة نظرم واختلاف فطرم . ولما نفي التوازن والتقارب



بين الفريقين شرع يفصل الكلام على الفريق الكاذب فقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بأن أسند إليه ما لم ينزله أو نفي عنه ما أنزله (أولئك يعرضون على ربهم) في الموقف بأن يجسوا وتعرض أعمالهم (ويقول الأتجاه) جمع شاهد، كأصحاب جمع صاحب، أو شهيد كأشرف جمع شريف: وهم اللائكة والنبيون والجوارح لأن الأفواه يغم عليها وتتكلم الأيدي والأرجل، وهذه لا كذب عندها لأن شهادتها فطرية لا دخل للكذب فيها بخلاف اللسان فهؤلاء كلهم أشهاد يقولون (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) أي في الدنيا وهذه النصيحة تكون في الآخرة لسكل من كذب على الله (ألا لعنة الله على الظالمين) وهذا تهويل عظيم لظلمهم بالكذب على الله (الذين يصدون عن سبيل الله) يصدون الناس عن دينه (ويغفونها عوجا) يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب، أو يغفون أهلها أن يعوجوا بالردة (وهم بالآخرة هم كافرون) أي والحال أنهم كافرون بالآخرة وكرر «هم» للتأكيد، ثم وصف هؤلاء الظالمين بثانية أوصاف فقال:

- (١) فهم لا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم .
  - (٢) وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه .
  - (٣) وعذابهم يضاعف لأنهم أضلوا الناس كما أضلوا .
  - (٤) ما كانوا يستطيعون استماع الحق .
  - (٥) وما كانوا يصرون الحق .
  - (٦) وهم الذين خسروا أنفسهم حيث اشتروا عبادة الألهة بعبادة الله .
  - (٧) وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ما كانوا يفترون .
  - (٨) « لا جرم » أي لا محالة « أنهم في الآخرة هم الأخسرون » أي لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم .
- وهذا قوله تعالى ( أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب - إلى قوله - هم الأخسرون ) ثم أتبع هؤلاء بضمهم فقال ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ) اطمانوا له وخشعوا له ، من الخبت ، وهو الأرض للطمئنة ( أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) دائمون .

ولما وصف كلاما من الفريقين بأوصاف على حدة أخذ يضرب لهم مثلا مجتمعين فقال ( مثل الفريقين كالأعمى والأعمى والبصير والسميع ) شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ( هل يستويان مثلا ) هل يستوي الفريقان تمثيلا ونسبها وهو منصوب على التمييز ( أهلا تكرون ) تنتفعون بضرب المثل ، انتهى التفسير اللفظي .

اطيفة في قوله تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها الخ »

لقد حملنا الآية على عموم الكافرين والنافقين والمؤمنين الذين يطلبون بعملهم الرياء والسمعة :

- (١) روى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال الله تبارك وتعالى أما أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه مني غيري زكته وشركه » أخرجه مسلم .
- (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من تعلم علما لم يعلّم الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذي .

(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تموتذوا بالله من جب الحزن ، قالوا يارسول الله وما جب الحزن ؟ قال واد في جهنم تموتذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يارسول الله من يدخله ؟ قال القراء ، والمرادون بأعمالهم » أخرجه الترمذي .

(٤) وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يناب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا » أخرجه البغوي بغير سند .

### تحذير

إياك أن تصدك الآيات والأحاديث الواردة في ذم الرياء عن فعل البر والطاعات ، فإذا خطر لك أمر فزته بالشرع ، فإن كان مأمورا به فبادر إليه فإنه من الرحمن ، فإن خشيت وقوعه على صفة منية كعجب أو رياء فلا بأس عليك في وقوعه عليها من غير قصد بها ، بخلاف ما إذا أوقعته عليها قاصدا لها فعليك إنم ذلك فتستغفر الله منه .

قال السهروردي صاحب [ عوارف العارف ] لمن سأله [ أنعمل خوف العجب أو لا ، عمل حذرا منه ؟ فقال اعمل وإن خفت مستغفرا منه ] أي إن وقع قصدا ، وقد قيل [ إن ترك العمل للخوف منه من مكابد الشيطان ] كما في جمع الجوامع وشارحه .

وهذه إحدى مصائب السليين اليوم ؛ فالصالحون يخافون الرياء ، والظالمون يعملون الشر ، انتهى تفسير القسم الثاني من السورة .

### (القسم الثالث)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ \* أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ \* فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْنِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ \* قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَتَمَيَّبْتُمْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ مُكُودَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ \* وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ \* وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ \* قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ \* وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ

افتربته فملى اجرامى وانا برى مما تجرمون \* واوحى الى نوح انه لن يؤمن من  
 قومك الا من قد آمن فلا تبشس بما كانوا يفعلون \* واصنع الفلك باعيننا ووحينا  
 ولا تخاطبني في الدين ظلموا انهم مفرقون \* ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملا من قومه  
 سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخركم كما تسخرون \* فسوف تعلمون  
 من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم \* حتى اذا جاء امرنا وفار الشور قلنا  
 احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما  
 آمن معه الا قليل \* وقال اركبوا فيها بسم الله تجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم \*  
 وهي تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا  
 ولا تكن مع الكافرين \* قال ساوى الى جبل يعصمي من الماء قال لا عاصم اليوم  
 من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المرفقين \* وقيل يا ارض ابلي  
 ماءك ويا سماه اقلي وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم  
 الظالمين \* ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم  
 الحاكمين \* قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك  
 به علم لاني اعطتك ان تكون من الجاهلين \* قال رب انى اعوذ بك ان اسالك ما ليس  
 لي به علم ولا تغفر لي وترحمي اكن من الخاسرين \* قيل يا نوح اهبط بسلام منا  
 وبركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سننتهم ثم يمسهم منا عذاب اليم \* تلك  
 من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان  
 العاقبة للمتقين \* ولى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره  
 ان انتم الا مفترقون \* يا قوم لا اسألكم عليه اجرا ان اجرى الا على الذى فطرني  
 افلا تعقلون \* ويا قوم استنصروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا  
 ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين \* قالوا يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن  
 بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين \* ان نقول الا اعتراك بفض آلهتنا بسوء

قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ بِمَا تَشْرِكُونَ \* مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جِيْمَا تُمْ  
 لَا تَنْظُرُونَ \* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي  
 عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَقْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْفِئُ رَبِّي  
 قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ \* وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا  
 هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ \* وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي  
 كُنَّا نُرْسِلُكَ فِيهَا وَابْتَغُوا أَمْرًا كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ \* وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُمْدَا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ \* وَإِلَى نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا  
 قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ  
 فِيهَا فَاسْتَمِرُّوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ \* قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا  
 مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا فِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ  
 قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ  
 إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ \* وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ  
 فِي الْأَرْضِ اللَّهُ وَلَا تَمْسُوها بِسُوءِهَا فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ \* فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ نَمُّودٌ  
 فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ \* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ  
 مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ \* وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا  
 فِي دِيَارِهِمْ جَانِحِينَ \* كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنْ نَمُّودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُمْدَا لَشُؤْدٍ \* وَلَقَدْ  
 جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ قَدْ لَبِثْتُ أَنْ جَاءَ بِبَعْجَلٍ حَنِيدٍ \*  
 فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُرْسِلْنَا  
 إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ \* وَإِمرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَنْقُوبُ \*  
 قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْطَلٌ شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجِيبٌ \* قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ  
 أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ \* فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ  
 إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُحَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ \* إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ \*

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ \*  
 وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِءًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ \* وَجَاءَهُ  
 قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي مِنْ أَمْطَرٍ  
 لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ \* قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا  
 فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ \* قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ  
 شَدِيدٍ \* قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا  
 يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعِدُهُمْ الصَّبْحُ أَلَيْسَ  
 الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ \* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ  
 مَنْضُودٍ \* مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ \* وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ  
 يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَاللِّيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ  
 بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ \* وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَاللِّيزَانَ  
 بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ \* بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ  
 نَعْمَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُحْفِظٍ \* قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ  
 أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ \*  
 قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ  
 أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ  
 عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ \* وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ  
 قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ \* وَاسْتَغْفِرُوا  
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ \* قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ  
 وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ \* قَالَ يَا قَوْمِ  
 أَرْمَطِي أُعْزَ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُوا نَمُوهُ وَرِءَاءَكُمْ ظَهْرِيَا إِنْ رَبِّي بِمَا تَكْفُرُونَ مُحِيطٌ \*  
 وَيَا قَوْمِ انْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَاوِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ

هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ \* وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ \* كَأَن لَّمْ يَمْنُوا  
فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتِ تُمُودُ \* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* إِلَىٰ  
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ \* يَقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
فَأُورِدُهُمُ النَّارَ وَيُسَّ الوِرْدُ المُوْرُوْدُ \* وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْسَخ  
الرَّفْدُ المَرْفُوْدُ .

### قصة نوح

هذه القصة تبين ما يلابيه الدعاء إلى الخير من مصادمة الظالمين الذين يردون الدعوة ولا يسمعون الحججة  
ويعودون لو يكونون بلا علم يسمونه ولا دين يتبعونه ولا هدى ولا كتاب سبى ، فانظر كيف ابتدأ الدعوة  
بالإنذار والتحذير ، وكيف قابله عظماء قومه بطعنهم أو لا في شخصه هو قائلين أى مزية لك علينا وأى  
فضل ؟ وكيف ينزل الوحي عليك دوننا وما دمنا متماثلين في الحلقة متشاركين في العقل ، فمن ذا الذى يصدق  
بامتيازك علينا واختصاصك بفضيلة دوننا ؟

وثانياً : إن الدين اتبعوك مادم إلا سفلتنا وأراذلنا كالحلابة والأساكفة وسائر أصحاب الصناعات الخبيثة  
فكيف تتبعك وأنت ومن معك على ما وصفنا ؟

ثالثاً : إن هؤلاء الأتباع مع خصمهم ودينهم ما اتبعوك إلا وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم ،  
فاتباعهم لك ليس عن روية ونظر وتعمق في الفكر ، وإنما هو عن شيء عن لهم بديهية ، فهؤلاء مع قهرهم  
وتأخرهم في الأسباب الدنيوية فلا جاء لهم ولا مال ولا شرف في الحياة الدنيا لم يتبعوك عن فكر ونظر الخ ،  
قوله « بادي الرأي » من بدا يبدو ظهر ، أو بدأ يبدأ إذا فعل الشيء أولاً واتصاه على الظرف .

رابعاً : ويلزم من ذلك أنه لافضيلة لك يا نوح ولا لمن اتبعك ، ثم إنما فوق ذلك نظنك كاذباً في دعوى  
النبوة ونظنهم كاذبين في دعوى العلم بصدقك فلا نبوة لك ولا علم لهم بصدقك ، وهذه هي حجج قومه وهي  
موافقة لما يحصل في كل داع وأتباعه ، فإن الناس لا يزالون يكذبون الداعي وصدقونه بالكذب ونحوه ، ثم  
يظفون على أتباعه فتارة يذمتهم بأنهم ليسوا على شيء ، وتارة بأنهم اتبعوه لجهالتهم وقلة عقلهم ؟ فالظمن  
إما في للتبوع وإما في التابع وإما في العلاقة القائمة بينهما ، وقد تم كل ذلك في الآية ووضع

— وهذا تعليم من الله لنا أن نشعر عن ساعد الجدة ونقوم بالأمر ولا نبالي بالذم فينا ولا فيمن معنا من  
الصلحين ولا في العلاقة القائمة بيننا ، بل يجب أن تكون تلك الأقوال مشجعة لنا ونحرص على ما أنتم الله بها  
علينا كما فعل سيدنا نوح ، فانظر ماذا قال في الرد عليهم ، فإنه رد على الأول قائلاً : « ولا أقول إني ملك »  
رداً على قولهم « ما نراك إلا بشراً مثلاً » .

ورد على الثانى وعلى الثالث مما يقال : ( ولا أعلم التيب ) حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضائرهم  
أى لا أقول عندى خزائن الله ولا أقول أنا أعلم التيب ( ولا أقول للذين زدرى أعينكم ) أى ولا أحكم على  
من استرذلتهم من المؤمنين لفقهم . ( لن يؤتبهن الله خيراً ) فى الدنيا والآخرة لحوانهم عليه مساعدة لكم

وزولا على هواكم ( الله أعلم بما في أنفسهم ) من صدق الاعتقاد ، وإنما على قبول ظاهر إقرارهم إذ لا أطلع على حقي أسرارهم ( إني إذن لمن الظالمين ) إن قلت شيئا من ذلك ، وقوله « زدرى » من ذرى عليه : إذا عابه . وقال أيضا في الزد ( وما أنا بطارد الذين آمنوا ) حين سألوهم طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ( إنهم ملأوا ربهم ) فيشكونني إليه إن طردتهم ، وقال أيضا ( ويقوم من ينصرني من الله ) من ينصني من انتقامه ( إن طردتهم أفلا تذكرون ) تنتظون .

ورد على الرابع قائلا : ( ولا أقول لكم عندي خزائن الله ) فأدعى فضلا عليكم بالفنى حتى يجهدوا فضلى بقولكم « وما نرى لكم علينا من فضل » . وقد تقدم أن القسم الرابع جزآن :

[ الجزء الأول ] ادعائهم أنه لافضل لنوح وأتباعه عليهم ، وهذا رد عليه

[ والجزء الثاني ] أنهم يظنونهم كاذبين ، فرد عليهم قائلا ( وليكني أراكم قوما تجهلون ) تنسأهون

على للمؤمنين وتدعونهم أراذل وتجهلون لقاء ربكم كما تجهلون أنهم خير منكم ، وهذا هو قوله تعالى ( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي - إلى قوله - إني إذن لمن الظالمين ) « أرايتم » أحبروني « على بينة من ربي » بيان وبقين من ربي الذي أنذرتكم به ( وآتاني رحمة من عنده ) هديا ومعرفة ونبوة ( فعميت عليكم ) أى أخفيت عليكم أو « خفيت » على القراءتين ، ومعنى عميت بالتحريف لم تهديكم كما لو عمى على القوم دليلهم في اللقظة فبقوا بغير هاد ، فالحجة كما تكون بصيرة ومبصرة بحمل عمياء لأن الأعمى لا يهتدى ولا يهتدى غيره ( أنزل مكموها ) أنزلكم على الاهتداء بها ( وأنتم لها كارهون ) لا تختارونها ولا تتأملون فيها ( ويقوم لأسألكم عليه مالا ) أجرا يتقل عليكم إن أديتم أو على إن أبيت ( إن أجرى إلا على الله ) وبقية الآيات ظاهرة للمنى فلا تطول بذكرها وهي آيات اعتراض القوم ، فقد لحصناها آتقا وهي مذكورة في المتن ، ولما كانت حجج نوح قد وضحت ورد عليهم وقررت الرد وأبان ولم يترك لهم بابا أرى عليهم وطوقهم بالبراهين للفتنة ( قالوا يا نوح قد جادلتنا ) خاصمتنا ( فأكثر جدالنا ) كما ظهر فيما تقدم ( فالتفتنا بما تعدنا ) من العذاب ( إن كنت من الصادقين ) في الدعوى والوعيد ، فأما مناظرتك فلا تؤثر فينا ( قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ) عاجلا أو آجلا ( وما أنتم بمعجزين ) بدفع العذاب أو الحرب منه ( ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ) أى إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي وهو جواب لما أومئوا أن جداله كلام بلا طائل ، ثم قال ( هو ربكم ) خالفكم والتصرف فيكم وفق إرادته وقد جرى عليه القديم على مقتضى الحقائق الواهمة الإلهية وإسك تخفون على حال لا ينفع فيها التصح ( وإليه ترجعون ) فيجازيكم على أعمالكم .

ولما كانت هذه القصة محيية والجدال فيها مؤثرا ذكر الله ما يختلج في عقول بعض الكفار أن هذا وأمثاله مخلوق مفترى من عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى هذه الجملة للمعرضة ( أم يقولون افتراء ) أى بل يقولون اختلق القرآن محمد ( قل ) يا محمد ( إن افتريته فعلى إجرامى ) إنم إجرامى ، والإجرام : قتراف السيئة واكتسابها . يقال جرم وأجرم : أى اكتسب القنب واقتله ( وأنا برىء مما يجرمون ) يعنى من الكفر والتكذيب ، وهذا قول مقاتل وأكثر المفسرين إن الخطاب لنوح عليه السلام .

ثم أخذ بجم القصة فقال بعد أن انتهى الجدال وجاء القول الفصل ( وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ) فلا تحزن حزن بائس مستكين ، والابتئاس افتعال من البؤس ، وهو الحزن والفقر : والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك فقد حان وقت الانتقام من أعدائك ، وهذا هو الذريح العام وكل مصلح فى الأرض ، فأولادهم له ولأتباعه وللرابطة بينهما . ثم الرد

عليهم ، ثم العناد التام . ثم ظهور الحقائق واضحة جلية : فلذلك دعا نوح على قومه فقال « رب لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا » .

## فصل

- (١) صنع السفينة .
- (٢) استهزاء قومه به .
- (٣) النجاة من الهلاك بركوب السفينة .
- (٤) هلاك من عصاه من أهله .
- (٥) القصود من القصة وهو أن العاقبة للمتقين وأن الصابرين ينالون الفوز في آخر الأمر .

صنع السفينة واستهزاء قومه به .

قال تعالى ( واصنع الفلك بأعيننا ) أى ملتبسا بأعيننا كأن لله أعينا تكلؤه وتحفظه للابريخ في صنعته عن الصواب ( ووحينا ) وأنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع ( ولا تخاطبني في الدين ظلموا ) ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ( إنهم منقرضون ) محكوم عليهم بالإغراق وقد قضى به وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ( ويصنع الفلك وكلامه عليه ملا من قومه - خروا منه ) استهزؤا به لعمله السفينة في برية جيدة عن الماء ، وأيضاً كانوا يقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً ( قال إن تسخرنا منا فإننا نسخر منكم كنا نسخرون ) إذا أخذكم الفرق في الدنيا وجهنم في الآخرة ( فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ) ويعنى به إياهم ، ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو العرق ( ويحل عليه عذاب مقيم ) وينزل عليه عذاب الآخرة الذى هو دائم ، وقوله « وكلامه عليه ملا من قومه » أى جماعة منهم ، إلى قوله « عذاب مقيم » جملة حالية ، وقوله « ويصنع الفلك » متصل بقوله ( حتى إذا جاء أمرنا ) عذابنا أى وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الوعد ، حتى هذه هى التى ابتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهى غاية لقوله « ويصنع الفلك » وقوله ( وفار التور ) أى وجه الأرض أو أشرف موضع فيها .

نجائه هو ومن آمن معه

قال تعالى ( قلنا احمِلْ فِيهَا ) فى السفينة وهو جواب الشرط ( من كل ) من كل نوع من الحيوانات ( زوجين اثنين ) ذكرا وأنثى ، والزوجان كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن الآخر كالكرا والأبى ، والعينين والأذنين يقال لكل واحد منهما زوج ، والنملان فى الرجلين يقال لكل واحد منهما زوج ، فقوله « من كل » إتما متون : أى من كل نوع زوجين ، وإتما غير متون : أى احمِلْ فِيهَا من كل زوجين اثنين ، وللمنى واحد على كل ، وقوله ( وأهلك ) عطف على زوجين . وقوله ( إلا من سبق عليه القول ) بأنه من اللترقين يريد به ابنه كنعان وأمه السمة واعلة فإنهما كانا كافرين ( ومن آمن ) أى واللؤميين ( وما آمن معه إلا قليل ) قبل كانوا ( ٧٤ ) زوجته السمة وبنوه سام وحام ويافت ونساؤم ، و ( ٧٢ ) رجلا وامرأة من غيرهم ، ولقد ذكر العلماء طولها وعرضها ولا فائدة فى ذلك لنا . ويقال إنه جعل فى أسفلها الدواب والوحش وفى وسطها الإنس وفى أعلاها الطير وكانت ثلاثة بطون ( وقال اركبوا فيها ) أى صيروا فيها ، وإنما سمى ركوبا لأن السفن فى البحار كالدواب على الأرض ، وقوله ( بسم الله مجريها ومرساها ) جملة حالية من «ها» : أى اركبوا فيها حال كونها إجراؤها وإرساؤها كائنان باسم الله على وجه ، ومجريها ومرساها بفتح الليم والراء من جرى مصدرا ووقت ، وبضم الليم وفتح الراء من أجرى للوقت وللصدر ؛ يعنى أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله . يقال إنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله تجرت ،



وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست ( إن ربى لغفور رحيم ) أى لولا مغفرته لما فعلتم من الذنوب ورحمته لكم مانجاكم ، ثم ركبوا فيها يقولون : بسم الله كما أمروا (وهى تجرى بهم) وهم فيها (في موج كالجبال) للوج : ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح فشبهه سبحانه بالجبال في عظمه وارتفاعه وكل موجة منها كجبل من تراكمها وارتفاعها .

### هلاك من عصى من أهله

قال تعالى ( ونادى نوح ابنه ) كنعان وكان ابنه من صلبه ( وكان في منزل ) عن أبيه وعن السفينة وعن دين أبيه ، وهو مفعول ، من عزله إذا نجاه وأبعده ( يا بني ) بفتح الياء . وفي قراءة بكسر الياء ، والأولى اقتصار عليه من الألف البدلة من الياء ، والثانية اقتصار عليه من ياء الإضافة ( اركب معنا ) في السفينة أى أسلم واركب معنا ( ولا تكن مع الكافرين ) في الدين والانزلال ( قال سأوى إلى جبل يعصقى من الماء ) أن يترقى ( قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ) أى إلا الراحم وهو الله تعالى أى لا عاصم اليوم من الطوفان إلا مكان من رحم الله من المؤمنين فلا يعصمك الجبل ولا غيره وإنما يعصمك مكان المؤمنين وهى السفينة ، ويصح أن يكون الاستثناء منقطعاً أى لكن من رحم الله يعصمه ( وحال بينهما للوج ) أى بين نوح وابنه ( فكان من للترقين ) فصار من للهلكين بالماء ( وقيل يا أرض ابلى ماءك ويا سماء أقلى ) جعل الأرض والسماء كأنهما من العقلاء يطيعان ما يؤمران به إظهاراً لنفاذ الأمر وسرعة الإنجاز وحصول الأمر به حالاً كما يفعل للأمر للجمهور مع الأمر القاهر القادر ، والبيع : النشف ، والإفلاج : الإمساك ، ثم قال ( وغيض الماء ) نقص ( وقضى الأمر ) وأنجز ما وعد به من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ( واستوت ) واستقرت السفينة ( على الجودى ) يقال إنه جبل بالجزيرة بقرب للوصل ( وقيل بعدا للقوم الظالمين ) يقال بعد بعدا لمن لا يرجى عوده ثم استعير للهلاك وحض بدعاء السوء ( ونادى نوح ربه ) أى أراد نداءه ( فقال رب إن ابني من أهلى ) أى بعض أهلى لأنه كان ابنه ( وإن وعدك الحق ) وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذى لا شك في إنجازه والوفاء به وقد وعدتني أن تنجى أهلى فما بال وعدى ( وأنت أحكم الحاكمين ) أى أعلم الحكام وأعدلمهم فلا فضل لحاكم على غيره إلا بما تجمل به من العلم وما اتصف به من العدل وأيضاً إنه يحكم بالحقائق لا اطلاع على بواطن الأمور ودخائلها ، أما الحكام الأرضيون فإنهم يحكمون بالظاهر ويدررون البواطن لمن هو أحكم منهم وهو أحكم الحاكمين ( قال ) الله ( يا نوح إنه ليس من أهلك ) إذ لا ولاية بين مؤمن وكافر ، ثم علل ذلك بقوله ( إنه عمل غير صالح ) أى إنه ذو عمل فاسد وجعل نفس العمل الفاسد للبالغة . وقرئ « إنه عمل غير صالح » أى عمل عملاً غير صالح ( فلا تسألن ) نجاة ( ما ليس لك به علم ) أنه ليس أهلاً للنجاة .

وذلك أن نوحاً عليه الصلاة والسلام سأل الله أن ينجى ابنه من الفرق وكان من أهل النفاق يظهر الإيمان ويخفى الكفر كالنفاقين زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعلم حتى أعلمه الله كما حصل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورة التوبة ، فقوله « إنه ليس من أهلك » أى من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر وقد خاطبه الله بقوله ( ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ) ثم أتبع الأمر بدم السؤال بقوله ( إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ) وسعى « أعظك » أنهاك وهذا كما نهى رسولنا صلى الله عليه وسلم بقوله « فلا تكونن من الجاهلين » ( قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ) في الاستقبال ( ما ليس لى به علم ) ما لا علم لى بصحته ( وإلا تغفر لى ) وإن لم تغفر ما فرط منى من السؤال ( وترحمنى ) برحمته التى وسعت كل شئ\* ( أكن من الخاسرين ) أعمالاً ( قيل يا نوح اهبط بسلام منا ) أى أنزل من السفينة

إلى الأرض مسلماً من السكاره كالترق من جهتنا أو بتحية منا (وبركات عليك) وهى الخيرات النامية وهى فى حقه كثرة أولاده وأتباعه ، فقد جعل أكثر الأنبياء وأئمة الدين من ذريته (وعلى أم من مملك) أى وعلى أم نائمة من مملك وهم الأمم إلى آخر الدهر لأنهم ذرية من معه فى السفينة (وأم ستمتعهم) أى وأم كافرة يحدون بعدك ستمتعهم فى الدنيا إلى متعنى آجالهم (نم يحسبهم منا عذاب أليم) فى الآخرة ، ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال (تلك) أى قصة نوح مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) أى بعضها ، وقوله (نوحاً إليك) خبر ثان (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وهذا خبر ثالث (فاصبر) على مشاق الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح ، وتوقع فى العاقبة لك ولمن كذبتك نحو ما كان لنوح وقومه (إن العاقبة) فى الفوز والنصر والقلبة (للتقين) الذين يذرون الشرك والمعاصي ، وهنا لطائف :

#### اللطيفة الأولى : « وقيل يا أرض ابلئى ماءك الخ »

هذه الآية فى غاية الفصاحة والبلاغة حتى خصصها بعض العلماء بالتأليف لفخامة لفظها وحسن نظمها ودلالاتها على الحال مع الإعجاز البديع .

فانظر كيف ابتدأ الكلام بلفظ « قيل » بالبناء للجهول فلم يذكر الفاعل لعظم قدرته وجلالته ، وكيف خاطب الأرض أن تباع والسماء أن تطلع وهو مجاز عجيب ؛ وكيف كان « غيض الماء » يضى عن جمل كثيرة « وقضى الأمر » قام مقام العبارة الطويلة الدالة على هلاك قوم ونجاة آخرين ، وهكذا فكل جملة كأنها درس خاص مع الجزالة وحسن التعبير . وفى هذا اللقمان من المحاسن ما لا تمتنع للعبارة عنه والدوق كاف فيه .

#### اللطيفة الثانية .

اعلم أن هذه القصة قديمة العهد ذكرت فى الكتب السابقة ، وما مقصودها إلا إبراز رجال فى الأمم يكونون قدوة للصالحين ومنبعا للسكالى ، إلهم تشد الرحال وعليهم يقول الرجال وبهم تصلح الحال ، ولو أنك درست تواريخ البابئين فى سائر الأمم والأجيال لم تر أحدا منهم ينبغ إلا على مثال نوح عليه السلام ، ولم يخلق الله فى الأرض نبيا ولا حكيما ولا علما إلا إذا صادفه مثل ما صادفه نوح عليه السلام ، بل أقول انظر أيها الحكيم القارى لهذا التفسير .

ألم نجد فى نفسك مثال ماجرى لنوح من بعض الوجوه ؛ وكيف قرأت العلوم ودرست الكتب ثم وصلت لهذا التفسير وقرأته ؛ ما كان ذلك إلا بعد ما جاهدت جهادا آذاك فيه الأقربون والغريباء ، ثم لم تعبأ بذلك ونصرت وفزت بالعلم ، وضل سعيهم وخاب قائلهم فلمعرك لم يفز أحد فى الدنيا بطائل إلا بعد أن يناله التعب ويغشاها التعب ويحل به الألم ويسومه أهله وذووه سوء العذاب . فانظر رعاك الله قصة نوح ووازنها بسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

(١) النبي صلى الله عليه وسلم قال له قومه « لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه » وقالوا « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » فى مقابلة جدال نوح وقومه .

(٢) طلب كعمار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد من معه من الجنس احتقارا لهم وهم يجاسون بدلمهم ، فقال الله له « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والشىء » إلى قوله « فتطردم فكون من الظالمين » وهذا كقول نوح « الله أعلم بما فى أنفسهم إني أذن لمن الظالمين »

(٣) يقول الله تعالى لنا صلى الله تعالى عليه وسلم « قل ما أسألكم عليه من أجر » ونوح يقول « واقوم لا أسألكم عليه مالا » .

(٤) صنع نوح السفينة لنجاة قومه ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه بالمهجرة إلى الحبشة ثم هاجر هو وهم إلى المدينة ، وهذه في مقابلة السفينة .

(٥) «تبت يدا أبي لهب» وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وطرد ابن نوح من رحمة الله ولم ينصفه أنه ابن نبي .

(٦) سخر قوم نوح منه فأفهمهم أنه هو الناجي وهم الخاسرون ، وقد كان للناقون يقولون : إن عمدا يمدنا ملك كسرى وقبصر ، وإن أحدنا لا يقدر أن يقضى حاجته خارج المدينة ، وكان كفار مكة يسخرون منه فكرر في القرآن أن الله سينصره وقد تم ذلك .

(٧) حمل نوح معه من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكرا وأنثى لبقاء النسل ، وهكذا جميع الأنبياء والصلحين إنما خلقهم الله في الأرض للنعمة الماتمة ولا علامة لرجال الإصلاح والعظما . إلا قصد للنعمة الماتمة ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مقابلة ذلك ، قيل له « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » لافرق بين حيوان وإنسان وغيرها من المخلوقات .

(٨) وكما غرق الكفار من قوم نوح قتل الكفار من قريش .

(٩) وكان نبي المؤمنين من قوم نوح نبي المؤمنين من العرب وأصبحت جزيرة العرب كلها إسلاما كما تقدم في سورة التوبة .

(١٠) قال تعالى « فاصبر إن العاقبة للمتقين » أي كما نصرت نوحا وكانت العاقبة له فسيكون النصر لك فاصبر الخ .

ألا تتعجب من هذا القول كيف كانت هذه السورة تتلى في مكة ولا جيش ولا جند ولا مال لصاحب الرسالة ثم يتلو عليهم هذا القول ويقول الله له ستكون عاقبتك النصر كما كانت عاقبة نوح ، وبعد ذلك بزمن قد تم هذا .

ولعمري إن هذه هي المعجزة الخفية فإنه قس قصة نوح وقد حصل له مثل نوح أولا وآخرها وقد تلاه عليهم في أول أمره بحيث لا يخلج في النفس أفن أمل في نجاح دعوته وأن العرب وغيرهم يتبعونه ، ذلك هو المعجزة الصادقة ، وذلك هو الذي به يصدق الماقلون .

مقصود القصة لسائر الفضلاء

أيها القارئ إن هذه السورة تقرأ دائما يقرؤها للسلون ويكرر نظيرها في الكتب السماوية قبل القرآن بل إن لها نظيرا كما سيأتي في كتب الدين الهندية .

فلمررك ما بقيت هذه القصة في الهيايات للتلاحة على مدى الأزمان لألفاظ يكرر ونها ولا لجرد آيات يقر ونها ، وإنما هي حكم ومواعظ وآداب يتعلمها الفضلاء والنايئون . فإذا رأيت في نفسك ميلا إلى فضلة أو علم أو نفع عام فجاهد في سبيلك واعلم أن الله منك مهما اعتراك من ضيق أو هم أو مرض أو عداوة ، واعلم أن الله لم يعطك الليل لتلك الفضيلة ولم يزرع في قلبك حب ذلك العلم إلا وهو يريد سقيه وإنزال النيث عليه لينمي فاعزم وتوكل على الله وانل قوله تعالى « فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

وهذه القصة تنطبق على كل من يقوم بعمل شريف في نفسه وفي قومه ، فإذا أراد للرد عملا ناقما لنفسه أو لأمتة لاموه أو لأمته نفسه لوما شديدا في أول الأمر كجدال قوم نوح ، ثم يظل الجدال ويجاهد الإنسان حتى يرسم له طريقا للخلاص كالسفينة ثم يعاديه أهله وولده ، ففي الحديث « أبغض الناس إلى العالم أهله وجيرانه » فليسر في طريقه ولا يبالى بهم ، ثم يسير في طريق الفلاح وينجو في السكناح وهو لسفينة نجاة ملاح ، ويقال له « فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

## اللطيفة الثالثة : الطوفان في العلم الحديث

الطوفان عام وخاص ، الطوفان العام

اعلم أن الأرض مكونة من (٢٦) طبقة عاتمة متميزة ، وهذه الطبقات تكونت في ستة عصور كما تقدم مرارا كل عصر منها يبلغ مئات الملايين بل آلاف الملايين من السنين وهي العصر الأصلي والعصر الانتقالي والعصر الثانوي والعصر الثالثي والعصر الطوفاني والعصر اللاحق للطوفاني أو العصر الحالي ، وفي كل عصر من هذه العصور الستة تكونت طبقات في الأرض وهي مختلفة كما قد تقدم ذكرها في التفسير وإنما التي يهمننا في هذا المقام العصر الطوفاني ، فقد قال علماء العصر الحاضر إن تغيرا عظيما جاثيا طرأ على وضع محور الأرض وقطبيها فاندفعت على أثره المياه على سطحها اندفاعا عاما وانقرض في هذا الطوفان كثير من الحيوانات ولجأ بعضها تخلصا من الترق إلى شقوق ومغاور في أعالي الجبال فهلكت جوعا هناك أو بانقرض بعضها بعضا أو خنقا في وسط المياه للندفة عليها وقد كشف العلماء كثيرا من تلك المغاور الحاوية عظاما عديدة من الوحوش الكواسر التي عاشت قبل حصول تلك العاجعة وهذا الرأي هو الذي يفهمنا كيف نقصت الحرارة فجأة في الأقطار القطبية ، إنها نكبة عاتمة مريعة قلبت وجه الأرض وبها انقرضت أنواع من الحيوان على بكرة أبيها وتحولت المياه فجأة من مجاريها واندفعت بعزم على اليابسة لحطمت أعلى الصخور واقتلعت النباتات وجردت الجبال من حلالها السندية وتركت رواسب جديدة يقال لها في علم الجيولوجيا (الطبقات الطوفانية) وفي هذا العصر بدأ القطبان يكتسيان بالجلد ، وهذا دليل على تناقص جسيم في حرارة الأرض ، والتناقص للدكور حصل فجأة وليس بالتدريج فإن علماء (الجيولوجيا) استدلوا على ذلك من آثار فيلة بل أجسام صحيحة من (الماموث) كشفوها في وسط الجليد الشمالي فحكوا بحصول برد لجأى باعقها وقتلها قبل أن تتمكن من للهجرة إلى أقطار أوفر اعتدالا وأقرب إلى مزاجها .

ولما استتبت السكينة على وجه الأرض بدأ العصر الحالي وهو السادس وفيه ثبتت اليابسة وازداد الهواء نقاء وأرسلت الشمس أشعتها للنعشة فطابت النباتات وأنس الحيوان وظهر بعدها الإنسان ، ولا يعلم أحد الآن هل كان الإنسان قبل العصر الحالي ؟ أي هل كان قبل الطوفان المذكور ؟ ولقد وجدوا آثارا تدل على ذلك هذا هو الطوفان العام .

أين الطوفان الخامس الذي جاء به القرآن والكتب السماوية كما في هذا المقام

اعلم أن الطوفان المذكور في الكتب السماوية لم يعلم عنه علماء (الجيولوجيا) إلا ما يأتي وهو أنهم كشفوا أنه كان هناك بحر عظيم يمتد قديما من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالي وهذا البحر من آثاره بحر الخزر وبحر الأوزوف والبحيرات الكثيرة التي في بلاد روسيا وهي مألحة منتشرة في سهول التتر ومغاور روسيا .

ولما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالي والقسم الآخر انقلب إلى الأوقيانوس الهندي ففرقت بلاد ما بين النهرين وجميع البلاد التي يسكنها أسلاف الشعب العبراني ، وقد حفظت هذه الحادثة في تقاليد سائر الشعوب الذين يسكنون تلك البقاع .

وجاء في أسفار (القيدا الهندية) في هذا المقام [تحول براهما إلى صورة ممككة] وجاء يقول إلى الملك الصديق [فايفاسوانا] إن زوال زمان العالم قد دنا وعن قليل تباد كل نسمة من الوجود على وجه الأرض فأصنع لك سفينة تدخلها بعد أن تأخذ معك بزورا من كل النباتات وانتظرنى فأوافقك وعلى رأسى قرن تميزنى به ، فأطاع الملك الصديق أمر براهما وغمر سفينة ودخلها بعد أن ربطها بحبل متين

بقرن السمكة فسارت السفينة في الظلمة سنين عديدة في وسط عواصف قاصفة واستقر أخيراً على رؤوس  
جبال هالايا اه .

هذا هو العلم الذي يعرفه الناس الآن من علماء طبقات الأرض ومن علماء الديانات ، فها أنت ذا رأيت  
الطوفان العام الذي هو قبل التاريخ ، ورأيت الطوفان الذي عرّفه بنو إسرائيل عن أسلافهم الذين  
كانوا بين النهرين وعرفت البحر العظيم الذي خلف بحيرات في أوروبا الآن وعرفت كلام البراهمة عن  
هذا الطوفان .

ثم اعلم أي ما كتبت لك هذا لأفسر به القرآن ، كلا ؛ وإنما أكتبه لتحيط علماً بهذه المسألة ولتستحق  
المعروف ولتبحث في عجائب صنع الله وفي تقلبات هذه الدنيا وعجائبها وتتعجب من هذه الأرض كيف تكونت  
وكيف كان القطبان أشبه بخط الاستواء تعيش فيهما القبلة العظيمة التي لانظير لها الآن ، بل هي أشبه بالقبلة  
التي كانت قديماً تحمل ثبات من الناس على ظهرها ثم طرأ عليها البرد فجأة فماتت حالاً وبقيت إلى الآن دلالة  
على قدرة عظيمة ، وكيف كان هناك بحر ثم زال من الوجود ؟ وكيف كانت هذه القصة قد لهج بها أكثر  
الأمم العظيمة للتدبئة .

فأما القرآن فإنه قصّ علينا هذه القصة ليرقينا بها وليلدنا على أن الصابرين فائزون ، وقد أبنا هذا أياً  
تبيان ، فافرح بما آتاك الله من فضله ، واعلم أن الله عز وجل ما أنزل هذه القصة لأجل اللبّاحث التي ذكرناها  
ونحوها وإنما أنزلها لما فيها من القدوة الحسنة واليقين ، إن الذين هم مصلحون وقلوبهم مغلوبة على الإصلاح  
فأزرون في آخر أمرهم .

ولعمرك إن هذه القصة في القرآن تعطى للمصلحين إيقاناً وإيماناً وعلماً أنهم بعد الصبر فائزون . وهذا قد  
أوضحناه تمام الإيضاح ، انتهى الكلام على قصة نوح عليه السلام .

ثم قال تعالى ( وإلى عاد أخاهم هوداً ) أي وأرسلنا إلى عاد الخ عطف على قوله « نوحاً إلى قومه » وهو دا  
عطف بيان ( قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ) على الله لا تأخذكم الأوثان شركاء  
وجعلها شفعاء ( يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذي فطرنى ) وذلك خطاب نوح لقومه بذلك ،  
وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأن النصيحة ما دامت مشوبة بالمطامع لاتجبع ( أفلا تعقلون ) أفلا تستمعون  
عقولكم فتعرفوا الحق من الباطل والصدق من الكذب ( ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ) اطلبوا مغفرة  
الله بالإيمان به ثم توبوا إليه من ذنوبكم السالفة ( يرسل السماء عليكم مدراراً ) كثير الدرور ( ويزدكم قوة  
إلى قوتكم ) وكانوا قوماً أصحاب زرع وبساتين وكانوا مدلين بما أوتوا من قوة وبطش ، وقال بعضهم حبس  
الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار  
وتضاعف القوة بالتناسل .

يقال إن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال لحاجب معاوية لما شكاه فقه الولد « عليك بالاستغفار »  
فكان يستغفر في اليوم سبعمائة مرة فولد بينين ، ولما سئل الحسن عن سبب ذلك استدلت بهذه الآية وبآية  
نوح « ويمدكم بأموال وبنين » ( ولا تتولوا ) ولا تعرضوا عما أذعوكم إليه ( مجرمين ) مصرّين على إجرامكم  
وآثامكم ( قالوا يا هود ما جئنا ببينة ) كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم « لولا أنزل عليه آية من ربه »  
لجحد الطائفتين آيات النبيين ( وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ) أي وما ترك آلهتنا صادقين عن قولك .  
فقوله « عن قولك » حال من الضمير في تاركي آلهتنا ( وما نحن لك بمؤمنين ) أقنطوه من إجابته وتصديقه  
( إن نقول إلا اعتراك ) أي أسابك ، من عراه بعروه إذا أصابه ( بعض آلهتنا بسوء ) أي ما نقول فيك قوله

إلا هذه اللقاة وهي « اعتراف بعض أهلنا بسوء » فأتت يهود لست نخالفنا وتسب آلهتنا إلا لما أصابك  
 بعض آلهتنا نجبل وحنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك ونحن لانفهم أمرك إلا على هذا الوجه (قال)  
 هود بجيبا لهم (إني أشهد الله) على نفسي (واشهدوا) أنتم على أيضا (أني بري مما تشركون من دونه)  
 وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها (فكيدوني جميعا) احتالوا في كيدي وضرمي أنتم وأصنامكم التي تعتقدون  
 أنها تضر وتنتفع لاني أرى أنها لاتضر ولا تنتفع (تم لاتنظرون) لآعمالهم ، ثم أكد هذا بقوله (إني توكلت  
 على الله ربي وربكم) أي إنه فوض أمره إلى الله واعتمد عليه (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) الناصية مقدم  
 الرأس وسمى الشعر الذي عليه ناصية للجاورة . وكان الرب إذا أرادوا إطلاق أسير جزوا ناصيته ليجنوا عليه  
 ويمتدوا بذلك فخرا عليه ، غلطهم الله بما يعرفون: يعني أن الله هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن  
 من أخذت بناصيته فقد قهرته ، والهداية كل ما يدب على الأرض ويدخل فيه جميع بني آدم والحيوان لأنها  
 جميعها تدب على الأرض (إن ربي على صراط مستقيم) أي إن ربي وإن كنتم مسخرين له مقهورين لاجاملكم  
 إلا بالإنصاف والإحسان والعدل فيجاري كلا بما فعل الحسن بإحسانه والسوء بإسائه (فإن تولوا) أي تتولوا  
 وتمرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم ، فلم يقع مني تقصير في التبليغ وإنما التقصير منكم (فقد أبلغتكم  
 ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم) أي إنكم إن أعرضتم عن الإيمان بهلككم الله ويستبدل بكم  
 قوما غيركم أطوع منكم وهذا عذاب الاستئصال (ولا تضرر ولا تهين) بتوليكم عن الإيمان (إن ربي على كل  
 شيء خفيض) رقيب عليه مهيب من لما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مواخذتكم وهو يحفظني من أن تموني  
 بسوء ، فكما يحفظ أعمالكم ويعاقبكم يحفظني من سوء (ولما جاء أمرنا) بإهلاككم وعذابهم (نجينا هودا  
 والذين آمنوا معه برحمة منا) ذلك أن العذاب إذا نزل عنهم فلما أنجاهم الله كان ذلك رحمة من الله وأيضا  
 الإيمان والطاعة من رحمة الله لما تسبب عنها من رحمة الله لأن كلا من عند الله (ونجيناهم من عذاب غليظ)  
 شديد (وتلك عاد) وهذه قبيلة عاد ، كأنه قيل سيعوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بقبورها وآثارها؛  
 ثم وصف حالهم فقال (جحدوا بآيات ربهم) أي كفروا بها (وعصوا رسوله) لأنهم عصوا رسوله ، ومن عصى  
 رسولا فقد عصى الجميع (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أي اتبعوا أمر كبرائهم الطاغين، وعنيد من عند  
 عنودا إذا طغى فصوا من يهديهم وأطاعوا من يخوهم (واتبعوا في هذه الدنيا لعنة) أي أوردوا لعنة تتبعهم ،  
 واللعنة الطرد والإبعاد من رحمة الله (ويوم القيامة) أي وفي يوم القيامة أيضا تتبعهم اللعنة كما أتبعتم في الدنيا  
 ثم ذكر السبب لزيادة الإيضاح فقال (ألا إن عادا كفروا ربهم) أي كفروا بربهم (ألا بعدا لماد) أي هلاك  
 لهم أو بسا من الرحمة (قوم هود) عطف بيان لماد ، والقصد من هذا العطف اللبالة في التصييص للتأكيد ،  
 انتهى التفسير اللفظي لقصة عاد وما قبلها .

جوهرة في معنى قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم »

يبشر الناس ويموتون وتلاحق الأمم وتتسابق في هذه الحياة ثم يردون أحواض النايائمة بيد أئمة ودولة  
 بعد دولة وهم يأكلون الحيوان ويشربون ألبانه ويلبسون صوفه وفراءه ثم أكثرهم يموتون ولاهم يذكرون ،  
 لا يذكرون عجائب هذا الحيوان وغرائبه وغرائب النبات ولا الحكمة للدبرة التي خصصت لكل طائفة منه  
 لونا وشكلا وأحوالا خاصة ، ينظر الناس إلى هذه الصور والأشكال ثم لا يذكرون لم هذا الاختصاص ؟  
 (١) ولم ترى أرنبار مثلا على بشكل جميل مزوقا بهجا ولكنه يعمل سلاحا يبدو به على من  
 يمه بسوء .

(٢) وزى الصيران الصخيرة والكبيرة والوطايط إما رمادية اللون أو سوداء .

(٣) ولماذا يرى بعض السمك مرقشا متفوشا بهيئة بهجة كأنها هيئة البسانين الجلية ، والأكثر على خلاف ذلك إذ يكون ظهره أزرق مائلا للسواد أو للخضرة وهو من أسفل أبيض اللون .

(٤) ولماذا يرى الجمل والأسد لهما لون خفيف رملي أو صخري رملي .

وهكذا من أمثلة كثيرة لا يخطر للناس أن يفكروا فيها ، وإنما الرأي العام عند هذا النوع الإنساني أن ذلك أمر عادي .

والجواب على ذلك هو عين ما نقل عن الكسائي لما سئل لم بنيت أي على الضم فقال « أي هكذا خلقت » . هذا الإنسان أوله وآخره قديمه وحديثه عالمه غالبا وجاهله مستوون في العفلة والإعراض عن بحث ما حولهم وفهم الدروس التي ألقاها الله عليهم ، هذه هي الدروس الحقة والعلوم التي أنزلها الله للناس وآيات تنزل عليهم وطلاسم وألغاز وزينة زين بها الأرض لامتنان عباده لينظر أفيشكرونه بمعرفتها أم يكفرونها بالتلهي بيهجتها والتفلة عن معرفتها ، ذلك هو مثل السليين وغير السليين الحاليين الذين سكنوا هذه الأرض وهم عن آياتها معرضون .

اللهم إنك أنت التي أسكنت أرواحنا في هذه الأجسام الأرضية وأحطتنا بعوالم خلقت من الجمال وحفظت من الوبال وأحطتها برحمتك وكلاستها بمنتك ، فهي بمنابيتك وكلايتك في بهجة وسرور ونعيم وجبور وجملتها بحسب حقائقها مكللة بالنور مرموقة بنظرك مكهولة بحفظك وجعلت أعيننا غالبا في غطاء عن جمالها رحمة منك لنا وعطفا وإحسانا ، ذلك لأن هذا الجمال الكامن في تصويرها وخلقها لو تبدى لنفوسنا دفعة واحدة وعرفناه لسكرنا ولدهلنا ولتدابت مهجنا من الاطلاع على أسرارها لأنها من النور خلقت ومن الحكمة صنعت ، وكف تقوى أرواحنا التي لم يكمل حفظها من القوة ولم تصل إلى غاية السكال أن تشرق في بحر الحكمة الذي ليس له قرار ؟

اعلم أي لما وصلت إلى هذا اللقاه حضر لي صديق صالح فاطلع على هذا فقال : هذه المقدمة لم تخرج عن مقدمات كثيرة من التصوف الذين تشرح صدورهم فينشئون اللغات نلو للقلات ولم يردد الناس من مقالاتهم كالا في علم ولا معرفة لحقيقة إلا قليلا منهم « وقليل من عبادي الشكور » ابتدأت للقال بأشلة في القبران والجمال وأمثالها ولم تجب عليها ثم أخذت تنزل في الوجود ، وهذا النزول أراك ورثته من كتب التصوفين . إن الأمم الإسلامية اليوم لن تقوم من كبوتها إلا بعلم يفتح أعينها لهذا الوجود ، فأما إذا كثرت في الإغراب وأبديت في الإرقال وزوقت الجمل وجئت برائع الكلام وبديع النظام فما علمت حرقا ولا زدت للناس ذكرا فاهجم على الحقائق هجوما كما رأيت في كثير من الأجزاء السابقة في هذا التفسير ، إن الكتب إذا خلقت من الحقائق للشاهدة عكف الناس على قرائتها وغفلوا عما حولهم ، فهل تحب أن يقرأ الناس هذا التفسير وهم معرضون ؟ قلت له : هدي روعك وأحسن ظنك واعلم أن للقال الذي شرعت فيه الآن علم عزيز وفقن شريف جميل سيربك .

حكما نسجت بيد حكمت ثم اتسجت بالمتسج

إنك ستري من آيات الله وهجائب حكمه ما لم يعله أكثر للتلمين في العالم الإنساني ، ذلك أي اطلمت على عشرات من هجائب أوان الحيوان وأشكاله ، وكيف كان ذلك كله قد وضع بدقة وحكمة وغاية مقصودة اطلمت على ذلك في كتب الفرنجة : أي في موسوعات علومهم ، وهذه الكتب لا يؤلفها إلا المهتمون بالعلوم ثم لا يطلع عليها أغلب للتلمين لأن أكثرهم لا يسي إلا لندائهم ولردائهم ولظهوره بين الناس وأمثال هذا إنما تتحلى به العقول وتساقي به إلى السكال ، وأكثر الناس في الشرق والغرب عن هذه للعالي معرضون .

## تشبيه الأرض بكرة

إن ما سألته عليك اليوم هو النور والبهجة والجمال ، إن هذه الأرض في حقيقتها بعد ما تسمع اليوم ما أتوه عليك أشبه بكرة بهجة جميلة متلألئة قد سطت عليها أنوار الكواكب وأشرفت عليها أضواء السيارات يتلاقى على ظهرها [الجلالان] جمال الأنوار ، وجمال الكرة ، فترى أرضنا قد امتزجت على سطحها الألوان السبعة التي في قوس قزح بأضواء هذه الجوهرة فدخلت الأشكال وتشابكت الألوان وامتزجت الصور في أمواج فوق أمواج ومحار من الصور والأشكال والبهجة والجمال ، تلك صور هذه الأرض في عقولنا بعد أن ترى ما سألته عليك الآن ، بل هذه هي الصورة التي ظهرت في خيالي بعد ما قرأت هذا الموضوع الذي أنا بصدد ذكره الآن على أن هذا التشبيه دون الحقيقة .

نعم الله نور السموات والأرض ، والنور على [قسمين] نور محسوس ، ونور معقول ، ونور النجوم والشمس والأقمار وضوء الجواهر ، كل ذلك محسوس ولا مناسبة بين المحسوس والمعقول ؛ إن النور المحسوس بالأبصار قد سبق ذكره في سورة الأنعام وسورة يونس وقد رسمت هناك الصور الشمسية والأشكال الكوكبية والمجرة وأنواع السدم والقنوان ، قد تقدم هذا كله وتقدم شرح ذلك من علم الفلك بحيث يسهل على القارئ فهمه ولكن هذا كله هو النور الحسي ، أما النور العقلي فهو أكل وأكل وهو النور الذي أنزل في هذه السورة (سورة هود) إذ يقول الله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » ثم يذكر أنه استوى على العرش وأن عرشه على الماء وأنه يدبر بالحكمة ، فهذا باب آخر من أبواب العلم وهو علم الحقائق ، ويقول هود « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » الأخذ بنواصي الدواب ليس بالأمر السهل ، إنه يحتاج إلى علم الأم كلها ودرس هذا الوجود كله .

أنزل الله القرآن وقال لنا « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا » في سورة يونس ومدح للفكرين فيها وهكذا في سورة الأنعام وغيرها ، ولكن في سورة هود آتى بما هو أبعد مرمى وأدق مغزى يدل على ذلك قوله « كتاب أحسنت آياته » إشارة إلى الحكمة اللودعة في الحيوان وغيره ، وقوله « ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فيه إشارة إلى عجائب الوجود الذي نميش فيه سيفصلها الله ويظهرها للناس وإلا فكيف يقول لنا « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » والناس في الشرق والغرب لا يرون هذا الأخذ بناصية الدواب لأنهم يرون الدواب ولا يرون الأخذ بنواصيها ، فالأخذ بالنواصي لا يرونه ، ولكن نفس الأخذ بالنواصي هو الممكن للناس معرفته ولا يمكنهم ذلك إلا بالعلوم والحكمة .

أنزل القرآن على أمة العرب وأمة العرب نشرت القرآن ثم نامت ولكن الله لا ينام لأنه هو القائل « ثم إن علينا بيانه » والقائل « سأريكم آياتي فلا تستعجلون » والقائل « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » .

فهاهو ذا أرانا بنص آياته في كتب أسلافنا للتقدمين وفي كتب المتأخرين من الفرنجة ، أولئك الذين عرفوا بعض العلوم ونفقوا فيها ولكنهم لا يعلمون أن هذا يطلبه القرآن بل هم فوق ذلك يكتبون العلم محققين لمسائله ولا يفكرون إلا في الصنعة ، أما الصانع فلا يقول أكثرهم على ذلك أثناء كتاباتهم ، أما أنا فإني أقول بأعلى صوتي أيها المسلمون كتاب الله المنزل عليكم لا ندرك بعض أسرارها إلا بقراءة جميع علوم الشرق والغرب ثم لا ينم مقصوده إلا بجهاد أبناء الإسلام بعد قراءة علوم القوم إذ يزيدون على ما علموه وهم مجدون ، وأقول أيضا « هذه ضبا عتاردت إلينا » هي منطقة تمام الانطباق على آيات القرآن ، فما أناذا الآن



أبها الأخر أريك العجب وستعلم أن هذا من بيان الله الذي سخر له القرعجة وهو الذي أعثرني عليه وهداني  
لنهمه ، فهذه البضاعة بها يعبر الله قراء هذا التفسير ويحفظ بها سائر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها  
ويزيدهم علما بجدتهم واجتهادهم أسوة بإخوة يوسف إذ قالوا « هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ  
أخانا ونزداد كيل بعير الخ » .

قال صاحب الصالح فأجب أولا عن الأسئلة المقدمة ثم اذكر ما تريد ذكره من عجائب الحيوان ،  
قلت : إن الألوان على [قسمين] ألوان براقة بهجة ذات أشكال تلفت الأنظار ، وألوان خفيفة لطيفة ليس لها  
بريق ولمعان . أما الأولى فإنما أعطيت لحيوانات عندها ما يحميها من أعدائها ويحفظها من المفترسين عليها ،  
فأما الألوان الخفيفة اللطيفة فإنما تمطى إلى الحيوانات التي من صلاحها ألا تظهر بوضوح لأحد [أصبرين]  
إما لأنها عرضة للمفترسين عليها ، وإما لأنها لها فريسة ، غفلة ألوانها ولطفها أقرب إلى اختفائها عن أعين  
فرائسها فيمكنها أن تتال منها غذاءها ولو نضب وتب في المشى والإبكار ، هذه هي القاعدة العامة ذكرتها  
الآن توطئة لما أفصله فأقول :

من عادة الحيوان أن يكون لونه مشاكلا لما حوله ، وهذه المشاكلة تكون سببا لوقايت لأنه بها يخفي  
عن أعين الرقباء .

#### الكلام على الزنبار

(١) غنذ الزنبار مثلأزده زاهي اللون منقشا مرقشا ، لماذا ؟ لأنه أعطى حمة بها يهجم على من يؤذيه  
لذلك اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون بمظهره المعلوم لأنه لا يخاف عدوا يعبر عليه فهو في مأمن سلاحه  
التي يحمله .

فالزنبار إذن أشبه بالأمم القوية إذ يحوس رجالها خلال البلاد في الشرق والغرب ظاهرين لأن لهم دولا  
تحميهم وتحافظ عليهم ، ودولة الزنبار هو سلاحه ، فسلاحه يقوم مقام سلاح الدول في حفظ رعاياها .  
ألمست ترى أن الله أخذ بنصية هذا الزنبار فجعل له شكلا جميلا مزوفا وأعطاه سلاحا وقل له كن حرا  
طليقا أبها الزنبار لأنني أنا الآخذ بنصيتك وأنا على صراط مستقيم ، اللهم إنا نحمدك على العلم ونشكرك  
على الحكمة .

#### الكلام على الفيران والوطايط والبوم

(٢) وخذ الفيران مثلا آخر والوطايط التي تكون إما رمادية اللون وإما سوداء ، فسبب ذلك  
أن هذه الحيوانات من الحيوانات الليلية لحونها من الحيوانات القانصة للهلكة ، فهي أبدا في النهار  
مخفيات ، فإذا ظهرت ليلا وكان لها لون غير السواد وما قاربه تم ذلك اللون عليها فحرضها للمطب فكانت  
من المهابكات .

وانظر إلى البوم فإنك تجد لونه ترابيا فيه بقع ملونة كثيرة لونا خفيفا ، وذلك ليحصل التشابه بينه وبين  
قشر الشجر والأرض أثناء النهار ولا يكون كثير الوضوح أثناء الليل ، أليس هذا الصنع معناه أن الله أخذ  
بنصية (البوم) ؟ نعم أخذ بنصيته فلوته على الهيئة التي بها يعيش فإكل الفيران وغير الفيران لمصالح هذا  
المخلوق ، وإلا فلماذا يختص (البوم) باللون الذي يكون حافظا له ؟ وبغير هذا اللون المخصوص يخفى (البوم)  
ولا يكون في الوجود .

#### الكلام على السمك

(٣) وانظر إلى السمك فإن الذي نراه لامعا بهجا فإنه يكون عيشه في قاع البحر عموما بالجمال الرائع

من أعشاب بحرية لامعة ومرجان نابت في قاعها بهيج ، ونبات من الشقائق بهية فيكون ذلك الفاع أشبه بحديقة خيالية عبقرية حسنة فيخلق ذلك السمك مناسبا لما حوله حتى يحنى فيها هناك من الأشكال وبذلك يتوارى عن الأبصار .

أما السمك الذي يرى ظهره أزرق مائلا للسواد أو للخضرة وبطنه أبيض فذلك لأنه يعيش أقرب إلى سطح الماء في البحر فصار ظهره مناسبا للجو ولزرق الماء في البحار فيحنى عن أعين الطيور القانصة للسمك وجعل بطنه أبيض ليحنى عن أعين السمك للفترس فيتشابه لون بياض بطنه بلون الماء فلا يفترسه السمك للغير .

#### الكلام على لون الجمل والأسد ونحوهما

(٤) أما الجمل والأسد ونحوهما وتلوتهما باللون الحفيف الرملي فذلك لأنهما من سكان الصحراء والصحارى لا أشجار فيها ولا مراعى ، فالأسد لو كان لونه زاهيا كالزنبور لفررت منه فريسته ، والجمل لو كان كذلك لكان عرضة لاقتراس الحيوانات للفترة فتهدم عليه كالنمر والأسد والدئاب فأعطى كل منهما لون ماحوله من الرمال ليثقبه بها وبالصخور الرملية التي تحيط به .

وهكذا ترى القنبر وأنواعا أخرى من الطير وكل ما له فروة من الحيوانات الصغيرة ذوات الأربع وجلد بعض الحيات والضباب ، كل ذلك ملون بلون الرمال وقاية من الله وحفظا لتلك الحيوانات ، فسبحان الخلاق العظيم .

فلسامع صاحبي ذلك قال : إنني وجميع للتعليمين من أبناء مصر وبلاد الشرق وأكثر بلاد أوروبا يقولون غير ما تقول ، يقولون إن الوسط قد أثر في هذه الحيوانات فهذا أمر طبيعي لا غير ، فأما الأخذ بالناسية الذي ذكرته فإن للتعليمين لا يقولون به ، قلت له : حياك الله وبياك ، ألم تذكر أنني بينت لك أن هذا العلم لا يكون عند المتوسطين في العلوم ؟ إن هذه الآراء إنما يعرفها الحكماء في أوروبا وفي الشرق ، فأما تلاميذ المدارس في كل أمة فإنهم كالعامة في هذه النظرات ، بل هم للتخبرون في هذا الوجود ولا يحظى بالحكمة منهم إلا الأثليون أولئك هم للفكرون ، فقال : هات برهانك واقبل لي ما قاله أكابر حكمائهم في عصرنا حتى لا نتهم بأنك إنما تحاول أن تجعل القرآن موافقا للعلوم بالحلق أو بالتحايل ، فقلت : قد جاء في كتاب [موسوعات العلوم] للسمى ( ساينس فورال ) في المجلد الثاني صفحة ١٢٨ وما بعدها ما يأتي :

إن الفكر المادي يرى أن ألوان الحيوانات قسمت ووزعت بلا صنعة ولا علم ، وترى المناطق الحارة الاستوائية كل شيء فيها لونه بهيج زاه زاهر في حيوانه ونباته بخلاف ما عندنا ، ثم بيان السبب في أن هذا أحمر وذاك أبيض الخ ، كل ذلك عند أكثر الناس لا يفيد ولا ينتج بل هو عبث ، ثم قال وسأبين لك أن حيوانات كثيرة ألوانها نائمة لها ، بل إن كثيرا منها تتوقف حياتها على حماية ألوانها لها ولولا تلك الألوان لافترست تلك الحيوانات وبادت من الوجود .

ثم أخذ يبين تلك الحيوانات واحدا واحدا بدقة وحكمة وفقه وتفكير في الهواء والبر والصحراء والجبل والبحر والأنطار الحارة والباردة ، وفي هذه قال :

نبحث في جهات القطب الشمالي فإن لون البياض هو السائد في تلك الأنطار ، وقد ترى هناك السواد والسمرة إذا كان ذلك أصلمح للحيوان في تلك الأنطار .

#### الأرنب والذبّ والتعلب القطبيات

ثم قال كل دبّ في الأرض أسمر أو أسود إلا دبّ القطب الشمالي فهو أبيض ، وهكذا أرنب القطب

والبوم ، كل هذه بضاء أو قريبة من البياض ، والتعلب القطبي أبيض ، والأرنب الذي يسكن الجبال العالية فهذا يتغير إلى البياض زمن الشتاء ، وهناك طائر يسمى (بستريمين) وهذا خير مثال للحمية بالألوان فهو موافق لألوان الأحجار التي يقع عليها ويلازمها ولا يقدر الإنسان أن يميز سربا منه وهو في زمن الشتاء يلون بالبياض لأجل حمايته بمشاكلته للتلوج فهو يلون في الصيف بلون الأحجار ، وفي الشتاء يلون الثلج لحمايته أيضا .

الغيم القطبية والسمور والتراب وألوانها هناك

ثم قال : وهناك [ثلاثة أنواع] من الحيوان تحالف لون الثلج في تلك الأقطار .

[أولها] نوع من الغيم يسمى (غم مسك) فهذه لونها السمرة مع السواد قديتين وتظهر وسط الجليد ، وسبب هذا أنه يعيش جماعات وليس لفرد منه أن يعيش وحده ، فلون السواد والسمرة الذي يظهرها وسط الثلوج ظهورا وانحاضا ضروري حتى يعرف كل خروف منها أصحابه ، ولو كان لونها كلون الثلج لضل القطيع وتفرق وانقرسته للفترسات ، فهذا النوع بين نارين ؛ إما حياة محمية بالسمرة مع السواد ليتعارف أفراد السرب الواحد ويختار في جانب هذا أن يفرد الواحد بعد الواحد ضالا الطريق أو مريضا تختطفه للفترسات كالتعلب القطبي ، أما أفراد السرب فهي متعاونات لها حراس يعرفون مواقع الخطر فيفرون بالقطيع كله فيعيشون ويكثرون ، وإما لون كلون الجليد به لا يميز بعضها بعضا فهلك كلها ، لاجرم أن أول الأمرين خيرها وهذا هو الذي حصل في الوجود .

[النوع الثاني - السمور] فإنه يحتفظ بفروته العظيمة الثينة الجيلة السمراء في أيام شتاء (سبيريا) القارس وذلك لأنه يلزم الأشجار ويأكل من ثمارها وهو نشط ويختطف الطيور بين الأشجار فيقتنصها يأكلها ولو كان لونه السواد لميرته الطيور ففرت منه فلم يأكلها .

[النوع الثالث - التراب] إنه يكون في أقصى الأقطار القطبية الشمالية ولكنه دائما أسود . ذلك لأمرين : [أولا] أنه لا عدو له يفاجئ إذا تميز في وسط الثلوج .

[والثاني] أن فريسته وهي الجيفة لا تفر منه إذا أراد أكلها فلذلك حفظ له سواده ولم يغير ذلك كله لمسة التراب نفسه ، ثم قال هذه المسائل الثلاث من البراهين الدالة على ما ذكرناه من أن الألوان مقصودة لحماية الحيوان ، وهذه الحججة صادقة ومكذبة لمن يقولون إن البياض في الأقطار الشمالية من أحد [أمرين] إما من تأثير البرد مباشرة على الحيوان ، وإما من تأثير انعكاس البياض من الثلج على الحيوان ، فهذه الأنواع الثلاثة علمتا أن بياض الحيوان إنما يكون لما ينفعه البياض ويحفظه في حياته ، أما التي لا تحتاج إلى حماية البياض أو تلك التي ينفعها السواد فإنها تلون به ولا تلون بالبياض ، ثم قال إذن سبب التغير لا يرجع عقلا إلى الأمور الخارجة عن الحيوان بل هو راجع إلى قوانين ، مختلفة تدور كلها حول حفظ الحيوان ومنفتمته لاهي الوسط الذي تعيش فيه حشرات تلون بلون جذوع الأشجار وحشرة أبي دقيق التي تلون بلون الأوراق الجافة ، فلما أتممت هذا القول أخذ يقول يا محبا لهذا كلام الحكماء بأوروبا في عصرنا ، فقلت ثم هذا هو الذي رأيته ونقلته وأسأرح هذا اللقاع إن شاء الله وبقيت حيا في سورة « قد أفلح للؤمنون » عند قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وهناك أبين هذا اللقاع بإيضاح وأثبت لك الصور التي رسمها القوم بالتصوير الشمسي فترى هناك إن شاء الله حشرات طائرات ثم إنها تجتمع على شجرة عتيقة فيخيل للرأي أنها عبارة عن غصن غليظ من الشجرة قد كسر أعلاه حديثا ، وما ذلك إلا أن هذه الحشرة قد خلقت بحيث تكون

على هذه الحال لتلا جرفها فانصبا من الطيور آكلات الحشرات ، وهكذا ترى هناك صور حشرات أووان  
أجنحتها تشبه تمام التشابه ألوان الأوراق الجافة حتى لا يظن لها آكل الحشرات وهكذا بعض الحشرات  
من أبي دقيق الذي تراه هناك مرسوما على الشجرة وهو لا يتميز من أزهارها التي تلون بلونها . كل ذلك  
ستراه إن شاء الله ولا يسع القام ذكره هنا ، فقال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

[ بيان أن هذا معنى قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها الخ » ]

فقلت أليس هذا يكفيك في معنى قوله تعالى على لسان هود « إن توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة  
إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » ، فانظر إلى التعبير بربي وربكم فهو مراد هود ومراد  
قومه وهو مراد كل حيوان وحافظه وهو على صراط مستقيم أي هو عدل لا يجر ، والجور هنا إعطاء الحيوان  
ملايئمه أو ما يضره ، فلو أنه أعطى السمك الذي في قاع البحر لون الذي عند سطح الماء فكان في ظهره زرقة  
مع سواد أو خضرة لامتاز بهذا اللون فتعرض للهلكات ولو أعطى السمك الذي عند سطح الماء ما أعطاه  
للك الذي يعيش في قعر الماء في البحار الحارة التي يكون قاعها مزدانا بجمال الحيوان والنبات لامتاز  
هذا بلونه البراق البهيج عند سطح الماء فرآه مافوقه من الطيور الصائحات وما تحت من السمك للفترات ،  
إذن ثبت بالعلم الذي تنبأ اليوم في أنحاء أوروبا وأمريكا واليابان وجميع العالم الإنساني أن هذه الآية يفسرها  
حكمة الحكماء وعلم العلماء ويضعف عن فهمها أكثر رجال الدين في البلاد الإسلامية الذين لم يعرفوا نظام  
ربهم واكتفوا بإيمان المجاز ، وهكذا أكثر للتعليم بمدارس مصر والشام والعراق وأوروبا وأمريكا  
واليابان فان هؤلاء كالفقهاء في الإسلام ، والفرق بينهما أن الفقيه يقول هذا فعل الله ، وهؤلاء الذين أخذوا  
شهادات عالية من المدارس يقولون هذا فعل الوسط والبيئة ، وأن الثلج أثر على ماحوله من الحيوان فأعطاه  
البياض وأن الرمل في الصحراء أثر في الجمال والأسد فجعل ألوانها كاللون رمال الصحراء ، وقد ظهر لك  
بطلان ذلك كله بالبرهان .

[ العرش والرحمة والعلم ]

قد جاء في أول هذه السورة أنه مامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها وأن كل ذلك في كتاب مبين  
وأن عرشه على الماء ، وجاء في سورة أخرى « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم  
ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك  
وقهم عذاب الجحيم » فالذين يحملون العرش أي الملك والذين حول العرش هم اللذين لهذا العالم من  
العوامل المجردة عن المادة والعوامل المادية كأرضنا ترى فيها نفوس صغيرة في أجسام إنسانية لتزداد علما وبصفا  
يرتقى إلى أن يصير مع أولئك المجردين عن المادة من اللائكة وبدبرون كتدبيرهم كل بقدره ، فهؤلاء  
للائكة يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون ، والتسبيح يرجع لمعرفة أن الله مترفع عن المادة وما يناسبها وعن  
سائر المخلوقات ، والتحميد لاحقيقة له إلا بإدراك الحقائق ، فإن الحمد إنما يكون على نعمة ، والنعمة إن لم  
تعرف فلا حمد عليها ، وكلما كان الإنسان أو الملك أكثر علما كان أكثر حمدا ، والحمد جاء في اسم سيدنا  
محمد صلى الله عليه وسلم وجاء في قول الصلي قبل كل مكتوبة « اللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة وابته  
مقاما محمودا الذي وعدته » فذكر الحمد وتكراره في الصلاة والدعاء كله راجع للعلم فلا حمد إلا على علم ،  
والمجهول لا حمد عليه .

فهؤلاء اللائكة يسبحون بحمد ربهم ، وهم علماء بما حمدوا عليه وهم مؤمنون لأن الحمد لا يكون إلا مع  
إيمان ولكون المؤمنين شاركهم في الإيمان العام أخذوا يستغفرون لهم ويقولون « ربنا وسعت كل شيء  
رحمة وعلما » .

فيا ليت شعري كيف نعلم أن الله وسع كل شيء رحمة وعلما إلا بمثل ما ذكرناه ؟ وتمجيب من ذكر الرحمة مصحوبة بالعلم لأن الرحيم الجاهل لا يقدر أن يضع الأمور في مواضعها فيعطى السمك الذي عند سطح الماء لونه الرقش للزينة الذي في قاع البحر الحار فيموت السمك فريسة هذا القش والتصوير والتزييق ويعطى بجعله الجميل لونه الطاوس وكذلك الأسد فهلك الأول بالحيوانات المفترسة ، والثاني بفرار الغزلان والبقر والجاموس والغنم وللمر إذا رأته في عرض الصحراء .

فالرحمة لا تكون إلا مع العلم ، والرحمة بلا علم حماقة ، وهذا المعنى هو المذكور هنا وهو قوله « إن ربي على صراط مستقيم » وإن يكون على صراط مستقيم ، أي عدل إلا إذا علم طرق النافع والضار فأعطى الأول ومنع الثاني ، قوله هناك « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » يقرب من قوله هنا « إن ربي على صراط مستقيم » .

فقال صاحب مامعنى قوله في أول السورة « كل في كتاب مبين » بعد ذكر أن كل الدواب عليه رزقها هل الكتاب الذي كتب فيه كل شيء اطلعنا عليه وأبان لنا شيئا من تلك العلوم ؟ قلت كتاب الله ولوحه المحفوظ لا يعرفه إلا هو ومن يريد تعليمه ولكن هذا الكتاب له آثار ، فقال وما هي الآثار؟ قلت انظر إلى التصوير الشمسي ، ألت ترى الناس يصوّرون الجبال والأنهار والكواكب والزارع والمحصول بالتصوير الشمسي فيعرفونها معرفة عامة ؟ قال بلى ! قلت فهل الصورة الشمسية فيها مزايا الأصل من كل وجه ؟ قال كلا ! قلت هكذا هنا إن الله وإن لم يطلعنا على اللوح المحفوظ أطلعنا على الصورة للنطبعة في الأرض منه ، فهذه الطوائف الحيوانية والنباتية التي قرأت بعضها هنا وفيما تقدم في هذا التفسير والتي ستقرؤها إن شاء الله في سورة « قد أفلق المؤمنون » إذا درسناها حق دراستها أرتنا جمال ذلك اللوح المحفوظ فإن الإتيان في الصنع بحيث ترى العار والأسد والجمل وطوائف الحشرات والسمك كل واحد منها قد أعطى ما به حياته .

ذلك كله نظام وترتيب ، والنظام والترتيب إنما يكون من العلم ؛ فالعلم والحكمة الحيوان عا المحفوظان عنده قد ظهرا في هذا الوجود وبأنا أيما تبيان لمن يدرسون ، أما الذين يعيشون وهم ساهون لإهون مكنتون بقشور العلوم وبما نالوا من شهادات من مدارس عالية ، فأولئك ربما كان غرورهم بملهم القليل يحملهم على إنكار ما لم يعرفوا ، والتظاهر بالإنكار ليدفوا بذلك الإنكار والتكبر الحزبي والعار أمام الذين يملكونهم ، فإذا سئلوا في مثل هذا اللقاع قالوا هذه أشياء يقتضها الوسط والبيئة وأحوال الجوّ وهكذا .

واعلم أن الله عز وجل حجب أكثر النوع الإنساني عن معرفة هذا وأمثاله رحمة منه بهم كما قدمت في أول اللقاع ، ولو أنهم عرفوا ذلك لسكروا ولا نهروا فكان فرحهم عظيما لكن الله برحمته شغل الناس بإطعام أنفسهم وبملابسهم وبعداواتهم وأعمالهم فهم في شغل شاغل . كل ذلك ليقوى عقولهم حتى يستأهلوا لمعرفة هذا الوجود ولو عرفوه الآن لدابت أكثر النفوس ، فهو هنا حجبها ليقويها ولا يعطيها من العلم إلا بمقدار على حسب قابليتها .

فإذا رأيت زيدا يحقر هذه للسائل فلا تعجب لأنه الآن يربي بالنعم والتم والمز والذل والمقر والفق ، لترى نفسه في الصيف والشتاء والحريف والرياح فتشدد وتفوى حتى إذا فارقت روحه بدنه استحق من العلم على مقدار ما استعد له ، فحجب الناس عن العلم لم يكن بخلا ولكنه يحرمهم منه إلى أمد معلوم لمنفعتهم لا غير ، وإذا رأيت نفوسا متعطشة إلى هذه المعارف ونالت بعضها فاعلم أنها استحققت ذلك ، ذلك هو الصراط المستقيم والحمد لله رب العالمين .

## التسبيح والتحميد

استيقظت قبيل فجر يوم الأحد ٣١ يوليو سنة ١٩٢٧ فظنرت أن هذا للوضع يعوزه التمام ، فما أنا ذا  
ذا كر ما انشرح له صدري تمميا للقال فأقول :

لقد علمت أن الألوان جعلت لحماية الحيوان فيما تقدم وفيما سيأتي في سور أخرى ، فالحجب لذلك واجب  
لقوله تعالى « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » من هنا فليقرأ للسلمون التسبيح  
والتحميد التسبيح تنزيه ، والتحميد آثار للنعم ، هذا هو مقصود التسبيح ، أمرنا بالتسبيح في صلواتنا  
وسبحنا في الركوع وسبحنا في السجود في كل واحد (١١) مرة . وحمدنا في الرفع والاعتدال فقلنا [ربنا لك  
الحمد] وحمدنا في أول الفاعمة في كل صلاة ، فنحن قوم حمدون ونحن الذين قيل لنا « فسبحان الله حين  
نمشون وحين نصبحون . وله الحمد في السموات والأرض » وجاء في سورة يونس السابقة قوله تعالى « وآخر  
دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » هذا التمام هو سر التسبيح وسر التحميد الذي لا يفهمه .

نحن سبحنا وتسبيحنا لفظي . وحمدنا وحمدنا لفظي ، فإذا لم تتبع اللفظ معناه كنا ضالين ، ومعنى الحمد  
وهو التسبيح يظهر في أمثال هذا المقام مقام الألوان .

الله أكبر ، جل الله ، وجلت الحكمة ، اللهم إنك أنت الذي أبرزت هذه الأشكال الحيوانية الآتية صورها  
فيها سيأتي ، وأنت الذي رسمت عليها تسبيحك وحمدك ؛ فبالأول زهناك عن البعث في صنعك والبعث عن  
للقنوب في خلقك .

لقد كسوت الحيوانات أغطية لونها بألوان خاصة فكانت وقاية لها ، فألبست الدب في الأنظار الشمالية  
قباة أبيض وخملت على الزنور حلة مزركشة مرفوفة براقة يراها الناظرون وجبوت سكان الصحارى من  
الدولاب ألوان رمالها وأفضت بنعمك على تلك مخلوقات التي هي في كلاءك وتك وزينت بعض الحشرات بزينة  
تشبه زينة حيوانات من نوعها ، وبهذه التشابه أوهمت أعداءها أنها لها سلاح كسلاح للشبه به اقتصادا منك  
في حملك ولطفًا منك بمخلوقاتك ورحمة بها فحميتها من أعدائها بمجرد التشابه اللونية لما له سلاح من نوعها  
كما سيأتي صور ذلك فيما سيأتي من مجلدات هذا التفسير في عمله إن شاء الله ، وإذا رأينا حشرة كزرق الطير  
وإذا رأينا طائرا ليلا يسمى (سكانك) في أمريكا الشمالية قد ازدهى لونه وجمل شكله نصار في الليل ظاهرا  
واضحا وقد طال ذنبه الأبيض الزاهي الذي هو علم له برفعه ليعرف .

أول : إذا رأينا هذا وذلك فإننا نقول إننا زهنا الله بقولنا لا بألفاظنا فقط ، زهنا عن البعث : أي  
البعث في وضع هذه الألوان وهذه الأشكال ، فترى أن شكل زرق الطير للحشرة المذكورة إنما جعله الله وقاية  
لها ، فليس هذا ازدراء واحتقارا ولها ولها بل الحكمة أصبحت معروفة لنا ، فإن الطير لا يشك في أن هذا  
زرقه فيصد عنه فيكون هذا الشكل رحمة بالحيوان ، فإذا سمعنا الله يقول « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما  
باطلا ذلك ظن الذين كفروا » فذلك لأن الذين كفروا بالله يقولون إن العالم جاء بالمصادفات والامتزاجات ،  
وهكذا ظن جميع الجهال وجميع المعلمين تلميذا ناقصا ولكن الذين اتبعوا الأنبياء منهم يؤمنون ويصدقون  
ولكنهم لا يفقهون الحقائق ويخطر لهم أن هذا العالم باطل ولكنهم يدفعونه بإيمانهم وتصديقهم ، والإيمان  
غير اليقين . وهكذا نقول في الطائر المذكور الآتي شرحه في المجلدات الآتية إن شاء الله تعالى .

قول إن هذا الطائر الأمريكي قد أعطاه الله سلاحا وهو أنه ينثر رائحة كريهة بها يدفع كل هاجم عليه  
فمثل الله هذا الدليل الطويل البهيج الجميل الأبيض ليكون علما له برفعه فتراه الطيور الكواسر فخر منه  
ولا تقره لأنه نشر علمه يقول أنا البطل للنوار ، أنا البعث الكرار ، أنا الذي أدفع أعدائي بسلاح عجيب  
المنشأة غريب .

قلدنى الإنسان فاخترع الغازات الحارقة والمعمية ، فأنا أول من حارب الأمم بالغاز الكريه فيه ، وأعدائى من الحيوان ليس عندها وقاية تقيها على أنوفها من رائحتى الكريهة ، كما استعمل جيوش الخلفاء أكنة على أنوفهم فى الحرب الكبرى وقاية لها من غازات الألمان الذين قلدونى فى اختراعى فى السبق عليهم فى هذه الصناعة .

إذا فهمت هذا فهمت معنى قوله تعالى « وإن من شئ إلا يسبح بحمده » فجعل التسبيح مكتسبا بالحمد وهذا هو الحق ، فان الحشرة التى على لون زرق الطير قد كتبت على بدننا مانسه : [ أما أزه الله عن العيب فى وصى على هيئة قدرة فلم يجعل هذا عبثا وإنما جعله لمنفعتى ] فقول الحشرة إن هذا الوضع ليس عبثا وإنما لمنفعتها تضمن التسبيح والحمد معا ، لأن النعمة هنا هى الوقاية من الهلاك والوقاية مرتبطة بهذا الشكل القدر ، فقدارة الشكل بها النجاة ، ففى قلنا بها النجاة زهنا الله عن العيب وصارت له منة على الحيوان فالتسبيح هنا ملازم للحمد ، فهذا هو سر « وإن من شئ إلا يسبح بحمده » فالتسبيح هنا مع الحمد لا ينفصل أحدهما عن الآخر .

فهذا الشكل أفادنا الأمرين معا : تنزيه الله عن العيب وفضله على عباده . ومثل هذا يقول فى الطائر الأمريكى ، فرائحته الكريهة التى يطلقها على عدوه هى شئ قدر ، والله لم يخلق هذا القدر الكريه الرائحة عبثا ، بل جعله لمن انصف به فحصل الأمران : تنزيه الله عن العيب فى وضع هذا القدر للكروه الرائحة ، ولنة والنعمة على الحيوان ؛ فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى فى سورة يونس قبل هذه « دعواهم فيها سبحانك اللهم - إلى قوله - وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » فهذا اللقاع فتح لنا باب فهم ذلك على قدر طاقتنا البشرية .

إن تسبيح أهل الجنة وتحميدهم ليس كتسبيحنا ولا كحمدا بل هم يسبحون ويحمدون بطريق الإلهام كما ورد فى الآثار « إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما نلهم عن النفس » فالتعبير بالإلهام يفيد أن ذلك التسبيح وذلك التحميد قد ظهر الآن فى هذا التفسير شعاع نور منه فإن ألوان الطيور وأشكالها ، وهكذا كل حشرة وكل حيوان جميعها امتزج فيها التسبيح والتحميد ولكنه معقد غير معقول إلا لقليل من الناس ، ولتلك قال لنا « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » إن تسبيحهم مندمج فى حمدهم .

إن هذه العوالم كلها عبارة عن كتاب كتبه يدي يدل دلالة أوضح من دلالة ما تكتبونه بأحاديثكم وما تلتفظونه بألسنتكم ولكنكم تفصرون عن إدراك ذلك وأتم فى هذه الأرض ولا يفهم بضه إلا أسس اخترتهم لذلك وهم الذين قلت فيهم « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولا يتم الفهم إلا بعد اللوت لأولى الأبواب ولتلك جعلت تسبيح أهل الجنة مفصولا عن حمدهم والتسبيح على قدر التحميد ، أريد بذلك أن اللعاني للمعدة عليكم ولللعاني المحبوبة فى هذه الصور والأشكال التى هى حروفى وكلماتى التى خفيت عليكم وأنتم هنا فلا تفهمونها هى التى ستظهر لأهل الجنة فيقولونها بطريق الإلهام فتفصل لكم الأشياء تفصيلا كما فصلت الحمد هنا عن التسبيح بحيث تعلمون جمالى وقد قويت أرواحكم لحضات ذلك فصارت فى لنة لا يعلم بها ولا تقدر على تحملها أهل الأرض ، هذا تحقيق بعض اللعاني فى قوله تعالى « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » للمتزوج بالتحميد ، بخلاف أهل الجنة إذ يسبحون ويحمدون بالفهم والعقل لا بمجرد اللفظ كما تعلمون

هذه هى اللعاني التى أخبأها الله فى صور الحيوانات التى تمشى بين ظهرانينا فهو آخذ بناميتها وهم أنفسهم تسبيح وهى أنفسهم حمد ، ونحن اليوم لا نعقلها ولا نعقلها بعد اللوت .

واعلم أن هذا التفسير فتح لباب هذه اللعاني وسيكون فى هذه الأمة حمادون ومسبحون بطريق اللع

والحكمة ويكونون نورا للناس وتكون هذه العوامل في نظرم جنة عرضها السموات والأرض ، وأى جنة وأى لذة أبقى وأرقى وأعلى من الوقوف على الحقائق التي ستكون نورا لنا في هذه الدنيا ويوم القيامة نتهدى به للعلم أعلى والعلوم هي حقائق التسييح والتحميد .

إذا علمت هذا علمت كيف أمر الله بالإكثار من التسييح والتحميدات بكرة وعشيا ، ولماذا يقول صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها لما سأته خادما كما في البخارى « إذا أخذتما مضاجعكما فسيبعا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا ثلاثا وثلاثين » ثم ذكر أن هذا خير لهما من خادم ، أليس ذلك معناه أن العلم هو اللذة القصوى ؟ فإذا كان الخدم لراحة بدن المخدم .

[ وبعبارة أخرى ] إذا كانت الحياة فيها لذات كاللذبة بالمال والخدم والحزم فإن هناك ما هو خير لسعادة الإنسان وهي إدراك الحقائق الذي دخل تحت التسييح والتحميد والتكبير ، وذلك كله ضيوع في العوامل التي نشاهدها أمثال هذا الطائر الأمريكى وهو بدن مركب من أجزاء أو كفة مركبة من حروف دلت على معان لا يفهمها إلا الحاسة ولا يفهمون منها إلا قليلا وفهمها هو عز الدنيا وعز الآخرة ، وسعادة الروح وسعادة البدن ، وهذه الكلمة من كلمات هي المذكورة في قوله تعالى « قل لو كان البحر ممدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » فما أنت ذا أيها الذكى أخذت تقرأ في هذا التفسير بعض كلمات الله في اللوح للفتوح أمامك وهو هذه الدنيا وأكثر الناس حولك لا يعلمون ، والحمد لله رب العالمين .

للمسلمون تملبا أوروبا في الشرق يجهلون حقائق العلم في أوروبا وفي الإسلام

تبين لك من هذا اللقال في تفسير قول هود « إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بما صيرها الخ » أن كل دابة لا تعطى لونا ولا شكلا إلا لمفعتها بحسب الاستقراء حديثا ، وهالك ما كتبه العلامة ( روبرت برون ) في كتاب موسوعات العلوم للتقدم ذكره ، قال مترجمته في صفحة ( ٢٨٤ ) من المجلد الثاني [ لقد كتبنا في مقال سابق من صفحة ( ١٢٨ ) إلى صفحة ( ١٨٧ ) ( أقول هي المقالة التي استخلصنا بعضها هنا وستذكر فيما بعد ) في الألوان الحافظة للحيوان واجتهدنا أن نلقى شعانا من العلم ووضوح الحقيقة في التصود من هذه الألوان الحاسة وفي أصولها من حيث إنها يخفى الحيوان عن أعدائه الآكلات له وعن فريسته التي لا بد له من اضطيادها ، ولقد أبنا هناك كيف كان موضوع الألوان متسعا متشعب الأطراف في الطبيعة وكيف أن ما كان يظهر للناس من الألوان إنه لازينة ولزخرف :

( ١ ) حينما كنا نبحث الحيوان وهو محبوس في أقفاصنا ( يريد أمثال الطاووس ) .

( ٢ ) وحينما نلاحظ صورته في دار التحف ظهر الآن أنه خطأ محض وضلال مبين ، لأن تلك الألوان جميعها لحفظ كيان الحيوان والحفاظة عليه إذا درسناه وهو في وطنه الأصلي أو رأيناه وهو جائم للاستراحة وقد أخذت شكلا به ينجو من خطر المفجعات ، انتهى بايضاح قليل ، وهذا القول يفيدنا فأدتين :

[ القائمة الأولى ] أن الناس في غفلة معرضون عما حولهم وأن المتعلمين في بلاد الشرق الذين قرءوا لذة أو لغتين مع بعض العلوم ، هؤلاء هم كأكثرهم فقها ، الإسلام هؤلاء ممن قال الله فيهم « وإن تطعوا كثيرا من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » أما ظن هؤلاء المتعلمين تملبا أوروبا فإنه انجبه بمرور إلى أن ما أخذوا فيه شهادة من مدارس أوروبا هو العلم كله وهم في الوقت نفسه يجهلون حقائق العلوم عند الأوروبيين ، فأكابر علمهم في العلوم الطبيعية قد رأيت الآن نص ما نقلته



عندهم وأنتهم يعيبون الذين يكتفون من الحيوان بظواهره ولا يعقلون حقايقه ، وأما ظن الفتناء فظاهر أنهم يتركون النظر في هذا العالم ظانين أنهم عرفوا كل شيء ، بالأولون منهم كفروا لقلعة عليهم ، والآخرون جهلوا ما يطلبه الإيمان ، ولو أن الطائفتين كانوا غير محدودين لدرسوا وحققوا ؛ فالسكر في الأولين للفرور ، والجهل في الآخرين للفرور ، وما هي ذمة علوم أوروبا التي نقلناها عن سكانهم في مصرنا ، فأعداء الشرق هم الفقهاء العاقلون ، وتمعرو العصر المتفانون ؛ فالفقهاء بأدعائهم نصر الدين قد هدموه وهم ظالمون ، والتمردون تعلموا أوروبا بدينهم الدين واحتقارهم كل دين أعربوا عن جهلهم بعلوم ساداتهم في أوروبا ، ويقول الله في الطائفتين « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » وهذا تمام القادة الأولى .

[ القادة الثانية ] إن هودا عليه السلام كان يناوئه قومه ويعدونه ، وهكذا سائر الأنبياء فهم أولاء كلهم قد آذتهم أممهم . فقال لهم هود : أنا لا أخاف منكم « إني توكلت على الله ربي وربكم » واحتج على ذلك بدليل وهو أن الله أخذ بنصيب كل دابة فإن وقع بي مكروه فهناك أحد أمرين : إما أنه ينجيني منه ، وإما أن ذلك للمكروه يكون سببا في نواب الآخرة كما قال تعالى على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم « قل هل تترصون بنا إلا إحدى الحسينين » جعل النصر حسنى والقتل في سبيل الله حسنى ، وهذا هو معنى التوكل : أى أن الإنسان يتهجد في عمله ، والنتيجة تدلم لله وتكون هي خيرا للإنسان بحسب حاله ، كما أن نار أينا الطائر الأمريكى قد جعل للمكروه من رائحته والمحبوب من شكله الزاهى الزاهر كلاهما لحفظه ، وكما رأينا تلك الحشرة التي شكلها شكل زرق الطيور قد جعل ذلك الشكل القبيح لوقايتها ، فهنا قبيح وحسن لوقاية الحيوان وقبيح خالص لوقايتها أيضا ، هذا هو الذى يقصده هود عليه السلام ، يقول إن الله تكفل بالحيوان وجعل للمكروه والمحبوب لذمته ، فهنا أنا إذا أتوكل على الله وأقول : إن للمكروه والمحبوب نافعان لى ، والشر كالحير لأن النتيجة هي القادة لى ، وربى الذى رأيناه جعل للمكروه والمحبوب نافعين للحيوان هو نفسه الذى قدر لى للمكروه والمحبوب ؛ فبالقياس على الحيوان يكون المكروه كالمحبوب ، فالأول للذنى في الحال ، والثانى للذنى في الاستقبال وهذا هو قوله « إن ربي على صراط مستقيم » اه .

#### زيادة إيضاح « إن ربي على صراط مستقيم »

إنه يرينا على صراطه المستقيم ، وهو يهدينا الصراط المستقيم كما قال تعالى « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله » فقول السلم « اهدنا الصراط المستقيم » يريد صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، وأن الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض يدبرها بالقسط والعدل ، فيجعل الفأر أسود والزنبر أحمر ، والطيور الليلى الأمريكى فيها تقدم أيضا ذيل طويل ، والحية والضب بلون الرمال ولا يجعلهما كالأطاووس ، وهكذا مما لانهاية له يفعل ذلك على صراطه المستقيم ؛ فلو عدل عن هذا الصراط لفنيت القيران بظهور ألوانها ليل ولوم يحط الزنبر حلته البراقة الدالة على ماله من سلاح لهجمت عليه الطيور الآكلات للحشرات وهكذا مما علته .

هذا فتح لنا سر القضاء والقدر : القضاء والقدر سرها محبوب عن الناس جميعا لأننا فى الأرض محبوسون وما أوتينا من العلم إلا قليلا وليس ذلك بخلا من الله كما لم يكن منع إعطاء الفأر لون الطاووس بخلا منه . بل ذلك منة وفضل ، ولكن ما ذكرناه هنا فيه جسيم من نور ذلك السر . ذلك أنه جاء فى سورة الأنعام « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرسون . قل فقه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين »

الله أكبر ، جلّ الله وجلّ العلم وظهر بعض السرّ وأذن الله بارتقاء المسلمين وبعلمهم في العلوم .  
 إن هذا التفسير منحة من الله ، ذلك أن أبواب العلم اليوم قد فتحت ومن أجلها ما ذكره في هذا المقام ،  
 ذكر الله أن الذين أشركوا سيجتجون بالقضاء والقدر على صاحب الرسالة ويقولون إن كل شيء بمشيئة الله ،  
 فلم هذا الوعيد والإنذار على الكفر والذنوب ومنهم أكثر للتعليم اليوم والجهلاء ، فأجابهم أولا بالتهديد بأنهم  
 يذوقون البأس كما مثلهم من الأمم ، وثانيا يصفهم بالحرمان من العلم ولو كان عندهم علم لهداهم ، والعلم شيء  
 والظن شيء ، فالعلم اليقيني هو النظر في هذا الوجود والنظر به يكون اليقيني الذي انصف به الخليل ، وهذا  
 اليقيني إنما يكون بمثل النظر في أنواع الحيوان المذكورة .

إن الناس في مستقبل الزمان سينالون حظا عظيما من علوم الحيوانات وغيرها وهناك يدرسون بالعلم  
 والحكمة ، وإن الله لم يعط حيوانا لونا ولا شكلا ولا هيئة إلا جعل ذلك نافعا له وعند التحقق من هذا  
 يزول الاعتراض بالقضاء والقدر ، لأن القبح والحسن وغيرها كلاهما لمنفعة نفس الحيوان ، فهذا هو العلم  
 وهذه هي الحجة البالغة التي كتبها الله لنا بخلق صور الحيوان ، ولست أقول لك إن هذا كل الحجة بل هو  
 فتح لبابها .

يجيب الله كل سائل متكل على القضاء والقدر بأن العلم هو الذي يعرفه صراط الله المستقيم ومتى علم  
 الناس أدركوا بعض حجة الله البالغة ، وأتى حجة أبلغ من خواص الحيوان ومجابهة ؟  
 ظهر مما تقدم ومما سيأتي في سورة المؤمنون أن كل حيوان يجب أن يكون على ما هو عليه وإلا هلك ،  
 فهنا أمور :

[ الأول ] أن لكل حيوان شكلا ولونا لا يصلح لغيره .

[ الثاني ] أن هذا هو العدل ، وسواء ظلم لأنه يترتب عليه هلاك الحيوانات .

[ الثالث ] أن النقص لا فرق بينه وبين الكمال والحسن والقبح ، كذلك فكل ذلك لبقاء الحيوان ،  
 فيكون نقصه بالنسبة لغيره كالا بالنسبة له .

هذه هي حجة الله البالغة هداانا الله إلى أوائلها في هذا التفسير ، هذا صراط الله المستقيم ، فكيف يكون  
 صراطنا نحن في قوله لنا اهدنا الصراط المستقيم ؟

قد علمت أن الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم « وإنك تهدي إلى صراط مستقيم : صراط الله الخ »  
 فصراطنا هو نفس صراط الله ولكن صراطنا على حسب أحوالنا .

[ أولا ] أن نعلم أن ما يحصل لنا من الحوادث وراء نقصنا لنا أو ضرا لا يتجتنه النعمة لنا قياسا على  
 الحيوان الذي عرفنا كيف كان الله على صراط مستقيم .

[ ثانيا ] أن نذر الإفراط والتفريط في الأمور ونكون وسطا في كل شيء في الكلام والأكل والحب  
 والبغض وهكذا ، وهذا ملخص علم الأخلاق .

[ ثالثا ] نزيد علما حتى نوقن أن ما أصابنا من مكروه فهو نعمة علينا كما أن سواد العار نعمة عليه ،  
 بل الذنوب التي تورثها ندما ربما كانت سبب إشراق قلوبنا فإذا لم يكن فرق بين المرض الجسمي والمرض  
 الهدي وهو الذنوب في أن كلا منهما قد ينير العقل .

[ رابعا ] أن نكون حكما فلا نقول كلمة أو نعمل عملا إلا إننا وزناؤه كما رأينا الله وزن الأنوان والأشكال  
 ولم يعطها إلا لأربابها فلا يخل عنده ولا هو حائد عن الصراط المستقيم اه .

## بهجة الأنوار في عجائب الحيوان

يظهر لي أن هذه الدنيا لانهاية لعجائبها ولا غاية لبدائعها ، ها أنا ذا ألمت إلى ما ستقرؤه في سورة « قد أفلح المؤمنون » من عجائب الألوان في الحيوان وبعد ما كتبت ذلك عثرت على أمر يدهش العقل ويحير القلب ستقرؤه في سورة الرعد عند قوله تعالى « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » سترى هناك أمرا عجبا .

ذلك أن من الثبات ماهو مقترس لا يتغذى من التربة ولا يتعاطى خلاصة النبات كالغزلان والجمال بل لا يأكل إلا اللحم أو الحشرات وله طرق خاصة لصيد فريسته ومنه ما يسمى (بالنبات الجزار) لأنه متى وقعت فريسته في قبضته لم تغفل منها بل يفترسها ، وسلاحه في ذلك أمران : حسن ألوانه مع الجمال ومقدار من العسل موهوب له من الله ، فهذان أعطيا له ليكونا سببا لخداع الحشرات فتدفع إليه فتكون غذاء وهناك ترى صور تلك النباتات وشرحها .

أليس هذا من قوله تعالى « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » أخذ الله بناصية هذه الدواب النباتية اطلع عليها فلم أنها لا قوة لها لتنتقل بها من الأرض ، ثم اذا فعل لها ؟ أمر الحشرات أن تطوف حولها وأعطى هذه الدواب المذكورة من نعمه عسلا ومنظرا حسنا ليكونا سببا في دخول هذه الحشرات في اللدج فلا تخرج منها وإنما تدخل في ضمن غذاء ذلك النبات .

اللهم إنا نحب من صنعك وحق لنا أن نحب ، أخذت بنواصي كل دابة ، يعيش أقوام ويموتون من أهل الأديان ومن اللحددين وأكثرهم يفلون لا يفطنون ، يسمعون أن ذلك النبات يفترس الحيوان فيمرون عليه من الكرام ، فلا للتدين يدهش لذلك ويكون سببا في بحته وسعادته وجمال العلم في قلبه ، ولا للحد يعقل كيف خلق هذا وكيف سهات له الأسباب حتى حلى بغدائه بدون انتقال وعذب الإنسان والحيوان في طلب الرزق ولم كان البذل مقدرا بمقدار الحاجة ، يحز النبات الحيواني عن السمي فأرسل له ما يأكله بحيل خلقت فيه وأعطانا وأعطى سائر الحيوان قوة فأبعد مطالبنا على مقدار قوانا ، اللهم إني أهب لهذه الدنيا اختلفت أعمالها وانفق نظامها .

## حياة الأرض

ثم إنى اليوم نظرت فيما قاله الملامة ( مترلك ) الذى أبدع في حياة النحل وألف في حياة ( الأرض ) على وزن بقرة وهي دودة عمياء ويسمون هذا النوع بالنمل الأبيض أو النمل الأعمى ، والحقيقة أنها ليست بنمل ولا هي بيضاء ، بل لونها جمع بين البياض والسكرورة وهو ( الأغبس ) من القبس وقد عرفته .  
[ وبعبارة أخرى ] لونها لون الأرض التي تعيش فيها وهي الآتية إن شاء الله في قوله تعالى « ما لهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته الخ » في سورة سبأ . فأحببت أن أوجز في وصفها ليزداد علمنا بقوله تعالى « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » يقول هذا العالم إن هذه الدابة عاشت قبل الإنسان مائة ألف ألف سنة ، وهذا بحسب ظنه وظن علماء زماننا .

ويقول إن حضارة هذه الحشرة أقوى من حضارة النمل والنحل وقد درس هذه الحشرة علماء مثل ( كونيغ ) و ( هنرى سميتان ) وغيرهما من فطاحل العلماء وهو حيوان يتراوح بين ( ٣ و ١٠ ) مليمترات طولاً وأغلبه لا يكون له أجنحة وهو بطيء الحركة ولا يعيش في غير البلاد الحارة ولا يرى الشمس ثلاثا يموت ولا يعيش إلا في الرطوبة وهو أنواع كثيرة : فمنه ماهو بناء يقيم هضابا فوق الأرض ، ومنه ما يعيش في العراء ويمشى بين صفيين من الجنود يحتمى بها من الأعداء ، ومنها ما يبتك بالأشجار . وقد تكون مساكنها تملو

فوق الأرض أربعة أمتار ومحيط قاعدتها (٣٠) قدما كأنها قالب سكر ومنها ما يبدو كالقناطر نصبت فوق  
أعمدة متعوجة وقد يستطيع الفارس أن يمشى من تحتها ، ومن مساكنها مشوهة في أفريقيا الوسطى ولاسيا  
في (كنفو البلجيك) حيث يبلغ العلو من ستة أمتار إلى ثمانية أمتار .

ومن عجب أن هذه الحشرة يظن العلماء أنها قد أعطيت علما بالكيمياء لم يعرفه الناس فإنها تعيش  
في أصقاع لا أثر للماء فيها ولا للحياة ، يقولون إنها ربما أخذت (الأكسوجين) من الهواء وجمعت إلى  
(الأودروجين) الذي تجده في غذائها النباتي ليتكون منها الماء ، ومعنى ذلك أنها تقدر أن توجد الماء  
بطريقة كيميائية عجز عنها الناس في الأرض .

وهذه الحشرة لها ملكة كما للنحل ستري رسمها إن شاء الله في سورة سبأ وبجانها لل ملك نهى تملأ اليد  
وهو كالأمعة وحولها الضباط المحافظون على حياتها والكشافة الصغار المهيطون بها ، وهالك الذين يطعمونها  
عند ثمها والذين يتلقون بيضها عند مؤخرها ، ثم إنها لاتقوم من مرقدتها حتى آخر أجلها ، وهناك جنود  
وعمال ، والجنود والملك والملكة لايتعاطين الطعام إلا بما تعطيه لمن العاملات اللاتي تشبه من النحل  
العاملات فيه وهي الشغالة .

ومن عجب أن تلك الملكة العظيمة يقوم بها الملك والملكة والعمال والجنود في الظلام وقد فتتك  
بالأشجار والتنازل وللأبليس والقوى ، ولولا النحل ومخاربه لما لأهلك الحارث والنسل وأخربت كثيرا  
من بلاد نوع الإنسان .

ومن عجب أن هذه الدولة يتربى تحت إشرافها وفي مدينتها في الظلام جماعات كثيرة ذوات عيون  
وأجنحة ، فإذا ولي الحريف ودنا موعد الطار وتلك المخلوقات لم تزل في تلك القرية المحيكة السد للسدودة  
السكوى الكثيرة الجنود ذوى القوة والبسالة اللاتي يملن خمس عدد القرية ، هناك يحصل أمر عجب  
لا يدري من أين جاء ، فما هو إلا أن يرى الإنسان هؤلاء الجنود (الذين وقفوا على الفتحات التي تأتي بالهواء  
ليلها وهارا لا يتركون موقعهم لحظة طول السنة) قد نخلت عن أماكنها لحظة واحدة في كل باب وخرجت  
آلاف الآلاف من تلك المخلوقات ذوات الجناح والبصر ، خرجت هذه المخلوقات فرحات إذا هناك جماعات  
يملن وقت خروجهن من المصافير والحبات والمهررة والسكاب وسائر الحشرات لاسيما النمل فتهم على هذه  
القرانس التي خرجت في الجوى كالعرائس لأنها قد أعطيت قوة الذكورة والأنوثة بخلاف التي في المدينة ، فإن  
الذكورة والأنوثة فيها قد صارت آثارا لا عمل لها ، فهذه العرائس فتتك بهذه الجيوش التي حضرت لتفتت  
منها ، وهكذا بنو آدم محضرون ويتسمون تلك النعمة مع الحيوان فيجمع الإنسان ما يراه بالمخرفة وبأكله  
بعد التحميص أو يعجنه بالسكر فيصير كاللوز ويبيعه في السوق كما في جزيرة (جاوه) .

هذا ما أردت ذكره من هذه الأرض التي لا تبقى ولا تذر حتى إنها فعلت ما لا احد له من عجائب التخريب  
قد تأتي على الشجرة الكبيرة فتأكلها ويبقى هيكلها كما هو ، فإذا جلس أحد بجانها وانسكأ عليها انهارت  
ووقعت كأنها دخان وذلك لأنها تعاذر أن يكون الناف ظاهرا فهي تأكل جميع ما تحت القشر وترقه ، ولها  
كثير من العجائب عسى أن أذكرها هناك في سورة سبأ إن شاء الله تعالى ، وههنا يأتي العجب فترجع إلى  
الفكرة النامة في هذا الوجود .

#### نظرتي في هذه الدنيا

أرجع فأذكر لك أيها الأخ فسكرتني أيام الشباب فقد كنت أقول : هذا الوجود إن كان منظما فله إله  
وإن لم يكن منظما فليس له إله ، وصرت أقول في نسي إن هذا الوجود إذا كان بصنع مبنى على تدبير

وحكمة فإننا معاشر الأحياء نكون سعداء ، وإذا كان هذا الوجود عبارة عن مصادفة عمياء فالحياة هباء لا قيمة لها . فدا اطلمت على مآرأته في هذا الكتاب وغيره ظهر لى ما يأتى :

لقد تبين لى من صانع هذه الدنيا أنه عمد إلى المادة وعلم أنها قابلة لما لانهاية له من الصور والأعاجيب فتألف وابتدع كل وسيلة لبلوغ النهايات المختلفة من الصور ؛ فبينما نراه قد خلق حيوانا يأكل الحيوان والنبات إذا به قد خلق نباتا يأكل من الحيوان ويأكل من النبات كما تقدم .

ألا نراه قد جمع بين الضدين آكل ومأكول ؛ ويظهر لى أنه كما سحر عقولنا بما خلق من النبات الذى يأكل الحيوان وهو لم ينتقل من مكانه سحر عقول عوالم أخرى بمخلقتنا نحن إذ جئنا نحن فى الأرض وفيها التناقضات .

فنحن محتاج بعضنا لبعض فى الشرق والغرب ، وكل لسكل محارب ، فإذا اطلمت عوالم أخرى علينا أدهمتها هذا الصنع العريب فيقولون قوم محتاج بعضهم لبعض وهم يقتتلون كيف يمشون ، وهكذا يرون فينا أفاين الأخلق وبدائع اللدنيات واختلاف اللدنيات ، وكيف كان فينا من لا يقبل إلا شهواته ، ومنا من يدرس اللدنيا كلها ، وهكذا فيعجبون من متناقضاتنا عجبنا من تباينات اللوان والنبات .

هذا فيما نراه حولنا من هذه اللدنيا والمادة اللى نعيش فيها وفى أحوالنا العامة ، فأما أجسامنا نحن وعقولنا فأمرها عجب ، فعل الله بها ما فعل بالمادة وباللوان والنبات ، وذلك أنه كما عمد إلى المادة تخلق منها مادق من اللدرات وما عظم من اللجبال ، وهكذا الصلب والصخر ثم الماء والنور ، وكذلك خلق اللوز واللنظل والللو والرز ، أعنى أنه استخرج من المادة كل ما يمكن حصوله منها ، هكذا نراه خلق فينا اللنضادات الصغر والسكبر ، والعز والذل ، والصحة والمرض ، واللزن والفرح .

هذه هى صفات أجسامنا صفات تدل على أنه استخرج من أجسامنا وأرواحنا كل ما أمكن حصوله منها فهى تفرح وتلزن وتعرض وتصح وتضعف وتقوى

إذن أجسامنا أشبه بالأرض فهى مزارع ، فسكا زرع فى الأرض الللو والرز زرع فينا الللوب والسكروه وكأنه سبحانه رأى من العدل أن يعلنا بكل ما نستعد له ؛ أى أنه يفهمنا كل ما استعداد له أجسامنا وأرواحنا . هذا هو فعل صانع العالم يستوى عنده محبوبنا ومكر وهنا كما استوى عنده الرز والللو فى الأرض ، والصلب واللبن فى المادة والهواء والصخر .

إذن صانع هذا العالم يريد أن يستخرج فينا كل شىء كامن فى استعدادنا أسوة بالمادة اللى نعيش فيها ، هذا هو النظام اللدى رأيناه منذ عشنا فى هذه الأرض .

إذن ما نتيجة هذا النظام ؟

نحن الآن فى الأرض قد حبسنا فيها وليست عقولنا هى للسيطرة لأنها محبوسة ، وإنما يمكننا أن نلمس اللجواب بما عرفناه فى هذه الطليعة .

لقد جاء لنا وسى اللديانات كلها بأن هناك عالم الآخرة وعالم الآخرة تظهر فيه أرواحنا بمظهرها اللحقى واللدى جاء فى اللدين كلام إجمالى ونحن الآن نبحث فى طبائنا فتقول :

لعل هذه الأرواح إذا خرجت من الأجساد ينعما أنها ترى مزرعة الفرحة واللزن والألم واللذة اللى ابتليت بها فى اللدنيا فيكون ذلك لها درسا .

ثم إن حيوانات الغابات تقل عندها الأمراض والسرور التي ابتلى بها الإنسان ، فكأن كثرة العطب تتبع الرقى ، وإلا لسكان الحيوان أرقى من الإنسان .

وكما أننا في الدنيا نسرنا دراسة للرّ والحلو والغذاء والدواء ونرى في ذلك لنا حكمة ، هكذا إذا متنا واطلعنا في نفوسنا على ما قاست من ألم وما أصابت من لذة ، وهكذا ما أحسنت من خير وما أساءت من شرّ ، كل ذلك ليظهر لما مزارع ومناظر تتأملها النفس فترى في ذلك درسا بينها على رقى آخر في عوالم أخرى .

ولعلنا إذا لم نجرب الحير والشرّ والضرّ والنفع والصحة والمرض هنا نجد أنفسنا في نفس هناك ونحسّ بجهد عميق ، لأن الروح لم تدرس نفسها ولم تعقل ما كمن فيها فتكون إذن جاهلة بحال نفسها وهذا الجهل يضرّ بها هناك ، وربما كانت بعض النفوس ستتولى إدارة بعض النفوس أو العوالم بأمر الله تعالى كما قدمناه في بعض هذا التفسير عن العلامة الرازي وإخوان الصفا وعلما الأرواح في أوروبا ، فربما كان اتصاف الإنسان بالآلام والذات يعطيه فهما لما يتصرف فيه بإذن ربه ، فهنا حالان للنفس : مكروه ومحبوب ، كالمرض وللوت والصحة والحياة .

فإلى ظهر لنا أن صانع العالم لما له من العلو والعظمة والكبرياء والبطش الشديد مع الرحمة التي لانهاية لما قد خلقنا ولم يبال بإحساننا ، بل نظر نظرة إلهية لانظره بخاري بها حواسنا وعواطفنا ، خلق الحواس والمواطف لأعمال في الحياة ولكنه هو نظر إلى ما هو أسمى ، فانظر ماذا ترى ؟ تراه يتلطف بالجنين في بطن أمه ويعطف عليه قلب والده ، ويخلق له اللبن ، ويحبب فيه المعلمين ، ويخلق الزراع والتجار والجنود ، كل هؤلاء للحفاظ بالرحمة ، وتراه يتلطف مع (النبات الجزار) التقدم فيعطيه العمل خاصة ويجمل لونه ليكون ذلك بابا لرزقه وفتحنا عليه ، هذا لطف عظيم ولكنه يأتي بعد ذلك فيقلب الوضع فيأتي للنبات من يقلمه وللإنسان من يقتله أو هو يموت ، فأين هذه الرحمة والمطف ؟

إذن تقول تقيس ماغاب على ماشوهد وتقول إذا قتله أو أماته فعنائه أنه جعله في مكان آخر بحال أخرى . ثم أتبعه بالرحمة التي كان يكلؤه بها في الدنيا

وإذن نقول : بهذا تفهم الحديث الوارد في الرحمة وأنها مائة جزء وقد ادخر الله منها تسعا وتسعين في الآخرة وأعطى واحدة لأهل الأرض ، بها يتراحم الإنسان والحيوان حتى إن الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .

هذه الآراء التي لاحظناها في هذا الوجود هي التي قد خبثت في قوله تعالى « ونبلوكم بالشرّ والحير فتنة وإلينا ترجعون » أي أننا استخرجنا منكم كل ما كمن فيكم من الشرّ والحير كما استخرجنا من المادة كل ما كمن فيها ، ثم إنكم ترجعون إلينا وقد عرفتم ما فيكم من الصفات علما لانشوبه شائبة ، لأن أعظم العلم ما كان بإحساس الحي نفسه وتجربته هو نفسه .

ويظهر لي أن نوع الإنسان لا يكمل إلا إذا باغ في العلم ميلغا به يستوى عنده للوت والحياة تبعاً لسنه صانه ، هذا هو الحق ؛ أما الإنسان اليوم فهو لا يزال جهولا كفاراً . إذن عمل الله تعالى هكذا :

(١) أب وأم (٢) زراع وتجار وأطباء (٣) حكومات (٤) معلمون

(٥) منافع عامة في المخلوقات الحيوانية والنباتية وغيرها

(١) أعداء محاربون (٢) قعر وذل ومرض (٣) اضطراب (٤) جهل

(٥) الأساد والحيوانات القدرية للحمى والطاعون وللوت

هذان الجدولان وإن كانا ليسا كاملين قد تناوبا على الإنسان فهو حيّ مبت ، سعيد شقيّ ،  
مريض صحيح .

وإذن الله تعالى من رحمته التي هي أهدى من إحساننا قد أحيانا وأماننا وأتى لنا بالمتناقضات ، وهذا  
إنما جاء من طريق الوحي . أما من جهة العقل فهو من طريق التمثيل والقياس فكأننا نقيس ماغاب على  
ماشاهد لأن علومنا ناقصة لنقص هذا العالم الذي نعيش فيه بالنسبة إلى غيره .

#### شرف درس الحيوان ونظام الدنيا

أماي الآن كتابان من كتب الفريجة: أحدهما [ مملكة الظلام ] للسمى أيضا حياة الأرض المترجم حديثا  
إلى العربية الذي ذكرته قريبا ومؤلفه ( متريك ) والثاني كتاب [ موسوعات العلوم ] باللغة الإنجليزية للعلامة  
( روبرت بروان ) التقدّم ذكره .

وفي الأول مايلخصه أن النحل قد يترك عاداته القديمة فيدرك فأئدة مايصنعه الناس من أقراص الشمع  
ليضع فيها العسل فيختص إذن بعمل العسل وحده ، وهكذا نراه إذا نقل إلى (أستراليا) أو (كاليفورنيا) إذ يجد  
نفسه في سيف دائم وبدرك أنه لايجرم أبدا من الأزهار فيكتفي بكسب قوته اليومي ولا يصنع العسل ، هكذا  
إذا وجد مايتناض عنه كما في مصانع السكر ثم يقول إن الخلة عندها حماقة تضاد ماعرفت من تعقل النحل ،  
وذكر من ذلك أنها تخزن من الحب مايزيد عن حاجتها فإذا جاء المطر نبت ذلك الحب فيعلم به الفلاح فيهدم  
القرية الخ ، ثم قال هل النحل أقل ذكاء من النحل ؟ لاثنى\* مما نعرفه عنه يثبت ذلك وربما كنا قاصرين عن  
فهم حاله لأن درس القرية أصعب من درس الفقير وأصعب منها درس الأرضة .

ولا يخفى ما في هذا الدرس من الأهمية لأنه مقي عرفنا سليقة الحشرات وحدودها وعلاقتها بالذكاء  
( وبالعقل العام ) سهل علينا فهم سليقة أعضاء جسمنا التي تختفي فيها أسرار الحياة واللوت ، انتهى .

وهو قد وضع في موضع آخر من الكتاب أن الحشرات في تغلبها وتصرفها ونظامها بحكمة وانتظام  
الجنود والعمال والملك والملكة مع كثرة الأعداد بما لاحصر له لاسيما في حشرة الأرضة للتقدمة لايمكن ذلك  
إلا إذا كانت تلك الجموع أشبه بأعضاء لجسم واحد ، كما أن أعضاءنا كلها متحدة معا مرتبطة غاية الأمر أن  
جسمنا مندمج وجسم تلك الحشرات منتفش متفرق في الهواء النقي ، هذا ماقاله الأول .

وجاء في الثاني في المجلد الأول منه صفحة ١٨١ ما ترجمته : إن في أجسامنا من الوظائف والأعمال وأنواع  
الإحساس عجائب وغرائب مدهشات ولكن لما كنا متعادين عليها أصبحت لانستلفت النظر ولا تدهش  
العقل ، فإن التألوف يظن أنه معروف لاعتياده والدأب عليه ، وإنما الذي يلفتنا لعراة هذه الأعمال في أجسامنا  
والإحساس في إدراكنا إنما هي الواهب العملية الخاصة فهي التي تدفع ماأسدته يد المادة على عجائب أعمالنا  
وإحساننا من الأستار وتوحى إلينا جمال أنفسنا وغرائب أجسامنا وبدائع تركيبها بطرق للملاحظات والتفكير  
فيما حولنا وما يحيط بنا من العوالم .

ثم قال : إن دراسة العوالم التي تحيط بنا أسهل تناولا من دراسة أنفسنا ، إن دراسة أنفسنا جينا وعقلا  
قد عجزت عن إيقاننا على بعض من عويصات المسائل للمادية والعقلية ، أما دراسة العوالم المحيطة بنا فهي  
نبراس لدراسة أنفسنا الخ .

فهذان النسان للتطابقان برجمان لعرض واحد وهو أن دراسة هذه العوالم المحيطة بنا تعرفنا دراسة  
أنفسنا ، فإذا درسنا النبات والحيوان وفهمنا قوله تعالى « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ودرسنا نظير  
ذلك في أول السورة وقرأنا علوم الأمم في هذا المقام فإننا نكون إذ ذاك قد فهمنا لماذا قدم الله العوالم

الأرضية على النفسية في قوله تعالى « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون » أفلا تعجب من أن يكون علماء أوروبا يقولون هذا القول وهو نفس القرآن .  
يقدم الله النظر في الأرض على النظر في النفس ويقول علماء أوروبا نفس هذا القول ، يقولون إن درس الحشرات يعلمنا علم وظائف الأعضاء ويقولون إن دراسة العوالم المحيطة بنا تعرفنا دراسة جسمنا ، الله أكبر جلّ العلم وجلت الحكمة وأشرفت الأرض بنور ربها .

### لطيفة

ها أنت إذا رأيت حشرة الأرض وأنها تعيش في الظلام ، أليست هذه الظاهرة من العجائب التي تقرب لنا حال الأرواح الشريرة في الآخرة .  
هذه الأرض تعيش في الظلام لا ترى النور وهي محبوسة عاملة ناصبة ، وإذا قايسناها بالطيور كانت الآخرة أشبه بمن في الجنة والأولى أشبه بمن في النار .  
انظر إلى هذه الدنيا كيف كان الفرق بين حال حشرة الأرض وحال النملة أو الطيور كالفرق بين الحياة وللوت ، فإذا كان هذا الاختلاف في أرض واحدة صغيرة فكيف يكون الاختلاف في عالم الآخرة بين عوالم كثيرة اه .

فائدة هذه للباحث في آياتنا وهو قوله تعالى « إني نوكلت الخ »

اعلم أن ما تقدم به نعرف نظام هذه الآية ، فهو يقول « نوكلت على الله » والبرهان على أنه جدير بتوكلي أنى رأيت أنه أخذ بنواصي الدواب جميعها ، فهو يحفظها ويغذيها ويرحمها كما رأيت في هذا اللقمة وإنما استدلت بالدواب لأنى ألحظها وعسير على أن ألحظ نفسي ، ففهم رحمة الله في الحيوان أسهل من فهمها في الإنسان ، كما أن دراسة نظام الحيوان وغيره حوائنا أسهل من دراسة أنفسنا .

هذا هو السبب في استدلال هود بالأخذ بنواصي الدواب ، فانظر وتعجب كيف يقول فلاسفة أوروبا قولاً هو الذي فهمناه من نظام الآية وهذا من عجائب القرآن .

وحدة هذا الوجود

إن نظام الأرض للذكورة ونظام النمل والنحل ونظام الإنسان بعد أن درسناه وشرحناه كثيراً منه في هذا الكتاب أفادنا أن كل هذه العوالم مشتبكة مرتبطة بخدمة الإنسان الحيوان والحيوان الإنسان ، والأرض مثلاً راها تصدر آلاف الآلاف كل سنة فتأكلها الكلاب والطيور والحرر والإنسان كما تقدم ، فهذه الأرض تهضم فئات الخشب الجفاف من الورق فينقلب إلى أجسامها ثم أجسامها طعام لتعوم المصافير ثم المصافير طعام الحطاف والإنسان وهكذا .

فهذا يدلنا أن هذا الوجود كله مدبر بمقل واحد كما ذكرناه في غير هذا اللقمة إذ يظهر أن الله الذي خلق هذه المادة خلق لها أمراً آخر يسميه الفلاسفة عقلاً ، وهذا العقل من نور الله وأشعة هذا العقل ، وهذا العقل مثل شمس معنوية تصير في كل شيء بحسبه ، فهي في الجماد تلتصق وجاذبية ، وفي المعدن صلابة ولعان وقوة خاصة ، وفي الهواء لطافة ، وفي الماء سلاسة ، وفي النبات نموّ وذبول الخ ، وفي الحيوان حسّ وحركة ، وفي الإنسان ازدياد الفكر والعقل ، وفي السكون سير منظم وحركة دائمة ، فعمل هذه الأشعة العقلية العامة أشبه بما نرى في أجسامنا إذ أننا نرى الرجل الشهوى يقلّ عقله ، والغنيف الذي حفظ شهوته قد يحفظ عقله وهكذا نجد من أنهم قواء في عمل ماظهر أن ذلك في تكبيره ، فكأن في الجسم قوة واحدة إذا مالت



إلى جهة حرمت الأخرى منها ففى فى السمع قوة لقول الأصوات ، وفى البصر قوة لقبول الصور وهكذا . ويحمد الناس أن العمى أذكى من البصيرين ، فكأن قوة البصر تأخذ من القوة العاقلة نصيباً فتضعفها ، إذن هذا العالم فيه شعاع عقلى عام يشكل فى كل شىء بحسبه ، ولعل لذلك الإشارة بقوله تعالى « ما خلقكم ولا بشئكم إلا كفس واحدة » وإلا فلماذا ترى هذا التعاون مع شدة التفاوت ، وما هذه اللبائى التى تبنيها حشرة (الأرض) المقدمة التى قد تمتد أميالاً وترتفع أمتاراً وتصبح فيها مراعى خصبة للحيوان أخصب من غيرها ، ولماذا يبيت المرجان فى البحار جزائر وجزائر يسكنها الحيوان ويبيت فيها النبات ثم يسكنها الإنسان ، برّ وبحر كلاهما تكون فيه دابة حقيرة تبنى مساكن لنفع الحيوان والإنسان وهكذا مما لا يتناهى ، ولعل لهذا الإشارة بقوله تعالى « الله نور السموات والأرض » أى موقرهما ، فها هو ذا أظهر لنا أن نور الإدراك والنظام سار فى عوالمنا المتجاذبة المتعاونة المتحددة ، فإننا نرى الجسم الأكبر كالشمس يجذب الأصغر كالأرض والأرض تجذب ما حولها وتجذب قمرها ، هكذا نجد العقل الأعلى يجذب العقل الأدنى فكأن أمثال الأنبياء شمس وكان عظماء أمهم كالسيارات وهكذا ، ونجد للدرسين بينهم تلاميذهم والرجل الصالح يلفت حوله أوف من الناس ، ندانا هذا على أن نظام الأرواح كنظام الأجسام الكبير فى الأرواح من حيث السكالك تتبعه الضعفاء الصغار فى ذلك السكالك ، والكبير فى الأجسام حجماً تتبعه الصغار حجماً أيضاً . فالكبر والصغر فى كل شىء بحسبه -سا ومعنى .

## فصل

- (١) الوحدة فى العالم اقتضت أن يغدى بعضه بعضاً .
  - (٢) وفى ذلك تطف وحنن سياسة .
  - (٣) وفساد شىء صلاح آخر .
  - (٤) والإمامة شريعة كشرعية الحياة ، وذلك لتخلو الأرض للباينين بعد المهالكين .
- ولما وصلت إلى هذا اللقاع واطلع عليه أحد الفضلاء قال لو أنك أفتلت هذا الباب لكان أولى ، فلقد أترت نائرة فى نفسى وأخذت أقول : أليس من الظلم أن يترى الأفواج من حشرة الأرض لتكون طعاماً للهرة والكلبة ؟ أوم يكن من الفتن والحداع أننا نراها تخرج من قراها مسرعة لتفرح بالحياة الزوجية إذا لدون حاضر لديها ، وهل من الصدق أن تتخذ الحشرة للسكنى بقطرة من العسل عند النبات الجزار للتقدم وباللون الجميل ، إن الذى يقرأ هذه العلوم يغمره الشك ويغشاه الكفر وكراهة هذا الوجود .
- فقلت أما كون الأرض طعاماً للكلبة وللهرة فهذا هو نظام هذا العالم الذى نعيش فيه ، وأنا وأنت نفتخر بأن نكون طعاماً لحيوان فكيف تنكر ما تستحسن وتظهر الكراهة لما أنت محبة له وتقع فى هاوية للتناقضين ، فقال هذا لا أقوله وما بى من جهالة ، فقلت ألم تر إلى أهل الأرض قاطبة أليسوا جميعاً يفتخرون بأنهم يقدمون أنفسهم للقتل وهم يجاهدون فى سبيل حفظ الشرف أو اللال أو الوطن أو الدين ، ومن ذا الذى يصرن بنفسه على حفظ عرضه وشرفه ؟ ومن ذا الذى يرى زوجه أو أخته قد أهين شرفها أو مست بسوء ثم لا يهجم على من فعل ذلك ولا يقائله ؟ وإذا خرت صريحا هو عد ذلك فخراً له ولأعقابيه إلى حين .
- إن أهل الشرق والغرب يجارب بعضهم بعضاً على الوطن ، وعلى الدين ، وعلى المال ، وعلى المرض وهم جميعاً متفقون أن هذا شرف وغفر للمقاتلين ، وهكذا أكثر الديانات .
- ومن عجب أن النصارى دينهم ينههم عن قتال عدوهم ولكن الفطرة غالبية ، فهم الآن أول المقاتلين للأمم

جدون ذلك غرا سواء أكان ذلك أخذا للتأر أم ظلما لاجتياح الديار ولأخذ الدرهم والدينار ، فقال إن الأرض للذكورة قد أكلها الكلب أو الهرة أو الإنسان ، وفرق بين القتل وابتلاع الحيوان ، فقلت إننا معاشر بني آدم نقتل في السفن الحربية ونقع فريسة للسماك ونحن جميعا نعلم ذلك ونفتخر به ، وهكذا نقاتل في الطيارات فهلك فتخططنا الطير ومحل بنا الهلاك ، فقال نحن نحارب لشرفنا مثلا ونموت ، ولكن لماذا تكون هذه الخدعة في الحيوان ؟ فهذه الحشرات الجارية للهلاك بدخ النبات الجزار وأنواع الأرض التي خرجت للعرس فصارت فريسة ، كل هذه مخدوعات ، وأين الصدق إذن ؟ فقلت له ونحن أيضا مخدوعون ولنا بمعرضين على الخداع بل نعدده شرفا ؟ فإن أحدنا يأكل لصحة بدنه فيكون ذلك البدن طعاما للدود ، ومحارب المدو ليغنيه فيكون طعاما للسماك أو العقبان ، فهو في الأول قصد حياته ، وفي الثاني إنقاذ شرفه لأنه يكون طعمة للسماك ، وبنى الدور ونزرع النخل ويتمتع بذلك غيرنا بل أعداؤنا ، فقال وكيف يصح هذا الخداع ؟ قلت ليس خداعا بل تلطيف وحسن سياسة ، يعيش الحى مطمئنا ولا قلق لديه ولا اضطراب وقد تقدم في سورة الأنفال : تكثير القليل وتقليل الكثير للسياسة وإصلاح الحال ، فقال ولكن هذا لا يفيئني ، ولماذا يكون الإنسان فداء لغيره وهكذا الحيوان ؟ فقلت للوحدة العامة ، فالعالم كله كأنه شخص واحد والبعض يخدم البعض «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» وإذن تكون هذه الدنيا ليست للحياة وحدها فالحياة بنظام واللوت بنظام ، وموت الحى لتخلو الأرض للباقيين ولولا اللوت ما كانت الحياة ، فإذا أكل الدود لحم الإنسان وأكل الأسد لحم الفيلان وأكلنا نحن لحم الحرفان فإن ذلك لتنظف أرضنا به وتخلو لمن جدنا ليكثر الأحياء بفضل هلاك الأموات ، فاللوت مقصود والحياة مقصودة «كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» .

#### موازنة بين حياة وموت الحيوان ونظيرها في الإنسان

يموت الجراد بأكل الطيور والإنسان له فيحصل فأندان : خلو الأرض منه لما يخلفه ، وانتفاع الأحياء بجسمه لأنه لا معطل في الوجود ، أما التفاه الجيوش الإنسانية برا أو بحرا فهالك فوائدها :

- (١) تعليم الصبر والشجاعة .
- (٢) والصناعات الحربية كالطيارات والسفن المأتمة والفاطسة في الماء .
- (٣) وإحراز الشرف للأحياء .
- (٤) والمعطف من الشعب على الأموات في القتال وهذان في الأمم النابية .
- (٦٥٥) ومثل هذين في الأمم القلوية .
- (٨٥٧) وظهور الاتحاد في كلهما .
- (٩) وأن تكون الجثث في البحر وفي البر طعاما للسماك وللطيور التي خالقها الله .

هذا في القتال ، أما في حال الطاعون وأكثر الأمراض فإن الاقتصاد في طبيعة الوجود قضى أن ترسل جماعات من الحيوانات التدرية لها نظام خاص في الجسم فتأكل اللحم وتشرب الدم ، لأنه ليس من الحكمة أن يبني الحى جسمه بالأغذية الجيدة فإذا مات لم تكن له فائدة ، كلا ! بل يرسل تلك الآلاف للوثة فتكون طاعونا أو جدريا أو حمى تيفوسية أو تيفودا أو سرطانا أو ما أشبه ذلك فتتأمل وتتكاثر وترى في الأجسام كما تربت الأجسام في الأرض ثم يكون اللوت فتتولى تلك الرمم حيوانات أخرى أولها الدود وبعقبه غيره كالحنافس ونحوها وهكذا ، ذلك لتلا يكون في الوجود معطل ، إن هذا الوجود مبني على الاقتصاد .

ألا ترى أن اللسان يمضغ الطعام ويدوقه ويدبر نظام الكلام ، فهذه ثلاث فوائد في عضو واحد ظاهرة للناس ، فصانع هذا العالم عظيم الإحكام والنظام متقن حكيم ، كل ذلك من قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فما هو ذا قد أخذ بناصية الأحياء إذا صحت أجسامهم ، وأخذ بناصية الحيوانات القدرية العائشة في الأجسام التي يراد إهلاكها وهكذا ، فلما سمع صاحبي ذلك قال إذن الحرب أمر حتم لرقى الإنسان لأنك أتيت فيه بمجمل الفوائد التي تبلغ نحو العشر ، مع أنك تقول : إن السلام أمر لا بد منه في نوع الإنسان .

وأيا نرى البوذية يحرقون موتاهم ، فأين فائدة أجسامهم التي لم يأكلها دود ولا غيره ؟ قلت : أما الجواب على السؤال الثاني فهو أن هؤلاء تنفرت عناصر أجسامهم في الهواء والأرض فينتفع بها في الوجود فقال وهل هذه شريعة إسلامية ؟ قلت كلا ! ولكن نحن الآن في تبيان الحقائق التي نزل لها القرآن ولكن متى جاء ذكر الشرائع بيننا نحرّم ذلك ؟ فالحقائق مطلوبات والشرائع مصنوعات .

وإذا كنا نجد مسألة الولادة ليست على وتيرة واحدة ، إذ ترى الإنسان مثلاً قد عمت الولادة فيه جميع الأسرات في العالم ولكنها في النمل وفي الأرضة مثلاً قد اختصت بها الملكة ، فأما البقية فقد توافروا على خدمة المجموع وبذل كل ماله من قوة للجمهورية .

الإنسان لا يعرف اختصاص أحد بالولادة وإنتاج القدرية ولكن النحل عرف ذلك ، هكذا أمر الحياة فما من امرئ إلا وهو موقن أنه لا بد لكل حي من رأس أو جلد أو أعضاء ودم ، فكذب هذا تلك الحيوانات الدنيئة التي لا رموس لها والتي لا جلد لها كالحيوانات الهلامية والخسرات إذ لا جلد لها ولا عظم ولا دم وإنما هي لها قشور حلقيه داخلها سائل أبيض لا عظم فيه ولا دم ، وترى أمثال ذلك في الرزق فأكثر الحيوان يسمي إليه على مقتضى احتياجه ، وترى النبات الجزار التقدم تسمى إليه الخسرات لياكلها يجاذب يجذبها من تلك النباتات التي تأكل اللحوم ، فقال صاحبي لقد أحسنت كل الإحسان وأتيت بعم جم لم يكن في الحسبان ، ولكن أسألك سؤالاً واحداً وهو أنك تقول إن الأرضة تأكل ما خرج منها فأين هذا ؟ قلت ستره إن شاء الله عند الكلام عليها في سورة سبأ ، فأما إذا كان هذا غريباً عندك فلتعلم أنها في ذلك كالإنسان لأننا نأكل فضلاتنا وفضلات الحيوان بواسطة إذ نحن نسمد بها أرضنا فتقلب تلك الفضلات في زرعنا حبا وعنباً وتفاهاً وغيرها وترجع إلينا ، فنحن والأرضة سبان ولكن هي أكلت فضلاتنا مباشرة ونحن أكلناها بعد أن دخلت في مامل النبات فرجعت إلينا ، فقال صاحبي : فهدر العلم يقرب البعيد ويجمع للضرقات « وقل رب زدني علماً » والحمد لله رب العالمين .

ثم قلت : أما مسألة الحرب وأنها ترقى الإنسانية وأنتى ذكرت أن السلم أمر لا بد منه ، فلتعلم أننا الآن نصف ما وجدناه وبين حكمة الله فيه كما بينا فوائد اللسان الظاهرة الثلاث فليس معنى هذا أننا إذا متنا لا يكون هناك حكم في حال الروح ، كلا بل الحكمة هناك أجملاً وأعلى ولكننا لانقلها الآن ، وإذا وجدنا مملكة ( الأرضة ) للتقدمة وكان لأفرادها عقل وسألناهم فذكرت لنا فوائد البراز الذي يكون لأفرادهم أشهى طعام ثم هو ملاط لبنائها وسد لتنورها مع الرمل وطعام لسفارها ، ويقوم مقام الأسفلت في تحسين طرقها وهكذا من القوائد ، أقول فليس معنى هذا أنه ليس هناك نظام في الوجود أحسن من هذا ؟ كلا ! هكذا هنا فإن الأمم إذا غيرت أخلاقها وبطلت الحرب حصلت هناك حال جديدة أرقى وأرقى في نظام للدين والأخلاق مثال ذلك في الثاني أن تبدل عاطفة الانتقام من الأعداء الذي يورث الفضائل للتقدمة بفضائل

العطف مثلا على الضعفاء فيتحدث رجال أمة على ترقية وتحسين أمة جاهلة ويكونون بالنسبة لهم كآباء والأمهات بالنسبة لصغارهم ، وهناك تكون فضائل لاتمد كالفضائل التي تكون للأبوين بالنسبة لأبنائهما كالعطف والحنان وبذل النفس والمعاونة بالنفس وإنكار الثبات والصبر على هذه للشاق والآنحاد بين هؤلاء المحسنين وحبّ المحسن إليهم للحسنين وانحاد الأمتين وتبادل النافع ثم مقابلة الإحسان بالإحسان ونحو الأخلاق ، وهكذا مما لا حصر له فليس هذا الوجود له حد في تصرفاته وقابلياته .

محجبات القرآن ومحجبات الطبيعة التي نزل لفهمها القرآن

فهنا أذكر عجيبتين :

[ العجبية الأولى ] أن القرآن تراه يدخل في غضون الكلام ما هو حكمة بحيث يكون كزهرة في شجرة ويكون هو أعمّ القصود من الكلام وهذه الطريقة بينها هي التي درجت عليها الأمم في فكاهاتها ورواياتها للؤلؤة لاستيقاظ الشعوب ، فانظر إلى قوله تعالى « إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت الخ » فإنه ذكر الشمس والنجم والجبل والإبل والوحش والبحر والنفس والصحف والسماء والجحيم والجنة .

هذه ذكرها الله على هذا الترتيب ولكن أدخل في غضوننا كلمة واحدة حفظت نصف النوع الإنساني من الهلاك وهي « وإذا للوودة سثلت ، بأى ذنب قتلت » هذه هي الجملة التي أدخلها الله في وسط تلك العوالم المذكورة من أرضية وسماوية فما نطق بها حتى امتنع العرب عن قتل البنات بدفنهن الذي يسمى (وأدا) فانظر للتعليم والتربية ، يذكر المخلوقات والمعارف العامة ويدخل في وسطها جملة قضت على قتل النساء ، هكذا فعل في قصة هود وقومه هنا أدخل في غضوننا الأخذ بنواصي الدواب ، أفلا يكون هذا دافعا للمسلمين إلى دراسة علوم الحيوان بعد هذا البيان كما دفع آباءنا إلى حفظ البنات وعدم قتلهن بالوآد بجملة واحدة .

هذه هي سياسة القرآن ، ها هو ذا أتى بقصة عاد بسمها الماقل فيرى ما الذي سبقت له فيرى أجله علم الحيوان ، اللهم أنت النور المهدي فاهد للمدين إلى الرقي إنك أنت السميع العليم .

[ العجبية الثانية ] للمادة والكلام ، زيادة إيضاح

انظر إلى ما تقدم من تنوع الحيوان والنبات والإبداع وتأمل أحوال اللغات الشرقية والغربية ، ها أنت ذا رأيت المادة كيف تنوعت تنوعا يقلبها على سائر وجوهها كما وضعتها ، تقابلت المادة على وجوه تظهر كل ما كمن فيها ، فاعلم يقينا أن الله عز وجل علم أن أكثر الناس لا يدركون سرّ المادة التي يعيشون منها ، لذلك ألهمهم اللغات فنطقوا بها وتصرفوا فيها تصرفا هو عين التصرف في المادة .

إن المادة كما تكون هواء وماء وسماء وأرضا وصلبا ونحاسا وجواهر وحيوانا مختلفا أنواعه الخ ، هكذا اللغات العبرية عن ذلك كله يتصرف فيها الإنسان ، وهي التي تعبر عن كل ماسوّرتة المادة ولا يدرك تصرفها حق إدراكه إلا علماء الصرف والنحو والمعاني والبديع أولئك الذين يركبون الجمل المختلفة ويشتمون من المصادر أفعالا وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين والصفات للشبهات وأسماء التفضيل وأسماء الآلات وأسماء الزمان وأسماء للكان وهكذا تصرف للفردات ، فهكذا تصرف الجمل من اسمية وفعلية وشرطية وحالية وماضوية ومضارعية ومؤكدة وغير مؤكدة وهكذا مما لا حصر له .

تبارك الله خلق المادة وخلق اللغات وجعلها في التصريف كفرنسي رهان وذلك لحكمة الحكيم ، ذلك ليعلم الصغار في أول أمرهم أن اللغة لا تنف عند حد لأنهم إذ ذاك لا يقدرّون أن يحقوا تصرف المادة .

ولا جرم أن هذا يعدّ أذهانهم إلى إدراك تصرف المادة إذا كبروا . خلق الله علوم الصرف والنحو وغيرها لصغار العقول ولصغار العلماء في الأمم لتفتح أذهانهم لمعرفة جمال صنه وباهر إبداعه وبالغ حكمته

في تصرف هذه الكائنات ، وهل ترى أبدع وأجمل وأشرف وأبهى وأبهر مما رأيت في هذا اللقاه من  
جعل النبات لنا كقول للحبوان آكله ؟

أوليس هذا بينه هو ما يفعله عداء النحو إذ يعملون المفعول فاعلا والتفاعل مفعولا تدريبا للتلاميذ ،  
يقول الأستاذ للتلميذ : اجعل المفعول فاعلا في هذه الجملة مع التصرف فيها وهي ( يضر الإنسان الحجر  
والحجر والشاي والقهوة ودخان التبغ ) فيقول التلميذ هكذا : [ متى عقل الإنسان ترك الحجر  
والحجر الخ ] .

فها هو ذا التلميذ أتى بالجملة مع حفظ المعنى وجعل المفعول فاعلا ، وهكذا فعل الله في اللادة فجعل لنا كقول  
وهو النبات آكل للحبوان مع حفظ النظام ، بل الله جعل العلم فهذا فليفرح قراء هذا التفسير وليكونوا  
نورا وهدى للعالمين ، وأنا بذلك من اللوقين .

وحدة الوجود والإنسان عالم صغير

لعمري لا يعرف الناس معنى وحدة الوجود ولا أن الإنسان عالم صغير إلا بالتبحر في مثل ما ذكرناه لك  
فيها تقدم .

شمس هذا العقد الثمين

إن النحل والأرضة والحمل كلها تتقرب من ملكاتها وتربها أعمالها وترجع إليها ، وهكذا جمهور نوع  
الإنسان يفعل مع رؤسائه ولكن هناك في الإنسان طائفة هم فوق الجميع يعملون وينصبون وتكون لهم  
خلاوات مع ربهم في قلوبهم يعرضون عليه أعمالهم في بهجة الأنوار وبهاء الأسرار انتهى الكلام على قصة عاد ،  
فانشرح في الكلام على قصة نوح بتفسيرها اللفظي .

قال تعالى ( وإلى نوح ) أي وأرسلنا إلى نوح ، وهم سكان الحجر ( أخاه صالحا ) يعني في النسب لا في  
الدين ( قال يا قوم اعبدوا الله ) أي وحدوا الله وخصوه بالعبادة ( مالك من إله غيره ) فهو المستحق للعبادة  
لا هذه الأصنام ؛ ثم ذكر الدلائل العقلية على وحدانيته وكمال قدرته فقال ( هو أنشأكم من الأرض ) هو  
كوّنكم منها لا غيره فإنه خلق آدم وحواء وهو الذي خلق النطف والأغذية منها تتكون الأجسام وكلها من  
التراب ( واستعمركم فيها ) أي عمركم فيها واستبقاكم من العمر أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها ( فاستغفروا  
ثم توبوا إليه إن ربي قريب ) قريب الرحمة ( مجيب ) لداعيه ( قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا )  
لما نرى فيك من محابيل الرشد والساد فكننا نأمل أن تكون مستشارا أو سيدا عظيما ولكن هذا القول  
أبأسنا منك وانقطع رجاؤنا فيك ، إذ ذمت آلهتنا وخالفنا ديننا ( أتئذنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ) ومن ذا  
بخالف ما درج عليه الآباء ( وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه ) من التوحيد ( صري ) موقع في الرية ، من أراه  
( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ) بيان وبصيرة وأني بيان وهي للشك باعتبار المخاطبين ( وآتاني  
منه رحمة ) نبوة ( فمن ينصرتني من الله ) فمن يمنني من عذابه ( إن عصيته ) في تبليغ رسالته ومنع الناس  
من الشرك به ( فما تزيدوني غير تحسير ) فأنتم باستبعاكم إلي لا تزيدوني غير أن تحسروني بإبطال ما منحتني  
الله والتعرض لعذابه ( ويا قوم هذه ناقة الله لكم ) حال كونها آية ( وعاملها معنى الإشارة ولكم حال من آية  
مقدمة ) فذروها تأكل في أرض الله ( ترع نباتها وتشرب ماءها ) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب  
عاجل لا يتوانى عن مسك لها بالسوء إلا يسيرا وهو ثلاثة أيام ( فمقرها فقال تمتوا في داركم ) عيشوا في منازلكم  
أو في داركم الدنيا ( ثلاثة أيام ) ثم تهلكوا ( ذلك وعد غير مكذوب ) أي غير مكذوب فيه ( فلما جاء أمرنا  
نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ) أي ونجيناهم من ذلك يومئذ وفضيحتهم ، وأتى خزي

أعظم من حزي من كان هلاكه بضرب الله وانتقامه (إن ربك هو القوي) القادر على تنجية أوليائه (العزيز) القالب بإهلاك أعدائه (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أي صيحة أتهم من السماء فيها صوت كل ساعة وصوت كل شيء (فأصبحوا في ديارهم جائعين) صرعى هلكت (كان لم يفتنوا فيها) أي كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر ، يقال غيت بالمكان إذا أفتت به (ألا إن نوح كفروا ربهم ألا بعباد لنوح) أي الحمى .

واعلم أن هذه القصة جاءت في سورة الأعراف بأحسن تفسير على ما أعلم فارجع إليه إن شئت .

#### قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) بشرى للملائكة المختلف في عددهم ، قيل ثلاثة ، وقيل أكثر بإسحق ويعقوب وإهلاك قوم لوط (قالوا سلاما) سلمنا عليك سلاما (قال سلام) أي وعليكم سلام والجملة الاسمية في الرد أبلغ من الفعلية في الابتداء فافهم (فما لبث أن جاء بعجل حنيد) أي فما أبطأ في الهوى به ، والحنيد للشوى بالحجارة الحمضة (فدا رأى أيديهم) أي أيدي الأضياف (لاتصل إليه) أي العجل للشوى (نكرم) أي أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم عن الطعام (وأوجس منهم خيفة) ووقع في قلبه خوف منهم ، والإيجاس الإضمار ، وقيل الإدراك (قالوا) له لما أحسوا منه أثر الخوف (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) إنا ملائكة مرسلون إليهم بالعباد ، فأما كوننا لم نعد للطعام أيدينا فذلك أننا معانتر للملائكة لاناكل (وامرأته قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم ، أو على رأسهم للخدمة (فضحكت) سرورا بزوال الخيفة أو بهلاك أهل القساد (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) وإنما خصت بالبشارة لأنه أولا لم يكن لها ولد ، وإبراهيم ابنه إسماعيل ، ومعلوم أن النساء أعظم سرورا بالأولاد : أي فبشرناها بإسحق ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحق ، وعلى قراءة رفع يعقوب يكون مبتدأ والجار والمجرور قبله خبره (قالت يا ويلتا) أصله يا ويلتاه نداء للتدبئة ، وهي كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية ما يمتعجبه منه مثل يا عجبا (أأله وأنا عجوز) يقال إنها كانت بنت تسعين سنة (وهذا بعلي) يعني زوجي (شيخا) وكان سن إبراهيم مائة وعشرين سنة يومئذ كما قيل (إن هذا شيء عجب) يعني الولد من هرمين وهذا تعجب بحسب العادة (قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) قالوا ذلك منكرين عليها فإن خوارق العادات عند أهل بيت النبوة ليست يبدع فثلهم لا يستغربونه ، كأنه قيل إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم وأهل البيت نصب على الاختصاص (إنه حميد مجيد) أي محمود لإنعامه العظيم ظاهر الكرم إذ أكرمكم بولد صالح (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) الفزع وهو ما أوجس في نفسه من الخوف حين نكر أضيافه (وجاءته البشرى) بالولد أقبل (بمجادلنا في قوم لوط) أي لما اطمأن قلبه بعد الخوف وامتلا حورا بالبشرى أقبل بمجادلنا : أي بمجادل رسلنا ، وصورة مجادله إياهم أنهم قالوا له «إنا مهلكوا أهل هذه القرية» فقال أرايتم لو كان فيها خمسون مؤمنا أنها تكونها ؟ قالوا لا قال فأربعون ، قالوا لا قال فثلاثون ، قالوا لا حتى يبلغ العشرة قالوا لا ، قال أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أنها تكونها ؟ قالوا لا ! فعند ذلك «قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله» (إن إبراهيم لحليم) غير عجول في الانتقام ممن أساء إليه (أواه) كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع إلى الله ، وللتقصود من ذلك أن الحامل له على المجادة إنما هي رقة قلبه وحلمه ورحمته وجه للناس ، قالت للملائكة (يا إبراهيم أعرض عن هذا) الجدل (إنه قد جاء أمر ربك) قضاؤه بفسادهم من الله وهو أعلم بحالهم (وإنهم آتتهم عذاب غير مردود) غير مصروف بمجادل ولا بداهة ، ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحو قوم لوط ، وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط

أربعة فراسخ ( ولما جاءت رسلنا لوطا ) لما أتوه ورأى جمالم وهم كانوا على هيئة غلمان حسان ( سمى بهم )  
أحزن لأنه ظن أنهم من الناس يخاف عليهم أن يفحش بهم قومه مع عجزه عن مقاومتهم ( وضاق بهم ذرعا )  
تميز : أى وضاق بمكانهم صدره وذلك كناية عن شدة الاقتباس لمعجزه عن مدافعة للكروه للتوقع حصوله  
لهم من قومه بفعل الفاحشة ( وقال هذا يوم عصيب ) شديد ، من عصبه إذا شده ، ويقال إن امرأته أخبرت  
بهم قومها ( وجاءه قومه يهرعون إليه ) يسرعون كأنهم يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه ( ومن قبل )  
ومن قبل ذلك الوقت ( كانوا يعملون السيئات ) كانوا يعملون الفاحشة حتى مروا عليها وقتل عندهم استقباحها  
حتى جاءوا وهم مجاهرون بها يهرعون إليها ( قال يا قوم هؤلاء بناتي ) أى هؤلاء نساؤكم اللاتي هن بناتي ،  
فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والترية . وفي قراءة ابن مسعود « وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم »  
أو هؤلاء بنات قومي ( هن أظهر لكم ) أنظف فلما ( فأتقوا الله ) بترك الفواحش ( ولا تخزون ) ولا تهينون  
ولا تفضحون من الخزي ( في ضيقي ) في حق ضيوفي لأن من خزي ضيفه أو جاره فقد خزي ، وذلك من  
دوامي للروءة والكرم ( أليس منكم رجل رشيد ) أى رجل واحد يهتدى إلى سبيل الرشاد فيكف عن  
فعل السوء ( قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ) حاجة لأننا نودّ الاقتراب من الكور لا من الإناث  
( وإنك لتعلم ما نريد ) وهو إثبات الكور ( قال لو أن لى بكم قوة ) أى لو أنى أقدر أن أتقوى عليكم ( أو آوى  
إلى ركن شديد ) أى أو انضم إلى عشيرة ينعونى منكم ، وجوابه لقاتلتكم . قال أبو هريرة رضى الله عنه  
« ما بث الله نبيا بعده إلا في منعة من عشرته » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله لوطا لقد كان  
يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أنانى الداهى لأجته » فالمراد بالركن الشديد  
هو الله كما قال محي الدين النووي في الحديث فإنه أشد الأركان وأقواها . روى أنه أغلق بابه دون أضيافه  
وأخذ يجادلهم من وراء الباب فقتلوا الجدار ، فلما رأته اللامكة ماحل بلوط من الكرب ( قالوا بالوط )  
ركنتك شديد كما مر في الحديث ( إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ) بمكروه فاتتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح  
الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم  
فأعماهم كما قال تعالى « فطمسنا أعينهم » فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا به وهم يقولون النجاء النجاء ،  
إن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض ، وقوله « لن يصلوا إليك » جملة ، وضحة لما قبلها ( فأسر بأهلك )  
فسر بأهلك ، ويقال أدج بهم ( بقطع من الليل ) في بعض من الليل : أى آخر الليل عند السحر ( ولا يلتفت  
منكم ) ولا يتخلف منكم ، أو لا يلتفت إلى ما وراءه ، أو لا يلتفت بقلبه إلى ما خلف ( أحد إلا امرأتك )  
منسوب على الاستثناء أو مرفوع على البدل من أحد ، فكأنه قيل لا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك فإني  
لا أنهاها عن ذلك ( إنه مصيها ما أصابهم ) أو لا يلتفت منكم إلى ما وراءه أحد إلا امرأتك فإني استلفت فإني  
لا أنهاها « إنه مصيها الخ » والنهي لها لا يفيد .

روى « أنه أخرجهما معهم وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلاهى ، فداست هرة العذاب التفتت وقالت يا قوماه  
فأدركما حجر قتلها » .

وروى أيضا « أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإن هواها إليهم فلم يسر بها » فأصبحت هاتان الروائيتان  
محتملتين : فإما أن تكون بقيت ، وإما أن تكون خرجت والتفتت ، فإحدى الروائيتين عليها للنهي  
ولا زال مبهما .

هذا تحقيق للقام وإياك أن تظن أن مثل هذا التحقيق هو للتصود من القرآن ، بل للتصود هو ما في  
القصة من الحكم ، فلنسر في طريقنا ، ولنجد في هذه السورة من الحكم والمجانب ما يبهر الأبصار قريبا .

وروي أنه قال لهم متى موعد هلاكهم قالوا ( إن موعدهم الصبح ) فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا  
 ( أليس الصبح قريب . فلما جاء أمرنا ) عذابنا ( جعلنا عاليها سافلها ) قلبها جبريل يحمل أسفلها أعلاها  
 إذ رضعها إلى السماء ثم قلبها عليهم ( وأمطرنا عليهم ) على المدن ( حجارة من سجيل ) من طين متحجر .  
 وسجيل أصلها سنككل فرب ( منضود ) نمت لسجيل : أي متتابع ، أو مجموع معد للعذاب ( مسومة )  
 نمت لحجارة : أي مملدة للعذاب ( عند ربك ) في خزائنه أو في حكمه ( وما هي من الظالمين بعباد ) أي وما هي  
 من ظلمي هذه الأمة من مشركي مكة وغيرهم « بعباد » فما من ظالم إلا وهو معرض للعذاب للعبر عنه  
 بسقوط حجر عليه .

روي « أنه عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عليه السلام فقال يعني ظلمي أمتك مامن ظالم منهم إلا وهو  
 معرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة » ( وإلى مدین ) أي وأرسلنا إلى مدین ( أخاهم شعبيا ) ومدین اسم مدينة  
 بناها مدین بن إبراهيم عليه السلام : أي وأرسلنا إلى أهل مدین . وقيل مدین اسم للقبيلة التي هي من ذرية  
 مدین بن إبراهيم ( قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ) وحدوا الله ولا تعبدوا معه غيره ، ولما شرح  
 أمر العبادة شرع يذكرهم بما يفعلون من نقص الكيل واليزان فقال ( ولا تنقصوا للكيل واليزان إنى أراكم  
 بخير ) بسمه تنزيهكم عن البخس ، أو بنعمة من الله حقها أن تقابل بخير ما تفعلون ( وبإني أخاف عليكم عذاب يوم  
 محيط ) مهلك كما في قوله تعالى « وأحيط بشمره » وأصله من إحاطة العدو ، وهو إما عذاب الاستئصال  
 في الدنيا ، وإما عذاب الآخرة ( ويا قوم أوفوا للكيل واليزان ) أتموها ( بالقسط ) بالعدل ، والتي المتقدم  
 لتقبيح البخس والتنفير منه ، والأمر هنا للترغيب في الفعل الحسن وهو إيفاء الكيل واليزان فهناك للتنفير  
 من الشر وهنا للترغيب في الخير ، وهما معا يعتدل الناس ويتم الوعظ فليكن القسط والعدل بلا نقص ولا زيادة  
 فالازدياد وإن كان مندوبا قد يكون محرما إذا كان كيلا أو وزنا ليقم أو في مال الحكومات أو كان البائع  
 وكيلا ، فكل ذلك تكون الزيادة فيه حراما فوجب العدل ( ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) أموالهم وغيرها  
 سواء أكان بكيل أم بوزن أم بزراع أم بمساحة أم بتقدير فضل في أعمال عامة كالنظر في رجال الحكومة  
 وتقدير قيمهم وأحوالهم وكفالاتهم وما أشبه ذلك مما لا يمدد الحصر ( ولا تمثوا في الأرض مفسدين ) التي  
 والبيت : أشد الفساد كالسرقة والفاقة وقطع السبيل وبشمل البخس والتطفيف ، فإنه عني في الأرض وإفساد  
 فيها ، ومن العني للكس ( بقيت الله ) أي ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم ( خير لكم )  
 مما يجمعون بالتطفيف وبالبخس ( إن كنتم مؤمنين ) أي إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم ، ويصح أن  
 تكون البقية الطاعة فيما ذكر وغيره لقوله تعالى « والباقيات الصالحات » ( وما أنا عليكم بحفيظ ) أحفظكم  
 عن القبائح وأحفظ نعم الله عليكم ، وما أنا إلا ناصح أمين وقد أعذرت حين أذرت ( قالوا يا شعب أسلاتك )  
 أي كثرة صلاتك ( تأمرك أن ترك ما يعبد آباؤنا ) من الأصنام ( أو أن تفعل ) أو ألا تفعل ( في أموالنا  
 ما نشاء ) من البخس في الكيل والوزن ( إنك لأنك الحليم الرشيد ) السفيه الضال ، وهذه تسمية مقلوقة  
 استهزاء به كقوله « ذق إنك أنت العزيز الكريم » وهذا رد لما طلبه من عبادة الله وحده ومن العدل  
 في الكيل واليزان ( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه ) من لذه ( رزقا حسنا ) وهي  
 النبوة والرسالة والمال الحلال بلا بخس ولا تطفيف ، يقول أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة من ربي  
 وكنت نبيا على الحقيقة أليق بي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي ، وهل يث الأبياء  
 إلا لذلك ! ولست أمتكم عن تطفيف الكيل وبخسه وعن بخس الناس أشياءهم وأنا أستبد بذلك ، كلا !  
 ( وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ) يقال خالفت زيدا إلى كذا إذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عنه



إذا وليت عنه وهو قاصده ( إن أريد إلا الإصلاح ) ما أريد إلا أن أصالحكم بموعظتي ونصيحتي وأمرى  
 بالمعروف ونهي عن المنكر ( ما استطعت ) أي مدة استطاعت للإصلاح وما دمت متمكنا منه ( وما توفيق  
 إلا بالله ) وما توفيق لإصابة الحق فيها أفضل وما أترك إلا بعموته ( عليه توكلت ) اعتمدت ( وإليه أئيب )  
 أرجع في السراء والضراء ، ثم اعلم أن جرم مثل كسب يتعدى إلى مفعول وإلى مفعولين كما في قوله تعالى  
 ( ويقوم لا يجرمكم ) لا يكسبكم ( شقائي ) خلافي ( أن يصيبكم ) إصابة العذاب ( مثل ما أصاب قوم نوح )  
 من الفرق ( أو قوم هود ) من الریح ( أو قوم صالح ) من الرجفة ، وأن وصلتنا ثانی ، فمولى جرم ( وما قوم  
 لوط منكم بعيد ) في الزمان ، فهم أقرب المالكين منكم ، وفي المكان فنارهم قريبة منكم ( واستغفروا ربكم  
 ثم توبوا إليه إن ربی رحیم ودود ) عظیم الرحمة فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل الكثير للوذة بمن  
 يودّه ، وذلك وعد من الله أن يقبل التوبة بعد وعيده للذنبين على إصرارهم على العاصي ( قالوا يا شيب ما فعله  
 كثيرا مما تقول ) استهانة بها وعدم مبالاة ( وإنا لتركنا ضيفا ) لا قوة لك ولا عزّ فباينا ، فكيف  
 تقدر على الامتناع منا ؟ ( ولولا رهطك لرجمناك ) ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم ، وأى قتل شرّ من الرجم ؟  
 وكان رهطه على دينهم ، فذلك أظهروا الليل إليهم ( وما أنت علينا بعزير ) فعدم قتلك لم يكن لعزرك علينا  
 وإنما يمز علينا رهطك ( قال ) في جوابهم ( يا قوم أرهطى أعزّ عليكم من الله ) أي أهيب عندكم من الله حتى  
 تركتم قتلى لعزّة رهطى عندكم ؟ فكيف لم يكن حفظى لأجل الله لا رهطى فكيف تركتم أمره ( واتخذتموه  
 وراءكم ظهريا ) أي نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كأنه شيء ملقى ( إن ربى بما تعملون محيط ) أي  
 عالم بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية منها فيجزئكم عليها ( ويقوم أعمالوا على مكاتكم ) أي أعمالوا قارّين على  
 جهنم التي أنتم عليها من الشرك والشأن لى وهي مصدر مكن مكانة فهو مكنين إذا تمكن من الشيء ( إنى  
 عامل ) على مقتضى ما يأتينى الله من النصرة والتأييد ويمكننى ( سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ) من  
 استفهامية عاقت فعل العلم عن عمله : أي سوف تعلمون أين يأتيه عذاب يفضحه وأين هو كاذب ، وهذا هو  
 قوله ( ومن هو كاذب ) عطف على « من يأتيه » أي سوف تعلمون من اللعذب والكاذب منى ومنكم ، وكان  
 مقتضى الظاهر أن يقال ومن هو صادق إنصرف الأول لهم والثاني له لكنهم لما جعلوه كاذبا قال « ومن هو كاذب »  
 أي في زعمهم ( وارتمبوا ) وانتظروا ما أقول لكم ( إنى معكم رقيب ) منتظر ، والرقيب الراقب ( ولما جاء  
 أمرنا ) بمنابهم وهلاكهم ( نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ) يعنى فضل منا لأننا هديناهم للإيمان  
 وجعلناهم مطيعين ( وأخذت الذين ظلموا ) أي ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس ( الصيحة ) إذ صاح جبريل  
 عليه السلام بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعا ، أو أنهم صيحة واحدة من السماء ( فأصبحوا في دارهم  
 جاثمين ) أي ميتين ، يقال جثم الطير إذا قعد ولطأ بالأرض فهو هنا استعارة ( كأن لم يمتوا فيها ) يعنى كأن  
 لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر ، من غنى بالمكان إذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره ( ألا بعدا لمدن ) البعد  
 والبعد : الهلاك كالرشد والرشد ( كما بعدت عمود ) قوم صالح ، وكان عذاب قوم شعيب بالصيحة من فوق رؤسهم  
 وعذاب قوم صالح بالصيحة من تحت أرجلهم إذ أصابهم حر شديد .

قال ابن عباس « لم تعذب أمتان قط بذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح ، فأما قوم صالح فأخذتهم  
 الصيحة من تحتهم ، وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم » ( ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ) بهجبتنا  
 والبراهين التي أعطيناه الدالة على صدق نبوته ( وسلطان مبين ) ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه ( إلى فرعون  
 وملكه ) أي أتباعه وأشرف قومه ( فاتبعوا أمر فرعون ) أي ما هو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاء به  
 موسى ( وما أمر فرعون برشيد ) أي وما طريق فرعون بسديد ولا محمود العاقبة ( يقدم قومه ) يقضم

ويتمد قومه (يوم القيامة) إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال ، يقال قدم بمعنى تقدم ( فأوردتم النار) جعل بسيفه للماضي كقوله تعالى « أنى أمر الله » وجعل النار بمنزلة الماء فسمى إتيانها ورودا ثم قال ( وبئس الورد ) للورد ( اللورود ) الذى وردوه فجعل فرعون كالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة ثم قال « بئس الورد للورود » الذى يردونه النار وكيف لا يكون كذلك ، والورد إنما يراد لتسكين العاشق ، والنار بضد ذلك ( وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ) أى يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة ( بئس الرفد للرفود ) رقدتم : أى بئس العون للعان ، أو بئس العطاء للعطى ، انتهى التفسير اللفظى ،

ياقوتة مضيئة في قوله تعالى « إن ربي رحيم ودود » على لسان شبيب عليه السلام

اعلم أن للوذة إنما تكون ظاهرا بين اثنين لهما علاقة وانصال وتجانس وتشابه في الطباع والمعادن والأخلاق ، ولذلك ترى للتشاكين في صناعة أو علم أو لمة أو وطن أو دين أو جنس أو أمر ما فإنيهما يتوادان ويتحابان وذلك لاقتراب الصفات ، وكما تباعدت الصفات تباعد الود ، ولذلك نجد الأمم اليوم في عصرنا رجعت إلى الجنسية ؛ فالألمان والفرنسيون واليابانيون والصينيون كل يقرب من جنسه بما أن كانوا قديما يتوادون بالديانات ، وهذا كله قديما وحديثا دال على أن اللوذة تابعة لقتراب الصفات .

هذا هو العلوم في الأمم قديما وحديثا ولكن الله تعالى إذا وصف نفسه بأنه رحيم فإنما يفهم ذلك على معنى أنه مفيض الإحسان وهذا أمر مفهوم فلما نرى للملك والأب والأم وأمثالهم يفيضون الإحسان على الرعية والولد وهكذا ، فالأبوى يرحم الأذى ولا غرابة في ذلك ، فانه رحيم ، أما الود فأمره مشكل إذ اللوذة إنما تكون بين المتجانسين ، وقال في سورة مريم « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » فذكر الرحمة هناك كما ذكرها هنا وأتبعها بالود ، ولكن الود هناك مفهوم لأنه بين متجانسين في الدين إذ الإنسان كلما عمل الصالحات اقترب من أهل دينه للتجانس ، أما الود هنا فهو الذى يحتاج إلى بيان .

أقول : إن هذا يحتاج لدرس العلوم جميعها من فلك وطبيعة وطبقات أرضية وعلم الحيوان والنبات والتشريح ، هذه هي العلوم التى تعرفنا معنى الود في هذا المقام .

إن هذا التفسير فيه نبد كثيرة من هذه العلوم ، والتكى إذا قرأها أصبح عنده مجموعة سهلة فيها خلاصة العلوم ، هذه الخلاصة هي التى تفهمنا معنى الود : أى ود الله للخلوقات .

انظر إلى السمك وإلى النحل وإلى الجراد وإلى الدود وإلى النعامة وإلى الدجاجة وإلى النبات والأزهار وإلى الإنسان ، فسترى في سورة النحل كيف ترى أن لها قرى ومساكن وجيوشا منظمة وأطارا جمع ظفر وحجرا على مقدار أسنان الأطفال كما يفعل الناس .

إن خالق العالم لما خلق النحل أعطاهما من القوى والقدر والعلم على مقدار ما يناسبها ، فكما يقول الحبيب لحبيبه أما أقدم لك هدية من الفاكهة التى تحبها فيزيد ذلك في اللوذة لعلم كل من الحليلين بما في جيلة الآخر من لااشرة ، هكذا هنا أعطى الله النحل جيوشا منها على مقدار طاقتها وألهمها أن تتبع مسكنها وتنظم الحبيبات وتربي الذرية كل منها في حجرة خاصة كأنها مدارس ، فجعل مدارسها على مقدار حاجاتها ولم يحملها ما لا تنطبق من مدارس الإنسان وحيوشه وأساطيله ولم يحشمها مشاق السفن والأساطيل البرية والبحرية ، وهكذا سترى في سورة النحل ما أعطاهما الله من قوت وما أفاء عليها مما يلائم حاجاتها .

الآن ترى إلى ما سياتى في سورة الحجر عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » من جمان تزهو وبهجت وكيف لوئت الأزهار بألوان جميلة ليمشق النحل ذلك الجمال فيطير سريعا ليشرب من الرحيق المختوم في أسفل الزهرات ثم يطير إلى أخرى وقد حمل على جسمه غبار الطلع فوضعه في الزهرات التى فيها أعضاء

الإناث وألم النحل أن لا يدخل ويخرج من زهرة إلى زهرة إلا إذا كانا من نوع واحد ليسهل الأمر عليه فلا يصادف عناء في معالجة فتح الزهرات في ذلك اليوم ، ومعنى هذا أن النحل أعطى ما يوائى مزاجه من العسل ومن أنواع الزهر ومن نظام الزهرات ليسهل عليه ، ومن الإلهام أن لا يدخل زهرة غير التي هي من جنس مادخلها أولاً ، ذلك ليكون متمتعاً بالنعمة والسعادة ويكون ذلك أسون لطلع الذكور من ذلك النوع من الزهر ليوضع على الأنث منه ليدوم النبات كل سنة بالإلقاح رحمة بالتمل أيضاً .

أليس الرجل يقول لابنه إني سأعطيك ثياباً فاخرة وهدايا إذا نجحت في كذا وكذا ؟ ويقول التلميذ لصاحبه أنا قرأت كتاب كذا وهو أسهل فأقرأه ، كل ذلك للشاكلة والقاربة .

إن المودة تقتضى أن يتلطف الودود لصاحبه بما يلائم طباعه لأنه عرفها بكنة المخالطة ، وترى الجراد ألم أن لا يدخر وأن يضع بيضه في أرض صالحة له على بعد مخصوص من سطحها بحيث تصلح الأرض لأن تكون له كالرحم لتحتفظه إلى وقت معلوم ، وإنما ألم أن لا يدخر لأنه هو وأمثاله من القباب والناموس التي ألهمت ألا تدخر لانهيش إلى عام قابل ، فان البرد والحرب يتعاقبان عليها فهلك فإذن صيها للادخار عبت ، فذلك لم تلهم الادخار .

أما النحل والنمل فإنهما يعيشان سنين ، فإذا جاء الشتاء نامت ولكن لا تموت كما يموت الجراد والناموس ، لذلك ألم هذان النوعان الادخار وأزل الله سورتين باسمهما سورة النمل وسورة النحل تنبها على الفرق بينهما وبين غيرها من الحشرات ، ويقول الله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل » الخ وهذا الوحي للنحل وللنمل ولنيرهما وحى بما يلائم كما يفعل الصديق الودود بصديقه .

وترى السمود لا حاسة له إلا حاسة اللمس ، فلا سمع ولا بصر ولا ذوق للطعام ولا شم ، وإنما حاسة اللمس له هي القائمة بتدبيره بل هي وزارة المعارف العامة للودود بها تمتص ما حولها من الرطوبات وتسبح في بطن البقرة والأسد والإنسان وفي لب الثمر وفي دود اللش وهي فرحة سعيدة بما يناسب مزاجها ، وكان الله بوده لها منع عنها ما يزعجها مما لا يحتاج إليه ، فالسمع والبصر والشم والذوق والقوة العاقلة والدارس كل هذه صيها ثقيل عليها ، فلو أعطيت ذلك لكان لا فائدة منه بل يضرها ولا تعيش به .

وترى النعامة في العراء تقسم بيضها ثلاثة أقسام : فتخصن بعضاً ، وتجعل بعضاً قوتاً لتربيتها ، وبعضاً آخر تعرضه للحشرات فتقع عليه فتطممه لتربيتها إذا قويت على أكل تلك الحشرات .  
وترى الدجاجة لم يساعدها الديك في تربية أولادها لما أعطيت الأفراخ من قوة الريش والعدو السريع ، وعكس ذلك الحمام .

وترى أمر النبات كله عجباً ، ويقول المحققون إن له نوعاً من الإحساس والشعور على مقدار طاقته ، وتراه في أثناء هذا التفسير في مواضع منه ولقد نال لطفاً من الله .

ألا ترى إلى ما استقرؤه في سورة الحجر من الزهر وكيف تنوعت أشكاله تنوعاً بديعاً ولكل نوع منها حشرات خاصة تمام إذا أغمض الزهر أجفانه وتستيقظ إذا فتحت الأكام وضحكت الأزهار ، وهناك تأتي الحشرة وهي تنض فرحات برائس الزهرات ذات الحلل الهندسية والزواضع المطرية والولائم العسلية والهامس والبذائع الهندسية في الأوراق والأزهار ونظامها ، هكذا تراه يفعل مع الإنسان في نظام جسمه وحسب تركيبه وفي إلهام الضلال ، فكما يلهم النحلة عملها تراه ألم الناس فصنعوا ما يلائمهم من جري السفن في البحار والقطرات في البر بالبخار بالكهرباء وألهمهم أن يقطعوا البحار لطلب الرزق والحرب ويجوبوا القبايل وينصوا على الهدى والرجان في البحر ويحجروا في الجبال وغيرها فيستخرجوا المعادن .

أعطى الله الهدوء رطوبات ، والنحلة زهرا وعسلا ، والإنسان معادن وكهرباء ، وألم كلاً من هذه  
المخلوقات ما استمدت له .

هذا هو ودّ الله لمخلوقاته « وهو معكم أينما كنتم » فكما أن الصديق مع صديقه يحرف مابلائمه ، هكذا  
نرى مانع الكون لكونه مع كل مخلوق أعطاه مابلائم طبعه وأبعد عنه مابلائمه ، ولذلك نراه لما علم أن  
عقولنا قاصرة لأننا في العالم الأرضي الضعيف حجب عنا معرفة العوالم التي تسكن في الريح أو للشرى مثلا  
وهكذا التي تسكن الكواكب الكبيرة الثابتة .

علم ذلك من طباعنا لأننا لو عرفناها واطلعنا عليها لتهلنا من ذلك الجمال ولندعشت عقولنا ولا نهرنا ،  
لفننا عن ذلك كما منع الدود أن يحرف السمع والبصر وإلا لم يطق ذلك « ولا تقف ما ليس لك به علم » .  
فأله ودود ومن ودّه ما ذكرناه ، واعلم أن كل من قلده الله في الودّ كان أقرب إليه ، فكما كان  
الإنسان أكثر تقربا كان أكثر للناس ودّا .

إن الأم والأب بتريتهما لولدهما قد ودّا ولدهما ودّا شريفا لأنهما قد جاوزا سنه فهما أعلى منه وقد تنزلا  
إليه وتلطفا ، فهما بهذا قد ارتقيا إلى نحو الود الإلهي ، هكذا السماء والحسكاه ولؤلؤفون يتنزلون لعقول  
الشعب وعلى مقدار تنزلم يقتربون من ربهم .

إن الإنسان على مقدار منفعة وعموم فضله للناس يكون قد اقترب من الود الإلهي ، وعلى مقدار انصافه  
بهذه اللودة العامة يقترب من ربه كما أن الأب والأم اقتربا من ربهما على مقدار ماعدا ولدهما ، هكذا  
سائر الصالحين .

إن الرحمة والودّ مقرونان في قرن ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات سيحصل لهم الرحمن ودّا على مقدار  
ما قاموا به للنافع العامة ؛ فالرحمة هنا تساعد على الودّ لأن الودود يعطى من يودّه ما يناسبه ، وهذه للناسية  
تنتفيها الرحمة ولكن الرحمة أعمّ ، فكما نكون مع الودّ تكون مع العذاب ، فكما من عذاب في التعليم  
والحرب والضرّ كانت نتيجة العزّ والرقى كما قال ( أرسطاطاليس ) في كتابه إلى إسكندر المقدوني تليذه :  
[ إن الأئمة إذا أرغى لها الضمان والترف أهلكتها البطنة ، والناس لا يهتمون الراحة ولكنهم يهتمون  
للشقات في الحرب وغيره ، فهم في حربهم نشطون فرحون ، وفي أمنهم ودعهم أشرون بطرون  
ثم يهلكون ] .

إذا فهمت هذا عرفت بعض سرّ قوله تعالى في سورة مريم « بأبّيت إلى أخاف أن يمسك عذاب من  
الرحمن » فإن اقتران العذاب بالرحمة هناك راجع إلى ما ذكرنا .

فالأئمة للذبة بالحرب والضرّ وكثرة الأعداء تكون مستيقظة نشطة كما قاله علماء الألمان قبيل الحرب  
الكبرى : [ إذا أردت رقى أئمة فأوقد لها نار حرب فإنها تستيقظ من سباتها ] وقال تعالى فيها « إن الذين  
آمنوا وعملوا الصالحات سيحصل لهم الرحمن ودّا » فالرحمة جاءت مع العذاب كما علمت وجاءت مع الود ، إذن  
الرحمة طامة والودّ فرع من فروعها ، وهما شبيب عليه السلام يقول « إن ربي رحيم ودود » ومن ودّه أنه  
المنص أن أعلمكم الدين لأرقبكم وعلى مقدار مودة الأنبياء والحسكاه والعلماء بالتعاليم يكون قربهم من ربهم  
وشرفهم ، انتهى القسم الثالث .

### (القسم الرابع)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقَّصْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . وَآ ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا

انفسهم فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء امر ربك  
 وما زادوهم غير تنبيي • وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليه  
 شديدا • ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم تجموع له الناس وذلك  
 يوم مشهود • وما تؤخره الا لاجل معدود • يوم يأت لاتكلم نفس الا باذنه فبينهم  
 شقي وسعيد • فاما الذين شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق • خالدين فيها ما دامت  
 السموات والأرض الا ماشاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد • واما الذين سجدوا في  
 الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ماشاء ربك عطاء غير محدود • فلا تك  
 في مزية مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم  
 غير منقوص • ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك  
 لقضى بينهم وانهم اتى شك منه مريب • وان كلاً لما ليوفينهم ربك انما لهم انه  
 بما يعملون خبير • فاستقيم كما امرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير •  
 ولا تركزوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون •  
 واقم الصلاة طر في النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى  
 للذاكرين • واصبر فان الله لا يضيع اجر الْمُصْبِرِينَ • فلو لا كان من القرون من  
 قبلكم اولوا بقة ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع  
 الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين • وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها  
 مصلحون • ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين • الا من رحم  
 ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لا تملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين • وكلاً  
 نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى  
 للمؤمنين • وقل للذين لا يؤمنون اعلموا على بركاتكم انا عاملون • وانتظروا انا منتظرون •  
 والله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك  
 بفاقر عما تعملون .

## التفسير اللفظي

قال تعالى (ذلك) النبا مبتدأ خبره (من أبناء القرى نعمة عليك) خبر بعد خبر (منها) من القرى (قام وحصيد) أي بعضها باق وبعضها عانى الأثر كالزرع القائم على ساق والذي حصد، وهذه الجملة مستأنفة (وما ظلمناهم) يهلكنا إياهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بارتكاب ما به أهلكتهم، وذلك لما جبلت نفوسهم عليه من النقص الذي هو نتائج أسباب خافية وظاهرة في هذا العالم الذي فطر على الخير والشر، ولكن الشر جاء عرضاً ولا يترك الخير الكثير للشر القليل ككفر هؤلاء فلا بد من نفاذ أمرنا لأن تلك هي حقائق الوجود الثابتة التي تعلق علنا بها، فهكنا علنا وهكنا خلقنا وهكنا ربنا ونظمتنا مخلوقات (فما أغنت عنهم) لما تقهتهم ولا دفعت عنهم (آلهمم التي يدعون) يعبدون (من دون الله من شئ) لما جاء أمر ربك (عذابه) ولما منصوب بما أغنت (وما زادهم غير تزيين) تحسير، يقال تب إذا خسرت، وتبيته غيره أوقفه في الخسران: أي مادفت عنهم عبادة غير الله شيئاً بل أهلكتهم (وكذلك) أي ومثل ذلك الأخذ ومحل الكاف الرفع (أخذ ربك إذا أخذ القرى) أي أهلها (وهي ظالمة) حال من القرى (إن أخذته أليم شديد) مؤلم صعب على للأخذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرهم فليبادر الظالمون بالتوبة ولا يترحم الإسهال (إن في ذلك) فيما قصه من قصص الأمم الهالكة في هذه وفي غيرها من السور (آية) لبره (لمن خاف عذاب الآخرة) أي اعتقد صحة وجوده، فأما من يرى أن العالم لا فاعل له وإنما هي ذرات تتكون وتتحل فلا يقول بحساب ولا عقاب فليس لهذا عبرة عنده (ذلك) أي يوم القيامة (يوم مجموع له الناس) أي يجمع له الناس لاجتماع الناس لا ينفكون عنه (وذلك يوم مشهود) أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين وقد اتسع فيه بإجراء الظرف مجرى للفعول به، وليس المقصود أن اليوم مشهود في نفسه وإلا لبطل الغرض من تعظيم اليوم بتمييزه فإن سائر الأيام مشهودة (وما تؤخره) أي اليوم (إلا لأجل معدود) الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى متنها (يوم يأتي) يحذف الياء ويأتانها «يأتي» والحذف في مثل هذا كثير في لغة هذيل ونظيره قوله «ذلك ما كنا نبغ» والفاعل ضمير يرجع إلى قوله «يوم مجموع له الناس» (لا تنكلم) (فمنس إلا بإذنه) أي لا يشفع أحد إلا بإذن الله «من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه» (فمنهم) أي من أهل اللوقوف وهم الناس للذكورون في قوله «مجموع له الناس» (شقي وسعيد) فمنهم معذب ومنهم منعم (فأما الذين شقوا في النار لهم فيها زفير) هو أول نهيق الحمار (وشهيق) هو آخره، أوهما إخراج النفس وردة والجملة حال والفاعل هو الاستقرار للقدر في النار (خالدين فيها) حال مقدرة (مادامت السموات والأرض) أي مدة دوام السموات والأرض وذلك للتأييد ونفي الاقتران كما تقول العرب [ملاح كوكب] وللقصود التأيد (إلا ما شاء ربك) هو استثناء من الخلود في عذاب النار، فإن أهل النار يخرجون من النار إلى الزمهرير وأنواع من العذاب غير النار، وكذلك أهل الجنة يصلون بمجناب القدس ورضوان الله وهذا أعلى من الجنة، أو ما شاء بمعنى من شاء وهم قوم يقال لهم الجهنميون يخرجون من النار ويدخلون الجنة فهم مستنون من أهل الجنة أيضاً لمقارقتهم إياها بكونهم في النار أياماً، فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأيد ولا سعدوا سعادة من لم تمسه النار، هكذا روى عن ابن عباس والضحاك وقناة وهؤلاء هم فساق اللوحدين، وقيل إن «إلا» هنا بمعنى سوى والضمير سوى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض فالاستثناء راجع إما:

(١) لنوع العذاب كما يرجع لنوع النعيم فيما سبأني، فالمقصود أنهم يتقلون من عذاب إلى عذاب كما أن أهل الجنة يتقلون من نعيم إلى نعيم.

- (٢) أو نفس المذنبين فمنهم من لا يخلد في أحدهما كأهل المعاصي للوحدين .  
 (٣) أو للذة التي تزيد على زمن السموات والأرض التي نشاهدها وتكون « إلا » بمعنى غير .  
 (٤) وهناك وجه رابع وهو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ فليسوا في جهنم ماداموا فيها والاستثناء إذن من أصل الحكم .  
 (٥) وقيل الزفير والشهيق هما القيذان بتلك المشيئة لا الخلود ، فالزفير والشهيق دائمان إلا في أوقات يجلها الله .

ثم قال تعالى (إن ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض لأنه بناء على الحكمة العامة في العالم وليس للناس ما يؤهلهم للوقوف على تلك الحقائق كاملة ( وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ) وقد تقدم أنهم قوم موحدون عاصون لا يدخلون الجنة إلا بعد العذاب إذا كانت « ما » بمعنى من ، أو أنهم ينالون ما هو أعظم من الجنة وهو رؤية الله تعالى ورضوانه ( عطاء غير مجزؤ ) غير مقطوع فهذا الثواب لا ينقطع ( فلانك في مرة مما يبعد هؤلاء ) أي فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وأنهم آيلون إلى الهلاك ، وأن الأنبياء ومن تبعهم ناجون في الدنيا والآخرة وهذا عدة بالانتقام منهم ووعيد لهم وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل من سار على قدمه من المؤمنين وأن الله ناصرهم وناصرهم وخازل أعدائهم وأعدائهم كما جربناه في هذه الحياة مرارا ، وهم ما يبعدون إلا كما عبد آباؤهم من قبل وقد قصصنا عليك ما نزل بآبائهم فيلحقهم مثله فإن للشابية في الأبواب تستدعي المشابيه في اللبسات ، وقوله « كما يبعد آباؤهم » أي كما كان يبعد آباؤهم وهذا قوله تعالى ( ما يبعدون إلا كما يبعد ) إلى قوله ( وإنما وفؤوم نصيبهم ) من العذاب ( غير متقوص ) حال من التصيب لتقييد التوفية دفعا لما يحتمل أن التوفية تكون لبعض مجازا ( ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ) فآمن قوم به وكفر قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن ( ولولا كلمة سبقت من ربك ) أي كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ( لفضى بينهم ) بين قوم موسى وقومك بالمداب المستأصل ( وإنهم ) وإن كفار قومك ( لفي شك منه ) من القرآن ( مرئيب ) موقع للريبة ( وإن كلا ) وإن كل المختلفين للمؤمنين منهم والكافرين ( لما ) إلا والله ( ليوفينهم ربك أعمالهم ) وقرى « لما » بالتخفيف ، فاللام إذن موطة للقسم والثانية للتأكيد وما زائدة للتوصل بينهما ( إنه بما يعملون خير ) فلا يخفى عليه شيء .

ولما أبان الله في هذه السورة كيف كانت عاقبة العاصين وخاتمة الصالحين أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه قائلا ( فاستقم كما أمرت ) أي استقم على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك : أي دم على ما أنت عليه من الاستقامة ( ومن تاب معك ) من الشرك والكفر وهو عطف على ضمير الرفع في استقم ( ولا تظنوا ) ولا تخرجوا عما حدث لكم أو لانتلوا في الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ( إنه بما تعملون بصير ) فيجازيكم عليه وهذا في معنى التعليل للأمر والنهي .

قال ابن عباس : ما زلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال « شيتنى هود وأخوانها » ( ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ) ولا تميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركون هو الليل اليسير كالزبي بزيمهم وتمظيم ذكرهم والليل بالقلب إليهم وطاعتهم ومداهنتهم وتكثير - وادم والرضا بأعمالهم ( فتمسك النار ) أي فتصبيك النار بحرّها كما يحصل اليوم في الأقطار الإسلامية من التشبه بالفرنجية وتقليدهم ومداهنتهم والزبي بزيمهم واحترام تجارتهم وآرائهم وأخلاقهم وفسوق الفاسقين منهم .

فذلك حكم الله على أكثر الأقطار الإسلامية أن يصيبها نار الاستعباد في الدنيا والقل والفقر والاحتلال

والاختلال والنذالة والضعف والجبن والخوف وهذه مقدمة لعذاب جهنم « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

وقد بينا في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن الفرنجية ضحكوا على ذقون الشرقيين الغافلين والبسوم بوب للذلة والعار ومزقوهم شرّ ممزق وكل ذلك لأنهم ركنوا إليهم وصدقوهم ، ولقد قدمت أنهم أشبه بالمسيخ النجاشي فإنهم يظهرون جنة اللذات ويخفون نار الاستعداد وقد ركن كثير من الأمراء إلى نار شهوات المال الذي يعطونه لهم أو الألقاب الحقيرة الكاذبة التي يسمونها بها أو الوسامات التي يعلقونها على صدورهم فأوقسوهم في نار الاستعداد وللذلة والحزى البين .

هذا كله سرّ هذه الآية ثم قال تعالى ( وما لكم من دون الله من أولياء ) من أنصار يمتنعون العذاب عنكم والاستعداد والاحتلال واستنزاف الثروة وحلول الفقر بكم في الدنيا ( ثم لاتصرون ) أي ثم لاتعبدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله أي عذاب يوم القيامة وفي الدنيا الذي هو مقدمة لعذاب الآخرة، وفيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضى بأعمالهم .

ومن عجيب الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول « شينتي هود وأخوانها » ولعمرك ماشيتي هود وأخوانها إلا لما في هذه السورة من العذاب الذي حاق بالأمّة الإسلامية أسوة بالأمم الأخرى .

مصدق هذه الآية في تاريخ الأندلس وفي السيرة العباسية بغزوة التتار

وتعجب كيف تم ما قاله الله تعالى ، وهو أن الركون إلى الظلمة يرضى للمسلمين إلى الهلاك والدمار ، ثم يقول الله « ثم لاتصرون » ولقد حصل ذلك وأصبح أكثر للمسلمين غير منصورين بل هم في قبضة الفرنجية كل ذلك جاء مصداقا لهذه الآية ، يقول الله « ثم لاتصرون » وقد حصل ذلك وأصبح أكثر للمسلمين كبيد للفرنجية لأنهم ركنوا إليهم ، وواقع لم ينج من مذلة الفرنجية إلا الذين استقلوا بأعمالهم وتركوا الركون إليهم ورجعوا إلى أنفسهم ولم يتكلموا عليهم واعتبر ذلك في الأمة الأندلسية إذ كانوا في أول أمرهم حين كان الإسلام عزيزا مهايا محافظين على أخلاقهم القومية وعاداتهم العربية وشيمهم النبوية ثم تحوّلت الحال وسامت وأصبح المسلمون يمد الأنتفة والعزة والتعريف أسرى الأوهام ، وبدأ ذلك أن الفرنجية تعاودوا مع أمراء الأندلس ورؤسيتهم ابن عباد ، وتلك المعاهدة احتوت على ما يأتي :

[أولا] حرية الدين .

[ثانيا] حرية التجارة .

[ثالثا] حرية التعليم .

ولما تمت تلك المعاهدة أقام ابن عباد احتفالا ومهرجانا وأفراحا دامت عشرات الأيام ، ولقد حضر الأمراء جميعا تلك المعاهدة ووقعوا عليها وكان بعضهم قد ركبوا على جياد نعالها من ذهب .

ولما تمت تلك الوثيقة والأيام الراضة رجعوا إلى ديارهم آمنين مطمئنين ولم يرفض التوقيع على هذه المعاهدة إلا ابن مصعب فإنه قال « وحكم يا أبناء العرب وعظما الإسلام كيف تبيعون حرية التجارة والتعليم في دياركم ؟ أفلا ترون أن القوم سيعلون أبناءكم تاريخ أممهم ويحرقون آباءكم ؟ أفلا ترون أن الجرباع في بلادكم بعد الآن لحرية التجارة ، وسيشتر في البلاد الترف والنعم ويكثر للترفون والفسقة والنجار والحلعاة ويستهي الأمر بفساد البلاد وخراب العباد وطرد العرب من الأصقاع الأوروبية ؟ فلما سمع القوم مقائله هزوا ساخرين وبنيدوه أجمعين وقالوا لست في العبر ولا في الفبر ، وهل : يطلع لتصير أمر ، أو يقام لغبر رشيد وزن ؟



« وجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا نياهم وأصروا واستكبروا استكبارا » وقالوا إن هذا كلام الدين لا يعرفون السياسة ولا هم من السياسيين .

فماذا جرى بعد ذلك ؟ قضيت سنون تلتها سنون وصح ما نسباً به ابن مصعب وانتشر الحجر والفسوق وصار [ كتاب الأغانى ] هو العمدة في البلاد وانتشرت الخلاعة والفسوق وصار الشبان يخالون الفتيات في الطرقات شاربين وشاربات وسكرين وسكرات وكثر الترف والنعيم ولبسوا الحرير وطمعوا بالذهب وصارت الخلاعة مشرب الأدياء وخلق الكبراء فذهبت نخوة الدين وسرى ذلك من الأحداث إلى العظام والكبراء حتى إن أحد أمراء بني النون اختطف فتاة رومية من أبيها وأدخلها قصره ، فلجأ إلى أمير آخر مسلم فأذته مروءته أن يكاتب ابن ذى النون ذاكر له عظم هذا الذنب وقبحه فأبى أن يقبل قوله ، فأعد ذلك الأمير مع بارونات أوروبا وهجموا على ذلك الأمير ومزقوا ثملته وخرّبوا قصره وأولم الأمير للقنابل للفرنجة الحاضرين معه ولجئة دامت أياما فرحا بالانتصار وإظهارا للافتخار ، والأمة العربية إذ ذاك في استجاروهم لا تعلم ماخبأ لها الزمان ، وكان العربي إذ ذاك في الأندلس يحقر نسيبه وأخلاق آبائه وآراءهم وتاريخهم ولا يأنس إلا بالأوروبيين الذين ربوه في مدارسهم .

ولقد تجاوز هؤلاء الأسيادة حدّ العادة في تغيير أخلاق المسلمين حتى إن راهبا في قرطبة من أساتذة المدارس التي يتعلم فيها المسلمون اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمرا وحلف أن لا يبيعه لأحد إلا لتلاميذه من أبناء المسلمين لجه إياهم فصار الحجر من مستلزمات المدينة والعمران .

فماذا جرى ؟ سارت الأمة شوطا بعيدا حتى قرعت القارعة ووقعت الساعة وآتى الملك (فرديناند) والملكة (إزابله) وقصبا ظهر البلاد وأزالا ملك بني عباد وأمراء الأجناد وقبروهم أجمعين إلا قليلا منهم رموهم في البحر أجمعين وقتلوهم مجتدين « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ، وما الله بظافل عما يحمل الظالمون ، كل هذا مصداق لقوله تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دين الله ، من أولياء تم لا تتصرون » فلم يجد أبناء الأندلس أولياء ينصرونهم لما أحاط بهم الإفراج من كل جانب وهم غافلون لأهم ركنوا إلى الفرنجة فأصبحوا حصيدا خامدين .

#### التتار في الشرق

وقد كان المسلمون قبل ذلك بنحو ثلاث مائة سنة في بلاد الشرق قد تعلموا جزم وسكروا بجاههم فلم يظنوا في الأرض قوة أعظم منهم أيام قطب أرسلان إذ أرسل إليه (جنكيزخان) السمي بتوجين رجالا من قومه ليتاجروا مع المسلمين بأموالهم ومعهم مال عظيم ومتاجر كبيرة تخاف تجار المسلمين على أنفسهم وضيع تجارتهم وبخس بضاعتهم لمزاحمة أولئك الواردين لأن بضاعتهم أجمل وأبهج وأبهى وأرخص قيمة فأرسل هؤلاء التجار الوطنيون رجلا منهم فقال لقطب أرسلان : هل لك أن تأخذ التجارة من هؤلاء الذين حضروا وأن مامعهم يكون غنى لدولة الإسلام وعزا وجاها للحكومة ؟ فصره مايقول وأخذ المال الذي مع التجار الذي قيل إنه كان كثيرا جدا فأخذ تجارتهم وقتلهم أجمعين .

فلما ورد الخبر إلى (جنكيزخان) أرسل له خطابا مع جماعة يحذره من عاقبة ظله يقول فيه : كيف تسيئون الجوار وتظلمون الناس ، ونيبكم صلى الله عليه وسلم لم يقل به وعطى بن أبي طالب كذلك ؟ أولم يخبركم نبيكم قائلا « اتركوا الترك ما تركوكم » إنا نحن أئمة يأجوج ومأجوج وقد أوعدكم الله بأنهم سينسلون عليكم من كل حذب .

فلما جاء الخطاب إلى (قطب أرسلان) مزقه وسلم آذان الرسل للمسلمين من قبل (جنكيزخان) فقام

هذا الذي يجد النار ثلاثة أيام تضرع فيها إلى الله أن ينصره على المسلمين الذين هم مخربون بلاد الله وهو يسعى إلى الإصلاح ، ولم يأكل ولم يشرب في تلك الأيام الثلاثة ، ثم قام بمجموعه وهجموا على الإسلام فأزالوا دولة العباسيين ومن قوا المسلمين شرّ ممزق وانتشروا في الهند وفي روسيا ولا تزال بقاياهم إلى الآن على نهر (فلجا) وغيره ولكنهم أسلموا بعد حين وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم « ويل للعرب من شرّ قد اقترب » وسيوضح هذا القام في تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » وسترى فيه نص الخطاب الذي أرسله (جنكيزخان) لتعلم أن المسلمين كما ركنوا إلى أوروبا فزال دولتهم ركن مسلو الشرق إلى غار التجار منهم فسلطوا للوك على إيذاء الجيران فأذوهم فسلط الله عليهم التار

ذلك لأنهم ركنوا إلى الدين ظلموا وهم تجار المسلمين ، وأيضا كان للمسلمون غايلين جاهلين لم يعرفوا قدرة بلاد التار ولم يدرسوها فهم كانوا جغرافية البلاد المجاورة لهم جاهلين ، فلما آذوهم سلطهم الله عليهم وهم لا يعلمون قوتهم ولا مقدار جيوشهم ولا عددهم ولا صبرهم على القتال ، ذلك كله مصداق لقوله تعالى « ثم لاتصرون » .

#### مصداق هذه الآية في الأمم الإسلامية اليوم

ولقد قدمت مرارا في هذا التفسير كيف استولت الفرنجة على بلاد الشرق وقتل منهم استولوا عليهم بنص الطريقة التي أهلكتها بها بلاد الأندلس فإنهم كما أهلكت الأندلسيين بالسهوات والذوات وفتحوا لهم باب الترف ففكر الدين والإسراف والحمر والمجاهرة بالمعاصي مع الغايات ولبس الحرير والتنعم والرياء واحتقار تاريخ الآباء وآرائهم وأعمالهم وخصالهم ومأم عليه من التمسك بالدين وما أشبه ذلك .

هكذا فعلوا ذلك مع أهل الشرق من التونسيين ورجال الجزائر والراكشيين والصريين بحيث ترى الأغنياء من بلادنا الآن لا يهنا لهم طعام إلا في مطاعمهم ولا شراب إلا في قهواتهم وباراتهم ، ولا منازل إلا مع نسائهم ولا شراء إلا من محال تجارتهم ولا لباس إلا على زبيهم ، ولا خادمة إلا من أحسن نسائهم ولا استئانة إلا من مصارفهم ، وإذا أرادوا عملا عاما لا يكون إلا في أماكنهم التي لهم في بلادنا .

إذا علمت هذا علمت جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر لما سأله قائلا « قد شئت بإرسول الله إذ قال صلى الله عليه وسلم شيتني هود والواقعة وللرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » .

وفي رواية أخرى قال « قلت بإرسول الله عجل إليك الشيب ، قال شيتني هود وأخوانها الحاقة والواقعة وهم يتساءلون وهل أنك حديث العاشية » .

ويقول العلماء لأن هذه السور فيها ذكر القيامة والبعث والحساب الخ ، فهذا صريح في أنه يخاف عذاب الآخرة ، ولا شك أن مما في سورة هود حساب الأمة المحمدية في الآخرة على أنها تركن إلى الدين ظلموا وقد أظهر الله مقدمات هذا الحساب ودلائله فيما ذكرناه .

وورد أيضا « ويل للعرب من شرّ قد اقترب » وقد حصل ذلك بظهور التار وغلهم للمسلمين كما سيوضح في سورة الكهف وكما قدمناه الآن فليعتبر المسلمون .

ولما كان اختلال الأمة ينشأ من ركونها إلى الدين ظلموا ، وكانت إقامة الصلوات في أوقاتها مما يجمع القلوب ويؤدى إلى اتحادها أعقب ماتقدم بقوله ( وأتم الصلاة طرفي النهار ) غدوة وعشية وهو منصوب على الظرفية لأنه مضاف إلى الطرف وصلاة طرف النهار الأول الصبح ، وطرف النهار الثاني الظهر والمصر

(وزلفا من الليل) الزلف : جمع زلفة، من أزلفه إذا قربه: أى وساعات من الليل قريبة من آخر النهار وهي صلاة المغرب والعشاء (إن الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهب السيئات) أى الذنوب .

وفي الحديث « إن الصلوات الخمس تكفر ما بيننا من الذنوب » ومثل الصلوات جميع الطاعات : قال عليه الصلاة والسلام « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » ومن الطاعات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقد ورد في الحديث أيضا أنها مرادة بهذه الآية .  
وفي البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا لا ! قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا » .

إن الذنوب الصغار تكفرها الصلوات والطاعات ، أما الذنوب الكبرى فلا يكفرها إلا التوبة النصوح بالإقلاع عن الذنوب بالكلى وبالندم وبالزم التمام ألا يرجع إلى الذنب .

وفي الحديث « إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبرى » وفي سبب النزول أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني قد أصبت من امرأة غيرى لم آتتها فزلت (ذلك) إشارة إلى ما تقدم بما في هذه السورة من هلاك العاصين ونجاة الصالحين وما ولى ذلك من قوله « فاستقم كما أمرت » وما بعده (ذكرى للذاكرين) عظة للمتقين وتبصرة للمفكرين فيعرفون كيف تهلك الأمم إذا ظلمت ؟ وكيف تمسهم النار في الآخرة إذا ركنوا إلى الظالمين ؟ وأن الأنبياء الذين وردوا كرمهم في هذه السورة لم ينصروا إلا بعد الصبر ، ولذلك قال (واصبر) على ما نلاق من قومك ومجادلاتهم وعداوتهم كما صبر الأنبياء قبلك المذكورون في هذه السورة وقد عدت أمرهم وأنه لم يضع أجرهم إذ أحسنوا في أعمالهم (فإن الله لا يضيع أجر المستبين) أى للصالحين أعمالهم بالاستقامة وعدم الركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلاة وفعل الحسنات وجميع الأعمال الظاهرة والباطنة ، فإحسان العمل الباطنى يرقى أخلاقنا ، وإصلاح العمل الظاهرى كالصالحات يرفع قدر الإنسان ويرقى عقله ويكسبه التقى وهذا ممدوح واقع لا يضيع أجره كما هو مشاهد محسوس ، فكل من أحسن عملا لا يضيع أجره ، وهذا يوجب على المسلمين أن يحسنوا ما يصنعون في أعمالهم الظاهرة والباطنة .

ولما كان القول للتقدم وهو الأمر بالاستقامة النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ونهيم عن الظلمين وعن الركون إلى الذين ظلموا حتى لا تمسهم النار كما مست الأمم السابقة لما ظفوا كما هو مذكور في هذه السورة أشبه بالتخلية ثم أمرهم بما هو كالتخلية من الصلاة بالليل والنهار مرتبا على ما ذكر في هذه السورة من إهلاك الأمم السابقة في الدنيا لكفرها وفي الآخرة بالنار ، لذلك أيضا رجوع إلى تفصيل الكلام على تلك الأمم قائلا هلا كان من هؤلاء الأقوام الذين ذكروا في هذه السورة وغيرهم من الأمم السالفة قبلكم رجال أولو رأى وعقل يهون الناس عن إفسادهم في الأرض بتطيف الكيل والليزان وبخسهما وفعل القاعشة التي لم يأتها أحد من العالمين والكفر والمعاصى الكثيرة .

نعم إن بعضهم نهى عن الفساد في الأرض فنجيناهم ، فأما الأكثرون فإنهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض واتباع الذين ظلموا ما آرفوا فيه بالتمتع والترفة وحب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش المنهية ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبنذوه وراء ظهورهم (وكانوا مجرمين) وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون وهذا قوله (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية) من الرأى والفضل أو أولوا فضل وإنعاشى بقية لأن الرجل يستبق أفضل ما يخرج به ، ومن فلان من بقية القوم أى من خيارهم (ينهون عن الفساد في الأرض

إلا قليلا من أجهينا منهم) أي لكن قليلا منهم أجهينا لهم كانوا كذلك فالاستثناء منقطع فهو لا للستى منهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض (واتبع الذين ظلموا) أنفسهم فلم ينهوا الناس عن الفساد (ما أترفوا فيه) أي ما عرفوا فيه التمتع والثروة الخ (وكانوا مجرمين) ولما كان ما تقدم يستدعي سؤالاً فيقال : يا عجباً إن الله عز وجل رحيم وكيف يهلك الناس إذا كفروا ؟ وهما عن أولاء ترى الحيوانات راضة في الماء والهواء والتراب ، فلما خص الإنسان بالإهلاك في الدنيا فليكن الكافر في الأرض كالحيوان ، أفلا يسع الله هؤلاء في أرضه ؟ فما باله يهلكهم في الدنيا ويترك ملكهم ويشتم شملهم .

لذلك قال الله ( وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ) بشرك ( وأهلها مصلحون ) أي وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين بأن يعامل بعضهم بعضاً بالصلاح والهدى ، ولذلك قيل « الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم والمعاصي » وكان هذا تفريراً لما تقدم في السورة كأنه يقال إذا أهلكت قوم لوط وقوم شعيب وغيرها فإعنا إهلاكهم للذنوب الخلة بالأمن الضارة بالمجموع ، وإذا كان المجموع باسداً فلا بقاء له بل يكون كالجسد الميت تنبت راحته ، فالأمة التي تكذب وتظلم وتفسق ويرتضى حكامها وتضل في أعمالها ولا تحسن عملاً حكمت عليها بالهلاك لأنها مجموع مختل غير منظم وهذه قاعدة طبيعية ؛ فالأمة كالجسم إذا اختل خلا عظامها رئيسيات ، وهذه حال كثير من أمم الشرق والإسلام الآن وسيغير الله الحال بل ابتداء سبحانه يفعل ذلك الآن .

ولما كانت الأمم الإسلامية اليوم قلّة فيها علم الأخلاق والعمل بها صارت قلوب أهلها متباعدة متباغضة وهم لا يحسنون كثيراً من الأعمال وهي بأيدي غيرهم سلط الله عليهم القرينة لأنهم لا ينهون عن الفساد في الأرض وقليل منهم الآن انتظموا في أعمالهم فاستغلوا في بلادهم ولطردوا القرينة والحدف .

فتعجب كيف أبان الله في هذه الآيات أن خراب الأمم تابع لظلمها الداخلي في أعمالها لا إيمانها وعلى ذلك لا يبالي بإيمان بلا عمل صالح ، بل ينزل بأهله المذاب الشديد في الدنيا كما أشار إليه في قوله تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسك النار » ومن الظلم ترك النعمي عن النكر ، واعلم أن الفقهاء لأجل هذه الآية قدموا عند تراحم الحقوق حقوق العباد على حقوق الله تعالى .

واعلم أن هذا اللقاع يقتضى أن يسأل سؤالاً فيقال إذا كان الله هو الخالق للعالم للنظم له وهو واحد فلم تطورت الأمم وكانوا مختلفين أخلاقاً وديانات وآراء وكفراً وإيماناً ، وهلا جعل الله الناس أمة واحدة ولم هذا الاختلاف ؟ واعلم أن هذا السؤال يرد على عقول كثير من الناس ، وهو بهذا اللقاع أليق لأنه في مقام هلاك الأمم وبقائها وتقرير حقائقها وقد تم البحث هنا ودقق أبعاً تدقيق ، واعلم أن العالم لو لم يكن مختلفاً لكان معدوماً .

الآن ترى أن الحكماء قد قرروا أنه لا يتساوى اتنان في الوجود ، فلا رجل ولا امرأة من الناس يمانلان غيرها من الرجال والنساء بل كل فرد من الناس والحيوان والنبات والمعادن والسكون لانظير له في الوجود ؟ وقد برهنوا على ذلك ببرهان قاطع لا يحتمل لذكره هنا ، فما دام هناك خلق فلا بد من اختلافه ، فالاختلاف ملازم للخلق ، ومادام هناك خلاف فهو في الأجسام والألوان والمقول والآراء والديانات والأحوال وفي كل شيء .

فالمائل الحكيم يعتقد أنه لا يكون وجود بغير اختلاف للوجودات ، والجاهل يقول لم خلق الله الاختلاف مع أنه لا يمكن الخلق إلا مع الخلاف ، ولا فرق بين الخلاف القليل والكثير ، فكما يأتي بساعات النهار المختلفة أضواؤها يأتي بالليل الذي هو غاية الخلاف مع النهار هكذا يفعل في الديانات .

فكما يخلق تبيين متقاربين كأبي بكر وعمر وهما كساعتين يخلق كافرا ومؤمنا كأبي بكر وأبي جهل كما خلق الليل والنهار ، فالنظام واحد في الأطوار الإنسانية والأحوال الكونية ، ونتيجة ذلك هو أعلم بها وهذا قوله ( ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ) متفقين في الإيمان والطاعات ولكنه لم يشأ ذلك لأن الشبهة تتبع العلم ، والعلم يتبع للعلوم ، والعلوم ليس يكون إلا على النظام الأكل ، والنظام الأكل لا بد أن يكمل فيه جميع الأحوال كما كتلت أحوال الليل والنهار بالظلام والضياء للنبات والتأريج والثمار ( ولا يزالون مختلفين ) في دياناتهم كما اختلفوا في جميع أطوارهم . وهذا الاختلاف يخلق راحتهم ويزعج نفوسهم ويكون سبب النزاع فيما بينهم ( إلا من رحم ربك ) من أناس يكون اختلافهم غير دافع إلى النزاع ، بل هو كالوفاق حينما يرتقى نوع الإنسان ويكونون كأسرة واحدة يحب بعضهم بعضاً ويكون اختلافهم في جميع أحوالهم ليتكلموا به ولكل منهم عمل خاص ينتفع الجميع به فيكون الاختلاف فيما بينهم كاختلاف البنية والآبوة والذكورة والأنوثة كل له عمل ينفع به المجموع وتكون جميع أهل الديانات على حال لا يلحق بعضهم بعضاً بل يكونون أشبه بأعضاء أسرة واحدة .

ذلك هو العصر الذهبي الذي عبر عنه بأنه ينزل فيه عيسى ابن مريم فتصلح القلوب بالحبية ويصبح الناس « إخواناً على سرر متقابلين » في الدنيا . وقد ورد أن دين الإسلام يعم السكينة إذ ذلك .

ولما كان الخلاف في جميع الأحوال أمراً طبيعياً أعقبه سبحانه وتعالى بقوله ( ولقد خلقناهم ) أي خلق الناس ( وتمت كلمة ربك ) وهي قوله للملائكة ( لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ) لنقصانهم وعدم عن السكينة ، فإذن أضهم في النازل التي استأهلوا لها ، كما أخلق الدود في الطين والحيات والمقارب في التراب والحشرات في القاذورات ولقد أكثرت في الدنيا من هذه المخلوقات في تلك الأماكن ثلاث في مكان في العالم معطلاً بلا خلق ، ولم أخلق الخلق عبثاً بل كالحكمة ، فأنا لا أذر الروث والطين للنتن والقاذورات بلا مخلوقات فأكثرت خلقها فهكذا .

إن أكثر النفوس الإنسانية تموت تافهة فأضهما في قاذورات العالم الثاني لأعمال أباها علم فتسكون معذبة وعذابها بحسب استعدادها كما خلقت الدودة في الروثة ، وكما أن الناس يأغنون من الروث ويقولون : لو خلقنا دوداً لتمينا للوث ولكرهننا الحياة ، والدود محصور بمنحور مسكين يعيش كأنه ميت ولا يعلم من الحياة إلا ما عسى جلده فهو خال من السمع والبصر والشم والذوق .

هكذا يكون في الآخرة خلق من الناس يألف أهل الجنة أن يكونوا معهم لما هم فيه من العذاب بالنار والجحيم فضلاء عن حسة الحياة ودناءة للوقف وعذاب الحزى والذلة والخافة والضياع وانحسار القوى وانحباس النفوس .

وإلى هنا قد تم الكلام على الأمم وأحوالها وما استنتج الله منها وعلم نبيه وأتمته ووعظ وذكر وحذر وأندر .

ثم شرع سبحانه يبين للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتمته مقصود هذه القصص وأمثالها ، وأن المقصود من هذه الأخبار تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد كل مؤمن يقرأ هذه القصص ، فإن الإنسان إذا علم ما أصاب للصلحين قبله من البأساء والضراء ثم تم البصر لهم في آخر الأمر ثبت قلبه وهكذا صلى الله عليه وسلم لما علم من هذه السورة كما علم من غيرها كيف كانت عاقبة الأنبياء وعاقبة أممهم من الأتباع أو الكفار تأسى وصبر وثبت قلبه لله بالعاقبة وهذا قوله تعالى ( وكلا ) وكل نبأ ( نقص عليك ) وقوله ( من أنباء الرسل ) بيان لكل ، وقوله ( ما ثبت به فؤادك ) بدل من « كلا » ( وجاءك في هذه الحق ) أي في هذه السورة ( وموعظة

وفى كرى للؤمنين) وثبت قلبه معناه زيادة يقينه ، فإن تكرار الأدلة أثبت للقلب وهكذا توارد القصص للتشابهة للمزى في موضوع واحد توجب الاستئناس .

هكذا قراءة للؤمنين لأمثال هذه القصص تورثهم موعظة من العاصي وتذكركم أحوال الأمم فيقيسون عليها أنفسهم .

ولما كان ما تقدم ناقلا له وللؤمنين أمره أن يخاطب الكافرين قائلا : اعملوا على حالكم وجهتكم التي أتم عليها ( إنا عاملون ) على مكاتبتنا وهذا كقوله « لكم دينكم ولي دين » ( وانتظروا ) يا الدوائر ( إنا منتظرون ) أن ينزل بكم مثل ما نزل بالأمم السابقة كما قصة الله في هذه السورة من الهلاك اللاحق بهم لما كفروا كما كفرتهم .

ثم ختم السورة بالتوحيد وإرجاع الأمور كلها لله تعالى فقال ( والله عيب السموات والأرض ) وحده لا يفتنى عليه شيء فيها ( وإليه يرجع الأمر كله ) ومنه أمرك وأمرهم فبئسك وبما فهم ( فاعبده وتوكل عليه ) أي فمن كان كذلك فهو مستحق للعبادة لا غيره فاعبده وحده وتوكل عليه ، يعني وثق به في جميع أمورك فإنه يكتبك كما في قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » ( وما ربك بغافل عما تعملون ) أنت وهم وجميع الخلق فهو يحفظ أعمالهم جميعا لا يفتنى عليه منها شيء فيجزى الحسن بإحسانه والسيء بإساءته ، والله أعلم . انتهى التفسير المنطقي .

لطيفتان

[ الأولى ] في قوله تعالى « فأما الذين شقوا الخ » .

[ الثانية ] ما أهمّ العلوم التي كان يرص إليها الأنبياء في هذه السورة وكيف خزنها الله في القرآن للمسلمين في هذا الزمان وكل زمان .

#### اللطيفة الأولى

اعلم أن من علماء الأمة الإسلامية من نظروا في هذه الدنيا ونظامها وحكمة خالقها ورحمته التي وسعت كل شيء ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وأن أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم وصلاة للسلم كلها دعوات تسند جميع أعمال الخلق إلى الله تعالى .

وهذا كله مما يوقع في النفوس أن خالق هذا العالم عنده رحمة عظيمة فوق رحمة الناس وفوق ما يعرفه الناس .

كيف لا وهو القائل في هذه السورة « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها . ويعلم مستقرها ومستودعها » وهو القائل على لسان بعض رسله « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » فالنظر في العالم والنظر في بعض الآيات والأحاديث جعل بعض العلماء يفسر في هذه الآيات ويقول إن العذاب ليس يكون بلا نهاية .

قال الحنفى التلساني : إذا بلغ الانتقام الغاية انقلب رحمة ، وقام للصطفى صلى الله عليه وسلم لجنازة فقالوا إنه يهودى ، فقال أليس الملك معها أليست نسا .

قال العلامة زين الدين محمد الدعو عبد الرؤوف الحدادي القاهري المعروف بالمناوي للتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣١ هـ في شرحه على ( قصيدة النفس ) لابن سينا ما نصه :

قاله في الفتوحات المنكية [ هذا أرجى ما يتمسك به أهل الله إذا لم يكونوا من أهل الكشف ولا التعريف الإلهي في شرف النفس الناطقة وأن صاحبها وإن شقى يدخل النار فهو كما يشقى هنا بأعراض

النفس والملك والهموم ، وأن ذلك كله غير مؤثر في شرفها إذا كانت من العالم الأشرف فقام لها لكونها نفسا  
أى لذاتها وهذا يؤذن بتساوي النفوس .

وفي رسالة القشيري عن بعض الصلحاء أنه ذم من رأى نفسه خيرا من فرعون ، وقال وهذه مسألة من  
أعظم للسائل تؤذن بشمول الرحمة وعمومها لكل نفس وإن عمرت النفوس الدارين ، ولا بد من عمارة  
الدارين كما ورد أن الله سيعامل النفوس بما يقتضيه شرفها بسبب لا يملكه إلا أهل الله فإنه من الأسرار  
المخصوصة بهم ، فكما أن الحدّ يجمعهم كذلك للقيام بجمعهم لذاتهم إن شاء الله تعالى .

وقال تعالى في الذين شفوا « إن ربك فعال لما يريد » ولم يقل « عطاء غير مجذوذ » كما قال في السعداء  
وقال أيضا « رحمق سبقت غضبي » وقال « ورحمق وسعت كل شيء » .

كل ذلك منه منة فإنه كتب على نفسه الرحمة . قال لناوي إلى هنا انتهى كلام ابن عربي .

أقول : ولم يقتصر الأمر على الصوفية رحمهم الله بل تعداهم إلى غيرهم .

قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال تعالى « عطاء غير مجذوذ » ولم يخبرنا  
بالذي يشاء لأهل النار .

وروى عن ابن مسعود أنه قال « ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون  
فيها أحقابا » .

وعن أبي هريرة نحوه . وقال لناوي : إنه قد جاء في بعض الآثار ما يدل على خلاص الكل وأن النار تنفى  
ويزول عذابها دون الجنة .

قال ابن تيمية نقل ذلك عن عمر وعن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم .

وأخرج عبد الحميد بن حميد عن عمر بإسنادين رجالهما ثقات « لو لبث أهل النار في النار كعدد رمل  
عالم لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه » وتداوله أئمة غير مقابلين له بالإسكار قال أعنى ابن تيمية وإنما أراد  
جنس أهل النار الذين هم أهلها ، وأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علموا هم وغيرهم أنهم لا يلبثون قدر رمل  
عالم ولا قريبا منه ، ولقظ أهل النار يختص بمن عدا للؤمنين كما يشير إليه عدة أحاديث ولا يناقضه قوله تعالى  
« خاتمين فيها - وما هم منها بمخرجين » إلى أن قال « ولكن إذا انقضت أجلها وفنيت كما تنفى الدنيا لم يبق نار  
فلم يبق عذاب » قال وورد في عدة طرق عن ابن عمر « وليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها  
أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا » .

وجاء نحوه عن ابن مسعود وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي « جهنم أسرع الدارين عمارا وأسرعهما  
خرابا » ثم إن ابن تيمية رحمه الله أورد قول من يقول إن الإجماع على خلاف ما ذكر ونحوه . ورد هذا  
القول قائلا إنما يظن الإجماع من لا يعرف النزاع . واللسلون جميعا أجمعوا أن عذاب جهنم دائم لا ينقطع ،  
هذا قام عليه الإجماع ، ولكن إذا بطلت جهنم بالكلية لا يقال إنهم خرجوا من جهنم ، بل يقال إنها فنيت  
فهم يمدبون ما دامت باقية ، فإذا خربت فأين يمدبون ؟ وفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله  
وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس .

هذا ما خص ما قاله لناوي ، ثم قال : حكى ذلك كله ابن القيم وأطلب فيه ودفع قوادحه في نحو كرامة .

ثم قال والذي نتفده ما عليه هداة هذه الأمة وجمهور الأئمة أن النار لا تنفى ولا يزول عذابها ، قال ووافق  
ابن القيم على نحو ما زعمه جمع من الصوفية كما تقدم اه .

هذا وإنما أريتك هذه الآراء المختلفة في هذا اللقمة لتعلم مقدار ما وصل إليه علماؤنا والمحققون منهم

في هذا اللقمة والله يتولى هدايتنا .

## اللطيفة الثانية

اعلم أن هذه السورة أشبه بشجرة الجوز للقسمه إلى بيوت كل واحد منها فيه اللب الشهي النافع للأجسام للقلبي لنوع الإنسان ، وإنما شبهتها بتلك الثمرة لأن الجوز له قشر يحيط بلبه وفي داخله بيوت منظمة محتوية على اللب المطلوب للآكلين ؛ هكذا هذه السورة فيها القصص الدالة على نجاة الطائمين وهلاك العاصين . وللقصود من ذلك كله العلم بنظام العالم وجماله وبدائع حكمته وغرائب خلقته ، ولملك تقول باللعجب ؛ كلما وصلنا إلى آية أو قرأنا حكمة أرجعناها إلى الحكم الكونية والغرائب الخلقية .

فيا ليت شعري ما لقصه نوح في سفينته ، وهود في قبيلته ، وصالح وناقته ، وإبراهيم وامرأته ، ولوط وقرينته ، وشعيب وجماعته ، وموسى ونبوته ؟ .

فأين قصص هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأفلاك في دورانها والأسمالك في بحارها والنباتات في حقولها والحيوانات في فلواتها ؟ والذى يحيل لي أنك مغرم بالعجائب الكونية تدور حولها كما سنحت ساعة أو برقت لك بارقة .

إذا قلت هذا أيها الدكي ، أقول لك لا تنجبل وانظر ما أقول : ابتداء الله السورة بأن الكتاب محكم الآيات مفصل كما تفصل الفرايد وهو حكيم خبير . وأفاد أن عده يوم مابطن وما ظهر ، وأن عليه رزق جميع الدواب وهو العالم بمسقرتها ومستودعها وأن ذلك عنده في كتاب وقد أسس ملكه جميعه على العلم ، فلا دابة في الأرض من طير يطير وبهيمة تسير وممك يجرى وحشرة تسرى إلا وهو قائم بنظامه عالم بما يحتاج إليه رازق له منظم لأعضائه وحياته معطيه رزقه ، فإذا لم يكن له دابة في الأرض إلا خالقتها ومنها الإنسان وهو أشرف المخلوقات ، فهذا أساس هذه السورة .

ألا ترى إلى قول هود « إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ؛ أنظر كيف استدلل بعلم الدواب وأن الله قابض على ناصيتها عالم بمسقرها ومستودعها ؛ أليس هذا ترديدا لما في أول السورة دلالة على أنها مؤسسة على هذا الأساس مبنية على هذا اللبدا قائمة على قرار مكين من علم شامل وعملي دائم وحكمة عالية ؟ .

ما هو ذ النبي هود يقول « إني توكلت على الله الخ » وما برهانه إلا ما جاء في أول السورة وهو جوهرها ومقصودها ، فيقول إن الله يمسك بنواصي الدواب ويعلم مسقرها ومستودعها فكيف أكون نبيا وأخاف من المخلوقات والله آخذ بناصيتي ، وربى على صراط مستقيم لا يبيق إلا ما كان أقمع في الوجود ، ولا شك أن العلم أبقى على العالمين والجهل أردأ للمخلوقين ، وأنا قد أرسلت بالعلم فهل يخذل الله الصالحين وينصر الجاهلين ؟ كلامي كلا .

وانظر إلى نوح كيف يقول الله له « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » وذلك للبالغة في الحفظ والرعاية كأنه يراه بينون كثيرة على سبيل التمثيل حتى لا يلحقه ضم فهو للنجي له ، وهذا كقوله في اللبدا « ويعلم مسقرها ومستودعها » .

وقال لللائكة لوط « إنا أرسل ربك لن يصلوا إليك » وقد نجي الله شعبا وبقية الأنبياء ، فانظر كيف رجع أمر الأنبياء جميعا إلى مراعاة الله لكل مادب على الأرض من الإنسان والحيوان وحفظه لها وأخذ الأنبياء برؤدود ذلك للمنى حتى قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في آخر السورة ما جمع ذلك كله فقال « وفيه غيب السموات والأرض » وهذا كالذى ذكر في الأساس من عموم علم الله ، وقوله « وتوكل عليه » هو عين ما قاله جميع الأنبياء لرسولهم ، وقوله « وما ربك بظالم عما تعملون » هو كقوله تعالى « ويعلم مسقرها ومستودعها » .



فأقول الأمر وآخره في هذه السورة أن الله محيط بعالم الحيوان وغيره قائم بتدبيره وأن الأنبياء جميعا قد حققوا هذه الفكرة وعرفوها بما أوحى إليهم. فلا يزالون بأعدائهم وهم متوكلون على الله ، والآية التي ختمت السورة أتت بمجمل ما جاء فيها ، هذا هو مقصود السورة ، وهذا هو اللب .

واعلم أن إرسال الأنبياء والقصص الواردة في الكتب السماوية والأمر والنهي وغيرها ليس يقصد منها إلا ترقية الإنسان وإخراجه من ظلمات الجهالة بالعرفان وكل ماورد من علوم الأخلاق والآداب لم يقصد منها إلا ترقية العقول بالعلوم .

وهنا قد وصلنا إلى المقصود فنقول : كيف يعرف الإنسان أن الله آخذ بناصية كل دابة وأنه يعلم مستورها ومستودعها إلا بدراسة علم الحيوان ؟ .

ياحسب كيف يعرف الناس أن الله آخذ بناصيتها إلا بالدراسة التامة ؟ وما مثل الناس في ادعائهم أنهم يعرفون علم الحيوان وهم لم يدرسوه إلا كمثل الجمال والبقر إذ زعم أنها تعرف الحيوان المحيط بها من الجمال ، تمية اللهباب . أو كمثل من يظن أنه عالم بالشمس والقمر والكواكب وهو لم يعرف إلا صورها الظاهرة ولم يدرس من علم الفلك درسا واحدا ، فكيف في الأرض من مغرورين ، وكف في بلاد الله من غافلين ، وكف من صم بكم عمى فهم لا يعقلون ؟ .

أنزل الله سورة هود وبنى حجج الأنبياء على التوكل عليه لأنه القادر العالم الخالق العليم بأحوال الحيوان ، فعلى المسلمين دراسة علم الحيوان كما يدرسون علم الفقه كلاهما فرض كفاية .

فلا تذكر لك أيها الذكي في هذا المقام عشرين عجيبة من عجائب الحيوان بعد ما قرأته في هذا التفسير وبعد ما بدت في هذه السورة نفسها لتسكون أنساك وجمالا وكالا وتقبل بقلبك على دراسة العجائب الإلهية ولتسكون من الوقيين .

#### خزائن الجواهر في سورة هود

اعلم أن هذه العجائب السكونية الحيوانية الآتية وغيرها من جواهر مخزونة في سورة هود مقصودة لنفسها ، فلمعرك ليس يراد من الإنسان إلا كماله الجسمي وكاله العقلي والأخير أرقاها مقاما ، ولن يتم ذلك إلا بنظام هذا العالم ، ومن نظامه الجواهر التي خزنها الله في سورة هود ، نعم خزنها للأجيال المقبلة وبعض الذين سبقوا من أولى العلم والحكمة الذين هم لله شاكرون « وقليل من عبادي الشكور » .

وأكثر الناس لا يشكرون الله لأنهم جهلاء بالحقائق مكفونوا بالظواهر فلا يعرفون من سورة هود مثلا إلا التاريخ وتطبيقه والنحو وإعرابه والبيان ومجازاته واللماني وحقايقه والبديع وجنسه ويتلهون بالبلاغة ، وأن القرآن معجز العالمين تارة بعشر سور ، وتارة بسورة واحدة من مثله ، كل ذلك اكتفى به أكثر الناس عن الحقائق وضلوا طريق الحقائق وما وصلوا إلى ما هم له طالبون .

ولمعرك لم يمتد أمثال هؤلاء أول الطريق ، ولا قاموا للدين بأدنى نصيب ، وما نالوا من ذلك كله إلا تصديق النبوة واسكنه تصديق يتبعه الأعمال والعلوم .

أما الأعمال فكالأخلاق التي تؤخذ من هذه القصص .

وأما العلوم فهناك هذه العشرين عجيبة تذكروا وبشرى للعائلين الذين درسوا هذه الكائنات وأحكواها وفتحوا بعض أسرار هذا الكون وأدركوها ، وهم طوائف من أمم شتى وأزمان مختلفة ، اختلفت دياناتهم وشرائعهم وبلدانهم وأزمانهم وهم في الحقيقة متحدون لأن علمهم الذي حصلوه هو نظام هذا الوجود وعجائب هذا الوجود فلهذا عشرين عجيبة عسى أن تسكون من أولئك الذين قال الله فيهم « إلا من رحم ربك » فليتهم لما أدركوا عجائب صنع الله لم يختلفوا فيها بل اعدوا وعرفوا بواطن الأمور ولم تلههم القشور .

## العجبية الأولى : لغات الحيوان

من غرائب أمر الحيوان أن لأنواعه طرقا لتأدية المراد كما أبان أهل العلم والاختبار وقد شاهدوه في أدنى الحيوان كالنمل والنحل وقالوا إن النمل يفهم أمثاله بطريقة اللس بالقرون ، وفي تلك القرون من قوة اللس ما ليس للإنسان .

ويحكى أن (فرنسكلين) كانت عنده جرة من القند (عمل قصب السكر) ازدحم النمل فيها غشى (فرنسكلين) على قنده فعلق الجرة بحبل من السقف فرأى نملة خرجت من الجرة وصعدت على الحبل وبعد نصف ساعة رأى ما لا يحصى من النمل نازلا على الحبل إلى الجرة وكانت النملة حين تشبع تخرج تاركة مكانها لغيرها ، وظل النمل بين ساعد وهابط إلى أن فرغت الجرة من القند اه .

وهي ذلك تقول إن النملة أخبرت النمل حتى جاء إلى الجرة ، وليس يلزم من قولنا إن للنمل لغة أن تكون لغتها كلماتنا بل المقصود أن يفهم عنها ما يلزمها ، فالمراد باللغة هنا كل ما أفهم للراد ، ومن هذا نفهم « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها ومستودعها » ومن هذا وأمثاله فليفهم القرآن ، وبهذا وأمثاله فليرتق السلون .

## العجبية الثانية : نظار النمل

قال بعض علماء العصر الحاضر : إن رؤساء العمل في النمل تضرب بقرونها حثا للعملة فتسرع وتبذل كل مجهود في العمل .

ولقد شاهد ذلك في حرب النمل فترى أنه عند التقاء الجيشين يضرب أمراء الجيش الأرض بقرونهم فتلتحم الحرب ويستد الكرب ويعظم الهول ويحمى الوطيس وتقوم الحرب على قدم وساق ، وتفنك الأبطال بالأبطال ويكثر الزال ويعمل الجحفل على الجحفل وتحتج الجنود في ظلام القسطل وتظلل نار الحرب تظلي إلى أن يتم النصر للقاديين وهم الغامون ، ويجتمع النمل على مدب كنعف محيط دائرة وينطح للمفجرين (بفتح الدال) .

وبهذا نفهم « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا أم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب » أي اللوح المحفوظ « من شيء » .

## العجبية الثالثة : لغة النحل ولغة النمل متقاربتان

يقال إن لغة النحل ولغة النمل متقاربتان كالإنجليزية والفرنسية ، وذلك أن هؤلاء العلماء جدوا حتى سموا الأصوات منهما بطرق طبيعية ووجدوا لصوتها ولتوقعاتها مشابة .

## العجبية الرابعة : حكاية نملة

استيقظت نملة صباحا نحو الساعة السادسة من تلقاء نفسها بلا منبه ففصلت وجهها وأصلحت من شأنها بالمفرقة وللشط الذين وهبا لها من الله بحسب جبلتها وهما في طرف قائمتها القديمتين ثم نظفت القامتين بفمها وخرجت في سرب من أخوانها ماشيات في بعض دهاليز المنزل نحو غرفة الملك فالتقت بأسراب أخرى سائرة إلى أشغال أخرى ، وبينما هن سائرات وقتت هذه النملة فنزعت قشة علفت بيدن إحدى أخواتها في أثناء الطريق كما يلتقط الرجل خيطا علق برداء صديقه ، فلما فرغت من ذلك أسرعت للحاق بسائر الرفاق فاعترضتها في أثناء الطريق تنف من القش فنظفت الطريق منها وهي مع ذلك تنتمم الفرص للبحث على ما قد تثر عليه من أطراف الجذور أو قطع الأوراق أو غير ذلك لتدخرها لطعامها اه .

## العجبية الخامسة : الزنايب وتناسلها

ومن عجيب أن السلمين في أعماق الكرة الأرضية إلا قليلا ينظرون الزنايب السود والصفرة والحمرة وهم عن

آياتها معرضون ويطردونها عن النحل وهم يملها جاهلون ، تبارك الله عز وجل ، فانظر أيها الذكي كيف تبيض الأنتى وكيف يخرج الدود ويأكل ما تقتنصه الأم له وكيف تصبغ الدودة بعد ذلك (شرفيا لجة) وكيف تصير بعد ذلك زنبورا كاملا يطير بجناحين ، إن الأنتى قبل أن تبيض بيضا الذي لا يحتوي على غذاء لصغارها كما يحتوي بيض الدجاج وبيض الأوز تذهب فتقتنص بعض الموام كالخنافس والذباب والقراش والبعوض أو الديدان أو المناكب . وتختلف القرية باختلاف أنواع الزناير ، فإن أنت الأم بالقرية ميتة فيها ونمت وإن كانت حية أفرغت عليها من إرتها مما يسكرها ويخدرها فتعطل حركتها وهي محبوسة في نفقها البني ليضا ثم تلقى بيضا على تلك القرية وتسد القفير سدا محكما ، وبعد يومين أو ثلاث يفتق البيض وتخرج ديدان تتذى من جسم الحشرة التي هي عليها حتى تنقض المدة الدودية ثم تصير شرقة ثم تصير طائرا فتطير وما ذلك الطير إلا الزنبور .

فانظر يارعاك الله كيف علمت أنتى الزناير بلا معلم ولا كتاب ولا نبي أرسل إليها ولا دراسة ولا تجربة أن يضا الذي ستلقه لاقوت فيه لأبنائها ، وكيف أهدمت أن تموت بده خنافس أو ديدانا أو ذبابا ؟ وكيف أعطيت مادة سمية لتخدر بها تلك القرية ، وكيف أهدمت استعمالها وكيف كانت تلك اللادة السمية لا تقتل الحشرات ثلاثين جسما ولا تبقى قوية ثلاثين يوما أو تسكر الحركات ، بل بقيت بين بين حتى يحصل للقصور الدود الذي يخرج من البيض ، وكيف تأكل منه الذرية وهي في عيشة راضية مرضية ، فانظر هذه الحكم الستة في الزناير التي تعيش في سقوفنا وحيطاتنا ونحن غافلون ، والله يقول «وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون» .

#### العجيب السابعة : زنبور يلع دودة

لبعض الزناير طريقة عجيب في قتل الحشرات التي أعدها لصغارها فإنه يختار دودة لها نحو (١٣) حلقة ومعلوم أن لكل حلقة مركزا عصبيا ولا بد من إسهما في جميع هذه المراكز وأهمها ما بين الحلقة الثالثة والرابعة فإنه في الدود أشبه بالخيخ في الإنسان ، فإن هذا الخيخ إذا أصيب مات الإنسان حالا ، يعلم ذلك الزنبور علما حقا إجماليا بالقرية فيأتي إلى الدودة ويقانلها وتدافه مرات كثيرة حتى إذا أخذت تضعف عن المقاومة رفعها إلى أعلى وطرحتها على الأرض ثم لسعها فيما بين الحلقة الثالثة والرابعة فتخر صريعة مخدرة ثم يبقى الزنبور ساكنا مما حل به من التعب حتى يستعيد قوته فينقض عليها ثانية وهي خاشعة فيلسعها فيما بين الحلقة الثالثة والثانية ثم فيما بين الحلقة الثانية والأولى ثم يطير حولها مدة ويعود إليها ويلسعها فيما بقي من الحلقات فتخشع خشوعا تاما مخدرة ساكنة وتبقى حية على الأغلب لتسكون غذاء لصغار الأولاد .

#### العجيب السابعة : الحشرات الصائدة بلونها للشبه الزهرة

كل فلاح في بلادنا المصرية وغيرها رأى حشرة تطير بين الأشجار يسميها الناس في بلادنا [فرس النبي] ويسميها الترنساليون والإفرنج [الجنوب المصلي] ويسميها غيرهم [فرس الشيطان] وهذه الدابة قادرة على الاحتيال بما يجير الأبواب ، فهي تتلون بلون ما تقع عليه ، فهي خضراء على الورق الأخضر ، حمراء على الزهر الأحمر كثيرة الألوان على الزهر للتلون ، وربما رأيتها على غصن من الأغصان أشبه زهرة من الزهرات بحيث لا يفرق الناس ولا الحشرات ما بينها وبين زهرات تلك الشجرة حتى إذا جاءت ذبابة قربها اقتضت عليها فقنصتها .

ومن عجيب أمرها أن حيلتها تم بكاملها ، فإذا تشكلت بشكل الزهرة وهي على التصن صارت من الشجرة في جميع أطوارها ، فحركاتها الطبيعية معدومة فهي أبدا ساكنة ، وإذا هبت الرياح والمواسف

والزجاج تحركت كأنها زهرة تلعب بها الرياح كما تلعب بغيرها ، وهذا يفهم من قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وقوله في هذه السورة « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » ولقد تقدم قريبا في هذه السورة ما جاء في العلم الحديث أن ألوان الحيوان إنما جاءت لحمايته ولبقاء حياته .

#### العجبة الثامنة : الجباب

وتعريف الجباب أنه ذباب يطير في الليل له شعاع في ذنبه كالسراج وهذا النوع في العلم الحديث ظهر منه أنواع كثيرة تشترك كلها في الإضاءة بأشعة تشع من بؤرة في ذنبه وليس لها مظهر إلا بالليل كالقمر والنجوم .

وقال العلامة (شوز) إن للذكر منها بؤرتين : واحدة منهما وراء الأخرى وكل منهما مركبة من [طبقتين] عليا يشع منها النور، وسفلى يظن أنها تمسكه إلى ماحول الحشرة ، ويقال إن الأنثى لاتضيء وقد وجدت الأنثى في إيطاليا كالمذكر في الإضاءة .

وأعظم الجباب ما وجدت في جزائر الهند الغربية بأمريكا الوسطى يسمونها [ ذبابة الصباح ] لأنها تير كالصباح ، وأهل تلك الجزائر في كوبا وجامليكا وسان دومينكو يستخدمونها كالصباح ، والسياح يستخدمون هذه الحشرة لإضاءة السبل فيعطفون واحدة أو اثنتين في أذنهم فتضيء الطريق أمامهم وهي كما تكون هدى للسافرين جعلها للنساء زينة لمن وجلا في كوبا يفرسها في شعورهن بين الضفائر بدل الخلي من ألماس وعقيق وذهب ، وهذه تمسك نساء ( كوبا ) جمالا وبهجة وحسنا يفوق الجواهر المعدنية والأحجار الثمينة .

وأهل تلك البلاد ينتفعون بهذه الحشرة في الاستضاءة ليلا للخياطة ، فلو رأيت ثم رأيت جماعة من هؤلاء وقد عاقوا قنديلا في سقف البيت بينهم وليس فيه إلا تلك الجباب والضوء منثور عليهم وهم يخطون وهم فرحون بلا كهرباء ولا نار ولكن بالجباب السارة للناظرين . وهذا من سر قوله تعالى « الله نور السموات والأرض »

#### العجبة التاسعة : صاحب السفينة

إن في الحيوان لمجبا وأمي عجيب ، فبينما تراه ذا فقرات كالإنسان وذوات الأربع والسنك والطير وأكثر الحيوانات والزحافات ترى منه ما ليس له فقرات ولا عظم له البنية ، وهذه الحيوانات تسمى بالحيوانات الرخوة .

فانظر كيف كان العمود الفقري والعظام عليها مدار القوة والحركة ، فأما هنا فقد انعكس الوضع وأعطى بدلا من الهيكل العظمي كساء خارجيا تتصل به العضلات للحركات الانتقالية ، وهذا الكساء الخارجى الذى أقام مقام العمود الفقري والعظام إما أن يكون جلديا وإما أن يكون كالضروف ، وإما أن يكون كالعظام وهو عبارة عن كساء كلسي ، وإما أن يكون أصلب من العظم وهو الصدف ، وهذه الحيوانات تسمى ذوات الأسدف ، ومن أنواعها :

(١) القوقع الذى منه الخبزون المعروف في البحار ، ومنه الأبواق الكبيرة الهائلة ، وهذا الكساء إما مستدير كالصحن وهو طبقة أو طبقتان مثل (أم الحلال) و (الكندوفلى) و (البطلينوس) وقد يكون هرمى الشكل كالأبواق وقد يكون حلزونيا وقد يكون مستطيلا كالأنبوب .

والذى يهمنا في هذا المقام أن نذكر هذا الحيوان الذى نحن بصدده فإنه من الحيوانات ذوات الصدف والصدف هنا في هذا الحيوان كالسفينة يستخدمها كما نستخدمها نحن ، إنه يعوم بها فوق الماء في بحر الهند

خصوصا بحوار (جزيرة ملقا) وقد أعطى ثمانية أصابع ، منها اثنان يحملهما كشرع السفينة يشرها في الهواء ، وهما تسير السفينة كما يريد وهو يحولهما نحو الريح كما يجب ، وأما الأصابع الست الباقية فإنها جعلت كالمجاديف يرسلها على الجانبين وبها تسير السفينة بقوة التحريك ويسيرها التراجع بقوة الهواء الضاغط عليهما وهما منشوران غشائيان ، فاعجب لسفينة حربية لم تلتصق بحجم الحيوان لها شرعان غشائيان كأنهما من نسيج القطن أو الكتان والمجاديف تحيط بها والنوتى يمش فيها ، ومتى طرأ عليه خطر أو أحسن بأى مؤذ قبض المجاديف والشراعين واختفى في الصدفة وغاس في قاع البحر ونجا من الخطر الدائم « وريك مخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الحيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون » .

#### العجيب العاشرة : سمك بطير

إن من السمك ما يعيش في مياه الولايات المتحدة والبرازيل وفي البحر الأحمر يبلغ نحو شبر ، ألوانه جميلة زاهية سماوية وفضية ، وله زعانف بها يطير في الجو أسرابا مسافات طويلة ثم يحوض في الماء ويعود فيطير . ومن عجب أن هذه اللوهمية العجيب والنعمة العظيمة وهي تمتع بالهواء في جو السماء وسعادته بولوج ماء البحر قد قوبلت بما يناسبها من الهالك ، فهو يكون فريسة السمك الكبير في البحر إذا غطس في الماء وتصيده طيور البحر إذا علا إلى الجو ، وانظر قوله تعالى « ووضع للبرازيل . ألا تطغوا في للبرازيل » فقد وزنت النعمة بالنعمة ليعدل العمل ويقوم الأمر بالقسط ، فإذا أعطى السمك الطيار نعمتين فقد سلطت عليه نعمتان « وماربك بظلام للميد » وإنما يضع الموازين القسط .

#### العجيب الحادية عشرة

الحيات التي لاسم لها أكثر من ذوات السم ، والثعبان الذي لاسم له ولكنه يتلع الإنسان قرأت في قصة (روبنسن) السويبرى للترجم بقلم للرحوم صديق صالح بك حمدى حماد ، قال إن الحيات السامة تبلغ نحو مائة صنف من الحيات ، أما الحيوانات التي ليست بسامة فهي تقرب من أربعمائة نوع ، ثم قال إن الأسناف السامة تمش عادة في الأحرار والكثيفة والمستنقعات الدائمة والسم الذي فيها لا يكون إلا من تعاطيا الحشائش السامة والأبغرة الحبيزة والروائح الكريهة في الهواء الفاسد في تلك المستنقعات وكذلك ما ينبت من الأراضي الرطبة التي لم تزرع فذلك كله يحدث السم في تلك الحيات ، ومتى أصلحت الأرض التي تأوى إليها تلك الهوام وزرعت وعمرت بالمساكن والقرى اختفت منها تلك الأنواع ، ومن أهم الحيات التي لاسم لها (البوا) وهو عظيم الجثة يختطف الرجل والحمار كما انفق لروبنسن أن حماره كما في قصته الحياوية اختطفه ذلك الثعبان العظيم وابتلعه من قبل رجله حتى إذا انتهى إلى رقبته ضربه (روبنسن) وأرداه بالبندقية فخر صريحا .

وأقول : إن للسافرين الذين يجوبون الأقطار التي يسكنها عرفون طبعه وأنه يقتصر الإنسان من جهة رجله ، فإذا نام الرجل منهم وسع ما بين رجله ، فإذا جاء ذلك الثعبان وابتلع رجل النائم استيقظ حالا وسل مديته وقطع بها حلقومه فيموت حالا « إن ربك هو القوي العزيز » .

#### العجيب الثانية عشرة : المصفور الحياط

مالي أرى أمة الإسلام قد نامت نومة عميقة ؟ لماذا لا يدري المسلمون العلوم التي بها أمر الله ؟ يا هجبا كيف يتنى الإنجليز في متحفهم البريطاني بأنواع المش التي يخطه ذلك المصفور ؟ ليستنقظ عقل الشبان لما في هذا العالم من الجمال ، وأمة الإسلام نائمة عاكفة على الجهالة في النوم العميق ، إن نوعا من الصافير التي أنعم عليها بطول ذبولها تحيط أعشاشها خياطة بخار فيها الناس بلا إبرة ولا خيط ولا آلة خائطة .

فيعد المصفور إلى ورقة شكلها أشبه بالرمح وهي في غصنها ثابتة ويأتي المصفور بورقة أخرى أصغر منها ويحيطها عليها بقطع من عيدان دقيقة على نسق عجيب ، فإذا فرغ المصفور من الحياطة عمد إلى القطن خشاه به وذلك كله قبيل وضع الأثني فتضع عليه بيضا ومثى قفس عاشت الفراخ أيامها الأولى على ذلك الفراش الناعم في بيت معلق في الهواء يتحرك بأخف نسيم .

#### العجبية الثالثة عشرة : المصفور النساج

إن من المصافير نوعا يصنع عشه كهيئة الجراب قد نسجه من قطع القش وأقامه بين الأغصان وهو كروي أو إهليلجي أو مخروطي وله فتحة يدخل منها المصفور إلى أفراخه ، وفي الجدار من دقة الصنع وحسن الصورة الصلية ما يدهش أولى الألباب .

#### العجبية الرابعة عشرة

المصفور الذي يبنى بيته ويصنع له بابا يقفله عند الحاجة فهو أرقى من بعض التوحشين

#### والمصفور الذي يهيس زوجته

إن هذا المصفور يبنى عشه في أواسط أفريقيا فيفتح باب عشه ويقفله متى أراد ، وقد رأى العلماء من الناس من لا يصنعون لمنازلهم أبوابا .

وذكر العلامة (حبرون) في كتابه المسمى [طيور الهند] أن بعض المصافير إذا آن زمن التفريخ استعدت له كما يستعد الناس زمن الحمل ، فترى النساء يحضرن القوائم قبل الوضع وترى اللبن يتقاطر إلى ندى المرأة شيئا فشيئا ، فهذا النوع إذ ذاك يحبس ذكره أثناء في عشاها ويقفل عليها بابا من الطين وفيه ثقب لا يسع إلا متقارها لتلتقط به الطعام وليدخل منه الهواء ، أما الأثني فإنها لأنا كل إلا ما يحضره لها الذكر فتلتقطه بمنقارها ، والمصافير في هذا أشبه ببعض الناس إذ يتجنبون المرأة أيام نفاسها ، وهذه الأثني لأنزال محبوسة حتى يتم الإفراخ وبعد ذلك يتعاون الزوجان على كسر ذلك السجن .

#### العجبية الخامسة عشرة : المصفور الذي يصنع عشا كالجيب

ذكر العلماء ومنهم الرحالة (سوزات) الرحالة النهر-طيرا يجعل عشه كالقنينة الكبيرة أو كالجرة ويتخذ له مكانا في داخله عند مدخله ليكون حارسا لها وحافظا لأولادها وذلك لأن الأثني إذا آن زمن وضع البيض اختفت في عشاها لا تخرج منه حتى يتم التفريخ .

فياعجبنا نوعان من المصافير اتفقا أن أثني كل منهما تبقى محصورة بطبعها جامعة على بيضا وأحد الذكرين يحميها بأن يسد عليها بالطين والآخر يحميها بأن يحرسها في باب عشاها حتى لا يفتاجها خطر ، وهذان النوعان من المصافير أشبه أولهما الناس حين يتخذون الحصون ردها يتقون بها الخطرات ، والثاني أشبه الناس حين يفتحون حصونهم ويوقفون جنودهم وهم شاكو السلاح .

ومن العجيب أن النوع للثاني الذي نحن بصدده الكلام عليه إذا أراد الزوجان سياحة أو خروجا لفرص ، ضرب الذكر بجناحيه باب العش فينطبق على مافيه من الفراخ حتى يرجعا وهما آمانان على الأفراخ . فانظر كيف قام الصنف الثاني بالطريقتين ، فأحدهما حين وجود أثنائه ، وثانيتهما عند خروجهما من المكان فيجعل العش حصنا للذرية حتى يرجعا إلى المكان .

#### العجبية السادسة عشرة : المصافير التي تعيش جماعات هذا النوع من المصافير

إن جماعات هذه المصافير تعيش أسرابا وتكون أعشاشها مدينة عامرة حول جذع شجرة ضخمة ، وقد يجتمع حول ذلك الجذع نحو (٣٠٠) عش صغير ، وقد نقل بعض العلماء عشا من هذه من أفريقيا

وقد حمها بضعه رجال وثقلت في مركبة خاصة في سكة الحديد ، ومن نظر إليها من بعد خالها سقوطا معلقة  
بمخدوع الشجر والعصافير تلعب فوقها .

#### اللطيفة السادسة عشرة : العنقاء

هل العنقاء موجودة ؟ كلا . هذا هو الرأي المروف في العالم الإنساني ولكن الذي ظهر وتحقق الآن  
أن العالم الأرضي كان فيه حيوانات كبيرة من سائر الأنواع ثم انقرضت ، فمنها (الموت) وهو الفيل العظيم  
الجنة لم يبق إلا آثاره ، وقد عثر الأستاذ (أوين) في زيلاندة الجديدة على عظام من طيور ونقلها إلى كلية  
الجراحة في لندن فوجدوا فيها هيكل عظم لطائر كبير ارتفاعه عشرة أمتار ، وأدق عظامه وأصغرها لا ينقص  
عن عظم الإنسان القوي وهذا الحيوان يسمى (الدينورنيس) وقد انقرض من أجل غير بعيد ، وسكان  
زيلاندا يتناقلون خبره فيما بينهم ، فأى مانع يمنع أن تكون العنقاء قد انقرضت من بلاد العرب وبقى الناس  
يتناقلون أخبارها وأصبحت خرافة وليس ينقص تحقيقها إلا العثور على بقايا عظامها كما عثر على طير زيلاندا  
وياليت شعري أى عظمة للعنقاء ، وأى غرابة فيها بعد ما تبين أن هناك طيوراً هائلة بقيت آثارها الآن وهي  
أعظم من العنقاء ، وأن هناك في متحف باريس بيضة لطائر منقرض يسمى (ايورنيس) كان في مداغسكار  
وحجم هذه البيضة يزيد على ستة أضعاف بيضة النعام الكبرى وهي تساوي (١٢٠٠٠) بيضة من بيض الطيور  
الصغيرة ونحانة قشرتها تساوي مليونين بحيث لا تكسر إلا بالمطرقة ، فعلى ذلك تكون قوة منسر فرخ  
هذا الطائر عند خروجه من البيضة كقوة المطرقة حتى يتيسر له الخروج من البيضة بمنقاره .

فإذا سمنا القزويني يقول: العنقاء أعظم الطير جنة وأكبرها خلقة تحطب الفيل كما تحطب الحداة القار  
لم يكن في ذلك بعد إلا أنه مبالغ فيه ويكون ذلك حيوانا انقرض أشبه بما ظهر اليوم في العالم كما تقدم .  
ويقول علماء طبقات الأرض إنها كانت في غابر الدهور أوفر حرارة وأقوى حيوانات ، وكان نباتها وحيوانها  
أعظم جدا من النبات والحيوان اليوم ، وكما مرت عليها دهور صمرت حيواناتها ، ويقول علماء الأرواح:  
إن الأرضين التي حول الشمس مثل أرضنا تكون الأجسام فيها أعظم في أول أمرها ، فإذا جاء دور انحلالها  
أخذت مخلوقات التي فيها تنسر أجسامها ولكن عقول العقلاء فيها تقرب من عالم الأرواح وتكون  
أكثر صفاء وأجمل أخلاقاً وأحسن علماً « والله يعلم وأتم لاتعلمون » .

#### العجبية السابعة عشرة : الحرباء

هذا الحيوان وديع جبان يعيش في الأقاليم الحارة مثل أفريقيا وأسبانيا وأمريكا وهو من رتبة الورل  
رأسه كبير بالنظر إلى جسمه وظهره ذو أسنان وذنبه ولسانه طويلان ، وطول لسانه يساوي طول بدنه ،  
وفي هذا الحيوان ثلاث عجائب أصلية: لسانه ، وتغير ألوانه ، وطول أناته وصبره . أما لسانه فهو عدة حربه  
يقوم مقام للدافع والأساطيل والجيش لفتح المدن لقصده تحصيل الغذاء .

لعمري لم يحارب الناس ولم يجمعوا الجيوش إلا لصد عدو أو جرّ مغنم ، وكل ذلك لمقصده الحياة ،  
فهذا الحيوان إذا جنم على غصن يوقع في وهمك أنه مائت ، ذلك لأنه يبقو زمنا طويلا لا يحرك به وليس له  
رأى إلا عيناه يقلبهما ليراقب حشرة طائرة ، متى مرت به فما هو إلا كالحج البصر حتى يختطفها به وينتلقها  
ويتغذى بها . وذلك أن لسان هذا الحيوان مكسو في آخره بمادة لزجة متى لامست حشرة التصقت بها  
بسبب تلك اللزجة ، ولهذا الحيوان أربع أرجل لسكل رجل خمس أصابع ، وهذه الأصابع حزمتان  
متقابلتان ، وبهذه الأرجل وأصابعها يتشبث بالأغصان ، وإذا انتقل فلنما يكون ذلك يبطء وحفر ، فلسانه  
وصبره هما عدة لاجتلاب الغذاء ، أما عدته لدفع الأعداء فهو تغير ألوانه ، إن لون هذا الحيوان يتغير بما

لما يحيط به وقد قالوا إنه يغير لونه كيفما أراد في أي وقت شاء وذلك ليشارك ما يحيط به من المخلوقات ، فإن كان بجانب شجرة صار أخضر مثلها ، ذلك ليكون بآمن من مفاجأة العدو الغير ، فلولاً اللون وتغيره لأصبح فريسة الحيوانات الفانصة ولكن ذلك مفزعا للحشرات فلا تقترب منه ، وهذا الحيوان إذا أخذه الإنسان باليد صار أبرش واكد لونه وظهر في جسمه بقع سود وحمرة وما بينهما ، وإذا غضب اشتدت حمرة حتى يصير أسود اللون ، وقد تمثلوا في الحزم بالحرباء ومن أمثالهم أيضا [أصرد من عين الحرباء] أي أبرد يضرب لمن أصابه برد شديد ، لأن العرب تعتقد أن عين الحرباء تدور مع الشمس ويستقبلها حينه ليستدق بها ، ولذلك شبه ابن الرومي الرقيب بالحرباء ، قال :

ما بالها حسنت وإن رقيبها أبدا قبيح قبح الرقيب

ماذا إلا أنها شمس الضحى أبدا يكون رقيبها الحرباء

فانظر كيف كان الصبر والأناة وسكون الحركات سببا لاقترب الحشرات منه ، وكيف طال لسانه حتى يختطفها ، وكيف انتهى بمادة لرجة فالتصفت بها الحشرات ؟ وكيف تفنن في ألوانها ليشارك ما حوله دفعا للذات وطلباً للخبرات فأقرأ « وما كنا عن الخلق غافلين » وأقرأ « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وأقرأ « سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوتى . والذي قدر فهدى » فهذه هي الهداية ، وهذا هو قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » فأقرأ القرآن في هذه العجائب ولا تسكن من الغافلين النائمين .

العجبية الثامنة عشرة ، من أهم سلاح بعض الحيوان الجلود اللينة

إن لكل حيوان سلاحاً ؛ فالعيلة بالخرطوم ، والإنسان بالعقل والسلاح للثور ، والوحوش بالأنياب ، والسباع بالبرائن ، والقبيران ونحوها بالعدو ، والطير بالتحليق في الجو ، والثور بالقرون وما أشبه ذلك . وهناك حيوانات لا سلاح لها إلا جلودها كالتمساح إنه لا يخترق جسمه الرصاص وكذا السلحفاة ، فإذا مشت ترى عليها قبة قوية متينة ، فإذا خافت مما يؤذيها انكشفت وأخفت رأسها وأرجلها في ذلك الحصن الحصين ومن هذا النوع السرطان والقنافذ وغيرها .

العجبية التاسعة عشرة : شريفة الغريبان

وقد تقدمت في هذه السورة فلانميدها .

العجبية العشرون : الفرس الحاسب التتلم

كان قديما العلماء يقولون : إن الحيوان يتقابل مع الإنسان في أوصاف شتى ، ففي الهيكل الظاهري كالقرد ، وفي الذكاء كالقيل ، وفي الأدب كالفرس . وفي النطق كاللغاة ، وفي حمل الأثقال كالجمال : فشكل حيوان من هذه اقترب من الإنسان بحصلة ولم يقدر حيوان ما أن يشارك الإنسان في سائر أحواله . ولقد كان الفرنجية في أول نهضتهم يظنون أن القرد وحده قد اختصم بالقرب من الإنسان ، ولكن لما استمروا بمجدون في العلم أحقوا به الفرس والكلب والمهر والقيل :

ولقد كان العالم الألماني للسمى (هرفون أوستين) يقيم في شمالي برلين متفرغاً لدرس طبائع الحيوان مدة (١٤) سنة ووجه عنايته إلى فرس عنده وعلمه فنجح خبر نجاح وقد سمى هذا الحصان (حنا التيه) ولقد علمه على أحدث طريق تعليمي مدرسي بالطباشير والألواح السوداء وبالخرز وبالروانخ المطرية والألوان ، وعلمه الحساب بالأرقام فطه الجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور العشرية وغير ذلك .

ولما شاع أمر هذا الفرس شكلت لجنة من علماء الحيوان فامتنوه فأقرت العالم (هرشيلنس) أشهر علماء الحيوان في (برلين) أن هذا الحصان يقرأ الخط ويحرف الأعداد والنقود وكم الساعة: دقائق وساعات وأجوبته



على مسائل الحساب بالضرب على الأرض بحافره ، وإذا أراد تأكيد الجواب ضرب الأرض بحافره الأيسر ورفس رفسا شديدا ، ولما غالطه أستاذه إذ قال له اثنين واثنين عبارة عن خمسة ضرب بحافره الأرض أربع مرات ومع كل منها ضربة بحافره الأيسر ، وسألوه في عملية حسابية طويلة فأجاب ولم يخطئ ، وملتوا قفة خرقا بألوان مختلفة وسألوه عن كل واحدة بألوانها فكان يجيب ولا يخطئ ، وسألوه كم عدد الذين يتقلدون النظارات ، وعن السيدة التي على رأسها قبعة خضراء فأجاب ولم يخطئ .

واللجنة لما رأت هذه النباهة أخرجت الأساتذة الذين سألوه وابتدأ غيرهم في السؤال فقدم أحدهم له ريبا وقال متى الساعة؟ فلم يجبه ، وقال بعضهم: نظف معلك بخرقه وأما أزيد في علفك فالتفت يمينا وشمالا حتى وقع نظره على خرقة أمام الأستاذ (شيلانس) فالتقطها فيه وأسرع إلى الإصطبل وأخذ يمسح معلفه بتلك الخرقة حتى نظفه تماما ثم أعاد الخرقة ، ولقد أتوا له بثلاثة أسلاك في واحد أربع كرات ، وفي الثاني ست ، وفي الثالث ثلاث كرات وعلقوها بين يديه وطلبوا منه جمعها ف ضرب الأرض بحافره ١٣ ضربة ، وهو يعرف الحروف بالأعداد فلشكل حرف عنده عدد ، وأتوا له بصحيفة عليها رقم خمسة وسألوه كم واحدة من هذه تساوي عشرين ، ف ضرب برجله الأرض أربع مرات ، وقد ميز أمامهم بين الذهب والفضة والنحاس وجعل للذهب ضربة وللفضة ضربتين ، وأروره ساعة وكان الوقت ١١ ونصفا ف ضرب أولا ١١ ضربة ، وصبر قليلا ثم ضرب ثلاثين ضربة .

وقال العلماء : إن نباهة هذا الفرس تقابل نباهة الإنسان وعمره ١٣ سنة وكان يوم امتحانه مشهودا حضره الأطباء والعلماء وأعضاء الأكاديميات العلية وكثير من الأمراء والأشراف وكان أمرا عظيما . ولما عرف ذلك واشتهر طلب أحد الأمريكان أن يشتريه بمبلغ (٥٧٠٠) جنيه فلم يقبل صاحبه وقال أنا لا أبيع به أبى ممن لأنى لا أطيق فراقه ، ووقع العلماء والقضلاء ورجال الأكاديميات على الشهادة بما شاهدوه من هذا التليذ النبیه .

ولقد أجمعت جرائد برلين أن (حنا النبیه) يمثل أعظم حادث يتعلق بعلم النفس في المملكة الحيوانية ، هذه هي العجائب العشرون التي وعدتك بها تذكره لقوله تعالى «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها» الخ فيمثل هذا يدرس القرآن ، ويمثل هذا فيليرتق للسلمون ، ويمثل هذا يكون مصداق قوله تعالى «ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» يمثل هذا يا أئمة الإسلام ترتقون ، وعلى ذلك فلتعتولوا هو خير مما تقرءون من العلوم القشرية . فإياكم أن تقفوا على القشور لا تخترقوها واطلبوا الألباب .

هذه هي الجزائن الإلهية في الآيات القرآنية ، إنما مثل سورة هود كمثل قصر مشيد فيه حجرات فاخرة في كل حجرة ما غلام من الثياب وما جمل من المتاع وفي داخل تلك الثياب الجميلة جواهر يتيمة كل جوهرة منها في حجرة وتلك الجواهر هي عجائب الحيوان كما وضحت عند ما مثلت ذلك بشجرة الجوز ، فمن اكتفى بالثياب غابت عنه الجواهر فلم ينلها وخرج صفر اليدين منها . إن القرآن يقرؤه الناس ويكتفون بظواهر القصص وهم عن الجواهر معرضون ، إنما هذه القصص بحر فيه أنواع المخلوقات ولكن أجملها وأعلاها وأسوأها وأبهرها الجواهر المسكونة في صدفة قهاهي ذه الجواهر في القرآن .

لقد ضل قوم انصرفوا عن الجواهر إلى الأصداف فقال الله فيهم «يضل به كثيرا» واهتدى قوم إلى الجواهر فقال الله فيهم «ويهدى به كثيرا» .

إن الكثير من المهتدين سيكونون من الآن إلى مستقبل الأزمان ، إن المسلمين سيقوم فيهم جيل جديد يتبعه أجيال وسيكون هذا التفسير وما مثله في أمم الإسلام من أجمع الوسائل لترقية المسلمين ، إنى بذلك موقن ولولا إيقاني به ما كتبت حرفا ولا أضعت وقتا ، ومتى أراد الله أمرا هيا أسبابه .

وقبل ختام التفسير في هذه السورة أذكر حادثتين :

[الحادثة الأولى] إنني قرأت في الجرائد هذين اليومين أن الأب (موفيه) الفلكي الشهير ومدير مرصد بروج صرح بنبوءة أحدثت جزءا ، ذلك أنه تنبأ بوقوع حرب كبرى سنة ١٩١٨ أو أزمة خطيرة في العالم وقال إن الأمم تتأثر بنشاط الأفلاك في حركاتها ومواقع الشمس والنجوم وكذلك الأفراد ، وقد حذر الأب (موفيه) للذكور حينما كان في بروكسل سنة ١٩١٠ حكومات أوروبا من مصاب هائل يوشك أن يصف العالم ما بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ ، وهاهوذا الآن يحذر العالم من جديد ، ويقول إن الاضطراب في مواقع الشمس يؤثر في الجهاز العصبي الإنساني كما يؤثر فيه الإقليم وهذه المقالة كتبت في جرائدنا يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ وإنما كتبها لمناسبتها لما نحن فيه .

ألا ترى أن هذا العالم في نظر الحكماء كجسم واحد وحيوان واحد وإنسان واحد «ماخلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة» وإلا فبأنه أرى فرق بين تأثير الزبور في الدودة كما قدمنا وتأثير الشمس في الأمم والأفراد ، إن العالم كشخص واحد ، فالسكواكب والأقمار والنجوم لها ارتباط بكل حيوان وكل إنسان ، تلك هي الوحدة العامة في العالم ، والمحرك لها نظام واحد لا يخل ، وما قبل الزناير للدود ولا فتك الآساد بالفزلان والثئاب بالجلان إلا حركات متصلة بالبدأ الأعلى ، فظاهرها اختلال وباطنها حساب ونظام .

أعمال تطابق غرائز الحيوان وديانات الإنسان

ومن هذا للقيام أن ذلك اللبدأ الأعلى أوحى إلى أمثال تلك الزناير فقال لها متى اقترب زمان يبضها أن اقتضى الذباب واصطادى العنكبوت واجذبيهما وأمثالهما إلى منزلت للنظم وأزلى عليهما ما لديك من اللادة السامة وأركبهما ثم يبض عليهما ، فإذا فعلت ذلك باضت وتركت يبضها ليتغذى دودها الذي سيخرج من البيض مما نحتت من هذا الصيد ، إن هذه الحادثة التي قدمنا ذكرها وما مثلها فيها ذكرناه ترىنا نظاما واحدا فكل حيوان نظام تام ليعيش به وليعد العدة لأولاده ، باض الطير فأنهم أن يجنم على بيضه أيما ولم يلهم أن يجتذب حشرات لأولاده لأن ما في البيضة من الغذاء كاف ، حملت البقرة والشاة والراة ولم يجتجن قط إلى ما احتاجت إليه الدجاجة من حضنها يبضها ، ولا حشرة الزبور من إحضار الصيد لأولادها ذلك لأن اللبن عندها قائم مقام ما ذكرناه .

يا أيها الناس . يا أيها الأذكيا . انظروا كيف تم هذا النظام ؟ كيف ألهم كل حيوان قبل وجود أبنائه بما قصرت فيه الطبيعة فأحضره للبرية للقبلة ؟ انظروا لهذا النظام ، انظروا كيف كان الإلهام مطابقا للاحتياج ولا يلهم الحيوان إلا حاجته ويمنع عنه ما ليس إليه حاجة ، نعطف على الإنسان وننظر فنجده من أول التاريخ إلى الآن لا يزال يجد في العبادة وينصب التماثيل تارة ويوحى تارة أخرى وترسل له الأنبياء ، فيقولون : أيها الناس هناك عالم آخر فاستعدوا له ، فترام يبسون ويوحدون ، ومهما سافرت في البلاد واخترقت الطرقات وجبت للدين لم تجد إلا مآذن شائعة ومساجد مشيدة وكنائس مبنية وبيعا منصوبة وآيات مكتوبة وأذكارا مقروءة ودعوات مطلوبة وأورادا متلوة ودروسا مفهومة وعلوما مروية وأحاديث مرفوعة وكتبا مقدسة مسموعة ونواقيس مدقوقة ومؤذنين يؤذنون وقراء يرتلون وصواما يجوعون وقواما بالليل يصلون ، أليس ذلك من الاستعداد للعالم الذي سنصل إليه بالوحي والإلهام كما استعدت الطيور في أعشاشها والحشرات في أماكنها للذرية المستقبلية ، وإذا كان الجراد لا يبض إلا على بعد مخصوص في مكان مخصوص ثم يتركه ويموت ويكون هذا الوضع وفق للطلوب وبه يعيش الجيل الجديد . فكيف لا يكون الإنسان وأنبياؤه قد استعدوا للمستقبل كما استعد أقل الحشرات وسائر الأمتها لمستقبل الأبناء والبنات .

إن صغار العقول من بني الإنسان قد استهزؤوا بالديانات وقد جهلوا نظام الأرض والسموات ونظام الكواكب والإنبات من أنواع الحيوان وغفلوا عن قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » ثم هو لا يلبسها إلا على مقدار احتياجها فألهم الإنسان مبعاده كما ألهم الحيوان ما يربي أولاده ، هذا هو المعنى من هذه الآية ، وهذا هو الذي قصده الأنبياء إذ استدلوا بهذه على الله وعلى للعباد ، وتمت السورة بقوله تعالى « وثق غيب السموات والأرض الخ » فهل يصدق الحيوان ويخطئ الأنبياء والإنسان وما في النظام بيان ، وفي الخلق صنوان ، وهل يصدق للفضول والفاضل في بهتان ؟ إن المدلل ينكر ذلك وللبرهان .

[الحادثة الثانية] إن سيدة من أشرف السيدات اطلمت على ما كتبت هنا في أمر الجباب فدهشت وقالت يا عجبا إذا كانت الجباب هكذا تضيء على الناس فكيف يكون نور الله ؟ ففكرت في نفسى وقلت : إن الجباب للضئيلة من العالم الأرضى ، والأرض مشتقة من الشمس ، وهذه الحشرة أضاءت أمها الكبرى وهى الشمس ، ونسبة ضوء الجباب إلى ضوء الشمس كنسبة الجباب نفسها إلى الشمس ، إن عقولنا لها نور معنوى ، فنورها مستمد من نور معنوى أوسع ، ونسبة إدراك عقولنا إلى ذلك العقل العالى للستمد من الله للدبر للعالم كنسبة ضوء الجباب إلى ضوء الشمس ، هاتان الفكاهتان ختمت بهما تفسير هذه السورة . والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس من كتاب [الجواهر] في تفسير القرآن الكريم

وبلغه

الجزء السابع ، وأوله تفسير سورة يوسف عليه السلام

## فهرس

## الجزء السادس من كتاب تفسير الجواهر

صفحة	
٢	تقسيم سورة يونس إلى سبعة أقسام وتحديد كل قسم منها وبيان مقصوده إجمالاً .
٣	القسم الأول من أول السورة إلى قوله « أن الحمد لله رب العالمين » مكتوباً مشكلاً ، ثم بيان اتصال أول هذه السورة بآخر ما قبلها .
٤	تفسير ( الر ) وبيان بعض سر هذه الحروف وتفسير ألفاظ هذا القسم .
٥	تفسير بعض الالفاظ ، وبيان قوله تعالى « في ستة أيام » .
٦	بيان أن خلق السموات والأرض في ستة أيام كان معروفاً ، ولذلك جاء صلة الوصول ، وذكر ما جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين في التوراة وبيان قوله تعالى « ثم استوى على العرش بدير الأمر » . العرش إما البناء وإما الملك والعرش مقرون بالتدبير ، وتبيان أن ما غلب نفعه يبقى وذلك كالماء الذي جاء أنه استوى عليه العرش مع أنه قد يغرق الناسك والمرأة الجوز ، إذن الملك مبنى على علم والعلم به يصطفى ما غلب خيره .
٨	جمال في إشراق شمس المعارف من قوله تعالى « ثم استوى على العرش بدير الأمر » وشرح شجرة ( السكاوتشوك ) الأستيك وأن السائل اللبني المستخرج منها يحفظ الأسلاك البرقية في البحر ومنه إطار العجلات والعربات والسيارات وقلل الماء الدافئ والوسائد ذات الهواء والأنابيب لإطفاء الحريق ، والمخاطف اللانعة للطير ولسقى الحدائق ، وهذه للآفة مع الكبريت تكون مساطر ومقابس الخ .
٩	رسم شجرة ( الأستيك ) بالتصوير الشمسي وبيان تدبير الله فيها الذي جاء في قوله « بدير الأمر » فإنه خلق منفعتها في حفظ الأسلاك في البحر قبل أن تظهر الكهرباء ولا شيء يسد مسد هذه الشجرة في حفظ كهرباء الأسلاك البرقية ، والله خلقها في أقطار بعيدة وعرف الناس بها وأحوجهم إليها فخلصوها بمشقة وعمل ليرتقوا ويشطوا .
١٠	آراء نوع الإنسان في مثل هذا القام ، وأنه ثلاث درجات : دنيا كالعامية ، ووسطى وهم أكثر للتعليم وعلياً وهم الحكماء ، والقسم الأولان لا نظر لهما في التدبير العام ، والقسم الثالث هم قواد الأمم وهم الأقلون كقفة هذه الشجرة ولكن عليهم يحم كما عمت منافعها وقل وجودها ، وبهذا المثال ظهر أن العالم يحكم إنسان واحد أو حيوان واحد ، كبيره مرتبط بصغيره ارتباط العين بإصبع الرجل مثلا .
١٢	بيان تفصيل الآيات ، وبيان آراء علماء القرن التاسع عشر وآراء القرن العشرين ، والآخرين م الناظرون في التدبير العام كنص الآية مثل ( وبسمان ) و ( سبسر ) و ( كاميل فلامربون ) و ( فون باير )

و (جينو) وغيرهم، وأن آراءهم ترجع إلى قوله تعالى « ثم استوى على العرش بدير الأمر » وإن كانوا هم لا يعلمون ذلك .

١٣ الأرض كأم تربي أولادها إذ يخلق للأُم الثديان قبل خلق الولد ، وهكذا خلقت هذه الشجرة قبل ظهور الكهرياء ، ومثل ذلك إلهام الحشرات وسائر الحيوانات التي استدل بها علماء القرن العشرين على وجود مبدئ للوجود ، ويان أن هذا التفسير ظهر قبيل ظهور قادة من الأمم الإسلامية كما ظهرت الشجرة للتقدمة قبل ظهور الكهرياء فهذا التفسير من دلائل النهضة القرية في بلاد الشرق .  
فريدة في التدبير العام ، ويان أن القوى ثلاثة أقسام : قوى الفراز الحيوانية ، وقوة العقل ، والقوة القدسية والعقل فوق الفريزة وهو ينظر في الذي جاء به الوحي والإلهام في كل أمة بحسب طباعها .

١٥ الكلام على تدبير المادة فكما كان الأعلى في القوى يفيد الأدنى كالعقل بالنسبة للفريزة وكوحي الأنبياء بالنسبة للعقول ، هكذا في المادة يمد الأكبر منها الأصغر كالشمس بالنسبة للأرض تعطىها الضوء .

١٦ لا تعطى في الوجود ، إن ما يزيد من الأنهر أيام الفيضان يكون في البحار العظيمة طبقات في القاع لتكون أرضا يابسة في المستقبل وجبالا كفضلة الرجل والمرأة يتكون منهما ذرية تبقى كما كانت الجبال من فيضان الأنهار ، ازدياد الناس على الكرة الأرضية ، ويان أن الناس قريبا ستحاسب كل أمة غيرها على ما عطلت من منافع موادها وعقولها وتبين أن ملابس صبي واحد قد أخذت أجزاءها من كل دولة من الدول .

١٧ واجب للسلمين الذين ألف لهم هذا الكتاب أن يفكروا في تدبير الأمر في الآية ، والأمم قد أحاطت بهم فليدرسوا هذه الدنيا كالأمم ، وهذا التفسير مقدمة لهذه النهضة .  
يان « وقدّرهُ » نازل » وأن القمر أصل الشهور والأسابيع ، ويان آراء الأمم في اليوم ومبده كالفرس واليهود وأهل إيطاليا وأمة العرب وفرنسا ، وأن أسماء الأيام في الأسبوع مشتقات من أسماء الكواكب السيارة مثل ( الثلاثاء ) من مارس أي المريخ الخ .

١٨ يان السنة عند الفرس والصريين والشهور مثل توت وباه الخ ، والسنة عند الصينيين والعرب واليهود وقدماء الرومان ، والكلام على الشهور عند الفرنجة ، ويان أن الأصل في هذا كله سير القمر الذي اضطروا الرومانيين إلى الرجوع إلى (١٢) شهرا كبقية الأمم ، والذي تفتن لهذا (بوليوس قيصر) الذي سمي باسمه الشهر العلوم ، وهذا سرّ قوله تعالى « وقدّرهُ منازل لتعلموا الخ » .

١٩ السنة الشمسية الكبيسة والبسيطة وشرح قاعدتها والتثليل بسنة ١٩٢٤ وهي سنة تفسير هذا المجلد وحسابها بالدقة ، والكلام على تعديل (جرمجار ليلوس) الطلياني وكيف قبلت الأمم هذا التعديل إلا ثلاث أمم .

٢٠ يان أدوار السنين الكبيسة والبسيطة في الحساب العربي وهي ٢١٠ سنة من ضرب ٧ في ٣٠ سنة ؛ أي أن الدور الكبير سبعة أدوار صغيرة .

٢١ بهجة العلم في هذه الآيات ، تقدير للنازل جعل الناس آمنين على أمرين : حساب الدرجات الأرضية ،

- وحساب للوزن والكيل والمساحة ، فالأول جاء من فكرة كروية الأرض التي أول من فكر فيها ( أراتوستانس ) سنة ٢٧٦ ق م إذ قاس ما بين مدينة أسوان والإسكندرية وبهذا عرف كروية الأرض وأن للسافة بين أسوان واسكندرية جزء من خمسين من محيط الكرة الأرضية ، ذلك بسبب العمود الذي نصبه عند الإسكندرية وقاس ظله الخ .
- ٢٢ فصل في السلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر في الأفلاك ومسألة الدوران ، وهل الشمس هي المارة أم هي الأرض ؟ من كتابي [ جواهر العلوم ] .
- ٢٣ فيثاغورس كان يعلم تلاميذه في مدرسة ( كروتونيا ) بإيطاليا على طريقة حركة الأرض حول الشمس سنة ٥٠٠ ق م ، وأن الأرض والسيارات كلها تجرى حولها وأن الطبقات سبع وهي الأقدار الستة ثم السابعة التي لأراها الخ ، فهذه سبع سموات الخ .
- وجاء بطليموس سنة ١٤٠ ق م فعكس الوضع وحكم بدوران الشمس وظهر ذلك على يد الفارابي وابن سينا حوالي القرن الرابع الهجري إذ يقولون إن الأرض ساكنة والشمس دائرة هي والكواكب حولها وهناك حركتان إحداهما قسرية والأخرى اختيارية لنفس الكواكب الخ ، فهذا المذهب كان ضد العقيدة الإسلامية ، وفيه أخذ ورد .
- ٢٤ ظهر ( كوبرنيكوس ) بيلاد لهستان من سنة ٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ ميلادية وهي سنة ٩٣٧ هجرية ورجع إلى رأى فيثاغورث وقد سبقه في ذلك عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد للتوفي سنة ٧٥٦ هجرية وشارحه السيد الشريف للتوفي سنة ٨١٦ هجرية ، فهما قالا بدوران الأرض لا الشمس وقد سبقا ( كوبرنيكوس ) بأكثر من قرن .
- ٢٥ بيان الأدلة العلمية على دوران الأرض من مسألة وضع الزيت في الكؤول ومن ذبذبة البندول ومن تغير ظل الأرض ومن أن الجسم الأكبر لا يدور حول الأصغر ومن للشابهة للكواكب في دورانها حول نفسها .
- ٢٦ إن علماء الإسلام قد كرهوا للذهب القديم لأن فيه النحاس والصد وفيه أنه لا خرق ولا التام في القللك وأن الأفلاك لها نفوس وأن بعد الهواء كرة النار ، وكل ذلك باطل عند المسلمين ، إذن للذهب الجديد هو الموافق للإسلام ، الشمس وشفاء الأمراض .
- ٢٧ الاستشفاء بنور الشمس ، الحمام الشمسي وذلك بتعرض الجسم للشمس بلا حائل بالتدريج بحيث يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه خمس دقائق وفي اليوم الثاني عن أطرافه العليا والسفلى خمس دقائق وفي الثالث يرفع عن البطن الخ ، وهكذا إلى السابع ، فيعرض الجسم كله ساعة فذلك قوة لجميع الجسم ظاهرا وباطنا ، ويان أن هذا الأمر محتم في أوروبا لتقوية الأطفال .
- ٢٨ صورة أوجه القمر ( شكل ٢ ) .
- ٢٩ للقيام الثاني ، وهو يان أن للمساحة والوزن واللكيال في بلادنا للصربية تابعات لسير الشمس ، وأن الرطل والآفة والوقية والدرهم والقنطار والكيكة واللوة والإردب والقصبه والفندان والقدراع النيلي والقدراع البلدي والهندسة كل هذه مبنية على سير الشمس ، ذلك لأن محيط الهرم الأكبر جزء من مليار من محيط مدار الشمس السنوي ، ويان ارتفاعه وضعف الارتفاع وضعف الارتفاع ونسبة القدراع البلدي إليه وأن

الدرهم منسوب لربع الذراع البلدي للكعب ، والاردب ذراع بلدي مكعب ، والقدان (١٠٠) هنداسة في (١٠٠) هنداسة الخ .

٣٠ والذراع النبلي ٥ من ٦ من الهنداسة ، هذا فعل قدماء المصريين ، وهو نفسه قول الله « لتعلموا عدد السنين والحساب » والكلام على لئتر وهو مقياس الفرنسيين وأنه منسوب لمحيط الكرة الأرضية وعلى الباردة عند الإنجليز وهي منسوبة للساق المعدني الذي هو رقاص الساعة المذبذب بالجذب العام .

٣١ من العار على المسلم أن يموت وهو لا يعلم أن الكعبة والذراع البلدي الخ لها اتصال بدوران الشمس . تذكرة للأمم المصرية وللأمم الإسلامية وفيها صورة للذكرة المرسله لمجلس الشيوخ والنواب والوزراء في إصلاح التعليم الثانوي ، وأن الابتدائي ليس كافيا لاتخاذ العقول والعالي للاختصاص والثانوي هو الذي يصقل العقول ويقرّبها وهو في زمن الاحتلال ضعيف لقلة العلوم الطبيعية والفلكية ، فالطالب يجهل ما فوقه وما تحته وإذن لا بد من رجوع هذه العلوم التي كانت قبل ٣٥ سنة في بلادنا .

٣٣ جوهره سنية في أن جمال الكواكب قبة من عوالم الجنات عجبت في هذه الدنيا والجمال على قسمين جمال يثير الشهوات وهذا عذاب معجل في الدنيا كجمال بستان تملكه يخالطه تكاليف الحياة ومهمومها وجمال بستان عام فلا حسد فيه ولا تكاليف ، ومن هذه البساتين للعدة للجمهور في كل أمة لراحة الناس من مشاق الحياة وهذا للجهلاء ، وهناك بساتين للحكماء هي النجوم الجميلة التي تظهر ليلا .

٣٤ الكواكب جنات عجبت للعكبرين ولكن أكثر الناس عنها محبون ، ويبان أن العامة إذا فرحوا بالزهر فالخاصة بالنجوم بدل الأزهار ، ويبان أن من الكواكب ما لا يصل ضوؤه إلينا إلا بعد ألف سنة وستين ألف سنة وقد يكون الكوكب أضوا من الشمس ثمانية آلاف مرة بل أكثر من ذلك .

٣٥ ذكر رياض الجنات التي أعدها الله في هذه الدنيا للعارفين .

طريق التبانة ، وهي الهجرة وعدد كواكبها ٢٤٢ ألف ألف شمس ، ورسم صورتها (شكل ٣) وهذه الرياض [ثلاثة أقسام] فتوان يمكن تحليلها ، وفتوان يحلل بعضها ، وفتوان لا تحلل .

٣٦ المجموعات الكوكبية ، اسم بعض المجموعات الكوكبية التي في الجنوب (شكل ٤) .

٣٧ وأشهرها فتونوكان (شكل ٥) . القسم الثاني : السدام التي يمكن تحليل بعضها مثل :

٣٨ (شكل ٦) وفيه ست مجموعات في الجوزاء وفي الدلو وهكذا ، وشكل ٧ يقرب من التسقيم الخ .

٣٩ السدام الذي لا يحلل مثل (شكل ٩) ومثل (شكل ١٠) سديم للرأفة للسلسلة وسديم الأسد .

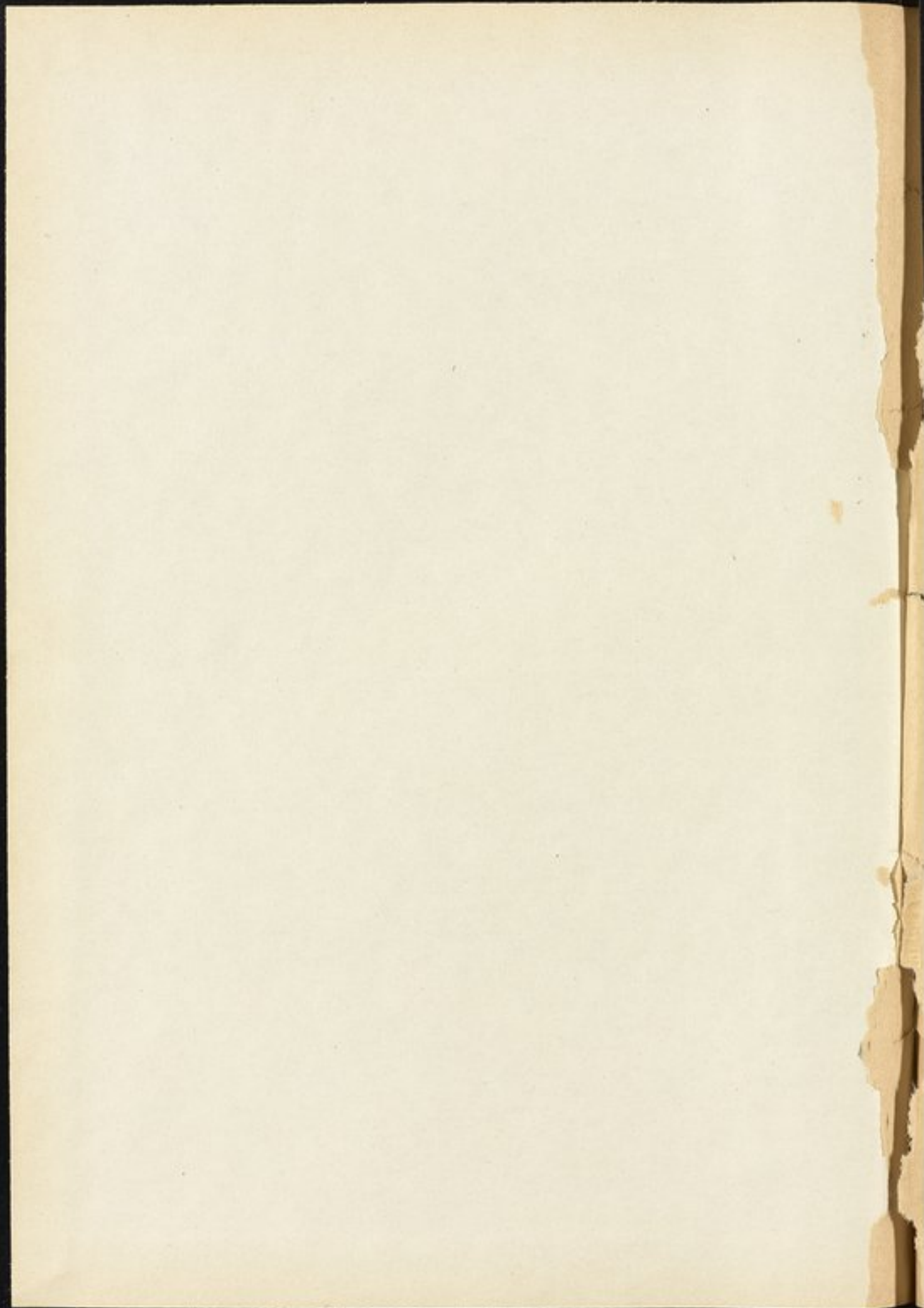
٤٠ بيان أنهم كشفوا نحو (ألفي ألف) سديم وبعدها عنا (١٤٠) مليون سنة وفي كل سديم منها مادة تكفي لتكوين مليون شمس مثل شمسنا ، وهذا قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم الخ »

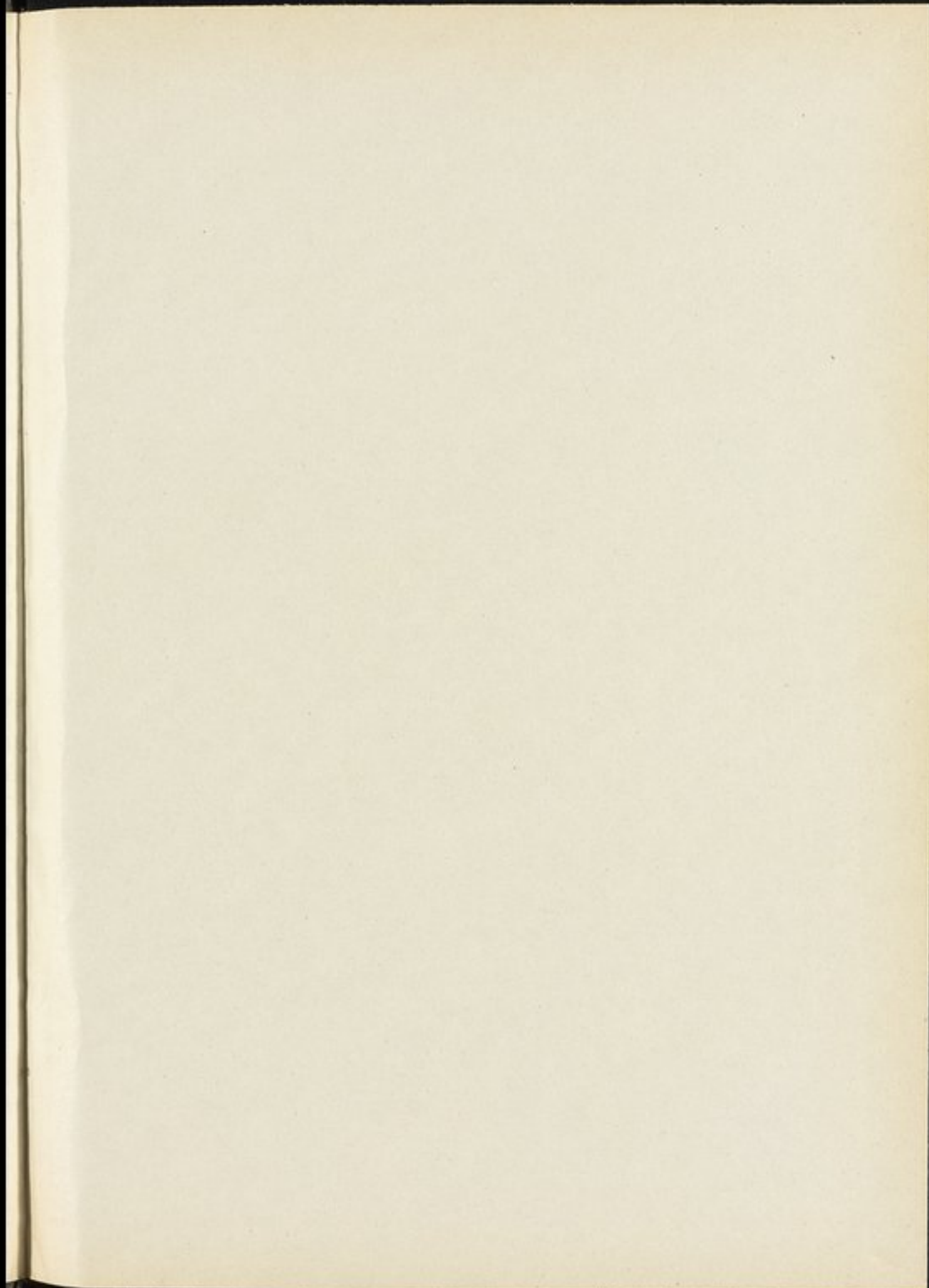
جوهرة في إشراق نور العلم في القلوب بإشراق نور الكواكب

٤١ صفة الهجرة هي كعبة عدس قطرها (٥٠) ألف سنة نورية ، وهناك عالمان آخران يمدان نحو ٢٠٠

- ألف سنة نورية، والسلام على سديم المرأة للسلسلة للتقدم وأنه يعد عنا مليون سنة نورية وفطره ٥٠ ألف سنة نورية وفيه ألوف لللايين من النجوم وهي شمس أضوأ من شمسنا أضعافا مضاعفة ، هذا معنى قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » .
- ٤٢ بيان أن هذا معنى « إن الدين لا يرجون لقاءنا الخ » وذكر أن المسلمين في حياة المؤلف وبعد موته سيهرعون إلى بناء الراصد الفلسكية، وأنهم كانوا أول المعلمين لأوروبا كما قال (سديو) ثم جهلوا غرابت بلادهم، وها هو ذا أوان مجدم ورقيم .
- ٤٣ (شكل ٨) وهو السدام الخلقى .
- ٤٣ فصل في قوله تعالى « إن في اختلاف الليل والنهار - الخ الآية » وفيه لطائف :
- [اللطيفة الأولى] النبات المفترس في أمريكا الشمالية .
- [اللطيفة الثانية] النبات اللسانى الذى زهرته الأنثى فوق الماء، أما زهرة الذكر فإنها قريبة من قاع النهر فعند الإلقاح تنفضل وتذهب مقطوعة حتى تصل إلى الأنثى .
- [اللطيفة الثالثة] شجرة تفترس إنسانا .
- [اللطيفة الرابعة] اختلاف الخلوقات باختلاف الفسول كتلائؤ الزرع وكفضج الأثمار في الصيف وصرم الثمار في الخريف وفي الربيع وتساقط ورق الشجر في الشتاء .
- ٤٥ بيان قوله تعالى « إن الدين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا » ومناسبة هذه لما قبلها ، وأن الأعمال موزعة على الأشخاص بالاستعداد ، وأن عشاق هذا الجمال في العالم مستعدون له بعد الموت ، والدين لا يقبلون إلا لللاذ البهيمية يكونون أدنى .
- ٤٦ قسمت الآية الناس [قسمين] : من لا يرجون لقاء الله ، ومن يرجو ، وهؤلاء لهم ثلاث درجات يصفون الله بصفات التنزيه، ويعبى بعضهم بعضا وتعجبهم للملائكة وتشهد لذلك روح (غاليلو) الفلكى الشهير إذ قالت إن أرواح محبي العالم تتفرج على الكواكب كما تنفرج نحن على الزهر .
- ٤٧ مناسبة هذه السورة لما قبلها وهكذا مناسبات آخر الفاتحة لأول البقرة وآخر البقرة لأول آل عمران وهكذا إلى آخر التوبة وأول يونس .
- ٤٨ بيان الفارق بين توكل نبينا صلى الله عليه وسلم ، وتوكل هود ، وأن الأول توكل على ذى العرش العظيم إذن هو مستعد مع أمته لحفظ كيان الأمم ذوات العروش ، والثانى توكل على من بيده نواصى كل دابة يطلب حفظ نفسه وقومه ، وكل منهما نال ما طلب فليدبر المسلمون الأمر فليتعلموا أولا تعالما عاتما ، ثم بسوسوا العالم مع الأمم، هذا هو اللائق بهم ولن يكون ذلك طفرة كالجنين .
- ٤٩ العقائد لقاصد؛ فالملائكة لإصلاح الأخلاق ، والسبح لإصلاح العمل .
- [القسم الثانى] من قوله تعالى « ولو يجعل الله للناس » إلى قوله « فينبشكم بما كنتم تعملون » .
- ٥٠ التفسير اللفظى للقسم الثانى .
- ٥١ تفسير قوله تعالى « وما كان الناس إلا أئمة واحدة فاختلقوا » كاختلاف الأشجار في البستان ، وهذا الخلاف سبب الجمال .
- ٥٢ تفسير قوله تعالى « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا » إلى قوله « فننبشكم بما كنتم تعملون » .









Princeton University Library



32101 079196208